تلبيس إبليس

تأليف

العلامة أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي

علق على بعض مواضع منه تعليقات عقدية نفيسة

فضيلة الشيخ العلامة

زيد بن محمد بن هادي المدخلي

دار المنهاج

تلبيس إبليس

تأليف

العلامة أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي

علّق على بعض مواضع منه تعليقات عقدية نفيسة

فضيلة الشيخ العلامة

زيد بن محمد بن هادي المدخلي

دار المنهاج

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى: ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

الطبعة الثانية: ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

طبعة جديدة مصححة ومنقحة

رقم الإيداع
٢٠٠٥/٢٤١٤١

٨١ شارع الهدي المحمدي - من أحمد عرابي - مساكن عين شمس
القاهرة - جمهورية مصر العربية
جوال: ٠٠٢/٠١٢٨٨٨٨٤٠٨١ - ٠٠٢/٠١٢٨٨٨٨٤٠٧٨ - ٠٠٢/٠١٢٨٨٨٨٤١١٣
E-mail:daralmenhaj@hotmail.com
daralminhaj@yahoo.com

مقدمة الناشر للطبعة الثانية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّ الحَمْدَ للهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ أَصْدَقَ الحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَمَّا بَعْدُ:

فَقَدْ قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾﴾ [البقرة:١٦٨].

وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ۝٥ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦ ﴾ [فاطر:٥، ٦].

وَقَالَ جَلَّ جلالُهُ: ﴿ ۞ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝٦٠ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ۝٦١ ﴾ [يس:٦٠، ٦١].

فَفِي هَذِهِ الآيات الكَرِيمَة بيَّن ربُّنا- جَلَّ في عُلاه- عَداوةَ إبْليس لآدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وذُرِّيَّته، وَحَذَّرهم مِنْهُ، وأَعْلَمهُمْ أنَّ الشَّيْطانَ مُظْهِرٌ لعَداوتِهِ الشَّديدَة لهُمْ.

ولذَا أمرهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بمُعَاداتِهِ أشدَّ العَداوة، ومُخَالفتِهِ أشدَّ المُخَالفة، وتكْذيبِهِ فيمَا يُغرِّرهم بِهِ.

وهَذِهِ العَداوةُ القَديمَةُ نَشَأتْ مُنْذُ أَنْ خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بيده، ونَفَخ فِيهِ من رُوحه، وأسْجَدَ له ملائكته؛ قَالَ اللهُ جَلَّ جلالُهُ: ﴿ إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٧٢ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ۝٧٣ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧٤ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ۝٧٥ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ۝٧٦ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ۝٧٧ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٧٨ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ۝٧٩ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ۝٨٠ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ۝٨١ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ۝٨٣ قَالَ فَٱلۡحَقُّ وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ ۝٨٤ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٨٥ ﴾ [ص:٧١-٨٥].

فَإبْليسُ اللَّعينُ (الشَّيْطانُ الرَّجيمُ) هُوَ العدوُّ اللَّدُودُ للإنْسَانِ، ويَسْلك فِي سَبيل هَذِهِ العَداوةِ قُصارىٰ جَهْدِهِ، ويَتَّبع فِيهَا طُرُقًا شتَّىٰ، ولَهُ في ذَلكَ خُطُواتٌ وتَلْبيساتٌ قَلَّ مَنْ يَتنبه

لَهَا، إذْ تَحْتَاج إِلَىٰ عِلْمٍ، وَبَصيرةٍ، ومُجَاهَدةٍ، وَصَبْرٍ فِي الصَّوْلَات مَعَه، والجَوْلات، وأَخْذِ للعُدَّة في الدِّفَاع والمُقَاومة؛ لأنَّ اتِّبَاعَ إبْليسَ مَعْناه الخُسْرانُ المُبينُ، وذَلكَ بمُقارنتِهِ -وَالعِيَاذُ باللهِ- فِي العَذَاب الأَليمِ؛ وهَذَا أَقْصَىٰ ما يَسْعىٰ إلَيْه، ويَجْهد نَفْسَه فِيهِ ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم:٢٢].

وبرغْم مَا لهَذَا العَدوِّ اللَّدُود مِنَ المَكَائد الخَطيرَة، والأَسَاليبِ الكَثيرَة لإِضْلَال الإِنْسَان إلَّا أنَّ كَيْدَه ضَعيفٌ، قَالَ جَلَّ وَعَلا: ﴿فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ [النساء:٧٦].

فكَيْدُ الشَّيْطانِ ضَعيفٌ أَمَام مَنْ آمَنَ باللهِ وَأَطَاعَه، وَاتَّبع صِرَاطَه المُسْتقيمَ ولَزِمَهُ، وَسَارَع إلىٰ التَّوبة وَالاسْتِغْفَار بَعْدَ كُلِّ زَلَّةٍ وَخَطيئةٍ؛ قَالَ اللهُ تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف:٢٠١]، وقال رَسُولُنا ﷺ: «**إنَّ الشَّيْطانَ قَالَ: وعِزَّتكَ وجَلالكَ، لا أَبْرح أَغْوي عِبَادَك مَا دَامَتْ أَرْواحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ، فَقَالَ الرَّبُّ جلَّ جَلَالُهُ: وعزَّتِي وجَلَالي، لا أَزَال أَغْفر لهُمْ مَا اسْتَغْفَرُوني**»(١).

وقَدْ أَرْشَدنا اللهُ ﷻ إلىٰ مَا يَعْصمنا مِنْ مَكَائد الشَّيْطَان ووَسَاوسِهِ، ومِنْ أَهمِّ ذَلكَ: تَوْحيدُ اللهِ، وَالتَّوكُّل عَلَيه، وَالانْقطَاع إلَيْه، وإِخْلَاص كُلِّ العِبَادَات لَهُ؛ قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلا:

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٧/ ٣٣٧) (١١٢٣٧)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٢٩٠) (٧٦٧٢)، من حديث أبي سَعيد الخُدْريِّ ﷺ، وصَحَّحه الألبانيُّ في «الصَّحيحة» (١٠٤).

﴿ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [النحل:٩٩].

وَقَالَ -جَلَّ وَعَلا- مُخَاطِبًا هَذَا العَدوَّ اللَّعين: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الحجر:٤٢].

وَأَخْبَر عَزَّوَجَلَّ عَنْ تَحدِّي إبليسَ الرَّجيم للبَشَر أجْمَعين: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [ص:٨٢، ٨٣].

وَعِبَادُ الله المُخْلصون: هُمُ الَّذينَ أَخْلَصوا دِينَهُمْ وعِبَادَتهمْ لله وَحْده لَا شَريكَ لَهُ.

هَذَا، وقَدْ سَطر العُلَماءُ مُصنَّفاتٍ قَيِّمةً في عَدَاوة الشَّيْطان للإنْسَانِ، وتَبْيين خُطُواتِهِ، وتَلْبيساتِهِ، وطُرُق الوِقَايَة مِنْهَا، ومِنْ هَؤُلَاء: الإمَامُ ابْن الجَوزيِّ رَحِمَهُ اللهُ، الَّذي خَطَّ بيَرَاعه مُصنَّفه الرَّائع والمَاتِع «تَلْبيس إِبْليسَ»، الَّذي سَارَتْ بِهِ الرُّكْبَان، وتَدَاوله النَّاسُ عَلَىٰ كَرِّ الدُّهُور، ومَرِّ الأَعْوَام، وَانْتفَعَ بِهِ طَلَبَةُ العِلْمِ والعَوامُّ.

وقَدْ عَمِلْنَا فِي «دَار المِنْهَاج» عَلَىٰ إخْراجِهِ مُحقَّقًا، مَزِيدًا بتَعْليقاتٍ عَقديَّةٍ نَفيسَةٍ عَلَىٰ مَوَاضعَ مُوهمةٍ ومُشكلةٍ في الكتاب، لفَضيلَةِ الشَّيْخ العَلَّامة زَيْد بْن هَادي المَدْخَلِي رَحِمَهُ اللهُ، كنا قد تواصلنا مع فضيلته بشأنها، فأفاد بها رَحِمَهُ اللهُ، وأثبتناها في الحواشي متبوعة باسمه رَحِمَهُ اللهُ، وكان تحقيقنا لهذا الكتاب وَفْق الخُطُواتِ العِلْميَّة المَنْهجيَّة التَّالية:

١- مُرَاجَعةُ الكِتَابِ مُراجَعةً لُغويَّةً دَقيقَةً.

٢- إثْبَاتُ الآيَاتِ القُرْآنيَّة بالرَّسْم العُثْمَانيِّ، وعَزْوها إلَىٰ مَوَاضِعها في المُصْحفِ الشَّريفِ.

٣- تَخْريج الأَحَاديث بمَنْهجٍ مُوحَّدٍ، وقَد اكْتفَينا بتَخْريج الحَدِيثِ إنْ كَانَ فِي «الصَّحيحَيْن»، أَوْ في أَحَدهما بذِكْرِ رَقمه فَقَطْ، وإنْ كَانَ في غَيْرهما ذَكَرنا رَقَمه، أَوْ رَقَمْ

الجُزْء والصَّفْحة في كُتُب السُّنَّة، ثمَّ أَوْرَدنا -في الغَالِبِ- عَلَيه حُكْمَ الشَّيخ الألباني رَحِمَهُ الله.

٤- وَضْع عُنْواناتٍ للفُصُول الَّتي لَمْ يُعَنْوِنْ لَهَا الإمامُ ابْنُ الجوزيِّ رَحِمَهُ الله.

٥- عَمَلُ تَرْجَمةٍ للمُصنِّف الإمَامِ ابْنِ الجَوزيِّ رَحِمَهُ الله.

واللهُ مِنْ وَرَاء القَصْد، وهُوَ المُوفِّق وَالهَادي إِلَىٰ سَوَاء السَّبيل.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين

قسم التحقيق والبحث العلمي
بـ "دار المنهاج"

ترجمة الإمام ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ

❁ اسمه ونسبه:

هُوَ الشَّيْخُ الإمَامُ العَلَّامةُ، الحَافظُ المُفسِّر، شَيْخ الإسْلَام، مَفْخر العراق، جَمَال الدِّين، أَبو الفَرَج عَبْد الرَّحْمَن بْن عَليِّ بْن مُحمَّد بن عليِّ بْن عُبَيد الله بْن عَبْد الله بْن حَمَّادي بْن أَحْمَد بن مُحمَّد بن جَعْفر بْن عَبْد الله بْن القَاسم بْن النَّضْر بْن القَاسم بْن مُحمَّد بْن عَبْد الله ابْن الفَقِيهِ عَبْد الرَّحمن ابْنِ الفَقِيهِ القَاسم بْن مُحمَّد بْن خَليفَة رسول الله ﷺ أَبي بَكْرٍ الصِّدِّيق، القرشيُّ التَّيميُّ البكريُّ البَغْداديُّ، الحَنْبليُّ، الوَاعظُ، صَاحبُ التَّصَانيف.

❁ مولده:

وُلِدَ سَنةَ تِسْعٍ أَوْ عَشْرٍ وخَمْس مِئَةٍ.

❁ لقبه:

لُقِّب بابْن الجَوْزيِّ لِشَجَرة جَوْزٍ كَانت في دَارِه بـ«وَاسِطٍ»، ولـم تَكُن بالبلدةِ شَجَرة جَوْز سِوَاها، وقيل: نِسبة إلىٰ «فَرْضَة الجَوْز»، وهي مَرْفَأ نَهر البَصْرة.

❁ نشأته:

تُوفِّي أَبُوه وهُوَ صَغيرُ السِّنِّ، وَكَانَ مُوسرًا، خَلَّف أَمْوالًا طَائلةً، ولَكنَّهمْ أَجْحَفوا عَلَيه، وهَضَموه حَقَّه مِنْ إِرْثِ أَبِيه، فلَمْ يُعْطوه سوَىٰ دَارَين وعِشْرِينَ دِينَارًا، فَمَا كَانَ منه إلَّا أن اشْتَرىٰ بذَلكَ كُتُبًا.

رَعَتْه عَمَّتُهُ حتَّىٰ أَدْرك، فأَخَذتْهُ إلَىٰ مَسْجد أَبي الفَضْل مُحمَّد بْن نَاصِرِ الحَافظ، وهُوَ خالُهُ، وَكَانَ حَافظًا ضَابطًا مُتْقنًا من أَهْل السُّنَّة، فَاعْتَنَىٰ بِهِ، وأَسْمَعه الحَدِيثَ، وحَفَّظَه القُرْآنَ.

۞ شيوخه:

أَمَّا شُيُوخ ابْن الجَوزيِّ فكَثيرُونَ، ذُكِرَ مِنْهم سَبْعةٌ وثَمَانُونَ شَيخًا، ومِنْ أَهَمِّ شُيُوخِهِ:

١- خَالُهُ أَبو الفَضْل مُحمَّد بن نَاصر، الحَافظ الثِّقة.

٢- أَبو القَاسم الهَرويُّ.

٣- أَبو الحَسَن، ابن الزاغوني.

٤- أَبو بَكْرٍ الدِّينوري.

٥- ابْن أَبي الدُّنْيا.

٦- القَاضي أَبو بَكْرٍ الأَنْصَاري.

٧- أَبو مَنْصور الجَوَاليقي.

۞ تلاميذه:

وَلَدُهُ الصَّاحب العَلَّامَة مُحْيي الدِّين يُوسُف أُسْتاذ دَار المُسْتَعصم بالله، ووَلَده الكَبير عليٌّ النَّاسخ، وسِبْطُهُ الوَاعظُ شَمْس الدِّين يُوسُف بْن قزغلي الحنفي صَاحب «مرآة الزَّمَان»، وَالحَافظ عَبْد الغني، والشَّيْخ مُوفَّق الدِّين ابْن قُدَامة، وَابْن الدبيثي، وَابْن النَّجَّار، وَابْن خَليل، والضِّيَاء، واليلداني، والنَّجيب الحَرَّانِي، وَابْن عَبْد الدَّائم، وخَلْقٌ سِوَاهُمْ.

وبِالإجَازَة الشَّيخ شَمْس الدِّين عَبْد الرَّحمن، وَابْن البُخَاريِّ، وأَحْمد ابْن أَبي الخَيْر، والخَضر بْن حمويه، والقُطْب بْن عصرون.

❁ علمه، وفضله، وثناء العلماء عليه:

تَحدَّث عَنْه عُلَماؤنا الأفْذَاذُ بكَثِيرٍ مِنَ الإعْجَاب والاعْتِرَاف لَهُ بالفَضْل والتَّقْدير:

○ قَالَ أَبو عَبْد الله الدبيثي رَحِمَهُ اللهُ في «تَاريخِهِ»: «شَيْخنا جَمَال الدِّين صَاحِب التَّصَانيف في فُنُون العُلُوم من التَّفْسير، والفِقْهِ، وَالحَدِيثِ، والتَّوَاريخ، وغَيْر ذَلكَ».

○ وَقَالَ عَنْه الحَافظُ الذَّهبيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «... ثمَّ لمَّا تَرَعْرعَ حَملتْهُ عَمَّتُهُ إلىٰ ابْن نَاصِرٍ، فأَسْمَعه الكثيرَ، وأَحبَّ الوَعْظ وهُوَ مُرَاهقٌ، فَوَعظ النَّاسَ وهُوَ صبيٌّ، ثمَّ مَا زَالَ نَافقَ السَّوق، مُعظَّمًا مُتَغاليًا فيه، مَضروبًا برَوْنق وَعْظِهِ المَثَل، كَمَا لَهُ في ازْديَاد اشْتِهَارٍ إلَىٰ أَنْ مَاتَ، رَحمَهُ اللهُ وَسَامحه، فَلَيْته لَمْ يَخُضْ في التَّأْويل، وَلَا خَالَفَ إِمَامَه.

○ وَقَالَ: «وكَانَ ذَا حَظٍّ عَظِيمٍ، وَصِيتٍ بَعِيدٍ في الوَعْظ، يَحْضر مَجَالسهُ المُلُوكُ، والوُزَراءُ، وبَعْضُ الخُلَفاء والأَئمَّة الكُبَراء».

○ وَقَالَ ابْن خَلِّكان رَحِمَهُ اللهُ: «كَانَ عَلَّامة عَصْره، وإِمَامَ وَقْته في الحَدِيثِ وصِنَاعَة الوَعْظ، صَنَّفَ في فُنُونٍ كَثيرَةٍ».

○ وَقَالَ عَنه الإمامُ ابْن كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «أَحدُ أَفْرَاد العُلَماء، بَرزَ في عُلُومٍ كَثيرَةٍ، وَانْفرَد بِهَا عَنْ غَيْره، وجَمَع المُصنَّفات الكِبَارَ والصِّغارَ نَحْوًا من ثَلَاث مِئَةِ مُصنَّفٍ، وكَتَب نَحْوًا من مِئتَيْ مُجلَّدٍ».

❁ آثاره وتصانيفه:

لَهُ من المُصَنَّفات ما يَضيقُ هَذَا المَكَان عَنْ تَعْدادها وحَصْر أَفْرَادها، إلَّا أنَّه قَدْ أُخِذَ عَلَيه كَثْرة الأَوْهَام والخَطَإِ في تَوَاليفِهِ؛ كَمَا حَكَىٰ ذَلكَ الذَّهبيُّ وغيرُهُ.

ومِنْ هَذِهِ التَّصَانيف: كتابُهُ في التَّفْسير المَشْهور بـ «زَاد المسير».

ولَهُ تَفْسيرٌ أَبْسَط منه، لَكنَّه ليسَ بمَشْهورٍ.

ولَهُ «جَامعُ المَسَانيد».

وَلَهُ كِتَابُ «المُنْتظم في تَوَاريخ الأُمَم من العَرَب والعَجَم» في عِشْرِينَ مُجلَّدًا.

- نُزْهة العُيُون النَّواظر في الوُجُوه والنَّظائر.
- مِنْهَاج الوُصُول إلىٰ عِلْمِ الأُصُول.
- بَيَان غَفْلة القَائل بِقِدَمِ أفعال العِبَاد.
- المَوْضُوعات.
- العِلَل المُتَناهية في الأَحَاديثِ الوَاهِية.
- الضُّعَفَاء والمَتْروكين.
- صَيْد الخَاطِر.
- المُدْهِش.
- ذَمُّ الهَوَىٰ.
- كَنْز المُذكر.
- اللَّطائف.
- اليَوَاقِيت في الخُطب.
- تَلْبِيس إِبْلِيس، وهو الكتاب الَّذي بين أيدينا.

وغَيْرها كثيرٌ.

❁ مُعتقد ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ:

أَخَذ بَعْضُ العُلَماء عَلَىٰ ابْنِ الجوزيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ كَلامًا غَيْر سَدِيدٍ في كتابِهِ «صَيْد الخَاطر»، وكتابه المُسمَّىٰ «دَفْع شُبَه التَّشْبيه» ممَّا اعْتَبروه مُوَافقةً لِمَذْهب الأَشَاعرة!

قَالَ ابْن تَيْمية -طَيَّبَ اللهُ ثَرَاهُ- في «شَرْح العَقيدَة الأَصْفهانيَّة»: «ومَا في كُتُب الأَشْعريِّ ممَّا يُوجَد مُخَالفًا للإِمَامِ أَحْمَد وغَيْره من الأئمَّة، فيُوجَد فِي كَلَام كَثِيرٍ مِنَ المُنْتسبينَ إِلَىٰ أَحْمد؛ كأَبي الوَفَاء بن عَقِيلٍ، وأَبي الفَرَج ابْن الجَوْزيِّ، وصَدَقة بْن الحُسَين، وأَمْثَالهم مَا هُوَ أَبْعَد عَنْ قَوْل أَحْمَد والأَئمَّة مِنْ قَوْل الأَشْعريِّ، وأئمَّة أَصْحَابِهِ».

ثُمَّ بَيَّن رَحِمَهُ اللهُ أَنَّ ابْنَ الجوزيِّ مَعَ مُخَالفتِهِ لمُعْتقد أَهْل السُّنَّة والجَمَاعة إلَّا أَنَّه أَفْضَل حَالًا من مُتَأَخِّري الأَشَاعرة الَّذينَ غَالَوْا فِي البِدْعَة، وخَرَجوا عَنْ قَوْل الأَشْعريِّ نَفْسه، فَقَالَ رَحِمَهُ اللهُ: «ومَنْ هُوَ أَقْرَب إِلَىٰ أَحْمد والأَئمَّة من مِثْلِ ابْن عَقِيلٍ، وَابْن الجَوزيِّ، ونَحْوهما، أَقْرَب إِلَىٰ السُّنَّة من كَثِيرٍ مِنْ أَصْحَاب الأَشْعريِّ المُتَأَخِّرينَ الَّذينَ خَرَجوا عَنْ كَثِيرٍ من قَوْله إِلىٰ قَوْل المُعْتزلة، أو الجَهميَّة، أو الفَلَاسفة». انْتَهَىٰ.

هَذَا، وقَدْ عَاشَ ابْنُ الجوزيِّ رَحِمَهُ اللهُ ومِنْ قَبْله شَيْخُهُ أَبو الوَفَاء عليُّ بْن عقيلٍ رَحِمَهُ اللهُ تَناقضًا بَيْن انْتمَائِهِ السَّلفيِّ لمَدْرسة الحَنَابلة الأَثريَّة الرَّافضة لعِلْمِ الكَلَام والبِدَعِ، وبَيْن قوَّة التَّيَّار الكَلاميِّ الَّذي بَلَغ ذُرْوته وأَوْج نَشَاطه في القَرْنين الخَامس والسَّادس، ومِنْ ثَمَّ جاءَتْ أَقْوالُهُما مُضْطربةً مُتَناقضةً.

قَالَ الحَافظُ ابْنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللهُ في تَعْليل ما لَقِيَه أَبو الوَفَاء من أَصْحابِهِ الحَنَابلة: «والأَذيَّة الَّتي ذَكَرها من أَصْحابِهِ له، وطَلَبهم منه هِجْرَان جَمَاعةٍ من العُلَماء، نَذْكر بَعْض شَرْحها: وذَلكَ أَنَّ أَصْحابَنا كَانوا يَنْقمُونَ عَلَىٰ ابْن عَقِيلٍ تَردُّده إِلَىٰ ابْن الوَلِيدِ، وَابْن التبَّان شَيْخي المُعْتزلة، وكَانَ يَقْرأ عَلَيهما في السِّرِّ عِلْمَ الكَلَام، ويَظْهر مِنْه في بَعْض الأَحْيَان نَوْعُ انْحرَافٍ عن السُّنَّة، وتَأَوُّلٍ لبَعْض الصِّفَات، ولَمْ يَزلْ فِيهِ بَعْض ذَلكَ إِلَىٰ أَنْ مَاتَ رَحِمَهُ اللهُ».

وقَدْ تَأَثَّر ابْنُ الجوزيِّ بشَيْخه تَأَثُّرًا بالغًا، فَحَاد عَنْ طَرِيق سَلَفه من أَئمَّة المَذْهب، وَقَالَ بقَوْل أَهْل التَّأْويل، لَا سيَّما في كتابِهِ: «دَفْع شُبَه التَّشْبيه بأَكُفِّ التَّنزيه»، الَّذي صَنَّفه في الرَّدِّ عَلَىٰ بَعْض مَشَايخ المَذْهب، كَابْن حَامِدٍ، وَالقَاضي أَبي يَعْلَىٰ، وشَيْخه ابْن الزَّاغونِي، ولَيْسَ

فِي الرَّدِّ عَلَىٰ الحَنَابلة كَمَا زَعَم بَعْضُهُمْ.

قَالَ الإمامُ ابْنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللهُ فِي ذِكْرِ كَلام النَّاس فِيهِ: «... ومِنْهَا -وهُوَ الَّذي من أَجْله نَقَمَ جَمَاعةٌ من مَشَايخ أَصْحَابنا وأَئمَّتهم من المَقَادسة والعلثيين- مِنْ مَيْله إِلَىٰ التَّأويل فِي بَعْض كَلَامِهِ، وَاشتدَّ نُكْرهُمْ عَلَيه فِي ذَلكَ، وَلَا ريبَ أَنَّ كَلَامه فِي ذَلكَ مُضْطربٌ مُخْتلفٌ، وهُوَ إِنْ كَانَ مُطَّلعًا عَلَىٰ الأَحَادِيثِ والآثَار فِي هَذَا البَاب، فلَمْ يكنْ خَبيرًا بحلِّ شُبْهة المُتَكَلِّمينَ وبَيَان فَسَادها، وكَانَ مُعظِّمًا لأَبِي الوَفَاء بن عَقِيل، يُتَابعه فِي أَكْثَر ما يَجدُ فِي كَلَامه، وإِنْ كَانَ قَدْ ردَّ عَلَيه فِي بَعْض المَسَائل، وكَانَ ابْنُ عَقِيل بَارعًا فِي الكَلَام، ولَمْ يكنْ تَامَّ الخِبْرَة بالحَدِيثِ والآثَار، فلهَذَا يَضْطرب فِي هَذَا البَاب، وتَتلوَّن فِيهِ آرَاؤُهُ، وأَبو الفَرَج تَابعٌ له فِي هَذَا التَّلوُّن». انتهىٰ.

قَالَ الإمامُ المُوفَّق المقدسيُّ ابْن قُدَامَة رَحِمَهُ اللهُ: «... كَانَ حَافظًا للحَدِيثِ، وصَنَّف فِيهِ إِلَّا أَنَّا لَمْ نَرْضَ تَصَانيفَهُ فِي السُّنَّة، وَلَا طَرِيقَته فِيهَا».

وَقَالَ شَيْخُ الإِسْلام ابْنُ تَيْمية رَحِمَهُ اللهُ: «مُتَناقضٌ فِي هَذَا البَاب، لَمْ يَثْبت عَلَىٰ قَدَم النَّفْي، ولَا عَلَىٰ قَدَم الإِثْبَات!».

وَحَقِيقَةُ الأَمْر: أَنَّنا لَا نَسْتَطيع أَنْ نَنسبَ أَبَا الفَرَج ابْن الجَوْزيِّ إِلَىٰ مَذْهب الأَشَاعرة فِي الاعْتقَاد، ذَلكَ لأَنَّه لَا يُوَافِقُهُمْ فِي جَمِيع أُصُولِهِمْ، وإِنَّما يُوَافِقُهُمْ فِي بَعْضها، ومن ذَلكَ تَفْويضُهُ لمَعَانِي صِفَاتِ الله جلَّ وعَلا، حَيْث قَالَ بقَوْل مُتقدِّمي الأَشَاعرة.

وشَيْخُ الإِسْلَام ابْن تَيْمية يُفضِّل أَصْحابَ أَبِي الحَسَن الأَشْعريِّ المُتقدِّمينَ عَلَىٰ ابْن الجَوزيِّ وشَيْخه ابْنِ عَقِيلٍ، ويَرَاهم أَقْربَ إِلَىٰ مَا كَانَ عَلَيه الإِمَام أَحْمَد بْن حَنْبلٍ والأَئمَّة، ولَكنَّه يُفضِّلهما عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنْ مُتَأخِّري الأَشَاعرة الَّذينَ انْتحَلوا نِحْلةَ الجَهميَّة.

وَلِذَا، نَسْتطيعُ أَنْ نَقُول: إِنَّ الإِمَامَ ابْنَ الجَوزيِّ رَحِمَهُ اللهُ كَانَ مِنَ العُلَماء الَّذينَ وَقَعتْ لهُمْ

زِلَّاتٌ مُتنوِّعةٌ عَنْ غَيْر قَصْدٍ، وبِدُونِ مُعَاندةٍ؛ لأنَّه لَمْ يَجِدْ فِي عَصْره مَنْ يُبيِّن لَهُ وَجْه الحَقِّ بدَليلِهِ، ويَردُّه عَلَيه، فَخَرجَتْ بَعْضُ أقْوالِهِ وَفْق مَا دَرَس وتَأثَّر من مَشَايخه بدُون مُرَاجعةٍ، وتَحْرِيرٍ، وتَمْحِيصٍ.

❁ وَهَاكَ بَعْضَ أَقْوَالِ العُلَماءِ المُنْصفِينَ فِي مُعْتقد الإمَامِ ابْنِ الجَوزيِّ رَحِمَهُ اللهُ:

١-قَالَ الإمامُ الذَّهبيُّ كَمَا في «سير أعلام النبلاء»: «عَالِمُ العِرَاقِ، ومُفْتِي الآفَاق».

وَقَالَ: «هَكَذا هُوَ له أوْهامٌ وألْوَانٌ مِنْ تَرْك المُرَاجعَة، وأخْذ العِلْمِ من الصُّحُف».

وَقَالَ في «التَّاريخ الكبير»: «لَا يُوصَف ابْنُ الجَوزيِّ عِنْدَنا بالحِفْظِ باعْتبَار الصَّنْعة، بَلْ باعْتبَار كَثْرة اطِّلاعِهِ وجَمْعه».

٢- وَقَالَ الشَّيخ عَبْدُ الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ اللهُ في «الفَتَاوىٰ السَّعديَّة»: «ابْنُ الجَوزيِّ إمَامٌ فِي الوَعْظ والتَّفْسير والتَّاريخ، وكَذَلك هُوَ أَحَدُ الأَصْحَاب المُصنِّفين فِي فِقْهِ الحَنَابلة، ولَكنَّه رَحِمَهُ اللهُ خَلَط تَخْليطًا عَظيمًا في بَاب الصِّفَات، وَتَبعَ فِي ذَلكَ الجَهميَّة والمُعْتزلة، فَسَلَكَ سَبيلَهُمْ فِي تَحْريف كَثِيرٍ مِنْها، وَخَالَف السَّلَف في حَمْلها عَلَىٰ ظَاهِرِها، وَقَدح فِي المُثْبتِينَ، ونَسَبهم إلَىٰ البَلَاهة، وَهَذَا المَوْضوعُ مِنْ أكْبَر أغْلاطِهِ، ولِذَلكَ أنْكَر عَلَيه أَهْلُ العِلْمِ، وتَبرَّأ منه الحَنَابلة فِي هَذَا البَاب، ونَزَّهوا مَذْهبَ الإمَامِ أحْمَد عَنْ قَوْلِهِ وتَخْبيطه فِيهِ، وَمَعَ ذَلكَ فإنَّ لَهُ فِي المَذْهب كتاب «المَذْهب»، وغَيْره.

ولَهُ تَصَانيفُ كَثيرَةٌ جدًّا حَسَنَةٌ، فِيهَا عِلْمٌ عَظيمٌ، وخَيْرٌ كَثيرٌ، وهُوَ مَعْدودٌ من الأكَابر الأفَاضل.

وَلَكن كُلُّ أحَدٍ مَأخُوذٌ من قَوْلِهِ ومَتْروكٌ سِوَىٰ النَّبيِّ ﷺ، فكَلامُهُ فِي كِتَابِ التَّأويل، وكَلامُهُ فِي الفُصُول الَّتي أوَّل «صَيْد الخَاطر» ... يَجبُ الحَذَر مِنْهَا، والتَّحْذير مِنْها، ولَوْلَا أنَّ هِذِهِ الكُتُب مَوْجودةٌ بَيْنَ النَّاس لَكَان للإنْسَان مَنْدوحةٌ عَن الكَلَام فِيهِ؛ لأنَّه من أكَابر أهْل

العِلْمِ وأَفَاضلهم، وهُوَ مَعْروفٌ بالدِّين والوَرَع والنَّفْع، ولَكن لكُلِّ جَوَادٍ كَبْوةٌ، نَرْجو الله أَنْ يَعْفو عنَّا وعَنْه».

٣- وَقَالَ فَضِيلةُ الشَّيخ المُحَدِّثُ مُقْبل بن هَادِي الوَادِعيُّ رَحِمَهُ اللهُ كَمَا في «الجَوَابُ النَّافِع عَن أَسْئلة أَهْل يَافِع»: «... -والعُلَماءُ أَنفسهم وقَلَّ أَنْ تجدَ عَالمًا إلَّا وهُوَ يُحدِّث أَوْ يَسْتدلُّ بأَحَاديثَ ضَعيفَةٍ-.. من الأَمْثلَة عَلَىٰ هَذَا: الحَافظُ ابْن الجَوزيُّ رَحِمَهُ اللهُ، لَه كِتَابُ «المَوْضوعات»، وَكِتَابُ «العلل المُتَنَاهية»، ولَكنَّك إذَا قَرأْتَ في سَائِرِ كُتُبه تَرَاه يَسْتدلُّ بأَحَاديثَ ضَعيفَةٍ ومَوْضوعةٍ، كَمَا تَجدُ هَذَا في كتابِهِ «صَيْد الخاطر»، وفي غَيْر «صَيْد الخَاطر»، فالعُلَماء ربَّما يَتَساهلون فِي بَعْض الأَوْقَات...».اهـ.

٤- وَقَالَ فَضِيلَةُ الشَّيخِ العَلَّامَة صَالح الفَوْزان -حَفظَهُ اللهُ- كَمَا في «الأَجْوبَة المُفيدَة عَنْ أَسْئلة المَنَاهج الجَديدَة»: «الإمَامُ ابْن الجوزيُّ رَحِمَهُ اللهُ عندَهُ أَخْطاءٌ لَا شكَّ، و«صَيْد الخَاطر» هَذَا فِيهِ أَخْطَاءٌ كَثيرةٌ فِي العَقيدَة، فِي أَبْوَاب الصِّفَات، مُتأثِّرٌ بمَذْهب الَّذينَ يُؤوِّلون الصِّفَات، لَا شَكَّ، وهُوَ إمامٌ جليلٌ، ومُحدِّثٌ، وَفَقيهٌ، ومُفسِّرٌ، ومُتَبحِّرٌ في العُلُوم، وَلَكن عندَهُ أَخْطاءٌ فِي كُتُبه، ومِنْها «صَيْد الخَاطر» هَذَا، فَفِيهِ كَلَامٌ غَيْر جَيِّدٍ في الصِّفَات، وتَأْويلها، وَلَكنْ لَا يُعَدُّ جهْميًّا.

ونَرْجو اللهَ أَنْ يغفرَ لَهُ، ويُسَامحه، ونَحْن نَتجنَّب هَذِهِ الأَخْطاءَ، ولَا نَتقبَّلها وإنْ كَانَتْ عندَ ابْن الجَوزيِّ أَوْ غَيْره».

❁ وفاته:

تُوفِّي رَحِمَهُ اللهُ بَعْدما أُفرجَ عَنْه، وقَدِمَ بَغْدادَ، وعَادَ إلىٰ الوَعْظ، والإرْشَاد، والكِتَابَة، ونَشْر العِلْمِ حَتَّىٰ تَوفَّاه اللهُ لَيْلَة الجُمُعة (١٢ رمضان سنة ٥٩٧هـ) بَيْنَ العِشَائَيْن، وقَدْ قَارَبَ التِّسْعينَ من العُمُر، ودُفِنَ بباب حرب قُرْب مَدْفن الإمَامِ أَحْمَد بن حَنْبلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

❁ مصادر ترجمته:

- «سِيَر أَعْلَام النُّبَلَاء»، للإمام الذَّهبيِّ رَحِمَهُ اللهُ.
- «ذَيْل طَبقَات الحَنَابلة»، للإمام ابن رَجَبٍ رَحِمَهُ اللهُ.
- «وَفَيات الأَعْيَان»، لابْن خَلِّكان رَحِمَهُ اللهُ.
- «مَجْموع الفَتَاوىٰ»، لشيخ الإسلام ابْن تَيْمية رَحِمَهُ اللهُ.
- «الفَتَاوىٰ السَّعديَّة»، للعلَّامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ اللهُ.
- «الجَوَابُ النَّافِع عَن أَسْئلة أَهْل يَافِع»، للعَلَّامَة المُحَدِّث مُقْبِل بن هَادِي الوَادِعي رَحِمَهُ اللهُ.
- «الأَجْوبَة المُفيدَة عن أَسْئلة المَنَاهج الجَديدَة»، للعَلَّامة صَالح الفَوْزان حفظه الله.

خطبة الكتاب

الحَمْدُ لله الَّذي سَلَّمَ ميزانَ العدلِ إِلَىٰ أَكُفِّ ذوي الألباب، وأرسل الرُّسُل مُبشِّرين ومُنْذرين بالثَّواب والعقاب، وأنزلَ عَلَيهم الكُتُب مُبيِّنةً للخَطَإ والصَّواب، وجَعَلَ الشَّرائعَ كَاملةً لا نَقْصَ فيها، ولا عَابَ.

أحمدُهُ حَمْدَ مَنْ يعلم أنَّه مسبِّب الأسبابِ.

وأشهدُ بِوَحدَانِيَّتِهِ شهادَةَ مُخلصٍ في نيَّتِهِ غيرَ مُرتَابٍ، وأشْهَد أنَّ مُحمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، أرسلَه وقَدْ سَدَلَ الكفر علىٰ وجهِ الإيمانِ والحِجَاب، فنَسَخ الظَّلام بنور الهدىٰ، وكَشَف النِّقاب، وبَيَّن للنَّاس ما أُنزِلَ إليهم، وأوْضَح مُشْكلات الكتاب، وتَركَهمْ علىٰ المَحجَّة البيضاء، لا سَرَب فيها، ولا سرابَ، فصلَّىٰ اللهُ عَلَيه، وعَلَىٰ جميع الآل، وكُلِّ الأَصْحَاب، وعَلَىٰ التَّابعين لَهم بإحسانٍ إِلَىٰ يَوْم الحشر والحساب، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أما بعدُ:

فإنَّ أَعْظم النِّعم عَلَىٰ الإنسان العقل؛ لأنَّه الآلة فِي مَعْرفة الإله سبحانه، والسَّبب الَّذي يتوصَّل به إِلَىٰ تصديق الرُّسُل، إلَّا أنَّه لمَّا لَمْ ينهض بكلِّ المراد من العبد، بُعِثَتِ الرُّسُل، وأنزلت الكُتُب، فمثال الشَّرع الشَّمس، ومثال العقل العين، فإذا فُتِحَتْ وكَانَتْ سليمةً، رأت الشَّمس، ولمَّا ثبت عند العقل أقْوَال الأنبياء الصَّادقة بدَلَائل المعجزات الخارقة، سلَّم إليهم، واعتمد فيما يَخْفَىٰ عنه عليهم.

ولمَّا أنْعَم الله عَلَىٰ هَذَا العَالَمِ الإنسيِّ بالعقل، افتَتَحه الله بنُبوَّة أبيهم آدم عليه السلام؛ فكَانَ يُعلِّمهم عَنْ وحي الله عز وجل، فكانوا عَلَىٰ الصَّواب، إِلَىٰ أن انفَرَد قابيل بِهَوَاه فقتل أخاه، ثُمَّ

تَشعَّبت الأهواء بالنَّاس، فَشرَّدتُهم فِي بَيْداء الضَّلال حتَّىٰ عَبَدوا الأصنامَ، وَاخْتَلفوا فِي العَقَائد والأفْعَال اختلافًا، خَالَفوا فيه الرُّسُل والعُقُول اتِّباعًا لأهْوَائهمْ، وميلًا إلَىٰ عَادَاتِهم، وتقليدًا لكُبَرائِهم، فَصدَّق عَلَيهم إبليسُ ظنَّه فَاتَّبعوه إلَّا فريقًا من المُؤْمنينَ.

وَاعْلَمْ أنَّ الأنبياءَ جاؤوا بالبيان الكافِي، وقَابَلوا الأمراضَ بالدَّواء الشَّافِي، وتَوافَقوا عَلَىٰ منهاجٍ لَمْ يختلف، فأقبل الشَّيطان يخلط بالبيان شُبَهًا، وبالدَّواء سُمًّا، وبالسَّبيل الواضح جردًا مضلًّا، وما زَالَ يلعب بالعُقُول إلَىٰ أن فرَّق الجاهليَّة فِي مذاهبَ سخيفةٍ، وبدعٍ قبيحةٍ، فأصبحوا يَعْبدون الأصنامَ فِي البيت الحرام، ويُحرِّمون السَّائبة، والبَحِيرَة، والوصيلة، والحام، ويَرَون وَأْدَ البنات، ويَمنعونَهنَّ الميراثَ، إلَىٰ غَيْر ذلك من الضَّلال الَّذي سوَّله لَهم إبليس؛ فَابْتعَثَ اللهُ ﷻ مُحمَّدًا ﷺ، فرَفَع المقابحَ، وشَرَع المصالحَ، فَسَار أصحابُهُ معه وبَعْده فِي ضَوْء نُوره، سَالِمِينَ من العدوِّ وغُرُوره.

فَلمَّا انسلَخَ نَهار وُجُودهم، أقبلتْ أغباش الظُّلُمات، فعادت الأهواء تُنْشئ بدعًا، وتَضيِّق سبيلًا، ما زال مُتَّسعًا، ففَرَّق الأكثرون دينَهم، وَكَانوا شِيَعًا، ونَهَض إبليسُ يُلبِّس، ويُزَخرف، ويُفرِّق، ويُؤلِّف، وإنَّما يصحُّ له التَّلصُّصُ فِي ليل الجهلِ، فلو قَدْ طلع عليه صبحُ العلم افتضح.

فرأيتُ أَنْ أُحذِّر من مَكَايده، وأدلَّ عَلَىٰ مصايده، فإنَّ فِي تعريف الشَّرِّ تَحْذيرًا عن الوُقُوعِ فيه.

ففي «الصَّحيحين» من حديث حُذَيفة: قال: «كان النَّاسُ يَسْألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنتُ أسألُهُ عن الشَّرِّ؛ مَخافةَ أَنْ يدركنِي»[1].

وقد أخبرنا أبو البركات سعد الله بن علي البزَّازُ، قال: أخْبَرنا أحْمَد بن علي الطريثيثي،

(١) أخرجه البخاري (٣٦٠٦)، ومسلم (١٨٤٧).

قَالَ: أَخْبَرنا هبة الله بن حسن الطَّبري، قَالَ: أَخْبرنا مُحمَّد بن أحمد بن سهل، قال: حَدَّثنا مُحمَّد بن أحمد بن الحسن، قال: حَدَّثنا بشر بن موسىٰ، قال: حَدَّثنا عبيد بن يعيش، قال: حدَّثنا يُونُسُ بن بكير، قال: حدَّثنا مُحمَّد بن إسحاق، عن الحسن أو الحسين بن عبد الله، عن عكرمة، عن ابْن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: والله، ما أظنُّ عَلَىٰ ظهر الأرض اليوم أحدًا أحب إِلَىٰ الشَّيطان هلاكًا منِّي. فقيل: وكيف؟ فقال: والله، إنَّه ليحدث البدعة فِي مَشْرقٍ أو مغربٍ، فيَحْملها الرَّجلُ إليَّ، فإذا انتهت إليَّ، قَمَعتُها بالسُّنَّة، فتردُّ عليه كما أَخْرَجها.

وقَدْ وضعتُ هَذَا الكتابَ مُحذِّرًا من فتنِهِ، ومُخوِّفًا من محنِهِ، وكاشفًا عن مَسْتوره، وفاضحًا له فِي خَفِيِّ غُرُوره، واللهُ المعينُ بِجُودِهِ، كلَّ صادقٍ فِي مقصودِهِ.

وقَدْ قسمتُهُ ثلاثة عشر بابًا يَنكشف بِمَجْموعها تَلْبيسُهُ، ويَتبيَّن للفَطِن بفَهْمها تَدْليسه، فمن انْتهَضَ عزمه للعمل بِها، ضجَّ منه إبليسُهُ، والله مُوفِّقي فيما قصدتُ، ومُلْهِمِي للصَّواب فيما أردتُ.

ذكر تراجم الأبواب:

الباب الأول: فِي الأمر بلُزُوم السُّنَّة والجَمَاعة.

الباب الثاني: فِي ذمِّ البدع والمُبْتَدعين.

الباب الثالث: فِي التَّحذير من فتن إبليس ومَكَايده.

الباب الرابع: فِي معنَىٰ التَّلبيس والغُرُور.

الباب الخامس: فِي ذِكْرِ تلبيسِهِ فِي العَقَائد والدِّيانات.

الباب السَّادس: فِي ذِكْرِ تَلْبيسِهِ عَلَىٰ العُلَماء فِي فُنُون العلم.

الباب السَّابع: فِي ذِكْرِ تَلْبيسِهِ عَلَىٰ الوُلَاة والسَّلاطين.

الباب الثَّامن: فِي ذِكْرِ تلبيسِهِ عَلَىٰ العبَّاد فِي فُنُون العِبَادَات.

الباب التَّاسع: فِي ذِكْرِ تلبيسِهِ عَلَىٰ الزُّهَّاد.

الباب العاشر: فِي ذِكْرِ تلبيسِهِ عَلَىٰ الصُّوفيَّة.

الباب الحادي عشر: فِي ذِكْرِ تلبيسِهِ عَلَىٰ المُتديِّنين بِما يُشْبه الكَرَامات.

الباب الثَّانِي عشر: فِي ذِكْرِ تلبيسِهِ عَلَىٰ العوامِّ.

الباب الثَّالث عشر: فِي ذِكْرِ تلبيسِهِ عَلَىٰ الكلِّ بتَطْويل الأَمَل.

الباب الأول
الأمر بلزوم السنة والجماعة

١- أَخْبَرنا هبة الله بن مُحمَّد، نا الحَسَن بن عليّ التَّمِيميّ، نا أحمد بن جَعْفر بن حمدان، ثنا عَبْد الله بن أَحْمَد، حَدَّثني أبِي، عن ابن إسحاق، نا ابْنُ المُبَارك، ثنا مُحمَّد ابن سوقة، عَنْ عَبْد الله بن دينارٍ، عن ابْن عُمَر، أَنَّ عُمَر بن الخطَّاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ خَطَب بالجابية، فَقَال: قام فينا رسول الله ﷺ، فَقَال: «**مَنْ أرادَ أَنْ ينالَ بُحبوحة الجنَّة، فَلْيَلْزم الجَمَاعة، فإنَّ الشَّيطانَ مَعَ الواحد، وهُوَ من الاثنين أبعدُ**»(١).

٢- أَخْبَرنا أحمد وحَدَّثنا جرير، عن عَبْد الملك بن عُمَير، عن جابر بن سَمرة، قَالَ: «خَطَب عمر النَّاس بالجابية، فَقَال: إنَّ رسول الله ﷺ قَامَ فِي مثل مَقَامي هَذَا، فقال: «**مَنْ أحبَّ منكم أن ينالَ بُحْبوحَة الجنَّة؛ فَلْيَلزم الجَمَاعة، فإنَّ الشَّيطانَ مَعَ الوَاحد، وهُوَ من الاثْنين أَبْعَد**»(٢).

قال الترمذي: هذا الحديثُ حسنٌ صحيحٌ.

٣- أخبَرنا عبد الوَهَّاب بن المبارك الحافظ، ويَحْيىٰ بن عليّ المدبرُ، نا أبو مُحمَّد الصريفيني، نا أبو بكرٍ مُحمَّد بن الحسن بن عبدان، ثنا أبو مُحمَّد بن صاعد، ثَنَا سعيد بن يَحْيىٰ الأموي، ثنا أبو بكر بن عِياش، عن عاصم بن أبِي النَّجود، عن زرٍّ، عن عُمَر بن الخطَّاب قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: «**مَنْ أراد بُحْبُوحة الجنَّة، فَلْيَلْزم الجَمَاعة، فإنَّ الشَّيطانَ**

---

(١) أخرجه الترمذي (٢١٦٥)، وأحمد (١١٥)، وصَحَّحه الألبانِيُّ فِي «صحيح الجامع» (٦٥٤٦).

(٢) انظر التخريج السابق.

مَعَ الوَاحِدِ، وهُوَ من الاثْنين أبعدُ»[١].

٤- حدَّثنا عَبْد الأوَّل بن عيسىٰ، نا أبو عاصم الفضيل بن يَحْيىٰ، ثنا أبو الحَسَن عليُّ بن عبد العزيز، أنبأنا أبو عُبَيد، نا النَّضر بن إسْماعيل، عن مُحمَّد ابن سوقة، عَنْ عبد الله بن دينارٍ، عَنْ عُمَر، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: «مَنْ سَرَّه أَنْ يسكنَ بُحْبوبة الجنَّة فَلْيَلْزم الجَمَاعة، فإنَّ الشَّيطان مع الوَاحِدِ، وهُوَ من الاثنين أَبْعَد»[٢].

٥- أَخْبرنا عَبْدُ الأوَّل، نا أبو عبد الله مُحمَّد بن عبد العزيز الفارسي، نا عبد الرَّحمن بن أبِي شريح، ثنا ابن صاعدٍ، ثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري، ثَنا أبو مُعَاوية، عن يزيد بن مردانبه، عَنْ زياد بن علاقة، عَنْ عرفجة، قال: سَمعتُ رسول الله ﷺ يَقُول: «يدُ الله عَلَىٰ الجَمَاعة، والشَّيطانُ مع مَنْ يُخالفُ الجَمَاعةَ»[٣].

٦- أَخْبَرنا مُحمَّد بن عمر الأرموي، والحُسَين بن عليّ المقري، نا عبد الصَّمد بن المأمون، نا علي بن عُمَر الدَّارقطنِي، ثنا أبو جعفر أحمد بن إسحاق بن البهلول، حَدَّثنِي أبِي، ثنا مُحمَّد بن يعَلَىٰ، ثنا سُلَيمان العامري، عن الشَّيبانِي، عن زياد بن علاقة، عَنْ أسامة بن شريكٍ، قَالَ: سَمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «يدُ الله عَلَىٰ الجَمَاعة، فإذا شذَّ الشَّاذُّ منهم، اخْتَطَفَته الشَّياطينُ، كَمَا يَخْتطف الذِّئبُ الشَّاةَ من الغَنَم»[٤].

٧- أَخْبَرنا ابن الحُصَين، نا ابن المذهب، نا أحمد بن جعفرٍ، ثنا عبد الله بن أحمد، حَدَّثنِي أبِي، أنبأنا أسود بن عامرٍ، ثنا أبو بكرٍ، عن عاصمٍ، عن أبِي وائل، عَنْ عبد الله، قال: «خطَّ رسول الله ﷺ خطًّا بيدِهِ، ثُمَّ قال: هَذَا سَبيلُ الله مستقيمًا». قال: ثُمَّ خطَّ عن يَمينِهِ

(١) انظر التخريج قبل السابق.

(٢) أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (٤٥١)، وانظر «السلسلة الصحيحة» للألبانِيّ (٤٣٠).

(٣) أخرجه النسائي (٤٠٢٠)، وصَحَّحه الألبانِيُّ في «صحيح الجامع» (٣٦٢١).

(٤) أخرجه اللالكائي في «اعتقاد أهل السُّنَّة» (١/ ٩٩)، وانظر: «مَجمع الزوائد» (٥/ ٢١٨).

وشمالِهِ، ثُمَّ قَالَ: «هَذِهِ السُّبُل ليس منها سبيلٌ إلَّا عَلَيه شيطانٌ يَدْعو إِلَيْه»، ثُمَّ قَرَأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾[الأنعام:١٥٣](١).

٨- وبالإِسْنَاد قَالَ أحمد: ثنا رَوْحٌ، ثنا سعيد، عن قَتَادة، قال: ثنا العلاءُ بن زيادٍ، عَنْ معاذ بن جبلٍ رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قَالَ: «إنَّ الشَّيطانَ ذئبُ الإنْسَان كذِئْبِ الغَنَم، يأخُذُ الشَّاةَ القاصيةَ، والنَّاحيةَ فإيَّاكُمْ والشِّعاب،وعَلَيكم بالجَمَاعة، والعامَّة، والمَسْجِد»(٢).

٩- حَدَّثنا أحمد، ثنا أبو اليَمَان، ثنا ابن عيَّاشٍ، عن البختري بن عبيد بن سلمان، عَنْ أبيه، عن أبِي ذرٍّ، عن النَّبيِّ ﷺ، أنَّه قَالَ: «اثْنَان خيرٌ من واحدٍ، وثلاثةٌ خيرٌ من اثْنَين، وأرْبعةٌ خيرٌ من ثلاثةٍ، فَعَلَيْكُمْ بالجَمَاعة، فإنَّ اللهَ عز وجل لَمْ يَجمع أُمَّتي إلَّا عَلَىٰ الهدىٰ»(٣).

١٠- أَخْبَرنا عبد الملك بن القاسم الكَرُوخِي، قَالَ: أَخبرنا أبو عامر الأزديُّ، وأبو بكر الغُورَجِي، قَالَا: أَخبرنا الجَرَّاحِي، قال: أَخْبرنا المَحبوبِي، أبنا التِّرمذيُّ، قال: حدثنا محمود ابن غَيْلَان، قال: حدثنا أبو داود الحَفَري، عَنْ سُفْيَان، عن عبد الرَّحمن بن زيادٍ الإفريقي، عَنْ عبد الله بن يزيد، عن عبد الله بْن عمرٍو، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: «ليأتينَّ عَلَىٰ أُمَّتي كما أتىٰ عَلَىٰ بني إِسْرَائيل، حَذْو النَّعل بالنَّعل حتَّىٰ إنْ كَانَ منهم مَنْ أتىٰ أُمَّه علانيةً، لكان فِي أُمَّتِي مَنْ يصنعُ ذَلكَ، وإِنَّ بني إسرائيلَ تَفرَّقتْ عَلَىٰ ثنتين وسَبْعينَ مِلَّةً، وتَفرَّقتْ أُمَّتي عَلَىٰ ثلاثٍ وسبعين ملَّةً كُلُّهمْ فِي النَّار إلَّا مِلَّةٌ واحدةٌ». قالوا: مَنْ هِيَ يا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «مَا أنا عَلَيه وأَصْحَابِي»(٤).

قال الترمذي: هَذَا حديثٌ حسنٌ غريبٌ، لا يُعْرف إلَّا من هَذَا الوجه.

---

(١) أخرجه أحمد (٤٤٢٣)، وصَحَّحه الألبانِيُّ فِي «التوسل» (ص ١٢٥).
(٢) أخرجه أحمد (٢١٥٢٤)، وضَعَّفه الألباني فِي «ضعيف الجامع» (١٤٧٧).
(٣) أخرجه أحمد (٢٠٧٨٦)، وقال الألبانِيُّ فِي «ضعيف الجامع» (١٣٦): «موضوع».
(٤) أخرجه الترمذي (٢٦٤١)، وحَسَّنه الألبانِيُّ فِي «صحيح الجامع» (٥٣٤٣).

١١- وَرَوَىٰ أبو داود فِي «سُنَنه» من حديث مُعَاوية بن أَبِي سفيان، أَنَّه قَامَ فَقَال: أَلَا إِنَّ رسول الله ﷺ قام فينا، فَقَال: «أَلَا إِنَّ مَنْ قبلكم من أَهْل الكتاب افْتَرقوا عَلَىٰ ثِنْتَيْنِ وسَبْعينَ مِلَّةً، وإِنَّ هَذِهِ المِلَّة سَتَفترق عَلَىٰ ثَلَاثٍ وسبعينَ، ثِنْتَان وسَبْعونَ فِي النَّار، وواحدةٌ فِي الجنَّة، وهي الجَمَاعة، وإنَّه سَيَخرج من أُمَّتي أقوامٌ تَجَارىٰ بِهم تلك الأَهْوَاء، كما يَتَجَارىٰ الكَلَبُ بصاحِبِه[(١)]»[(٢)].

أَخْبَرنا أبو البَرَكَات بن علي البزاز، نا أَحْمَد بن عليٍّ الطريثيثي، نا هبة الله بن الحسَن الحافظ، نا مُحمَّد بن الحُسَين الفارسي، نا يُوسُف بن يَعْقوب بن إسحاق، ثَنَا العلاءُ بن سالِم، ثَنا أبو مُعَاوية، ثنا الأَعْمَش، عَنْ مالك بن الحارث، عَنْ عمارة، عن عبد الرَّحمن بن يزيد، عَنْ عبد الله قال: الاقتصادُ فِي السُّنَّة خيرٌ من الاجتهاد فِي البدعة.

أخبرنا عبد الوَهَّاب بن المُبَارك، نا حمد بن أحمد الحداد، نا أبو نُعَيم الحافظ، ثنا مُحمَّد بن أَحْمد بن الحسَن، ثنا بشر بن موسىٰ، ثنا مُحمَّد بن سعيد، ثنا ابْن المُبَارك، عن الرَّبيع، عن أَبِي العالية، عن أُبَي بن كعبٍ، قَالَ: عَلَيكم بالسَّبيل والسُّنَّة، فإنَّه ليس مِنْ عبدٍ عَلَىٰ سَبيلٍ وسُنَّةٍ ذَكَر الرَّحمن، فَفَاضتْ عَيْناه من خَشْية الله، فَتمسُّه النَّار، وإِنَّ اقتصادًا فِي سبيلٍ وسُنَّةٍ، خيرٌ من اجتهادٍ فِي إخلافٍ.

أخبرنا سعد الله بن عليٍّ، نا الطريثيثي، نا هبة الله بن الحسَن، نا عَبْد الواحدابن عبد العزيز، نا مُحمَّد بن أحمد الشرقي، ثنا عثمان بن أَيُّوب، نا إسحاق بن إبراهيم المروزي، قال: ثنا أبو إسحاق الأقرع قَالَ: سمعتُ الحَسَنَ بن أَبِي جعفرٍ يَذْكر عن أَبِي الصَّهباء، عَنْ سعيد بن جُبَير، عَنِ ابْن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، قَالَ: النَّظر إِلَىٰ الرَّجل من أَهْل السُّنَّة يَدْعو إِلَىٰ السُّنَّة، ويَنْهىٰ

---

(١) أي: في الأهواء الفَاسِدة، ويَتَدَاعون فيها؛ تَشْبيهًا لِجَرْي الفَرَس.
والكَلَبُ: داءٌ مَعروفٌ يَعْرِض للكَلْب؛ فَمَن عَضَّه قَتَلَه. «النهاية في غريب الحديث والأثر»، مادة (جَرَىٰ).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٥٩٧)، وصَحَّحه الألبانيُّ فِي «صحيح الجامع» (٢٦٤١).

عن البدعة: عبادةٌ.

أخبرنا مُحمَّد بن أَبِي القاسم، قَالَ: نا حمَد بن أحمد، نا أبو نُعَيم الأصبهانِي، ثنا مُحمَّد بن أحْمد بن الحَسَن، ثنا بشر بن موسىٰ، ثنا الحُمَيديُّ، قَالَ: أنبأنا سفيان بن عُيَينة، قَالَ: سَمعتُ عاصمًا الأَحْوَل يُحدِّث عن أبِي العالية، قال: عَلَيكم بالأَمْر الأَوَّل الَّذي كانوا عَلَيه قبل أن يَفْترقوا. قَالَ عاصمٌ: فحَدَّثتُ به الحسن، فقال: قَدْ نصحك -واللهِ- وَصَدَقك.

أخبرنا مُحمَّد بن عبد الباقي، نا حمد بن أحمد، قال: نا أحمد بن عبد الله الحافظ، أنبأنا مُحمَّد بن أحمد بن الحسن، أنبأنا بشر بن موسىٰ، نا مُعَاوية بن عمرٍو، نا أبو إسحاق الفزاريُّ، قال: قَالَ الأوزاعيُّ: اصْبِرْ نَفْسَك عَلَىٰ السُّنَّة، وَقِفْ حَيْث وَقَف القومُ، وقُلْ بِما قَالُوا، وكُفَّ عمَّا كَفُّوا عنه، وَاسْلُكْ سبيلَ سَلَفك الصَّالح، فإنَّه يَسَعك ما وَسِعهُمْ.

أخبرنا مُحمَّد بن أَبِي القاسم، نا حمَد بن أحمد، نا أَحْمَد بن عبد الله الحافظ، أنبأنا مُحمَّد بن عبد الله بن سلم، أنبأنا مُحمَّد بن منصور الهروي، ثنا عبد الله بن عُرْوة، قال: سَمعتُ يُوسُف بن موسىٰ القطَّان يُحدِّث عن الأوزاعِيِّ، قال: رأيتُ ربَّ العزَّة فِي المنام، فَقَال لِي: يا عبد الرَّحمن، أنتَ الَّذي تأمُرُ بالمعروف، وتَنْهىٰ عن المُنْكر؟!، فقلتُ: بفَضْلك يا ربِّ. وقلتُ: يا ربِّ، أمِتْنِي عَلَىٰ الإسلام. فقَالَ: وعَلَىٰ السُّنَّة.

أخبرنا مُحمَّد بن أَبِي القاسم، أنبأنا حمَد بن أحمد، نا أَحْمَد بن عبد الله الحافظ، ثنا إبراهيم بن عبد الله، ثنا مُحمَّد بن إسحاق، سَمعتُ أبا هَمام السَّكونِي يَقُولُ: حَدَّثنِي أَبِي، قَالَ: سَمعتُ سُفْيان يَقُول: لا يُقْبل قولٌ إلَّا بعملٍ، وَلَا يَسْتقيم قولٌ وعملٌ إلَّا بنِيَّةٍ، وَلَا يَسْتقيم قولٌ وعملٌ ونيَّةٌ إلَّا بِمُوَافقة السُّنَّة.

أخبرنا مُحمَّد، نا حمد بن أحمد، نا أبو نعيم، أنبأنا مُحمَّد بن عليٍّ، ثنا عمرو بن عبدويه، ثنا أحمد بن إسحاق، ثنا عبد الرَّحمن بن عفَّان، قال: ثنا يُوسُف بن أسباطٍ، قَالَ: قَالَ سفيان: يا يُوسُف إذا بَلَغك عن رجلٍ بالمَشْرق أنَّه صاحبُ سُنَّةٍ، فَابْعَثْ إليه بالسَّلام،

وإذا بَلَغك عن آخر بالمغرب أنّه صاحبُ سُنّةٍ، فَابْعَثْ إليه بالسّلَام، فقَدْ قَلّ أَهْلُ السُّنَّة والجَمَاعة.

أخبرنا سَعْد الله بن عليٍّ، نا أحمد بن عليٍّ الطريثيثي، نا هبة الله بن الحُسَين الطَّبري، نا مُحمَّد بن عبد الرَّحمن، نا البغويُّ، نا مُحمَّد بن زياد البلدي، ثنا أبو أُسَامة، عَنْ حَمَّاد بن زيدٍ، قال أيُّوب: إنِّي لأُخْبَر بِمَوْت الرَّجل من أَهْل السُّنَّة، فكأنِّي أَفْقِدُ بَعْض أَعْضَائي، وبِهِ قَالَ الطَّبريُّ.

وأخبرنا الحُسَين بن أحمد، ثنا عبيد الله بن البروجردي، ثنا عَبْد الله بن وهبٍ، ثنا إسْماعيل بن أبي خالدٍ، قَالَ: ثنا أيُّوب بن سويد، عَنْ عبد الله بن شوذب، عَنْ أيُّوب قال: إنَّ من سَعَادة الحَدَثِ والأَعْجَمِيِّ أَنْ يُوفِّقهما اللهُ تَعَالىٰ لعَالِمٍ من أَهْل السُّنَّة.

قال الطَّبريُّ: وأَخْبَرنا أحمد بن مُحمَّد بن حفص، ثَنا جَعْفر بن مُحمَّد بن نصير، ثنَا أَحْمَد بن مُحمَّد بن مَسْروقٍ، ثنا مُحمَّد بن هارون أبو نشيط، ثنا أبو عُمَير بن النَّحَّاس، ثنا ضمرة، عن ابن شوذب، قَالَ: إنَّ من نِعْمَةِ الله عَلَىٰ الشَّابِّ إذا نسك أَنْ يُؤاخِي صاحبَ سُنَّةٍ يَحْمله عليها.

قال الطَّبريُّ: وأَخْبَرنا عيسىٰ بن عليٍّ، ثنا البغويُّ، ثنا مُحمَّد بن هارون، ثنا سعيد بن شبيبٍ، قَالَ: سَمعتُ يُوسُف بن أسباط، يَقُول: كَانَ أَبِي قدريًّا، وأَخْوَالِي رَوَافض، فأَنْقَذَنِي اللهُ بسُفْيان.

قَالَ الطَّبريُّ: وأَخْبَرَنِي أحمد بن مُحمَّد بن حفص، نا عَبْد الله بن عديٍّ، ثني أَحْمد بن العبَّاس الهاشمي، ثنا مُحمَّد بن عَبْد الأعلىٰ، قَالَ: سمعتُ مُعْتَمر بن سُلَيمان يَقُولُ: دخلتُ عَلَىٰ أَبِي وأنا منكسرٌ، فَقَال لِي: ما لك؟ قلتُ: مَاتَ صديقٌ لِي. فَقَال: ماتَ عَلَىٰ السُّنَّة؟ قلت: نعم. قال: تَخزن عليه؟!

قال الطَّبريُّ: وأَخْبَرنا أحمد بن عبد الله، نا مُحمَّد بن الحُسَين، ثنا أحمد بن زهير، ثنا

يَعْقوب بن كعب، ثنا عَبْدة، ثنا عَبْدُ الله بن المُبَارك، عَنْ سُفْيان الثَّوريِّ، قَالَ: اسْتَوْصوا بأَهْل السُّنَّة خيرًا، فإنَّهم غُرَباءُ.

أخبرنا أبو مَنْصور بن خيرون، نا إِسْماعيل بن أبِي الفضل الإِسْماعيلي، نا حَمْزة بن يُوسُف السَّهميُّ، نا عبد الله بن عليٍّ الحافظ، نا أبو عوانة، ثنا جعفر بن عَبْد الواحد، قَالَ: قَالَ لنا أَبو بكر بن عيَّاش: السُّنَّةُ فِي الإِسْلَام أعزُّ من الإسلام فِي سَائِرِ الأَدْيَان.

سَمعت أبا عبد الله الحُسَين بن عليٍّ المقري يَقُول: سَمعتُ أبا مُحمَّد عبد الله بن عطاء يقول: سَمعتُ أبا عبد الله مُحمَّد بن عبد الله الإسكندرانِي يَقُول: سَمعتُ أبا منصورٍ مُحمَّد الأزدي يَقُول: سمعتُ أبا العباس أحمد بن محمد بن فراشة يقول: سمعتُ أحمد بن منصور يقول: سمعت الحسنَ بن مُحمَّد الطَّبري يَقُول: سمعتُ مُحمَّد بن المُغِيرَةِ يَقُول: سمعتُ يُونُس بن عَبْد الأعَلَىٰ يَقُول: سمعتُ الشَّافعيَّ يَقُول: إذا رأيتُ رجلًا من أَصْحَاب الحديث، فكَأنِّي رأيتُ رجلًا من أَصْحَاب النَّبيِّ ﷺ.

أَخْبَرنِا مُحمَّد بن أَبِي القاسم، نا حمد بن أَحْمَد، نا أبو نعيم، أخبرنِي جعفر الخلديُّ فِي كتابِهِ، قال: سمعتُ الجنيدي يَقُول: الطَّريق كلُّها مسدودةٌ عَلَىٰ الخَلْق إلَّا مَن اقْتفَىٰ أثر الرَّسُول ﷺ واتَّبع سُنَّته، ولَزِمَ طَريقتَهُ، فإنَّ طرقَ الخَيْرات كلَّها مفتوحةٌ عليه.

أخبرنا عُمَر بن ظفر، نا جعفر بن مُحمَّد، نا عبد العزيز بن عليٍّ الأزجي، نا عليُّ بن عبد الله بن جهضم، نا مُحمَّد بن جَابَان، قَالَ: سمعتُ حامدَ بن إبراهيم، يَقُولُ: قَالَ الجنيد بن مُحمَّد: الطَّريقُ إلَىٰ الله عزوجل مسدودة عَلَىٰ خَلْق الله تَعَالىٰ، إلَّا عَلَىٰ المُقْتفينَ آثار رسول الله ﷺ، والتَّابعين لسُنَّتِهِ، كَمَا قَالَ اللهُ عزوجل: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾[الأحزاب:٢١].

الباب الثاني
في ذم البدع والمبتدعين

١٢- أَخْبَرَنا أبو القاسم هبة الله بن مُحمَّد بن الحُصَين الشَّيبانِي، قال: أَخْبَرنا أبو علي الحَسَن بن علي بن المُذْهِب، أنا أبو بكر أَحْمَد بن حمدان، نا عبد الله بن أحمد بن حنبلٍ، قال: أَخْبَرنِي أبِي، ثنا يزيدُ، عن إبراهيم بن سعد، أَخْبَرنِي أبِي (ح)[١]، وأَخْبَرنا أبو غالبٍ مُحمَّد بن الحسن الماوردي، وأبو سعدٍ البغداديُّ، قَالَا: نا المطهر بن عَبْد الواحد، نا أبو جَعْفر أحمد بن مُحمَّد المرزبان، نا مُحمَّد بن إبراهيم الحَزَوَّريُّ، ثنا لُوَين، ثنا إبراهيم بن سعدٍ، عن أبيه، عن القاسم بن مُحمَّد، عَنْ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: قالَ رسول الله ﷺ: «مَنْ أحدثَ فِي أَمْرنا ما ليس منه، فهو ردٌّ»[٢].

١٣- أَخْبَرَنا موهوب بن أحمد، نا عليُّ بن أحمد البسري، ثنا مُحمَّد بن عبد الرَّحمن المخلص، ثنا عبد الله بن مُحمَّد البغويُّ، ثنا أَحْمَد بن إبراهيم الموصليُّ، وإسحاق بن إبراهيم المروزيُّ، قالا: ثنا إبراهيمُ بن سعدٍ، عَنْ أبيه، عن القاسم بن مُحمَّد، عَنْ عائشةَ، قَالَتْ: قَالَ رسول الله ﷺ: «مَنْ أَحْدثَ فِي أَمْرنا هذا ما لَيْسَ منه، فهو ردٌّ»[٣].

١٤- قال البغويُّ: وحدَّثنا عبد الأعلىٰ بن حمَّادٍ، ثنا عبد العزيز، عَنْ عبد الواحد بن أبِي عونٍ، عَنْ سعد بن إبراهيم، عن القاسم، عَنْ عَائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ فَعَلَ أَمْرًا

---

(١) هذه (الحاء) تَدُلُّ عند المُحَدِّثين علىٰ التَّحوُّل من إسنادٍ إلىٰ آخر، واختارَ ابنُ الصَّلاح أن يقول القَارئُ عند الانتهاء إليها: (حا)- أي: بالقَصْر، ويَستمرُّ في قِرَاءة مَا بَعدها.

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨/ ١٧).

(٣) التخريج السابق.

لَيْسَ عَلَيه أَمْرنا، فهُوَ ردٌّ»، أخْرَجاه فِي «الصَّحيحين»[(١)].

١٥- أَخْبَرنا هبة الله بن مُحمَّد، نا الحسن بن عليٍّ، نا أبو بكر بن مالك، ثنا عبد الله بن أحمد، ثنِي أبِي، ثنا هُشَيم عن حصين بن عبد الرَّحمن، ومُغِيرَة الضَّبِي، عَنْ مُجاهِدٍ، عَنْ عبد الله بن عمرٍو، عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قَالَ: «مَنْ رغبَ عن سُنَّتِي فلَيْسَ منِّي»[(٢)]، انفردَ بإخراجِهِ البخاريُّ.

١٦- أَخْبَرنا ابْنُ الحصين، نا ابن المذهب، نا أحمد بن جعفرٍ، نا عَبْد الله بن أحمد، حَدَّثني أبِي، ثنا الوليد بن مسلمٍ، ثنا ثور بن يزيد، ثنا خالد بن معدان، حَدَّثنِي عبد الرَّحمن ابن عمرٍو السُّلمي، وحجر بن حجر، قَالَا: أَتينَا العِرْبَاض بن سارية، وهُوَ مِمَّن نَزلَ فِيهِ: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾[التوبة:٩٢].

فَسَلَّمنا وقُلْنا: أَتَيْناك زَائِرِينَ، وعَائِدِينَ، ومُقْتبسينَ، فَقَال عرباض: «صلَّىٰ بنا رسول الله ﷺ الصُّبحَ ذاتَ يومٍ، ثُمَّ أَقْبَل عَلَينا بوجهِهِ، فوَعَظنا موعظةً بليغةً، ذَرَفتْ منها العُيُون، ووجلَتْ منها القُلُوب، فَقَال قائلٌ: يا رَسُولَ الله، كأَنَّ هَذِهِ مَوْعظةُ مُودِّعٍ، فَمَاذا تَعْهد إلينا؟ فَقَال: «أُوصِيكُمْ بتَقْوىٰ الله، والسَّمع والطَّاعة، وإِنْ عبدًا حبشيًّا، فإنَّه مَنْ يعش بَعْدي فسَيَري اختلافًا كثيرًا، فعَلَيكُمْ بسُنَّتِي وسُنَّة الخُلَفاء الرَّاشدينَ المَهْديِّين من بَعْدي تَمَسَّكوا بِها، وعَضُّوا عَلَيها بالنَّواجذ، وإيَّاكم ومُحْدثات الأُمُور، فإنَّ كلَّ مُحْدثةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ»[(٣)].

قال التِّرمذيُّ: هَذَا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

---

(١) أخرجه البخاري تعليقًا، ومسلم (١٧١٨/ ١٨).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١) من حديث أنس بن مالكٍ ﷺ، وأحمد (٦٤٤١) من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وصَحَّحه الألبانيُّ فِي «صحيح الجامع» (٢٥٤٩).

١٧- أَخْبَرنا ابْن الحُصَين، نا ابن المذهب، نا أبو بكر بن مالكٍ، ثنا عَبْدُ الله بن أحمد، ثني أَبِي، ثنا عَبْد الله بن الوليد، ثنا سُفْيَان، عن الأعمش، عن أبِي وائلٍ، عن ابْن مَسْعودٍ، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: «أَنَا فَرطُكُمْ عَلَىٰ الحَوْض، وَلَيَخْتلجنَّ رجالٌ دونِي، فأَقُولُ: يا ربِّ، أَصْحَابِي. فيُقَال: إنَّك لا تَدْري ما أَحْدَثوا بَعْدك»[1]، أَخْرَجاه فِي «الصحيحين».

أَخْبَرنا مُحمَّد بن أَبِي القاسم، نا حمَد بن أحمد، نا أَبو نُعَيم، ثنا أَحْمَد بن إسحاق، ثنا عَبْدُ الله بن سُلَيمان، ثنا مُحمَّد بن يَحْيىٰ، ثنا مُحمَّد بن كثيرٍ، عن الأوزاعيِّ، عن يَحْيىٰ بن أَبِي عمرو الشَّيبانِيِّ، عَنْ عبد الله بن مُحيريز، قَالَ: يَذْهب الدِّين سنَّةً سنَّةً، كَمَا يذهبُ الحبلُ قوَّةً قوَّةً.

أَخْبرنا إسْماعيل بن أَحْمَد، نا عمر بن عبد الله البقَّال، نا أبو الحُسَين بن بشران، ثنا عثمان بن أحمد الدَّقَّاق، ثنا حنبل، قَالَ: حدَّثني أبو عبد الله (يَعْنِي: أحمد بن حنبل)، ثَنا عَبْد الرَّزَّاق، ثنا معمر، قال: كَانَ طاوس جالسًا، وعنده ابنُهُ، فجاء رجلٌ من المُعْتزلة، فتكلَّم فِي شيءٍ، فأدخل طاوس أُصْبعيه فِي أُذُنيه، وَقَالَ: يا بُنيِّ، أَدْخل أُصْبعك فِي أُذُنيك حتَّىٰ لا تَسْمع من قولِهِ شيئًا، فإنَّ هَذَا القلبَ ضعيفٌ.

ثُمَّ قال: أَيْ بنيِّ، اشدد، فَمَا زَالَ يَقُول: اشْدُدْ حتَّىٰ قَامَ الآخر.

قال حنبل: وحَدَّثنا مُحمَّد بن داود، ثنا عيسىٰ بن علي الضَّبي قَالَ: كَانَ رجلٌ مَعَنا يَخْتلف إلَىٰ إبراهيم، فبَلَغ إبراهيم أنَّه قد دَخَل فِي الإرجاء، فَقَال له إبراهيم: إذا قُمْتَ من عندنا فَلَا تَعُدْ.

قال حنبل: وحدَّثنا مُحمَّد بن داود الحيداني، قَالَ: قلتُ لسُفْيان بن عُيَينة: إنَّ هَذَا يتكلَّم فِي القَدَر (يَعْني: إبراهيم بن أَبِي يحيىٰ)، فَقَال سفيان: عرِّفوا النَّاس أَمْره، وسَلُوا اللهَ لي العافيةَ.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٧٦)، ومسلم (٢٢٩٧).

وقال حنبل: وحدَّثنا سَعْدويه، ثنا صالح المري، قَالَ: دَخل رجلٌ عَلَىٰ ابْن سيرين وأنا شاهدٌ، فَفَتح بابًا من أبْواب القَدَر، فتكلَّم فيه، فَقَال ابْنُ سيرين: إمَّا أنْ تقومَ، وإمَّا أن نقوم.

أخبرنا المحمدان: ابْنُ نَاصرٍ، وابْنُ عبد الباقي، قالا: نا حمد بن أحْمَد، نا أبو نُعَيم الحافظ، ثنا عَبْد الله بن مُحمَّد بن جَعْفرٍ، ثنا أبو بكر بن راشدٍ، ثنا إبراهيم بن سعيد بن عامر، عَنْ سلَّام بن أبِي مطيع، قَالَ: قَالَ رجلٌ من أهْل الأهْواء لأيُّوب: أُكلِّمك بكلمةٍ؟ قال: لا، ولا نِصْف كلمةٍ.

وقال ابن راشد: وحدَّثنا أبو سعيد الأشجّ، ثنا يَحيَىٰ بن يَمان، عن مُخلد بن حسين، عن هشام بن حسَّان، عن أيُّوب السَّختيانِيِّ، قَالَ: ما ازْدَاد صاحبُ بدعةٍ اجتهادًا إلَّا ازْدَاد من الله عَزَّوَجَلَّ بُعْدًا.

أخبرنا أبو البركات بن عليٍّ البزاز، نا الطريثيثي، نا هبة الله بن الحسن، نا عيسىٰ بن علي، نا البغويُّ، نا أبو سعيدٍ الأشج، نا يَحيَىٰ بن اليمان، قال: سمعتُ سفيانَ الثَّوريَّ قال: البدعةُ أحبُّ إلَىٰ إبليسَ من المَعْصيةِ؛ المَعْصيةُ يُتَاب منها، والبدعةُ لَا يُتَاب منها.

أخبرنا ابن القاسم، نا حمَد بن أحمد، نا أبو نُعَيم الحافظ، ثنا سُلَيمان بن أحمد، ثنا الحسَن بن عليٍّ، ثنا مَحمود بن غيلان، ثنا مؤمل بن إسماعيل، قَالَ: مَاتَ عَبْد العزيز بن أبِي رَوَّاد، وكنتُ فِي جنازتِهِ حتَّىٰ وضع عند باب الصَّفَا، فَصَفَّ النَّاسُ، وجاء الثَّوريُّ، فقال النَّاسُ: جَاءَ الثَّوريُّ، فجاء حتَّىٰ خرق الصُّفُوف، والنَّاسُ يَنْظرون إليه، فَجَاوز الجنازةَ، ولَمْ يصلِّ عَلَيه؛ لأنَّه كان يُرْمىٰ بالإرْجَاء.

أخبرنا المُبَاركُ بن أحمد الأنصاريُّ، نا عبد الله بن أحمد السَّمرقنديُّ، نا أحمد بن عمرو بن روح النَّهروانِيُّ، ثنا طلحة بن أحمد الصُّوفيُّ، ثنا مُحمَّد بن أحمد بن أبِي مهزولٍ، قَالَ: سَمعتُ أحمد بن عبد الله يَقُول: سَمعْتُ شُعَيب بن حرب يَقُول: سَمعتُ سُفْيان

الثَّوريَّ يَقُول: مَنْ سَمِعَ من مبتدعٍ، لَمْ يَنْفعه الله بِما سَمِعَ، ومَنْ صَافَحَه، فَقَدْ نَقَضَ الإسلامَ عروةً عروةً.

أخبرنا مُحمَّد بن ناصر، نا حمد بن أحمد، نا أحمد بن عبد الله الأصفهانِيُّ، ثنا سليمان بن أحمد، نا عبد الله بن مُحمَّد، ثنا سعيد الكريزيُّ، قال: ثنا سعيد بن عامر قال: مَرِضَ سُلَيمان التَّيميُّ، فبكىٰ فِي مرضِهِ بكاءً شديدًا، فقيل له: ما يُبْكيكَ؟ أتَجْزَع من الموت؟ قال: لا، ولكنِّي مررتُ عَلَىٰ قَدريٍّ، فسلَّمتُ عَلَيه، فأخاف أنْ يُحَاسبِنِي ربِّي عليه.

أخبرنِي عَبْد الوَهَّاب بن المُبَارك، ويَحيَىٰ بن عليٍّ، قالا: أخبرنا أبو مُحمَّد الصريفينِي، نا أبو بكر بن عبدان، نا مُحمَّد بن الحُسَين البائع، ثنِي أبِي، ثنا مُحمَّد بن بكرٍ، قال: سَمعتُ فُضَيل بن عياضٍ يَقُول: مَنْ جلسَ إلَىٰ صاحبِ بدعةٍ فَاحْذَروه.

أخبرنا ابن عبد الباقي، نا حمد بن أحمد، نا أبو نُعَيم، ثنا سليمان بن أحمد، ثنا مُحمَّد بن النَّضر، ثنا عبد الصَّمَد بن يزيد، قَالَ: سمعتُ فُضَيل بن عياضٍ يَقُول: مَنْ أحبَّ صَاحِبَ بدعةٍ، أحبطَ اللهُ عَملَهُ، وأخْرَج نُورَ الإسلام من قلبِهِ.

أخبرنا مُحمَّد بن عبد الباقي، نا حمد بن أحمد، نا أحمد بن عبد الله الحافظ، ثنا مُحمَّد بن عليٍّ، قال: ثنا أبو يعلىٰ، ثنا عبد الصَّمَد، قال: سَمعتُ الفُضَيل يَقُول: إذا رأيتَ مُبْتدعًا فِي طريقٍ، فخُذْ فِي طريقٍ آخَرَ، وَلَا يرفع لصاحب البدعة إلَىٰ الله عَزَّوَجَلَّ عملٌ، ومَنْ أعانَ صاحبَ بدعةٍ، فَقَدْ أعانَ عَلَىٰ هَدْم الإسلام.

وسَمعت رجلًا يَقُول للفضيل: مَنْ زوَّج كَريمَتَه من فاسقٍ، فقَدْ قَطعَ رَحِمَهَا، فَقَال له الفُضَيل: مَنْ زوَّج كريمتَهُ من مبتدعٍ، فقَدْ قَطَع رَحِمَهَا، ومَنْ جَلسَ مع صاحب بدعةٍ، لَمْ يُعْط الحِكْمَة، وإذا عَلِمَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أنَّه مبغضٌ لصاحب بدعةٍ، رجوتُ أنْ يَغْفرَ اللهُ له سَيِّئاتِهِ.

قال المصنف: وقَدْ رُوِيَ بَعْض هَذَا الكلام مرفوعًا. وعَنْ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ

رسول الله ﷺ: «مَنْ وَقَّرَ صاحبَ بدعةٍ، فقَدْ أعانَ عَلَىٰ هَدْم الإسلام»(١).

وقال مُحمَّد بن النَّضر الحارثي: مَنْ أَصْغَىٰ بسَمْعه إِلَىٰ صَاحِبِ بِدْعةٍ، نُزِعَتْ منه العصمة، ووُكِلَ إِلَىٰ نفسِهِ.

وقال إبراهيم: سَمعتُ أبا جعفرٍ مُحمَّد بن عبد الله القايِني يَقُولُ: سمعتُ عليَّ بن عيسىٰ يَقُولُ: سَمعتُ مُحمَّد بن إسحاق يَقُولُ: سَمعتُ يُونُس بن عبد الأعْلَىٰ يَقُول: قال صاحبنا (يَعْني: اللَّيث بن سعدٍ): لو رأيتُ صاحبَ بدعةٍ يَمْشي عَلَىٰ الماء، ما قبلته.

فَقَال الشَّافعيُّ: إنَّه ما قصر لو رأيتُهُ يَمشي عَلَىٰ الهواء ما قبلته.

وعن بشر بن الحارث أنَّه قال: جاءَ موتُ هَذَا الَّذي يُقَال له: المُرِيسي، وأنا فِي السُّوق، فلَوْلَا أنَّ الموضعَ ليس موضعَ سُجُودٍ لسجدتُ شكرًا، الحَمْد لله الَّذي أماتَهُ، هَكَذا قُولُوا.

قال المُصنِّف: حُدِّثت عن أبِي بكرٍ الخَلَّال، عن المروزيِّ، عن مُحمَّد بن سهلٍ البخاريِّ، قَالَ: كنَّا عند الفريابي، فجَعَل يذكر أَهْل البدع، فَقَال له رجلٌ: لَوْ حدَّثتنا كان أعجبَ إلينا، فغَضِبَ، وقال: كَلَامي فِي أَهْل البدع أحبُّ إِليَّ من عبادة سِتِّينَ سنةً.

فصل [تعريف السنة والبدعة]

فإن قال قائل: قَدْ مَدَحْتَ السُّنَّةَ، وذَمَمْتَ البِدعةَ، فمَا السُّنَّةُ؟ وما البِدعَةُ؟ فإنَّا نرىٰ أنَّ كلَّ مُبتدعٍ فِي زَعْمنا يَزْعم أنَّه من أَهْلِ السُّنَّة.

فالجواب:

أنَّ السُّنَّة فِي اللُّغة: الطَّريق، ولا ريب فِي أنَّ أَهْلَ النَّقل والأثر المُتَّبعين آثار

---

(١) أخرجه الطبراني فِي «المعجم الأوسط» (٧/ ٣٥) من حديث عبد الله بن بسر رضي الله عنه، وضَعَّفه الألبانِيُّ فِي «ضعيف الجامع» (٥٨٧٧).

رسول الله ﷺ، وآثار أصحابِهِ هُمْ أهل السُّنَّة؛ لأنَّهم عَلَىٰ تلك الطَّريق الَّتي لَمْ يَحْدث فيها حادثٌ، وإنَّما وَقَعت الحوادثُ والبدعُ بَعْد رسول الله ﷺ وأصحابِهِ.

والبدعة عبارة عن: فِعْلٍ [فُعِلَ]، لَمْ يكن فَابْتُدِعَ، والأَغْلبُ فِي المُبْتَدعات أنَّها تُصَادم الشَّريعة بالمُخَالفة، وتُوجِبُ التَّعاطي عَلَيها بزيادةٍ أو نقصانٍ، فإن ابْتُدِعَ شيءٌ لا يُخَالف الشَّريعة، ولا يُوجب التَّعاطي عليها، فقَدْ كان جُمْهور السَّلَف يَكْرهونَهُ، وكانوا ينفرون من كلِّ مبتدعٍ، وإِنْ كان جائزًا حفظًا للأَصْل، وهُوَ الاتِّباعُ.

وقَدْ قالَ زيدُ بن ثابتٍ لأبِي بكرٍ وعُمَر رضي الله عنهما حِينَ قَالَا له: اجْمع القرآن: «كَيْفَ تَفْعلانِ شيئًا لَمْ يَفْعله رسول الله ﷺ؟»(١).

وأخبرنا مُحمَّد بن علي بن أبِي عمر، قَالَ: أَخْبرنا عليُّ بن الحُسَين، نا ابْنُ شَاذَان، نا أبو سَهْل، نا أَحْمَد البرتيُّ، ثنا أبُو حُذَيفة، ثنا سُفْيَان عن ابْن عَجْلان، عَنْ عَبْد الله بن أبِي سَلَمة، أنَّ سَعْدَ بن مالكٍ سَمِعَ رجلًا يَقُولُ: لَبَّيك ذَا المَعَارج، فَقَال: ما كنَّا نَقُول هَذَا عَلَىٰ عَهْد رسول الله ﷺ.

وأخبرنا: مُحمَّد بن أبِي القَاسم بإسْنَادٍ يَرْفعه إِلَىٰ أبِي البختري، قَالَ: أَخْبَر رجلٌ عَبْد الله ابن مسعودٍ أَنَّ قومًا يَجْلسونَ فِي المَسْجد بَعْد المَغْرب فيهم رجلٌ يَقُول: كَبِّروا الله كَذَا وكَذَا، وسَبِّحوا الله كَذَا وكَذَا، وَاحْمَدوا الله كَذَا وكَذَا.

قَالَ عَبْدُ الله: «فإِذَا رَأَيْتَهُمْ فَعَلوا ذَلكَ، فائْتِنِي، فَأَخْبرنِي بِمَجْلسِهِمْ، فَأَتَاهُمْ، فَجَلس، فلمَّا سَمِعَ ما يَقُولُون، قَامَ فَأَتَىٰ بْنَ مسعودٍ، فَجَاء، وكان رجلًا حديدًا، فَقَال: أنا عبدُ الله بن مَسْعودٍ، والله الَّذي لا إِلَهَ غَيْره، لقَدْ جئتُمْ ببدعةٍ ظُلْمًا، ولقَدْ فَضلتمْ أَصْحَاب مُحمَّدٍ ﷺ عِلْمًا. فَقَال عَمْرو بن عتبة: أَسْتَغْفر الله. فَقَال: عَلَيكم بالطَّريق فَالْزَموه، وَلَئِنْ أَخذتُمْ يَمينًا

(١) أخرجه البخاري (٤٦٧٩).

وَشِمَالًا، لَتضلنَّ ضَلالًا بعيدًا».

أنبأنا أَبُو بَكْر بن أَبِي طاهرٍ، عَنْ أَبِي مُحمَّد الجَوْهريِّ، عَنْ أَبِي عُمَر بن أَبِي حيويه، ثنا أَحْمَد بن معروفٍ، ثنا الحُسَين بن فهم، ثنا مُحمَّد بن سعدٍ، ثنا مُحمَّد بن عَبْد الله الأَنْصَاري، ثنا ابْنُ عوفٍ، قَالَ: كنَّا عند إِبْرَاهيم النَّخعي، فَجَاء رجلٌ، فَقَال: يا أبا عمران، ادْعُ اللهَ أَنْ يَشْفيني، فرأيتُ أنَّه كَرِهَهُ كراهيةً شديدةً حتَّىٰ عَرَفنا كَرَاهيةَ ذَلكَ فِي وجهِهِ.

وذَكَر إبراهيم السُّنَّة، فرغَّب فِيهَا، وذَكَر ما أَحْدَثه النَّاسُ فكَرِهَهُ.

وقال فيه: أَخْبَرنا المُحمَّدان (ابن ناصر، وابن عَبْد الباقي)، نا حمد بن أحمد، نا أبو نُعَيم، سَمعتُ مُحمَّد بن إِبْرَاهيمَ يَقُولُ: سَمعتُ مُحمَّد بن رَيَّان يَقُول: سمعتُ ذَا النُّون - وَجَاءه أَصْحابُ الحَدِيثِ، فَسَألوه عَنِ الخَطَرات والوَسَاوس؟ فَقَال: أَنَا لَا أتكلَّم فِي شيءٍ مِنْ هَذَا، فإنَّ هَذَا مُحْدثٌ، سَلُوني عَنْ شيءٍ فِي الصَّلَاة، أَوِ الحَدِيثِ.

ورَأىٰ ذُو النُّون عليِّ خُفًّا أَحْمَرَ، فَقَال: انزع هَذَا يا بنيّ، فإنَّه شهرةٌ، ما لَبِسَهُ رسول الله ﷺ، إنَّما لبس خُفَّين أَسْوَدين سَاذجين.

[لُزُوم طَرِيق أَهْل السُّنَّة]:

قال الشَّيخ أبو الفرج رَحِمَهُ اللهُ: قَدْ بَيَّنَّا أنَّ القومَ كَانوا يَتحذَّرون من كلِّ بدعةٍ وإِنْ لَمْ يكنْ بِها بأسٌ؛ لئلَّا يُحْدثوا مَا لَمْ يكنْ، وقَدْ جَرَت مُحْدثات لا تُصَادم الشَّريعة، وَلَا يُتَعاطىٰ عَلَيها، فلَمْ يَرَوْا بفِعْلِها بأسًا كَمَا رُوِيَ أنَّ النَّاس كَانُوا يُصلُّون فِي رَمَضان وُحْدانًا، وكانَ الرَّجُل يُصلِّي فيُصلِّي بصلاتِهِ الجماعةُ، فجَمَعهمْ عُمَر بن الخطَّاب عَلَىٰ أُبَي بن كعبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، فلَمَّا خَرَج فَرَآهُمْ قَالَ: «نِعْمت البِدْعةُ هذِهِ»؛ لأنَّ صَلَاة الجَمَاعة مشروعةٌ.

وإنَّما قَالَ الحَسَن فِي القَصَص: نِعْمَت البدعةُ، كَمْ مِن أَخٍ يُسْتَفاد، ودَعْوةٍ مُسْتَجابةٍ؛ لأنَّ الوَعْظَ مشروعٌ، ومَتَى أُسْنِدَ المُحْدَث إِلَىٰ أصلٍ مشروعٍ لَمْ يُذمّ، فأمَّا إذا كَانَت البدعةُ

كَالمُتمِّم، فَقَد اعْتقَد نَقْصَ الشَّريعة، وإِنْ كَانَت مُضادَّةً فهِيَ أَعْظَمُ.

فقَدْ بَانَ بِما ذَكَرنا أَنَّ أَهْل السُّنَّة هُم المُتَّبعون، وأَنَّ أَهْل البدعة هُم المُظْهرونَ شيئًا لَمْ يكنْ قَبْل، وَلَا مستندَ لَهُ، ولِهَذَا اسْتَتروا ببِدْعَتهم، ولَمْ يَكْتم أَهْلُ السُّنَّة مَذْهبَهم فكَلِمتُهُم ظاهرةٌ، ومَذْهبُهُمْ مشهورٌ، والعاقبةُ لَهم.

أخبرنا هبة الله بن مُحمَّد، نا الحسن بن عليِّ التَّميمي، نا أَحْمَد بن جعفرٍ، ثنا عَبْد الله بن أحْمد، قَالَ: ثنِي أَبِي، ثنا يَعْلَىٰ بن عبيد، ثنا إِسْمَاعيل، عن قَيْسٍ، عن المغيرة بن شعبة ﷺ قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: «لا يزالُ ناسٌ من أُمَّتي ظَاهِرِينَ حتَّىٰ يَأْتيهم أَمْرُ الله وهُمْ ظَاهرُونَ» فِي «الصَّحيحين»[(١)].

أخبرنا هبة الله بن مُحمَّد، نا الحسنُ بن عليِّ التميمي، نا ابن مالكٍ، ثنا عَبْد الله بن احمد، ثنِي أَبِي، قَالَ: ثنا يُوسُف، ثنا حَمَّاد بن زيدٍ، عَنْ أَيُّوب، عن أَبِي قِلَابة، عَنْ أَبِي أَسْماء، عن ثَوْبانَ، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: «لا تزالُ طائفةٌ مِنْ أُمَّتي ظَاهِرِينَ عَلَىٰ الحقِّ، لا يَضرُّهمْ مَنْ خَذلَهم حتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ الله، وهُمْ كَذَٰلك»[(٢)]، انْفرَد به مسلمٌ.

وقَدْ رَوَىٰ هَذَا المَعْنىٰ عن النَّبيِّ ﷺ: مُعَاوية، وَجَابر بن عبد الله، وقُرَّة.

أخبرنا الكروخيُّ، نا الغورجي والأزديُّ، قَالَا: نا الجراحي، ثنا المحبوبِي، ثنا التِّرمذيُّ، قَالَ: قَالَ مُحمَّد بن إسماعيل: قَالَ عليُّ بن المدينيّ: هُمْ أَصْحابُ الحَدِيثِ.

[انقسام أهل البدع: فِي بيان انقسام أهل البدع]

أخبرنا عَبْد الملك الكروخيُّ، نا أبو عامرٍ الأزديُّ، وأبو بكر الغورجي قَالَا: نا الجراحي، ثنا المَحبوبِي، ثنا التِّرمذيُّ، ثنا الحُسَين بن حريث، ثنا الفَضْل بن موسىٰ، عَنْ

(١) أخرجه البخاري (٣٦٤٠)، ومسلم (١٩٢١).

(٢) أخرجه مسلم (١٩٢٠).

مُحمَّد بن عمرٍو، عن أبِي سلمة، عَنْ أبِي هُرَيرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: «تفرَّقت اليهودُ عَلَىٰ إِحْدَىٰ وسَبْعين فرقةً، أو اثْنتَين وسَبْعين فرقةً، والنَّصارىٰ مِثْل ذَلكَ، وتَفْترق أُمّتي عَلَىٰ ثلاثٍ وسَبْعينَ فرقةً»(١).

قال التِّرمذيُّ: هَذَا حديثٌ صحيحٌ.

قال المُصنِّف: وقَدْ ذكرنا هَذَا الحديث فِي الباب الَّذي قَبْله، وَفِيهِ: «كُلُّهمْ فِي النَّار إلَّا مِلَّةً واحدةً». قالوا: مَنْ هي يا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «مَا أنَا عَلَيه وأَصْحَابِي»(٢).

أخبرنا ابْنُ الحُصَين، نا ابْنُ المذهب، نا أَحْمَد بن جعفرٍ، نا عَبْد الله بن أحمد، قَالَ: ثَنِي أَبِي، ثنا حَسَن، ثنا ابْنُ لهيعة، عَنْ خالد بن زيدٍ، عَنْ سعيد بن أبِي هلالٍ، عَنْ أنس بن مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رسول الله ﷺ قَالَ: «إِنَّ بني إِسْرَائيل تَفرَّقت إِحْدَىٰ وسَبْعين فرقةً، فهَلَكتْ سَبْعون فرقةً، وخَلصت فرقةٌ واحدةٌ، وإِنَّ أُمَّتي ستَفْترق عَلَىٰ اثْنين وسَبْعين فرقةً، يَهْلك إِحْدَىٰ وسَبْعون، وتَخْلص فرقةٌ». قَالوا: يا رَسُولَ الله، من تِلْكَ الفِرْقة؟ قَالَ: «الجَمَاعة»(٣).

قَالَ الشَّيخ أبو الفرج رَحِمَهُ اللهُ: فإنْ قيلَ: وهَلْ هَذِهِ الفِرَقُ معروفةٌ؟

فالجواب: أنَّا نَعْرف الافتراقَ، وأُصُول الفِرَق، وإِنَّ كلَّ طائفةٍ من الفِرَقِ قَد انْقسَمَت إلَىٰ فِرَقٍ، وإِنْ لَمْ نُحِطْ بأسْماء تِلْكَ الفِرَقِ، ومَذَاهبها، وقَدْ ظَهَر لنا من أُصُول الفِرَقِ: الحروريَّة، والقدريَّة، والجهميَّة، والمُرْجئة، والرَّافضة، والجبريَّة.

وقَدْ قَالَ بَعْض أهل العلم: أَصْلُ الفِرَقِ الضَّالَّة هَذِهِ الفِرَقِ السِّتَّة، وقَد انْقسَمَتْ كلُّ فرقةٍ منها عَلَىٰ اثْنتي عَشْرة فرقةً، فَصَارتْ اثْنتَين وسَبْعين فرقةً.

وَانْقسَمت الحروريَّة اثنتي عَشْرة فرقةً: فأوَّلهم الأزرقيَّة، قَالُوا: لَا نَعْلمُ أحدًا مؤمنًا،

(١) أخرجه أبو داود (٤٥٩٦)، والترمذي (٢٦٤٠)، وصَحَّحه الألبانيُّ فِي «صحيح الجامع» (١٠٨٣).
(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٤١) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وحَسَّنه الألبانيُّ فِي «صحيح الجامع» (٥٣٤٣).
(٣) أخرجه ابن ماجه (٣٩٩٣)، وأحمد (١٢٠٧٠)، وصَحَّحه الألبانيُّ فِي «صحيح الجامع» (٢٠٤٢).

وَكَفَّروا أَهْلَ القبلة إلَّا مَنْ دَانَ بقَوْلِهم.

والإباضيَّة قالوا: مَنْ أَخَذ بقَوْلنا فهُوَ مؤمنٌ، ومَنْ أَعْرضَ عنه فهُوَ منافقٌ.

والثَّعلبيَّة قالوا: إنَّ الله لَمْ يَقْض، ولَمْ يُقدِّر.

والحازميَّة قالوا: ما نَدْري ما الإيمَان، والخَلْق كلُّهم مَعْذورُونَ.

والخلفيَّة: زَعَموا أنَّ مَنْ ترك الجهادَ من ذَكَرٍ أو أنثىٰ، فقَدْ كَفَر.

والمكرمية قالوا: ليس لأَحَدٍ أَنْ يَمسَّ أحدًا؛ لأنَّه لا يعرف الطَّاهر من النَّجس، ولا أَنْ يُؤاكلَهُ حتَّىٰ يتوبَ ويَغْتسل.

والكنْزيَّة قالوا: لَا يَنْبغي لأَحَدٍ أَنْ يُعْطي ماله أحدًا؛ لأنَّه ربَّما لَمْ يكنْ مستحقًّا، بَلْ يَكْنزه فِي الأرض حتَّىٰ يظهر أَهْل الحقِّ.

والشمراخية قالوا: لا بأسَ بِمَسِّ النِّساء الأَجَانب؛ لأنَّهنَّ رَيَاحين.

والأخنسيَّة قالوا: لا يَلْحق المَيِّت بعد موتِهِ خيرٌ، ولا شرٌّ.

والمَحكميَّة قالوا: إنَّ مَنْ حَاكَم إلَىٰ مخلوقٍ، فهُوَ كافرٌ.

والمعتزلة من الحروريَّة قالوا: اشتبه عَلَينا أَمْرُ عليٍّ ومُعَاوية، فنَحْن نَتبرَّأ من الفِرَيقَيْنِ.

والميمونيَّة قالوا: لا إمامَ إلَّا برضا أَهْل مَحبَّتنا.

وَانْقَسمت القدريَّة اثنتي عَشْرة فرقةً:

الأحمريَّة: وهِيَ الَّتي زَعَمتْ أنَّ شرط العَدْل من الله، أَنْ يَمْلك عبادُهُ أُمُورَهم، ويَحُولُ بَيْنهم وبين مَعَاصيهم.

والثنويَّة: وهي الَّتي زَعَمتْ أنَّ الخيرَ من الله، والشَّرَّ من إبليس.

والمعتزلة هُمُ الَّذين قالوا بِخَلْقِ القُرْآن، وجَحَدوا الرؤية.

والكيسانيَّة: هُمُ الَّذين قالوا: لا نَدْري هَذِهِ الأفعالَ مِنَ الله، أَمْ مِنَ العبادِ، وَلَا نَعْلم أيُثَابُ النَّاس بعد الموت أو يُعَاقبون.

والشيطانيَّة قالوا: إنَّ الله لَمْ يَخْلق شيطانًا.

والشريكيَّة قالوا: إنَّ السَّيِّئات كُلَّها مُقدَّرةٌ إلَّا الكفر.

والوهميَّة قالوا: ليس لأَفْعَال الخَلق وَكَلامهم ذاتٌ، ولَا للحَسَنة والسَّيِّئة ذاتٌ.

والروانديَّة قالوا: كلُّ كتابٍ أُنزِلَ من الله، فَالعَمَلُ به حقٌّ؛ ناسخًا كَانَ أَوْ منسوخًا.

والبتريَّة زعموا: أنَّ مَنْ عَصَىٰ ثُمَّ تاب لَمْ تُقْبل توبتُهُ.

والناكثيَّة زَعَموا: أنَّ مَنْ نكثَ بَيْعة رسول الله ﷺ، فَلَا إِثْمَ عَلَيه.

والقاسطيَّة: فَضَّلوا طَلَبَ الدُّنيا عَلَىٰ الزُّهد فيها.

والنظاميَّة: تَبِعُوا إِبْرَاهيم النظَّام فِي قولِهِ: مَنْ زعم أنَّ الله شيءٌ، فهو كافرٌ.

وانْقَسَمت الجهميَّة اثنتي عشرة فرقةً:

المُعطِّلة: زَعَموا أنَّ كلَّ مَا يَقَع عليه وَهْم الإنسان، فهُوَ مَخلوقٌ، ومَن ادَّعىٰ أنَّ الله يُرَىٰ، فهُوَ كافرٌ.

والمريسيَّة قالوا: أكْثَرُ صفاتِ الله مَخلوقةٌ.

والمُلْتزمة: جَعَلوا البَارِي ﷻ فِي كلِّ مَكانٍ.

والواردِيَّة قالوا: لا يَدْخل النَّارَ مَنْ عَرَف ربَّه، ومَنْ دَخَلها لَمْ يَخرج منها أبدًا.

والزنادقة قالوا: لَيْسَ لأحدٍ أن يثبتَ لنفسِهِ ربًّا؛ لأنَّ الإثباتَ لَا يكونُ إلَّا بَعْد إِدْرَاك الحَواسِّ، ومَا يُدْرك فلَيْسَ بإلهٍ، وما لا يُدْرك لا يَثبتُ.

والحرقية: زَعَموا أنَّ الكافرَ تَحْرِقُه النَّارُ مرَّةً واحدةً، ثُمَّ يَبْقىٰ مُحْتَرِقًا أبدًا لا يجدُ حرَّ النَّار.

والمخلوقيَّة: زَعَمُوا أنَّ القرآنَ مخلوقٌ.

والفانيَّة: زَعَموا أنَّ الجنَّة والنَّار تَفْنيان، ومِنْهم مَنْ قَالَ: إنَّهما لَمْ تُخلقا.

والمغيرية: جَحَدوا الرُّسُل، فَقَالوا: إنَّما هم حُكَّامٌ.

والواقفيَّة قالوا: لا نقولُ إنَّ القرآنَ مَخْلوقٌ، وَلَا غير مَخْلوقٍ.

والقبريَّة: يُنْكرون عَذَابَ القَبر والشَّفَاعة.

واللفظيَّة قالوا: لَفْظُنا بالقُرْآنِ مَخْلوقٌ.

وَانْقَسمت المُرجئةُ اثنتي عَشرة فِرْقَة:

التاركيَّة قالوا: ليس لله عَزَّوَجَلَّ عَلَىٰ خلقِهِ فريضةٌ سوىٰ الإيمان بِهِ، فمَنْ آمن به وعَرَفه، فَلْيَفْعل ما شاءَ.

والسَّائبية قالوا: إنَّ اللهَ تَعَالىٰ سَيَّب خَلْقه ليَعْملوا ما شَاؤوا.

والراجية قالوا: لا نُسمِّي الطَّائع طائعًا، ولا العاصي عاصيًا؛ لأنَّا لا ندري ما لَهُ عند الله.

والشاكية قالوا: إنَّ الطَّاعات لَيْسَتْ من الإيمان.

والبيهسيَّة قالوا: الإيمانُ: العلمُ، ومَنْ لَا يَعْلم الحقَّ من الباطل، والحلالَ من الحَرَام؛ فهُوَ كافرٌ.

والعملية قالوا: الإيمانُ عَمَلٌ.

والمنقوصية قالوا: الإيمانُ لَا يزيدُ، وَلَا ينقصُ.

والمستثنية: نَفَوا الاستثناءَ فِي الإيمان.

والمُشبِّهة يَقُولون: لله بصرٌ كبَصَري، ويدٌ كَيَدي.

والحشويَّة: جَعَلوا حُكْمَ الأَحَاديث كُلِّها واحدًا، فعِنْدهُمْ أَنَّ تاركَ النَّفل كَتَاركِ الفرض.

والظَّاهريَّة: وهُمُ الَّذين نَفَوا القياسَ.

والبدعيَّة: أوَّل من ابْتدَع الأحْدَاث فِي هَذِهِ الأُمَّة.

وَانْقَسمت الرَّافضة اثْنَتيْ عَشْرة فرقةً:

العلويَّة قالوا: إنَّ الرِّسالةَ كَانَتْ إِلَىٰ عليٍّ، وإِنَّ جِبْرِيلَ أَخطأ.

والأمريَّة قالوا: إنَّ عليًّا شريكُ مُحمَّدٍ ﷺ فِي أمْره.

والشِّيعة قالوا: إنَّ عليًّا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وصيُّ رسول الله ﷺ، ووليُّهُ من بَعْده، وإنَّ الأُمَّة كَفَرتْ بِمُبَايعة غيره.

والإسحاقيَّة قالوا: إنَّ النُّبوَّةَ مُتَّصلةٌ إِلَىٰ يَوْم القيامة، وكلُّ مَنْ يعلم عِلْمَ أَهْل البيت فهُوَ نَبِيٌّ.

والناووسيَّة قالوا: إنَّ عليًّا أفْضل الأُمَّة، فمَنْ فضل غَيْره عليه فقَدْ كَفَر.

والإماميَّة قالوا: لا يُمْكن أنْ تكون الدُّنيا بغير إمامٍ من وَلَد الحُسَين، وإنَّ الإمامَ يُعلِّمه جبرائيلُ، فإذَا مَاتَ بَدَّل مكانه مثله.

والزيديَّة قالوا: إنَّ وَلَد الحُسَين كلَّهم أئمَّةٌ فِي الصَّلوات، فَمَتىٰ وُجِدَ مِنْهم أحدٌ، لَمْ تجز الصَّلاة خلف غَيْره، بَرِّهم وفَاجِرِهِمْ.

والعباسيَّة زعموا: أنَّ العبَّاس كان أَوْلَىٰ بالخلافة من غَيْره.

والمُتنَاسخة قالوا: إنَّ الأرْواحَ تَتَناسخ، فمَتَىٰ كَانَ مُحْسنًا، خَرجَتْ رُوحُهُ، فَدَخلتْ فِي خلقٍ تَسْعد بعيشِهِ، ومَنْ كان مسيئًا، دَخَلتْ رُوحُهُ فِي خلقٍ تَشْقىٰ بعيشِهِ.

والرجعيَّة زعموا: أنَّ عليًّا وأَصْحَابه يَرْجعون إِلَىٰ الدُّنيا، ويَنْتقمون من أَعْدَائهمْ.

واللاعنيَّة: الَّذين يَلْعنون عثمانَ، وطَلْحة، والزُّبير، ومُعَاوية، وأبا مُوسَىٰ، وَعَائشة، وغَيْرهم رَضِيَ اللهُ عَنْهُم

والمُتربصة: تَشبَّهوا بِزِيّ النُّسَّاك، ونَصَبوا فِي كلّ عصرٍ رجلًا يَنسبون الأمرَ إِلَيْه، يَزْعمون أنّه مَهْديُّ هَذِهِ الأُمَّة، فإِذَا مات نَصَّبوا رجلًا آخر.

وَانقَسمت الجبريَّة اثنتي عشرة فرقةً، فمِنْهم:

المضطربة قالوا: لَا فِعْلَ للآدميّ، بَل الله عَزَّوَجَلَّ يَفْعل الكلَّ.

والأفعاليَّة قالوا: لنا أفْعَالٌ، وَلَكن لا استطاعةَ لَنَا فيها، وإِنَّما نَحْن كالبَهَائم نُقَاد بالحبل.

والمفروغيَّة قالوا: كلُّ الأَشْيَاء قَدْ خُلِقَتْ، والآن لا يُخْلق شيءٌ.

والنَّجاريَّة: زَعَمتْ أنَّ الله يُعذِّب النَّاس عَلَىٰ فعلِهِ، لا عَلَىٰ فِعْلِهِمْ.

والمتانية قالوا: عَلَيك بِمَا خَطَر بقلبك، فَافْعَل ما تَوسَّمت به الخير.

والكسبيَّة قالوا: لا يَكْسب العبدُ ثوابًا، ولا عقابًا.

والسَّابقيَّة قالوا: مَنْ شاءَ فَلْيَفعل، ومَنْ شاءَ لَا يَعْمل، فإِنَّ السَّعيدَ لا تَضُرُّهُ ذنوبُهُ، والشَّقيُّ لا ينفعُهُ برُّهُ.

والحُبِّيَّةُ قالوا: مَنْ شرب كأسَ مَحبَّة الله عَزَّوَجَلَّ سَقَطت عنه الأركانُ، والقِيَامُ بِها.

والخوفيَّةُ قالوا: إنَّ مَنْ أحبَّ اللهَ تَعَالَىٰ لَمْ يَسَعْهُ أَنْ يَخَافَه؛ لأنَّ الحَبِيبَ لَا يَخافُ حَبِيبَهُ.

والفكريَّة قالوا: إنَّ مَن ازْدَاد علمًا، سَقَط عنه بقَدْر ذَلكَ من العبادة.

والخسيَّة قالوا: الدُّنيا بَيْنَ العباد سواء، لَا تَفَاضل بَيْنهم فيما وَرَّثهُمْ أبوهم آدَم.

والمعيَّة قالوا: منَّا الفعلُ، ولنا الاستطاعةُ.

الباب الثالث
في التحذير من فتن إبليس ومكايده

قَال الشَّيخ أبو الفرج رَحِمَهُ اللهُ: اعْلَمْ أنَّ الآدَمِيَّ لمَّا خُلِقَ، رُكِّبَ فيه الهوىٰ والشَّهوة، ليجتلب بذَلكَ ما ينفعُهُ، ووُضِعَ فيه الغضبُ ليَدْفع به ما يُؤْذيه، وأُعْطِيَ العقل كالمُؤدِّب يأمُرُه بالعدل فيما يُجْتلَبُ ويُجْتنبُ، وخُلِقَ الشَّيطانُ مُحرِّضًا له عَلَىٰ الإِسْرَاف فِي اجتلابِهِ واجتنابِهِ، فالواجبُ عَلَىٰ العاقل أنْ يأخذَ حِذْرَه من هَذَا العدوِّ الَّذي قَدْ أبانَ عَدَاوته من زَمَن آدم عليه الصَّلاة والسَّلام، وقَدْ بَذَلَ عُمُرَه ونَفْسَه فِي إِفْسَادِ أحْوَال بني آدم.

وقَدْ أمَرَ اللهُ تَعَالىٰ بالحَذَر منه، فقَال ﷻ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [البقرة: ١٦٨، ١٦٩].

وَقَالَ تَعَالىٰ: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

وَقَالَ تَعَالىٰ: ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ [النساء: ٦٠].

وَقَالَ تَعَالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة: ٩١].

وَقَالَ تَعَالىٰ: ﴿إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [القصص: ١٥].

وَقَالَ تَعَالىٰ: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر: ٦].

وَقَالَ تَعَالىٰ: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾ [لقمان: ٣٣].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ [يس:٦٠].

وَفِي الْقُرْآنِ مِنْ هَذَا كثيرٌ.

[التحذير من فتن إبليس ومكايده]:

قال الشَّيخ أبو الفرج رَحِمَهُ اللَّهُ: وينْبَغِي أنْ تعلمَ أنَّ إبليسَ شغلُهُ التَّلبيسُ أوَّل ما الْتبسَ عليه الأمر، فأَعْرَض عن النَّصِّ الصَّريح عَلَىٰ السُّجُود، فأَخَذ يُفَاضل بَيْن الأُصُول، فَقَال: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾ [الأعراف:١٢]، ثُمَّ أَرْدَف ذلكَ بالاعْتـرَاض عَلَىٰ المَلِكِ الحَكيم، فَقَال: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ [الإسراء:٦٢]، والمَعْنىٰ: أَخْبرنِي لِمَ كَرَّمتَهُ عليَّ؟ غَرَضُ ذَلكَ الاعْتِرَاض أنَّ الَّذي فَعَلْتَهُ ليس بِحِكْمةٍ، ثُمَّ أَتْبعَ ذلكَ بالكِبْرِ، فَقَال: ﴿أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف:١٢]، ثُمَّ امْتنَعَ عَن السُّجُود، فأَهَانَ نَفْسه الَّتي أَرَاد تَعْظيمها باللَّعْنة والعِقَابِ.

فَمَتىٰ سوَّل للإنْسَان أمرًا، فيَنْبغي أنْ يُحْذَرَ منه أَشدَّ الحَذَر، وليَقُل له حين أمره إيَّاه بالسُّوء: إنَّما تريد بِما تأمر به نصحي ببُلُوغي شَهْوتِي، وكَيْف يَتَّضح صَوَاب النُّصح للغَيْر لمَنْ لا ينصح نَفْسَهُ؟

كيف أَثِقُ بنصيحة عَدوٍّ؟! فَانْصَرِفَ، فَمَا فِيَّ لقَوْلك مَنْفَذٌ، فَلَا يَبْقىٰ إلَّا أن يَسْتعينَ بالنَّفس؛ لأنَّه يحثُّ عَلَىٰ هَوَاها، فَلْيَسْتحضر العقلَ إِلَىٰ بَيْت الفكر فِي عَوَاقب الذَّنب؛ لعلَّ مَدَدَ تَوْفيقٍ يَبْعث جُنْدَ عزيمتِهِ، فيَهْزِم عَسْكرَ الهَوَىٰ والنَّفس.

أخبرنا عَبْد الوَهَّاب بن المبارك، نا عاصم بن الحَسَن، نا أبو عُمَر بن مهديٍّ، ثنا الحُسَين بن إسماعيل، ثنا زَكريَّا بن يَحيَىٰ، ثنا شبابة بن سوار، ثني المُغيرَة، عَنْ مُطرِّف بن الشِّخِّير، عَنْ عِيَاض بن حمارٍ، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: «**يَا أيُّها النَّاسُ، إنَّ اللهَ تَعَالىٰ أَمَرنِي**

أَنْ أُعَلِّمَكُم مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي فِي يَوْمِي هَذَا، إِنَّ كُلَّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدِي فَهُوَ لَهُ حَلالٌ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُم، فَأَتَتْهُم الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وأَمَرَتْهُمْ أَلَّا يُشْرِكُوا بِي ما لَمْ أُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا، وَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ نَظَرَ إِلَىٰ أَهْلِ الأَرْضِ، فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُم وعَجَمَهُمْ، إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ»(١).

وأخبرنا ابْن الحُصَيْنِ قَالَ: أَخْبَرَنَا ابْنُ المُذهب، نا أَحْمَد بن جعفرٍ، ثَنا عَبْد الله بن أحمد، ثني أَبِي، ثنا يَحيَىٰ بن سعيدٍ، ثنا هشام، ثنا قتادة، عَنْ مُطَرِّف، عياض بن حمار، أنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَطَب ذات يومٍ، فَقَال فِي خطبتِهِ: «إِنَّ رَبِّي...»، إِلَىٰ آخِر الحَدِيثِ المُتَقَدِّمِ(٢).

أخبرنا ابْنُ الحُصَيْن، نا ابْنُ المذهب، نا أحمد بن جعفر، ثَنَا عَبْد الله بن أحمد، ثني أَبِي، ثنا أبو مُعَاوية، ثنا الأَعْمَش، عَنْ أَبِي سُفْيان، عَنْ جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: «إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَىٰ المَاءِ، ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ، فَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُم فِتْنَةً، يَجِيءُ أَحدُهُمْ فيَقُولُ: فَعَلْتُ كَذَا وكَذَا، فيَقُولُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئًا. قَالَ: ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فيَقُولُ: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّىٰ فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ. قَالَ: فيُدْنِيهِ مِنْهُ -أَوْ قَالَ: فَيَلْتَزِمُهُ- ويَقُولُ: نِعْمَ أنتَ»(٣).

وقد قَالَ أحمد: حدَّثنا أبو نعيمٍ، ثنا سفيان، عن أَبِي الزُّبَيْرِ، عن جابر رضي الله عنه يرفعُهُ، قال: «إِنَّ إِبْلِيسَ قَدْ يَئِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ المُصَلُّونَ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُم».

قال المُصنِّف: انْفَرَدَ به البخاريُّ، والَّذي قَبْلَه مسلمٌ، وفِي لفظ حديثِهِ: «قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ المُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ العَرَبِ»(٤).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٥).

(٢) التخريج السابق.

(٣) أخرجه مسلم (٢٨١٣).

(٤) أخرجه مسلم (٢٨١٢).

أنبأنا إسماعيل السَّمرقنديُّ، نا عاصم بن الحَسَن، نا ابن بشران، نا ابن صَفوان، نا أبو بكر القرشيُّ، ثني الحُسَين بن السَّكَن، ثنا المعَلَّىٰ بن أسد، ثني عديُّ بن أبي عمارة، ثنا زياد النميري، عَنْ أنس بن مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يرفعُهُ، قَالَ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ وَاضِعٌ خَطمَهُ عَلَىٰ قَلْبِ ابْنِ آدَمَ، فإِنْ ذَكَرَ اللهَ خَنَسَ، وَإِنْ نَسِيَ اللهَ الْتقَمَ قَلْبَهُ»(١).

أخبرنا مُحمَّد بن أبي منصور، نا عبد القادر، نا الحَسَن بن عليٍّ التَّميمي، نا أبو بكر بن مالكٍ، ثنا عبد الله بن أحمد، ثنا أبي، ثنا عبد الرَّحمن، عَنْ حَمَّاد بن سَلَمة، عَنْ عَطَاء بن السَّائب، عَنْ عَمْرو بن ميمونٍ، عَن ابْن مَسْعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ طَافَ بِأَهْلِ مَجْلِسِ الذِّكْرِ لِيَفْتِنَهُمْ، فلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُفرِّقَ بَيْنَهُم، فَأَتَىٰ حَلْقَةً يَذْكُرُونَ اللهَ، فَأَغْرَىٰ بَيْنَهُمْ حَتَّىٰ اقْتَتَلوا، فَقَام أَهْلُ الذِّكْرِ، فَحَجَّزُوا بَيْنَهُمْ فَتفرَّقُوا».

قال عبد الله: وحَدَّثني عليُّ بن مسلمٍ، ثنا سيَّار، ثنا حَيَّانُ الجَرِيريُّ، ثنا سُوَيد القبائي، عَنْ قتادة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: إنَّ لإبليس شيطانًا يُقَال له: «قبقب» يَجُمُّهُ أربعين سنةً، فإِذَا دَخَل الغُلامُ فِي هَذَا الطَّريق، قَالَ له: دُونَك، إنَّما كُنْتُ أَجُمُّكَ لِمِثْلِ هَذَا، أَجْلِبْ عَلَيه وَأَفْتِنْهُ.

قال سيار: وحَدَّثنا جعفرٌ، ثنا ثابت البنانِيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: بَلَغَنَا أَنَّ إبليسَ ظَهَر ليحيىٰ بن زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ، فرَأىٰ عَلَيه مَعَاليقَ من كلِّ شيءٍ، فَقَال يَحيَىٰ: يا إبليسُ، ما هَذِهِ المعاليقُ الَّتي أرَىٰ عَلَيك؟ قَالَ: هَذِهِ الشَّهَوات الَّتي أَصِيدُ بِهِنَّ ابْنَ آدَمَ.

قَالَ: فهَلْ لِي فيها من شيءٍ؟ قَالَ: ربَّما شَبِعْتَ فثَقَّلْنَاكَ عن الصَّلاة، وثَقَّلناك عن الذِّكْر. قال: فهَلْ غَيْرُ ذلك؟ قَالَ: لا، والله. قَالَ: لله عليَّ ألَّا أملأَ بطنِي من طَعَامٍ أبدًا. قالَ إبليسُ: ولله عليَّ ألَّا أنصحَ مُسْلمًا أبدًا.

قال عبد الله بن أحمد: ثنا أبي، ثنا وكيعٌ، ثنا الأعْمشُ، عَنْ خيثمةَ، عن الحارث بن

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٥٤١)، وضَعَّفه الألبانيُّ في «ضعيف الجامع» (١٤٨٠).

قيسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: إذا أَتاكَ الشَّيطانُ وأَنْتَ تُصلِّي! فَقَال: إنَّك تُرائي، فزِدْهَا طولًا.

أنبأنا إسماعيلُ السَّمرقنديُّ، نا عاصم بن الحسن، نا عليُّ بن مُحمَّد، نا أبو علي بن صفوان، نا أبو بكر بن عبيد، نا عبد الرَّحمن بن يُونُس، نا سفيان بن عُيَينة، قَالَ: سَمِعَ عَمْرُو ابن دينارٍ، أنَّ عُروةَ بن عامرٍ سَمِعَ عُبَيد بن رفاعة يبلغ به النَّبِيّ ﷺ يَقُول: «كَانَ رَاهِبٌ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَأَخَذَ الشَّيْطَانُ جَارِيَةً فَخَنَقَهَا، وَأَلْقَىٰ فِي قُلُوبِ أَهْلِهَا أَنَّ دَوَاءَهَا عِنْدَ الرَّاهِبِ، فأَتَوا بِهَا الرَّاهِبَ، فأَبَىٰ أن يَقْبَلَهَا، فَمَا زَالُوا بِهِ حَتَّىٰ قَبِلَهَا، فَكَانَتْ عِنْدَهُ، فأَتَاهُ الشَّيْطَانُ، فَسَوَّلَ لَهُ إِيقَاعَ الفِعْلِ بِهَا، فَأَحْبَلَهَا، ثُمَّ أَتَاهُ، فَقَال لَهُ: الآنَ تُفْتَضَحُ، يَأْتِيكَ أَهْلُهَا، فَاقْتُلْهَا، فإِنْ أَتَوكَ فَقُلْ: مَاتَتْ. فَقَتَلَهَا وَدَفَنَهَا، فأَتَىٰ الشَّيْطَانُ أَهْلَهَا، فَوَسْوَسَ لَهُم، وَأَلْقَىٰ فِي قُلُوبِهِم أَنَّه أَحْبَلَهَا، ثُمَّ قَتَلَها وَدَفَنَهَا، فَأَتَاهُ أَهْلُهَا يَسْأَلُونَهُ عَنْهَا، فَقَال: مَاتَتْ. فَأَخَذُوهُ، فَأَتَاهُ الشَّيْطَانُ، فَقَالَ: أَنَا الَّذِي ضَرَبْتُهَا وَخَنَقْتُهَا، وَأَنَا الَّذِي أَلْقَيْتُ فِي قُلُوبِ أَهْلِهَا، وَأَنَا الَّذِي أَوْقَعْتُكَ فِي هَذَا، فأَطِعْنِي تَنْجُ، فَاسْجُدْ لِي سَجْدَتَيْنِ. فَسَجَدَ لَهُ سَجْدَتَيْنِ، فهُوَ الَّذِي قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الحشر:١٦]»[(١)].

وقَدْ رُوِيَ هَذَا الحديث عَلَىٰ صفةٍ أُخرىٰ عن وَهْب بن منبه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ عابدًا كانَ فِي بنِي إسرائيل، وكان مِنْ أَعْبَدِ أَهْلِ زمانِهِ، وكان فِي زمانِهِ ثلاثةُ إخوةٍ لَهم أختٌ، وَكَانتْ بِكْرًا، ليس لَهم أختٌ غيرُها، فخَرَج البعثُ عَلَىٰ ثَلَاثتهم، فلَمْ يَدْروا عند مَنْ يُخلِّفون أُخْتَهمْ، وَلَا مَنْ يَأْمنُونَ عَلَيها، وَلَا عِنْدَ مَنْ يَضَعُونها.

قال: فأَجْمعوا رَأْيَهمْ عَلَىٰ أَنْ يُخلِّفوها عند عَابِدِ بني إِسْرَائيل، وَكَانَ ثقةً فِي أنفسهم، فأَتَوهُ، فَسَألوه أَنْ يُخلِّفوا عِنْدَه، فَتكون فِي كَنَفِهِ وجِوارِهِ، إِلَىٰ أن يَقْفِلُوا من غَزَاتِهم، فأبَىٰ

(١) قال العراقي فِي «المغني عن حمل الأسفار» (٢/ ٧١٩): أخرجه ابن أبِي الدنيا فِي «مكايد الشيطان»، وابن مردويه فِي «تفسيره» من حديث عبيد بن رفاعة مرسلًا.

ذَلكَ، وَتعوَّذَ بالله عَزَّوَجَلَّ منهم، ومِنْ أُختِهِم.

قَالَ: فلَمْ يَزَالوا به، حتَّىٰ أطَاعَهُمْ، فَقَال: أنزِلُوهَا فِي بيتٍ حِذَاءَ صَوْمَعَتِي.

قَالَ: فأنْزَلُوها فِي ذَلكَ البَيْتِ، ثُمَّ انطَلَقوا وتَرَكوها، فمَكَثَتْ فِي جِوَارِ ذَلكَ العابِدِ زمانًا، يَنْزِل إليها بالطَّعَام من صَوْمعتِهِ، فيضَعُهُ عند باب الصَّومعة، ثُمَّ يُغْلق بَابَه، ويَصْعد إلَىٰ صومعتِهِ، ثُمَّ يَأمرها فتَخرج من بَيْتها، فتأخذ ما وُضِعَ لَهَا من الطَّعام.

قَالَ: فَتلطَّف لَهُ الشَّيطانُ، فلَمْ يَزَلْ يُرغِّبه فِي الخير، ويُعظِّم عليه خُرُوج الجارية من بَيْتها نَهارًا، ويُخَوِّفه أنْ يَرَاها أحدٌ فيُعلِّقَها، فلَوْ مَشِيتَ بطَعَامها حتَّىٰ تَضَعَه عَلَىٰ بَاب بَيْتها، كَانَ أعْظَمَ لأجْرك. قَالَ: فلَمْ يَزَلْ به، حتَّىٰ مَشَىٰ إليها بطَعَامها، ووَضَعه عَلَىٰ بَاب بَيْتها، ولَمْ يُكلِّمها.

قَال: فلبثَ عَلَىٰ هَذِهِ الحالة زمانًا، ثُمَّ جَاءَه إبليسُ، فَرغَّبه فِي الخَيْر والأجْر، وَحضَّه عَلَيه، وقَال: لو كُنْتَ تمشي إليها بطعامها، حتَّىٰ تضعَه في بيتها، كان أعْظَمَ لِأجْرِكَ.

فلم يزل به، حتَّىٰ مشىٰ إليها بالطَّعام، ثمَّ وَضَعَهُ في بيتها، فَلَبِثَ علىٰ ذلك زمانًا، ثمَّ جاءه إبليس، فرغَّبه في الخير وحضَّه عليه، فقال: لَوْ كُنْتَ تُكلِّمها وتُحدِّثها فتَأْنَسُ بحَدِيثِكَ، فَإنَّها قَد اسْتَوْحَشتْ وَحْشةً شديدةً.

قَالَ: فلَمْ يَزَلْ به حتَّىٰ حَدَّثها زَمانًا يَطَّلع إليها من فَوْق صومعتِهِ.

قال: ثُمَّ أتَاه إبليسُ بَعْد ذَلكَ، فَقَال: لَوْ كنت تَنْزل إليها، فتَقْعد عَلَىٰ باب صَوْمعتك، وتُحدِّثها، وتَقْعد هي عَلَىٰ باب بَيْتها فتُحدِّثك، كانَ آنسَ لَها، فلَمْ يَزَلْ به حتَّىٰ أنْزلَه، وأجْلَسه عَلَىٰ باب صومعتِهِ يُحدِّثها وتُحدِّثه، وتَخرج الجاريةَ مِنْ بَيْتها حتَّىٰ تقعدَ عَلَىٰ بَاب بَيْتها. قَالَ: فَلبثَا زَمَانًا يَتحدَّثان.

ثُمَّ جَاءَ إبليسُ، فَرغَّبه فِي الخَيْر والثَّواب فيما يَصْنع بِها، وَقَالَ: لَوْ خرجت من باب

صَوْمعتك، ثُمَّ جلستَ قريبًا من باب بَيْتها، فحَدَّثتَها، كَانَ آنسَ لَها، فلَمْ يزل به حتَّىٰ فَعَل.

قَالَ: فلبثا زمانًا، ثُمَّ جَاءَه إبليسُ فرغَّبه فِي الخير، وَفِيمَا له عند الله ﷻ من حُسْن الثَّواب فيما يَصْنع بِها، وقال له: لَوْ دَنَوْتَ منها، وَجَلست عند بَاب بَيْتِها فحَدَّثْتَها، ولَمْ تَخرج من بيتها. ففَعَل، فكانَ يَنْزل من صَوْمعتِهِ فيقفُ عَلَىٰ باب بَيْتها، فيُحدِّثها، فَلَبثا عَلَىٰ ذَلكَ حينًا.

ثُمَّ جَاءَه إبليسُ، فَقَال: لَوْ دخلتَ البيتَ مَعَها، فحَدَّثْتَهَا ولَمْ تَتْركْها تُبرز وَجْهها لأحدٍ، كَانَ أحسنَ بك، فلَمْ يزل به حتَّىٰ دَخَل البيتَ، فَجَعل يُحدِّثها نَهَارَها كُلَّه، فإذَا مَضَىٰ النَّهارُ صعد إِلَىٰ صومعتِهِ.

قال: ثُمَّ أتَاه إبليسُ بَعْد ذلك، فلَمْ يَزَلْ يُزيِّنها لَهُ حتَّىٰ ضَرَب العابدُ عَلَىٰ فَخِذِهَا، وَقبَّلها، فلَمْ يزل به إبليسُ يُحَسِّنها فِي عَيْنَيْهِ ويُسوِّل له، حتَّىٰ وَقَع عَلَيها فأَحْبَلها، فوَلَدتْ له غلامًا.

فَجَاء إبليسُ، فَقَال: أرأيتَ إِنْ جاءَ إِخْوَةُ الجارية، وقَدْ وَلَدَتْ منكَ، كيف تَصْنع؟ لا آمنُ أَنْ تُفْتَضَحَ، أَوْ يَفْضحوك، فَاعْمَدْ إِلَىٰ ابْنِهَا فَاذْبَحْه وَادْفِنْهُ؛ فإنَّها سَتكْتُمُ ذَلكَ عَلَيك مَخافةَ إِخْوتِها، أَنْ يَطَّلِعُوا عَلَىٰ ما صَنَعتَ بِها. فَفَعَل.

فقال: أَتَرَاها تكْتُمُ إِخْوَتَها ما صَنَعتَ بِها، وقَتلتَ ابْنَها. قَالَ: خُذْها، وَاذْبَحْها، وَادْفنْهَا مَعَ ابْنِهَا. فلَمْ يزلْ به حتَّىٰ ذَبَحها، وأَلْقاها فِي الحُفْرةِ مع ابنها، وأَطْبَقَ عليهما صخرةً عظيمةً، وسوَّىٰ عَلَيهما، وصعد إِلَىٰ صومعتِهِ يَتعبَّد فيها، فمَكَثَ بذَلكَ ما شاء الله أَنْ يَمْكُثَ، حتَّىٰ أَقْبلَ إِخوتُهَا من الغَزْو، فجَاؤوا؛ فَسَألوه عنها، فنَعَاها لَهُمْ، وتَرحَّم عَلَيها، وبَكَاها.

قال: كَانَتْ خيرَ امرأةٍ، وهَذَا قَبْرُها، فَانْظُروا إليه. فأَتَىٰ إِخْوتُها القبرَ، فبَكُوا أُخْتَهمْ، وَتَرحَّموا عليها، فأَقَاموا عَلَىٰ قَبْرِها أيَّامًا، ثُمَّ انصَرفوا إِلَىٰ أَهَاليهم، فلمَّا جَنَّ عَلَيهم اللَّيل،

وأخذوا مَضاجعَهمْ، جَاءَهم الشَّيطانُ فِي النَّوْمِ عَلَىٰ صُورَة رجلٍ مُسَافرٍ، فَبَدأ بأكبرِهُمْ، فَسَأله عن أُختهم، فأخبَره بقَوْلِ العابد، ومَوْتِها، وتَرحُّمِه عليها، وكَيْف أَرَاهمْ مَوْضعَ قَبْرِها، فكذَّبه الشَّيطانُ.

وقال: لَمْ يَصْدُقْكُم أمْرَ أُختِكم، إنَّه قَدْ أحْبَلَ أُخْتَكمْ، ووَلَدتْ منه غلامًا، فذَبَحه، وذَبَحها معه، فَزَعًا منكم، وألْقَاها فِي حفيرةٍ احْتفَرها خَلْفَ باب البَيْت الَّذي كَانَتْ فيه عن يمين مَنْ دَخَله، فَانطَلِقوا، فَادْخُلُوا البيتَ الَّذي كَانَتْ فيه عَنْ يمين مَنْ دَخَله، فإنَّكُمْ سَتَجدونَهما كَمَا أَخبرتُكُمْ هناكَ جَميعًا.

وأتَىٰ الأَوْسطَ فِي منامِهِ، فَقَال له مِثْلَ ذلك، ثُمَّ أتىٰ أَصْغرَهُمْ، فَقَال له مثلَ ذَلكَ، فلمَّا اسْتَيْقظَ القومُ، أصْبَحوا مُتعجِّبينَ مِمَّا رأىٰ كلُّ واحدٍ منهم، فأَقْبَل بَعْضُهمْ عَلَىٰ بَعْضٍ، يَقُولُ كلُّ واحدٍ منهم: لقَدْ رأيتُ اللَّيلةَ عَجَبًا، فأخْبرَ بَعْضُهم بعضًا بِما رَأىٰ.

فقال كبيرهم: هَذَا حُلْمٌ ليس بشيءٍ، فَامْضُوا بنا، ودَعُوا هَذَا عنكم.

قال أصغرهم: واللهِ، لا أَمْضي حتَّىٰ آتِي إلَىٰ هَذَا المَكَان، فأنْظُرَ فيه.

قال: فَانْطَلقوا جميعًا، حتَّىٰ أتَوا البيتَ الَّذي كَانَتْ فيه أُخْتُهم، ففَتَحوا البابَ، وبَحثوا الموضعَ الَّذي وَصَف لَهم فِي مَنامهمْ، فوَجَدوا أُخْتَهم وَابنَها مَذْبُوحَين فِي الحفير، كَمَا قيل لَهم، فَسَألوا عنها العابدَ؟ فَصَدَّق قولَ إبليس فيما صَنَع بِهما، فَاسْتَعْدُوا عليه كُلُّهمْ، فأُنْزِلَ من صومعتِهِ، وقُدِّمَ ليُصْلَب، فلَمَّا أَوْثَقوه عَلَىٰ الخَشَبة، أتَاه الشَّيطانُ، فَقَال له: قَدْ علمتَ أنِّي أنا صَاحبُكَ الَّذي فَتَنتُكَ بالمَرْأة حتَّىٰ أَحْبَلتَها وذَبَحْتَها وَابْنَها، فإنْ أنتَ أطَعْتَنِي اليومَ، وكَفَرت بالله الَّذي خَلَقَك وصَوَّرَكَ، خلَّصْتُكَ مِمَّا أنتَ فيه.

قال: فكَفَرَ العابدُ، فلَمَّا كَفَر بالله تَعَالىٰ، خَلَّىٰ الشَّيطانُ بَيْنَه وبَيْنَ أصحابِهِ، فَصَلبوه، قَالَ: فَفِيهِ نَزَلَتْ هَذِهِ: ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ

إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحشر: ١٦، ١٧]، وقَدْ تقدَّم ذِكْرُهَا.

أخبرنا مُحمَّد بن أبِي القاسم، نا حَمَدُ بن أحمد، نا أبو نُعَيم، نا أبو بكرٍ الآجريُّ، ثنا عبد الله بن مُحمَّد العطشيُّ، ثنا إبراهيم بن الجُنَيْد، ثني مُحمَّد بن الحُسَين، ثنا بشر بن مُحمَّد بن أبان، ثني الحَسَن بن عبد الله بن مسلم القرشي، عَنْ وَهْب بن مُنبِّه رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: كان راهبٌ فِي صومعتِهِ فِي زَمَن المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، فأرَاده إبليسُ، فلَمْ يَقْدر عليه، فأتَاه بكلِّ رائدةٍ، فلَمْ يَقْدِرْ عليه.

فأتَاه مُتشبِّهًا بالمسيح، فنَادَاه: أيُّها الرَّاهبُ، أشْرِفْ عليَّ أُكلِّمْك. قَالَ: انطَلِقْ لِشَأْنِك، فلستُ أردُّ ما مَضَىٰ من عُمُري. فقَال: أشْرِفْ عليَّ فأنا المسيحُ. فقَال: إنْ كنتَ المسيحَ فَمَا لي إِلَيْك حاجةٌ، ألستَ قَدْ أمَرْتنا بالعِبَادَة، ووَعَدْتَنا القيامة، انْطَلِقْ لشَأْنك، فَلَا حاجة لي فِيكَ، فَانْطَلَقَ اللَّعينُ عنه، وتَرَكه.

أنبأنا إسْمَاعيل بن أحمد، نا عاصم بن الحَسَن، نا عليُّ بن مُحمَّد بن بشران، نا أبو عليٍّ البرذعيُّ، ثنا أبو بكرٍ القرشيُّ، ثنا أبو عبد الله مُحمَّد بن موسىٰ الحرشي، ثنا جعفر بن سُلَيمان، ثنا عمرو بن دينارٍ، ثنا سالم بن عبد الله رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: لمَّا ركبَ نوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي السَّفينة، رأىٰ فيها شيخًا لَمْ يَعْرِفْه، فقَال له نوحٌ: ما أدْخَلك؟ قَالَ: دخلتُ لأُصِيبَ قُلُوبَ أصْحَابك، فتَكون قُلُوبُهم معي، وأبْدَانُهُمْ مَعَك.

فقَال له نوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: اخرج يا عدوَّ الله. فقَال إبليسُ: خمسٌ أُهْلِكُ بِهنَّ النَّاس، وسَأُحدِّثك منهنَّ بثلاثٍ، ولَا أُحدِّثك باثْنَتَين، فأَوْحَىٰ الله تَبارَكَ وتَعَالَىٰ، إلَىٰ نوحٍ عليه الصلاة والسلام، أنَّه لا حَاجَة لكَ إلَىٰ الثَّلاث، مُرْه يُحدِّثك بالاثْنتَين، فقَال: بِهمَا أُهْلِكُ النَّاس، وهُمَا لا يكذبان: الحَسَدُ والحرصُ، فبالحَسَد لُعِنْتُ وَجُعِلْتُ شيطانًا رَجِيمًا، وبالحِرْصِ أُبيحَ لآدمَ الجنَّة كلَّها، فأصبتُ حَاجَتي منه، فأُخرجَ من الجنَّة.

قال: وَلَقِيَ إبليسُ مُوسَىٰ ﷺ، فَقَال: يا مُوسَىٰ، أَنْتَ الَّذي اصْطَفاك اللهُ برسالتِهِ، وكَلَّمكَ تكليمًا، وأنا من خَلْق الله تَعالىٰ أذنبتُ، وأُرِيدُ أَنْ أتوبَ، فَاشْفَعْ لي وإِلَىٰ ربِّي ﷻ أَنْ يتوبَ عَليَّ، فدَعَا مُوسَىٰ ربَّه، فَقِيلَ: يا مُوسَىٰ، قَدْ قَضَيت حَاجَتك، فلَقِيَ مُوسَىٰ إبليس، فَقَال: له قَدْ أُمرت أَنْ تَسْجُدَ لقَبْر آدمَ، ويُتَاب عَلَيك، فَاسْتكبر وغَضبَ، وَقَال: لَمْ أَسْجد له حيًّا، أأسجُدُ له ميتًا.

ثُمَّ قَالَ إبليسُ: يَا مُوسَىٰ، إنَّ لَكَ حقًّا بِما شفعت إلَىٰ ربِّك، فَاذْكُرني عندَ ثلاثٍ لَا أهلك فيهنَّ: اذكرنِي حين تَغْضَبُ، فأنَا وَحْيٌ فِي قَلْبك، وعَيْني فِي عينك، وأجْري منك مَجْرىٰ الدَّم.

وَاذْكُرْنِي حينَ تَلْقىٰ الزَّحف، فإنِّي آتىٰ ابْن آدم حين يَلْقىٰ الزَّحف، فأُذكِّره وَلَده، وزَوْجته، وأَهْلَه حتَّىٰ يولِّي، وإيَّاك أن تُجالسَ امرأةً لَيْسَتْ بذاتِ مَحْرمٍ، فإنِّي رَسُولها إليك، ورَسُولُك إليها.

قال القرشي: وحَدَّثنا أبو حفص الصَّفَّار، ثنا جعفر بن سُلَيمان، ثنا شعبةُ، عن عليِّ بن زيدٍ، عَنْ سعيد بن المُسيَّب ؓ، قَالَ: ما بَعَث الله نبيًّا إلَّا لَمْ يَأْمَنْ من إبليس أَنْ يُهْلكه بالنِّساء.

قال القرشي: وَثَنِي القاسمُ بن هاشم، عَنْ إبراهيم بن الأَشْعَث، عن فُضَيل بن عياضٍ، قَالَ: حَدَّثنِي بَعْض أَشْيَاخنا أَنَّ إبليسَ -لَعَنه الله- جَاءَ إِلَىٰ مُوسَىٰ عَلَيه الصَّلاة والسَّلام، وهُوَ يُنَاجي ربَّه تَعَالىٰ، فَقَال له الملك: وَيْلك! ما تَرْجو منه، وهُوَ عَلَىٰ هَذِهِ الحالة يُنَاجي ربَّه تَعَالَىٰ. قَالَ: أَرْجو منه ما رجوتُ من أَبِيهِ آدمَ وهُوَ فِي الجنَّة.

قال القرشي: وَثَنا أحمد بن عبد الأَعْلَىٰ الشَّيبانِيُّ، ثنا فَرَج بن فضالة، عَنْ عَبْد الرَّحمن ابن زيادٍ ؓ، قَالَ: بَيْنما مُوسَىٰ ﷺ جالسٌ فِي بَعْض مَجَالسِهِ، إِذْ أَقْبلَ عَلَيه إبليسُ،

وَعَليه برنسٌ له، يتلون فيه ألوانًا، فلَمَّا دَنَا منه، خَلَع البرنسَ، فَوَضعه، ثُمَّ أتاه، وَقَالَ له: السَّلام عَلَيك يا موسىٰ. فَقَال له مُوسَىٰ ﷺ: مَنْ أنتَ؟ قَالَ: أنا إبليسُ. قَالَا: فلا حَيَّاك الله، ما جاءَ بك؟

قَالَ: جئت لأُسلِّم عليكَ، لِمَنْزِلتك عند الله تَعَالىٰ، ومَكَانك منه. قَالَ: فَمَا الَّذي رَأيْته عَلَيك؟

قَالَ: به أختطفُ قُلُوب بني آدَمَ. قَالَ: فَمَا الَّذي إذا صَنَعه الإنسانُ اسْتَحوذتَ عَلَيه؟

قَالَ: إذا أَعْجَبَتْهُ نفسه، وَاسْتَكْثَر عَمَله، ونَسِيَ ذُنُوبَه، وأُحذِّرك ثلاثًا: لا تَخْلونَّ بامرأةٍ لا تَحلُّ لك قطُّ، فإنَّه ما خَلَا رجلٌ بامرأةٍ لَا تحلُّ له إلَّا كنتُ صاحبَهُ دون أصْحَابِي حتَّىٰ أفتنه بِها، ولا تُعَاهد الله عهدًا إلَّا وَفَّيتَ به، فإنَّه ما عاهد الله أحدٌ إلَّا كنتُ صَاحِبَهُ دون أصْحَابِي حتَّىٰ أحُولُ بينه وبَيْن الوَفَاء بِهِ، ولا تخرجنَّ صَدَقةً إلَّا أمْضيتها، فإنَّه ما أَخْرج رجلٌ صدقةً فلَمْ يُمْضها إلَّا كنتُ صَاحبَهُ دُونَ أصْحابِي، حتَّىٰ أحُولَ بَيْنه وبَيْنَ إخرَاجها.

ثُمَّ ولَّىٰ وهُوَ يَقُول: يا وَيْله! ثلاثًا، علم موسىٰ ما يُحذِّر به بني آدَمَ.

قال القرشيُّ: وحَدَّثنِي مُحمَّد بن إدريس، ثنا أَحْمَد بن يُونُس، ثنا حَسَن بن صالحٍ، قَالَ: سمعتُ أنَّ الشَّيطانَ قَالَ للمرأة: أنتِ نصفُ جُنْدي، وأَنْتِ سَهْمي الَّذي أرْمي به، فلا أُخطئ، وأنْتِ مَوْضع سرِّي، وأَنْتِ رَسُولي فِي حَاجتِي.

قال القرشيُّ: وحَدَّثنا إسحاق بن إبراهيم، ثنِي هشام بن يُوسُف، عَنْ عقيل بن معقل بن أخي وَهْب بن مُنبِّه، قَالَ: سَمعتُ وَهْبًا يَقُول: قَالَ رَاهبٌ للشَّيطان، وقَدْ بَدَا له: أيُّ أَخْلَاق بني آدمَ أعْوَن لك عَلَيهم؟ قَالَ: الحدَّة، إنَّ العبدَ إذَا كَانَ حديدًا، قَلَبناه كما يَقْلب الصِّبيان الكرة.

قال القرشيُّ: وحَدَّثنا سعيد بن سليمان الواسطيُّ، عن سُلَيمان بن المغيرة، عَنْ

ثابتٍ رضي الله عنه قَالَ: لمَّا بُعِثَ النَّبِيُّ ﷺ، جَعَل إبليسُ -لَعَنه اللهُ- يُرْسِل شَيَاطِينَه إلَىٰ أصْحَاب النَّبِيِّ ﷺ، فَيَجِيئُونَ إِلَيْه بصُحُفهِمْ لَيْس فيها شيءٌ، فيَقُول لَهُمْ: ما لَكُمْ لَا تُصيبُونَ مِنْهم شيئًا؟ فَقَالوا: ما صَحِبْنَا قومًا مِثْلَ هَؤُلَاء. فَقَال: رُوَيدًا بِهِمْ، فَعَسىٰ أَنْ تُفْتحَ لَهم الدُّنيا هُنَاك تُصيبُونَ حَاجَتكمْ مِنْهم.

قال القرشيُّ: وأخْبَرنا أحْمَد بن جميل المروزيُّ، نا ابن المُبَارك، نا سُفْيان، عَنْ عطاء ابن السَّائب، عَنْ أبِي عبد الرَّحمن السُّلمي، عَنْ أَبِي مُوسَىٰ قَالَ: إذا أَصْبَح إبليسُ، بثَّ جُنُودَه فِي الأَرْض، فَيَقول: مَنْ أضلَّ مسلمًا، أَلْبستُهُ التَّاج. فَيقُولُ له القائلُ: لَمْ أَزَلْ بفلانٍ حتَّىٰ طَلَّق امرأتَهُ. قَالَ: يُوشكُ أَنْ يَتزوَّج.

وَيَقُولُ آخر: لَمْ أزل بفلانٍ حتَّىٰ عقَّ. قَالَ: يُوشِكُ أَنْ يبرَّ.

ويَقُول آخر: لَمْ أَزَلْ بفلانٍ حتَّىٰ زَنَا. قال: أنتَ.

ويَقُول آخر: لَمْ أَزَلْ بفلانٍ حتَّىٰ شربَ الخمرَ. قَالَ: أنتَ.

قَالَ: ويَقُول آخر: لَمْ أَزَلْ بفلانٍ حتَّىٰ قتل، فيَقُول: أنتَ أنتَ.

قال القرشيُّ: وَسَمعتُ سعيدَ بن سُلَيمان يُحدِّث عن المُبَارك بن فضالة، عَن الحَسَن، قَالَ: كانتَ شجرةٌ تُعْبَد من دُون الله، فَجَاء إليها رجلٌ، فَقَال: لأقطعنَّ هَذِهِ الشَّجرة. فَجَاء ليَقْطعها غضبًا لله، فَلَقيه إبليسُ فِي صُورَة إِنْسانٍ، فَقَال: ما تريد؟ قال: أريدُ أَنْ أقطعَ هَذِهِ الشَّجرة الَّتي تُعْبَدُ من دُون الله. قَالَ: إذا أنتَ لَمْ تَعْبدها، فَمَا يضرُّك مَنْ عَبَدها؟ قَالَ: لأَقْطعنَّها. فَقَال له الشَّيطانُ: هل لَكَ فيما هو خيرٌ لك؟ لا تَقْطَعها ولَكَ ديناران كلَّ يومٍ إذا أصبحتَ عند وِسَادَتك. قَالَ: فمِنْ أَيْنَ لي ذَلكَ؟

قَالَ: أنَا لكَ، فَرَجع، فوَجَد دِينَارين عند وسادتِهِ، ثُمَّ أَصْبَح بَعْد ذلك، فلَمْ يجد شيئًا، فقَامَ غضبًا ليَقْطعها، فتَمثَّل له الشَّيطان فِي صورتِهِ، وقَالَ: ما تريد؟ قال: أريدُ قَطْع هَذِهِ

الشَّجرة الَّتي تُعْبد من دون الله تَعَالىٰ.

قَالَ: كَذَبتَ، ما لكَ إلَىٰ ذلكَ من سبيلٍ، فَذَهب ليَقْطعها، فَضرب به الأَرْض، وَخنقه حتَّىٰ كادَ يَقْتله. قَالَ: أتَدْري مَنْ أنا؟ أنا الشَّيطانُ، جئتَ أوّل مرّةٍ غضبًا لله، فلَمْ يكنْ لي عَلَيك سبيلٌ، فخَدَعتُكَ بالدِّينارين، فَتركتَها، فلَمَّا جئت غضبًا للدِّينارين، سُلِّطتُ عَلَيك.

قال القرشيُّ: وحدَّثنا بشر بن الوليد الكنديُّ، ثنا مُحمَّد بن طَلْحة، عَنْ زيد بن مُجاهدٍ، قَالَ: لإبليس خَمْسَةٌ من وَلَده، قَدْ جَعَل كلَّ واحدٍ منهم عَلَىٰ شيءٍ مِنْ أمْره، ثُمَّ سَمَّاهمْ، فذَكَر: ثبر، والأَعْوَر، ومسوط، وَدَاسم، وزكنبور.

فأمَّا ثبر: فهُوَ صاحبُ المُصيبَات الَّذي يأمُرُ بالثُّبُور، وشقِّ الجُيُوب، ولَطْم الخُدُود، ودَعْوىٰ الجاهليَّة.

وأمَّا الأعور: فهو صاحب الزِّنا الَّذي يأمُرُ به، ويُزيِّنه.

وأمَّا مسوط: فهُوَ صاحبُ الكَذِبِ الَّذي يَسْمع فيَلْقىٰ الرَّجُلَ، فيُخْبره بالخبر، فيَذْهب الرَّجلُ إلَىٰ القوم، فيَقُول لَهم: قَدْ رأيتُ رجلًا أعْرف وَجْهه، وَلَا أدْري ما اسمُهُ حَدَّثني بكَذَا وكَذَا.

وأمَّا داسم: فهو الَّذي يَدْخل مع الرَّجل إلَىٰ أهلِهِ، يُريهُ العيبَ فيهم، ويُغَضِّبُهُ عَلَيهم.

وأمَّا زكنبور: فهُوَ صاحبُ السُّوق الَّذي يَرْكز رَايتَهُ فِي السُّوق.

أخبرنا مُحمَّد بن القاسم، نا حمد بن أحمد، نا أبو نُعَيم، ثنا إبراهيم بن عبد الله، ثنا مُحمَّد بن إسحاق، ثنا إسْماعيل بن أبِي الحارث، ثنا سُنَيد، عن مخلد بن الحُسَين، قَالَ: ما نَدَب اللهُ العبادَ إلَىٰ شيءٍ إلَّا اعْتَرض فيه إبليسُ بأمْرَين، مَا يُبَالي بأيِّهما ظَفَرَ: إمَّا غلوٌّ فيه، وإمَّا تقصيرٌ عنه.

وبالإسناد قال مُحمَّد بن إسحاق: وَثَنا قُتَيبة بن سعيدٍ، ثنا ابْنُ لهيعة، عَنْ أبِي قبيل،

سَمعتُ حَيْوة بن شريحيل يَقُول: سَمعتُ عَبْد الله بن عُمَر يَقُول: إنَّ إبليسَ مُوثقٌ فيه الأَرْض السُّفلىٰ، فإذا هو تَحرَّك، كَانَ كلُّ شرٍّ فِي الأرض بَيْن اثنين فَصَاعدًا من تَحرُّكه.

قَالَ الشَّيخ أبو الفرج رَحِمَهُ اللَّهُ: قلتُ: وفِتَنُ الشَّيطان، ومكايدُهُ كَثيرةٌ فِي غُضُون هَذَا الكتاب، مِنْهَا ما يَليقُ بكلِّ موضعٍ منه إنْ شَاءَ اللهُ تَعَالىٰ، ولِكَثْرة فِتَنِ الشَّيطان وتَشبُّثها بالقُلُوب، عَزَّت السَّلامة، فإِنَّ مَنْ يَدْعو إلَىٰ ما يَحثُّ عليه الطَّبعُ كمداد سفينةٍ منحدرةٍ، فَيَا سُرْعة انْحدَارها، ولمَّا رُكِّبَ الهَوَىٰ فِي هَارُوتَ ومَارُوتَ، لَمْ يَسْتَمسكا، فإِذَا رأت المَلَائكةُ مؤمنًا قَدْ ماتَ عَلَىٰ الإيمان، تَعجَّبتْ من سلامتِهِ.

وأَخْبَرَنا مُحمَّد بن أَبِي منصورٍ، نا جعفر بن أحمد، نا الحَسَنُ بن عليٍّ التَّميمي، ثنا أبو بكر بن حمدان، ثَنا عَبْد الله بن أحمد، ثني ابن سريجٍ، قَالَ: ثنا عُتْبة بن عبد الواحد، عَنْ مالك بن مغولٍ، عَنْ عبد العزيز بن رُفيع، قَالَ: إذا عُرِجَ بِرُوح المُؤْمن إلَىٰ السَّماء، قَالَت الملائكةُ: سُبْحان الَّذي نَجَّىٰ هَذَا العبدَ من الشَّيطان، يا وَيْحه، كيف نَجَا؟!

ذكر الإعلام بأن مع كل إنسان شيطانًا:

أخبرنا أبو الحُصَين الشَّيبانِيُّ، نا أبو عليٍّ المذهب، نا أبو بكر بن حِمدان، ثنا عَبْد الله بن أحمد بن حنبلٍ، ثني أَبِي، ثنا هَارُون، ثنا عَبْدُ الله بن وهبٍ، أَخْبرني أبو صخرٍ، عن أَبِي قسيط، أنَّه حَدَّثَه أنَّ عُروةَ بن الزُّبير، حَدَّثه أنَّ عائشةَ زَوْج النَّبيِّ ﷺ حَدَّثته، أنَّ رسول الله ﷺ خَرَج من عندها ليلًا، قَالَتْ: فَغِرْتُ عَلَيه، فَجَاء، فرأىٰ ما أصنعُ، فَقَال: «ما لكِ يا عائشةُ، أَغِرْتِ؟». فقلتُ: وما لي لا يَغَار مثلي عَلَىٰ مِثْلكَ؟ فَقَال: «أَوَقَدْ جَاءَكِ شَيْطانُكِ؟». قالت: يا رَسُولَ الله، أَوَمَعي شَيْطانٌ؟! قَالَ: «نَعَمْ». قلتُ: ومَعَ كلِّ إنسانٍ؟ قَالَ: «نَعَمْ». قلتُ: ومَعَك يا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «نَعَمْ، ولكن ربِّي عَزَّ وَجَلَّ أعَانني عَلَيه حتَّىٰ أَسْلمَ».

انْفرَدَ به مسلمٌ.

وَيجيءُ بلَفْظٍ آخر: «أَعَانني عَلَيه فأَسْلَمَ»(١).

قَالَ الخَطَّابِيُّ: عامَّة الرُّواة يَقُولُون: «فأَسْلَمَ»، عَلَىٰ مَذْهب الفِعْل المَاضي، إلَّا سُفْيان بن عُيَينة، فإنَّه يَقُول: «فأَسْلمُ من شَرِّه»، وكان يَقُولُ: الشَّيطانُ لا يُسْلم.

قال الشَّيخ: وقَوْلُ ابن عُيَينة حسنٌ، وهو يُظْهر أثر المُجَاهدة لمُخَالفة الشَّيطان، إلَّا أَنَّ حديثَ ابْن مسعودٍ كأنَّه يريدُ قَوْل ابن عُيَينة، وهُوَ ما:

أخبرنا به ابْن الحُصَين بن المذهب، نا أبو بكر بن مالكٍ، ثنا عَبْد الله بن أحمد، ثنا أَبِي، ثنا يَحيَىٰ، عَنْ سُفْيان، ثنِي منصور، عَنْ سالِم بن أَبِي الجعد، عَنْ أبيه، عَن ابن مسعودٍ يرفعُهُ: «ما مِنْكُمْ من أحدٍ إلَّا وقَدْ وُكِّل به قرينُهُ من الجنِّ، وقرينُهُ من المَلَائكة». قالوا: وإيَّاك يا رَسُول الله؟ قَالَ: «وإيَّاي، ولكنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ أَعَانني عليه، فلا يَأمرني إلَّا بِحقٍّ».

وفي روايةٍ: «فَلَا يَأمرنِي إلَّا بِخَيْرٍ»(٢).

قال الشَّيخُ: انْفَرَدَ به مسلمٌ، وَاسْم أَبِي الجعد رافعٌ، وظاهرُهُ: إِسْلَام الشَّياطين، ويَحْتمل القَوْل الآخر.

بَيَان أنَّ الشَّيطان يجري من ابن آدم مَجْرى الدَّم:

أخبرنا هبة الله بن مُحمَّد، نا الحَسَن بن عليٍّ، نا أحمد بن جعفر، نا عبد الله بن أحمد، ثنِي أبِي، ثنا عبد الرَّزَّاق، ثنا معمرٌ، عن الزُّهريِّ، عليٍّ بن الحُسَين، عن صفيَّة بنت حيي زَوْج النَّبيِّ ﷺ قَالَتْ: «كان رسول الله ﷺ معتكفًا، فأتيتُهُ أَزُورُهُ ليلًا، فَحدَّثتُهُ، ثُمَّ قُمْتُ لأَنقِلَبَ، فَقَام معي ليَقْلبني، وَكَانَ مَسْكنها فِي دار أُسَامة بن زيدٍ، فمرَّ رَجُلانِ من الأَنْصَار، فلَمَّا رَأيا رسول الله ﷺ أَسْرَعا، فَقَال النَّبِيُّ ﷺ: «عَلَىٰ رِسْلِكُمَا، إنَّها صفيَّة بنت حُيَي». قَالَا:

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨١٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨١٤).

سُبْحانَ الله يا رَسُول الله! قَالَ: «إنَّ الشَّيطانَ يَجْري من ابْن آدمَ مَجرىٰ الدَّم، وإنِّي خشيتُ أَنْ يقذفَ فِي قُلُوبكما شرًّا»، أوْ قَالَ: «شيْئًا»[(١)]. الحديثُ فِي «الصَّحيحين».

قال الخَطَّابِيُّ: وفِي هَذَا الحديث من العِلْمِ اسْتِحْبَاب أَنْ يَحْذر الإنسانُ من كلِّ أمرٍ من المَكْروهِ، مِمَّا تَجْري به الظُّنُون، ويَخْطر بالقُلُوب، وأَنْ يطلبَ السَّلَامة من النَّاس بإِظْهَار البَراءة من الرِّيَب.

ويُحْكىٰ فِي هَذَا عن الشَّافعيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّه قَالَ: خَافَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَقعَ فِي قُلُوبِهما شيءٌ مِنْ أَمْرٍ، فيَكْفرا، وإنَّما قَالَه ﷺ شفقةً منه عَلَيهما، لا عَلَىٰ نفسِهِ.

ذكر التعوذ من الشيطان الرجيم:

قَالَ الشَّيخ أبو الفرج رَحِمَهُ اللَّهُ: قَدْ أَمرَ اللهُ تَعَالىٰ بالتَّعوُّذ من الشَّيطان الرَّجيم عند التِّلاوة، فَقَال تَعَالىٰ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [النحل:٩٨]، وعند السِّحْر، فَقَال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾﴾ [الفلق:١]، إلَىٰ آخِرِ السُّورة، فإِذَا أمر بالتَّحرُّز من شَرِّه فِي هَذَين الأمرين، فكيف فِي غَيْرهما؟!

أخبرنا هبة الله بن مُحمَّد، نا الحَسَن بن عليٍّ، نا أَحْمَد بن جعفرٍ، نا عَبْد الله بن أحمد، ثنا أبِي، ثنا سَيَّار، ثنا جعفر، ثنا أبو التَّيَّاح، قَالَ: قلتُ لعبد الرَّحمن بن خنيش: أدركتَ النَّبِيَّ ﷺ؟ قال: نَعَمْ. قلتُ: كَيفَ صَنَع رسول الله ﷺ ليلةَ كَادَتْهُ الشَّياطين؟

فَقَال: إنَّ الشَّياطين تَحدَّرت تلك اللَّيلة عَلَىٰ رسول الله ﷺ من الأَوْدِيَة والشِّعاب، وفيهم شَيْطانٌ بيدِهِ شعلةُ نارٍ يريد أَنْ يَحْرق بِها وَجْهَ رسول الله ﷺ، فهَبَط إليه جِبْريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَال: «يا مُحمَّد، قُلْ. قَالَ: ما أَقُولُ؟ قَالَ: قُلْ أَعُوذُ بكَلِمَاتِ الله التَّامَّات من شرِّ ما خَلَق وذَرَأ، ومِنْ شَرِّ ما يَنْزل من السَّمَاء، ومن شرِّ ما يَعْرج فيها، ومِنْ شَرِّ فتن اللَّيل

(١) أخرجه البخاري (٣٢٨١)، ومسلم (٢١٧٥).

والنَّهار، ومن شرِّ كلِّ طارقٍ إلَّا طارقًا يَطْرق بِخيرٍ يَا رَحْمن»(١). قَالَ: فطفئت نَارُهم، وهَزَمهم اللهُ تَعَالىٰ.

أنبأنا إسْماعيل بن أحمد السَّمرقنديُّ، نا عاصم بن الحسن، نا أبو الحُسَين بن بشران، نا ابْن صفوان، ثنا أبو بكرٍ القرشيُّ، حَدَّثنِي أبو سَلَمة المخزوميُّ، ثنا ابن أَبِي فديك، عن الضَّحَّاك بن عثمان، عَنْ هشام بن عروة، عَنْ أبيه، عَنْ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْتِي أَحَدَكُمْ، فَيَقول: مَنْ خَلَقَك؟ فَيَقول: اللهُ تَبَارَك وتَعَالىٰ، فَيَقُول: فمَنْ خَلقَ اللهَ؟ فإذَا وَجَد أَحدُكُمْ ذلكَ، فَلْيقل: آمنتُ بالله ورَسُولِهِ، فإنَّ ذَلكَ يَذْهَبُ عَنْه»(٢).

قال القرشيُّ: ثنا هنَّاد بن السَّري، ثنا أبو الأحوص، عن عَطَاء بن السَّائب، عَنْ مُرَّة الهَمَذانِي، عن ابْن مَسْعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يرفعُهُ، قَالَ: «إنَّ للشَّيطَانِ لمَّةً بابْنِ آدَمَ، وللمَلَكِ لمَّةً، فَأَمَّا لَمَّةُ الشَّيطَانِ، فإِيعَادٌ بالشَّرِّ، وتَكْذِيبٌ بالحقِّ، وأمَّا لَمَّة المَلَك، فإيعادٌ بالخَيْرِ، وتَصْدِيقٌ بِالحَقِّ، فمَنْ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا، فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ اللهِ، وَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ الأُخْرَىٰ، فَلْيَتَعَوَّذْ مِنَ الشَّيْطَانِ». ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾... الآية.[البقرة:٢٦٨](٣).

قال الشَّيخ رَحِمَهُ اللهُ: وقَدْ رَوَاه جريرٌ، عن عَطَاءٍ، فوَقَفه عَلَىٰ ابْن مسعودٍ.

أخبرنا هبة الله بْن مُحمَّد، نا الحَسَن بن عليٍّ، نا أحمد بن جعفرٍ، ثنا عَبْد الله بن أحمد، ثنِي أَبِي، ثنا عبد الرَّزَّاق، نا سُفْيان، عن منصورٍ، عن المِنْهَال بن عمرٍو، عَنْ سعيد بن جبيرٍ، عَن ابْن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: «كَانَ رسول الله ﷺ يُعَوِّذُ الحَسَنَ والحُسَيْنَ، فيَقُول: «أُعِيذُكُمَا بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لامَّةٍ». ثُمَّ يَقُول: «هَكَذَا كَانَ أَبِي

---

(١) أخرجه أحمد (١٥٠٣٤)، وصَحَّحه الألبانيُّ فِي «صحيح الجامع» (٧٤).

(٢) أخرجه أحمد فِي «المسند» (٢٥٦٧١)، وصَحَّحه الألبانيُّ فِي «صحيح الجامع» (١٥٤٢).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٩٨٨)، وضَعَّفه الألبانيُّ فِي «ضعيف الجامع» (١٩٦٣).

إِبْرَاهِيمُ ﷺ يُعَوِّذُ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ»[١]. أَخْرَجاه فِي «الصَّحيح».

قال أبو بكر بن الأنباري: الهَامَّةُ: واحدُ الهَوَامِّ. ويُقَال: هِيَ كلُّ نَسَمةٍ تَهِمُّ بِسُوءٍ.

واللَّامَّةُ: المُلِمَّةُ.

وإنَّما قَالَ: «لَامَّة» ليُوَافق لفظَ «هَامَّة»، فيكون ذَلكَ أَخفَّ عَلَىٰ اللِّسان.

أخبرنا مُحمَّد بن ناصر، نا المُبَارك بن عَبْد الجبَّار، نا إبراهيم بن عُمَر البرمكي، نا أبو الحَسَن عبد الله بن إبراهيم الزُّبَيْبِيُّ، ثنا مُحمَّد بن خَلَف، ثنا عَبْد الله بن مُحمَّد، ثنا فُضَيل بن عبد الوَهَّاب، ثنا جَعْفر بن سليمان، عَنْ ثابتٍ، قَالَ: قَالَ مطرف: نظرتُ، فإذا ابْن آدَمَ مُلْقَىٰ بَيْن يدي الله ﷻ، وبَيْنَ إِبْليسَ، فمَنْ شاءَ أَنْ يَعْصِمَه عَصَمَه، وإِنْ تَرَكَه ذَهَبَ بِهِ إِبْلِيسُ.

وحُكِيَ عَنْ بَعْض السَّلَفِ أنَّه قَالَ لتلميذِهِ: ما تَصْنَعُ بالشَّيْطَانِ إذا سَوَّلَ لَكَ الخَطَايا؟ قَالَ: أُجَاهِدُ. قَالَ: فإِنْ عَادَ؟ قَالَ: أُجَاهِدُ. قال: فإِنْ عَادَ؟ قَالَ: أُجَاهِدُ. قَالَ: هَذَا يَطُول، أرأيتَ إِنْ مَرَرت بِغَنَمٍ، فنَبَحَك كَلْبُهَا، أَو مَنَعَكَ من العُبُورِ، ما تَصْنَعُ؟ قال: أُكَابِدُهُ، وَأَرُدُّهُ جَهْدي. قَالَ: هَذَا يَطُولُ عَلَيك، وَلَكِنِ اسْتَعِنْ بصَاحِبِ الغَنَمِ، يَكُفَّهُ عنكَ.

قَالَ الشَّيخ رَحِمَهُ اللهُ: وَاعْلَمْ أنَّ مَثَل إبليس مع المُتَّقي والمُخلِّط كرجلٍ جَالسٍ بَيْن يَدَيه طعامٌ، فمَرَّ به كلبٌ، فَقَال له: اخْسَأْ، فَذَهب، فمرَّ بآخر بَيْنَ يديه طعامٌ ولحمٌ، فكُلَّما خَسَأَهُ لَمْ يَبْرَحْ، فالأَوَّلُ مَثَلُ المُتَّقي يمرُّ به الشَّيطان، فيَكْفيه فِي طَرْده الذِّكْرُ، والثَّانِي مَثَلُ المُخلِّطِ لا يُفَارِقُهُ الشَّيْطَانُ لمكان تخليطِهِ، نَعُوذ بالله من الشَّيطان.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٧١).

الباب الرابع
في معنى التلبيس والغرور

قال المُصنِّف: التَّلبيسُ: إظْهَار الباطل فِي صُورَة الحقِّ.

والغرور: نوعُ جهلٍ يُوجِبُ اعْتِقَادَ الفاسد صحيحًا، والرَّديء جيدًا.

وسببه: وُجُود شُبْهَةٍ أَوْجَبت ذلك، وإنَّما يَدْخل إبليس عَلَىٰ النَّاس بقَدْر ما يُمْكنه، ويزيد تَمكُّنُهُ منهم ويقلُّ، عَلَىٰ مِقْدَار يَقَظتهم، وغَفْلتهم، وجَهْلهم، وعِلْمهم.

وَاعْلَمْ أنَّ القلبَ كالحِصْنِ، وعَلَىٰ ذَلكَ الحصن سورٌ، وللسُّور أبوابٌ، وفِيهِ ثُلَمٌ[1]، وساكنُهُ العقلُ، والملائكةُ تتردَّد إلَىٰ ذَلكَ الحِصْنِ، وإلَىٰ جانبِهِ ربض فيه الهَوَىٰ، والشَّياطين تَخْتلفُ إلَىٰ ذَلكَ الرَّبض من غَيْر مانعٍ، والحربُ قائمةٌ بين أَهْل الحصن، وأَهْل الرَّبض، والشَّياطين لا تَزَال تَدُورُ حَوْل الحصن تَطْلبُ غَفْلَةَ الحارس، والعُبُور من بَعْض الثُّلَم.

فيَنْبغي للحَارس أنْ يعرفَ جميعَ أَبْوَاب الحِصْنِ الَّذي قَدْ وُكِّل بحفظِهِ، وجميع الثُّلَم، وألَّا يَفْتُرَ عن الحِرَاسَة لحظةً، فإنَّ العدوَّ ما يَفْتر.

قال رجلٌ للحَسَن البصريِّ: أَيَنَامُ إبليس؟ قَالَ: لَوْ نامَ لَوَجدنا راحةً.

وَهَذَا الحصنُ مستنيرٌ بالذِّكْر، مشرقٌ بالإيمان، وَفِيهِ مِرْآةٌ صَقِيلَةٌ يَتَراءىٰ فِيهَا صورُ كلِّ ما يمرُّ به، فأوَّلُ ما يفعل الشَّيطان فِي الربض، إكْثَارُ الدُّخَانِ، فَتسودُّ حِيطَان الحِصْن، وتَصْدأ المرآةُ، وكَمَالُ الفكر يردُّ الدُّخَان، وصقل الذِّكْر يَجْلو المرآةَ، وللعدوِّ حملاتٌ، فَتَراه يَحْمِلُ فيَدْخلُ الحصنَ، فيكرُّ عَلَيه الحارسُ فيَخْرج، وربَّما دَخَل فَعَاثَ، وربَّما أقامَ لغَفْلة

---

(١) أي: كُسور.

الحارس، وربَّما رَكَدت الرِّيحُ الطَّاردةُ للدُّخان، فَتسودُّ حيطانُ الحصن، وتَصْدأ المِرْآة، فيمرُّ الشَّيطان، ولا يَدْري به، وربَّما جُرِحَ الحارسُ لغفلتِهِ، وَأُسِرَ، وَاستُخْدِمَ، وأُقِيمَ يَسْتنبط الحِيلَ فِي مُوَافقة الهوىٰ ومُسَاعدته، وَربَّما صَارَ كالفقيه فِي الشَّرِّ.

قال بَعْضُ السَّلف: رأيتُ الشَّيطان، فَقَال لِي: قَدْ كنت أَلْقَىٰ النَّاس، فأُعلِّمهمُ، فصرتُ أَلْقَاهم فأتعلَّم منهم، وربَّما هَجَم الشَّيطانُ عَلَىٰ الذَّكيِّ الفَطِنِ، ومَعَه عَرُوسُ الهوىٰ، قَدْ جَلاها، فيَتشَاغل الفطنُ بالنَّظَر إليها، فيَسْتأسره، وأَقْوَىٰ القيد الَّذي يُوثَق به الأسرىٰ الجَهْلُ، وأوسطُهُ فِي القوىٰ الهَوَىٰ، وأضعفُهُ الغفلةُ، ومَا دَامَ دِرْعُ الإيمان عَلَىٰ المُؤْمن، فإِنَّ نَبْلَ العدوِّ لا يَقَع فِي مقتلٍ.

أخبرنا مُحمَّد بن أَبِي القاسم، نا أَحْمَد بن أحمد، نا أبو نُعَيم الحافظ، نا أبو مُحمَّد بن حيَّان، ثنا أحمد بن مُحمَّد بن يعقوب، ثنا مُحمَّد بن يُوسُف الجوهريُّ، ثنا أبو غسان النهديُّ، قَالَ: سَمعتُ الحُسَين بن صالحٍ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُول: إنَّ الشَّيطانَ لَيَفْتحُ للعبد تسعةً وتسعينَ بابًا من الشَّرِّ.

أنبأنا عليُّ بن عَبْد الله، نا مُحمَّد بن مُحمَّد النَّديم، نا عَمِّي عَبْد الواحد بن أحمد، ثني أَحْمَد بن الحَسَن العدل، ثنا أبو جعفرٍ مُحمَّد بن صالحٍ، ثنا جبارةُ بن مغلس الحمانِي، ثنا حَمَّاد بن شُعَيب، عن الأَعْمَش قَالَ: حدَّثنا رجلٌ كان يُكلِّم الجنَّ، قالوا: لَيْسَ علينا أشدَّ مِمَّن يَتَّبع السُّنَّة، وأَمَّا أَصْحَاب الأَهْوَاء، فإنَّا نلعب بِهِمْ لعبًا.

الباب الخامس
في ذكر تلبيسه في العقائد والديانات

ذكر تلبيسه عَلَى السوفسطائية:

قَالَ الشَّيخ: هَؤُلَاء قومٌ ينسبون إِلَىٰ رجلٍ يُقَال له: سوفسطا، زَعَموا أنَّ الأشياءَ لَا حقيقةَ لَهَا، وأنَّ ما نَسْتبعدُهُ يَجُوز أَنْ يكونَ عَلَىٰ ما نُشَاهده، ويَجُوز أَنْ يكونَ عَلَىٰ غَيْر ما نُشَاهده.

وقَدْ أورد العلماء عَلَيهم بأَنْ قالوا: لمَقَالتكم هَذِهِ حقيقةٌ أَمْ لَا؟

فإن قلتم: لَا حقيقةَ لَهَا، وجَوَّزتمْ عَلَيها البُطْلانَ، فكَيْفَ يَجُوز أن تَدْعو إِلَىٰ ما لا حقيقةَ لَهُ؟! فكَأَنَّكم تُقرُّون بِهَذَا القَوْل أنَّه لا يحلُّ قَبُول قَوْلكم.

وإن قلتم: لَهَا حقيقةٌ. فقَدْ تركْتُمْ مَذْهبكم.

وقَدْ ذكر مَذْهب هؤلاء أبو مُحمَّد الحَسَن بن مُوسَىٰ النوبَختي فِي كتاب: «الآرَاء والدِّيانات».

فقال: رأيتُ كثيرًا من المُتكلِّمينَ قَدْ غَلَطوا فِي أَمْر هَؤُلَاء غلطًا بَيِّنًا؛ لأنَّهم نَاظَروهُمْ وَجَادلُوهمْ، وَرَاموا بالحِجَاجِ والمُنَاظرة الرَّدَّ عَلَيهم، وهُمْ لَمْ يثبتوا حقيقةً، ولا أقرُّوا بِمُشَاهدةٍ، فكَيْفَ تُكلِّم مَنْ يَقُولُ: لَا أَدْري، أَتُكلِّمنِي أَمْ لا؟ وكَيْف تُنَاظر مَنْ يزعُمُ أنَّه لا يَدْري، أمَوْجودٌ هو أَمْ معدومٌ؟! وكَيْفَ تُخَاطب مَنْ يدَّعي أنَّ المخاطبةَ بِمَنْزلة السُّكُوت فِي الإبَانَة، وأنَّ الصَّحيح بِمَنْزلِةِ الفَاسد؟

قال: ثُمَّ إنَّه إنَّما يُنَاظر مَنْ يقرُّ بضَرُورةٍ، أَوْ يَعْترف بأمرٍ، فيجعل ما يقرُّ سببًا إِلَىٰ تَصْحيح

ما يجحدُهُ، فأمَّا مَنْ لا يقرُّ بذَلكَ، فمجادلتُهُ مطروحةٌ.

قَالَ الشَّيخ: وقَدْ ردَّ هَذَا الكلامَ أبو الوَفَاء بنُ عَقِيلٍ، فَقَال: إنَّ أقوامًا قالوا: كَيْف نُكلِّم هؤلاء، وغايةُ ما يُمْكن المُجَادلة أنْ يقرب المَعْقول إلَىٰ المَحسوس، ويستشهد بالشَّاهد، فيستدلُّ به عَلَىٰ الغائب، وهَؤُلَاء لا يَقُولونَ بالمَحْسوسات، فبِمَ يكلمون؟!

قال: وهَذَا كلامٌ ضَيِّق العطن، ولا يَنْبغي أَنْ يُؤْيَسَ من مُعَالجة هَؤُلَاء، فإِنَّ ما اعْتراهُمْ لَيْسَ بأكثر من الوَسْواس، ولا يَنْبغي أَنْ يضيقَ عطننا عَنْ مُعَالَجتهم؛ فإنَّهم قومٌ أَخْرَجتهم عوارِضُ انحِرَافِ مزاجٍ، وما مَثَلُنا ومَثَلهم إلَّا كرجلٍ رُزِقَ ولدًا أَحْولَ، فلا يزالُ يَرَىٰ القمرَ بصورة قَمَرين، حتَّىٰ إنَّه لَمْ يشكَّ أنَّ فِي السَّماء قمرين، فَقَال له أَبُوه: القمرُ واحدٌ، وإنَّما السُّوء فِي عَيْنيك، غضَّ عَيْنك الحَوْلاءَ وَانْظُرْ، فلمَّا فَعَل، قال: أَرَىٰ قمرًا واحدًا؛ لأنِّي عصبتُ إِحْدَىٰ عَيْنيَّ، فَغَاب أَحَدهُما، فَجَاء من هَذَا القَوْل شُبْهةٌ ثانيةٌ، فَقَال له أَبُوه: إِنْ كَانَ ذَلكَ، كَمَا ذكرت، فغضَّ الصَّحيحة، فَفَعل، فرأىٰ قَمَرين، فعلم صحَّة ما قَالَ أبوه.

أنبأنا مُحمَّد بن ناصر، نا الحَسَن بن أحمد بن البنَّاء، ثنا ابن دودان، نا أبو عَبيد الله المرزبانِي، ثنِي أبو عبد الله الحكيمي، ثنِي يَموت بن المزرع، ثنِي مُحمَّد بن عيسىٰ النَّظَّام، قَالَ: مَاتَ بْنٌ لصالح بن عَبْد القُدُّوس، فَمَضىٰ إليه أبو الهذيل، ومَعَه النَّظَّام، وهُوَ غلامٌ حدثٌ كالمُتوجِّع له، فرآه مُنْحرفًا، فَقَال له أَبُو الهُذَيل: لا أَعْرفُ لجَزَعك وَجْهًا، إِذَا كَانَ النَّاسُ عندك كالزَّرع، فَقَال له صالحٌ: يا أَبَا الهُذَيل، إنَّما أَجْزع عَلَيه؛ لأنَّه لَمْ يَقْرأْ كتابَ الشُّكُوك، فَقَال له أبو الهُذَيل: وما كتابُ الشُّكُوك؟ قَالَ: هُوَ كتابٌ وَضَعَهُ مَنْ قَرَاه، يشكُّ فيما قَدْ كان حتَّىٰ يتوهَّم أنَّه لَمْ يَكُنْ، وفِيمَا لَمْ يكنْ حتَّىٰ يظنَّ أنَّه قَدْ كانَ، فَقَال له النَّظَّام: فشكَّ أنتَ فِي مَوْت ابنك، وَاعْمَلْ عَلَىٰ أنَّه لَمْ يمتْ، وإِنْ كان قَدْ ماتَ فشُكَّ -أيضًا- فِي أنَّه قَدْ قَرأَ الكتابَ، وإِنْ كان لَمْ يَقْرأه.

وَحَكَىٰ أبو القاسم البلخي أنَّ رجلًا من السُّوفسطائيَّة، كَانَ يَخْتلف إلَىٰ بَعْض المُتكلِّمين، فَأتَاهُ مرَّةً، فناظَره، فَأمر المُتكلِّم بأخذ دَابَّته، فلَمَّا خَرَج لَمْ يَرَها، فرَجَع، فقَال: سُرِقَتْ دَابَّتِي، فَقَال: وَيْحَك! لعَلَّك لَمْ تأتِ راكبًا. قَالَ: بَلَىٰ. قَالَ: فكِّر. قَالَ: هَذَا أمرٌ أتيقَّنُهُ. فَجَعل يَقُول له: تَذكر. فَقَال: وَيْحك! ما هَذَا مَوْضع تَذكُّر، أنا لا أشكُّ أنَّني جئت راكبًا. قَالَ: فكَيْفَ تَدَّعي أنَّه لا حقيقةَ لشيءٍ، وأنَّ حَالَ اليَقْظان كَحَال النَّائم؟ فوَجَم السُّوفسطائيُّ، وَرَجع عَنْ مذهبِهِ.

[ذكر تلبيس إبليس عَلَى فرق الفلاسفة]:

قال النوبختي: قَدْ زَعَمتْ فرقةٌ من المُتَجاهلينَ أنَّه لَيْسَ للأشْيَاء حقيقةٌ واحدةٌ فِي نَفْسها، بَلْ حقيقتها عند كلِّ قومٍ عَلَىٰ حَسَب ما يعتقدُ فيها، فإنَّ العسلَ يجدُهُ صاحب المُرَّةِ الصَّفْرَاءِ مُرًّا، ويجدُهُ غيرُهُ حُلْوًا.

قالوا: وكَذَلك العَالَمُ، هو قديمٌ عند من اعْتقَد قِدَمَه، مُحْدَثٌ عند من اعْتقَد حُدُوثَه، واللَّوْن جسمٌ عند مَن اعْتقَدَه جسمًا، وعرضٌ عند مَن اعْتقَدَه عرضًا.

قالوا: فلَوْ تَوهَّمنا عَدَم المُعْتقدين، وَقَف الأمرُ عَلَىٰ وُجُود مَنْ يَعْتقد، وهَؤُلَاء من جنس السُّوفسطائيَّة، فيُقَال لَهُمْ: أقَوْلُكُمْ صحيحٌ؟ فَسَيقُولُونَ: هُوَ صحيحٌ عندنا، باطلٌ عِنْدَ خَصْمنا.

قلنا: دَعْواكم صحَّة قَوْلكم مَرْدودةٌ، وإقْرارُكُمْ بأن مَذْهبكم عند خَصْمكم باطلٌ، شاهدٌ عَلَيكم، ومَنْ شهد عَلَىٰ قَوْلِهم بالبُطْلانِ من وجهٍ، فَقَدْ كُفِيَ خَصْمه بتَبْيين فَسَاد مذهبِهِ.

ومِمَّا يُقَال لَهم: أتثبتُونَ للمُشَاهدة حقيقةً؟! فإنْ قَالوا: لَا، لَحِقُوا بالأوَّلينَ، وإنْ قالوا: حقيقتها عَلَىٰ حَسَب الاعْتقَاد، فَقَد نَفَوا عنها الحقيقةَ فِي نَفْسها، وَصَار الكلامُ مَعَهم كالكَلَام مَعَ الأوَّلين.

قَالَ النوبَختِي: ومِنْ هَؤُلَاء مَنْ قَالَ: إنَّ العالمَ فِي ذوبٍ وسَيَلانٍ، قالوا: ولا يُمْكن للإنسان أنْ يَتفكَّر فِي الشَّيء الوَاحد مرَّتين؛ لتَغيُّر الأشياء دَائمًا، فيُقَال لَهم: كَيْفَ علم هَذَا، وقَدْ أنكرتُمْ ثُبُوت ما يُوجِبُ العِلْمَ، وربَّما كَانَ أَحَدكُمْ الَّذي يُجِيبُهُ الآن غير الَّذي كَلَّمه؟

ذكر تلبيسه عَلَى الدهرية:

قال المُصنِّف: قد أوهمَ إِبْلِيسُ خلقًا كثيرًا، أنَّه لا إله، وَلَا صانعَ، وأَنَّ هَذِهِ الأشياءَ كانت بلا مُكوِّنٍ، وهَؤُلاء لَمَّا لَمْ يُدْركوا الصَّانع بالحسِّ، ولَمْ يَسْتعملوا فِي معرفتِهِ العَقْلَ، جَحَدوه، وهَلْ يَشُكُّ ذو عقلٍ فِي وُجُود صانعٍ، فإنَّ الإنسانَ لَوْ مرَّ بقاعٍ ليس فيه بنيانٌ، ثُمَّ عَادَ فَرَأَىٰ حائطًا مبنيًا، عَلِمَ أنَّه لا بُدَّ له مِنْ بانٍ بَنَاه، فهَذَا المهادُ الموضوعُ، وهَذَا السَّقفُ المرفوعُ، وهَذِهِ الأبنيةُ العجيبةُ، والقَوَانين الجارية عَلَىٰ وَجْه الحِكْمَة، أمَا تدلُّ عَلَىٰ صانعٍ؟

وما أَحْسَن ما قال بَعْض العرب: إنَّ البَعْرَةَ تدلُّ عَلَىٰ البعير، فهيكلٌ علويٌّ بِهَذِهِ اللَّطافة، ومركزٌ سفليٌّ بِهَذِهِ الكَثَافة، أمَا يَدُلَّان عَلَىٰ اللَّطيف الخبير؟

ثُمَّ لو تَأمَّل الإنسانُ نَفْسه، لَكَفَتْ دليلًا، وَلَشَفَتْ غليلًا، فإنَّ فِي هَذَا الجسد من الحكم ما لا يَسَعُ ذِكْرُهُ فِي كتابٍ.

ومَنْ تَأمَّل تَحْديدَ الأَسْنَان لتَقْطعَ، وتَقْريض الأَضْرَاس لتَطْحنَ، واللِّسان يَقْلب المَمْضوغَ، وتَسْليط الكبد عَلَىٰ الطَّعام يُنْضجُهُ، ثُمَّ ينفذ إِلَىٰ كلِّ جارحةٍ قَدْرَ ما تَحْتاج إليه من الغِذَاء.

وهَذِهِ الأصابعُ الَّتي هُيِّئَتْ فيها العُقَدُ لتُطْوىٰ وتَنْفتحُ، فيُمْكنُ العَمَل بِها، ولَمْ تُجوَّفْ لكَثْرة عَمَلها، إِذْ لو جُوِّفَتْ لصَدَمها الشَّيء القويُّ فكَسَرها، وجَعَل بَعْضها أطولَ مِنْ بعضٍ لتَسْتويَ إذا ضُمَّتْ.

وأَخْفَىٰ فِي البَدَن ما فيه قوامُهُ، وهِيَ النَّفس الَّتي إذا ذَهَبتْ، فَسَد العقلُ الَّذي يرشد إِلَىٰ

المَصَالح، وكلُّ شيءٍ مِنْ هَذِهِ الأشْيَاء يُنَادي: أَفِي الله شكٌّ؟! وإنَّما يَخْبط الجاحد؛ لأنَّه طَلَبه من حيث الحسّ، ومن النَّاس مَنْ جَحَده؛ لأنَّه لَمَّا أثبت وُجُودَه من حَيْث الجُمْلة، لَمْ يُدْركه من حَيْث التَّفصيل، فجَحَد أَصْلَ الوُجُود، ولو أعمل هَذَا فِكْرَهُ، لَعَلِمَ أَنَّ لنا أشياء لَا تُدْرك إِلَّا جُمْلةً؛ كالنَّفْس والعَقْل.

ولَمْ يَمْتنع أحدٌ من إِثْبَات وُجُودهما، وهي الغايةُ إِلَّا إثبات الخَلْق جُملةً، وكَيْف يُقَال: كَيْفَ هو؟ أَوْ ما هو؟ وَلَا كيفيَّة له، ولا ماهيَّة؟

ومِنَ الأدلَّة القطعيَّة عَلَىٰ وُجُودِهِ أنَّ العالمَ حادثٌ، بدليل أنَّه لَا يَخْلو من الحَوَادث، وكلُّ ما ينفكُّ عن الحَوَادث حادثٌ، ولا بُدَّ لحُدُوث هَذَا الحادث من مُسبِّبٍ وهُوَ الخالقُ سُبْحانه.

وللمُلْحدين اعتراضٌ يَتطَاولون به عَلَىٰ قَوْلنا: لا بُدَّ للصَّنعة من صانعٍ، فيَقولون: إنَّما تَعلَّقتُمْ فِي هَذَا بالشَّاهد، وإِلَيْه نُقَاضيكُمْ.

فنقول: كَمَا أنَّه لا بُدَّ للصَّنعة من صانعٍ، فلا بُدَّ للصُّورة الواقعة من الصَّانع من مادَّةٍ تَقَع الصُّورة فيها؛ كالخَشَبِ لصُورَة الباب، والحديدِ لصُورَة الفأس.

قالوا: فَدَليلُكُمْ الَّذي تُثْبتونَ به الصَّانع، يُوجِبُ قِدَمَ العَالم.

فالجواب: أنَّه لا حَاجَة بنا إِلَىٰ مادَّةٍ؛ بَلْ نَقُولُ: إنَّ الصَّانعَ اخْترع الأشياءَ اخْتِرَاعًا، فإنَّا نَعْلمُ أنَّ الصُّورةَ والأشْكَالَ المُتجدِّدة فِي الجسم؛ كصُورَة الدُّولاب، لَيْس لَها مادَّةٌ، وَقَد اخْتَرعها، ولا بُدَّ لَها من مُصوِّرٍ، فَقَدْ أَرَيْناكُمْ صورةً، وهي شيءٌ جَاءَتْ لا من شيءٍ، ولا يُمْكنكم أنْ ترونا صَنْعةً جاءتْ لا مِنْ صانعٍ.

ذكر تلبيسه عَلَى الطبائعيين:

قَالَ المُصنِّف: لَمَّا رأىٰ إبليسُ قلَّة مُوَافقته عَلَىٰ جَحْد الصَّانع، لكَوْن العُقُول شاهدةً

بأنَّه لا بُدَّ للمَصْنوع من صانعٍ، حَسَّنَ لأقوامٍ أنَّ هَذِهِ المَخْلوقات فِعْلُ الطَّبيعة، وَقَالَ: مَا مِنْ شيءٍ يخلق إلَّا من اجْتِمَاع الطَّبائع الأَرْبَع فيه.

فدلَّ عَلَىٰ أنَّها الفاعلةُ، وَجَوَاب هَذَا نَقُولُ: اجتماعُ الطَّبائع دليلٌ عَلَىٰ وُجُودها، لا عَلَىٰ فِعْلِهَا، ثُمَّ قَدْ ثبتَ أنَّ الطَّبائع لا تُفْعَل إلَّا باجْتِمَاعها وَامْتِزَاجها، وذَلِكَ يُخَالف طَبيعتها، فدلَّ عَلَىٰ أنَّها مَقْهورةٌ.

وقَدْ سَلَّموا أنَّها ليستْ بحيَّةٍ، وَلَا عالمةٍ، ولا قَادرةٍ، ومعلومٌ أنَّ الفعل المُنَسَّقَ المنتظمَ، لا يكون إلا من عالِمٍ حَكِيمٍ، فكيف يفعل من ليس عالمًا وليس قادرًا؟

فإِنْ قَالُوا: ولَوْ كانَ الفاعلُ حكيمًا، لَمْ يَقَعْ فِي بنائِهِ خللٌ، وَلَا وجدت هَذِهِ الحَيَوانات المُضرَّة، فَعُلِمَ أنَّه بالطَّبع.

قُلْنا: يَنْقلب هَذَا عَلَيكمْ بِما صَدَر منه من الأُمُور المُنْتظمة المُحْكَمة، الَّتي لا يَجُوز أن يَصْدر مثلُها عن طَبْعٍ، فأمَّا الخَلَلُ المُشَارُ إليه، فيُمْكن أَنْ يكونَ للابتلاءِ، والرَّدع، والعُقُوبة، أَوْ فِي طَيِّه مَنَافِعُ لا نَعْلَمُهَا.

ثُمَّ أَيْنَ فِعْلُ الطَّبيعة من شمسٍ تَطْلع فِي نيسان، عَلَىٰ أنواعٍ من الحُبُوب، فتُرطِّب الحُصْرُمَة[1]، والخلالة[2]، وتُنشِّف البرَّة وتُيبِّسها، ولَوْ فعلت طبعًا لأَيْبَسَت الكلَّ، أَوْ رَطَّبته؟ فلَمْ يبقَ إلَّا أنَّ الفاعلَ المُخْتارَ اسْتَعْمَلها بالمشيئة فِي يبس هَذِهِ للادِّخَار، والنُّضج فِي هَذِهِ للتَّناول.

والعجبُ أنَّ الَّذي أَوْصَل إليها اليبسَ فِي أكنَّةٍ[3]، لا يَلْقَىٰ جرمَها، والَّذي رَطَّبها يَلْقَىٰ

---

(١) الحصرمة: أول العنب ما دام أخضر. «لسان العرب»، «القاموس المحيط» مادة (حصرم).

(٢) الخلالة: ما يقع من التخلل. «اللسان»، «مختار الصحاح» مادة (خلل).

(٣) الأكنة: جمع كن، وهو وقاء الشيء وستره، «اللسان»، «القاموس المحيط» مادة (كنن).

جرمها، ثُمَّ إنَّها تُبيِّض وَرْدَ الخَشْخَاش[١]، وتُحمِّر الشَّقَائق[٢]، وتُحمِّض الرُّمَّان، وتُحلِّي العِنَبَ، والماءُ واحدٌ، وقَدْ أشارَ المَوْلَىٰ إلَىٰ هَذَا بقولِهِ: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ﴾[الرعد:٤].

◆ ذكر تلبيسه علَى الثنوية:

وهُمْ قوم قالوا: صانعُ العَالَم اثْنَان: ففاعلُ الخَيْر نورٌ، وفاعلُ الشَّرِّ ظلمةٌ، وهُمَا قَديمان لَا يَزَالا، ولَنْ يَزَالا قَويَّيْنِ حَسَّاسَيْنِ، سَمِيعَيْنِ بَصِيرَيْن، وهُمَا مُخْتلفان فِي النَّفْسِ والصُّورةِ، مُتضادَّان فِي الفعل والتَّدبير، فجَوْهرُ النُّور فاضلٌ، حسنٌ، نَيِّرٌ، صافٍ، نقيٌّ، طَيِّبُ الرِّيح، حَسَنُ المَنْظَرِ، ونفسُهُ نفسٌ خَيِّرَةٌ كريمةٌ حكيمةٌ نَفَّاعةٌ، مِنْها الخَيْرُ، واللَّذَّة، والسُّرورُ، والصَّلاحُ، ولَيْسَ فيها شيءٌ من الضَّرر، ولا من الشَّرِّ، وجَوْهر الظُّلمة عَلَىٰ ضدِّ ذلك من الكَدَر، والنَّقص، وَنَتن الرِّيح، وقُبْح المَنْظر، ونفسُهُ نفسٌ شريرةٌ بخيلةٌ سفيهةٌ منتنةٌ ضَرَّارَةٌ، منها الشَّرُّ والفسادُ.

كذا حكاه النوبختِي عنهم، قال: وَزَعم بَعْضُهم أنَّ النُّورَ لَمْ يَزَلْ فوق الظُّلمة.

وقال بعضهم: بَلْ كلُّ واحدٍ إلَىٰ جانب الآخر.

وقال أكثرهم: النُّورُ لَمْ يَزَلْ مرتفعًا فِي ناحية الشَّمال، والظُّلمة مُنْحطَّةٌ فِي ناحية الجنوب، ولَمْ يزل كلُّ واحدٍ منهما مباينًا لصاحِبِهِ.

وقال النوبختي: وَزَعَموا أنَّ كلَّ واحدٍ منهما له أجناسٌ خَمْسةٌ: أربعةٌ منها أبدانٌ، وخامسٌ هو الرُّوح، وأبدانُ النُّور أربعةٌ: النَّار، والرِّيح، والتُّراب، والماء، ورُوحُه الشَّبَحُ،

---

(١) الخشخاش: نَبْتٌ مَعروف يُستخرج الأفيون مِنه مِن ثمارِه، وتُعصر بُذروه؛ فيُخرَج منها دُهنٌ يُستعمل في صناعة الصَّابون خاصة. «معجم متن اللغة» (٢/ ٢٧٨).

(٢) الشَّقَائق: نَبْتٌ سُمِّيت بذلك لِحُمرتها علىٰ التشبيه بـ«شَقِيقة البرق»، وقد أُضِيفت إلىٰ النُّعمان ابن المُنذر؛ لأنَّه استحسنها، فَصَارت تُسَمَّىٰ «شَقَائق النُّعمان».

ولَمْ تَزَلْ تَتحرَّك فِي هَذِهِ الأَبْدان، وأبدانُ الظُّلمة أربعةٌ: الحريقُ، والظُّلمةُ، والسَّمُومُ، والضَّبابُ، ورُوحها الدُّخانُ، وسَمَّوْا أبدانَ النُّور ملائكةً، وَسَمَّوا أَبْدانَ الظُّلمة شياطينَ وَعَفاريتَ.

وبعضهم يقول: الظُّلْمة تَتَوالد شَيَاطين، والنُّور يَتَوالد مَلائكةً، وأنَّ النُّور لا يَقْدر عَلَىٰ الشَّرِّ، ولا يَجُوز منه، والظُّلْمة لا تَقْدر عَلَىٰ الخير، ولا تَجُوز منه، وذَكَر لَهم مَذَاهبَ مُخْتلفةً فيما يَتعلَّق بالنُّور والظُّلمة، ومَذَاهب سخيفة، مِنهَا أنَّه فرض عليهم ألَّا يَدَّخروا إلَّا قُوتَ يَوْمٍ.

وقال بعضهم: عَلَىٰ الإنسان صومُ سُبُعِ العُمُر، وتَرْك الكَذب، والبُخْل، والسِّحر، وعِبَادَة الأَوْثَان، والزِّنا، والسَّرقة، وألَا يُؤذِي ذا روحٍ فِي مَذَاهبَ طريقةٍ اخْتَرعوها بوَاقِعَاتِهم الباردة.

وذَكَر يَحيَىٰ بن بشرٍ النَّهاونديُّ أنَّ قومًا منهم يُقَال لَهم: الدَّيصانيَّة، زَعَموا أنَّ طينةَ العَالَم كَانَتْ طينةً خشنةً، وَكَانتْ تُحَاكي جسمَ الباري الَّذي هو النُّور زمانًا، فتَأذَّىٰ بِها، فلَمَّا طَالَ عَلَيهم ذَلكَ، قَصَد تَنْحيتها عنه، فتَوحَّلَ فيها، وَاخْتلَط بِها، فَتركَّبَ منها هَذَا العالم النُّوري والظُّلمي، فَمَا كان مِنْ جِهَةِ الصَّلاح فَمِنَ النُّور، وما كَانَ من جِهَةِ الفَسَاد فمِنَ الظُّلْمة، وهَؤُلَاء يَغْتَالون النَّاس، وَيَخْنقُونَهمْ، ويَزْعمون أنَّهم يُخَلِّصون بذلك النُّور من الظُّلمة. مَذَاهبُ سخيفةٌ.

والَّذي حَمَلهمْ عَلَىٰ هَذَا أنَّهم رَأَوا فِي العَالَم شرًّا وَاخْتلَافًا، فَقَالوا: لَا يكونُ من أصلٍ واحدٍ شَيْئان مُخْتلفَان، كَمَا لا يكونُ من النَّار التَّبريد والتَّسخين.

وَقَدْ ردَّ العلماءُ عَلَيهم فِي قَوْلِهم: إنَّ الصَّانعَ اثْنَان، فَقَالوا: لَوْ كان اثنين لَمْ يخلُ أَنْ يَكُونا قَادِرَيْن، أو عَاجِزَين، أَوْ أَحَدُهما قادرًا، والثَّانِي عاجزًا، لا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَا عَاجِزَيْن؛ لأنَّ العجزَ يَمْنع ثُبُوت الأُلوهيَّة، وَلَا يَجُوز أَنْ يكونَ أَحدُهُما عاجزًا، فَبَقِيَ أَنْ يُقَالَ: هُمَا

قَادِرَانِ، فَتصوَّر أَنَّ أَحَدهُمَا يريدُ تَحْرِيك هَذَا الجسم فِي حَالَةٍ يريدُ الآخر تَسْكِينَهُ، ومِنَ المُحَال وُجُود ما يُرِيدَانه، فإِنْ تمَّ أَحَدهما ثَبتَ عَجْز الآخر، وَردُّوا عَلَيهم فِي قَوْلِهم إنَّ النُّورَ يَفْعَل الخيرَ، والظُّلْمة تَفعل الشَّرَّ، فإنَّه لو هَرَب مظلومٌ فَاسْتَتر بالظُّلْمة، فهَذَا خيرٌ قَدْ صَدَر من شرٍّ، وَلَا يَنبغي مدُّ النَّفَس فِي الكَلَام مَعَ هَؤُلاء، فإِنَّ مَذْهَبَهم خرافات.

ذكر تلبيسه عَلَى الفلاسفة وتابعيهم:

إنَّما تَمكَّن إبليسُ من التَّلْبيس علىٰ الفَلَاسفة مِنْ جِهَةِ أَنَّهم انْفَرَدوا بآرَائِهِمْ وعُقُولهم، وتكلَّموا بِمُقْتضىٰ ظُنُونِهم من غَيْر التفاتٍ إِلَىٰ الأَنْبِيَاء.

فمنهم: مَنْ قَالَ بقَوْل الدَّهريَّة (أَلَّا صانعَ للعَالَم)، حَكَاه النوبختي وغَيْرُهُ عَنْهم، وَحَكَىٰ النهاونديُّ أَنَّ أرسطاطاليس وأصحابَهُ زَعَموا أنَّ الأرضَ كوكبٌ فِي جَوْف هَذَا الفَلَك، وأَنَّ فِي كلِّ كوكبٍ عَوَالِم كما فِي هَذِهِ الأَرْض، وأَنْهارًا وأشجارًا، وأَنْكَروا الصَّانعَ، وأَكْثَرهم أثبتَ علَّةً قديمةً للعَالَم، ثُمَّ قَالَ بِقِدَمِ العَالَم، وأنَّه لَمْ يزل مَوْجودًا مع الله تَعَالىٰ، ومَعْلولًا له، ومُسَاويًا غير مُتأخِّرٍ عنه بالزَّمان، مُسَاواةَ المَعْلول للعلَّة، والنُّور للشَّمس بالذَّات والرُّتبة، لا بالزَّمان، فيُقَال لَهُمْ: لِمَ أَنْكرتُمْ أَنْ يكونَ العالمُ حادثًا بِإِرَادَةٍ قديمةٍ، اقْتضَتْ وُجُوده فِي الوَقْت الَّذي وُجِدَ فيه؟

فإِنْ قالوا: فهَذَا يُوجِبُ أَنْ يكونَ بين وُجُود الباري، وبَيْنَ المَخْلوقات زمانٌ.

قلنا: الزَّمانُ مَخْلوقٌ، وليس قَبْل الزَّمان زمانٌ. ثُمَّ يُقَال لَهُمْ: هَل الحقُّ سبحانه قَادرٌ عَلَىٰ أَنْ يَجْعلَ سُمْكَ الفَلَك الأَعْلَىٰ أكثر مِمَّا هو بذراعٍ أَوْ أَقلَّ مِمَّا هو بذِرَاعٍ؟

فإِنْ قَالُوا: لا يُمْكن، فهُوَ تعجيزٌ؛ ولأَنَّ ما لا يمكن أَنْ يكون أبرَّ منه، ولا أَصْغر، فوُجُودُهُ عَلَىٰ ما هو عَلَيه واجبٌ لا ممكنٌ، والواجبُ يَسْتغني عن علَّةٍ، وقَدْ سَتَروا مَذْهبَهمْ بأَنْ قالوا: اللهُ عَزَّوَجَلَّ صانعُ العَالَم، وهَذَا تَجوُّزٌ عِنْدهُمْ لا حقيقة؛ لأنَّ الفاعلَ مُرِيدٌ لِمَا يفعلُهُ،

وعندهم أنَّ العَالَمَ ظَهَر ضروريًّا لا أنَّ الله فَعَله.

ومِنْ مَذَاهِبِهِمْ أنَّ العَالَمَ باقٍ أبدًا كَمَا لا بدايةَ لوُجُودِهِ، فَلَا نِهَايةَ.

قالوا: لأنَّه معلولٌ علَّةً قديمةً، وكَانَ المَعْلولُ مع العلَّة، ومَتَىٰ كَانَ العَالَمُ مُمْكنَ الوُجُود، لَمْ يكن قَديمًا، وَلَا مَعْلولًا.

وقَدْ قال جالينوس: لَوْ كَانَت الشَّمسُ -مثلًا- تَقْبل الانعدَام لظَهَر فيها ذُبُولٌ فِي هَذِهِ المُدَّة الطَّويلة، فيُقَال له: قَدْ يَفْسُدُ الشَّيء بنفسِهِ بغتةً لا بالذُّبُول، ثُمَّ مِنْ أين له أنَّها لا تَذْبل؟ فإنَّها عِنْدهُمْ بِمِقْدَار الأَرْض مئة وسبعين مرَّةً، أو نَحْو ذَلكَ، فلَوْ نَقَص منها مقدارُ جَبَلٍ، لَمْ يَبِنْ ذَلكَ للحسِّ.

ثُمَّ نحن نَعْلم أنَّ الذَّهَبَ والياقوتَ يَقْبلان الفسادَ، وقَدْ يَبْقيَان سنينَ، وَلَا يحسُّ نُقْصَانهما، وإنَّما الإيجَادُ وَالإعْدَامُ بإِرَادَة القَادر، وَالقَادر لَا يَتغيَّر فِي نفسِهِ، وَلَا تَحْدث له صفةٌ، وإنَّما يَتغيَّر الفعلُ بإِرَادَةٍ قديمةٍ.

وحكىٰ النوبختي فِي كتاب الآراء والديانات: أنَّ سقراط كَانَ يَزْعُمُ أنَّ أُصُولَ الأشياء ثلاثةٌ: عِلَّةٌ فاعلةٌ، والعُنْصُر، والصُّورة.

قال: واللهُ تَعَالىٰ هو الفَعَّال. والعُنْصُرُ: هو المَوْضوع الأَوَّل للكَوْن والفَسَاد. والصُّورَة: جَوْهرٌ للجِسْمِ.

وَقَالَ آخر منهم: اللهُ هو العلَّةُ الفاعلةُ، والعُنْصُرُ المُنْفعلُ.

وقال آخر منهم: العقلُ رَتَّبَ الأشياءَ هَذَا التَّرتيبَ.

وقال آخر منهم: بَل الطَّبيعة فَعَلتْهُ.

وحكىٰ يَحيَىٰ بن بشير بن عمير النَّهَاوندي: أنَّ قومًا من الفَلَاسفة قَالُوا: لمَّا شَاهَدنا العَالَمَ مُجتمعًا ومُتفرِّقًا، ومُتحرِّكًا وَساكنًا، عَلِمْنَا أنَّه مُحْدثٌ، ولا بُدَّ له من مُحْدِثٍ، ثُمَّ رَأَيْنا

أنَّ الإنسانَ يَقَع فِي الماءِ، وَلَا يُحْسِنُ السِّباحةَ، فَيَسْتَغيث بذَلكَ الصَّانع المُدبِّر، فلا يغيثُهُ، أو فِي النَّار فَعَلمنا أنَّ ذَلكَ الصَّانعَ مَعْدومٌ.

قال: وَاخْتَلف هَؤُلَاء فِي عَدَم الصَّانع المُدبِّر عَلَىٰ ثَلَاثِ فِرَقٍ: فرقةٌ زَعَمتْ أنَّه لمَّا أكمل العَالَم، اسْتَحْسَنه، فخَشِيَ أَنْ يزيدَ فيه، أَوْ ينقصَ منه فيَفْسد، فأَهْلَك نَفْسَه، وَخَلا منه العَالَم، وبَقِيَتِ الأَحْكَام تَجْري بين حَيَواناتِهِ ومَصْنوعاتِهِ عَلَىٰ ما اتفقَ.

وقالت الفرقة الثانية: بَلْ ظَهَر فِي ذَات الباري تَوَلْوُلٌ، فلَمْ يَزَلْ تَنْجذب قُوَّتُهُ ونورُهُ، حتَّىٰ صَارَت القُوَّةُ والنُّور فِي ذَلكَ التَّوَلْوُلِ وهُوَ العَالَم، وساء نُور البَاري، وكَانَ الباقي منه نورٌ، وزَعَموا أنَّه سيَجْذب النُّور من العَالَم إليه حتَّىٰ يَعُودُ كما كَانَ، ولضعفِهِ عَنْ مَخلوقاتِهِ أَهْمَل أَمْرَهم فَشَاع الجورُ.

وقالت الفرقة الثالثة: بل الباري لَمَّا أَتْقنَ العَالَمَ، تَفرَّقت أَجْزاؤُهُ فيه، فكلُّ قُوَّتِهِ فِي العَالَم فهي من جَوْهر اللَّاهوتيَّة.

قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: هَذَا الَّذي ذَكَره النهاونديُّ نقلتُهُ من نسخة بالنِّظَّاميَّة، قَدْ كُتِبَت منذ مِئَتين وعِشْرينَ سنةً، ولَوْلَا أنَّه قَدْ قِيلَ، ونقل فِي ذِكْرِهِ بَيَان مَا قَدْ فَعَل إبليسُ فِي تَلْبيسِهِ، لَكَان الأَوْلَىٰ الإِضرابَ عَنْ ذِكْرِهِ؛ تَعْظيمًا لله عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُذْكرَ بِمثل هَذَا، ولكن قَدْ بيَّنَّا وَجْهَ الفائدةِ فِي ذِكْرِهِ.

وقَدْ ذَهَبَ أكثرُ الفَلَاسفة إِلَىٰ أنَّ اللهَ تَعَالَىٰ لا يَعْلم شيئًا، وإنَّما يَعْلم نَفْسَه، وقَدْ ثَبتَ أنَّ المَخْلوقَ يَعْلم نَفْسَه، ويَعْلم خَالقَه، فَقد زَادتْ مَرْتبةُ المَخْلوق عَلَىٰ رُتْبة الخالق.

قال المُصنِّف: وهَذَا أظهرُ فضيحةً مِنْ أَنْ يُتكلَّم عليه، فَانْظُرْ إِلَىٰ ما زَيَّنه إبليسُ لهَؤُلَاء الحَمقَىٰ مَع ادِّعَائهم كَمَالَ العَقْل، وقَدْ خَالَفهُمْ أبو عليٍّ بن سيناء فِي هَذَا، فَقَال: بَلْ يعلم نَفْسه، ويَعْلم الأَشْيَاءَ الكُليَّة، وَلَا يَعْلم الجزئيَّات، وَتلقف هَذَا المَذْهب منهم المُعْتزلة،

وكأنَّهم استكثَروا المَعلوماتِ، فالحَمْدُ لله الَّذي جَعَلنا مِمَّن يَنفي عن الله الجَهْلَ والنَّقصَ، ونُؤمِنُ بقولِهِ: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك:١٤]، وقَوْلِهِ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام:٥٩].

وَذَهَبوا إِلَىٰ أَنَّ عِلْمَ الله وقُدْرتَه هو ذاتُهُ، فرارًا من أَنْ يُثْبتوا قَديمَيْنِ، وجَوابهم أَنْ يُقَال: إِنَّما هو قديمٌ موجودٌ واحدٌ موصوفٌ بصِفَاتِ الكَمَال.

قال المصنف: وقَدْ أَنْكَرت الفلاسفةُ بَعْثَ الأَجْسَاد، وَرَدَّ الأَرْوَاح إِلَىٰ الأَبْدَان، ووُجُود جنَّةٍ ونارٍ جسمانيَّتَيْنِ، وَزَعَموا أَنَّ تِلْكَ أمثلةٌ ضُرِبَتْ لعَوامِّ النَّاس ليَفْهَموا الثَّواب والعقابَ الرُّوحَانيَّيْنِ، وزَعَموا أَنَّ النَّفسَ تَبْقىٰ بَعْد الموت بقاءً سرمديًّا أبدًا، إِمَّا فِي لذَّةٍ لا تُوصَف، وهِيَ الأَنْفس الكاملة، أو أَلَمٍ لَا يُوصَف، وهِيَ النَّفس المُتلوِّثة، وَقَدْ تتفَاوَتُ دَرَجاتُ الأَلَم عَلَىٰ مَقَادير النَّاس، وقَدْ يَنْمَحي عن بَعْضها الألمُ ويَزُول، فيُقَال لَهم: نَحْن لا ننكرُ وُجُودَ النَّفس بعد الموت، ولِذَا سُمِّي عَوْدُها إعادةً، وَلَا أَنَّ لَها نعيمًا وشقاءً، ولَكنْ مَا المانعُ مِنْ حَشْر الأَجْسَاد؟ ولَمْ ننكر اللَّذَّات والآلام الجسمانيَّة فِي الجنَّة والنَّار، وقَدْ جاء الشَّرعُ بذلك؟!

فَنَحْنُ نُؤمنُ بالجمع بين السَّعَادتين، وبَيْنَ الشَّقَاوتين (الرُّوحانيَّة والجسمانيَّة)، وأمَّا الحَقَائق فِي مَقَام الأَمْثَال فَتَحَكُّمٌ بِلَا دليلٍ، فإِنْ قَالُوا: الأبدانُ تَنحلُّ وتُؤْكَلُ وتَسْتَحيلُ.

قلنا: القُدْرة لَا يقفُ بَيْنَ يَدَيها شيءٌ، عَلَىٰ أَنَّ الإنسانَ إنسانٌ بنفسِهِ، فلَوْ صُنِعَ له البَدَن من ترابٍ غَيْر التُّراب الَّذي خُلِقَ منه، لَمْ يَخرج عن كونِهِ هُوَ هُوَ، كما أَنَّه تتبدَّل أجزاؤُهُ من الصِّغر إِلَىٰ الكِبَرِ بالهُزَال والسِّمَن.

فإِن قالوا: لَمْ يكن البدنُ بدنًا حتَّىٰ يَرْقَىٰ من حالةٍ إِلَىٰ حالةٍ، إِلَىٰ أَنْ صار لَحمًا وعُرُوقًا.

قلنا: قُدْرة الله ﷻ لا تقفُ عَلَىٰ المَفْهوم المُشَاهد، ثُمَّ قَدْ أَخْبَرنا نَبيُّنا ﷺ أَنَّ الأجسامَ

تَنْبت فِي القُبُور قبل البعث.

وأخبرنا أبو بكرٍ مُحمَّد بن عبد الباقي البزَّار، نا أبو مُحمَّد الجوهريُّ، نا عُمَر بن مُحمَّد ابن الزَّيَّات، ثنا قاسم بن زَكريا المطرز، ثَنَا أبو كريب، ثنا أبو مُعَاوية، عن الأَعْمَش، عَنْ أَبِي صالحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيرة قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: «مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ». قالوا: يا أَبَا هُرَيرة، أَرْبَعون يومًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ. قالوا: أَرْبَعون شهرًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ. قالوا: أَرْبَعون سنةً؟ قَالَ: أَبَيْتُ. قَالَ: «ثُمَّ يُنْزِلُ اللهُ ماءً مِنَ السَّمَاءِ، فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ البَقْلُ، قَالَ: ولَيْسَ مِنَ الإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَىٰ، إِلَّا عَظْمًا وَاحدًا، وهُوَ عَجَبُ الذَّنَبِ، مِنْهُ خُلِقَ، ومِنْهُ يُرَكَّبُ الخَلْقُ يَوْمَ القِيَامَة»(١)، أَخْرَجاه فِي «الصَّحيحين».

[مذهب الفلاسفة]:

وقَدْ لبَّس إبليسُ عَلَىٰ أَقْوامٍ مِنْ أَهْل مِلَّتنا، فَدَخل عَلَيهم من باب قُوَّة ذَكَائِهِمْ وفِطْنَتِهِمْ، فَأَراهم أَنَّ الصَّوابَ اتِّباعُ الفَلَاسفة؛ لِكَوْنهم حُكَماء قَدْ صَدَرتْ منهم أَفْعالٌ وأقوالٌ، دَلَّتْ عَلَىٰ نِهَايَة الذَّكاء، وكَمَال الفِطْنَة، كَمَا يُنْقَل من حِكْمَة سُقْراط، وأبقراط، وأفلاطون، وأرسطاطاليس، وجالينوس، وهَؤُلَاء كَانَتْ لَهم عُلُومٌ هندسيَّةٌ، ومنطقيَّةٌ، وطبيعيَّةٌ، وَاسْتَخْرَجوا بفِطَنِهِمْ أُمُورًا خفيَّةً، إِلَّا أَنَّهم لَمَّا تكلَّموا فِي الإِلهيَّات، خَلَطوا، ولِذَلِكَ اخْتَلَفوا فيها، ولَمْ يَخْتَلفوا فِي الحِسِّيَّات والهندسيَّات، وقَدْ ذَكَرنا جنسَ تَخْليطهم فِي مُعْتَقداتِهِمْ.

وسَبَبُ تَخْليطهمْ أَنَّ قُوَىٰ البَشَر لا تدرك العُلُوم إِلَّا جُمْلَةً، والرُّجُوعُ فيها إِلَىٰ الشَّرَائع، وقَدْ حُكِيَ لهؤلاء المُتأخِّرين فِي أُمَّتنا: أَنَّ أُولَئك الحُكَماءَ كَانوا يُنْكرونَ الصَّانع، ويُدَافعونَ الشَّرائع، ويَعْتقدُونَها نَوَاميس وَحِيَلًا، فَصَدَّقوا فيما حُكِيَ لَهُمْ عَنْهم، ورَفَضُوا شِعَارَ الدِّين،

(١) أخرجه البخاري (٤٩٣٥)، ومسلم (٢٩٥٥).

وأهمَلوا الصَّلَوات، وَلَابسوا المَحْذُورَات، وَاسْتَهانوا بِحُدُود الشَّرع، وخَلَعوا رِبْقَةَ الإسْلَام، فَاليَهُودُ والنَّصَارَىٰ، أَعْذَر منهم؛ لِكَوْنِهم مُتمسِّكينَ بشَرَائعَ، دَلَّتْ عَلَيها مُعْجزاتٌ، والمُبْتدعةُ فِي الدِّينِ أَعْذَرُ منهم؛ لأنَّهم يَدَّعون النَّظرَ فِي الأَدلَّة، وهَؤُلَاء لا مُسْتندَ لكُفْرهم إلَّا عِلْمُهُمْ بأنَّ الفلاسفةَ كَانُوا حُكَماء، أتَرَاهم ما عَلِمُوا أنَّ الأنبياءَ كَانُوا حُكَماء وزيادة؟!

وَمَا قَدْ حُكِيَ لهَؤُلَاء الفَلَاسفة من جَحْد الصَّانع مُحَالٌ، فإِنَّ أَكْثَرَ القَوْم يُثْبتون الصَّانع، وَلَا يُنْكرونَ النُّبوَّات، وإنَّما أَهْمَلوا النَّظَر فِيها، وَشَذَّ مِنْهم قليلٌ، فَتبعوا الدَّهريَّة الَّذين فَسَدتْ أَفهَامُهمْ بالمرَّة، وقَدْ رَأَيْنا مِنَ المُتَفلسفة مِنْ أُمَّتنا جَماعةً لَمْ يُكْسِبْهُم التَّفلسُفُ إلَّا التَّحيُّر، فَلَا هُمْ يَعْمَلون بِمُقْتَضاه، وَلَا بِمُقْتَضىٰ الإسْلَام، بَلْ فِيهِمْ مَنْ يَصُومُ رَمَضانَ، ويُصلِّي، ثُمَّ يأخُذُ فِي الاعْتِرَاضِ عَلَىٰ الخَالق، وَعَلَىٰ النُّبوَّات، ويَتكلَّم فِي إِنْكَار بَعْث الأَجْسَاد، ولَا يَكَاد يُرَىٰ منهم أحدٌ إلَّا ضَرَبه الفقرُ، فأضرَّ بِهِ، فهُوَ عامَّةَ زَمَانه فِي تَسخُّطٍ عَلَىٰ الأَقْدَار، وَالاعتِرَاض عَلَىٰ المُقدَّر حتَّىٰ قَالَ لي بَعْضُهمْ: أنا لَا أُخَاصم إلَّا مَنْ فَوْق الفَلَك.

وكَانَ يَقُول أَشْعَارًا كثيرًا فِي هَذَا المَعْنىٰ، فمِنْهَا قولُهُ فِي صِفَةِ الدُّنيا، قَالَ:

أَتَرَاهَا صَنْعَةً مِنْ غَيْرِ صَانِعٍ ... أَمْ تُرَاهَا رَمْيَةً مِنْ غَيْرِ رَامِ

وقَوْلُهُ:

وَاحَيْرَتَا مِنْ وُجُودٍ مَا تَقدَّمَهُ ... منَّا اخْتِيَارٌ وَلَا عِلْمٌ فيُقْتَبَسُ
كَأنَّه فِي عَمَاءٍ مَا يُخلِّصُنَا ... مِنْهُ ذَكَاءٌ ولا عَقْلٌ ولا شَرَسُ
ونَحْنُ فِي ظُلْمَةٍ مَا إنَّ لَها قَمَرًا ... فِيهَا يُضِيءُ وَلَا شَمْسٌ وَلَا قَبَسُ
مُدَلَّهِينَ حَيَارَىٰ قَدْ تَكنَّفَنَا ... جَهْلٌ يُجَهِّمُنَا فِي وَجْهِهِ عَبَسُ
فَالفِعْلُ فِيهِ لا رَيْبٌ وَلَا عَمَلٌ ... والقَوْلُ فِيهِ كَلامٌ كُلُّهُ هَوَسُ

ولمَّا كَانَت الفَلَاسفةُ قَريبًا مِنْ زَمَان شَريعَتنا، والرَّهبنة كَذَلك، مدَّ بَعْضُ أَهْلِ مِلَّتِنَا يَدَه إِلَىٰ التَّمسُّك بِهَذَا، وبَعْضهم مدَّ يَدَه إِلَىٰ التَّمسُّك بِهَذِهِ، فَتَرىٰ كثيرًا من الحَمْقىٰ إذا نَظَروا فِي باب الاعْتقَاد تَفَلْسفوا، وإِذَا نَظَروا فِي بَاب التَّزهُّد ترهبنوا، فَنَسْأَل الله ثباتًا عَلَىٰ مِلَّتنا، وَسَلامةً من عَدوِّنا، إنَّه وليُّ الإجابة.

[ذكر تلبيسه عَلَى أصحاب الهياكل]:

وهُمْ قومٌ يَقُولُون: إنَّ لكلِّ رُوْحانِيٍّ من الرُّوحانيَّات العُلْوِيَّة هيكلًا، أَعْنِي جِرْمًا من الأَجْرَام السَّماويَّةِ، هُوَ هيكلُهُ، ونسبتُهُ إِلَىٰ الرُّوحانِيِّ المُختصَّة به نسبةُ أَبْدَاننا إِلَىٰ أَرْوَاحنا، فيكون هو مُدبِّره والمُتصرِّف فيه، فمِنْ جُمْلة الهَيَاكل العلويَّة: السَّيَّارات والثَّوابت.

قالوا: وَلَا سبيلَ لَها إلىٰ الرُّوحانِيِّ بعينِهِ، فيتقرَّب إِلَىٰ هيكلِهِ بكلِّ عبادةٍ وقربانٍ.

وَقَالَ آخرون منهم: لكلِّ هيكلٍ سَماويٍّ شخصٌ من الأَشْخَاص السُّفليَّةِ عَلَىٰ صورتِهِ وجَوْهَرِهِ، فعمل هؤلاء الصُّور، ونَحَتُوا الأَصْنامَ، وبَنَوْا لَها بُيُوتًا.

وقَدْ ذَكَر يَحيَىٰ بن بشر النَّهاونديُّ: أنَّ قَوْمًا قالوا: الكَوَاكبُ السَّبْعَةُ وَهِيَ: (زُحَل، والمُشْتري، والمريخ، والشَّمس، والزهرة، وعطارد، والقمر)، وهِيَ المُدبِّرات لِهَذَا العَالَم، وهِيَ تَصْدُرُ عَنْ أَمْر المَلإ الأَعْلَىٰ، وَنَصَبوا لَها الأصنامَ عَلَىٰ صُورَتِها، وقرَّبوا لكلِّ واحدٍ منها ما يُشْبهه من الحَيَوان، فَجَعلوا لزحل جسمًا عظيمًا من الآنِكِ أَعْمَىٰ يُقرَّب إليه بثورٍ حسنٍ، يُؤتىٰ به عَلَىٰ بيتٍ تحته مَحْفورٌ، وفَوْقه الدرابزين من حديدٍ مِنْ تِلْكَ الحفرة، فيُضْرَب الثَّورُ حتَّىٰ يَدْخل البيتَ، ويَمْشي عَلَىٰ ذَلكَ الدرابزين من الحديد، فتَغُوصُ رِجْلَاه ويَدَاه هنالك، ثُمَّ تُوقَد تَحْتَه النَّارُ حتَّىٰ يَحترق.

ويَقُولُ له المُقرِّبون: مُقدَّسٌ أنتَ أيُّها الإلهُ الأَعْمَىٰ، المَطْبوع عَلَىٰ الشَّرِّ الَّذي لا يَفْعل خيرًا، قرَّبْنَا لك ما يُشْبهك، فتقبَّل منَّا، وَاكْفِنَا شرَّك، وشرَّ أَرْوَاحك الخبيثة.

ويُقرِّبون للمُشْتَري صبيًّا طفلًا، وذلكَ أنَّهم يَشترون جاريةً ليَطَأها السَّدَنَةُ للأصنام السَّبعة، فتَحْمِلُ، وَتُتْرَكُ حتَّىٰ تَضَعَ، ويَأْتُونَ بِها والصَّبيُّ عَلَىٰ يَدِهَا ابن ثمانية أيَّام، فيَنْخسُونَه بالمِسلِّ والإبر، وهُوَ يَبْكي عَلَىٰ يد أُمِّه، فيَقُولُون له: أيُّها الرَّبُّ الخَيِّرُ الَّذي لا يَعْرف الشَّرَّ، قَدْ قرَّبنا لكَ مَنْ لَمْ يعرف الشَّرَّ يُجَانسك فِي الطَّبيعة، فَتقبَّل قُرْبَاننا، وَارْزقنَا خَيْرك، وخَيْر أَرْوَاحك الخَيِّرة.

ويُقرِّبون للمَرِّيخ رجلًا أشقرَ، أنمشَ[1]، أبيضَ الرَّأس من الشُّقْرة، يَأْتُون به، فيُدْخلونه فِي حوضٍ عظيمٍ، ويَشدُّون قُيُوده إلَىٰ أوتادٍ فِي قَعْر الحوض، ويَملئون الحوضَ زيتًا، حتَّىٰ يَبْقىٰ الرَّجلُ قائمًا فيه إلَىٰ حلقِهِ، ويَخْلطونَ بالزَّيت الأدويةَ المُقويَّة للعَصَب، والمُعفِّنة للَّحْم حتَّىٰ إذا دَارَ عَلَيه الحولُ بَعْد أَنْ يُغذَّىٰ بالأغذية المُعفِّنة للَّحْمِ والجلد، قَبَضوا عَلَىٰ رأسِهِ، فمَلَخوا عَصَبه من جلدِهِ، ولَفُّوه تحت رأسِهِ، وأتَوا به إلَىٰ صَنَمهِمْ، الَّذي هُوَ عَلَىٰ صُورَة المريخ، فَقَالوا: أيُّها الإلهُ الشِّرِّيرُ ذو الفتن والجَوَائح، قَرَّبْنَا إِلَيْك ما يشبهك، فتقبَّل قُرْباننا، وَاكْفِنَا شرَّك وشرَّ أَرْوَاحك الخَبِيثَةِ الشِّرِّيرة.

ويَزْعُمونَ أنَّ الرَّأسَ تَبْقىٰ فيه الحياةُ سَبْعةَ أيَّامٍ، وتُكلِّمهم بعلم ما يُصيبُهمْ تِلْكَ السَّنَةِ مِنْ خيرٍ وشرٍّ.

ويُقرِّبون للشَّمس تلك المرأة الَّتي قَتَلوا وَلَدَها للمُشْتري، ويَطُوفُونَ بصُورَة الشَّمْس، ويَقُولُون: مُسبَّحةٌ مهلَّلةٌ أنتِ أيَّتها الآلهة النُّورانيَّة، قرَّبْنَا إليك ما يُشْبهك، فتَقبَّلي قُرْباننا، وَارْزقينا من خَيْرك، وأَعِيذِينا من شَرِّك.

ويُقرِّبون للزهرة عَجوزًا شَمْطاءَ ماجنةً، يُقدِّمونَها بَيْن يديها، ويُنَادون حَوْلها: أيَّتها الآلهةُ الماجنةُ أتَيْناكِ بقُرْبانٍ بياضُهُ كبَيَاضك، ومجانَتُهُ كمَجَانتك، وظرفُهُ كظرفِكِ، فتَقبَّليها منَّا.

---

(١) أنمش: من النَّمَش، وهو نُقط سُودٌ وبِيضٌ، أو بُقع علىٰ الجِلد في الوَجه تُخَالِف لَونه. «لسان العرب» مادة (نمش).

ثُمَّ يَأْتون بالحَطَب، فيَجْعَلونه حَوْلَ العَجُوز، ويُضْرِمُونَ فيه النَّار إِلَىٰ أن تَحترِق، فيُحْثُونَ رَمَادَها فِي وَجْهِ الصَّنَمِ.

ويُقرِّبون لعطارد شابًّا أسمرَ حَاسِبًا كَاتِبًا مُتأدِّبًا، يَأْتُونَ به بحيلةٍ، وَكَذلكَ يَفْعلونَ بالكلِّ يَخْدعونَهمْ، ويُبنِّجونَهم، ويَسْقونهم أدْويةً تُزيلُ العقلَ، وتُخْرس الألسنةَ، فيُقدِّمونَ هَذَا الشَّابَّ إِلَىٰ صنم عطارد، وَيَقُولُونَ: أيُّها الرَّبُّ الظَّرِيف، أتَيْناكَ بشخصٍ ظريفٍ، وبطَبْعك اهْتَدَينا، فتَقبَّل منَّا.

ثُمَّ يُنْشر الشَّابُّ نصفين، وَيُرَبَّعُ، ويُجْعَل عَلَىٰ أَرْبَعة خشباتٍ حَوْله، ويُضْرَمُ فِي كلِّ خشبةٍ النَّار حَتَّىٰ تَحْترِقَ، ويَحْترق الرُّبع معها، ويُحْثُونَ رَمَادَه فِي وَجْهِهِ.

ويُقرِّبون للقَمَرِ رجلًا آدمَ، كبيرَ الوَجْه، ويَقُولُون له: يا بريد الآلِهَةِ، وخَفِيف الأَجْرَام العلويَّة.

ذكر تلبيسه عَلَى عبَّاد الأصنام:

قَالَ المُصنِّف: كلُّ محنةٍ لبَّس بِها إبليسُ عَلَىٰ النَّاس، فَسَببها الميلُ إِلَىٰ الحِسِّ، والإِعْرَاضُ عن مُقْتَضىٰ العقل، ولمَّا كانَ الحسُّ يَأنس بالمِثْل، دَعَا إبليسُ -لَعَنه الله- خَلْقًا كثيرًا إِلَىٰ عِبَادَة الصُّور، وأَبْطَلَ عند هَؤُلَاء عَمَل العَقْل بمَرَّة.

فمِنْهُمْ مَنْ حسَّن له أنَّها الآلهة وَحْدَها، ومِنْهُمْ مَنْ وَجَد فيه قليلَ فِطْنَةٍ، فعَلِمَ أنَّه لا يُوَافقه عَلَىٰ هَذَا، فَزيَّن له أنَّ عبادتَه هَذِهِ تُقرِّبُ إِلَىٰ الخَالِقِ، فقَالوا: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾[الزمر:٣].

ذكر بداية تلبيسه عَلَى عبَّاد الأصنام:

أَخْبَرنا عبد الوَهَّابُ بن المُبَارك الحافظ، نا أبو الحُسَين بن عبد الجبَّار، نا أبو جعفر بن أَحْمد بن السلم، نا أبو عُبَيد الله مُحمَّد بن عمران المرزبانِي، نا أبو بكر أَحْمَد بن مُحمَّد بن

عبد الله الجوهريُّ، ثنا أبو عليٍّ الحسن بن عليل العَنْزي، ثنا أبو الحَسَن عليُّ بن الصَّبَّاح بن الفرات، قَالَ: أَخبَرنا هشام بن مُحمَّد بن السَّائب الكلبيُّ، قَالَ: أَخبَرنِي أَبِي، قال: أوَّل ما عُبِدَتْ الأَصْنَام كان آدمَ ﷺ لمَّا ماتَ جَعَله بنو شيث بن آدم فِي مَغَارةٍ فِي الجبل الَّذي أُهبِطَ عَلَيهِ آدمُ بأرْضِ الهند، ويُقَال للجبل: بوذ، وهُوَ أخصَبُ جبلٍ فِي الأَرْض.

قال هشام: فأَخبَرنِي أَبِي، عَنْ أَبِي صالحٍ، عن ابْن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: فكَانَ بنو شيث بن آدم عَلَيه الصَّلاة والسَّلام، يَأْتُونَ جَسَد آدمَ فِي المغارة، فيُعظِّمونه ويترحَّمون عَلَيه، فَقَال رجلٌ من بَنِي قَابيل: يَا بَني قَابيلَ، إنَّ لبنِي شيث دَوَّارًا يَدُورُونَ حَوْله، ويُعظِّمونه، ولَيْس لكم شيءٌ. فنَحَت لَهم صَنَمًا، فكان أوَّلَ مَنْ عَمِلَها.

قال: وأَخبَرنِي أَبِي أنَّه قَالَ: وَدٌّ، وسُوَاعٌ، ويَغُوث، ويَعُوق، ونَسْر، قومٌ صَالِحون، فَمَاتوا فِي شهرٍ، فَجَزِعَ عَلَيهم أَقَارِبُهمْ، فَقَال رجلٌ من بني قابيل: يا قَوْمُ، هَلْ لكم أَنْ أعملَ لَكُمْ خَمْسةَ أصنامٍ عَلَىٰ صُورِهِمْ، غَيْرَ أنِّي لا أقدرُ أنْ أجعلَ فيها أرواحًا؟

فَقَالوا: نَعَمْ.

فنَحَتَ لَهُمْ خمسةَ أصنامٍ عَلَىٰ صُوَرِهم، ونَصَبَها لَهم، فكَان الرَّجُلُ منهم يَأْتِي أَخَاه، وعَمَّه، وَابْن عَمِّه، فيُعظِّمه، ويَسْعىٰ حَوْله، حتَّىٰ ذَهَب ذلكَ القرنُ الأوَّلُ، وعُمِلَتْ عَلَىٰ عَهْد يزد بن مهلاييل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم، ثُمَّ جاءَ قرنٌ آخر، فعَظَّموهمْ أشدَّ تَعْظيمًا من القَرْن الأوَّل.

ثُمَّ جَاءَ مِنْ بَعْدهم القَرْنُ الثَّالث، فَقَالوا: ما عَظَّم الأوَّلونَ هَؤُلَاء إلَّا وهُمْ يَرْجونَ شَفَاعتهم عِنْدَ الله عزَّ وجلَّ فَعَبدوهُمْ، وَعظَّموا أَمْرَهُمْ، وَاشْتدَّ كُفْرهُمْ، فَبَعثَ الله تعالى إِلَيْهم إِدْريسَ -عليه الصلاة والسلام- فدَعَاهمْ، فكَذَّبوه، فَرَفعه اللهُ مكانًا عَلِيًّا.

ولَمْ يَزَلْ أَمْرُهُمْ يشتدُّ فيما قَالَ الكَلبيُّ عن أَبِي صالحٍ، عَنْ ابْن عبَّاسٍ، حتَّىٰ أَدْرَكَ نوحٌ،

فبَعَثَهُ اللهُ نبيًّا، وهُوَ يومئذٍ ابن أربَع مئة وثَمانين سنةً، فَدَعاهُمْ إلَىٰ عِبادَة الله عَزَّوَجَلَّ مئة وعشرينَ سنةً، فعَصَوْه وكَذَّبوه، فأَمَره اللهُ تَعالَىٰ أَنْ يصنعَ الفُلْكَ، فَعَملها، وفَرَغ مِنْهَا، وَرَكبها وهُوَ ابْنُ سِتِّ مئةِ سنةٍ، وغَرقَ مَنْ غرقَ، ومَكَثَ بَعْد ذلك ثَلَاث مئةِ سنةٍ، وخَمْسينَ سنةً.

فَكَان بَيْن آدمَ ونوحٍ: أَلْفَا سنةٍ، ومئةُ سنةٍ، فأهبط المَاء هَذِهِ الأَصْنَام من أرضٍ إلَىٰ أرضٍ حتَّىٰ قَذَفها إلَىٰ أرض جدَّة، فلَمَّا نضبَ الماءُ، بقيت عَلَىٰ الشَّطِّ فسفت الرِّيح عَلَيها حتَّىٰ وَارَتْها.

قال الكَلبِيُّ: وكَانَ عَمْرو بن لُحَي كَاهنًا، وكَانَ يُكَنَّىٰ أبا ثمامة، له رِئْيٌ من الجنِّ، فَقَال له: عَجِّل المسيرَ والظَّعنَ من تِهامةَ، بالسَّعد والسَّلامة، ائتِ صفا جدَّة، تَجدْ فيها أصنامًا مُعدَّةً، فأَوْرِدْهَا تِهامةَ، وَلَا تَهَبْ، ثُمَّ ادْعُ العربَ إلَىٰ عِبادتِها تُجَبْ.

فأَتَىٰ نَهر جدَّةَ، فَاسْتَثارها، ثُمَّ حَمَلها حتَّىٰ وَرَد بِها تِهامَةَ، وحَضَر الحَجَّ، فَدَعا العربَ إلَىٰ عِبادَتِها قاطبةً، فأَجَابه عَوْف بن عذرة بن زيد اللَّات، فدَفَع إليه ودًّا، فحَمَله، فكَانَ بوادي القُرَىٰ بدومة الجندل، وسَمَّىٰ ابنه: عبد ودٍّ، فهُوَ أَوَّل مَنْ سُمِّيَ به، وجَعَل عوفٌ ابْنَهُ عَامرًا سادنًا له، فلَمْ يَزَلْ بَنُوهُ يَدِينُونَ به، حتَّىٰ جاءَ اللهُ بالإِسْلَام.

قال الكلبيُّ: حَدَّثني مالك بن حارثة أنَّه رأىٰ ودًّا.

قَالَ: وَكَانَ أَبِي يَبْعثنِي باللَّبن إليه، ويَقُولُ: اسْقِ إِلَهَك. فأَشْرَبُهُ، قَالَ: ثُمَّ رأيتُ خالدَ بن الوليد بَعْد كَسْرِهِ، فجَعَله جُذَاذًا، وكَانَ رسول الله ﷺ بَعَثَهُ من غزوة تبوك لهَدْمه، فَحَالتْ بينه وبَيْن هدمِهِ بنو عَبْدِ ودٍّ، وبنو عامرٍ، فَقَتلهم، وهَدَمه وكَسَّره، وقَتَلَ يومئذٍ رجلًا من بني عبد ودٍّ يُقَال له: قطن بن سريح، فأقبلت أُمُّهُ وهُوَ مقتولٌ وهِيَ تَقُول:

أَلا تِلْكَ المَوَدَّةُ لا تَدُومُ ولا يَبْقَى عَلَى الدَّهْرِ النَّعِيمُ
ولا يَبْقَى عَلَى الحَدَثَانِ عُفْرٌ(١) لَهُ أُمٌّ بِشَاهِقَةٍ رَؤُومُ

ثُمَّ قَالَتْ:

يَا جَامِعًا جَمْعَ الأَحْشَاءِ والكَبِدِ يا ليتَ أُمَّكَ لَمْ تُولَدْ ولَمْ تَلِدِ

ثُمَّ أكبَّتْ عَلَيه، فَشَهقَتْ ومَاتَتْ.

قال الكلبيُّ: فقُلْتُ لمَالك بن حَارثةَ: صِفْ لي ودًّا، حتَّىٰ كأنِّي أنظُرُ إليه.

قال: كَانَ تمثالَ رجلٍ أعْظَم ما يَكُونُ من الرِّجال، قَدْ دِيرَ -أي نُقِشَ- عَلَيه حُلَّتان، مُتَّزِرٌ بحُلَّةٍ، مُرْتَدٍ بأُخرىٰ، عَلَيه سيفٌ قَدْ تَقلَّده، وتَنكَّب قوسًا، وبَيْنَ يَدَيه حَرْبَةٌ فيها لِوَاءٌ وفِضَّةٌ، فيها نَبلٌ، يَعْني: جُعْبَته.

قال: وأَجَابَتْ عمرو بن لحي، مُضَرُ بن نزار، فدَفَع إلَىٰ رجلٍ من هذيل يُقَال له: الحارث بن تَميم بن سعد بن هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر سُوَاعًا، وكان بأرْضٍ يُقَال لَها: رهاط من بطن نخلة، يعبدُهُ مَنْ يليه من مُضرَ.

فَقَالَ رجلٌ من العرب:

تَـرَاهُمْ حَوْلَ قِبْلَتِهِم عُكُوفًا كَمَا عَكَفَتْ هُذَيْلُ عَلَى سُوَاعِ
يَظَلُّ حَيَاتَهُ صَرْعَى لَدَيْهِ غَنَائِمُ مِنْ ذَخَائِرِ كُلِّ رَاعِي

وأَجَابَتْه مذحج، فدَفَع إلَىٰ أنعم بن عَمْرو المرادي يَغُوثَ، وكَانَ بأكمةٍ باليمن تَعْبده مذحج ومَنْ وَالَاها.

وأَجَابَتْهُ هَمَدان، فدَفَع إلَىٰ مالك بن مرثد بن جشم يَعُوقَ، وكَانَ بقريةٍ يُقَال لَها: جوان، تَعْبدُهُ همدان ومَنْ وَالَاها مِنَ اليمن.

---

(١) عفر: بكسر العين وضمها، وهو ذكر الخنازير. «القاموس المحيط» مادة (عفر).

وأَجَابتْهُ حمير، فَدَفع إِلَىٰ رجلٍ من ذي رعين يُقَال له: معدي كرب، نَسْرًا، وكَانَ بِموضعٍ من أَرْض سَبَأ يُقَال له: بلخع، تَعْبُدُهُ حمير ومَنْ وَالَاها، فلَمْ يزالوا يعبدونَهُ حتَّىٰ هَوَّدَهم ذو نواسٍ، ولَمْ تَزَلْ هَذِهِ الأصنامُ تُعْبَدُ، حتَّىٰ بعثَ اللهُ مُحمَّدًا ﷺ، فأَمَر بِهَدْمها.

قَالَ هشامٌ: وَحدَّثنِي الكَلبِيُّ، عَنْ أَبِي صالحٍ، عن ابْن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: «رُفِعَتْ لِيَ النَّارُ، فَرَأَيْتُ عَمْرو بن لحيٍّ قصيرًا، أحمرَ أزرقَ، يَجرُّ قصبَهُ فِي النَّار. قلتُ: مَنْ هذا؟ قيل: هَذَا عَمْرو بن لحي، أَوَّل مَنْ بَحر البحيرةَ، ووَصَل الوَصِيلَةَ، وسَيَّبَ السَّائِبَةَ، وحَمَىٰ الحَامي، وغَيَّرَ دِينَ إِسْمَاعِيلَ، وَدَعَا العَرَبَ إِلَىٰ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ»(١).

قال هشام: وحَدَّثنِي أَبِي وغيرُهُ أَنَّ إسماعيلَ عَلَيه الصَّلاة والسَّلام، لمَّا سَكَن مكَّةَ، ووُلِدَ له فيها أولادٌ، فكثروا، حتَّىٰ مَلَئوا مكَّةَ، ونَفَوْا مَنْ كان بِها من العَمَاليق، ضَاقَتْ عَلَيهم مكَّة، ووَقَعتْ بينهم الحُرُوبُ والعَدَاوتُ، فأَخْرَج بَعْضُهُمْ بعضًا، فتَفسَّحوا فِي البلاد، والْتَمسوا المَعَاشَ، فكَانَ الَّذي حَمَلهمْ عَلَىٰ عِبَادَة الأوثان والحجارة، أنَّه كَانَ لا يَظْعن من مكَّة ظاعنٌ إلَّا احتمل مَعَه حجرًا من حِجَارةِ الحَرَمِ؛ تعظيمًا للحَرَم، وصيانةً لمكَّةَ، فحَيْثما حلُّوا وَضَعوه، وَطَافوا به كَطَوافهم بالكعبة؛ تَيمُّنًا منهم بها، وصيانةً للحَرَم، وحبًّا له، وهُمْ بَعْدُ يُعظِّمونَ الكعبة، ومكَّة، ويَحجُّون ويَعْتمرونَ عَلَىٰ أثر إبراهيم وإسماعيل، ثُمَّ عَبَدوا ما اسْتَحْسَنوا، ونَسُوا ما كَانُوا عليه، وَاسْتَبْدلوا بدين إِبْرَاهيمَ وإِسْمَاعيلَ عليهما السلام غَيْرَه، فعَبَدوا الأَوثانَ، وصَارُوا إِلَىٰ ما كَانَتْ عَلَيه الأُمَمُ من قبلهم.

وَاسْتَخْرَجوا ما كان يَعْبد قومُ نوحٍ، وفيهم عَلَىٰ ذَلكَ بقايا من عَهْد إِبْرَاهيمَ وَإِسْمَاعيل، يَتمسَّكونَ بِها، من تَعْظيم البيت، والطَّواف به، والحجِّ والعُمْرة، والوُقُوف بعَرَفة والمزدلفة،

---

(١) ذكره بِهَذَا اللفظ ياقوت الحموي فِي «معجم البلدان» (٥/ ٣٦٨)، وأَخْرَجه البخاري (٣٥٢١)، ومسلم (٢٨٥٦) من حديث أَبِي هُرَيرة رضي الله عنه، ونحوه، ولفظه: «رأيت عمرو بن عامر بن لُحي الخزاعي يجر قصبهُ فِي النَّار، وكان أوَّل مَنْ سَيَّبَ السوائب».

وإهْدَاء البُدْنَ، والإهْلَال بالحجِّ والعُمْرة، وكَانتْ نزار تقُول إذا ما أهلّت: «لَبَّيك اللَّهمَّ لَبَّيك، لبيّك لا شريك لك، إلَّا شريكًا هُوَ لك، تَمْلكه وما مَلَك».

وكَانَ أوَّلُ مَنْ غيَّر دينَ إسْمَاعيل، ونَصَب الأوثانَ، وسَيَّب السَّائبة، ووَصَل الوصيلةَ، عَمْرو بن ربيعة، وهو لحيُّ بن حارثة، وهُوَ أبو خُزَاعة، وكَانَتْ أمُّ عمرو بن لحي فهيرة بنت عامر بن الحارث، وَكانَ الحارثُ هُوَ الَّذي يلي أمْرَ الكَعْبة، فلمَّا بَلَغ عَمْرو بن لحيٍّ، نَازَعه فِي الولاية، وَقَاتل جرهم بن إسْمَاعيل، فَظفر بِهم، وأجْلَاهُمْ عن الكَعْبة، ونَفَاهم من بِلَادِ مكَّة، وتَولَّىٰ حِجَابَة البَيْت من بَعْدهمْ، ثُمَّ إنَّه مَرِض مرضًا شديدًا، فَقِيلَ لَهُ: إنَّ بالبلقاء مِنْ أرْض الشَّام حِمَّة[1] إنْ أتيتَها برئتَ. فأتَاها فَاستحمَّ بِهَا فَبَرِأ، ووَجَد أهْلَها يَعْبدُونَ الأَصْنامَ، فَقَالَ: ما هذِهِ؟ فَقَالوا: نَسْتَسقي بِها المَطَرَ، ونَسْتَنصر بِها عَلَىٰ العدوِّ.

فَسَألَهم أنْ يُعْطُوه مِنْها، ففَعَلوا، فقَدِمَ بِها مكَّة، ونَصَبها حَوْل الكعبة، واتَّخذت العَرَبُ الأَصْنامَ.

وكَانَ أقْدَمُها مناةَ، وكَانَ منصوبًا عَلَىٰ ساحل البَحْر من نَاحِيَةِ المَشلل بقديد بَيْنَ مكَّة والمدينة، وَكَانت العربُ جَميعًا تُعظِّمه، والأوْس والخَزْرج، ومَنْ نزلَ المدينةَ ومكَّة، وَمَا وَالَاها، ويَذْبحونَ له، ويُهْدُونَ لَهُ.

قال هشام: وَحَدَّثنا رجلٌ من قُرَيش، عن أبِي عُبَيدة بن عبد الله بن أبِي عُبَيدة بن مُحمَّد بن عامر بن يَسَار، قَالَ: كَانَت الأوسُ والخزرجُ، ومَنْ يأخُذُ مَأخَذَهم من العرب من أهْل يثرب وغَيْرها، يَحجُّون، فيَقِفُونَ مع النَّاس المواقفَ كُلَّها، وَلَا يَحْلقون رُؤوسَهمْ، فإذا نَفَروا، أتَوْه، فَحَلَقوا عنده رُؤوسَهمْ، وأقَاموا عنده لَا يَرَوْنَ لحَجِّهمْ تمامًا إلَّا بذَلكَ، وَكَانتْ مناةُ لهُذَيل وخُزَاعة، فبَعَث رسول الله ﷺ عليًا رضي الله عنه فهَدَمها عامَ الفَتْح.

---

(١) الحمة: هي كُلُّ عَين فيها مَاءٌ حَارٌ يَنبع، يَستشفي به المَرْضىٰ.

ثُمَّ اتَّخذوا اللَّات بالطَّائف، وهِيَ أحدثُ مِنْ مَنَاة، وكَانَت صخرةً مرتفعةً، وكَانَتْ سَدَنَتُهَا من ثقيفٍ، وَكَانوا قَدْ بَنَوْا عَلَيها بناءً، وَكَانتْ قريشٌ وجَميعُ العَرَب تُعظِّمها، وَكَانت العربُ تُسمِّي: زَيْدَ اللَّاتِ، وتَيْمَ اللاتِ، وَكَانتْ فِي موضع مَنَارة مسجد الطَّائف اليُسْرىٰ اليوم.

فلَمْ يَزَالوا كَذَلك حتَّىٰ أسْلَمتْ ثقيفُ، فَبَعث رسول الله ﷺ المغيرةَ بن شُعْبة، فهَدَمها، وحرَّقها بالنَّار.

ثُمَّ اتَّخذوا العُزَّىٰ، وهِيَ أَحْدثُ من اللَّات، اتَّخذها ظالم بن أَسْعَد، وكَانَتْ بوادي نَخلة الشَّامية، فوق ذات عرقٍ، وبَنَوْا عليها بيتًا، وَكَانوا يَسْمعونَ منه الصَّوتَ.

قال هشام: وحَدَّثنِي أبِي، عَنْ أبِي صالحٍ، عَن ابْن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: كَانَت العُزَّىٰ شَيْطانةً تأتِي ثلاثَ سمراتٍ ببطن نَخْلة، فلَمَّا افْتتَحَ رسول الله ﷺ مكَّة، بَعَث خالد بن الوليد، فَقَال: «ائتِ بطنَ نَخلَةَ، فَإِنَّكَ تَجِدُ ثَلاثَ سَمَرَاتٍ، فَاعْتَضِدِ الأُولَىٰ». فأَتَاها، فَعَضَدها، فلَمَّا جاءَ إليه، قَالَ: «هَلْ رأيتَ شيئًا؟». قَالَ: لَا. قَالَ: «فَاعْضدِ الثَّانيةَ»، فَأتَاهَا، فَعَضدها، ثُمَّ أتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ فَقَال: «هَلْ رأيتَ شيئًا؟!». قَالَ: لَا. قَالَ: «فَاعْضدِ الثَّالثَةَ».

فَأتَاها، فإذَا هُوَ بِجنيَّةٍ نافشةٍ شَعْرَها، واضعةٍ يَدَيها عَلَىٰ عَاتِقِها، تَصْرف بأَنْيَابِها، وخَلْفها دُبَيَّة السُّلَمِيُّ، وكَانَ سَادنَها.

فَقَالَ خَالدٌ:

يَا عُزَّى كُفْرانَكِ لا سُبْحانَكِ   إنِّي رَأَيْتُ اللهَ قَدْ أَهَانَكِ

ثُمَّ ضَرَبَها، فَفَلَقَ رَأْسَها، فإذا هِيَ حِمَمَةٌ، ثُمَّ عَضَدَ الشَّجَرَةَ، وقَتَلَ دُبَيَّةَ السَّادن، ثُمَّ أتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ فأخبَره، فَقَال: «تِلْكَ العُزَّىٰ، ولا عُزَّىٰ بَعْدَهَا للعَرَب»[1].

(١) انظر: «السُّنن الكبرىٰ» للنسائي (٦/ ٤٧٤)، «مجمع الزوائد» (٦/ ١٧٦)، «تفسير القرطبي» (١٧/ ٩٩، ١٠٠).

قال هشام: وكَانَ لقُرَيشٍ أصنامٌ فِي جَوْف الكعبة، وحَولَها وأعْظَمها عِنْدهُمْ هُبَل، وكَانَ فيما بَلَغني من عقيقٍ أحمر عَلَىٰ صُورَة الإنْسَان، مكسور اليَدِ اليمنَىٰ، أدْرَكته قريشٌ كَذَلك، فجَعَلوا له يدًا من ذهبٍ، وكَانَ أوَّل مَنْ نَصَبه خُزَيمة بن مدركة بن إلياس بن مُضَر، وَكَانَ فِي جَوْف الكعبة، وكَانَ قُدَّامَه سبعةُ أقْداحٍ، مكتوبٌ فِي أحَدِهَا: صريحٌ. وفِي الآخَر: ملصقٌ. فإذَا شَكُّوا فِي مَوْلودٍ، أهْدُوا له هديَّةً، ثُمَّ ضَرَبوا بالقَدَح، فإنْ خرجَ صريح، ألْحَقوه، وإنْ خَرَج ملصقٌ، دَفَعوه، وكَانوا إذا اخْتَصَموا فِي أمرٍ، أوْ أرَادوا سفرًا، أو عملًا، أتَوه، فَاسْتَقْسَموا بالقِدَاحِ عِنْدَهُ.

وهُوَ الَّذي قَالَ له أبُو سُفْيَان يَوْمَ أُحُدٍ: اعْلُ هُبَل (أيْ: عَلَا دِينُكَ)، فَقَالَ رسول الله ﷺ لأصحابِهِ: «ألا تُجيبُونَهُ». فَقَالوا: ومَا نَقُول؟ قَالَ: «قُولُوا: اللهُ أعْلَىٰ وأجلُّ»[1].

وَكَان لَهم أساف وَنَائلة.

قَالَ هشام: فحَدَّثَ الكلبيُّ عن أبِي صالحٍ، عَن ابْن عبَّاسٍ، أنَّ أساف رجلٌ من جرهم يُقَال له: أساف بن يَعْلَىٰ، ونائلة بنت زيد من جرهم، وكَانَ يَتعشَّقها فِي أرْض اليَمَن، فأقْبَلا حُجَّاجًا، فَدَخلا البيت، فوَجَدا غفلةً من النَّاس، وخلوةً من البَيْت، ففَجَر بِها فِي البَيْت، فمُسِخَا، فأصْبَحوا، فوَجَدُوهُما مَمْسُوخَين، فأخْرَجوهما، فوَضَعوهما مَوْضعهما، فعَبَدتهما خُزَاعة، وقريش، ومَنْ حجَّ البيتَ بَعْدُ من العرب.

قال هشام: لمَّا مُسِخَا حَجَرين، وُضِعَا عند البَيْت ليتَّعظَ النَّاسُ بِهما، فلمَّا طالَ مُكْثُهما، وعُبِدَتِ الأصنامُ، عُبِدَا مَعَها، وكَانَ أحدُهُما ملصَقًا بالكَعْبة، والآخر فِي مَوْضع زَمْزم، فنَقَلتْ قريشٌ الَّذي كان مُلْصقًا بالكعبة إلَىٰ الآخر، فكَانوا يَنْحرونَ ويَذْبحونَ عِنْدَهما.

وَكَانَ مِنْ تِلْكَ الأَصْنَام ذُو الخَلَصة، وكَانَ مروة بيضاءَ مَنْقوشة عَلَيها كهيئة التَّاج،

(١) أخرجه البخاري (٣٠٣٩) من حديث البراء بن عازب ﷺ.

وكَانَتْ بتبالة بين مكَّة واليَمَنِ، عَلَىٰ مسيرة سَبْع ليالٍ من مكَّة، وكَانَتْ تُعظِّمها، وتُهْدي لَها خثعم وبجيلة، فَقَالَ رسول الله ﷺ لجرير رضي الله عنه: «أَلا تَكْفِيني ذَا الخَلَصَة»[1].

فوَجَّهَه إليه، فَسَار بأحمس، فَقَابلته خثعم وبُجَيْلَةُ، فَظَفِرَ بِهِم، وهَدَم بُنْيانَ ذي الخَلَصة، وأَضْرَم فِيهِ النَّار، وذُو الخَلَصة اليومَ عتبة بَاب مَسْجد تبالة.

وَكَانَ لدوسٍ صنمٌ، يُقَال له: ذو الكفَّين، فلَمَّا أَسْلَموا بعث رسول الله ﷺ الطُّفيل بن عمرٍو فحَرقَه.

وَكَانَ لبني الحارث بن يشكر صنمٌ، يُقَال له: ذو الشرىٰ، وَكَانَ لقضاعة، ولُخم، وجذام، وعاملة.

وغطفان صنمٌ فِي مَشَارف الشَّام، يُقَال له: الأقيصر.

وكَانَ لمُزَينة صنمٌ، يُقَال له: فهم، وبه كانت تُسمَّىٰ عبد فهم.

وَكَانَتْ لعَنْزة صنمٌ، يُقَال له: سعير.

وَكَانَ لطيئ صنمٌ يُقَال له: الفلس.

وَكَانَ لأَهْل كلِّ وادٍ من مكَّة صنمٌ فِي دَارهم يَعْبدونَهُ، فإذا أَرَاد أحدُهُمْ السَّفر، كان آخر ما يَصْنع فِي مَنْزلِهِ أن يَتمسَّح به، وإذا قَدِمَ من سَفَره كان أَوَّلُ ما يَصْنع إذا دَخَل مَنْزلَه أَنْ يَتمسَّح به، ومِنْهُمْ مَن اتَّخذ بيتًا، ومَنْ لَمْ يَكُنْ له صنمٌ، وَلَا بيتٌ، نَصَبَ حجرًا مِمَّا استحسن بِهِ، ثُمَّ طافَ بِهِ، وَسَمَّوْها الأنصابَ.

وَكَانَ الرَّجلُ إذا سَافَر، فَنزَلَ مَنْزلًا، أَخذ أربعةَ أَحْجَارٍ، فَنَظر إِلَىٰ أَحْسَنها، فَاتَّخذَه ربًّا، وَجَعَله ثالثة الأَثَافِي لقدره، فإذَا ارْتَحل تَركَهُ، فإذَا نزلَ مَنْزلًا آخرَ فَعَلَ مِثْلَ ذَلكَ، ولمَّا ظَهَر

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٢٠)، ومسلم (٢٤٧٦).

رسول الله ﷺ عَلَىٰ مكَّة، دَخَل المسجدَ، والأَصْنَامُ مَنصوبةٌ حول الكعبة، فجَعَل يَطْعن بِسِيَةِ قَوْسِهِ[١] فِي عُيُونِها ووُجُوهها، وَيَقُولُ: «جاءَ الحَقُّ، وَزَهَقَ البَاطِلُ، إِنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا»[٢]، ثُمَّ أَمَر بِها فكُفِئَتْ عَلَىٰ وُجُوهها، ثُمَّ أُخرِجَتْ من المسجد فحُرِّقَتْ.

وعَن ابْن عَبَّاسٍ ﷺ أنَّه قَالَ: فِي زَمَان يزدجرد عُبِدَت الأَصْنَامُ، ورَجَع مَنْ رَجَع عن الإِسْلَام.

أخبرنا إِسْمَاعيلُ بْن أَحْمَد، نا عُمَر بن عُبَيد الله، نا أبو الحُسَين بن بشران، نا عثمان بن أَحْمَد الدَّقَّاق، ثنا جميل، ثنا حسن بن الرَّبيع، ثنا مهدي بن ميمون، قَالَ: سمعتُ أبَا رَجَاء العطاردي يَقُولُ: لمَّا بُعِثَ رسول الله ﷺ، فَسَمعنا به، لَحِقْنَا بِمُسَيلمة الكذَّاب، وَلَحقنا بالنَّار، وكُنَّا نعبدُ الحَجَر فِي الجاهليَّة، فإِذَا وَجَدنا حجرًا هو أَحْسَنُ منه، نُلْقِي ذاك، ونأخذُهُ، وإذا لَمْ نَجِدْ حَجَرًا، جَمَعنا حَثْيَةً من ترابٍ، ثُمَّ جئنا بغنمٍ، فحَلَبْناها عَلَيه، ثُمَّ طُفْنَا به.

أخبرنا مُحمَّد بن عَبْد الباقي بن أحمد، نا حَمَدُ بن أحمد الحَدَّاد، نا أبو نُعَيم أحمد بن عبد الله، ثنا أبو حامد بن جبلة، ثنا أبو عَبَّاس السَّرَّاج، ثنا أحمد بن الحسن بن خراش، ثنا مسلم بن إبراهيم، ثنا عمارة المعولي، قَالَ: سمعتُ أبَا رَجَاء العُطَاردي يَقُولُ: كنَّا نَعْمد إِلَىٰ الرَّمل، فنجمعُهُ، فنحلب عَلَيه، فنعبدُهُ، وَكُنَّا نَعْمد إِلَىٰ الحَجَر الأَبْيَض فنعبدُهُ زمانًا، ثُمَّ نُلْقيه.

أخبرنا أبو منصور القزاز، نا أبو بكر بن ثابتٍ، نا عبد العزيز بن علي الوَرَّاق، نا أحمد ابن إبراهيم، ثنا يُوسُف بن يعقوب النيسابوري، نا أبو بكر بن أَبِي شيبة، ثنا يزيد بن هارون، نا الحَجَّاج بن أَبِي زينب، قال: سمعتُ أبَا عُثْمَان النَّهدي قَالَ: كنَّا فِي الجاهليَّة نعبُدُ حَجرًا،

(١) سِيَة قَوْسِه: طَرف قَابِها، وقيل: رأسها. وقيل: ما اعْوَجَّ مِن رأسِها. «اللسان» مادة (سيا).
(٢) أخرجه البخاري (٤٢٨٧)، ومسلم (١٧٨١) من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ.

فَسَمعنا مُنَاديًا يُنَادي: يا أَهْلَ الرِّحال، إنَّ رَبَّكمْ قَدْ هَلَك، فَالْتَمسوا لكم ربًّا غَيْره.

قَالَ: فخَرَجنا عَلَىٰ كلِّ صعبٍ وذَلُولٍ، فبينما نحن كَذَلك نَطْلب، إذا نَحْن بِمُنَادٍ يُنَادي: إنَّا قَدْ وَجَدنا ربَّكُمْ أو شبهه. قَالَ: فجِئنَا فإِذَا حجرٌ، فنَحَرْنا عَلَيه الجُزُرَ.

أنبأنا مُحمَّد بن أبِي طاهرٍ، نا أبو إِسْحَاق البرمكي، نا أبو عُمَر بن حيوة، نا أَحْمَد بن معروفٍ، نا الحُسَين بن الفهم، ثنا مُحمَّد بن سعدٍ، نا مُحمَّد بن عمرٍو، ثني الحَجَّاج بن صفوان، عَن ابْن أبِي حُسَين، عن شَهْر بن حوشب، عَنْ عَمْرو بن عنبسة قَالَ: كنتُ امْرَأً مِمَّن يَعْبد الحجارةَ، فَيَنْزِل الحيُّ ليس مَعَهمْ آلهةٌ، فيخرج الحيُّ منهم، فيأتِي بأَرْبَعة أحجارٍ، فيَنْصب ثلاثةً لقدره، ويَجْعل أَحْسَنها إلهًا يُعْبَد، ثُمَّ لعلَّه ما هو أحسنُ منه قبل أن يَرْتحلَ، فيتركه، ويأخُذُ غَيْره.

أنبأنا عبد الوَهَّاب بن المبارك، نا أبو الحُسَين بن عبد الجَبَّار، نا أبو الحَسَن العتيقي، نا عثمان بن عَمْرو بن المنتاب، نا أبو مُحمَّد عبد الله بن سُلَيمان الفامي، ثنِي أبو الفَضْل مُحمَّد ابن أبِي هارون الوَرَّاق، ثنا الحَسَن بن عبد العزيز الجروي، عَنْ شيخٍ من ساكنِي مكَّة، قَالَ: سُئِلَ سُفْيان بن عُيَينة: كَيْف عَبَدت العربُ الحجارةَ والأصنامَ؟ فَقَال: أَصْلُ عِبَادَتِهم الحجارةَ أنَّهم قَالُوا: البيتُ حَجَرٌ، فحَيْثما نَصَبنا حجرًا، فهُوَ بِمَنْزلة البيت.

وقَالَ أبو معشر: كَانَ كثيرٌ من أَهْل الهند يَعْتقد الرُّبُوبيَّة، ويُقرُّون بأنَّ لله تَعَالىٰ ملائكةً، إلَّا أنَّهم يَعْتقدونَهُ صُورَةً كأَحْسَن الصُّور، وأنَّ الملائكةِ أَجْسَامًا حسانًا، وأنَّه ﷻ ومَلَائكته مُحْتَجبونَ بالسَّماء، فاتَّخذوا أصنامًا عَلَىٰ صُورَة الله سبحانه عِنْدَهُمْ، وعَلَىٰ صُوَر المَلَائكة، فَعَبدوها، وَقرَّبوا لَها لموضع المُشَابهة عَلَىٰ زَعْمهم.

وقيل لبعضهم: إنَّ المَلَائكةَ، والكواكبَ، والأفلاكَ، أَقْرَب الأَجْسَام إِلَىٰ الخالق، فعَظَّموها، وقَرَّبوا لَها، ثُمَّ عَمِلُوا الأصنامَ.

وبنَىٰ جماعةٌ من القُدَماء بُيُوتًا كانت للأصْنَام، فمِنْهَا بيتٌ عَلَىٰ رَأْس جبلٍ بأصبهان، كَانَتْ فيه أصنامٌ أخْرَجها كوشتاسب لمَّا تَمَجَّس، وجَعَله بيتَ نارٍ.

والبيتُ الثَّانِي، والثَّالث فِي أرْض الهند، والرَّابع بِمَدِينَةِ بلخ، بَنَاه منوشهر، فلما ظهر الإسلام خرَّبه أهل بلخ، والخامس بيتٌ بصنعاء، بناه الضَّحَّاكُ عَلَىٰ اسم الزُّهْرَةِ، فَخَرَّبه عثمان بن عفَّان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والسَّادس بَنَاه قابوس الملك عَلَىٰ اسم الشَّمس، بِمدينة فرغانة، فَخرَّبَه المُعْتصم.

وذَكَر يَحيَىٰ بن بشر بن عمير النهاونديُّ: أنَّ شريعةَ الهند وَضَعَها لَهُمْ رجلٌ برهميٌّ، ووَضَع لَهم أصنامًا، وجَعَل لَهم أعظمَ بُيُوتِهم بيتًا بالميلتان (وهِيَ مدينةٌ من مَدَائن السِّند)، وَجَعل فيه صَنَمهم الأعْظَم الَّذي هو كصُورَة الهيولي الأكْبَر، وهَذِهِ المدينةُ فُتِحَتْ فِي أيَّام الحَجَّاج، وأرَادُوا قَلْعَ الصَّنم، فَقِيلَ لَهم: إنْ تَرَكْتُمُوه، ولَمْ تَقْلعوه، جَعَلنا لكم ثُلُث ما يَجْتمع له من مالٍ. فأمَر عَبْد الملك بن مروان بتَرْكه، فالهندُ تَحجُّ إليه من ألْفَي فرسخٍ، ولا بُدَّ للحاجِّ أنْ يحملَ مَعَه دَرَاهمَ عَلَىٰ قَدْر ما يُمْكنه من مئةٍ إلَىٰ عَشْرة آلافٍ، لَا يَكُونُ أقلَّ من هذا، ولا أكثر، ومَنْ لَمْ يَحْمل معه ذَلكَ لَمْ يتمَّ حَجُّهُ، فيُلْقيه فِي صندوقٍ عظيمٍ هناك، ويَطُوفُون بالصَّنم.

فإذا ذَهَبوا، قُسِّمَ ذَلكَ المَالُ، فثُلُثه للمُسْلمين، وثُلُثه لعِمَارَة المدينة وحُصُونها، وثُلُثُه لسَدَنة الصَّنَم ومَصَالِحِه.

قَالَ الشَّيخ أبو الفرج رَحِمَهُ اللَّهُ: فَانظُرْ كيف تَلَاعب الشَّيطانُ بِهَؤُلَاء، وذَهَب بعُقُولِهِمْ، فَنحَتوا بأيْدِيهمْ ما عَبَدوه، وما أحْسَن ما عَابَ الحقُّ سُبْحَانَهُ أصْنَامَهمْ، فَقَالَ: ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾[الأعراف:١٩٥].

وَكَانَتِ الإشَارَةُ إلَىٰ العِبَادِ، أيْ: أنتم تَمْشون، وتَبْطشونَ، وتُبْصِرُونَ، وتَسْمعونَ،

والأَصْنَامُ عاجزةٌ عَنْ ذَلكَ، وهِيَ جَمادٌ، وهُمْ حيوانٌ، فكَيْفَ عَبَدَ التَّامُّ النَّاقِصَ؟!

وَلَوْ تَفكَّروا، لعَلِمُوا أنَّ الإلَهَ يَصْنع الأشياءَ، وَلَا يُصْنع، ويَجْمع، وليس بِمَجْموعٍ، وتَقُوم الأشياءُ به، ولا يَقُوم بِها، وإنَّما يَنْبغي للإنْسَان أنْ يعبدَ مَنْ صَنَعه، لا مَا صَنَعه، وما خُيِّل إليهم أنَّ الأصنامَ تَشْفَع، فخيالٌ ليس فيه شُبْهةٌ يُتعلَّق بِها.

[ذكر تلبيسه عَلَى عابدي النار والشمس والقمر]:

قال المصنف: قَدْ لبَّس إبليسُ عَلَىٰ جَمَاعةٍ، فحسَّنَ لَهم عِبادَةَ النَّار، وقَالُوا: هِيَ الجوهرُ الَّذي لَا يَسْتغني العالَمُ عَنْه. ومِنْ هاهنا زيَّن عِبَادَة الشَّمس.

وذَكَر أبو جعفر بن جرير الطَّبري: أنَّه لمَّا قتل قابيل هابيل، وهَرَب من أبيه آدمَ إلَىٰ اليَمَن، أتاه إبليسُ، فَقَال له: إنَّ هابيلَ إنَّما قُبِلَ قُرْبانُهُ، وأكَلتْه النَّارُ؛ لأنَّه كان يَخْدُمُ النَّارَ، ويَعْبدها، فَانْصِبْ أنتَ نَارًا، تَكُونُ لَكَ ولعَقِبِكَ. فبنَىٰ بيتَ نارٍ، فهُوَ أوَّلُ مَنْ نَصَب النَّار، وَعَبَدها.

قال الجاحظ: وَجَاء زرادشت مِنْ بلخ، وهُوَ صاحبُ المَجُوس، فَادَّعىٰ أنَّ الوحيَ يَنْزل إليه عَلَىٰ جبل سِيلان، فَدَعا أَهْلَ تلك النَّواحي الباردة الَّذين لا يَعْرفونَ إلَّا البردَ، وَجَعل الوعيدَ بتضاعف البَرْد، وأقرَّ بأنَّه لَمْ يُبْعث إلَّا إلَىٰ الجبال فَقَطْ، وشَرَع لأصحابِهِ التَّوضُّؤَ بالأَبْوَال وغِشْيَانَ الأُمَّهات، وتَعْظيم النِّيران، مَعَ أُمُورٍ سَمِجَةٍ.

قال: ومن قول زرداشت: كَانَ اللهُ وَحْده، فلَمَّا طالت وَحْدتُهُ، فكَّر، فتَولَّد من فكرتِهِ إبليس، فلَمَّا مَثَلَ بَيْنَ يَدَيه، وأَرَاد قَتْلَهُ، امْتنَعَ مِنْه، فلَمَّا رأىٰ امْتناعَهُ، وَدَّعه إلَىٰ مُدَّةٍ.

قال الشيخ أبو الفرج رَحِمَهُ اللهُ: وقَدْ بَنَىٰ عَابِدُو النَّار لَها بُيُوتًا كثيرةً، فأوَّلُ مَنْ رَسَم لَها بيتًا أفريدون، فَاتَّخذوا لَها بيتًا بطوس، وآخر بِبُخَارىٰ، واتَّخذ لَها بَهْمَن بيتًا بسجستان، واتَّخذ لَها أبو قباذ بيتًا بناحية بُخَارىٰ، وبُنِيَتْ بَعْد ذلك بُيُوتٌ كثيرةٌ لَها، وقَدْ كان زرادشت وَضَعَ

نارًا زَعَم أنَّها جَاءَتْ من السَّماء، فأَكَلَتْ قُرْبانهمْ، وذَلكَ أنَّه بنىٰ بيتًا، وجَعَل فِي وسطِهِ مرآةً، ولَفَّ القربانَ فِي حطبٍ، وَطَرح عَلَيه الكبريت، فَلَمَّا اسْتَوتِ الشَّمس فِي كَبد السَّماء، قابلت كِوَّةً قَدْ جعلها فِي ذلك البَيْت، فدَخَل شُعَاع الشَّمس، فوَقَع عَلَىٰ المرآة، فَانْعَكس عَلَىٰ الحَطَب، فَوَقعتْ فيه النَّارُ، فَقَال: لا تُطْفئوا هَذِهِ النَّار.

فصل (ذكر تلبيسه على أهل الجاهلية)

قال المصنف: وقَدْ حَسَّن إبليسُ -لَعَنه الله- لأَقْوامٍ عبادةَ القَمَر، ولآخَرِينَ عِبَادةَ النُّجُوم.

قَالَ ابْن قُتَيبة: وكَانَ قومٌ فِي الجاهليَّة عَبَدوا الشِّعرىٰ العَبُور[1]، وَفُتِنُوا بِها، وَكَانَ أبو كَبْشَةَ الَّذي كَانَ المُشْركونَ يَنْسبونَ إليه رسول الله ﷺ أَوَّل مَنْ عَبَدها.

وقال: قَطَعَتِ السَّماءَ عرضًا، ولَمْ يَقْطَعِ السَّمَاءَ عَرْضًا غَيْرُها. وَعَبَدوها، وَخَالف قريشًا، فلَمَّا بُعِثَ رسول الله ﷺ، ودَعَا إلَىٰ عِبَادَة الله، وتَرْك الأَوْثَان، قَالُوا: هَذَا ابْنُ أبِي كبشة (أَيْ: شبهَهُ ومثلَه فِي الخِلَافِ). كَمَا قَالَتْ بنو إِسْرَائيل لمَرْيم: ﴿يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ﴾ [مريم:٢٨]- أَيْ: يا شَبيهَة هَارُونَ فِي الصَّلاح- وهُمَا شِعْرَيَانِ، إِحْدَاهُمَا هذِهِ، وَالشِّعرىٰ الأُخْرَىٰ: هي الغُمَيصَاءُ، وهِيَ تُقَابلها، وبَيْنهما المجرَّة - والغميصاء من الذِّرَاع المَبْسوط فِي جَبْهة الأَسَد- وتِلْكَ الجَوْزَاء.

وزَيَّن إبليسُ -لَعَنه اللهُ- لآخَرِينَ عِبَادَةَ المَلَائكة، وَقَالوا: هِيَ بناتُ الله تعالىٰ. تَعَالىٰ اللهُ عَنْ ذَلكَ.

وزَيَّن لآخَرينَ عِبَادَة الخَيْل والبَقَر، وَكَانَ السَّامريُّ من قومٍ يَعْبدون البَقَر، فلهَذَا صاغَ

---

(١) الشِّعرىٰ العَبُور: كَوْكَبٌ نَيِّر، يقال له: المرزم، يَطلع بعد الجَوزاء، وطلوعُه في شِدَّة الحَرِّ. «اللسان»، مادة (شعر).

عجلًا، وَجاء فِي التَّعبير أنَّ فِرْعونَ كَانَ يَعْبد تيسًا، ولَيْسَ فِي هؤلاء مَنْ أَعْمَلَ فِكْرَهُ، وَلَا اسْتَعْمَلَ عَقْلَه فِي تَدْبير ما يَفْعل، نَسْأَلُ اللهَ السَّلامةَ فِي الدُّنيا والآخرة.

ذكر تلبيسه عَلَى أهل الجاهلية:

قال المصنف: ذَكَرنا كيف لَبَّس عَلَيهم فِي عِبَادَة الأَصْنَام، ومِنْ أَقْبَح تلبيسِهِ عَلَيهم فِي ذَلِكَ: تَقْليد الآباء من غَيْر نظرٍ فِي دليلٍ كَمَا قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة:١٧٠]، والمَعْنَىٰ: أَتتبعُونَهمْ أيضًا.

وقَدْ لبَّس إبليسُ عَلَىٰ طَائِفَةٍ مِنهم، فَقَالوا بِمَذْهب الدَّهريَّة، وأَنْكَروا الخالقَ، وَجَحَدوا البعثَ، وهَؤُلَاء الَّذين قَالَ اللهُ سُبْحَانه فيهم: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية:٢٤].

وَعَلَىٰ آخَرينَ مِنْهُمْ، فأَقرُّوا بالخالق، لَكنَّهمْ جَحَدوا الرُّسُلَ والبعثَ، وعَلَىٰ آخرين مِنْهُمْ، فَزَعموا أنَّ المَلَائكةَ بناتُ الله، وأمَال آخَرينَ مِنْهُمْ إِلَىٰ مَذْهب اليَهُود، وآخرين إِلَىٰ مَذْهب المَجُوسِ، وَكَانَ فِي بني تَميمٍ منهم زُرَارة بن حدس التَّميميُّ، وَابنه حاجبٌ.

ومِمَّنْ كانَ يقرُّ بالخَالِق، والابْتِدَاءِ، والإعَادَةِ، وَالثَّوَاب، والعِقَابِ: عَبْدُ المُطَّلب بن هاشم، وزَيْدُ بن عمرو بن نُفَيل، وقسُّ بن سَاعدةَ، وعَامر بن الظرب -وكَانَ عَبْدُ المُطَّلب إذا رأىٰ ظالِمًا لَمْ تُصِبْهُ عُقُوبةٌ قَالَ: تالله، إنَّ وَرَاء هَذِهِ الدَّار لدارًا يُجْزَىٰ فيها المحسنُ والمسيءُ.

ومِنْهُمْ زُهَير بن أَبِي سلمىٰ، وهُوَ القائلُ:

يُـؤَخَّرْ فيُوضَـعُ فِـي كتـابٍ فيُـدَّخر ... ليَـوْمِ الحِـسَابِ أَوْ يُعَجَّـلُ فَيُنْـتَقَمْ

ثُمَّ أَسْلَمَ، ومِنْهُمْ زيد الفوارس بن حُصَين، ومِنْهم القلمس بن أُميَّة الكنانِي، كَانَ

يَخطب بفِنَاءِ الكَعْبَةِ، وَكَانت العربُ لا تَصْدر عن مَوَاسمها حتَّىٰ يَعِظَهَا ويُوصِيهَا، فَقَالَ يومًا: يَا مَعْشرَ العَرَب، أَطِيعُونِي تَرْشُدُوا. قَالُوا: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: إِنَّكُمْ تَفرَّدتُمْ بآلهةٍ شتَّىٰ، إنِّي لأعلمُ ما الله بكلِّ هَذَا راضٍ، وأنَّ اللهَ ربُّ هَذِهِ الآلهة، وأنَّه ليحبُّ أَنْ يُعْبَدَ وَحْده.

فَتفرَّقَتْ عنه العربُ لذَلِكَ، ولَمْ يَسْمعوا مَوَاعِظَهُ، وكَانَ فيهم قومٌ يَقُولُونَ: مَنْ مَاتَ، فربطت عَلَىٰ قَبْره دَابَّتُهُ، وتُرِكَتْ حتَّىٰ تَمُوتَ، حُشِرَ عليها، ومَنْ لَمْ يَفْعل ذلك، حُشِرَ ماشيًا.

ومِمَّن قَالَهُ عَمْرو بن زيدٍ الكلبيُّ.

قال المصنف: وأَكْثَرُ هَؤُلَاء لَمْ يَزُلْ عَنِ الشِّرْك، وإنَّما تَمَسَّك منهم بالتَّوحيد، ورَفَضَ الأصنامَ القليلُ؛ كقِسِّ بْن سَاعِدَةَ وزَيْدٍ.

وَمَا زَالَت الجَاهليَّة تَبْتدعُ الكثيرةَ، فمِنْهَا النَّسيء وهُوَ تَحْريمُ الشَّهر الحلال، وتَحْليل الشَّهر الحَرَام، وذَلكَ أنَّ العربَ كَانَتْ قَدْ تَمسَّكَتْ من مِلَّةِ إِبْرَاهيمَ -صَلَوَاتُ الله وسلامُهُ عَلَيه- بتَحْريم الأَشْهُر الأَرْبعَة، فإِذَا احْتَاجُوا إِلَىٰ تَحْليل المُحرَّم للحرب، أَخَّروا تَحْريمَهُ إِلَىٰ صفر، ثُمَّ يَحْتَاجون إلَىٰ صفرٍ، ثُمَّ كَذَلك، حتَّىٰ تَتدَافع السَّنَة، وإذا حَجُّوا قالوا: لَبَّيك لا شريكَ لَكَ، إلَّا شريكًا هُوَ لك، تَمْلِكُه وما مَلَك.

ومنها: تَوْريثُ الذَّكَر دونَ الأنثىٰ.

ومنها: أنَّ أَحَدَهُمْ كان إذا مَاتَ، وَرَّثَ نكاحَ زوجتِهِ أقربَ النَّاس إليه.

ومنها البحيرة: وَهِيَ النَّاقةُ تَلِدُ خَمْسةَ أبطنٍ، فإِنْ كان الخامس أُنْثَىٰ، شَقُّوا أُذُنَها، وَحُرِّمَتْ عَلَىٰ النِّساء.

والسَّائبةُ: من الأنعام كانوا يُسيِّبونَها، ولا يَرْكبون لَها ظهرًا، ولَا يَحْلبونَ لَها لبنًا.

والوصيلة: الشَّاةُ تلدُ سَبْعةَ أبطنٍ، فإِنْ كانَ السَّابعُ ذكرًا أو أُنْثَىٰ، قَالُوا: وَصَلتْ أَخَاها. فَلَا تُذْبَح، وتكُونُ مَنَافعُها للرِّجال دون النِّساء، فإِذَا مَاتَتْ، اشْتَرك فيها الرِّجالُ والنِّساء.

والحام: الفَحْلُ يَنْتجُ من ظَهْره عَشرةُ أبطنٍ، فَيَقُولُونَ: قَدْ حَمَىٰ ظَهْرُه، فيُسيِّبونه لأَصْنَامِهِمْ، وَلَا يَحْمل عَلَيه.

ثُمَّ يقولون: إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أَمَرنا بِهَذَا.

فَذَلِكَ مَعْنىٰ قولِهِ تَعَالىٰ: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾[المائدة:١٠٣].

ثُمَّ اللهُ عَزَّوَجَلَّ ردَّ عَلَيهم فيما حَرَّموه من البحيرة، والسَّائبة، والوَصيلَة، والحامي، وفِيمَا أَحلُّوه بقولِهِ: ﴿خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾[الأنعام:١٣٩].

قَالَ اللهُ تَعَالىٰ: ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ﴾[الأنعام:١٤٣]، والمَعْنىٰ: إِنْ كَانَ الله تَعَالىٰ حرَّم الذَّكَرين، فكلُّ الذكور حرامٌ، وإِنْ كَانَ حَرَّم الأُنْثَيين، فكلُّ الإناث حرامٌ، وإِنْ كان حَرَّم ما اشْتَمَلَتْ عليه أَرْحَامُ الأُنْثَيين، فإنَّها تَشْتَمل عَلَىٰ الذُّكُور والإناث فَيَكَوْن كلُّ جنينٍ حَرَامًا.

وزَيَّن لَهم إبليسُ قَتْلَ أَوْلَادهمْ، فالإنسانُ مِنْهُمْ يَقْتُلُ ابْنَتَهُ، ويَغْذُو كَلْبَه.

ومِن جُملة ما لَبَّس عليهم إبليسُ أَنَّهم قَالُوا: لَو شَاءَ اللهُ مَا أَشرَكْنَا. (أي: لَو لَمْ يَرْضَ شِرْكَنَا، حَالَ بينَنا وبينه).

فتَعَلَّقُوا بالمشِيئَةِ، وتركُوا الأمرَ، ومشيئةُ اللهِ تعمُّ الكائناتِ، وأمرُهُ لا يعمُّ مُرَادَاتِه، فَلَيسَ لِأحدٍ أن يتعلَّقَ بالمشِيئةِ بعدَ وُرُود الأمرِ، ومذاهبُهم السَّخيفةُ الَّتي ابتدَعُوها كثيرةٌ، لا يصلُحُ تضييعُ الزَّمانِ بِذِكْرِهَا، ولا هي مِمَّا يَحتاج إِلَىٰ تكَلُّفِ ردِّها.

ذكر تلبيس إبليس عَلَى جَاحِدِي النُّبوَّات:

قال المصنِّف: قد لبَّس إبلِيسُ عَلَىٰ البَرَاهِمَةِ والهِندُوس، وغيرهم، فَزَيَّنَ لَهم جَحْدَ النُّبوَّات؛ ليسدَّ طريقَ ما يصلُ مِنَ الإِلَه، وقد اختلَفَ أهلُ الهِند؛ فمنهم: دَهْرِيَّة، ومنهم ثنويَّة، ومنهم عَلَىٰ مذاهِبِ البَرَاهمَة، ومنهم من يعتَقِد نبوَّةَ آدَمَ وإبراهيمَ فقط.

وقد حَكَىٰ أبو مُحمَّدٍ النوبَختي فِي كتاب «الآراء والدِّيانات»: «أنَّ قومًا مِنَ الهِندِ مِنَ البَراهمةِ أثبتُوا الخَالق، والرُّسُلَ، والجنَّةَ، والنَّارَ، وزعمُوا أنَّ رسولَهم مَلَكٌ أتَاهُم فِي صُورَةِ البَشَرِ مِن غَيرِ كِتَابٍ؛ له أربعةُ أيدٍ واثنا عشر رَأسًا، مِن ذلك: رأسُ إنسانٍ، ورأسُ أسدٍ، ورأسُ فرسٍ، ورأس فيلٍ، ورأس خِنْزيرٍ، وغير ذلك من رُءوس الحَيَوانات، وأنَّه أمَرَهم بتعظيمِ النَّار، ونَهاهُم عن القتلِ والذَّبائح، إلَّا ما كان للنَّار، ونَهاهُم عن الكَذِبِ، وشُربِ الخَمرِ، وأباحَ لَهم الزِّنا، وأمرهم أن يعبدوا البَقَرَ.

ومَنِ ارتدَّ منهم، ثُمَّ رَجَعَ، حلقُوا رأسَه ولحيتَه وحاجبَيه وأشفارَ عينيه، ثُمَّ يذهبُ فيسجدُ للبقَرِ، فِي هَذَيَانَاتٍ، يضيعُ الزَّمان بِذكرِها.

قال المصنِّف: وقد ألقَىٰ إبليسُ إلَىٰ البَراهمةِ ستَّ شُبُهَاتٍ:

الشُّبهة الأولىٰ: استبعاد اطِّلاع بعضهم عَلَىٰ ما خَفِيَ عن بعضٍ، فقالوا: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [المؤمنون:٢٤]، والمعنَىٰ: وكيف اطَّلع عَلَىٰ ما خَفِيَ عنكم؟

وجواب هَذِهِ الشُّبهة: أنَّهم لو نَاطقُوا العقولَ لأَجَازَتِ اختيارَ شخصٍ بِشَخْصٍ، بخصائصَ يعلُو بِها جنسُهُ، فيصلحُ بتلك الخَصَائص لِتلَقُّفِ الوَحْيِ؛ إذ ليس كلُّ أحدٍ يصلُحُ لذلكَ، وقد علمَ الكلُّ أنَّ اللهَ ﷻ ركَّبَ الأمزجةَ متفاوتةً، وأخرجَ إلَىٰ الوجودِ أدويةً تُقاومُ ما يعرِضُ من الفسادِ البَدَنِيِّ، فإذا أمدَّ النَّباتَ والأحجارَ بخواصَّ لإصلاحِ أبدانٍ خُلِقَتْ للفناء هاهنا، وللبقاءِ فِي دار الآخرة، لَمْ يبعدْ أن يخصَّ شَخْصًا من خَلْقِهِ بالحِكمةِ البَالِغةِ، والدِّعاية إليه، إصلَاحًا لِمن يفسد فِي العالم بسوءِ الأخلاقِ والأفعالِ.

ومعلومٌ أنَّ المُخالِفِينَ لا يَستَنكِرُون أن يختصَّ أقوامٌ بالحكمةِ، ليسكِّنوا فَوَرَاتِ الطِّباع الشِّرِّيرة بالموعظةِ، فكيف يُنكِرُون إمدادَ الباري سبحانه بعضَ النَّاس، برسائل ووصايا يُصْلِحُ بِها العالمَ، ويطيبُ أخلاقهم، ويقيمُ بِها سياستَهم، وقد أشارَ ﷯ إلَىٰ ذلك فِي

قولِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ ﴾[يونس:٢].

الشُّبهة الثَّانية: قالوا: هلَّا أرسلَ مَلَكًا، فإنَّ المَلَائكةَ إليه أقربُ، ومِنَ الشَّكِّ فيهم أبعدُ، والآدميُّون يُحبُّون الرِّياسةَ عَلَىٰ جنسِهم، فيوقع ذلك شكًّا.

وجوابُ هَذَا من ثلاثةِ أوجهٍ:

أحدُهَا: أنَّ فِي قُوَىٰ المَلَائكةِ قلبَ الجبالِ والصُّخور، فَلَا يُمكِنُ إظهارُ معجزةٍ تدلُّ عَلَىٰ صِدقِهم؛ لِأنَّ المُعجِزَةَ ما خَرَقَتِ العَادةَ، وهَذِهِ عادةُ المَلَائِكةِ، وإنَّمَا المُعجِزَاتُ الظَّاهرةُ ما ظهرت عَلَىٰ يد بشرٍ ضعيفٍ لِيكُونَ دَلِيلًا عَلَىٰ صِدقِهِ.

والثَّانِي: أنَّ الجنسَ إِلَىٰ الجِنسِ أميلُ، فصحَّ أن يُرسِلَ إليهم من جنسِهم لِئَلَّا ينفرُوا، ولِيعقلُوا عنه، ثُمَّ تَخصيصُ ذلك الجنسِ بِما عجز عنه دَلِيلٌ عَلَىٰ صِدقِهِ.

والثَّالث: أنَّه ليسَ فِي قُوَىٰ البَشَرِ رؤيةِ المَلَكِ، وإنَّما اللهُ تَعالىٰ يقوِّي الأنبياء بِما يرزقهم من إدراكِ الملائكة، ولِهَذَا قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا ﴾[الأنعام:٩]، أي: لينظرُوا إليه، ويأنسُوا به، ويفهمُوا عنه.

ثُمَّ قال: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأنعام:٩]، أي: لَخَلَطْنَا عليهم ما يخلطُون عَلَىٰ أنفسِهم حتَّىٰ يشكُّوا، فلا يدرُون: أملكٌ هو أم آدميٌّ؟

الشُّبهة الثَّالثة: قالوا: نرىٰ ما يدَّعِيه الأنبياءُ مِن علمِ الغيبِ والمعجزاتِ، وما يُلقَىٰ إليهم من الوحيِ يظهرُ جنسُهُ عَلَىٰ الكَهَنَةِ والسَّحَرَةِ، فلم يبقَ لنا دَلِيلٌ نُفرِّقُ به بين الصَّحيح والفاسدِ.

والجواب أن نقولَ: إنَّ الله تبارك وتعالىٰ بيَّنَ الحججَ، ثُمَّ بثَّ الشُّبَهَ، وكلَّفَ العُقُول الفرقَ، فلا يقدر ساحرٌ أن يُحيِيَ ميِّتًا، ولا أن يخرجَ من عصا حيَّةً، وأمَّا الكاهنُ فقد يصيبُ وقد يخطئُ، بخلافِ النُّبوَّة الَّتي لا خَطَأَ فيها بوجهٍ.

الشُّبهة الرَّابعة: قالوا: لا يَخلُو إمَّا أن تَجِيءَ الأنبياءُ بِما يُوافِقُ العقلَ، أو بما يخالفُهُ، فإن جاءُوا بِما يخالِفُهُ، لَمْ يقبلْ، وإن جاءُوا بِما يوافِقُهُ فالعقلُ يغني عنه.

والجوابُ أن نقُولَ: قد ثَبَتَ أنَّ كثيرًا مِنَ النَّاسِ يعجزُون عن سياسَاتِ الدُّنيا، حتَّىٰ يحتاجُوا إلَىٰ متمِّمٍ كالحكماءِ والسَّلاطين، فكيف بأمور الإلهيَّة والآخرة.

الشُّبهة الخامسة: قالوا: قد جاءتِ الشَّرائع بأشياءَ ينفرُ منها العقلُ، وكيف يجوزُ أن تكونَ صحيحةً؟ مِن ذلك: إيلامُ الحيوانِ.

والجواب: إنَّ العقلَ ينكرُ إيلامَ الحيوان بعضه لبعضٍ، فأمَّا إذا حكم الخالقُ بالإيلامِ لَمْ يبقَ لِلعقلِ اعتراضٌ.

وبيانُ ذلك أنَّ العقلَ قَد عَرَفَ حكمةَ الخَالِقِ ﷻ، وأنَّه لَا خَلَلَ فيها ولا نَقصَ، فأَوجَبَتْ عليه هَذِهِ المعرفةُ التَّسليمَ لِمَا خَفِيَ عنه، ومتىٰ اشتَبَه علينا أمرٌ فِي فرعٍ لَمْ يَجُزْ أن نحكمَ عَلَىٰ الأصلِ بالبُطلان.

ثُمَّ قد ظهرتْ حكمةُ ذلك، فإنَّا نعلمُ أنَّ الحيوانَ يَفْضُلُ عَلَىٰ الجمادِ، ثُمَّ النَّاطقُ أفضلُ مِمَّا ليس بناطقٍ بِما أُوتِيَ مِن الفَهمِ والفِطنةِ والقُوىٰ النَّظريَّة والعمليَّة، وحاجةُ هَذَا النَّاطق إلَىٰ إبقاء فَهْمِه، ولا يقومُ فِي إبقاء القُوَىٰ مقامَ اللَّحم شيءٌ، ولا يستطرفُ تناول القويِّ الضَّعيف، وما فيه فائدةٌ عظيمةٌ لما قلَّت فائدته.

وإنَّما خُلق الحيوانُ البهيمُ للحَيَوانِ الكريمِ، فلو لَمْ يذبحْ لَكَثُرَ وضَاقَ به المَرْعَىٰ، ومَاتَ، فَتَأَذَّىٰ الحيوانُ الكريم بِجِيفَتِهِ، فلم يكنْ لإيجادِهِ فائدة.

وأمَّا ألمُ الذَّبحِ، فَإنَّه يسيرٌ، وقد قِيلَ: إنَّه لا يوجدُ أصلًا؛ لِأنَّ الحسَّاسَ لِلألم أغشيةُ الدِّماغ؛ لِأنَّ فِيه الأعصابَ الحسَّاسة، ولذلك إذا أصابَهَا آفةٌ مِن صَرَعٍ أو سكتةٍ لَمْ يَحُسَّ الإنسانُ بألمٍ، فإذا قُطِعَتِ الأوداجُ سريعًا، لَمْ يصلْ ألمُ الجسمِ إلَىٰ محلِّ الحِسِّ، ولِهَذَا قال

عليه الصَّلاة والسَّلام: «إذا ذَبَحَ أحدُكم، فليُحِدَّ شَفْرَتَهُ، وَلْيُرِحْ ذَبيحَتَهُ»(١).

الشُّبهة السَّادسة: قالُوا: ربَّما يكونُ أهلُ الشَّرائع قد ظَفَرُوا بِخواصَّ من حجارةٍ وخشبٍ.

والجوابُ: أنَّ هَذَا كلامٌ ينبَغِي أن يُستحيَىٰ مِن إيرادِهِ؛ فإنَّه لَمْ يَبْقَ شيءٌ مِنَ العَقَاقِيرِ والأحجارِ، إلَّا وقد وَضَحَتْ خواصُّها، وبَانَ سرُّها، فلو ظَفَرَ واحدٌ منهم بشيءٍ، وأظهَرَ خاصِّيَّته، لوقع الإنكار من العلماءِ بِتِلكَ الخَوَاصِّ، وقالوا: هَذَا ليس منك، إنَّما هَذِهِ خاصِّيَّةٌ فِي هذا.

ثُمَّ إنَّ المعجزات ليست نوعًا واحدًا، بل هي بين صخرةٍ خَرَجَتْ منها ناقةٌ، وعصا انقَلَبَتْ حيَّةً، وحجرٍ تفجَّر عيونًا، وهَذَا القرآن الَّذي له منذُ نزل دُونَ السُّتِّ مائةِ سنةٍ، فالأسماعُ تُدرِكُهُ، والأفكارُ تَتَدبَّره، والتَّحدِّي به عَلَىٰ الدَّوام، ولَمْ يقدرْ أحدٌ عَلَىٰ مُدَانَاة سورة منه، فأين هَذَا والخاصَّة والسِّحر والشَّعبذة؟

قال أبو الوفاء عليُّ بن عقيلٍ رَحِمَهُ اللهُ: صَدَأَتْ قلوبُ أهل الإلحاد لانتشارِ كلمة الحقِّ، وثبوت الشَّرائع بين الخلق، والامتثال لِأوامرِهَا كابنِ الرَّونديِّ، ومن شاكَلَهُ، كأبي العَلَاءِ، ثُمَّ مع ذلك لا يَرَوْنَ لِمَقَالَتِهم نباهةً ولا أثرًا، بلِ الجوامعُ تَتَدَفَّقُ زِحَامًا، والأَذَانَات تَملأُ أسماعَهم بالتَّعظيم لشأنِ النَّبيِّ ﷺ، والإقرار بِما جَاءَ به، وإنفاق الأموال والأنفسِ فِي الحجِّ مع ركوبِ الأخطارِ، ومعاناة الأسفارِ، ومفارقة الأهل والأولاد، فجَعَلَ بعضُهم يندسُّ فِي أهل النَّقْلِ، فَيَضَعُ المفاسدَ عَلَىٰ الأسانيدِ، ويضع السِّيَرَ والأخبار، وبعضُهم يروِي ما يُقَارِبُ المعجزاتِ من ذِكرِ خَوَاصَّ فِي أحجارٍ وخوارقِ العَادَاتِ فِي بعض البِلادِ، وأخبار عن الغيوبِ عن كثيرٍ من الكَهَنَةِ والمُنجِّمين، ويبالغ فِي تقريرِ ذلك حتَّىٰ قالُوا: إنَّ سطيحًا قال

(١) أخرجه مسلم (١٩٥٥) من حديث شداد بن أوس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

فِي الخَبِيءِ الَّذي خُبِّئَ له: حبَّة بُرٍّ، فِي إحليلِ مُهرٍ.

والأسود كان يَعِظُ الشَّيْءَ قبل كونه.

وهاهنا اليوم مُعزِّمُون يكلِّمون الجِنِّيَّ الَّذي فِي باطِنِ المجنونِ، فيكلِّمهم بِما كان ويكون، وما شَاكَلَ ذلك من الخُرَافَاتِ، فَمَنْ رأىٰ مثلَ هَذَا، قال بِقِلَّةِ عقلِهِ، وقِلَّةِ تلمُّحِه لقصد هؤلاء المُلْحِدَةِ: وهل ما جاءتْ به النُّبُوَّاتُ إلَّا مقارب هذا؟! وليس قول الكاهِنِ: حبَّة برٌّ فِي إحليلِ مُهْرٍ، وقد أخفيت هذا الإخفاء بأكثرِ من قولِهِ: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران:٤٩].

وهل بَقِيَ لِهَذَا وَقْعٌ فِي القُلُوبِ، وهَذَا التَّقويم ينطقُ بالمنع من الرُّكوب اليومَ؟ وهل تَرَكَ تَلَمُّحَ هَذَا إلَّا الغبِيُّ؟!

واللهِ، ما قصدُوا بذلك إلَّا قصدًا ظاهِرًا ولمَّحوا لَمحًا جَلِيًّا، فقالُوا: تعالَوا نُكثِرُ الجولان فِي البلادِ والأشخاصِ والنُّجوم والخواصِّ، ولا يخلُو مع الكثرةِ مِن مصادَفَةِ الاتِّفاقِ لواحدةٍ من هذه، فيصدقُ بِها الكُلُّ، ويبطلُ أن يكونَ ما جاء به الأنبياء خرقًا لِلعادات.

ثُمَّ دسَّ قومٌ مِنَ الصُّوفية أنَّ فلانًا أهوَىٰ بإنائِهِ إلَىٰ دجلةَ، فامتَلَأَ ذهبًا، فَصَارَ هَذَا كالعادةِ بطريقِ الكَرَامَاتِ من المُتصَوِّفين، وبطريقِ العاداتِ فِي حقِّ المنجِّمين، وبطريق الخواصِّ فِي حقِّ الطَّبائعيِّين، وبطريق الكَهَانَةِ فِي حقِّ المعزِّمين، والعرَّافين، فأيُّ حكمٍ بَقِيَ لقولِ عِيسَىٰ عليه السلام: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾. وأي خرقٍ بقي للعَادَاتِ، وهل العاداتُ إلَّا استمرارُ الوُجود، وكثرةُ الحصول؟

فإذا نبَّههم العاقلُ المتديِّن عَلَىٰ ما فِي هَذَا مِنَ الفَسَادِ، قالَ الصُّوفيُّ: أتنكرُ كراماتِ الأولياءِ؟ وقال أهل الخواصِّ: أتنكِرُ المغناطيسَ الَّذي يجذبُ الحديدَ، والنَّعامةُ تبلعُ النَّار؟

فسكت عن جَحْدِ ما لَمْ يكن لِأجلِ ما كانَ، فويلٌ للمُحِقِّ معهم.

هَذَا، والباطنيَّةُ مِن جانبٍ، والمُنجِّمون من جانبٍ من أربابِ المناصِبِ لا يَحِلُّون، ولا يعقدُون، إلَّا بقولِهم؛ فسبحانَ مَن يحفَظُ هَذِهِ الملَّة، ويُعلِي كلمتَها، حتَّىٰ إنَّ كلَّ الطَّوائف تحت قهرِها، إقبالًا مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ عَلَىٰ حراسة النُّبوَّات، وقمعًا لأهل المِحَال.

فصل [ذكر تلبيسه على البراهمة]

ومِن الهندِ البَراهمةُ: قومٌ قد حسَّنَ لَهم إبليسُ أن يتقرَّبُوا بإحراقِ نفوسهم، فيُحفرُ للإنسانِ منهم أُخدودٌ، وتجتمع النَّاسُ، فيجيءُ مُضمَّخًا بالخلوقِ والطِّيب، وتضرب المعَازفُ والطُّبولُ والصُّنوجُ، ويقولون: طُوبَىٰ لِهَذِهِ النَّفس الَّتي تعلوُ إلَىٰ الجنَّة. ويقول هو: ليكن هَذَا القُربانُ مقبولًا، وليكن ثوابُه الجنَّةَ.

ثُمَّ يُلقِي نفسَهُ فِي الأخدودِ، فيحتَرِقُ، فإن هَرَبَ، نَابَذُوه، ونفَوه، وتَبرَّأوا منه، حتَّىٰ يعودَ.

ومنهم: من يُحمَىٰ له الصَّخرُ، فلا يزالُ يلزمُ صخرةً صخرةً حتَّىٰ يثقبَ جوفه، ويخرج معاهُ، فيموت.

ومنهم: مَن يَقِفُ قَرِيبًا من النَّارِ إلَىٰ أن يسيلَ وَدَكُهُ، فيسقط.

ومنهم: من يقطعُ من سَاقِهِ وفَخِذِه قطعًا، ويلقيها إلىٰ النَّار، والنَّاس يزكُّونه ويَمدحونه، ويسألون مثل مرتبتِه حتَّىٰ يَموت.

ومنهم: من يقف فِي أخثاء البقرِ إلَىٰ ساقه، ويُشعلُ فيه النَّار، فيحترق.

ومنهم من يعبُدُ الماء ويقول: هو حياة كلِّ شيءٍ. فيسجدُ له.

ومنهم من يُجَهَّزُ له أخدودٌ قريبًا من الماءِ، فيقع في الأخدودِ، حتىٰ إذا التَهَبَ قَامَ،

فانغَمَسَ فِي الماءِ، ثم رجع إِلَىٰ الأخدودِ، حتَّىٰ يموتَ، فإن مات بينهما حَزِنَ أهلُهُ، وقالوا: حُرِمَ الجنَّة. وإن مات فِي أحدِهما، شهدُوا له بالجنَّة.

ومنهم: من يُزْهِقُ نفسَه بالجوعِ والعطشِ، فيسقطُ أوّلًا عن المشيِ، ثُمَّ عن الجلوسِ، ثُمَّ ينقطعُ كلامُه، ثُمَّ تبطُلُ حواسُّه، ثُمَّ تبطل حركتُه، ثُمَّ يخمدُ.

ومنهم: من يَهيمُ فِي الأرضِ حتَّىٰ يموتَ.

ومنهم: من يُغْرِقُ نفسَه فِي النَّهر.

ومنهم: من لا يأتِي النِّساء، ولا يُوارِي العورة، ولَهم جبلٌ شاهقٌ تحته شجرةٌ، وعندها رجلٌ بيده كتابٌ يقرأُ فيه، يقولُ: طُوبَىٰ لِمَنِ ارتقَىٰ هَذَا الجَبَل، وبَعَجَ بطنَهُ، وأخرجَ مِعَاهُ بِيَدِهِ.

ومنهم: من يأخذُ الصُّخور، فرَضَّ بِها جسدَهُ حتَّىٰ يموتَ، والنَّاس يقولُون: طُوبَىٰ لك.

وعندهم نَهرَان، فيخرج أقوامٌ من عُبَّادِهم يوم عيدِهم، وهناك رجالٌ، فيأخذُون ما عَلَىٰ العُبَّادِ من الثِّيابِ، ويبطحُونَهم، فيقطِّعُونَهم بنصفَين، ثُمَّ يُلقُون أحدَ النِّصفَين فِي نَهرٍ، والنِّصف الآخر فِي نَهرٍ، ويزعُمون أنَّهما يجريان إِلَىٰ الجنَّة.

ومنهم: من يخرجُ إِلَىٰ بَرَاحٍ، ومعه جَماعَةٌ يَدْعُونَ له، ويُهنِّئُونَه بنيَّته، فإذا ضَجِرَ جَلَسَ، وجُمِعَ له سِبَاعُ الطَّيرِ من كلِّ جهةٍ، فيَتَجَرَّدُ من ثيابِهِ، ثُمَّ يمتدُّ، والنَّاس ينظرون إليه، فتَبْتَدِرُهُ الطَّيرُ، فتَأكُلُه، فإذا تَفَرَّقَتِ الطَّيرُ، جاءتِ الجَمَاعَةُ، فأخَذُوا من عِظامِه، وأحرقُوها، وتبرَّكوا بِها فِي أفعالٍ طويلةٍ قد ذَكَرَهَا أبُو مُحمَّدٍ النُّوبختِي يضيعُ الزَّمان فِي كتابتِها.

والعجبُ أنَّ الهندَ قومٌ تُؤخذُ الحكمةُ عنهم، ويؤخذُ عنهم دقائقُ الحكمةِ، وتُستَلهَمُ دقائقُ الأعمالِ.

فسُبحان مَن أعمَىٰ قلوبَهم، حتَّىٰ قادَهم إبليسُ هَذَا المقاد.

قالَ: وفيهم مَن زَعَمَ أنَّ الجنَّة ثنتان وثلاثون مرتبةً، وأنَّ مُكثَ أهلِ الجنَّة فِي أدنىٰ مرتبةٍ منها أربع مائة ألف سنةٍ، وثلاثة وثلاثون ألف سنةٍ، وست مائة وعشرون سنة، وكلُّ مرتبةٍ أضعاف أضعاف ما دُونَها.

وأنَّ النَّار اثنتان وثلاثون مرتبةً؛ منها ستُّ عشرة مرتبةً، فيها الزَّمْهَرِيرُ، وصنوفُ عذابِهِ، وستُّ عشرة مرتبةً، فيها الحريقُ وصنوف عذابِهِ.

ذكر تلبيسِ إبليس عَلَىٰ اليهود:

قال المصنِّف: قد لَبَّسَ عليهم فِي أشياءَ كثيرةٍ، نذكُرُ منها نُبذةً، لِيستدلَّ بِها عَلَىٰ تلك.

فمِن ذلك: تشبيهُهم الخالقَ بالخلقِ، ولو كان تَشَبُّهُهم حقًّا، لجازَ عليه ما يجوزُ عليهم.

وحَكَىٰ أبو عبد الله بن حامدٍ من أصحابِنا، أنَّ اليهودَ تزعمُ أنَّ الإلهَ المعبودَ رجلٌ من نورٍ، عَلَىٰ كرسيٍّ من نورٍ، عَلَىٰ رأسِهِ تاجٌ من نورٍ، وله أعضاءٌ كما للآدميِّين.

ومن ذلك قولُهم: عُزيرٌ ابنُ الله، ولو فَهِمُوا أنَّ حقيقةَ البُنُوَّة لا تكون إلَّا بالتَّبعيضِ، والخالقُ ليسَ بذي أبعاضٍ؛ لأنَّه ليسَ بِمؤلَّفٍ[1] لَمْ يثبتُوا بنوَّةً، ثُمَّ إنَّ الولدَ فِي معنىٰ الوالِدِ، وقد كانَ عُزَيْرٌ لا يقومُ إلَّا بالطَّعام، والإلهُ من قامتْ به الأشياءُ، لا من قَامَ بِها، والَّذي دَعَاهُم إلَىٰ هَذَا مع جَهلِهم بالحَقَائقِ: أنَّهم رَأَوهُ قد عادَ بعدَ الموتِ، وَقَرَأَ التَّوراةَ من حِفْظِهِ، فتكَلَّموا بذلكَ مِن ظنونِهم الفاسدة.

(١) يكتفىٰ في الرد علىٰ اليهود والنصارىٰ، ومن ضاهاهم بقول الله عز شأنه: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [المائدة:٧٣].
وبقوله سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورىٰ:١١].
ولا حاجة إلىٰ مناقشتهم بطريقة أهل علم الكلام، كقول المؤلف هنا: «والخالقُ ليسَ بذي أبعاضٍ؛ لأنَّه ليسَ بِمؤلَّفٍ». ونحو ذلك من عبارات أهل الكلام، كالجوهر والعرَض والحَيِّز والجسم ونحوها، مما لم يعرف عن السلف الصالح وأتباعهم في هذا الباب. أي باب الأسماء والصفات. [زيد المدخلي].

ويدلُّ عَلَىٰ أنَّ القومَ كانُوا فِي بعدٍ من الذِّهن، أنَّهم لمَّا رَأَوا أَثَرَ القُدرةِ فِي فَرْقِ البحرِ لَهم، ثُمَّ مرُّوا عَلَىٰ أصنامٍ طلبُوا مثلَها، فقالوا: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف:١٣٨]، فلمَّا زَجَرَهم مُوسىٰ عن ذلك، بَقِيَ فِي نفُوسِهِم، فَظَهَرَ المستورُ بعبادتِهم العِجلَ.

والَّذي حَمَلَهم عَلَىٰ هَذَا شيئان:

أحدُهُما: جهلُهم بالخالق.

والثَّانِي: أنَّهم أرادُوا ما يسكُنُ إليه الحسُّ؛ لِغَلَبَةِ الحسِّ عليهم، وبُعْدِ العقل عنهم، ولولا جهلُهم بالمعبودِ، ما اجترَءُوا عليه بالكلماتِ القَبيحة، كقولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران:١٨١]. وقولهم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة:٦٤]، تَعالَىٰ اللهُ عن ذلك عُلُوًّا كَبِيرًا.

ومن تلبيسِه عليهم أنَّهم قَالُوا: لا يجوزُ نسخُ الشَّرائع. وقد عَلِمُوا أنَّ مِن دِينِ آدمَ جوازَ نكاحِ الأَخَوَاتِ، وذواتِ المحارمِ، والعمل فِي يوم السَّبتِ، ثُمَّ نُسِخَ ذلك بشريعةِ موسىٰ.

قَالُوا: إذا أمرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بشيءٍ، كان حكمُهُ، فلا يجوزُ تغييرُهُ.

قلتُ: قد يكونُ التَّغيير فِي بعض الأوقاتِ حِكمَةً، فإنَّ تقلُّبَ الآدميِّ من صحَّةٍ إِلَىٰ مرضٍ، ومن مرضٍ إِلَىٰ موتٍ كلُّه حكمة، وقد حظر عليكمُ العمل يوم السَّبت، وأطلقَ لكمُ العمل يوم الأحد، وهَذَا من جنس ما أنكرتُم، وقد أمرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بذبحِ ابنِهِ، ثُمَّ نَهاه عن ذلك.

ومِن تلبيسِهِ عليهم: أنَّهم قالوا: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة:٨٠].

وهي الأيامُ الَّتي عُبِدَ فيها العِجلُ، وفضائحُهم كثيرةٌ، ثُمَّ حَملهم إبليس عَلَىٰ العنادِ المحضِ، فجَحَدُوا ما كان فِي كِتَابِهم من صفةِ نبيِّنا ﷺ وغيَّروا ذلك، وقد أُمِرُوا أن يؤمِنُوا به، ورضُوا بعذابِ الآخرةِ، فعُلماؤُهم عانَدُوا، وجُهَّالُهم قلَّدوا، ثُمَّ العجبُ أنَّهم غيَّروا ما أمرُوا به، وحَرَّفوا، ودانُوا بِما يريدُون.

فأين العُبُوديَّةُ مِمَّن يتركُ الأمرَ، ويعملُ بالهوَىٰ؟ ثُمَّ إنَّهم كانوا يخالِفُون موسىٰ، ويعيبونه، حتَّىٰ قالوا: إنه آدَرُ، واتَّهمُوه بقتلِ هارُون، واتَّهموا داودَ بزوجةِ أوريا.

أخبرنا مُحمَّدُ بن عبد الباقي البزَّاز، نا الحسن بن علي الجوهري، نا أبو عمر بن حَيويه، أخبرنا ابن معروف، قال: نا الحارث بن أبِي أسامة، ثنا مُحمَّد بن سعد، نا علي بن مُحمَّد، عن عليِّ بن مُجاهدٍ، عن مُحمَّد بن إسحاق، عن سالم مولىٰ عبد الله بن مطيعٍ، عن أبِي هريرةَ ﷺ، قال: أتَىٰ رسول الله ﷺ بيتَ المدراس، فقال: «أَخرِجُوا إليَّ عُلَمَاءَكُم».

فخرج إليه عبد الله بن صوريًّا، فخَلَا به، فنَاشَدَه الله بدينه، وبِما أنعَمَ اللهُ عليهم، وأطعَمَهم مِنَ المَنِّ والسَّلوَىٰ، وظلَّلَهُم به من الغَمَامِ: «أتَعْلَمُ أنِّي رَسُولُ اللهِ؟»

قال: اللَّهمَّ نَعَمْ، وإنَّ القومَ ليعرِفون مَا أعرِفُ، وإنَّ صِفَتَكَ وَنَعْتَكَ، لمُبيَّنٌ فِي التَّوراة، ولكنَّهم حسدوك.

قال: «فَمَا يَمْنَعُكَ أَنتَ؟» قال: أكْرَهُ خلافَ قومي، وعسىٰ أن يتَّبعُوك، ويُسْلِمُوا فأُسْلِم[١].

أخبرنا هبة الله بن مُحمَّد بن عبد الواحد، قال: أخبرنا الحسن بن عليٍّ، قال: أخبرنا أحمد بن جعفر بن حمدان، قال: ثنا عبد الله بن أحمد، قال: حدَّثنِي أبِي، قال: ثنا يعقوب، قال: ثنا أبِي، عن إسحاق، قال: حدثنِي صالح بن عبد الرَّحمن بن عوفٍ، عن مَحمود بن لبيدٍ، عن سلمة بن سلامة بن وقشٍ، قال: كان لنا جارٌ من اليهود فِي بنِي عبدِ الأشهل، فخرج علينا يومًا من بيته قبلَ مَبْعَثِ النَّبيِّ ﷺ، حتَّىٰ وقف علىٰ مجلس بني عبد الأشهل.

قال سلمةُ: وأنا يومئذٍ أحدَثُ من فيهم سِنًّا، عليَّ بُردةٌ مُضطَجِعٌ فيها بِفِنَاءِ أهلِي، فَذَكَرَ البعثَ والقِيامةَ والحِسَابَ والميزان والجنَّة والنَّار، فقال: ذلك القوم أهلُ شركٍ وأصحابُ

(١) أخرجه ابن سعد فِي «الطبقات الكبرىٰ» (١/ ١٦٤).

أوثانٍ، لا يَرَوْنَ بعثًا كائنًا بعدَ الموت.

فقال له: ويحَكَ يا فُلَان! أتَرَىٰ هَذَا كائنًا؛ أنَّ النَّاسَ يُبعثُونَ بعد موتِهم إلىٰ دارٍ فيها جنَّةٌ ونارٌ يُجْزَوْنَ فيها بأعمالهم؟

قال: نعم. والذي يُحْلَف به [يودُّ أحدُهُم أنَّ] له بحظِّه من تلك النَّار أعظم تنُّورٍ فِي الدَّار يُحمونَه، ثُمَّ يُدخلُونَهُ إيَّاه، فيطبِّقونَه عليه، وأن ينجوَ من تلك النَّارِ غدًا.

قال له: ويحك! وما آيةُ ذلك؟ قال: نبيٌّ مبعوثٌ مِن نحوِ هَذِهِ البلادِ. وأَشَارَ بيدِهِ نحوَ مكَّةَ واليَمَنِ. قالُوا: ومتىٰ تراه؟ قال: فَنَظَرَ إليَّ، وَأَنَا مِن أحدثِهم سنًّا، فقال: إن يستنفد هَذَا الغلامُ عُمُرَهُ يدركْهُ.

قال سلمةُ: فواللهِ، ما ذَهَبَ اللَّيلُ والنَّهارُ حتَّىٰ بَعَثَ اللهُ رسولَهُ ﷺ، وهو حَيٌّ بين أظهرِنَا، فآمنَّا به، وكفرَ به بَغيًا وحسدًا، فقُلنا له: ويلك يا فلانُ! ألستَ الَّذي قلتَ لَنا فيه ما قُلتَ؟ قال: بَلَىٰ، ولَكن لَيسَ بِهِ.

ذكر تلبيسه على النَّصارى:

قال المصنِّف: تلبيسُه عليهم كثيرٌ؛ فمِن ذلك أنَّه أوهَمَهُم أنَّ الخالِقَ سبحانه جوهرٌ، فقالت اليعقوبيَّة -أصحابُ يعقوبَ- والملكيَّة -أهل دين الملكِ- والنَّسطوريَّة أصحاب نسطورس: إنَّ اللهَ جوهرٌ واحدٌ، أقانيم ثلاثةٍ[1]، فهو واحدٌ فِي الجوهريَّة، ثلاثةٌ فِي الأقنوميَّة؛ فأحدُ الأقانيم عندهم: الأبُ، والآخر: ابن، والآخر: رُوح القُدُسِ.

فبعضهم يقول: الأقانيمُ خواصٌّ، وبعضُهم يقولُ: صفاتٌ، وبعضهم يقول: أشخاصٌ، وهؤلاء قد نسُوا أنَّه لو كان الإلهُ جوهرًا لجازَ عليه ما يجوزُ عَلَىٰ الجوهرِ من التَّحيُّزِ بمكانٍ

(١) الأقانيم: جمع أقنوم: وهي كلمة يونانية الأصل، ومعناه: الشخص المتميز.

والتحرُّك والسُّكون والأوان[١] ثُمَّ سَوَّلَ لبعضِهِم أنَّ المسيحَ هو الله.

قال أبو مُحمَّدٍ النُّوبختِي: زَعَمَتْ الملكيَّة واليعقوبيَّة أنَّ الَّذي وَلَدَتْه مريم، هو الإلهُ، وسوَّلَ الشَّيطانُ لبعضِهم أنَّ المسيحَ ابنُ الله.

وقال لبعضهم: المسيحُ جوهران: أحدُهما قديمٌ، والآخرُ مُحدثٌ، ومع قولِهم هَذَا فِي المسيح يُقِرُّونَ بحاجَتِهِ إِلَىٰ الطَّعامِ، ولا يختلفُون فِي هذا، وفي أنَّه صُلِبَ، ولَمْ يقدرْ عَلَىٰ الدَّفعِ عن نفسه.

ويقولون: إنَّما فُعِلَ هَذَا بالنَّاسوتِ، فهلَّا دفع عَنِ النَّاسوتِ ما فيه من اللَّاهوت.

ثُمَّ لبَّس عليهم أمرَ نبيِّنا مُحمَّدٍ ﷺ حتَّىٰ جحدُوه بعد ذكرِهِ فِي الإنجيلِ، ومِن الكِتابِيِّين مَن يقولُ عن نبيِّنا: إنَّه نبيٌّ إلَّا أنَّه مبعوثٌ إِلَىٰ العربِ خاصَّةً، وهَذَا تلبيسٌ من إبليسَ، استغفلهم فيه؛ لأنَّه مَتَىٰ ثَبَتَ أنَّه نبيٌّ، فالنَّبِيُّ لا يكذبُ، وقد قال: «بُعِثْتُ إِلَىٰ النَّاس كافَّةً»[٢]، وقد «كَتَبَ إِلَىٰ قَيصَرَ وكِسرَىٰ، وسَائِرَ ملوكِ الأعاجِم»[٣].

من تلبيسِ إبليس عَلَى اليهودِ والنَّصارى:

ومن تلبيسِ إبليس عَلَىٰ اليهودِ والنَّصارىٰ أنَّهم قالُوا: لا يعذِّبنا اللهُ لأجلِ أسلافِنا؛ فمِنَّا

(١) يكتفىٰ في الرد علىٰ اليهود والنصارىٰ، ومن ضاهاهم بقول الله عز شأنه: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [المائدة:٧٣].
وبقوله سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى:١١].
ولا حاجة إلىٰ مناقشتهم بطريقة أهل علم الكلام، كقول المؤلف هنا: «والخالقُ ليسَ بذي أبعاضٍ؛ لأنَّه ليسَ بمؤلَّفٍ». ونحو ذلك من عبارات أهل الكلام، كالجوهر والعرَض والحَيِّز والجسم ونحوها، مما لم يعرف عن السلف الصالح وأتباعهم في هذا الباب. أي باب الأسماء والصفات. [زيد المدخلي].

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٨)، ومسلم (٥٢١) من حديث جابر رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٤٤٢٤)، ومسلم (١٧٧٣).

الأولياءُ والأنبياءُ، فأخبرَنا اللهُ عَزَّوَجَلَّ عنهم بِذَلِكَ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾[المائدة:١٨]. أي: مِنَّا ابنُهُ عُزيرٌ وعيسىٰ.

وكشف هَذَا التَّلبيس: أنَّ كلَّ شخصٍ مطالبٌ بحقِّ اللهِ عليه، ولا يدفعه عنه ذو قرابته، ولو تعدَّتِ المحبَّةُ لشخصٍ إلَىٰ غيرِهِ لموضعِ القَرَابَةِ لتعدِّي البعضُ، وقد قال نبيُّنا ﷺ لابنتِهِ فاطمة: «لا أغني عنك مِنَ اللهِ شيئًا»[١]، وإنَّما فضلَ المحبوبُ بالتَّقوىٰ، فمَن عدمها عَدِمَ المحبَّة، ثُمَّ إنَّ مَحبَّةَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ للعبدِ ليستْ بشغفٍ، كمحبَّةِ الآدميِّين بعضهم بعضًا؛ إذ لو كانَت كذلك لَكَانَ الأمرُ يَحتملُ.

ذكر تلبيسه علَى الصَّابئين:

قال المصنِّف: أصلُ هَذِهِ الكلمةِ (أعني الصَّابِئِين) مِن قَولِهم: صَبَأْتَ: إذا خَرجتَ من شيءٍ إلَىٰ شيءٍ. وصَبَأَتِ النُّجوم: إذا ظَهَرَتْ. وصَبَأَ به: إذا خَرَجَ. والصَّابئون: الخارجُون من دينٍ إلَىٰ دينٍ. وللعلَماء فِي مذهبِهم عشرةُ أقوالٍ:

أحدُها: أنَّهم قومٌ بين النَّصارىٰ والمَجوسِ. رواه سالمٌ، عن سعيدِ بن جبيرٍ، وليثٌ، عن مجاهِدٍ.

والثَّانِي: أنَّهم بينَ اليهودِ والمَجوسِ. رواه ابنُ أبِي نُجيحٍ، عن مُجاهِدٍ.

والثَّالثُ: أنَّهم بينَ اليهودِ والنَّصارىٰ. رواه القاسمُ بن أبِي بزَّةَ، عن مُجاهِدٍ.

والرَّابعُ: أنَّهم صنفٌ من النَّصارىٰ، ألينُ قولًا منهم، رواه أبو صالحٍ، عن ابن عبَّاسٍ.

والخامس: أنَّهم قومٌ من المشركِين، لا كتابَ لَهم. رواه القاسمُ أيضًا عن مُجاهِدٍ.

والسَّادس: أنَّهم كالمجوسِ. قاله الحسن.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٥٣)، ومسلم (٢٠٤) من حديث أبِي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

والسَّابع: أنَّهم فرقةٌ من أهل الكتاب، يقرءون الزَّبور. قاله أبو العالية.

والثَّامن: أنَّهم قومٌ يُصلُّون إلىٰ القبلةِ، ويعبدونَ الملائكةَ، ويقرءون الزَّبور. قاله قتادةُ ومُقاتلٌ.

والتَّاسع: أنَّهم طائفةٌ من أهل الكتاب. قاله السُّدِّيُّ.

والعاشر: أنَّهم كانوا يقولُون: لا إله إلَّا الله، وليسَ لَهم عملٌ، ولا كتابٌ، ولا نبيٌّ إلَّا قول: لا إله إلَّا الله. قاله ابن زيدٍ.

قال المصنِّف: هَذِهِ أقوالُ المُفَسِّرين.

فأما المتكلِّمون فقالوا: مذهبُ الصَّابِئين تَختلفُ؛ فمنهم من يقول: إنَّ هناك هُيُولِيٌّ، كان لَمْ يزلْ، ولَمْ يزلْ يصنعُ الصانعُ العالَمَ من ذلك الْهُيُولِيِّ.

وقال أكثرُهم: العالمُ ليس بمحدثٍ. وسمَّوا الكواكبَ ملائكةً، وسَمَّاها قومٌ منهم آلهةً، وعبدُوها، وبنَوا لَها بيوتَ عباداتٍ، وهم يدَّعون أنَّ بيتَ الله الحرامَ واحدٌ منها، وهو بيتُ زُحَل، وزَعَمَ بعضُهم أنَّه لا يوصفُ الله عَزَّوَجَلَّ إلَّا بالنَّفي دون الإثباتِ.

فيُقالُ: ليس بِمحدث، ولا مواتٍ، ولا جاهلٍ، ولا عاجزٍ. قالُوا: لئلَّا يقع تشبيهٌ.

ولَهم تعبُّداتٌ فِي شَرَائِعَ:

منها: أنَّهم زعمُوا أنَّ عليهم ثلاث صلواتٍ فِي كلِّ يومٍ:

أولُها: ثَمان ركعاتٍ.

وثلاث سجداتٍ فِي كلِّ ركعةٍ، وانقضاء وقتها عند الشَّمس.

والثَّاني: خَمس ركعاتٍ.

والثَّالث: كذلك.

وعليهم صيام شهرٍ، أوَّله الثمان ليالٍ يمضين من آذار، وسبعة أيَّامٍ، أولها التسع يبقين من كانون الأوَّل، وسبعة أيَّامٍ أوَّلها الثمان ليالٍ يَمضين من شباط، ويختمُون صيامَهم بالصَّدقة والذَّبائح، وحرَّموا لحمَ الجزورِ، فِي خُرافاتٍ يضيعُ الزَّمانُ بذكرِها.

وزعمُوا أنَّ الأرواحَ الخيِّرة تصعدُ إِلَىٰ الكواكبِ الثَّابتة، وإِلَىٰ الضِّياء، وأنَّ الشرِّيرةَ تنزلُ إِلَىٰ أسفلِ الأرض وإِلَىٰ الظُّلمةِ.

وبعضهم يقولُ: هَذَا العالمُ لا يَفنَىٰ، وإنَّ الثَّوابَ والعقابَ فِي التَّناسخ، ومثل هَذِهِ المذاهبِ لا يحتاجُ إِلَىٰ تكلُّف فِي ردِّها؛ إذ هي دعاوىٰ بِلَا دليلٍ، وقد حسَّنَ إبليسُ لأقوامٍ مِنَ الصَّابِئين أنَّهم رأوا الكَمَالَ فِي تَحْصيل مناسَبَةٍ بينهم وبين الرُّوحانيَّات العلويَّة باستعمالِ الطَّهارات، وقوانين ودعوات، واشتغلُوا بالتَّنجيم والتَّبخير.

وقالُوا: لابدَّ من متوسِّطٍ بين اللهِ وبين خلقِهِ مِن تعريفِ المعارفِ، والإرشاد للمصالحِ، إلَّا أنَّ ذلك المتوسِّطَ ينبغِي أن يكونَ روحانيًّا لا جسمانيًّا.

قالُوا: فنحن نحصِّل لأنفسِنا مناسبةً قدُسيَّةً بيننا، فيكون ذلك وسيلةً لنا إليه، وهؤلاء لا ينكرون بعثَ الأجسادِ.

ذكر تلبيس إبليس عَلَىٰ المجوس:

قال يَحيَىٰ بن بشر بن عميرٍ النَّهاونديُّ: كان أوَّل ملوك المَجُوس كومرث، فجاءهم بدينهم، ثُمَّ تَتَابَعَ مُدَّعُوا النُّبوَّة فيهم، حتَّىٰ اشتَهَرَ بِها زُرَادشت، وكانوا يقولُون: إنَّ اللهَ - تعالَىٰ عن ذلك - شخصٌ رُوحانِيٌ ظَهَرَ، فظهرتْ معه الأشياءُ روحانيَّةً تامَّةً.

فقال: لا يتهيَّأُ لِغَيرِي أن يَبْتَدِعَ مثلَ هَذِهِ الَّتي ابتَدَعتُها. فتولَّد من فكرتِهِ هَذِهِ ظُلمةٌ؛ إذ كان فيها جُحُودٌ لقدرةِ غيرِه، فقامتِ الظُّلمة تغالبُهُ.

وكان مِمَّا سنَّ زُرادشت عبادةَ النَّار، والصَّلاةَ إِلَىٰ الشَّمس، يَتَأَوَّلون فيها أنَّها ملكةُ

العالم، وهي الَّتِي تأتِي بالنَّهار، وتذهبُ باللَّيل، وتُحيي النَّبات والحيوانات، وتردُّ الحرارات إلَىٰ أجسادِهَا.

وكانوا لا يدفِنُون موتاهم فِي الأرضِ تعظيمًا لَها، ويقولُون: إنَّها نشوءُ الحيواناتِ، فلا نقذِّرها. وكانوا لا يغتَسِلُون بالماءِ تعظيمًا له، وقالُوا: لأنَّ به حياة كلِّ شيءٍ، إلَّا أن يستعمِلُوا قبلهُ بول البقرِ ونحوه، ولا يبزقُون فيه.

ولا يرونَ قتلَ الحَيَوانَات ولا ذبحَها، وكانوا يغسلون وجوهَهم ببولِ البقرِ تبرُّكًا به، وإذا كان عَتِيقًا كان أكثر بركةً، ويستحِلُّون فروجَ الأمَّهات، قالوا: الابنُ أحرَىٰ بتسكينِ شهوةِ أمِّه.

وإذا ماتَ الزَّوجُ فابنُهُ أوْلَىٰ بالمرْأةِ؛ فإنْ لَمْ يكنْ له ابنٌ اكتُرِيَ رجلٌ من مال الميِّت، ويجيزُون للرَّجل أن يتزوَّج بِمائةٍ وألفٍ، وإذا أرادتِ الحائضُ أن تغتسلَ دفعَتْ دينارًا إلَىٰ الموبذ، ويحملها إلَىٰ بيت النَّار، ويقيمُها عَلَىٰ أربعٍ وينظِّفها بسبَّابَتِه.

وأظهر هَذَا الأمر مَزْدَكُ فِي أيام قُباذ، وأباح النِّساء لكلِّ من شَاءَ، ونَكَحَ نساء قباذ لتقتديَ به العامَّة، فيفعلون بالنِّساء مثله، فلمَّا بلغ إلَىٰ أمِّ أنوشروان، قال لقباذ: أخرجْها إليَّ؛ فإنَّك إن منعتَنِي شَهوتِي، لَمْ يتمَّ إيمانُك.

فهمَّ بإخراجِها، فَجَعَلَ أنوشروان يبكِي بين يدي مزدك، ويُقبِّلُ رجلهُ بين يدي أبيه قباذ، ويسأله أن يهبَ له أمَّه، فقال قباذ لمزدك: ألستَ تزعُمُ أنَّ المؤمِنَ لا ينبغِي أن يُردَّ عن شهوتِهِ؟ قال: بلىٰ. قال: فلم تردُّ أنوشروان عن شهوتِهِ؟ قال: قد وهبْتُها له. ثُمَّ أطلَقَ النَّاسَ فِي أكلِ الميتةِ، فلمَّا وُلِّيَ أنو شروان أفنَىٰ المَزْدَكِيَّة.

قال: ومن أقوالِ المَجوسِ: إنَّ الأرضَ لا نِهايةَ لَها من أسفلِها، وإنَّ السَّماءَ جلدٌ من جلود الشَّياطِين، والرَّعد إنَّما هو خرخرةُ العفاريتِ المحبوسةِ فِي الأفلاكِ، المأسورةِ فِي حرب، والجبالُ من عظامِهم، والبحرُ من أبوالِهم ومائِهم ودمائهم.

ونبغ للمجُوسِ رجلٌ فِي زمانِ انتقالِ دولةِ بني أميَّةَ إِلَىٰ بني العبَّاس، واستغوىٰ خلقًا، وجَرَتْ له قِصصٌ، يطولُ الأمرُ بذكرِها، فهو آخِرُ من ظَهَرَ للمجُوسِ، وقد ذكر بعض العلماء أنَّه كان للمجُوس كتبٌ يدرسُونَها، وأنَّهم أحدثُوا دِينًا فَرُفِعَتْ كُتُبُهم.

ومِن أظرفِ تلبيس إبليس عليهم: أنَّهم رأَوا فِي الأفعالِ خيرًا وشرًّا، فسوَّلَ لَهم أنَّ فاعلَ الخيرِ لا يفعلُ الشَّرَّ، فأثبتُوا إلهين، وقالُوا: أحدُهما نورٌ حكيمٌ، لا يفعلُ إلَّا الخير، والآخرُ شيطانٌ، هو ظلمةٌ، لا يفعلُ إلَّا الشَّرَّ، عَلَىٰ نحو ما ذكرنا عن الثَّنويَّة.

قال المصنِّف: وقد سبق ذكرُ شُبَهِهم وجوابِها.

وقال بعضُهم: البَارِي قَدِيمٌ، ولا يكونُ منه إلَّا الخيرُ، والشَّيطان مُحدَثٌ، فلا يكونُ منه إلَّا الشَّرُّ.

فيقالُ لَهم: إذا أقرَرْتُم بأنَّ النُّورَ خلقُ الشَّيطانِ، فقد خلقَ رأس الشَّرِّ.

وزعم بعضُهم أنَّ الخالقَ هو النُّور، ففكَّرَ فكرةً رديئةً، فقال: أخاف أن يحدُثَ فِي مُلكِي من يضَادُّنِي، وكانت فكرة رديئةً فَحَدَثَ منها إبليسُ، فَرضِيَ إبليسُ أن يُنسَبَ إِلَىٰ الرَّداءةِ بعد إثباتِ أنَّه شريكٌ.

وحَكَىٰ النُّوبختِي أنَّ بعضَهم قالَ: إنَّ الخالقَ شكَّ فِي شيءٍ، كان الشَّيطانُ من ذلك الشَّكِّ.

قال: وزَعَمَ بعضُهم أنَّ الإلهَ والشَّيطانَ جِسمَان قديمَان؛ بينهما فضاءٌ، وكانتِ الدُّنيا سليمةً من كلِّ آفةٍ، والشَّيطانُ بِمعزِلٍ عنها، فاحتالَ إبليسُ حتَّىٰ خرق السَّماء بجنودِهِ، فهربَ الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ عن قولهم بِمَلائكتِه، فاتَّبعه إبليسُ حتَّىٰ حَاصَرَه وحارَبَهُ ثلاثةَ آلافِ سنةٍ، لا هُو يَصِلُ إليه، وَلَا الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ يدفعهُ، ثُمَّ يصَالحُه عَلَىٰ أن يكونَ إبليسُ وجنودُهُ في الدُّنيا سبعةَ آلافِ سنةٍ.

ورأىٰ الرَّبُّ أنَّ الصَّلَاحَ فِي احتمالِ مكروهِ إبليس إلَىٰ أن يَنقَضِيَ الشَّرطُ، فالنَّاس فِي بَلَايَا انقضائِهِ، ثُمَّ يعودُون إلَىٰ النَّعيم، وشَرَطَ إبليسُ عليه أن يُمَكِّنَه من أشياءَ رديئةٍ، فوضعهَا فِي هَذَا العالمِ، وأنَّهما لما فَرَغَا من شرطِهِمَا، أشهَدَا عَدلَيْن، ودفعا سيفهما إلَىٰ العدلين، وقالا: من نَكَثَ فاقتلاه. فِي هذياناتٍ كثيرةٍ يضيعُ الوقتُ بذِكرِهَا، فتَنَكَّبنَاها لذلك.

ونذكرُ ما انتهىٰ تلبيسُ إبليسُ إليه، ما آثرْنا ذكرَ شيءٍ من هَذَا التَّخليطِ.

والعجبُ أنَّهم يجعلُون الخالقَ خيرًا، ثُمَّ يزعمون أنَّه حدَثَتْ له فكرةٌ رديئةٌ، فعَلَىٰ قولِهِم، يجوزُ أن تحدُثَ من فكرةِ إبليس ملكٌ، ثُمَّ يُقالُ لَهمْ: أيجُوزُ أن يَفِيَ الشَّيطانُ بِما ضَمِنَ؟! فإن قالوا: لا، قيل لَهم: فلا يليقُ بالحكمة استبقاؤه، وإن قالوا: نعم، فقد أقرُّوا بوجود الوفاء المحمود من الشِّرِّير.

وكيف أطاعَ الشَّيطان العَدْلين، وقد عصىٰ ربَّه؟ وكيف يجوز الافتيات عَلَىٰ الإله؟! وهَذِهِ الخرافات لولا التَّفرُّج فيما صَنَعَه إبليسُ بالعقولِ، ما كان لِذكرها مَعنًىٰ.

ذكر تلبيس إبليس عَلَى المنجِّمين وأصحاب الفلك:

قال أبو مُحمَّد النُّوبختي: ذهب قومٌ إلَىٰ أنَّ الفلكَ قديمٌ لا صَانِعَ له.

وحكىٰ جالينوس عن قومٍ أنَّهم قالوا: زُحلُ وحدَهُ قديمٌ، وزعم قومٌ أنَّ الفَلَكَ طبيعةٌ خالصة، ليست فيها حرارةٌ ولا برودةٌ، ولا رطوبةٌ، ولا يبوسةٌ، وليس بخفيفٍ ولا ثقيلٍ.

وكان بعضُهم يرىٰ أنَّ الفلكَ جوهرٌ ناريٌّ، وأنَّه اختُطِفَ من الأرض بقوَّةِ دَوَرَانِهِ.

وقال بعضُهم: الكواكبُ من جسمٍ تُشَابِهُ الحِجَارَةَ.

وقال بعضهم: هي من غيمٍ تُطفأُ كل يوم، وتستنيرُ باللَّيل مثل الفحم، يشتعلُ وينطفئُ.

وقال بعضهم: جسمُ القمرِ مُرَكَّبٌ من نارٍ وهواءٍ.

وقال آخرون: الفلكُ من الماء والرِّيح والنَّار، وإنَّه بِمنْزلة الكُرَةِ، وإنَّه يتحرَّكُ حركتين

من المشرقِ إلىٰ المغربِ، ومن المغرب إلَىٰ المشرق.

قالوا: وزحلُ يدورُ الفلكَ فِي نحوٍ من ثلاثين سنةً، والمشتري فِي نحوٍ من اثنتي عشرة سنةً، والمَرِّيخ فِي نحوٍ من سنتين، والشَّمسُ والزُّهرة وعطاردُ فِي سنةٍ، والقمرُ فِي ثَلَاثِينَ يومًا.

وقال بعضُهم: أفلاكُ الكواكبِ سبعةٌ، فالَّذي يلِينا فلك القمر، ثُمَّ فلك عطارد، ثُمَّ فلك الزُّهرةِ، ثُمَّ فلك الشَّمس، ثُمَّ فلك المرِّيخ، ثُمَّ فلك المشتري، ثُمَّ فلك زحل، ثُمَّ فلك الكَوَاكبِ الثَّابتةِ.

واختلفُوا فِي مقادير أجرامِ الكَوَاكبِ، فقال أكثرُ الفلاسفةِ: أعظمُها جُرْمًا الشَّمس، وهو نحوٌ من مِائةٍ وستٌّ وستِّين مرَّةً، مثلَ الأرضِ، والكواكب الثَّابتة، مقدارُ كلِّ واحدٍ منها نحوٌ من أربعٍ وتسعِينَ مرَّةً مثلَ الأرضِ.

والمشتري نحوٌ من اثنَتَين وثمانِينَ مرَّةً مثلَ الأرضِ، والمرِّيخ نحوٌ من مرَّةٍ ونصف مثل الأرضِ.

قالوا: ومن كلِّ موضعٍ من أعلَىٰ الفلكِ إلَىٰ أن يعودَ إليه مائة ألفِ فرسخٍ وألف فرسخ، وأربعة وستُّون فرسَخًا.

وقال بعضُهم: الفلكُ حيٌّ، والسَّماءُ حيوانٌ، وفِي كل كوكبٍ نفسٌ.

قال قدماءُ الفَلَاسِفَةِ: النُّجومُ تفعل الخيرَ والشَّرَّ، وتعطِي وتَمنعُ عَلَىٰ حَسَبِ طَبَائِعِهَا من السُّعود والنُّحوس، وتؤثِّر فِي النُّفوس والأبدانِ، وإنَّها حيَّةٌ فعَّالةٌ.

ذكر تلبيس إبليس عَلَى جاحدي البعث:

قال المصنف: قد لبَّسَ إبليسُ عَلَىٰ خلقٍ كثيرٍ، فجَحَدُوا البعثَ، واستهولُوا الإعادةَ بعد البلاءِ، وأقام لَهم شُبهَتَيْن:

إحداهما: أنَّه أراهم ضعفَ المادَّة.

والثَّانية: اختلاط الأجزاءِ المُتَفَرِّقة فِي أعماق الأرض.

قالوا: وقد يأكل الحيوانُ الحيوانَ، فكَيفَ يتهيَّأُ إعَادته؟

وقد حكىٰ القرآنُ شُبهتَهم، فقال تعالىٰ فِي الأولىٰ: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ۝٣٥ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ﴾ [المؤمنون:٣٥، ٣٦].

وقال فِي الثَّانية: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [السجدة:١٠].

وهَذَا كان مذهب أكثر الجاهليَّة، قال قائلهم:

يُخبِرُنا الرَّسولُ بأنْ سنَحيا ... وكيف حياة أصداء وهام

وقال آخر:

حياةٌ ثُمَّ موتٌ ثُمَّ بعث ... حديثُ خُرافةٍ يا أمَّ عمرو

والجواب عن شُبهَتِهِم الأولىٰ: أن ضعف المادَّة فِي الثَّاني، وهو التُّراب، يدفعُهُ كون البداية من نطفةٍ ومضغةٍ وعلقةٍ.

ثُمَّ إنَّ أصلَ الآدميِّين، وهو آدمُ من ترابٍ عَلَىٰ أنَّ الله ﷻ لَمْ يخلقْ شيئًا مُستَحسَنًا إلَّا من مادَّةٍ سخيفةٍ؛ فإنَّه أخرجَ هَذَا الآدميَّ من نطفةٍ، والطَّاوس من البَيضة المَذِرَة، والطَّاقة الخَضْرَاء من الحبَّة العفنة.

فالنَّظر ينبغي أن يكون إلَىٰ قوَّة الفاعل وقدرته، لا إلَىٰ ضعف الموادِّ، وبالنَّظر إلَىٰ قدرتِهِ يحصل جواب الشُّبهة الثَّانية، ثُمَّ قد أرانا كالأنموذج فِي جَميع المتمزِّق، فإنَّ سُحَالَةَ الذَّهب المُتفرِّقة فِي التُّراب الكثيرِ، إذا أُلقِيَ عليها قليلٌ من زئبقٍ، اجتمَعَ الذَّهبُ مع تبدُّدِهِ، فكيف بالقدرة الإلهيَّة الَّتي من تأثيرِها خَلْقُ شيءٍ لا من شيء.

عَلَىٰ أنَّا لو قدرْنَا أن نُحِيل هَذَا التُّرابَ غَير ما استحالتْ إليه الأبدانُ لَمْ يضر؛ لِأنَّ

الآدميّ بنفسِهِ لا ببَدِنِهِ؛ فإنَّه ينحل، ويسمن، ويهزل، ويتغيَّر من صغر إِلَىٰ كبر، وهو هو.

ومن أعجب الأدلَّة عَلَىٰ البعثِ أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قد أظهَرَ عَلَىٰ يدي أنبيائه ما هو أعظمُ من البعث، وهو قلبُ العصا حيَّةً حيوانًا، وإخراج ناقةٍ من صخرةٍ، وأظهر حقيقة البعثِ عَلَىٰ يد عيسىٰ -صلوات الله وسلامه عليه.

قال المصنف: وقد زدنا هَذَا شرحًا فِي الرَّدِّ عَلَىٰ الفلاسفة.

فصل [ذكر تلبيسه على منكري البعث]

وقد لبَّس إبليسُ عَلَىٰ أقوامٍ شاهدُوا قدرةَ الخالقِ ﷻ، ثُمَّ اعترَضَتْ لَهم الشُّبهتان اللَّتان ذكرناهما، فتردَّدوا فِي البعثِ، فقال قائلُهم: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ [الكهف:٣٦]، وقال العاص بن وائلٍ: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾ [مريم:٧٧].

وإنَّما قالوْا هَذَا لموضعِ شكِّهم، وقد لبَّس إبليسُ عليهم فِي ذلك، فقالوا: إن كان بعثٌ، فنحن عَلَىٰ خيرٍ؛ لأنَّ مَنْ أنعَمَ علينا فِي الدُّنيا بالمالِ لا يَمنعناه فِي الآخرة.

قال المصنف: وهَذَا غلطٌ منهم؛ لأنَّه لم لا يجوزُ أنْ يكون الإعطاءُ استدراجًا أو عقوبةً؟ والإنسانُ قد يَحمي ولدَهُ، ويطلق فِي الشَّهوات عبده.

ذكر تلبيسه عَلَى القائلين بالتَّناسخ:

قال المصنف: وقد لبَّس إبليسُ عَلَىٰ أقوامٍ، فقالوا بالتَّناسخ، وأنَّ أرواحَ أهل الخير إذا خَرَجَتْ دَخَلَتْ فِي أبدانٍ خَيِّرةٍ فاستَرَاحَتْ، وأرواح أهلِ الشَّرِّ إذا خرجَتْ تدخلُ فِي أبدانٍ شرِّيرةٍ، فيتحمَّل عليها المشاقُّ، وهَذَا المذهب ظهر فِي زمن فرعون موسىٰ.

وذكر أبو القاسم البلخيُّ: أنَّ أربابَ التَّناسخ لما رَأَوْا ألم الأطفال والسِّباع والبهائم، استحال عندهم أن يكون ألمها يُمْتَحَنُ به غيرها، أو ليتعوضَ أوَّلًا لِمعنَىٰ أكثر من أنَّها مملوكة،

فصَحَّ عندَهم أنَّ ذلك لذنوبٍ سَلَفَتْ منها قبل تلك الحال، وذكر يَحيَىٰ بن بشر بن عمير النَّهَاوندي أنَّ الهند يقولون: الطَّبائع أربع: هيُولي مُرَكَّبة، ونفس، وعقل، وهيولي مرسلة.

فالمركَّبة هي: الرَّبُّ الأصغر.

والنَّفس هي: الهيولي الأصغر.

والعقل: الربُّ الأكبر.

والهيولي هو أيضًا: أكبر، وأنَّ الأنفُسَ إذا فارقَتِ الدُّنيا صَارَتْ إِلَىٰ الرَّبِّ الأصغر، وهو الهيولي المركَّبة، فإن كانت محسنةً صافيةً قبلَها فِي طبعه، فصَفَّاها حتَّىٰ يخرجَها إِلَىٰ الهيولي الأصغر، وهو النَّفس، حتَّىٰ تصيرَ إِلَىٰ الرَّبِّ الأكبر، فيتخلصه إِلَىٰ الهيولي المركب الأكبر.

فإن كان مُحسِنًا تامَّ الإحسان، أقام عنده فِي العالم البسيط، وإن كان مُحسنًا غير تامٍّ، أعاده إِلَىٰ الرَّبِّ الأكبر، ثُمَّ يعيده الرَّبُّ الأكبر إِلَىٰ الهيولي الأصغر، ثُمَّ يعيده الهيولي الأصغر إِلَىٰ الرَّبِّ الأصغر، فيخرجه مُمَازِجًا لشُعاع الشَّمس، حتَّىٰ ينتهي إلىٰ بقلة خسيسة يأكلها الإنسان، فيتحوَّل إنسانًا، ويولد ثانية فِي العالم، وهكذا تكون حالُهُ فِي كلِّ موتةٍ يَموتُها.

وأما المُسِيئون، فإنَّهم إذا بلغتْ نفوسُهم إِلَىٰ الهيولي الأصغرِ انعكستْ، فصارت حشائش، تأكلُها البهائمُ، فتصيرُ الرُّوحُ فِي بَهيمةٍ، ثُمَّ تنسخ من بَهيمةٍ فِي أخرىٰ عند موتِ تلك البهيمةِ فلا يزالُ منسوخًا متردِّدًا فِي العالم، ويعود كلَّ ألفِ سنةٍ إِلَىٰ صورة الإنسِ، فإنْ أحسَنَ فِي صورةِ الإنسِ لحق بالمحسِنين.

قال المصنف: قلت: انظر إِلَىٰ هَذِهِ التَّرتيبات الَّتي رتبها لَهم إبليس عَلَىٰ ما عَنَّ له لا يستندُ إِلَىٰ شيءٍ.

أنبأنا مُحمَّدُ بن أبِي طاهرِ البزّاز، قال: أنبأنا علي بن المحسن، عن أبيه، قال: حدَّثنِي أبو الحسن علي بن نظيف المتكلِّم، قال: كان يحضُرُ معنا ببغداد شيخٌ للإماميَّة يعرف بأبِي بكر بن الفلاس، فحدَّثنا أنَّه دخلَ عَلَىٰ بعضٍ من كان يعرفه بالتَّشيُّع، ثُمَّ صار يقول بِمذهب أهل التَّناسخ.

قال: فوجدتُه بين يديه سنَّور أسود، وهو يَمسحُها، ويحكُّ بين عينيها، ورأيتها وعينها تدمعُ كما جَرَت عادةُ السَّنانير بذلك، وهو يبكي بكاءً شديدًا، فقُلتُ له: لِمَ تبكِي؟ فقال: ويحكَ! أمَا تَرَىٰ هَذِهِ السِّنَّوْرَ تبكي كلَّما مسحتها، هَذِهِ أمِّي لا شَكَّ، وإنَّما تبكي من رؤيتها إلَيَّ حسرةً.

قال: وأخذ يُخاطبُها خطابَ مَنْ عنده أنَّها تفهَم عنه، وجعلت السِّنَّوْرُ تَصيحُ قليلًا قليلًا، فقُلتُ له: فهي تفهمُ عنك ما تُخاطِبُها به؟ فقال: نعم، فقلت: أفتفهمُ أنت صياحها، قال: لا. قلتُ: فأنت إذًا المنسوخ، وهي الإنسانُ.

ذكر تلبيس إبليس عَلَى أمَّتنا فِي العقائد والدِّيانات:

قال المصنف: دخل إبليسُ عَلَىٰ هَذِهِ الأمَّة فِي عقائدها من طريقين:

أحدهُما: التقليد للآباءِ، والأسْلافِ.

والثَّانِي: الخوض فيما لا يُدْرَكُ غورُهُ، أو يعجزُ الخائضَ عن الوصول إلَىٰ عُمْقِه، فأوقع أصحابَ هَذَا القِسْمِ فِي فنونٍ من التَّخبيط.

فأمَّا الطَّريق الأوَّل: فإنَّ إبليسَ زَيَّنَ للمُقَلِّدين أنَّ الأدِلَّة قد تشتبهُ.

والصَّوابُ: قد يخفىٰ والتَّقليدُ سليمٌ، وقد ضلَّ فِي هَذَا الطَّريقِ خلقٌ كثيرٌ، وبه هلاكُ عامَّةِ النَّاسِ، فإنَّ اليهُودَ والنَّصارىٰ قلَّدُوا آباءَهم وعلماءهم فضلُّوا، وكذلك أهل الجاهليَّة، واعلم أنَّ العلَّةَ الَّتي بِها مدحُوا التَّقليد بِها يذمُّ؛ لِأنَّه إذا كانتِ الأدلَّة تشتبه، والصَّواب يخفىٰ

وجب هجرُ التَّقليد لئلَّا يوقع فِي ضلالٍ.

وقد ذمَّ اللهُ ﷻ الواقِفِين مع تقليدِ آبائِهم وأسلافهم، فقال ﷻ: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ [الزخرف:٢٢-٢٤].

المعنىٰ: أتتَّبعونَهم. وقال ﷻ: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْاْ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الصافات:٦٩، ٧٠].

قال المصنف: اعلم أنَّ المقلَّدَ عَلَىٰ غير ثقةٍ فيما قلَّدَ فيه، وفِي التَّقليد إبطالُ منفعة العقل؛ لأنَّه إنَّما خُلِقَ للتَّأمُّل والتَّدبُّر، وقبيحٌ بِمن أُعطِيَ شمعةً يستضيءُ بِها أن يطفِئَها، ويَمشي فِي الظُّلم.

واعلم أنَّ عمومَ أصحابِ المَذاهب يعظم فِي قلوبِهم الشَّخص، فيتَّبعون قوله من غير تدبُّرٍ لما قال، وهَذَا عينُ الضَّلال؛ لأنَّ النَّظَر ينبغي أن يكونَ إِلَىٰ القولِ لا إِلَىٰ القائل، كما قال عليٌّ رضي الله عنه للحارث بن حوطٍ، وقد قال له: أتظنُّ أنَّا نظنُّ أنَّ طلحة، والزُّبير، كانا عَلَىٰ باطلٍ؟ فقال له: يا حارثُ، إنَّه ملبوسٌ عليك، إنَّ الحَقَّ لا يُعرَفُ بالرِّجالِ، اعرفِ الحقَّ تعرفْ أهلَه.

وكان أحمدُ بن حَنْبَل يقول: مِن ضِيقِ علمِ الرَّجلِ أنْ يُقَلِّدَ فِي اعتقاده رجلًا، ولِهَذَا أخذَ أحمد بن حنبل بقول زَيْدٍ فِي الجَدِّ، وتَرَكَ قولَ أبِي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه.

فإن قال قائل: فالعوامُّ لا يعرفون الدَّليل، فكيف لا يُقَلِّدون؟

فالجواب: إنَّ دليلَ الاعتقادِ ظاهرٌ عَلَىٰ ما أشرْنَا إليه فِي ذكر الدَّهريَّة، ومثل ذلك لا يَخفَىٰ عَلَىٰ عاقلٍ، وأمَّا الفروع، فإنَّها لما كَثُرَتْ حوادثُها واعتاصَ عَلَىٰ العامِّيِّ عرفانها،

وقرب لَها أمر الخطأ فيها كان أصلح ما يفعله العاميُّ التَّقليدُ فيها لمن قد سَبَرَ ونظر، إلَّا أنَّ اجتهادَ العاميِّ فِي اختيارِ مَنْ يقلِّدُهُ.

فصل (ذكر تلبيسه على أهل الكلام)

قال المصنِّف: وأمَّا الطَّريق الثَّانِي: فإنَّ إبليسَ كما تَمكَّنَ من الأغبِيَاءِ، فَوَرَّطهم فِي التَّقليد، وسَاقَهُم سوقَ البَهَائِمِ، ثُمَّ رَأَىٰ خَلقًا فيهم نوعُ ذكاءٍ وفطنةٍ، فاستَغْواهُم عَلَىٰ قدرِ تَمكُّنِهِ منهم.

فمنهُم مَن قبَّحَ عندَه الجمُودَ عَلَىٰ التَّقليد، وأمره بالنَّظر، ثُمَّ استغوىٰ كُلًّا من هؤلاء بفنٍّ، فمنهم مَنْ أراه أنَّ الوقوفَ مع ظواهر الشَّرائع عجز، فساقَهم إلَىٰ مذهب الفَلَاسفة، ولَمْ يزلْ بِهؤلاء حتَّىٰ أخرجهم عن الإسلام، وقد سَبَقَ ذكرُهم فِي الرَّدِّ عَلَىٰ الفلاسفة.

ومن هؤلاء من حسَّنَ له ألَّا يعتقدَ إلَّا ما أدركته حواسُّه؛ فيُقالُ لِهؤلاء: بِالحواسِّ علمتم صحَّةَ قولِكم؟

فإن قالوا: نعم. كابَرُوا؛ لأنَّ حواسَّنا لَمْ تدركْ ما قالُوا.

إذ ما يدركُ بالحواسِّ لا يقع فيه خلافٌ، وإنْ قالُوا بغيرِ الحواسِّ نقضُوا قولهم.

ومنهم: مَن نفَّره إبليسُ عن التَّقليد وحسَّنَ له الخوضَ فِي علم الكلامِ، والنَّظر فِي أوضاع الفَلَاسِفَة؛ ليخرجَ بزعمِهِ عن غمارِ العوامِّ.

وقد تنوَّعت أحوال المتكلِّمين، وأفضَىٰ الكلامُ بأكثرِهم إلَىٰ الشُّكوكِ وببعضهم إلَىٰ الإلحاد.

ولَمْ يسكتِ القدماءُ من فُقَهَاءِ هَذِهِ الأمَّة عن الكلامِ عجزًا، ولكنَّهم رأوا أنَّه لا يشفي غليلًا، ثُمَّ يرُدُّ الصَّحيح عليلًا، فأمسكُوا عنه، ونَهوا عن الخوضِ فيه.

حتَّىٰ قالَ الشَّافعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: لأن يبتليَ العبدُ بكلِّ ما نَهَىٰ اللهُ عنه ما عَدَا الشِّرك، خيرٌ له من أن ينظرَ فِي الكلامِ.

قال: وإذا سمعتَ الرَّجلَ يقولُ: الاسمُ هو المسمَّىٰ أو غير المسمَّىٰ، فاشهدْ أنَّه من أهلِ الكلام، ولا دِينَ له.

قال: وحكمي فِي علماء الكلام أن يُضربُوا بالجَرِيد، ويُطافُ بِهم فِي العَشَائِر والقَبَائِل، ويُقال: هَذَا جزاءُ من تَرَكَ الكِتَاب والسُّنَّة وأخذ فِي الكلام.

وقال أحمد بن حنبل: لا يفلحُ صاحبُ كلامٍ أبدًا، علماء الكلام زنادقة.

قال المصنِّف: قلتُ: وكيف لا يُذَمُّ الكَلَامُ، وقد أفضىٰ بالمعتزِلة إِلَىٰ أنَّهم قالوا: إنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يعلمُ جُملَ الأشياء، ولا يعلم تفاصيلها.

وقال جهمُ بن صَفوان: علمُ الله وقدرتُه وحياتُه مُحدثة.

وقال أبو مُحمَّد النُّوبختي عن جهمٍ أنَّه قال: إنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ ليسَ بشيءٍ.

وقال أبو علي الجُبَّائيُّ، وأبو هاشمٍ، ومن تابعَهُمَا من البَصريِّين: المعدومُ شيءٌ وذات ونفس وجوهر وبياض وصفرة وحمرة، وإنَّ الباري سُبْحَانَهُ لا يقدرُ عَلَىٰ جعلِ الذَّاتِ ذاتًا، ولا العرض عرضًا، ولا الجوهر جوهرًا، وإنَّما هو قادرٌ عَلَىٰ إخراجِ الذَّات من العدمِ إِلَىٰ الوجودِ.

وحكىٰ القاضي أبو يعْلَىٰ فِي كتاب «المقتبس» قال: قال لي العلَّافُ المعتزليُّ: لَنَعِيمُ أهل الجنَّة، وعذابُ أهل النَّار، أمْرٌ لا يُوصَفُ الله بالقدرة عَلَىٰ دفعه، ولا تصحُّ الرَّغبة حينئذ إليه، ولا الرَّهبة منه؛ لأنَّه لا يقدرُ إذ ذاك عَلَىٰ خيرٍ ولا شرٍّ، ولا نفعٍ ولا ضُرٍّ.

قال: ويبقىٰ أهل الجنَّة جُمودًا سُكُوتًا، لا يُفْضُون بكَلِمَةٍ، ولا يتحرَّكون، ولا يَقدرون، هم ولا ربُّهم، عَلَىٰ فعل شيءٍ من ذلك؛ لأنَّ الحوادثَ كلَّها لا بدَّ لَها مِن آخر تَنتهي إليه لا

يكونُ بعده شيءٌ. تَعَالَىٰ اللهُ عن ذلك عُلوًّا كَبيرًا.

قال المصنِّف: قلتُ: وذكر أبو القاسِمِ عبدُ اللهِ بنُ أحمدَ بن مُحمَّدٍ البلْخي فِي «كتاب المقالات»: إنَّ أبا الهذيلِ اسمُه مُحمَّد بن الهذيلِ العَلَّاف، وهو من أهل البصرةِ مِن عبدِ القيسِ مولىٰ لَهم، وانفرد بأنْ قال: أهلُ الجنَّة تنقضي حركاتُهم، فيصيرُون إلَىٰ سكونٍ دائمٍ، وأنَّ لِمَا يقدرُ اللهُ عليه نَهايةً، لو خَرَجَ إلَىٰ الفِعلِ -ولن يخرجَ- استحالَ أن يوصفَ الله عَزَّوَجَلَّ بالقُدرةِ عَلَىٰ غيرِهِ. وكان يقول: إنَّ علمَ اللهِ هو اللهُ، وإنَّ قدرةَ الله هي الله.

وقال أبو هاشمٍ: من تَابَ عَلَىٰ كلِّ شيءٍ إلَّا أنَّه شرب جَرعةً من خمرٍ، فإنَّه يُعذَّبُ عذابَ أهلِ الكُفر أبدًا.

وقال النَّظَّام: إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لا يَقدرُ عَلَىٰ شيءٍ من الشَّرِّ، وإنَّ إبليسَ يقدرُ عَلَىٰ الخير والشَّرِّ.

وقال هشام الفوطي: إنَّ الله لا يوصف بأنَّه عالِم لَمْ يزلْ.

وقال بعضُ المعتزلَة: يَجوز عَلَىٰ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الكذبُ، إلَّا أنَّه لَمْ يقعْ منه.

وقال المجبرة: لا قُدْرَةَ للآدميِّ، بل هو كالجمادِ مَسْلُوبُ الاختيارِ والفِعلِ.

وقالتِ المُرجِئَة: إنَّ مَن أقرَّ بالشَّهادتين، وأتىٰ بكلِّ المعاصي لَمْ يدخلِ النَّارَ أصلًا، وخالفُوا الأحاديثَ الصِّحاحَ فِي إخراجِ الموحِّدينَ من النَّار.

قال ابن عقيلٍ: ما أشبَهَ أن يكونَ واضعُ الإرجاءِ زِنديقًا، فإنَّ صلاحَ العالم بإثباتِ الوعيدِ واعتقادِ الجزاءِ، فالمُرجِئةُ لمَّا لَمْ يمكنْهم جحدُ الصَّانع لما فيه من نفورِ النَّاس، ومُخالفةِ العقلِ، أسقطُوا فائدةَ الإثباتِ، وهي الخشيةُ والمراقبةُ، وهدموا سياسةَ الشَّرعِ، فهم شرُّ طائفةٍ عَلَىٰ الإسلام.

قال المصنِّف: قلتُ: وتَبعَ أبو عبد الله بن كرَّام، فاختَار من المذاهبِ أردأها، ومنَ

الأحاديثِ أضعفَها، ومال إِلَىٰ التَّشبيه، وأجاز حلولَ الحوادث فِي ذات الباري ﷻ وقال: إنَّ الله لا يقدرُ عَلَىٰ إعادةِ الأجسامِ والجواهرِ، إنَّما يقدرُ عَلَىٰ ابتدائِها.

قالتِ السَّالميَّة: إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يَتجَلَّىٰ يومَ القيامة لِكلِّ شيءٍ فِي معناه، فيراه الآدميُّ آدميًّا والجنيُّ جنيًّا. وقالوا: الله سرٌّ، لو أظهره لَبَطَلَ التَّدبير.

قال المصنِّفُ: قلتُ: أعوذُ بالله من نظرٍ وعلومٍ أوجبتْ هَٰذِهِ المذاهب القبيحةَ، وقد زعمَ أربابُ الكلامِ، أنَّه لا يتمُّ الإيمانُ إلَّا بمعرفةِ ما رتَّبُوه، وهؤلاء عَلَىٰ خطإٍ؛ لأنَّ الرَّسول ﷺ أمر بالإيمان، ولَمْ يأمرْ ببحثِ المتكلِّمين، ودرجة الصَّحابة الَّذين شهِدَ لَهم الشَّارع بأنَّهم خيرُ النَّاسِ عَلَىٰ ذلك.

وقد وردَ ذمُّ الكلامِ عَلَىٰ ما قد أشَرْنا إليه، وقد نَقَلَ إلينا إقلاع منطقيي المتكلِّمين عمَّا كانوا عليه، لمَّا رأوا من قُبحِ غوائلِهِ.

فأخبرنا أبو منصورٍ القزَّاز، نا أبو بكر أحمد بن علي بن ثابتٍ، نا أبو منصورٍ مُحمَّد بن عيسىٰ بن عبد العزيز البزَّاز، ثنا صَالِح الوَفَاة بن أحمد بن مُحمَّد الحافظ، ثنا أحمد بن عبيد ابن إبراهيم، ثنا عبد الله بن سليمان بن الأشعث، قال: سمعت أحمد بن سنان قال: كان الوليد بن أَبَانَ الكَرَابيسي خالِي، فلما حضرتْه الوفاةُ، قال لبَنِيهِ: تعلمون أحَدًا أَعْلَمَ بالكلامِ منِّي؟ قالوا: لا، قال: فتتَّهمونني؟ قالوا: لا، قال: فإنِّي أوصيكم، أتقبَلُون؟ قالوا: نعم. قال: عليكم بِما عليه أصحابُ الحديثِ، فإنِّي رأيتُ الحقَّ معهم.

وكان أبو المعالي الجُويني يقولُ: لقد جُلْتُ أهلَ الإسلام جولةً وعلومَهم، وركِبَتُ البحر الأعظم، وغُصْتُ فِي الَّذي نُهُوا عنه؛ كلُّ ذلك فِي طلب الحقِّ، وهَرَبًا من التَّقليد، والآن فقد رجعت عن الكلِّ إِلَىٰ كلمة الحقِّ.

عليكم بدين العَجَائزِ، فإنْ لَمْ يدركْنِي الحقُّ بلطفِ برِّه، فأموت عَلَىٰ دين العجائز،

ويَخْتِمْ عاقبة أمري عند الرَّحيل بكلمة الإخلاص، فالوَيلُ لابن الجويني.

وكان يقول لأصحابه: يا أصحابَنا، لا تشتغِلُوا بالكَلَامِ، فَلو عَرَفْتُ أَنَّ الكلامَ يبلغ بِي ما بَلَغَ، مَا تَشَاغَلْتُ به.

وقال أبو الوَفَاء بنُ عَقِيلٍ لبعضِ أصحابِهِ: أنا أقطعُ أَنَّ الصَّحابةَ ماتُوا، وما عرفُوا الجوهرَ والعَرَض، فإنْ رضيتَ أن تكونَ مثلهم فكُنْ، وإن رأيت طريقة المتكلِّمين أولىٰ من طَرِيقةِ أَبِي بكرٍ وعُمر، فبئس مَا رأيت!

قال: وَقَد أفضَىٰ الكلامُ بأهلِهِ إلَىٰ الشُّكوكِ، وكثيرٍ منهم إلَىٰ الإلحادِ، تشمُّ روائحَ الإلحادِ في فَلَتَاتِ كلام المُتكلِّمين.

وأصل ذلك أنَّهم ما قنعوا بما قَنَعَتْ به الشَّرائع، وطلبُوا الحقائقَ وليس في قوَّة العقلِ إدراكُ ما عندَ اللهِ من الحكمة الَّتي انفرَدَ بها، ولا أخرجَ الباري من عِلمِهِ لِخَلْقِهِ ما عَلِمَهُ هو من حقائق الأمور.

قال: وقد بالغت فِي الأول طولَ عُمرِي، ثُمَّ عُدتُ القَهْقَرَىٰ إلَىٰ مَذْهَب الكُتب، وإنَّما قالوا: إنَّ مذهب العجائز أسلمُ؛ لأنَّهم لما انتهوا إلَىٰ غاية التَّدقيق فِي النَّظر لَمْ يشهدُوا ما يَشفي العقل من التَّعليلات والتَّأويلات، فوقفُوا مع مراسِمِ الشَّرع، وجنحُوا عن القولِ بالتَّعليل، وأذعَنَ العقلُ بأنَّ فوقَهُ حكمةً إلهيَّةً فسلَّم.

وبيان هَذَا أن نقول: أَحَبَّ أن يُعرفَ، أرادَ أن يُذكَرَ.

فيقول قائلٌ: هل شُغِفَ باتِّصالِ النَّفع؟ هل دعاه داعٍ إلَىٰ إفاضة الإحسان؟

ومعلوم أن للدَّاعي عوارض عَلَىٰ الذَّات، وتطلُّبات من النَّفس، وما تَعْقِلُ ذلك إلَّا الذَّات، يدخل عليها داخلٌ من شوقٍ إلَىٰ تحصيلِ مَا لَمْ يكنْ لَها، وهي إليه مُحتاجَةٌ، فإذا وُجِدَ ذلك العرضُ سكن الشَّغَفُ، وفتَرَ الدَّاعي، وذلك الحاصلُ يسمَّىٰ غِنًىٰ، والقديمُ لَمْ

يزلْ موصُوفًا بالغِنَىٰ، منعوتًا بالاستقلالِ بذاته الغَنِيَّة عن استزَادَةٍ أو عارضٍ، ثُمَّ إذا نظرْنا فِي إنعامِهِ، رأيْناه مشحونًا بالنَّقص والآلام، وأذىٰ الحَيَوانات، فإذا رامَ العقلُ أن يعلِّلَ بالإنعام جاءَ تحقيقُ النَّظرِ، فَرَأىٰ أنَّ الفاعِلَ قادرٌ عَلَىٰ الصَّفاءِ ولا صفاء، ورآه مُنَزَّهًا بأدلَّة العقلِ عن البُخلِ المُوجبِ لمنع ما يقدرُ عَلَىٰ تحصيلِهِ، وعن العجزِ عن دفعِ ما يعرِضُ لِهَٰذِهِ الموجوداتِ مِنَ الفَسَادِ، فإذَا عَجَزَ عنِ التَّعليلِ كان التَّسليمُ أولَىٰ.

وإنَّما دَخَلَ الفسادُ مِن أنَّ الخلقَ اقتضَاؤه الفوائد، ودفع المضارِّ عَلَىٰ مُقتَضَىٰ قدرتِهِ، ولو مزجُوا فِي ذلك العلمَ بأنَّه الحكيم، لاقتضت نفوسُهم له التَّسليمَ بحسبِ حكمتِهِ، فَعَاشُوا فِي بُحبُوحَةِ التَّفويضِ بِلَا اعتراضٍ.

فصل [ذكر تلبيسه على المجسمة]

وقد وقَفَ أقوامٌ منَ الظَّواهِرِ فحملُوها عَلَىٰ مقتضىٰ الحِسِّ، فقال بعضُهم: إنَّ الله جِسمٌ[1]. وهَذَا مذهبُ هِشَام بن الحَكمِ، وعَلي بن منصورٍ، ومُحمَّد بن الخليل، ويونس بن عبد الرَّحمن.

ثُمَّ اختلفوا، فقال بعضُهم: جسمٌ كالأجسامِ، ومنهم مَن قال: لا كالأجسامِ، ثُمَّ اختلفُوا فمنهم مَن قال: هو نورٌ، ومنهم من قال: هو عَلَىٰ هيئة السَّبيكة البيضاءِ.

هكذا كان يقولُ هشامُ بن الحكم، وكان يقول: إنَّ الإلهَ سبعة أشبارٍ بشبرِ نفسه - تعالىٰ الله عن ذلك علوًّا كبيرًا- وأنَّه يَرَىٰ ما تحت الثَّرىٰ بشعاعٍ متَّصلٍ منه بالمرئيِّ.

---

(١) لم يرد عن السلف وصف الله بالجسم، وليس من أساليبهم نفي الجسم عن الله أو إثباته، وإنما ينفون عن الله ما نفاه عن نفسه من صفات النقص والعيب، كالسِّنة والنوم والعجز والفقر ونحوها، مما نفته نصوص الكتاب والسنة، وأخذ به سلف الأمة، وإذ كان الأمر كذلك، فلينهج المسلمون نهج الكتاب والسنة، بفهم سلف الأمة. [زيد المدخلي].

قلتُ: ما أعجبُ إلَّا من حَدِّهِ سبعة أشبارٍ، حتَّىٰ علمتُ أنَّه جعله كالأدميِّين، والآدميُّ طوله سبعة أشبار بشبرِ نفسِهِ.

وذكر أبو مُحمَّد النُّوبختي، عنِ الجاحِظِ، عن النَّظَّام، أنَّ هشام بن الحكم قال فِي التشبيه فِي سنةٍ واحدةٍ خمسة أقاويلَ، قَطَعَ فِي آخرِها أنَّ معبودَه بشبرِ نفسه سبعةُ أشبارٍ؛ وإنَّ قومًا قالوا: إنَّه عَلَىٰ هيئةِ السَّبيكة، وإنَّ قومًا قالوا: هو عَلَىٰ هيئةِ البِلَّورة الصَّافية المستَوِية الاستدارة الَّتي من حيث أتيتَها رأيتَها عَلَىٰ هيئةٍ واحدةٍ.

وقال هشامٌ: هو متناهي الذَّات حتَّىٰ قالَ: إنَّ الجبلَ أكبرُ منه. قال: وله ماهيةٌ يَعْلَمُها هُو.

قال المصنف: وهَذَا يلزمُهُ أن يكونَ له كيفيَّة أيضًا، وذلك ينقض القول بالتَّوحيد، وقدِ استَقَرَّ أنَّ الماهيَّة لا تكون إلَّا لِمَن كان ذا جنس، وله نظائرُ، فيحتاج أن يفردَ منها ويبانَ عنها، والحقُّ سبحانَه ليس بذي جنسٍ، ولا مثلَ له، ولا يجوزُ أن يوصَفَ بأنَّ ذاتَه متناهيةٌ، لا عَلَىٰ معنىٰ أنَّه ذاهبٌ فِي الجهاتِ بلا نِهايةٍ، إنَّما المُراد أنَّه ليس بجسمٍ، ولا جوهرٍ، فتلزمُهُ النِّهاية[1].

وقال النُّوبختي: وقد حَكَىٰ كثيرٌ من المتكلِّمين أنَّ مُقاتَل بن سليمان، ونُعيم بن حمَّادٍ، وداود الحواري يقولُون: إنَّ الله صورةٌ وأعضاءٌ.

قال المصنف: أتَرَىٰ هؤلاء؛ كيف يثبِتُون له القدمَ دون الآدميِّين، ولِمَ لا يجوز عليه عندهم، ما يجوز عَلَىٰ الآدميِّين من مرضٍ أو تلفٍ؟

---

(١) قول المؤلف: «والحق سبحانه ليس بذي جسم»، ليس من ألفاظ السلف، بل يقال: «والحق سبحانه ليس كمثله شيء»، وتقدم التنبيه علىٰ لفظ الجسم والجوهر، وأنهما ليسا من ألفاظ السلف نفيًا ولا إثباتًا، وكذلك الحيز والجهة. [زيد المدخلي].

ثُمَّ يقالُ لكلِّ مَنِ ادَّعىٰ التَّجسيمَ: بأيِّ دليلٍ أثبتَّ حدثَ الأجسام؟ فيدلُّك بذلك عَلَىٰ أنَّ الإلهَ هو الَّذي اعتقدته جِسمًا مُحدثًا غير قديمٍ.

ومِن قولِ المجسِّمةِ: إنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يجوِّزُ أن يُمَسَّ ويُلْمَسَ. فيقال لهم: فيجوزُ عَلَىٰ قولِكم أن يَمسَّ ويلمسَ ويعانقَ.

وقال بعضُهم: إنَّه جسمٌ هو فضاء، والأجسام كلُّها فيه.

وكان بيانُ بن سمعان يزعُمُ أنَّ معبودَه نورٌ كلُّه، وأنَّه عَلَىٰ صورة رجلٍ، وأنَّه يَهلِكُ جميع أعضائه إلَّا وَجْهُهُ، فقتلَه خالدُ بن عبد الله.

وكان المغيرةُ بن سعيدٍ البجليُّ يزعم أنَّ معبودَهُ رجلٌ من نورٍ عَلَىٰ رأسِهِ تاجٌ من نورٍ، وله أعضاءٌ وقلبٌ تنبعُ منه الحكمةُ، وأعضاؤُهُ عَلَىٰ صورة حروفِ الهِجَاءِ، وكان هَذَا يقولُ بإمامةِ مُحمَّدِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ الحسنِ بنِ الحسنِ.

وكانَ زُرارَةُ بن أعْيَنَ يقولُ: لَمْ يكنِ البَارِي قادرًا حيًّا عالِمًا فِي الأَزَلِ، حتَّىٰ خَلَقَ لنفسِهِ هَذِهِ الصِّفاتِ، تَعَالَىٰ اللهُ عن ذَلك.

وقال داود الحَوَارِي: هو جِسْمٌ ولحمٌ ودمٌ، وله جوارحُ وأعضاء، وهو أجوفُ من فمِهِ إلَىٰ صدرِهِ، ومصمتٌ ما سِوَىٰ ذلك.

ومن الوَاقِفِين مع الحسِّ أقوامٌ قالوا: هو عَلَىٰ العَرشِ بذَاتِهِ عَلَىٰ وجه المُمَاسَّة، فإذا نزَلَ انتقلَ وتحرَّك. وجعلُوا لذاتِه نِهايةً، وهؤلاء قد أوجبوا عليه المساحة والمِقدار، واستدلُّوا عَلَىٰ أنَّه عَلَىٰ العرشِ بذاته، بقولِ النَّبيِّ ﷺ: «يَنْزِلُ اللهُ إِلَىٰ سَماء الدُّنيا...»[١]. قالوا: ولا ينْزِلُ إلَّا من هو فوق.

وهؤلاء حَملُوا نزولَه عَلَىٰ الأمرِ الحِسِّيِّ الَّذي يُوصفُ به الأجسامُ، وهَؤلاء المُشَبِّهة

(١) أخرجه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الَّذين حَملوا الصِّفات عَلَىٰ مقتضىٰ الحسِّ[١]، وقد ذكَرْنا جُمهورَ كلامِهم فِي كتابنا المسمَّىٰ بـ«منهاج الوصولِ إلَىٰ علم الأُصُول».

ورُبَّما تَخَيَّلَ بعضُ المُشَبِّهَةِ فِي رؤيةِ الحقِّ يوم القِيامةِ لما يراه فِي الأشخاصِ، فيمثلُهُ شخصًا يَزِيدُ حُسنُه عَلَىٰ كلِّ حُسْنٍ، فتراه يتنفَّس من الشَّوق إليه، ويمثِّل الزِّيادة، فيزداد تَوْقُهُ، ويَتَصَوَّر رَفْع الحجاب فيقلق، ويتذكر الرُّؤيةُ، فيغشىٰ عليه، ويسمع فِي الحديث أنَّه يُدْنِي عبدَهُ المؤمنَ إليه، فَيَتَخَايَلَ القرب الذَّاتِي، كما يجالسُ الجنس، وهَذَا كلُّه جهلٌ بالموصوف.

ومن النَّاس مَنْ يقولُ: للهِ وجه هو صفةٌ زائدةٌ عَلَىٰ صفةِ ذاته، لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن:٢٧].

وله يدٌ، وله أُصبعٌ؛ لقولِ رسول الله ﷺ: «يَضَعُ السَّمَاوَاتِ عَلَىٰ أُصْبُعٍ»[٢]. ولَه قَدَمٌ، إلَىٰ غيرِ ذلك مِمَّا تضمَّنته الأخبار، وهَذَا كلُّه إنَّما استخرجوه من مفهوم الحسِّ.

وإنَّما الصَّواب قراءةُ الآيات والأحاديث من غير تفسيرٍ، ولا كلام فيها، وما يؤمِّن هؤلاء أنْ يكونَ المرادُ بالوجهِ: الذَّات، لا أنَّه صفةٌ، وعَلَىٰ هَذَا فسَّر الآيةَ المُحَقِّقُون، فقالُوا: ويبقىٰ ربك، وقالوا فِي قوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف:٢٨]: يريدُونَه، وما يؤمنهم: أن يكونَ أرادَ بقولِهِ: «قلوبُ العِبادِ بينَ أُصْبُعَيْنِ»[٣] أنَّ الأصابع لمَّا كانت هي المقلِّبةُ للشَّيءِ،

---

(١) من صفات الباري -جل وعلا- الفعلية الاستواء علىٰ العرش بذاته حقيقة، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، بلا تشبيه ولا تأويل ولا تعطيل، ولا داعي إلىٰ مناقشة أهل التأويل المذموم، بأساليب أهل علم الكلام؛ إذ في النصوص من الكتاب والسنة كفاية لطالب الحق، ولم يؤثر عن السلف ذكر المماسة، أو عدم المماسة؛ إذ ليس استواء الخالق العظيم الغني عما سواه، كاستواء المخلوق الضعيف. [زيد المدخلي].

(٢) أخرجه البخاري (٤٨١١)، ومسلم (٢٧٨٦) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٥٤) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

وأنَّ ما بَينَ الأصبعَين يتصرَّفُ فيه صَاحِبُها كيفَ شاءَ، ذَكر ذلك لا أنَّ ثَمَّ صفةً زائدة[1].

قال المصنف: والَّذي أراه السُّكوتُ عَن هَذَا التَّفسير أيضًا، إلَّا أنَّه يجوزُ أن يكونَ مُرَادًا، ولا يجوزُ أن يكونَ ثَمَّ ذاتٌ تقبلُ التَّجزُّؤَ والانقسامَ.

ومن أعجبِ أحوالِ الظَّاهريَّة قولُ السَّالميَّة: إنَّ الميِّتَ يأكُلُ فِي القبرِ، ويشربُ، وينكحُ؛ لِأنَّهم سَمِعُوا بنعيمٍ، ولَمْ يعرفُوا مِنَ النَّعيمِ إلَّا هذا، ولو قَنعُوا بما وَرَدَ فِي الآثارِ مِن أنَّ: «**أَرْوَاحَ الْمُؤْمِنِينَ تُجْعَلُ فِي حَوَاصِلِ طَيْرٍ تَأْكُلُ مِنْ شَجَرِ الجَنَّةِ**»[2]، لسَلِمُوا، لكنَّهم أضافُوا ذلك إلَىٰ الجَسَدِ.

قال ابن عقيل: ولِهَذَا المذهبُ مرضٌ يضاهِي الاستشعارَ الواقعَ للجاهليَّة، وما كانُوا يقولُونه فِي الهام والصَّدَىٰ، فالمكالمةُ لِهؤلاء ينبغِي أن تكونَ عَلَىٰ سبيل المُدارَاة لاستشعارِهم، لَا عَلَىٰ وجهِ المُنَاظرةِ؛ فإنَّ المقاومةَ تُفسِدُهم، وإنَّما لبَّس إبليسُ عَلَىٰ هؤلاء لِتَرْكِهم البحثَ عن التَّأويلِ المُطابق لأدلَّة الشَّرْع والعقل؛ فإنَّه لمَّا ورد النَّعيم والعذاب للميِّتِ، عُلِمَ أنَّ الإضافةَ حَصَلَتْ إلَىٰ الأجسادِ والقبورِ تعريفًا، كأنَّه يقولُ: صاحبُ هَذَا القبرِ الرُّوح الَّتي كانتْ فِي هَذَا الجسد مُنَعَّمَةٌ بنعيم الجنَّة، مُعذَّبةٌ بعذاب النَّار.

فصل [الطريق الوسط السليم]

قال المصنف: فإن قال قائلٌ: قد عِبتَ طريقَ المقلِّدين فِي الأصولِ، وطريق المتكلِّمين، فما الطَّريق السَّلِيم من تلبيسِ إبليسَ؟

---

(١) المراد بقوله: «من غير تفسير» أي التفسير المذموم، أما تفسير المعنىٰ الصحيح الذي حفظ عن السلف، فهو مطلب شرعي، أما ما يتعلق بحديث الصحيحين: «قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن...». الحديث. ففيه إثبات الأصابع للرحمن تبارك وتعالىٰ، وهي صفة ذاتية حقيقية، لا يجوز تأويلها تأويلًا فاسدًا، كما فعل الأشاعرة ومن لَفَّ لَفَّهم، ولا تعطيلها، بجحدها وإنكارها، كما فعلت الجهمية المعطلة، وأفراخهم المعتزلة. [زيد المدخلي].

(٢) أخرجه الترمذي (١٦٤١) من حديث كعب بن مالك ﷺ. وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٥٥٩).

فالجوابُ: أنَّه ما كانَ عليه رسول الله ﷺ وأصحابه وتابعوهم بإحسانٍ مِن إثباتِ الخالقِ سبحانَه، وإثباتِ صفاتِهِ عَلَىٰ مَا وَرَدَتْ به الآياتُ والأخبارُ، مِن غيرِ تفسيرٍ[(١)]، ولا بَحْثٍ عمَّا ليسَ فِي قوَّة البَشَرِ إدراكُهُ، وأنَّ القرآنَ كَلَامُ الله غيرُ مَخْلوقٍ.

قَالَ عَلِيٌّ كرَّم اللهُ وَجْهَهُ: واللهِ ما حكَّمْتُ مَخلُوقًا؛ إنَّما حَكَّمْتُ القُرآنَ، وإنَّه المسموعُ؛ لقولِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٦]، وإنَّه فِي المصاحِفِ؛ لِقَولِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ③﴾ [الطور:٣]، ولا نَتَعدَّىٰ مَضمونَ الآياتِ، ولا نَتَكَلَّم فِي ذَلكَ برَأْينا.

وَقَدْ كَانَ أَحْمَد بن حنبلٍ يَنْهىٰ أَنْ يَقُولَ الرَّجلُ: لَفْظِي بالقُرْآنِ مَخلوقٌ، أَوْ غيرُ مَخْلوقٍ؛ لِئلَّا يخرجَ عن الاتِّباعِ للسَّلفِ إلَىٰ مَا حَدَثَ.

والعجبُ مِمَّن يدَّعي اتِّبَاعَ هَذَا الإمامِ، ثُمَّ يَتكلَّم فِي المَسَائل المُحْدَثَةِ.

أخبرنا سعدُ اللهِ بن عليٍّ البزَّاز، نا أبو بكر الطُّرَيْثيثي، نا هبة الله بن الحسنِ الطَّبريُّ، نا أبو حامدٍ أحمد بن أبِي طاهرٍ الفقيه، نا عُمَر بن أحمد الواعظ، ثنا مُحمَّد بن هارون الحضرميُّ، ثنا القاسم بن العبَّاس الشَّيبانِي، ثنا سفيان بن عُيَينة، عن عمرو بن دينارٍ، قال: أدركت تسعةً من أَصْحَابِ رسول الله ﷺ يَقُولُون: مَنْ قال: القرآنُ مَخلوقٌ، فهو كافرٌ.

وقال مالك بن أنسٍ: مَنْ قال: القرآنُ مَخلوقٌ- فيُسْتَتَاب، فإن تَابَ، وإلَّا ضُرِبَتْ عُنُقُهُ.

أخبرنا أَبُو البَرَكَات بن عليٍّ البزَّاز، نا أحمد بن عليٍّ الطُّرَيْثيثي، نا هبة الله الطَّبريُّ، ثنا مُحمَّد بن أحمد بن القاسم، ثنا أحمد بن عثمان، ثنا مُحمَّد بن ماهان، ثنا عَبْد الرَّحمن بن مهديٍّ، عن سفيان، عن جَعْفر بن برقان، أنَّ عُمَرَ بن عبد العزيز، قال لِرَجلٍ: وسألَهُ عن

(١) أي من غير تفسير مذموم، يُخرِج النص عن معناه الصحيح، وليس المقصود أن نصوص الأسماء والصفات لا تفسر بمعانيها الصحيحة، بل تُفَسَّرُ علىٰ مذهب أهل السنة والجماعة؛ لأنها نصوص محكمات. [زيد المدخلي].

الأهواءِ، فَقَال: عَلَيك بدينِ الصَّبِيِّ فِي الكُتَّابِ والأعرابِيِّ، وَالْهُ عَمَّا سواهما.

قال ابنُ مهديٍّ: وثنا عبد الله بن المُبَارك، عن الأوزاعيِّ، قال: قال عمر بن عبد العزيز: إذا رأيتَ قومًا يتناجَوْن فِي دينِهم بشيءٍ دونَ العامَّة، فَاعْلَمْ أنَّهم عَلَىٰ تأسيسِ ضَلَالَةٍ.

أخبرنا مُحمَّد بن أَبِي القاسم، نا حَمدُ بن أحمد، نا أبو نُعَيمٍ الحافظ، ثنا مُحمَّد بن أحمد بن الحسن، ثنا بشر بن موسىٰ، ثنا خلَّاد بن يَحيَىٰ، عن سفيان الثَّوْريِّ: قال: بَلَغَنِي عن عُمرَ أنَّه كَتَبَ إِلَىٰ بعض عُمَّاله: أوصيكَ بتقوىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ، واتِّباعِ سُنَّة رسولِهِ صلَّىٰ الله عَلَيه وعلىٰ آلِهِ وصَحْبه وَسلَّم، وتَرْكِ ما أحدَثَ المُحْدثون بعده بِما كُفُوا مؤنته؛ وَاعْلم أنَّ مَنْ سَنَّ السُّنن قَدْ عَلِمَ ما فِي خِلَافِها من الخَطَأ والزَّلَل والتَّعمُّق، فَإنَّ السَّابقينَ الماضينَ عن علمٍ تَوقَّفوا، وتَبَصُّرٍ ناقدٍ قَدْ كُفُوا.

وفِي روايةٍ أُخرىٰ عن عمر: وَأنَّهمْ كانوا عَلَىٰ كَشْف الأُمُور أقوىٰ، وما أحدَثَ إلَّا من اتَّبعَ غيرَ سبيلِهم، ورغبَ بنفسِهِ عنهم، لقَدْ قصر دونَهم أقوامٌ فجَفَوا، وطمحَ عنهم آخرون فغَلَوْا.

أخبرنا مُحمَّد بن أَبِي القاسمِ، نا حَمَد بن أحمد، نا أحمد بن عبد الله الحافظ، ثنا سليمان بن أحمد، ثنا بشر بن مُوسَىٰ، ثنا عبد الصَّمد بن حسَّان، قَالَ: سَمِعتُ سفيانَ الثَّوريَّ يَقُول: عليكم بِما عليه الحمَّالون، والنِّساء فِي البُيُوتِ، والصِّبيان فِي الكُتَّاب، من الإقرارِ والعَمَل.

قال المصنِّفُ: فإن قال قائلٌ: هَذَا مقامُ عجزٍ لا مَقَام الرِّجال، فقَدْ أسلفنا جوابَ هذا، وقُلنَا: إنَّ الوقوفَ عَلَىٰ العملِ ضَرُورَةٌ؛ لأنَّ بلوغَ ما يَشفِي العقلَ من التَّعليل لَمْ يُدْرِكْهُ مَن غَاصَ من المُتكلِّمين فِي البحار، فلذلك أمرُوا بالوقوفِ عَلَىٰ السَّاحل كما ذكرنا عنهم.

ذكر تلبيس إبليس علَى الخوارج:

قال المصنِّف: أولُ الخوارجِ، وأقبحُهم حالًا: ذو الخُوَيصرة.

أَخْبَرنا ابنُ الحُصين، نا ابنُ المُذْهِب، نا أحمد بن جعفرٍ، ثنا عبد الله بن أحمد، ثَني أَبِي، ثنا مُحمَّد بن فضيلٍ، ثنا عُمارة بن القعقاع، عن ابن أَبِي يعمر، عن أَبِي سعيدٍ الخدريِّ ﵁ قال: بعث عليٌّ ﵁ مِنَ اليمنِ إِلَىٰ رسول الله ﷺ بذهبة فِي أديمٍ مقروظٍ، لَمْ تخلصْ من تُرَابِها، فقسمَها رسول الله ﷺ بين أربعةٍ؛ بين: زيدِ الخيلِ، والأقرعِ بنِ حابسٍ، وعُيينة بن حصنٍ، وعلقمة بن عُلاثة، أو عامر بن الطُّفيل، شكَّ عُمارة، فوجد من ذلك بعضُ أصحابِهِ والأنصارُ وغَيْرهم، فقال رسول الله ﷺ: «أَلا تأمنُونِي، وأنا أمينُ مَنْ فِي السَّماء، يأتِينِي خَبرُ السَّماءِ صباحًا مساءً». ثُمَّ أتاه رجلٌ غائرُ العَينَين، مُشْرِفُ الوَجنَتين، ناتِئ الجَبْهة، كَثُّ اللِّحيةِ، مُشَمَّرُ الإزارَ، مَحلوقُ الرَّأسِ، فقال: اتَّقِ اللهَ، يا رسول الله، فرَفَعَ رأسَهُ إليه، فقالَ: «وَيْحك! أليسَ أحقُّ النَّاس أن يتَّقيَ الله أنا»، ثُمَّ أدبَرَ، فقال خالدٌ: يا رسولَ اللهِ، ألَا أضرِبُ عُنُقَهُ، فَقَال رسول الله ﷺ: «فلعلَّه يُصلِّي». فَقَالَ: إنَّه رُبَّ مُصَلٍّ يقولُ بلسَانِهِ ما لَيسَ فِي قلبِهِ، فَقَال رسول الله ﷺ: «إِنِّي لَمْ أوْمرْ أن أَنقُبَ عن قُلُوبِ النَّاس، ولا أشقَّ بُطُونَهم». ثُمَّ نَظَرَ إليه النَّبِيُّ ﷺ وهو مُقَفٍّ، فقال: «إنَّه سيخرجُ من ضِئضِئِ هَذَا قومٌ يقرؤون القرآن، لا يُجاوِزُ حناجرَهم، يَمْرُقُون منَ الدِّينِ كما يمرُقُ السَّهْمُ من الرَّمِيَّة»[1].

قال المصنف: هَذَا الرَّجل يُقَالُ له: ذو الخُويْصِرة التَّميمي، وفِي لفظٍ: أنَّه قال له: اعدلْ، فقال: «ويْلَكَ، ومَنْ يَعدِلُ إذا لَمْ أَعْدل»[2].

فهَذَا أوَّلُ خارِجيٍّ خَرَج فِي الإسلام، وآفتُهُ أنَّه رَضِيَ برأيِ نفسِهِ، ولو وَقَف، لَعَلِمَ أنَّه لا

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٥١)، ومسلم (١٠٦٤).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦١٠)، ومسلم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري ﵁.

رأيَ فوقَ رأيِ رسول الله ﷺ.

وأتباعُ هَذَا الرَّجل هم الَّذين قاتلُوا عليَّ بن أبِي طالب -كَرَّم الله وَجْهه- وذلك أنَّه لمَّا طالتِ الحربُ بينِ مُعَاويةَ وعليٍّ رضي الله عنه، رَفَع أصحابُ معاوية المصاحفَ، ودعوا أصحابَ عليٍّ إلَىٰ ما فيها، وقَال: تَبْعثُون منكم رجلًا، ونبعثُ منَّا رجلًا، ثُمَّ نأخُذُ عليهِمَا أن يَعمَلَا بِما فِي كتابِ الله عز وجل. فقال النَّاس: قد رَضِينا، فبَعثُوا عمرَو بن العاصِ. فقال أصحابُ عليٍّ: ابعثْ أبا موسىٰ. فقال عليٌّ: لا أرىٰ أنْ أُوَلِّيَ أبا موسىٰ، هَذَا ابن عبَّاس، قالوا: لا نريدُ رجلًا منك، فبعث أبا موسىٰ، وأَخَّرَ القضاءَ إلَىٰ رمضانَ، فَقَال عروةُ بن أُذينةَ: تُحَكِّمون فِي أمرِ الله الرِّجال، لا حُكمَ إلَّا لله.

ورجع عليٌّ من صِفِّينَ: فَدَخلَ الكوفةَ، ولَمْ تدخلْ معه الخوارجُ، فأتوا حَرُوراءَ، فنَزَلَ بِها منهم اثنا عشر ألفًا، وقالُوا: لا حُكْمَ إلَّا لله، وَكَانَ ذلك أوَّل ظُهُورِهم، وَنَادىٰ مُنادِيهم أنَّ أميرَ القِتَال شَبَثُ بن ربعيٍّ التَّميمي، وأمير الصَّلاة عبد الله بن الكوَّاء اليَشْكُري، وكانتِ الخوارجُ تتعبَّدُ إلَّا أنَّ اعتقادَهم أنَّهم أعلمُ من عليٍّ بن أبِي طالب -كَرَّمَ الله وَجْهه- وَهَذَا مرضٌ صعبٌ.

أخبرنا إسماعيل بن أحمد، نا مُحمَّد بن هبة الله الطَّبري، نا مُحمَّد بن الحسين بن الفضل، نا عبد الله بن جعفر بن دُرُستُويه، نا يعقوب بن سفيان، ثَنِي موسىٰ بن مسعودٍ، ثنا عكرمة بن عمَّار، عن سِمَاك أبِي زُمَيْل، قال: قال عبد الله بن عباس: إنَّه لما اعتزَلَتِ الخوارجُ دَخَلُوا دارًا، وهم ستَّة آلافٍ، وأجْمعُوا عَلَىٰ أن يَخْرجُوا عَلَىٰ عليٍّ بن أبِي طالبٍ، فكان لا يزالُ يجيءُ إنسانٌ، فيقولُ: يا أميرَ المؤمنين، إنَّ القومَ خارجونَ عليك، فيَقُول: دعُوهم، فإنِّي لا أُقَاتلُهم حتَّىٰ يُقَاتلُونِي، وسوف يَفْعلُون.

فلمَّا كان ذات يومٍ أتَيْتُهُ قبل صلاةِ الظُّهر، فقُلتُ له: يا أميرَ المُؤمنين، أبْرِدْ بالصَّلاةِ لَعَلِّي أدخلُ عَلَىٰ هؤلاء القومِ فأُكَلِّمهم، فقال: إنِّي أخافُ عليكَ، فقُلْتُ: كلَّا، وكنتُ رجلًا

حسنَ الخُلُقِ، لا أُؤذِي أحدًا، فأَذِنَ لي فلبستُ حُلَّةً مِن أحسَنِ ما يكونُ من اليمنِ، وتَرَجَّلْتُ، فدخلْتُ عَلَيهِم نصفَ النَّهار، فدخلتُ عَلَىٰ قومٍ لَمْ أرَ قطُّ أشدَّ منهم اجتهادًا، جباهُهُمْ قَرِحَةٌ من السُّجود، وأياديهم كأنَّها ثَفَنُ الإبل، وَعَليهم قُمُصٌ مُرَحَّضَةٌ، مُشَمِّرين، مُسَهَّمة وجوهُهُم من السَّهر، فسلَّمتُ عَلَيهم، فقالوا: مرحبًا بابن عبَّاسٍ، ما جَاء بِكَ؟ فقُلْتُ: أتيتُكُم مِن عِندِ المُهَاجِرِينَ والأنصارِ، ومِن عندِ صِهْرِ رسول الله ﷺ، وَعَليهِم نَزَلَ القُرْآنُ، وهُمْ أعلَمُ بتأويلِهِ مِنكِمْ.

فَقَالتْ طائفةٌ منهُم: لا تُخَاصِمُوا قُرَيْشًا، فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يَقُول: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ۝٥٨﴾[الزخرف:٥٨]، فقال اثْنَان أو ثلاثةٌ: لنُكَلِّمَنَّهُ. فقلتُ: هاتُوا ما نَقَمتُم عَلَىٰ صهرِ رسول الله ﷺ، والمُهاجِرين والأنصار، وَعَليهِمْ نَزَلَ القُرآنُ، وليس فيكُم منهم أحدٌ، وهُمْ أعلمُ بتأويلِهِ.

قالوا: ثلاثة.

قلتُ: هاتُوا.

قالُوا: أمَّا إحداهنَّ؛ فإنَّه حَكَّمَ الرِّجالَ فِي أمرِ اللهِ، وقد قالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام:٥٧]، فمَا شأنُ الرِّجال والحكمِ بعدَ قول الله عَزَّوَجَلَّ؟

فقُلْتُ: هَذِهِ واحدةٌ، وماذا؟

قالُوا: وأمَّا الثَّانية: فَإنَّه قَاتَلَ وقُتِلَ ولَمْ يَسْبِ، ولَمْ يَغنَمْ، فلئِن كانُوا مُؤمِنِينَ، فلِمَ حَلَّ لَنَا قتالُهم وقَتْلهم، ولم يَحلَّ لنا سَبيُهم؟

قلتُ: وما الثَّالثة؟

قالوا: فإنَّه مَحَا عَنْ نَفْسِهِ أمير المؤمنين، فإنَّه إن لَمْ يكن أميرَ المؤمنين، فإنَّه لأميرُ الكَافِرين.

قلتُ: هل عندَكم غيرُ هذا؟ قالُوا: كفَانَا هذا.

قلتُ لَهم: أمَّا قولُكم: حَكَّمَ الرِّجال فِي أمرِ اللهِ، أنَا أقرأُ عليكُم فِي كتابِ الله مَا يَنْقضُ هَذَا، فإذَا نقض قولكم، أترجعون؟ قالوا: نَعَمْ. قلتُ: فإنَّ الله قد صَيَّرَ من حكمِهِ إلَىٰ الرِّجالِ فِي ربعِ درهم ثَمَن أرنب، وَتَلا هَذِهِ الآيَةَ: ﴿لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ [المائدة:٩٥]. إلَىٰ آخر الآية، وفِي المرأة وزَوْجها: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [النساء:٣٥]. إلَىٰ آخر الآية، فنشدتكم بالله: هل تعلمُون حكمَ الرِّجال فِي إصلاحِ ذات بينهم، وفِي حَقنِ دمائِهم أفضل أم حكمهم فِي أرنب وبُضْعِ امرأةٍ، فأيُّهما تَرَوْنَ أفضل؟ قالوا: بل هذِهِ. قلتُ: خرجتُ من هذِهِ؟ قالوا: نعم.

قلتُ: وأمَّا قولُكم: قَاتَلَ، ولَمْ يَسْبِ، ولَمْ يغنَمْ، فَتَسْبُونَ أُمَّكُم عائشةَ -رضي الله تعالىٰ عنها؟ فواللهِ، لئن قلتم: ليست بأُمِّنا، لقد خَرَجْتُم منَ الإسلامِ، ووالله، لئنْ قُلتُمْ لَنَسْبِيَنَّهَا، ونستحلُّ منها ما نستحلُّ من غيرها، لقد خَرَجْتُمْ مِنَ الإِسْلَامِ، فأنتُم بين ضَلَالَتَين؛ لأنَّ الله عز وجل قَالَ: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب:٦]. أَخَرجْتُ من هذِهِ؟ قالوا: نعم.

قلت: وأمَّا قولُكم: مَحا عَنْ نفسِهِ أمير المؤمنين، فأنا آتيكُمْ بِمَنْ تَرْضون، إنَّ النَّبِيَّ ﷺ يوم الحُديبِية صَالَحَ المُشْركينَ (أبَا سفيانَ بنَ حربٍ، وسهَيل بن عمرٍو)، فَقَال لعليٍّ رضي الله عنه: اكتبْ لَهم كتابًا، فكتب لَهم عليٌّ: هَذَا ما اصطَلَحَ عَلَيه مُحمَّدٌ رَسُولُ الله، فقال المُشْرِكُون: واللهِ، ما نعلمُ أنَّك رَسُولُ الله، لو نَعْلمُ أنَّك رَسُولُ الله، ما قاتلناكَ، فَقَال رَسُول الله صلَّىٰ الله عليه وعَلَىٰ آله وصحبه وَسلَّم: «اللَّهمَّ إنَّك تعلمُ أنِّي رسولُ الله، امحُ يا عليُّ، اكتبْ: هَذَا ما اصْطَلَح عليه مُحمَّدُ بن عبدِ الله»[1]، فوالله لرسولُ اللهِ خيرٌ مِن عليٍّ، وقَدْ مَحَا نَفسَه. قالَ:

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٨)، ومسلم (١٧٨٣) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه..

فَرَجَعَ منهُم أَلفَان، وَخَرَجَ سائرُهم، فقُتِلُوا.

أخبرنا أبُو منصورِ القزَّازُ، نا أبو بكرٍ أحمد بن علي بن ثابتٍ، نا ولاد بن عليٍّ الكوفيُّ، نا مُحمَّد بن علي بن دحيمٍ الشَّيبانِيُّ، ثنا أحمد بن حازم، ثنا أحمد بن عبد الرَّحمن (يَعْنِي: ابن أبِي ليلىٰ)، ثنا سعيد بن خثيمٍ، عن القَعقاعِ بنِ عمارةَ، عن أبِي الخليل، عن أبي السَّابغة، عن جندبٍ الأزديِّ. قال: لمَّا عدلْنا إلَىٰ الخوارج، ونحن مع علي بن أبِي طالب كَرَّمَ اللهُ وَجْهه، قال: فانتهَيْنا إلَىٰ مُعسكَرِهم، فإذا لَهم دَوِيٌّ كدويٍّ النَّحل مِن قِرَاءةِ القُرآنِ.

قال المصنِّف: وفِي روايةٍ أخرىٰ أنَّ عَليًّا رضي الله عنه لمَّا حكَّمَ، أتَاه من الخوارج زُرْعَةُ بن البُرْجِ الطَّائيُّ، وحُرْقُوص بن زُهيرٍ السَّعدي، فَدَخَلَا عليه، فقَالَا له: لا حُكمَ إلَّا للهِ. فقال عليٌّ: لا حُكمَ إلَّا لله، فقال له حرقوصُ: تُبْ من خطِيئَتِك، وارجِعْ عن قَضيَّتنا، واخرجْ بِنَا إلَىٰ عدوِّنا نقاتلْهم حَتَّىٰ نلقَىٰ رَبَّنَا، ولئن لَمْ تَدَعْ تحكيمَ الرِّجال فِي كتابِ الله عز وجل لَأُقَاتِلَنَّك، أطلُبُ بذلك وجهَ اللهِ، واجتمعتِ الخَوَارِجُ فِي مَنْزِلِ عبدِ اللهِ بنِ وهبٍ الرَّاسِبِيِّ، فَحَمِدَ اللهَ، وأثنَىٰ عليه، ثُمَّ قالَ: مَا يَنبَغِي لقومٍ يؤمِنُون بالرَّحمن، ويُنسَبُون إلَىٰ حكمِ القُرآنِ، أن تكونَ هَذِهِ الدُّنيا الَّتي إيثارُها عناءٌ آثَرَ عِندَهُ مِنَ الأمرِ بالمَعْروف، والنَّهي عن المنكرِ، والقولِ بالحقِّ، فَاخْرُجُوا بنا.

فكتب إليهم عليُّ بن أبِي طالبٍ كرَّم الله وجهه: أمَّا بعد، فإنَّ هذين الرَّجلين اللَّذين ارتُضِيَا حَكَمَيْن، قَد خَالَفَا كتابَ الله، واتَّبَعَا أهواءَهُما، ونَحن عَلَىٰ الأمرِ الأوَّلِ، فَكَتَبُوا إليه: إنَّك لَمْ تغضبْ لربِّك، إنَّما غَضِبْتَ لنفسِك، فإنْ شَهِدتَ عَلَىٰ نفسِكَ بالكُفرِ، واستقبَلتَ التَّوبةَ، نَظَرْنَا فيمَا بيننا وبينك، وإلَّا فقد نَابَذنَاكَ عَلَىٰ سواءٍ، والسَّلام.

ولَقِيَ الخوارجُ فِي طَرِيقِهِم عبدَ الله بنَ خبَّابٍ، فقالُوا: هَل سَمِعتَ من أبيك حديثًا يُحدِّثه عن رسول الله ﷺ تُحدِّثناه؟ قال: نعم. سمعتُ أبي يحدِّثُ عن رسول الله ﷺ: «أنَّه ذَكَرَ فتنةً، القَاعِدُ فيها خيرٌ من القَائِمِ، والقَائِمُ فيهَا خيرٌ مِنَ المَاشِي، والمَاشِي فيها خيرٌ من

السَّاعي، فإنْ أدركتَ ذلك، فكُنْ عَبدَ اللهِ المقتولَ»[١].

قالوا: أنت سمعتَ هَذَا مِن أبيكَ يُحدِّثه عَنْ رَسُولِ الله؟ قال: نعم، فقدَّموه إِلَىٰ شفيرِ النَّهر، فضربوا عُنُقَه، فسَالَ دمُهُ، كأنَّه شِرَاكُ نعلٍ، وبَقَرُوا بطن أمِّ ولدِهِ عمَّا فِي بطنِهَا، وكانَتْ حُبْلَىٰ، ونزلُوا تَحتَ نخل مواقير بنهروان، فسَقطتْ رُطَبَةٌ، فَأَخَذَهَا أحدُهم، فَقَذَفَ بِها فِي فِيهِ، فَقَال أَحدُهُمْ: أخذتَها بغير حدِّها، وبغيرِ ثمنِها؟! فلَفِظَهَا مِن فِيهِ، واختَرَطَ أحدُهُم سيفَه، فَأَخَذَ يهزُّه، فَمَرَّ به خنزيرٌ لِأهلِ الذِّمَّةِ، فَضَرَبَهُ به، يُجَرِبُهُ فيه، فَقَالُوا له: هَذَا فسادٌ فِي الأرضِ، فَلَقِيَ صَاحبَ الخِنْزير، فَأَرْضاه فِي ثَمنِهِ.

قَالَ: فَبعَثَ إليهِم عليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَخْرِجوا إلينا قاتلَ عبد الله بن خَبَّابٍ، فَقَالُوا: كُلُّنَا قَتَلَهُ، فَنَاداهم ثلاثًا، كلُّ ذلك يقُولُون هَذَا القَولَ، فَقَالَ عليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لأصحابِهِ: دونكم القوم، فمَا لَبِثُوا أن قَتَلُوهم، وكانوا وقتَ القِتَالِ يقولُ بعضُهم لبعضٍ: تَهيَّأ للقَاءِ الرَّبِّ، الرَّوَاحَ الرَّوَاحَ إِلَىٰ الجنَّة.

وخرج عَلَىٰ عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بعدهم جَماعة منهم، فبعث إليهم مَنْ قاتَلهم، ثُمَّ اجتَمَعَ عبدُ الرَّحمن بن مُلْجِم بأصحابِهِ، وذكرُوا أهلَ النَّهْروان فترَحَّموا عليهم، وقالُوا: والله، ما قَنعنَا بالبَقَاءِ فِي الدُّنيا شيءٌ بعدَ إخواننا الَّذين كانوا لا يَخَافُون فِي الله لومةَ لائمٍ، فلو أنَّا شَرَيْنَا أنفُسَنَا للهِ، والْتَمَسْنَا غيرَ هؤلاءِ الأئمَّة الضُّلَّالِ، فَثَأَرْنا بِهم إخوانَنا، وأَرَحْنَا منهم العِبَادَ.

أخبرنا مُحمَّد بن أَبِي طاهرِ البزَّازُ، نا أبو مُحمَّدٍ الجوهريُّ، نا ابن حَيويَه، نا أبو الحسن ابن معروف، نا الحسين بن الفهم، نا مُحمَّد بن سعد، عن أشياخٍ له، فَقَالوا: انتُدِبَ ثلاثةُ نفرٍ من الخَوَارج: عبدُ الرَّحمن بن مُلجِم، والبُرَكُ بن عبد الله، وعمرُو بن بكرٍ التَّميميُّ، فَاجْتَمعوا بِمكَّة، وتعاهَدُوا، وتعاقَدُوا، لَنَقْتُلن هؤلاء الثَّلاثة: عليًّا، ومعاوية، وعمرو بن

(١) أخرجه البخاري (٣٦٠١)، ومسلم (٢٨٨٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

العاص، ونُريح العبادَ منهم. قال ابن ملجم: أنا لكم بعليٍّ. وقال البرك: أنا لكم بمعاوية. وقال عمرٌو: أنا لكم بعمرٍو، فتَواثَقُوا ألَّا ينقضُ رجلٌ منهم رجلًا عن صاحبِهِ، فقدم ابن مُلجم الكُوفة، فلمَّا كانتِ اللَّيلة الَّتي عَزَمَ عَلَىٰ قتل عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فيها، خرجَ عليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لصلاةِ الصُّبح، فضَرَبَه فَأَصَابَ جبهتَه إِلَىٰ قَرْنِهِ، ووصلَ إِلَىٰ دماغِهِ، فَقَالَ عليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: لا يفوتنكُمُ الرَّجُلُ، فَأُخِذَ، فقالتْ أمُّ كُلثومٍ: يا عَدُوَّ اللهِ، قتلتَ أميرَ المؤمِنِين، فقال: ما قتلتُ إِلَّا أباكِ. قالتْ: واللهِ، إنِّي لأرجُو ألَّا يكونَ عَلَىٰ أميرِ المؤمنِينَ بأسٌ. قال: فَلِمَ تَبكِينَ إذن؟ ثُمَّ قال: واللهِ، لقد سمَّمْتُهُ شهرًا (يعنِي: سيفه)، فإن أخلَفَنِي، فأبعدَه الله وأسْحَقه.

فلمَّا ماتَ عليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أُخرِجَ ابنُ مُلجمٍ ليقتَلَ، فقطع عبد الله بن جعفر يَدَيه ورِجْلَيه، فلم يَجْزعْ، ولَمْ يتكلَّم. فكحلَ عَينَيْه بمسمارٍ محميٍّ، فلم يَجْزعْ، وجَعَلَ يقرَأ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ﴿٢﴾﴾ [العلق:١، ٢]، حتَّىٰ خَتَمَهَا وإنَّ عينَيْه لتسيلَان، فعُولِجَ عَلَىٰ قَطعِ لسانِهِ فَجَزِعَ، فقِيلَ له: لِمَ تجزع؟ فَقَال: أكره أن أكونَ فِي الدُّنيا مواتًا لا أذكُرُ الله، وكانَ رجُلًا أسمرَ فِي جبهتِهِ أثرُ السُّجود، لَعْنَةُ الله عَلَيه.

قَالَ المصنِّف: قلتُ: وَلمَّا أرادَ الحسنُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنْ يُصالحَ مُعَاوِيةَ، خَرَجَ عليه من الخَوَارج: الجرَّاحُ بن سِنَان، وقال: أشركتَ كمَا أشركَ أبوك، ثُمَّ طَعَنَهُ فِي أصل فَخِذِهِ. وما زالتِ الخوارجُ تخرجُ عَلَىٰ الأُمَراء، ولَهم مذاهبُ مُختلفةٌ، وَكَانَ أصحابُ نافع بن الأزرقِ يَقُولُون: نحن مُشْركُونَ ما دُمنَا فِي دارِ الشِّرْكِ، فإذا خَرَجْنَا، فنحنُ مُسْلِمُون. قالُوا: ومُخَالفُونَا فِي المذهب مُشرِكُونَ، ومُرْتكبُو الكَبَائِرِ مُشْرِكُون، والقاعِدُونَ عن مُوافقَتِنا فِي القتالِ كفرةٌ، وأَبَاحَ هؤلاء قتلَ النِّساءِ والصِّبيانِ مِنَ المُسلِمِينَ، وحَكَمُوا عليهم بالشِّركِ.

وَكَانَ نجدةُ بن عامرٍ الحنفيُّ من القوم، فخالفَ نافعَ بن الأزرق، وقال بتَحْريمِ دماءِ المسلمِين وأموالِهم، وَزَعَمَ أنَّ أصحابَ الذُّنُوبِ مِن مُوَافِقِيهِ يُعذَّبونَ فِي غيرِ نار جهنَّم، وأنَّ جَهنَّم لَا يُعذَّب بها إِلَّا مُخالفوه فِي مذهبِهِ.

وقال إبراهيمُ: الخوارج قومٌ كُفَّارٌ، وتحلُّ لنا مُنَاكَحَتُهم ومواريثُهم كما كان النَّاسُ فِي بدءِ الإسلامِ.

وكان بعضُهم يقولُ: لو أنَّ رجُلًا أكلَ مِن مَالِ يتيمٍ فِلْسَيْنِ، وَجَبَتْ له النَّار؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أوعَدَ عَلَىٰ ذلك النَّار.

قال المصنف: ولَهم قصصٌ تطولُ، ومذاهبُ عجيبةٌ لَهُم لَمْ أَرَ التَّطويلَ بذِكرِها، وإنَّمَا المقصودُ النَّظرُ فِي حِيَلِ إبليسَ، وتَلبِيسِه عَلَىٰ هؤلاءِ الحَمقَىٰ الَّذين عَمِلُوا بواقعاتِهم، واعتقدُوا أنَّ عليّ بن أبِي طالب -كرَّم الله وَجْهه- عَلَىٰ الخطإ، ومَنْ معه من المُهاجِرِينَ والأنصارِ عَلَىٰ الخطإ، وأنَّهم عَلَىٰ الصَّوابِ، واستحلُّوا دماءَ الأطفالِ، ولَمْ يستحلُّوا أكلَ ثمرةٍ بغيرِ ثَمَنِها، وتَعِبُوا فِي العِبَادَاتِ، وسهرُوا، وجزع بن ملجمٍ عند قطعِ لسانِهِ مِن فواتِ الذِّكرِ، واستحلَّ قتلَ عليٍّ كرَّم الله وَجْهه.

ثُمَّ شَهَرُوا السُّيُوفَ عَلَىٰ المسلِمين، ولا أعجبُ من اقتناعِ هؤلاء بعلمِهم واعتقادِهم أنَّهم أعلمُ مِن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقَدْ قال ذو الخُويصرةِ لرسول الله ﷺ: اعدلْ، فما عَدَلْتَ، وما كان إبليسُ ليهتدِي إِلَىٰ هَذِهِ المَخَازِي، نعوذُ بالله من الخذلان.

أخبرنا ابنُ الحُصَينِ، نا ابن المذهبِ، نا أبو بكر بن مالك، ثنا عبد الله بن أحمد بن حنبلٍ، ثنِي أبِي، قَالَ: قَرَأتُ عَلَىٰ عبدِ الرَّحمن بنِ مالكٍ، عن يَحيَىٰ بن سعيدٍ، عن مُحمَّدِ بن إبراهيمَ بن الحارثِ التَّيميّ، عن أبِي سَلَمَةَ بن عبدِ الرَّحمن، عن أبِي سعيدٍ الخدريِّ، قال: سَمِعتُ رسول الله ﷺ يقُولُ: «**يَخرجُ قومٌ فيكم تَحْقِرُونَ صلاتكم مع صَلَاتِهم، وصيامَكُم مع صِيَامِهِمْ، وأعمالَكُمْ مَعَ أعمالِهم، يقرؤونَ القُرآنَ لا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمرُقُونَ من الدِّينِ مُروقَ السَّهمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ**»[1]، أخرَجاه فِي «الصَّحيحَيْنِ».

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٥٨)، ومسلم (١٠٦٤).

أخبرنا سعدُ اللهِ بن عليّ، نا أبو بكر الطُّرَيْثِيثي، ثنا هبةُ الله بن الحسن الطَّبري، نا أحمد بن عبيدٍ، ثنا عليُّ بن عبد الله بن مبشِّر، ثنا أحمد بن سنان، ثنَا إسحاقُ بنُ يُوسُفَ الأزرق، عنِ الأعمشِ، عن عبدِ الله بنِ أبِي أوفَىٰ، قَالَ: سمعتُ رسول الله ﷺ يقُولُ: «الخوارجُ كلابُ أهل النَّار»(١).

قال المصنف: ومِنْ رَأْيِ الخَوَارج أنَّه لا تختصُّ الإمَامَة بشخصٍ إلَّا أنْ يَجْتمعَ فيه العِلْمُ والزُّهدُ، فإذا اجْتَمَعا، كان إمامًا، ولَوْ كان نبطيًّا، ومِنْ رَأْيِ هَؤُلَاء أحدث المعتزلةُ فِي التَّحْسين والتَّقبيح إلَىٰ العقل، وأنَّ العدلَ ما يَقْتضيه، ثُمَّ أَحْدَث القَدريَّةُ فِي زَمَن الصَّحابة، وَصَار معبدٌ الجهنيُّ وغيلانُ الدِّمشقيُّ، والجعد بن درهم إلَىٰ القَوْل بالقَدَر، ونَسَج عَلَىٰ منوال مَعْبد الجهني، واصلُ بن عطاءٍ، وَانْضَمَّ إليه عمرو بن عُبَيد، وفِي ذَلكَ الزَّمان حَدَثتْ سُنَّة المُرجئة حِينَ قَالُوا: لا يَضرُّ مع الإيمان مَعْصيةٌ، كما لا يَنْفع مع الكُفْر طاعةٌ.

ثُمَّ طَالَعت المُعْتزلةُ (مثل: أبِي الهُذيل العلَّاف، والنَّظَّام، ومَعْمر، وَالجاحظ) كُتُبَ الفَلَاسفة فِي زَمَان المَأْمون، وَاسْتَخرَجوا مِنْهَا ما خَلَطوه بأَوْضَاع الشَّرع، مثل لَفْظ: الجَوْهر، والعَرَض، والزَّمان، والمَكَان، والكَوْن، وأوَّلُ مسألةٍ أَظْهَروها القولُ بخَلْق القرآن، وَحِينَئذٍ سُمِّي هَذَا الفَصْلُ فَصْلَ عِلْمِ الكَلَام، وتَلَتْ هَذِهِ المسألةُ مَسَائل الصِّفات، مثل: العِلْمُ، والقُدْرة، والحَيَاة، والسَّمْع، والبَصَر.

فقال قوم: هِيَ معانٍ زائدةٌ عَلَىٰ الذَّات، ونَفَتها المُعْتزلةُ، وَقَالوا: عالمٌ لذاتِهِ، قادرٌ لذاتِهِ، وَكَان أبو الحَسَن الأشعريُّ عَلَىٰ مَذْهب الجُبائي، ثُمَّ انْفردَ عَنْه إلَىٰ مُثْبِتِي الصِّفات، ثُمَّ أَخَذ بَعْضُ مُثْبِتِي الصِّفات فِي اعْتقَاد التَّشْبيه، وإِثْبَات الانْتقَال فِي النُّزول، واللهُ الهادي لِمَا يَشَاء(٢).

(١) أخرجه ابن ماجه (١٧٣)، وأحمد (١٨٦٥١)، وصححه الألبانيُّ فِي «صحيح الجامع» (٣٣٤٧).

(٢) أبو الحسن الأشعري مرَّ في حياته بثلاثة أطوار: الطور الأول: انتماؤه إلىٰ المعتزلة، أي: كان معتزليًا علىٰ مذهب الجبائي المعتزلي، مكث عليه أربعين سنة. الطور الثاني: اعتناقه مذهب ابن كلاب البصري، المتوفىٰ سنة ٢٤٠هـ، =

ذكر تلبيسه عَلَىٰ الرافضة:

قال المصنف: وكَمَا لَبَّسَ إبليسُ عَلَىٰ هَؤُلَاء الخَوَارِج حتَّىٰ قَاتَلُوا عليَّ بن أبِي طالبٍ، حَمَلَ آخرينَ عَلَىٰ الغُلوِّ فِي حُبِّه، فَزادوه عَلَىٰ الحدِّ، فمِنْهُمْ مَنْ كان يَقُول: هو الإلهُ، ومِنْهُمْ مَنْ يَقُول: هو خيرٌ مِنَ الأنْبيَاء، ومِنْهُمْ مَنْ حَمَله عَلَىٰ سبِّ أبِي بكرٍ وعُمَر حتَّىٰ إنَّ بَعْضهم كفَّر أبا بكرٍ وعُمَر، إِلَىٰ غَيْر ذَلكَ من المَذَاهب السَّخيفة الَّتي يُرْغبُ عن تَضْييع الزَّمان بذِكْرِهَا، وإنَّما نُشِيرُ إِلَىٰ بَعْضها.

أَخْبَرنا عبد الرَّحمن بن مُحمَّد، نا أبو بكر أحمد بن عليّ بن ثابتٍ، قَالَ: حَدَّثَ أبو يعقوب إسحاق بن مُحمَّد النَّخعي، عن عُبَيد الله بن مُحمَّدٍ، عَنْ عائشةَ، وأبِي عُثْمان المازنِيّ، وغَيْرهما، وسمعتُ عَبْد الواحد بن عليّ بن برهان الأسدي يَقُول: إسحاق بن مُحمَّد النَّخعي الأحمر كَانَ يَقُولُ: إنَّ عليًّا هو اللهُ، تَعَالىٰ اللهُ عَنْ ذلك علوًّا كبيرًا، وبالمَدَائن جَماعةٌ من الغُلَاة يُعْرَفون بالإسحاقيَّة يُنْسَبون إليه.

قال الخطيب: ووَقَع إليَّ كتابٌ لأبِي مُحمَّد الحسن بن يَحيَىٰ النُّوبختي من تصنيفِهِ فِي الرَّدِّ عَلَىٰ الغُلَاة، وكانَ النُّوبختي هَذَا من مُتكلِّمي الشِّيعة الإماميَّة، فذَكَر أصنافَ مَقَالات الغُلَاة إِلَىٰ أَنْ قَالَ: وقَدْ كان مِمَّنْ جَرَّد الجنونَ فِي الغُلُوِّ فِي عَصْرنا: إِسْحَاق بن مُحمَّد المَعْروف بالأحمر، كَانَ يَزْعُمُ أَنَّ عليًّا هو اللهُ ﷻ. وأنَّه يَظْهر فِي كلِّ وقتٍ، فهُوَ الحَسَنُ فِي وقتٍ، وكَذَلك هُوَ الحُسَين، وهُوَ الَّذي بَعَث مُحمَّدًا ﷺ.

=

وقد صار إمامًا للأشعرية، ونسبت إليه. الطور الثالث: انتقال أبي الحسن الأشعري إلىٰ مذهب السلف، وألَّف في نصرته والدفاع عنه المؤلفات، ومنها كتابه المشهور «الإبانة في أصول الديانة»، وقَدْ لقي الله علىٰ عقيدة السلف، رحمنا الله وإياه، وغفر لنا وله، وقَدْ شهد له بالرجوع إلىٰ مذهب السلف مشاهير العلماء؛ كالحافظ ابن كثير، والحافظ الذهبي، ومحب الدين الخطيب المصري السلفي، وغيرهم. [زيد المدخلي].

قال المصنف: قلت: وقَد اعْتَقَد جَماعةٌ من الرَّافضة أنَّ أبا بكرٍ وعُمَر كَانَا كَافِرَيْنِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ارتدَّا بَعْدَ موتِ رسول الله ﷺ، ومنهم مَنْ يَقُول بالتَّبرؤ من غَيْر عليٍّ.

وقَدْ رُوِّينا أنَّ الشِّيعة طَالَبتْ زيد بن عليٍّ بالتَّبرؤ مِمَّن خَالَف عليًّا فِي إمامتِهِ، فَامْتَنَعَ من ذلك، فرَفَضوه، فسُمُّوا الرَّافضة.

ومنهم: أقوامٌ قَالُوا: الإمامةُ فِي مُوسَىٰ بن جعفرٍ، ثُمَّ فِي ابنِهِ عليٍّ، ثُمَّ إلَىٰ مُحمَّد بن عليٍّ، ثُمَّ إلَىٰ الحَسَن بن مُحمَّد العسكري، ثُمَّ إلَىٰ ابنِهِ مُحمَّدٍ، وهُوَ الإمامُ الثَّاني عَشَر، الإمام المنتظر الَّذي يَزْعُمُونَ أنَّه لَمْ يَمُتْ، وأنَّه سَيَرجع فِي آخِر الزَّمان، فيَمْلأ الأرضَ عدلًا.

وَكَانَ أبو المَنْصور العجليُّ يَقُول بِانْتظَار مُحمَّد بن عليٍّ الباقر، ويَدَّعي أنَّه خليفةٌ، وأنَّه عرج بِهِ إلَىٰ السَّماء، فَمَسَح الرَّبُّ بيدِهِ عَلَىٰ رأسِهِ، وزَعَم أنَّه الكِسْفُ السَّاقطُ من السَّماء.

ومنهم طائفة يقال لَها: الجناحيَّة، وهُمْ أَصْحَابُ عبد الله بن مُعَاوية بن عَبْد الله بن جَعْفر ذي الجَنَاحين، ويَقُولُون: إنَّ رُوحَ الإلَه دَارَتْ فِي أَصْلاب الأنبياءِ والأَوْلِيَاء إلَىٰ أن انْتهَىٰ إلَىٰ عبد الله، وأنَّه لَمْ يَمُتْ، وهُوَ المنتظرُ.

ومنهم: طائفةٌ يُقَال لَها الغُرابيَّة، يُثْبتونَ شركةَ عليٍّ فِي النُّبوَّة.

وطائفة يُقَال لَها المُفوِّضة، يَقُولون: إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ خَلَق مُحمَّدًا، ثُمَّ فَوَّض خَلْقَ العالم إلَيْه، وطائفةٌ يُقَال لَها: الذَّماميَّة، يذُمُّون جِبْريلَ، ويَقُولُونَ: كَانَ مأمورًا بالنُّزُول عَلَىٰ عليٍّ، فَنَزل عَلَىٰ مُحمَّدٍ.

ومنهم مَنْ يَقُول: إنَّ أبا بكرٍ ظَلَم فاطمةَ مِيرَاثَهَا.

وقَدْ رُوِّينا عَن السَّفَّاح أنَّه خَطَب يومًا، فَقَامَ رجلٌ من آل عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فَقَالَ: يا أميرَ المُؤمنينَ، أَعنِّي عَلَىٰ مَنْ ظَلَمنِي. قَالَ: ومَنْ ظَلَمك؟ قَالَ: أنا مِنْ أَوْلاد عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، والَّذي

ظَلَمنِي أبو بكرٍ ﷺ حين أخذ فدكَ من فاطِمَةَ. قَالَ: وَدَامَ عَلَىٰ ظُلْمكم؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: ومَنْ قَامَ بَعْده؟ قَالَ: عُمَرُ ﷺ. قَالَ: ودَامَ عَلَىٰ ظُلْمكم؟ قَالَ: نَعَمْ. ومَنْ قَامَ بَعْده؟ قَالَ: عُثْمَانُ ﷺ. قَالَ: ودَامَ عَلَىٰ ظُلْمكُمْ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: ومَنْ قَامَ بَعْده؟ فَجَعل يَلْتفتُ كَذَا وكَذَا، يَنظُرُ مكانًا يَهْربُ إليه.

قال ابن عقيل: الظَّاهرُ أنَّ مَنْ وَضَع مَذْهبَ الرَّافضة، قَصَد الطَّعنَ فِي أَصْل الدِّين والنُّبوَّة، وذلكَ أنَّ الَّذي جَاءَ به رسول الله ﷺ أمرٌ غائبٌ عنَّا، وإنَّما نَثقُ فِي ذَلكَ بنَقْل السَّلَف، وجَوْدة نَظَر النَّاظرين إلَىٰ ذَلكَ منهم، فكَأنَّنا نَظَرنا إذا نَظَر لنا مَنْ نَثقُ بدينِهِ وعقلِهِ.

فإذا قَالَ قائلٌ: إنَّهم أوَّل ما بَدَؤوا بعد موتِهِ بظُلْم أَهْل بيتِهِ فِي الخِلَافَة، وابنتِهِ فِي إِرْثِهَا، ومَا هَذَا إلَّا لسُوء اعْتقَادٍ فِي المُتوفَّىٰ، فإنَّ الاعْتقَاداتِ الصَّحيحةَ سِيَّما فِي الأَنْبيَاء تُوجِبُ حِفْظَ قَوَانينهم بَعْدهُمْ لا سيَّما فِي أَهْلِيهِمْ وذُرِّيتهمْ، فإذَا قَالت الرَّافضةُ: إنَّ القَوْمَ اسْتَحلُّوا هَذَا بَعْده، خَابَتْ آمَالُنا فِي الشَّرْع؛ لأنَّه ليس بَيْننا وبَيْنه إلَّا النَّقل عَنْهم، والثِّقة بِهم.

فإِذَا كَانَ هَذَا مَحصولَ ما حَصَل لَهُمْ بعد موتِهِ، خِبْنَا فِي المَنْقول، وَزَالت ثِقَتُنَا فِيمَا عَوَّلنا عَلَيه من اتِّباع ذوي العُقُول، ولَمْ نَأْمَنْ أنْ يكونَ القَوْمُ لَمْ يَرَوْا ما يُوجِبُ اتِّباعَهُ، فَرَاعوه مُدَّة الحَيَاة، وَانْقَلبوا عَنْ شَريعتِهِ بَعْد الوَفَاة، ولَمْ يبقَ عَلَىٰ دينِهِ إلَّا الأقلُّ من أهلِهِ، فَطَاحت الاعْتقَاداتُ، وَضَعُفت النُّفُوسُ عَنْ قَبُول الرِّوايات فِي الأصل، وهُوَ المُعْجزاتُ، فهَذَا مِنْ أَعْظَم المِحَنِ عَلَىٰ الشَّريعة.

قال المصنف: وغُلُوُّ الرَّافضة فِي حُبِّ عليٍّ ﷺ حَمَلهمْ عَلَىٰ أَنْ وَضَعوا أَحَاديثَ كثيرةً فِي فضائلِهِ، أَكْثَرها تُشِينُهُ وتُؤْذيه، وقَدْ ذكرتُ مِنْهَا جُمْلةً فِي كتاب: «المَوْضوعات».

منها: «أنَّ الشَّمسَ غَابَتْ فَفَاتت عليًّا صَلَاة العَصْر، فرُدَّتْ له الشَّمس»، وهَذَا من حَيْث النَّقل موضوعٌ، لَمْ يَرْوِهِ ثقةٌ، ومِنْ حَيْث المَعْنىٰ فإنَّ الوقتَ قَدْ فاتَ، وعَوْدُها طلوعٌ مُتجدِّدٌ، فَلَا يردُّ الوقت.

وَكَذلكَ وَضَعوا: «أنَّ فاطمةَ اغْتَسلَتْ، ثُمَّ مَاتَتْ، وأَوْصَتْ أنْ تكْتفي بذَلكَ الغُسْل»، وهَذَا مِنْ حَيْث النَّقل كذبٌ، ومِنْ حَيْثُ المَعْنىٰ قلَّةُ فهمٍ؛ لأنَّ الغسلَ عَنْ حَدَث المَوْت، فكيفَ يَصحُّ قبله، ثُمَّ لَهُمْ خرافاتٌ لا يُسْندونَها إلَىٰ مستندٍ، ولَهُمْ مَذَاهبُ فِي الفقه ابْتدَعوها، وخُرَافاتٌ تُخَالف الإجْمَاعَ.

فنقلت مِنْهَا مَسَائل من خطِّ بْن عقيلٍ. قَالَ: نَقلتُهَا من كِتَابِ المُرْتَضىٰ فيما انفَرَدَتْ به الإماميَّةُ.

منها: أنَّه لا يَجُوزُ السُّجُودُ عَلَىٰ ما ليس بأَرْضٍ، ولَا من نَبَات الأَرْض، فأمَّا الصُّوفُ، والجُلُودُ، والوبرُ، فَلَا.

وأنَّ الاسْتِجْمَارَ لا يُجْزئُ فِي البول، بَلْ فِي الغائط خَاصَّةً، وَلَا يُجْزئ مَسْحُ الرَّأس إلَّا بباقي البَلَل الَّذي فِي اليد، فإن اسْتَأنف للرَّأس بللًا مستأنفًا، لَمْ يجزه حتَّىٰ لَوْ نشفت يدُهُ من البَلَل، احتاجَ إلَىٰ استئنافِ الطَّهارة.

وَانْفَردوا بتَحْريم مَنْ زُنِيَ بِها وهي تحتَ زوجٍ أبدًا، فلَوْ طَلَّقها زَوْجُهَا، لَمْ تحلَّ للزَّانِي بِها بنكاحٍ أبدًا.

وحَرَّمُوا الكتابيَّات، وأنَّ الطَّلاقَ المُعلَّقَ عَلَىٰ شرطٍ لا يَقَع، وإنْ وُجِدَ شَرْطُهُ، وأنَّ الطَّلاقَ لا يَقَعُ إلَّا بحُضُور شَاهِدَيْنِ عَدْلينِ.

وأنَّ مَنْ نامَ عَنْ صَلَاة العشاء إلَىٰ أَنْ مَضَىٰ نصفُ اللَّيل، وَجَب عَلَيه إذا اسْتَيْقظَ القضاءُ، وأنْ يُصْبحَ صائمًا؛ كَفَّارةً لذَلكَ التَّفريط، وأنَّ المرأةَ إذا جَزَّت شَعْرها، فَعَليها الكَفَّارةُ مثل قَتْل الخَطَإ، وأنَّ مَنْ شقَّ ثوبَهُ فِي موتِ ابْنٍ له، أَوْ زَوْجةٍ فَعَليه كَفَّارةُ يمينٍ، وأنَّ مَنْ تَزوَّج امرأةً، ولَها زوجٌ وهُوَ لا يعلمُ، لَزِمَهُ الصَّدقة بخَمْسَة دَرَاهم.

وأنَّ شاربَ الخَمْر إذا حُدَّ ثانيةً، قُتِلَ فِي الثَّالثة، ويُحدُّ شاربُ الفُقَّاع كَشَارب الخَمْر،

وأنَّ قَطعَ السَّارق من أُصُول الأَصَابع، ويَبْقىٰ له الكفُّ، فإنْ سَرق مرَّةً أخرىٰ، قُطِعَتِ الرِّجْلُ اليُسْرىٰ، فإنْ سَرَق الثَّالثة، خُلِّد فِي الحبس إلَىٰ أنْ يموتَ.

وحَرَّموا السمكَ الجري، وذَبَائح أَهْل الكتاب، وَاشْتَرطوا فِي الذَّبْح استقبالَ القبلة فِي مَسَائلَ كثيرةٍ يَطُول ذِكْرُها، خَرَقوا فيها الإجْماعَ، وَسَوَّل لَهم إبليسُ وَضْعَهَا عَلَىٰ وجهٍ لَا يَسْتندُونَ فِيهِ إلَىٰ أثرٍ، وَلَا قياسٍ، بَل إلَىٰ الواقعات.

ومَقَابحُ الرَّافضة أكثرُ من أنْ تُحْصىٰ، وقَدْ حَرَّموا الصَّلَاة لكَوْنِهمْ لا يَغْسلون أَرْجُلَهمْ فِي الوُضُوء، والجَمَاعةَ؛ لطَلَبِهم إمامًا مَعْصومًا، وابْتُلوا بسبِّ الصَّحَابة.

وفِي «الصَّحيحين» عَنْ رَسُول الله -صلَّىٰ الله عَلَيه وآله وَسلَّم- قَالَ: «لا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فإنَّ أَحَدَكُمْ لَوْ أنفقَ مثلَ أُحُدٍ ذهبًا، مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلا نَصِيفَهُ»[1].

وقَدْ أخبرنا مُحمَّد بن عَبْد الملك، ويَحيَىٰ بن عليٍّ، قَالَا: أَخْبَرنا مُحمَّد بن أَحْمد بن المسلمة، نا أبو طَاهر المُخلِّص، ثنا البغويُّ، ثنا مُحمَّد بن عبَّاد المكيُّ، ثنا مُحمَّد بن طلحة المدينيُّ، عن عَبْد الرَّحمن بن سالم بن عبد الله بن عويم بن ساعدة، عَنْ أبيه، عن جَدِّه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صلَّىٰ الله عليه وآلِهِ وَسلَّم: «اللهُ اخْتَارنِي، وَاخْتَار لي أَصْحَابًا، فَجَعَل لي منهم وُزَرَاء، وأَنْصَارًا، وأَصْهَارًا، فَمَنْ سَبَّهمْ فَعَليه لعنةُ الله، والمَلَائكة، والنَّاس أَجْمَعينَ، لا يَقْبلُ الله منه يَوْمَ القِيَامَة صرفًا، وَلَا عَدْلًا»[2].

قال المصنف: والمُرَاد بـ «العَدْل»: الفَرِيضَة. والصَّرف: النَّافلة.

أخبرنا أبو البَرَكات بن عليٍّ البزَّاز، نا أبو بكر الطريثيثي، نا هبة الله بن الحَسَن الطَّبريُّ، نا عُبَيد الله بن مُحمَّد بن أحمد، نا عليُّ بن مُحمَّد بن أحمد بن يزيد الرِّياحي، ثنا أَبِي، ثنا

(١) أخرجه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١) من حديث أبي سعيدٍ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الطبرانِيُّ فِي «المعجم الأوسط» (١/ ١٤٤) من حديث ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، وحسَّنه الألبانِيُّ فِي «صحيح الجامع» (٦٢٨٥)، ولفظه: «مَنْ سبَّ أَصْحَابِي، فعليه لعنة الله، والملائكة، والناس أجْمعين».

الحَسَن بن عمارةَ، عن المنهال بن عَمْرٍو، عَنْ سُوَيد بن غفلة، قَالَ: مَرَرتُ بنفرٍ من الشِّيعة يَتَنَاولون أبا بكرٍ وعُمَر رضي الله عنهما، ويَنْتقصُونَهما، فَدَخلتُ عَلَىٰ عليِّ بن أبِي طالبٍ فقُلْتُ: يا أميرَ المُؤْمنينَ، مَرَرتُ بنفرٍ من أَصْحَابك يَذْكُرُونَ أبا بكرٍ وعُمَر رضي الله عنهما بغَيْر الَّذي هُمَا له أهلٌ، ولَوْلَا أنَّهم يَرَون أنَّك تُضمِرُ لَهما عَلَىٰ مثل ما أَعْلَنوا ما اجْتَرؤوا عَلَىٰ ذَلكَ.

قَالَ عليٌّ: أَعُوذُ بالله، أَعُوذُ بالله أنْ أُضمِرَ لَهما إلَّا الَّذي ائْتَمَنني النَّبِيُّ عليه، لَعَن الله مَنْ أَضْمَر لَهما إلَّا الحسنَ الجميلَ، أَخَوَا رَسُول الله، وَصَاحِبَاه، ووَزِيرَاه، رحمةُ الله عليهما.

ثُمَّ نَهضَ دَامِعَ العَيْنين يَبْكي قابضًا عَلَىٰ يَدي حتَّىٰ دَخَل المسجدَ، فَصَعِدَ المنبرَ، وَجَلَس عَلَيه مُتمكِّنًا قابضًا عَلَىٰ لحيتِهِ، وهُوَ يَنْظر فِيهَا، وَهِيَ بَيْضاءُ، حتَّىٰ اجْتَمَعَ لَنَا النَّاسُ، ثُمَّ قامَ فتَشهَّد بخُطْبةٍ مُوجَزةٍ بليغةٍ.

ثُمَّ قَالَ: مَا بَالُ أَقْوامٍ يَذْكُرُونَ سيِّدي قريشٍ، وأَبَوي المُسْلمينَ بِما أنا عنه مُتنزِّهٌ، ومِمَّا قَالُوه بريءٌ، وعَلَىٰ ما قَالُوه مُعَاقبٌ، أمَا والَّذي فَلَق الحبَّة، وبَرَأ النَّسمة، لا يُحبُّهُما إلَّا مؤمنٌ تقيٌّ، ولا يُبْغضهما إلَّا فاجرٌ شقيٌّ، صَحِبَا رسول الله ﷺ عَلَىٰ الصِّدْق والوَفَاء، يَأْمُرَان ويَنْهَيان، ويَغْضَبان ويُعَاقبان، فَمَا يَتجَاوَزان فِيمَا يَصْنَعان رَأْيَ رسول الله ﷺ، وَلَا كَانَ رسول الله ﷺ يَرَىٰ غير رَأْيهما، وَلَا يُحبُّ كحُبِّهما أحدًا، مَضَىٰ رسول الله ﷺ وهُوَ راضٍ عَنْهما، ومَضَيا والمُؤْمنونَ عَنْهما رَاضُونَ.

أَمَّرَهُ رسول الله ﷺ عَلَىٰ صَلَاة المُؤْمنينَ، فَصَلَّىٰ بِهم تِسْعَةَ أيَّامٍ فِي حَيَاة رسول الله ﷺ، فلَمَّا قَبضَ اللهُ نَبيَّه، وَاخْتَار له ما عنده، ولَّاهُ المؤمنون ذَلكَ، وفوَّضُوا إليه الزَّكَاة، ثُمَّ أَعْطَوه البيعةَ طَائِعِينَ غَيْر مُكْرهينَ، وأنا أوَّلُ مَنْ سنَّ له ذَلكَ من بَنِي عبد المُطَّلب، وهُوَ لذَلكَ كارهٌ، يودُّ لَوْ أنَّ منَّا أحدًا كَفَاه ذَلكَ، وكَانَ -والله- خيرُ مَنْ أبقىٰ أرْحَمه رحْمةً، وأرْأَفه رأفةً، وأسَنه ورعًا، وأقْدَمه سنًّا وإسلامًا، شَبَّههُ رسول الله ﷺ بِميكائيل رأفةً ورَحْمةً، وبإبْرَاهيم عفوًا ووقارًا، فَسَار بِسِيرَةِ رسول الله ﷺ حتَّىٰ مَضَىٰ عَلَىٰ

ذَلكَ، رَحْمة الله عَلَيه.

ثُمَّ وَلِيَ الأمرَ بَعْده عُمَرُ رضي الله عنه، وكنتُ فِيمَنْ رَضِيَ، فأقَام الأَمْرَ عَلَىٰ مِنْهَاج رسول الله ﷺ وصَاحبه، يَتْبع أثَرهما كما يَتْبع الفصيلُ أثرَ أُمِّهِ، وَكَانَ -والله- رفيقًا رحيمًا بالضُّعَفاء، ناصرًا للمَظْلومينَ عَلَىٰ الظَّالمين، لا يأخذُهُ فِي الله لَوْمَةُ لائم، وَضَرب اللهُ الحقَّ عَلَىٰ لسانِهِ، وجَعَل الصِّدْقَ مِنْ شأنِهِ حتَّىٰ إنْ كنَّا لنظنُّ أنَّ مَلَكًا ينطقُ عَلَىٰ لسانِهِ، أعزَّ الله بإسلامِهِ الإسلامَ، وجَعَل هِجْرتَهُ للدِّين قوامًا، وألْقَىٰ له فِي قُلُوب المُنَافقينَ الرَّهبة، وفِي قُلُوب المؤمنينَ المَحبَّة، شبَّهَهُ رَسُولُ الله -صلَّىٰ الله عَلَيه وآله وَسلَّم- بجبريل فظًّا غليظًا عَلَىٰ الأَعْدَاء.

فَمَنْ لكُمْ بِمِثْلِهِما، رَحْمةُ الله عَلَيهما، ورَزَقنا المُضيَّ فِي سَبِيلِهِمَا، فمَنْ أحبَّنِي فليُحبَّهما، ومَنْ لَمْ يُحبَّهُما فقَدْ أبغضنِي، وأنا منه بريءٌ، ولَوْ كنتُ تَقدَّمتُ إليكم فِي أمْرهما لَعَاقبتُ فِي هَذَا أشدَّ العُقُوبة، ألَا فمَنْ أُتِيتُ به يَقُولُ بَعْد هَذَا اليوم، فإنَّ عليه ما عَلَىٰ المُفْتري، ألَا وخيرُ هَذِهِ الأُمَّة بعد نَبيِّها: أبو بكرٍ، وعُمَر رضي الله عنهما، ثُمَّ اللهُ أَعْلَمُ بالخير أيْنَ هُوَ؟ أقولُ قَوْلِي، وأَسْتَغفرُ اللهَ لي ولَكُمْ.

أخبرنا سَعْد الله بن عليٍّ، نا الطريثيثي، نا هبة الله الطَّبريُّ، نا مُحمَّد بن عبد الرَّحمن، نا البغويُّ، ثنا سُوَيد بن سعيد، نا مُحمَّد بن خازم، عَنْ أبِي جناب الكلبيِّ، عن أبِي سُلَيمان الهمدانِي، عَنْ عليٍّ -كَرَّمَ اللهُ وَجْهه- قَالَ: يَخرجُ فِي آخِرِ الزَّمَان قومٌ لَهم نبزٌ يُقَال لَهم الرَّافضة، يَنْتحلُونَ شِيعَتنا، ولَيْسُوا من شِيعَتنا، وآيَةُ ذَلكَ أنَّهم يَشْتمونَ أبا بكرٍ وعُمَر رضي الله عنهما، أيْنَما أدْرَكتمُوهُمْ فَاقْتلُوهُمْ أشدَّ القَتْل، فإنَّهم مُشْركونَ.

ذكر تلبيس إبليس عَلَى الباطنية:

قال المصنف: الباطنيَّة قومٌ تَستَّروا بالإسْلَام، ومَالُوا إلَىٰ الرَّفض، وعَقَائدُهُمْ وأعمالُهُم تُباينُ الإسلامَ بالمرَّة، فمَحْصولُ قَوْلهم: تَعْطيلُ الصَّانع، وإبطالُ النُّبوَّة والعِبَادَات، وإِنْكَار

البَعْث، ولكنَّهمْ لا يُظهِرُونَ هَذَا فِي أوَّل أمْرِهم، بل يَزْعُمُون أنَّ الله حقٌّ، وأنَّ مُحمَّدًا رَسُولُ الله، والدِّينَ صحيحٌ، لَكنَّهمْ يَقُولُونَ: لذَلكَ سرٌّ غيرُ ظاهرٍ، وقَدْ تَلاعَب بِهم إبليسُ، فَبالَغ وحَسَّن له مَذَاهب مُخْتلفةً، ولَهُمْ ثمانيةُ أسْمَاءٍ:

الاسم الأول: الباطنية: سُمُّوا بذَلِكَ؛ لأنَّهم يَدَّعُون أنَّ لظَوَاهر القُرْآن والأحَاديث بَوَاطنَ تَجْري من الظَّواهر مَجرىٰ اللُّبِّ مِنَ القشر، وأنَّها بصُورَتِها تُوهِمُ الجُهَّال صورًا جليَّةً، وهِيَ عند العُقَلاء رُمُوزٌ وإشاراتٌ إلَىٰ حَقَائقَ خفيَّةٍ، وأنَّ مَنْ تقاعد عقلُهُ من الغَوْص عَلَىٰ الخَفَايا والأَسْرَار والبَوَاطن والأغْوَار، وَقَنَع بظَوَاهرها، كَانَتْ تَحْتَ الأغْلَال الَّتي هي تكليفاتُ الشَّرْع، ومَن ارْتَقَىٰ إلَىٰ عِلْمِ البَاطن، انْحَطَّ عَنْه التَّكليفُ، وَاسْتَراح من أعبائِهِ.

قالوا: وهُمُ المُرَادون بقولِهِ تَعَالىٰ: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف:١٥٧]، ومُرَادُهم أنْ يَنْزعوا من العَقَائد مُوجِبَ الظَّواهر ليَقْدرُوا بالتَّحَكُّم بدَعْوىٰ الباطل عَلَىٰ إبْطَال الشَّرائع.

الاسم الثاني: الإسماعيليَّة: نُسِبُوا إلَىٰ زعيمٍ لَهُمْ، يُقَال له: مُحمَّد بن إسماعيل بن جَعْفرٍ، ويَزعمون أنَّ دَوْرَ الإمامة انْتهَىٰ إليه؛ لأنَّه سابعٌ، وَاحْتجُّوا بأنَّ السَّماوات سبعٌ، والأَرَضين سبعٌ، وأيَّام الأسبوع سبعةٌ، فدلَّ عَلَىٰ أنَّ دَوْرَ الأئمَّة يتمُّ بسبعةٍ، وعَلَىٰ هَذَا فيما يَتعلَّق بالمَنْصور، فيَقُولُون: العبَّاس، ثُمَّ ابنه عَبْد الله، ثُمَّ ابنه عليٌّ، ثُمَّ ابنُهُ مُحمَّد بن عليٍّ، ثُمَّ إبراهيم، ثُمَّ السَّفَّاح، ثُمَّ المَنْصور.

وذكر أبو جعفر الطَّبريُّ فِي «تاريخِهِ» قال: قال عليُّ بن مُحمَّد، عن أبيه: إنَّ رجلًا من الرَّاوندية كان يُقَال له: الأبلق، وكان أبرص، فتَكَلَّمَ بالغُلُوِّ، وَدَعا الرَّاونديَّة إليه، وزَعَم أنَّ الرُّوحَ الَّتي كانت فِي عيسىٰ ابن مَرْيَمَ صارت إلَىٰ عليِّ بن أبِي طالبٍ -كرَّم الله وَجْهَهُ، ثُمَّ فِي الأئمَّة واحدًا بَعْدَ واحدٍ إلَىٰ أنْ صَارَتْ إلَىٰ إبراهيم بن مُحمَّد، وَاسْتَحلُّوا الحُرُماتِ، فَكَان الرَّجُلُ منهم يَدْعو الجَمَاعةَ إلَىٰ مَنْزلِهِ، فيُطْعمهم ويَسْقيهم، ويَحْملهم عَلَىٰ امرأتِهِ،

فَبَلغ ذَلكَ أَسَد بن عبد الله، فَقَتلهُمْ، وَصَلبهُمْ، فلَمْ يَزَلْ ذَلكَ فيهم إلَىٰ اليَوْم، وَعَبدوا أبا جعفرٍ، وَصَعدوا الخَضْراء، وألْقوا نفوسهم كَأَنَّهمْ يَطيرُونَ، فَلَا يَبْلغونَ الأرضَ إلَّا وَقَدْ هَلَكُوا، وخَرَج جَمَاعتُهُمْ عَلَىٰ النَّاس فِي السِّلاح، وأقْبَلوا يَصيحُونَ: يا أبا جعفرٍ، أَنْتَ أَنْتَ.

الاسم الثالث: السبعيَّة: لُقِّبُوا بذَلكَ لأمْرين:

أحدُهما: اعْتقَادُهُمْ أنَّ دَوْرَ الإمامة سبعةٌ سبعةٌ عَلَىٰ ما بيَّنَّا، وأنَّ الانتهاءَ إلَىٰ السَّابع هُوَ آخرُ الأَدْوَار، وهُوَ المُرَاد بالقيامة، وأَنَّ تَعاقُبَ هَذِهِ الأَدْوَار لا آخرَ له.

والثاني: لقَوْلِهم: إنَّ تَدْبيرَ العالم السفلي مَنُوطٌ بالكَوَاكب السَّبعة: زُحل، ثُمَّ المشتري، ثُمَّ المرِّيخ، ثُمَّ الزهرة، ثُمَّ الشَّمس، ثُمَّ عُطَارد، ثُمَّ القَمَر.

الاسم الرابع: البابكيَّة: قال المصنف: وهُوَ اسمٌ لطائفةٍ مِنْهم تَبِعُوا رجلًا يُقَال لَهُ: بابكُ الخُرَّمِيُّ، وَكَانَ من الباطنيَّة، وأصلُهُ أنَّه وَلَدُ زِنًا، فظَهَر فِي بَعْض الجبال بنَاحِيَةِ أذربيجان سَنَةَ إحدىٰ وَمِئتَيْنِ، وَتَبعَهُ خَلْقٌ كثيرٌ، وَاسْتَفْحَل أمْرهم، وَاسْتَباح المَحْظورات، وَكَانَ إذا عَلِمَ أنَّ عند أحدٍ بنتًا جميلةً، أَوْ أختًا جميلةً، طَلَبها، فإنْ بَعَثها إليه، وإلَّا قَتلَه وأَخذها، ومَكَث عَلَىٰ هَذَا عشرين سنةً، فَقَتل ثمانين ألفًا، وَقِيلَ: خمسةً وخَمْسينَ ألفًا وخَمْس مئة إنسانٍ، وحَارَبه السُّلطانُ، وَهَزم خلقًا من الجُيُوش حتَّىٰ بَعَث المعتصم الأفشين فحَارَبه، فَجَاء ببابك وأخيه فِي سنة ثَلَاثٍ وعِشْرينَ ومئتين، فلَمَّا دَخَلا، قال لبابك أخوه: يا بابكُ، قَدْ علمتَ مَا لَمْ يَعْلمه أحدٌ، فَاصْبِرِ الآن صبرًا لَمْ يَصْبره أحدٌ، فَقَال: سَتَرىٰ صَبْري. فأمَر المُعْتصمُ بقَطْع يَدَيه ورِجْلَيْه، فلَمَّا قَطَعوا، مَسَحَ بالدَّم وَجْهه.

فَقَالَ المعتصم: أنتَ فِي الشَّجَاعة كَذَا وكَذَا، ما بَالُكَ قَدْ مَسَحت وَجْهكَ بالدَّم، أجَزعًا من المَوْت؟ فَقَالَ: لا، ولكنِّي لمَّا قطعتَ أَطْرَافي، نزفَ الدَّمُ، فخِفْتُ أنْ يُقَال عنِّي: إنَّه اصفرَّ وجهُهُ جزعًا من المَوْت. قال: فيظنُّ ذَلكَ بِي، فَسَترتُ وَجْهي بالدَّم كَيْلَا يُرَىٰ ذلك منِّي، ثُمَّ بعد ذَلكَ ضُرِبَتْ عنقُهُ، وأُضْرِمَتْ عَلَيه النَّار، وفُعِلَ مثل ذَلكَ بأخيه، فَمَا فِيهِمَا مَنْ صاح،

وَلَا تأوّه، ولا أَظْهر جزعًا، لَعَنهما الله.

وقَدْ بَقِيَ من البابكيَّة جَمَاعةٌ، يُقَال إنَّ لَهم ليلةً فِي السَّنَة تَجْتَمع فيها رِجَالُهُم ونِسَاؤهُم، ويُطْفئونَ السُّرُجَ، ثُمَّ يَتنَاهضونَ للنِّساءِ، فيثبُ كلُّ رجلٍ منهم إِلَىٰ امرأةٍ، ويَزْعُمُونَ أنَّ من احْتَوَىٰ عَلَىٰ امرأةٍ يَسْتحلُّها بالاصطياد؛ لأنَّ الصَّيد مباحٌ.

الاسم الخامس: المُحمِّرةُ: قَالَ المُصنِّف: سُمُّوا بذَلكَ؛ لأنَّهم صَبَغوا ثِيَابَهمْ بالحُمْرة فِي أيَّام بابك، وَلَبِسُوهَا.

الاسم السادس: القرامطة: قال المصنف: وللمُؤرِّخينَ فِي سَبَب تَسْميتهم بِهَذَا قَوْلانِ:

أحدهُما: أنَّ رجلًا من ناحية خوزستان قَدِمَ سواد الكوفة، فأظْهَر الزُّهْدَ، ودَعَا إِلَىٰ إمامٍ من أهْل بَيْت الرَّسُول ﷺ، ونَزلَ عَلَىٰ رجلٍ يُقَال له: كرميتة، لُقِّب بِهَذَا لحُمْرَة عَيْنيه، وهُوَ بالنَّبطيَّة حادُّ العين، فأخَذَه أمير تلك النَّاحية، فَحَبسَه، وتَركَ مِفْتَاح البيت تَحْتَ رأسِهِ، وَنَامَ، فَرقَّتْ له جاريةٌ، فأخَذت المفتاح، فَفَتحت البيتَ، وأخْرَجته، وَرَدَّت المفتاح إِلَىٰ مكانِهِ، فلَمَّا طُلِبَ، فلَمْ يُوجَد، زَادَ افْتتَانُ النَّاس بِهِ، فَخَرج إِلَىٰ الشَّام، فَسُمِّي: كرميتة باسم الَّذي كَانَ نازلًا عَلَيه، ثُمَّ خُفِّفَ فَقِيلَ: قرمط، ثُمَّ تَوَارث مَكَانه أهْله وأوْلَاده.

والثانِي: أنَّ القومَ لُقِّبُوا بِهَذِهِ نسبةً إِلَىٰ رجلٍ يُقَال له: حمدان قرمط، كَانَ أحَد دُعَاتِهم فِي الابتداء، فَاسْتَجَاب له جَماعةٌ، فَسُمُّوا قرامطة وقرمطية، وكَانَ هَذَا الرَّجلُ من أهْل الكُوفَة، وَكَانَ يميلُ إِلَىٰ الزُّهْد، فَصَادفه أحدُ دُعَاة الباطنيَّة فِي فريقٍ، وهُوَ مُتوجِّهٌ إِلَىٰ قريةٍ وبَيْنَ يَدَيه بقرٌ يَسُوقُهَا، فَقَال حمدان لذَلكَ الرَّاعي، وهُوَ لا يعرفُهُ: أيْنَ مَقْصدُكَ؟

فذَكَر قرية حمدان، فَقَال له: ارْكَبْ بقرةً من هَذِهِ؛ لئلَّا تتعبَ، فَقَال: إنِّي لَمْ أُومَر بذَلكَ، فَقَال: وكأنَّك لا تَعْملُ إلَّا بأمرٍ. قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: وبأمرِ مَنْ تَعْملُ؟ قَالَ: بأمْر مَالِكي، ومالك الدُّنيا والآخرة.

فَقَال: ذَلِكَ -إذًا- هُوَ الله ربُّ العَالَمين. فَقَال: صَدَقْتَ. قَالَ له: فَمَا غَرَضك فِي هَذِهِ القرية الَّتي تَقْصدُها؟ قَالَ: أُمِرْتُ أَنْ أدعو أَهْلَها من الجَهْل إِلَىٰ العِلْمِ، ومن الضَّلال إِلَىٰ الهُدَىٰ، ومِنَ الشَّقاء إِلَىٰ السَّعَادة، وأَن أَسْتَنقذَهُمْ من وَرَطات الذُّلِّ والفَقْر، وأُمَلِّكَهم ما يَسْتغنُونَ به عن الكدِّ.

فَقَال له حمدان: أَنقذنِي أَنقذَكَ الله، وأَفِضْ عليَّ من العِلْمِ مَا تُحْيِينِي بِهِ، فَمَا أشدَّ احْتيَاجي إِلَىٰ مِثْلِ هَذَا. قَالَ: ما أُمرتُ أَلَّا أُخْرجَ السِّرَّ المخزون إِلَىٰ كلِّ أحدٍ إِلَّا بَعْد الثِّقة به، والعَهْد إليه.

فَقَال: اذكُرْ عَهْدَك، فإِنِّي مُلْتزمٌ به. فَقَال له: أَنْ تَجْعلَ لي وللإمام عَلَىٰ نَفْسك عَهْد الله، وَمِيثَاقه أَلَّا تُخْرجَ سِرَّ الإمام الَّذي أُلْقيه إليك، وَلَا تُفْشِ سِرِّي أيضًا، فَالْتزَمَ حمدان عَهْدَه، ثُمَّ انْدفعَ الدَّاعي فِي تَعليمِهِ فُنُون جهلِهِ حتَّىٰ اسْتَغْواه فَاسْتَجَاب له، ثُمَّ انتدبَ للدُّعاء، وَصَارَ أصلًا من أُصُول هَذِهِ البدعة، فسُمِّي أتباعهُ القَرَامطة والقرمطيَّة.

ثُمَّ لم يزل بنوه وأَهْله يَتوَارثون مَكَانه، وَكَانَ أَشدَّهم بأسًا رجلٌ يُقَال له: أبو سعيدٍ، ظَهَر فِي سنةِ ستٍّ وثَمَانين ومِئتَين، وقَوِيَ أمرُهُ، وقتل ما لا يُحْصي من المُسْلمينَ، وخَرَّب المَسَاجدَ، وأَحْرقَ المَصَاحفَ، وفَتكَ بالحاج، وسَنَّ لأهلِهِ وأصحابِهِ سننًا، وأَخْبَرهُمْ بِمُحَالاتٍ، وَكَانَ إذا قَاتَل يَقُولُ: وُعِدْتُ النَّصر فِي هَذِهِ السَّاعة. فلمَّا ماتَ، بَنَوْا عَلَىٰ قَبْره قُبَّةً، وجَعَلوا عَلَىٰ رَأْسها طائرًا من جصٍّ.

وَقَالُوا: إذا طارَ هَذَا الطَّائر، خَرَج أبو سعيدٍ من قَبْره، وجَعَلوا عند القبر فرسًا، وخلعة ثيابٍ، وسلاحًا، وقَدْ سَوَّل إبليسُ لِهَذِهِ الجَمَاعة أنَّه مَنْ ماتَ وعَلَىٰ قَبْره فرسٌ، حُشِرَ راكبًا، وإِنْ لَمْ يكنْ له فرسٌ، حُشِرَ ماشيًا.

وَكَانَ أَصْحَابُ أَبِي سعيدٍ يُصلُّونَ عَلَيه إذا ذَكَروه، وَلَا يُصلُّونَ عَلَىٰ رسول الله ﷺ، فإِذَا سَمِعُوا مَنْ يُصلِّي عَلَىٰ رسول الله ﷺ يَقُولُون: أتأكلُ رِزْقَ أَبِي سعيدٍ، وتُصلِّي عَلَىٰ أَبِي القاسم.

وَخلَّف بعده ابْنَهُ أبا طاهرٍ، فَفَعل مِثْل فعلِهِ، وهَجَم عَلَىٰ الكعبة، فأخَذ ما فيها من الذَّخائر، وقَلَع الحجرَ الأَسْودَ، فحَمَله إِلَىٰ بلدِهِ، وأَوْهَمَ النَّاسَ أنَّه الله عَزَّوَجَلَّ.

الاسم السابع: الخُرَّميةُ: لفظٌ أعجميٌّ يُنْبي عن الشَّيء المُسْتلذِّ المُسْتطاب الَّذي يَرْتاحُ الإنسانُ له.

ومَقْصُودُ هَذَا الاسم: تَسْليطُ النَّاس عَلَىٰ اتِّباع اللَّذَّات، وطَلَبُ الشَّهوات كَيْفَ كانت، وطيُّ بِسَاط التَّكْليف، وحطُّ أعْبَاء الشَّرع عن العباد.

وقَدْ كان هَذَا الاسمُ لقبًا للمزدكيَّة، وهُمْ أَهْل الإباحة مِنَ المَجُوس الَّذين شَنَّعوا فِي أيَّام قُبَاذَ، وأَبَاحوا النِّساء المُحرَّمات، وأحَلُّوا كلَّ محظورٍ، فَسموا هؤلاء بِهَذَا الاسم لمُشَابهتهم إيَّاهُمْ فِي نهاية هَذَا المَذْهب، وإِنْ خَالَفُوهُمْ فِي مُقدِّماتِهِ.

الاسم الثامن: التعليمية: لُقِّبوا بذَلكَ؛ لأنَّ مبدأ مَذْهبِهِمْ إِبْطَالُ الرَّأي، وإِفْسَادُ تَصرُّف العُقُول، ودُعَاء الخَلْق إِلَىٰ التَّعليم من الإِمَام المَعْصوم، وأنَّه لا يُدْرك العُلُوم إلَّا بالتَّعليم.

فصل [ذكر طرق إضلال الباطنية لغيرهم]

قال المصنف: اعْلَمْ أنَّ القومَ أَرَادُوا الانسِلَالَ من الدِّين، فَشَاوروا جَماعَةً من المَجُوس، والمزدكية، والثَّنويَّة، وملحدة الفَلَاسفة فِي اسْتِنْبَاط تَدْبيرٍ يُخفِّفُ عَنْهم ما نَابَهم من اسْتِيلَاءِ أَهْل الدِّين عَلَيهم حتَّىٰ أخْرَسوهم عَن النُّطق بِمَا يَعْتقدُونَهُ من إِنْكَار الصَّانع، وتَكْذيب الرُّسُل، وجَحْد البَعْث، وزَعْمهم أنَّ الأنبياءَ مُمَخْرِقُونَ ومُنَمسُونَ.

وَرَأوْا أمْرَ مُحمَّدٍ ﷺ قد اسْتطَار فِي الأَقْطَار، وأنَّهم قَدْ عَجزوا عن مُقَاومتِهِ، فَقَالوا: سبيلنا أَنْ نَنْتحلَ عقيدةَ طائفةٍ من فِرَقِهِمْ أركِّهم عقلًا، وأحْمَقهم رأيًا، وأقْبَلهم للمُحَالات، والتَّصديق بالأكَاذيب: وهُم الرَّوافضُ، فَنتحَصَّنُ بالانْتسَاب إليهم، ونَتودَّد إليهم بالحُزْن عَلَىٰ ما جَرَىٰ عَلَىٰ آل مُحمَّدٍ من الظُّلْم والذُّلِّ؛ ليُمَكِّننا شَتْمُ القُدَماء الَّذين نَقَلوا إليهم

الشَّريعة، فإذَا هَانَ أُولَئك عِنْدهُمْ لَمْ يَلْتفتوا إلَىٰ ما نَقَلوا، فأمْكَن اسْتِدْراجُهُمْ إلَىٰ الانْخِدَاعِ عن الدِّين، فإنْ بَقِيَ منهم مُعْتصمٌ بظَوَاهر القُرْآن والأَخْبَار، أوهمناه أنَّ تلكَ الظَّواهر لَها أسرارٌ وبَوَاطنُ، وأنَّ المُنْخدعَ بظَوَاهرها أحمقُ، وإنَّما الفطنةُ فِي اعْتقَاد بَوَاطنها، ثُمَّ نَبُثُّ إلَيْهم عقَائدنا، ونَزْعُمُ أنَّها المُرَادُ بظَوَاهرها عندكم، فإذا تكثَّرنا بِهؤلاء، سَهُل عَلَينا استدراجُ بَاقِي الفِرَقِ.

ثُمَّ قَالُوا: وَطَرِيقنا أنْ نختارَ رجلًا مِمَّن يُسَاعدُ عَلَىٰ المَذْهب، ويزعُمُ أنَّه من أهْل البيت، وأنَّه يجبُ عَلَىٰ كلِّ الخَلْق كافَّة متابعتُهُ، ويَتعيَّنُ عَلَيهمْ طاعتُهُ؛ لكونِهِ خليفةَ رسول الله ﷺ والمَعْصومَ من الخَطَإ والزَّلَل من جِهَةِ الله عَزَّوَجَلَّ، ثُمَّ لا تظهر هَذِهِ الدَّعْوة عن القُرْب من جِوَارِ هَذا الخَلِيفَةِ الَّذي وَسَمْنَاه بالعِصْمَة، فإنَّ قُرْبَ الدَّار يَهْتكُ الأستارَ.

وَإذَا بَعُدَتِ الشُّقَّةُ، وَطَالت المسافةُ، فمَتَىٰ يقدر المُسْتجيبُ للدَّعوة أنْ يُفتِّشَ عَنْ حال الإمام، أوْ يَطَّلع عَلَىٰ حقيقة أمْره، وقَصْدهم بِهَذَا كلِّه المُلكُ، والاستيلاءُ عَلَىٰ أمْوَال النَّاس، والانتقام منهم لِمَا عَامَلُوهُمْ به من سَفْك دِمَائهمْ، ونَهْب أمْوَالِهم قديمًا، فهَذَا غايةُ مَقْصودهم، ومَبْدأُ أمْرهِمْ.

فصل [حيل الباطنية في استذلال الناس]

قال المصنف: وللقَوْمِ حيلٌ فِي اسْتِذْلَال النَّاس، فهُمْ يُمَيِّزونَ مَنْ يَجُوز أنْ يُطْمع فِي استدراجِهِ مِمَّن لا يُطمع فيه، فإذَا طَمِعُوا فِي شخصٍ، نَظَروا فِي طبعِهِ، فإذا كَانَ مائلًا إلَىٰ الزُّهد، دَعَوْه إلَىٰ الأَمَانة، والصِّدق، وتَرْكِ الشَّهَوات، وإنْ كان مائلًا إلَىٰ الخَلَاعة، قَرَّروا فِي نفسِهِ أنَّ العبادةَ بَلَهٌ، وأنَّ الورعَ حَمَاقةٌ، وإنَّما الفطنةُ فِي اتِّباع اللَّذَّات من هَذِهِ الدُّنيا الفانية.

وَيثبتون عند كلِّ ذي مذهبٍ ما يليقُ بِمَذْهبِهِ، ثُمَّ يُشكِّكُونَهُ فيما يَعْتقدُهُ، فيَسْتجيب لَهُمْ: إمَّا رجلٌ أبْلَه، أو رجلٌ من أبْنَاء الأكَاسرة، وأوْلَاد المَجُوس، مِمَّنْ قَد انْقطَعَتْ دَوْلَةُ أسلافِهِ

بدَوْلة الإسلام، أَوْ رجلٌ يَميلُ إِلَىٰ الاستيلاء، وَلَا يُسَاعدُهُ الزَّمان فيَعدُونه بنَيْل آمالِهِ، أو شخصٌ يُحبُّ التَّرفُّعَ عن مَقَامات العوامِّ، ويرُومُ بزعمِهِ الاطِّلاع عَلَىٰ الحَقَائق، أو رافضيٌّ يَتديَّن بسبِّ الصَّحابة ﷺ أو مُلْحدٌ من الفَلَاسفة، والثَّنويَّة، والمُتحيِّرين فِي الدِّين، أو مَنْ غَلَب عليه حُبُّ اللَّذَّات، وثَقُلَ عَلَيه التَّكْليفُ.

فصل [عقائد الباطنية مباينة للإسلام]

قال أبو حامد الطُّوسي: الباطنيَّةُ قومٌ يَدَّعُونَ الإسلامَ، ويَميلُونَ إِلَىٰ الرَّفض، وعَقَائدهُمْ وأَعْمالُهُمْ تُبَاينُ الإسلامَ؛ فمِنْ مَذْهبِهِمْ: القَوْلُ بإِلَهَيْن قَدِيمَيْنِ لَا أوَّلَ لوُجُودهما مِنْ حَيْثُ الزَّمان إلَّا أَنَّ أَحَدهُما علَّةٌ لوُجُود الثَّانِي.

قالوا: والسَّابقُ لا يُوصَفُ بوُجُودٍ، ولا عدمٍ، ولا هُوَ موجودٌ ولَا هو مَعْدومٌ، ولا هو معلومٌ، ولا مَجهولٌ، ولا هو مَوْصوفٌ، ولا غير موصوفٍ، وحَدَّث عن السَّابق الثَّانِي، وهُوَ أوَّل مبدعٍ، ثُمَّ حديث النَّفس الكُلِّيَّة.

وعِنْدَهُمْ أنَّ النَّبيَّ ﷺ عبارةٌ عَنْ شخصٍ فَاضَتْ عَلَيه من السَّابق بِوَاسِطَةِ الثَّانِي قُوَّةٌ قدُسيَّةٌ صافيةٌ، وزَعَموا أَنَّ جبريلَ ﵇ عبارةٌ عن العَقْل الفائض عَلَيه، لا أنَّه شخصٌ.

واتَّفَقوا عَلَىٰ أنَّه لا بدَّ لكلِّ عصرٍ من إمامٍ مَعْصومٍ قائمٍ بالحقِّ، يُرْجَع إليه فِي تَأْويل الظَّواهر، مُسَاوٍ للنَّبِيِّ ﷺ فِي العِصْمَةِ، وأَنْكَروا المَعَاد، وَقَالوا: مَعْنىٰ المَعَاد عَوْدُ الشَّيء إِلَىٰ أصلِهِ، وتَعُود النَّفس إِلَىٰ أَصْلها.

وأمَّا التَّكليفُ؛ فالمنقولُ عَلَيهم الإباحةُ المطلقةُ، واسْتبَاحَة المَحْظُورات، وقَدْ يُنكِرون هَذَا إذا حُكِيَ عنهم، وإِنَّما يُقرُّون بأنَّه لا بدَّ للإنسَان من التَّكْليف، فإِذَا اطَّلعَ عَلَىٰ بَوَاطن الظَّوَاهر، ارْتَفَعت التَّكَاليفُ.

ولَمَّا عَجَزُوا عَنْ صَرْف النَّاس عَن القُرْآن والسُّنَّة، صَرَفُوهمْ عَن المُرَاد بِهِمَا إِلَىٰ

مَخَاريق زَخْرَفوها، إِذْ لَوْ صَرَّحوا بالنَّفْي المحض لَقُتِلُوا، فَقَالوا:

معنىٰ الجنابة: مُبَادرة المُسْتجيب بإِفْشَاء السِّرِّ.

ومعنىٰ الغسل: تَجْديدُ العَهْد عَلَىٰ مَنْ فَعَل ذلك.

ومعنىٰ الزنا: إِلْقَاء نُطْفَة العلم الباطن فِي نَفْس مَنْ لَمْ يسبق مَعَه عَقْدُ العهد.

والصِّيام: الإمساكُ عن كَشْف السِّرِّ.

والكعبة: هي النَّبِيُّ.

والباب: عليٌّ.

والطوفان: طوفان العِلْمِ أُغْرِقَ به المُتمسِّكونَ بالشُّبْهة والظَّوَاهر.

والسفينة: الحِرْزُ الَّذي يُحصِّنُ بِهِ من اسْتَجَاب لدعوتِهِ.

ونار إبراهيم: عبارةٌ عن غَضَب نَمرود، لا عَنْ نارٍ حقيقيَّةٍ.

وذبح إسحاق معناه: أَخْذُهُ العَهْدَ عليه.

وعصا موسىٰ: حُجَّتُهُ.

ويأجوج ومأجوج: هُمْ أَهْل الظَّاهر.

وذكر غيره أَنَّهم يقولون: إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لَمَّا أَوْجَد الأرواحَ، ظَهَر لَهم فيما بَيْنهم كلهُم، فلَمْ يَشُكُّوا أَنَّه واحدٌ منهم، فَعَرفوهُ، فأَوَّلُ مَنْ عَرَفهُ سَلْمانُ الفارسيُّ، والمِقْدَادُ، وأبو ذرٍّ، وأَوَّلُ المُنْكرينَ الَّذي يُسمَّىٰ إبليس: عُمَر بن الخَطَّاب، فِي خُرَافاتٍ يَنْبَغي أَنْ يُصَانَ الوَقْتُ العزيزُ عَن التَّضْييع بذِكْرِهَا.

ومثل هَؤُلَاء لَمْ يَتمسَّكوا بشُبْهةٍ، فَتكُون مَعَهمْ مناظرةٌ، وإِنَّما اخْتَرعوا بوَاقِعَاتِهم ما أَرَادوا، فإِن اتَّفقَتْ مُنَاظرةٌ لأَحَدهمْ فَلْيقل له: أَعَرفتُمْ هَذِهِ الأشياءَ الَّتي تَذْكرونَها عَنْ ضرورةٍ، أَوْ عَنْ نظرٍ، أَوْ عن نَقْلٍ عن الإِمَام المَعْصوم؟

فإن قلتم: ضَرُورَة، فكَيْفَ خَالفكُمْ ذَوُو العُقُول السَّليمة، ولَو ساغ للإنْسَان أنْ يَهْذي بدَعْوىٰ الضَّرُورَة فِي كلِّ ما يَهْواه، جَازَ لخصمِهِ دَعْوىٰ الضَّرُورة فِي نَقْض ما ادَّعَاهُ، وإِنْ قلتم بالنَّظَر، فالنَّظرُ عندكم باطلٌ؛ لأنَّه تصرُّفٌ بالعَقْل، وَقَضَايا العُقُول عندكم لا يُوثَقُ بِها.

وإن قلتم: عَنْ إمامٍ مَعْصومٍ.

قلنا: فَمَا الَّذي دَعَاكمْ إلَىٰ قَبُول قولِهِ بلا معجزةٍ، وتَرْك قَوْل مُحمَّدٍ ﷺ مَعَ المُعْجزاتِ، ثُمَّ ما يُؤمِّنكمْ أنْ يكونَ ما سَمِعَ من الإمَامِ المَعْصوم لَهُ باطنٌ غَيْر ظاهرٍ.

ثُمَّ يقال لَهم: هَذِهِ البواطنُ والتَّأْويلاتُ، يَجبُ إِخْفَاؤها أمْ إِظْهَارُهَا؟

فإن قالوا: يَجب إظهارها قلنا: فَلِمَ كَتمَها مُحمَّدٌ ﷺ؟

وإِنْ قالوا: يَجبُ إِخْفَاؤها.

قلنا: مَا وَجَب عَلَىٰ الرَّسُول إِخفَاؤُهُ كَيْفَ حلَّ لَكُمْ إِفْشَاؤهُ؟

قال ابن عقيل: هَلَكَ الإسلامُ بَيْنَ طَائِفَتَيْنِ: بَيْن الباطنيَّة والظَّاهريَّة.

فأمَّا أَهْلُ البَوَاطن، فإنَّهم عَطَّلوا ظَوَاهر الشَّرْع بِما ادَّعوه من تَفَاسيرهم الَّتي لا بُرْهانَ لَهم عَلَيها، حتَّىٰ لَمْ يبقَ فِي الشَّرْعِ شيءٌ إلَّا وَقَدْ وَضَعوا وَرَاءه مَعْنًىٰ، حتَّىٰ أَسْقَطوا إيجابَ الواجب، والنَّهْي عن المنهيِّ.

وأمَّا أَهْلُ الظَّاهر، فإنَّهم أَخَذوا بكلِّ مَا ظَهَر مِمَّا لا بدَّ من تأويلِهِ، فحَمَلوا الأَسْمَاءَ والصِّفات عَلَىٰ ما عَقلُوه، والحقُّ بَيْنَ المَنْزلتين، وهُوَ أَنْ نأخذَ بالظَّاهر، ما لَمْ يَصْرفنا عنه دليلٌ، ونَرْفض كلَّ باطنٍ، لا يَشْهدُ به دليلٌ من أدلَّة الشَّرع.

قال المصنف: ولَوْ لقيت مُقدَّم هَذِهِ الطَّائفة المَعْروفة بالباطنيَّة، لَمْ أَكُنْ سالكًا مَعَه طريقَ العِلْمِ، بَل التَّوبيخ والازْدِرَاء عَلَىٰ عقلِهِ وعُقُول أتباعِهِ، بأَنْ أقولَ: إنَّ للآمال طُرُقًا تُسْلَكُ، ووُجُوهًا تُوصلُ، ووَضْعُ الأمل فِي وَجْه اليأس حُمْقٌ.

ومعلومٌ أنَّ هَذِهِ الملل الَّتي قَدْ طبقت الأرض أقربُها شريعةُ الإسْلَام الَّتي تَتظَاهرون بِها، وتَطْمَعونَ فِي إِفْسَادها قَدْ تَمكَّنتْ تَمكُّنًا يكون الطَّمعُ فِي تَمْحيقها فضلًا عن إِزَالتِها حُمْقًا، فَلَها مَجْمعٌ كلَّ سنةٍ بعرفَةَ، ومَجمعٌ كلَّ أسبوعٍ فِي الجَوَامع، ومَجْمعٌ كلَّ يومٍ فِي المَسَاجد.

فمَتَىٰ تُحدِّثكُم نُفُوسكمْ بتكْدير هَذَا البَحْر الزَّاخر، وتَمْحيق هَذَا الأَمْر الظَّاهر فِي الآفاق، يُؤذَّنُ كلَّ يومٍ عَلَىٰ ما بَيْن أُلُوف مَنَابرَ بـ «أَشْهَد أَنْ لا إله إلَّا الله، وأَشْهَد أَنَّ مُحمَّدًا رَسُولُ الله».

وَغَايةُ ما أنتم عَلَيه حديثٌ فِي خَلْوةٍ، أَوْ مُتقدِّم فِي قلعةٍ: إِنْ نَبسَ بكلمةٍ، رُمِيَ رأْسُهُ، وقُتِلَ قَتْلَ الكلابِ.

فمَتَىٰ يُحدِّثُ العاقلُ منكُمْ نَفْسَه بظُهُور ما أنتم عَلَيه عَلَىٰ هَذَا الأَمْر الكلِّي الَّذي طَبَق البلاد، فما أَعْرِفُ أحمقَ مِنْكُمْ، إلَىٰ أَنْ يَجيءَ إلَىٰ باب المُنَاظرة بالبَرَاهين العقليَّة.

قال المصنف: وَالْتهَبت جَمْرةُ الباطنيَّة المُتأخِّرين فِي سنة أربعٍ وتِسْعينَ وأَرْبع مئة، فقُتِلَ السُّلطانُ جَلَال الدَّولة بَرْقيارُقُ خلقًا مِنْهُمْ لمَّا تَحقَّق مَذْهبهم، فَبلَغَتْ عدَّة القتلىٰ ثَلَاث مئةٍ وَنَيِّفًا، وتُتُبِّعَتْ أَمْوَالُهُم، فوُجِدَ لأَحَدهم سَبْعونَ بيتًا من اللآلئ المَخفور، وكُتِبَ بذَلكَ كتابٌ إلَىٰ الخليفة، فتَقدَّم بالقَبْض عَلَىٰ قومٍ يظنُّ فيهم ذَلكَ المَذْهبَ، ولَمْ يَتجَاسر أحدٌ أَنْ يشفعَ فِي أحدٍ؛ لئلَّا يُظنَّ ميلُهُ إلَىٰ ذَلكَ المَذْهب.

وَزَادَ تَتبُّعُ العوامِّ لكلِّ مَنْ أَرَادوا، وَصَار كلُّ مَنْ فِي نفسِهِ شيءٌ من إنسانٍ يَرْميه بِهَذَا المَذْهب، فيُقْصِيهِ، ويَنْهبُ مَالَه.

وأَوَّلُ ما عُرِفَ من أَحْوَال الباطنيَّة فِي أيَّام الملك شاه جلال الدَّولة، أنَّهم اجْتمَعوا، فَصلَّوْا صلاةَ العيد فِي ساوة، ففَطِنَ بِهم الشحنة، فأَخَذهُمْ وحَبَسهم، ثُمَّ أَطْلَقهمْ، ثُمَّ اغتالُوا

مؤذِّنًا من أهل ساوة، فاجْتَهَدُوا أن يَدْخُلَ معهم، فلم يفعل، فَخَافُوهُ أن يَنُمَّ عليهم، فاغتالوه، فقتَلوه، فبَلَغ الخبرُ إلَىٰ نِظَام المُلْكِ، فتَقَدَّمَ يَأْخُذُ مَنْ يُتَّهَمُ، فيقتُلُه، فَقُتِلَ المُتَّهَمُ، وكان نجَّارًا، وكانت أَوَّلُ فَتْكَةٍ لهم فَتْكَهم بِنِظَامِ المُلْكِ، وَكَانُوا يَقُولون: قَتَلْتُمْ مِنَّا نجارًا، فَقَتلنا به نِظَامَ المُلْكِ.

وَاسْتَفْحل أَمْرُهُمْ بأصبهان، فَلَمَّا مَاتَ الملكُ شاه، وآلَ الأَمْرُ إِلَىٰ أَنَّهم كَانُوا يَسْرقونَ الإنسانَ وَيَقْتُلُونَهُ، ويُلْقونَه فِي البئر، وَكَانَ الإنسانُ إذا دَنَا وَقْتُ العَصْر، ولَمْ يَعُدْ إِلَىٰ مَنْزلِهِ، أَيِسُوا منه، وفَتَّشَ النَّاسُ المَوَاضعَ، فَوَجدُوا امرأةً فِي دَارٍ لا تَبْرح فَوْقَ حصيرٍ، فأَزَالوها، فوَجَدوا تَحْتَ الحَصير أَرْبَعينَ قتيلًا، فَقَتلوا المرأةَ، وَأَحْرَقوا الدَّارَ والمحلَّةَ.

وَكَانَ يَجْلسُ رجلٌ ضريرٌ عَلَىٰ باب الزُّقاق الَّذي فيه هَذِهِ الدَّار، فإذا مرَّ إنسانٌ، سَأَلَهُ أَنْ يَقُودَهُ خُطُواتٍ إِلَىٰ الزُّقاق، فَإِذَا حَصَل هُنَاك، جَذَبه مَنْ فِي الدَّار، وَاسْتَوْلوا عَلَيه، فجدَّ المُسْلمونَ فِي طَلَبهم بأصبهان، وَقَتلُوا مِنْهُمْ خَلْقًا كثيرًا.

وأَوَّلُ قَلْعةٍ تَملَّكها الباطنيَّة: قلعةٌ فِي نَاحيةٍ يُقَال لَهَا: الرُّوذبَارُ من نَوَاحي الدَّيْلَم، وَكَانَتْ هَذِهِ القلعةُ لقماح صاحب ملكشاه، وكَانَ يَسْتحفظها مُتَّهمًا بِمَذْهب القَوْم، فأَخذ أَلفًا ومئتي دينارٍ، وَسلَّمَ إليهم القَلْعةَ فِي سَنَة ثلاثٍ وثَمانينَ فِي أيَّام ملكشاه، وكَانَ مُقدِّمها الحسن بن الصَّباح، وأصلُهُ من مرو، وكَانَ كاتبًا للرَّئيس عَبْد الرَّزَّاق بن بُهْرام إذْ كان صبيًّا، ثُمَّ ذَهَب إِلَىٰ مصر، وتَلقَّىٰ من دُعَاتِهم المَذَاهبَ، وعَادَ داعية القَوْم، ورَأْسًا فيهم، وحَصَلتْ له هَذِهِ القَلْعة، وَكَانت سيرتُهُ فِي دُعَاته أَلَّا يَدْعو إِلَّا غبيًّا، لا يُفرِّقُ بين يمينِهِ وشمالِهِ مثلًا، ومَنْ لا يَعْرفُ أُمُورَ الدُّنيا، ويُطْعمه الجوزَ، والعسلَ، والشُّونيز حتَّىٰ يَنْبسطَ دماغُهُ، ثُمَّ يَذْكرُ له حينئذٍ ما تَمَّ عَلَىٰ أَهْل بَيْت المُصْطَفَىٰ -صَلَواتُ الله وسلامُهُ عَلَيه وَعَليهم- من الظُّلم، والعُدْوان حتَّىٰ يَسْتقرَّ ذَلكَ فِي نفسِهِ، ثُمَّ يَقُول: إذا كَانَت الأزارقةُ والخَوَارجُ سَمَحوا بنُفُوسِهِمْ فِي قتال بنِي أُميَّة، فَمَا سببُ بُخْلِكَ بنفسك فِي

نُصْرة إِمَامِكَ، فيترُكهُ بِهَذِهِ المَقَالة طُعمةً للسَّيف.

وكَانَ ملكشاه قَدْ أرسلَ إِلَىٰ ابْن الصَّبَّاح يَدْعوه إِلَىٰ الطَّاعة، ويَتهدَّده إِنْ خَالَفه، ويأمرُهُ بالكفِّ عن بثِّ أصحابِهِ لقَتْل العُلَماء والأُمَراء، فَقَالَ فِي جَوَاب الرِّسَالة والرَّسُولُ حاضرٌ: الجوابُ مَا تَرَاه، ثُمَّ قَالَ لجَمَاعةٍ وُقُوفٍ بَيْنَ يَدَيه: أُرِيدُ أَنْ أُنفذكُمْ إِلَىٰ مَوْلاكُمْ فِي حَاجَةٍ، فمَنْ يَنْهضُ لَهَا؟ فَاشْرَأَبَّ كلٌّ منهم لذَلِكَ، فَظنَّ رَسُولُ السُّلطان أنَّها رسالةٌ يُحمِّلُها إِيَّاهُمْ، فَأَوْمَأَ إِلَىٰ شابٍّ مِنْهُمْ، فَقَالَ: اقْتُلْ نَفْسَك، فجَذَبَ سِكِّينهُ، وضَرَب بِهَا غلصمتَهُ، فخرَّ ميتًا، وقَالَ لآخَرَ: ارْمِ نَفْسَك من القَلْعَة، فأَلْقَىٰ نَفْسَهُ، فتمزَّق، ثُمَّ الْتفَتَ إِلَىٰ رَسُول السُّلْطان، فَقَالَ: أَخْبره أنَّ عِنْدِي مِنْ هَؤُلَاء عشرين ألفًا هَذَا حدُّ طَاعَتهمْ لي، وهَذَا هو الجَوَابُ، فَعَاد الرَّسُولُ إِلَىٰ السُّلطان ملكشاه، فأَخْبَره بِمَا رأىٰ، فَعَجِبَ مِنْ ذَلكَ، وترَكَ كَلَامَهمْ، وَصَارتْ بأَيْديهم قِلَاعٌ كثيرةٌ، ثُمَّ قَتَلوا جَماعةً من الأُمَراء والوُزَراء.

قَالَ المصنف: وقَدْ ذَكَرنا من صِفَةِ القَوْم فِي التَّاريخ أَحْوالًا عجيبةً، فلَمْ نرَ التَّطويلَ بِها هنا.

وكَمْ من زِنْديقٍ فِي قَلْبِهِ حقدٌ عَلَىٰ الإِسْلَام، خَرَج فبالغَ، واجْتهَدَ فزَخْرَفَ دَعَاوىٰ يَلْقَىٰ بِها مَنْ يَصْحبُهُ، وكانَ غورُ مقصدِهِ فِي الاعتقاد الانسلالَ من رقَّة الدِّين، وفِي العَمَل نَيْل المَلذَّات، وَاسْتبَاحة المَحْظورَات، فمِنْهُمْ بابكُ الْخُرَّميُّ، حَصَل له مقصودُهُ من اللَّذَّات، ولكن بَعْد أَنْ قَتَلَ النَّاس، وبَالَغ فِي الأَذَىٰ، ثُمَّ بالقَرَامطة، وَصَاحب الزنج الَّذي خَرَج فَاسْتَغْوىٰ المَماليك السُّودان، ووَدَّعَهم الملك، فنَهَب وفَتكَ، وَقَتَل وبَالَغ، وكَانَتْ عَوَاقبهُمْ فِي الدُّنيا أقبحَ العَوَاقب، فَمَا وَفَّىٰ ما نَالُوا بِمَا نِيلَ منهم، ومِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَبْرَحْ عَلَىٰ تَغْثيره، فَفَاتته الدُّنيا والآخرة مثل ابْن الرَّاوندي والمعري.

أنبأنا مُحمَّد بن أبِي طاهرٍ، عَنْ أَبِي القاسم عليِّ بن المُحسِّن التَّنُوخي، عَنْ أبيه، قَالَ: كَانَ ابنُ الرَّاوندي مُلَازمَ الرَّافضة، وأَهْل الإِلْحَاد، فإِذَا عُوتِبَ قَالَ: إِنَّما أُريدُ أَنْ أعرفَ

مَذَاهبهم، ثُمَّ كَاشَفَ ونَاظَر.

قَالَ المُصنِّف: مَنْ تَأَمَّل حَالَ ابْن الرَّاوندي وَجَدَه من كبار المُلْحدة، وَصَنَّف كتابًا سَمَّاه: «الدَّامغ»، زَعَم أنَّه يَدْمغ به هَذِهِ الشَّريعةَ، فسُبْحَان مَنْ دَمَغهُ فأَخَذَه، وهو فِي شَرْخ الشَّباب، وكَانَ يَعْترض عَلَىٰ القُرْآن، ويَدَّعي عَلَيه التَّناقض، وعَدَم الفَصَاحة، وهُوَ يَعْلم أنَّ فُصَحاءَ العَرَب تَحيَّرت عند سَمَاعِهِ، فكَيْفَ بالأَلْكَن.

وأمَّا أبو العَلَاء المَعرِّي، فأَشْعارُهُ ظاهرةُ الإلْحَاد، وكَانَ يُبَالغ فِي عَدَاوة الأَنْبيَاء، ولَمْ يَزلْ مُتخبِّطًا فِي تَغْثيره، خائفًا من القَتْل إِلَىٰ أنْ ماتَ بخُسْرانِهِ.

وَمَا خَلَا زمانٌ مِنْ خَلَفٍ للفَرِيقَيْن إلَّا أنَّ جَمْرة المُنْبسطينَ قَدْ خَبَتْ بحَمْدِ الله، فلَيْسَ إلَّا بَاطِنِيٌّ مُسْتَتِرٌ، ومُتَفَلسفٌ مُتَكاتِمٌ، هُوَ أَعْثَرُ النَّاس، وأَخْسَأُهم قَدْرًا، وأَزْدَاهُمْ عيشًا، وقَدْ شَرَحنا أَحْوالَ جَمَاعةٍ من الفَرِيقَيْن فِي التَّاريخ، فلَمْ نَرَ التَّطويلَ بذَلك، واللهُ المُوفِّقُ.

الباب السادس
في ذكر تلبيس إبليس على العلماء في فنون العلم

قَالَ المُصنِّف: اعْلَمْ أنَّ إبليسَ يَدْخل عَلَىٰ النَّاس فِي التَّلبيس من طُرُقٍ، مِنْهَا ظَاهِرُ الأَمْر، ولكن يَغْلب الإنسان فِي إيثار هَوَاه، فيغمض عَلَىٰ عِلْمٍ يُذَلِّله.

ومنها: غَامضٌ، وهُوَ الَّذي يَخْفىٰ عَلَىٰ كثيرٍ من العُلَماء.

ونَحْن نُشِيرُ إِلَىٰ فُنُونٍ مِنْ تلبيسِهِ يستدلُّ بِمَذْكورها عَلَىٰ مُغَفلها، إِذْ حَصْرُ الطُّرُق يَطُولُ، واللهُ العاصمُ.

ذكر تلبيسه علَى القرَّاء:

فمن ذلك: أنَّ أَحدهُمْ يَشْتغل بالقِرَاءَات الشَّاذَّة وتَحْصيلها، فيُفْنِي أَكْثَرُ عُمُره فِي جَمْعها، وتَصْنيفها، والإقْرَاء بِها، ويَشْغلُهُ ذَلكَ عن مَعْرفة الفَرَائض، والوَاجبَاتِ، فرُبَّما رأيتُ إمامَ مَسْجدٍ يَتصَدَّىٰ للإقْرَاء، وَلَا يَعْرفُ ما يُفْسِدُ الصَّلاة، وربَّما حَمَله حُبُّ التَّصدُّر حتَّىٰ لا يَرَىٰ بعَيْن الجَهْل عَلَىٰ أَنْ يجلسَ بَيْنَ يَدَي العُلَماء، ويَأْخُذُون عَنْهم العلمَ، ولَوْ تَفكَّروا لَعَلِمُوا أَنَّ المرادَ حِفْظُ القُرْآن، وتَقْويمُ ألفاظِهِ، ثُمَّ فَهْمُهُ، ثُمَّ العَمَلُ به، ثُمَّ الإقبالُ عَلَىٰ ما يُصْلح النَّفس، ويُطهِّر أَخْلَاقها، ثُمَّ التَّشاغُل بالمهمِّ من عُلُوم الشَّرْع، ومن الغَبْنِ الفَاحش: تَضْييعُ الزَّمَان فيما غيرُهُ الأَهَمُّ.

قَالَ الحَسَنُ البصريُّ: أُنْزِلَ القرآنُ ليُعْمَل بِهِ، فاتَّخذ النَّاسُ تلاوتَهُ عملًا (يَعْني: أنَّهم اقْتصَروا عَلَىٰ التِّلاوة)، وتَرَكوا العَمَلَ بِهِ، ومِنْ ذَلكَ أَنَّ أَحدهُمْ يَقْرأ فِي مِحْرابِهِ بالشَّاذِّ، ويَتْرك المُتَواترَ المَشْهورَ.

وَالصَّحيح عند العُلَماء: أنَّ الصَّلاةَ لَا تصحُّ بِهَذَا الشَّاذّ، وإنَّما مَقصودُ هَذَا إظْهَار الغريب لاستِجْلَابِ مَدْح النَّاس، وإقْبَالِهِمْ عَلَيه، وعنده أنَّه مُتَشاغلٌ بالقُرْآن، ومنهم مَنْ يَجْمع القِرَاءَات، فيَقُولُ: (مَلِكِ، مالِكِ، مِلَاك)، وهَذَا لا يَجُوز؛ لأنَّه إخْرَاجٌ للقُرْآن عن نَظْمِهِ.

ومنهم: مَنْ يَجْمَعُ السَّجدات، والتَّهليلات، والتَّكْبيرات، وَذَلكَ مَكْروهٌ.

وقَدْ صَارُوا يُوقِدُونَ النِّيرانَ الكثيرةَ للخَتْمة، فيَجْمَعون بَيْن تَضْييع المَال، والتَّشبُّه بالمَجُوس، والتَّسبُّب إِلَىٰ اجْتِمَاع النِّساء والرِّجال باللَّيل للفَسَاد، وَيُرِيهُمْ إبليسُ أنَّ فِي هَذَا إعزازًا للإسْلَام، وهَذَا تَلْبيسٌ عظيمٌ؛ لأنَّ إعزازَ الشَّرْع باسْتِعْمَال المَشْروع.

ومِنْ ذَلكَ أنَّ منهم مَنْ يَتَسامحُ بادِّعاء القِرَاءَة عَلَىٰ مَنْ لَمْ يَقْرَأ عليه، وربَّما كَانَتْ له إجازةٌ منه، فقَدْ أَخْبَرنا تدليسًا وهُوَ يَرَىٰ أنَّ الأمرَ فِي ذَلكَ قريبٌ؛ لكونِهِ يَرْوي القِرَاءَات، ويَرَاها فِعْلَ خيرٍ، ويَنْسىٰ أنَّ هَذَا كذبٌ يلزمُهُ إثْمُ الكذَّابين.

ومن ذلك: أنَّ المُقْرِئَ المُجيدَ يأخُذُ عَلَىٰ اثْنَين وثلاثةٍ، ويَتحدَّثُ مَعَ مَنْ يَدْخلُ عليه، والقَلْبُ لا يُطيقُ جَمْعَ هَذِهِ الأشْيَاء، ثُمَّ يكتبُ خطَّه بأنَّه قَدْ قرأ عَلَىٰ فُلَانٍ بقِرَاءَة فلانٍ.

وقد كَانَ بَعْض المُحقِّقين يَقُول: يَنْبغي أنْ يَجْتمعَ اثْنَان أو ثَلاثةٌ، ويَأْخُذُوا عَلَىٰ وَاحدٍ، ومِنْ ذَلكَ أَنَّ أقْوَامًا من القُرَّاء يَتَبارون بكَثْرة القِرَاءَة.

وقَدْ رأيتُ مِنْ مَشَايخهم مَنْ يَجْمعُ النَّاسَ، ويقيم شخصًا، ويَقْرأ فِي النَّهار الطَّويل ثلاثَ ختماتٍ، فإنْ قصَّر عُيِّب، وإنْ أتمَّ مُدِحَ، وتَجْتمعُ العوامُّ لذَلكَ، ويُحسِّنونَه كَمَا يَفْعلونَ فِي حقِّ السُّعاة، ويُريهم إبليسُ أنَّ فِي كَثْرة التِّلَاوة ثوابًا، وهَذَا من تلبيسِهِ؛ لأنَّ القِرَاءةَ يَنْبَغي أنْ تكونَ لله تَعَالىٰ لا للتَّحْسين بِهَا، ويَنْبغي أنْ تكونَ عَلَىٰ تمهُّلٍ، وَقَالَ عز وجل: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ [الإسراء:١٠٦]، وَقَالَ عز وجل: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾﴾ [المزمل:٤].

ومِنْ ذَلكَ أنَّ جَمَاعةً من القُرَّاء أحْدَثوا قراءةَ الألْحَان، وقَدْ كَانَتْ إلَىٰ حدٍّ قريبٍ، وعَلَىٰ ذَلكَ فقَدْ كَرِهَهَا أحْمَد بن حنبلٍ، وغَيرُهُ، ولَمْ يَكْرهها الشَّافعيُّ.

أنبأنا مُحمَّدُ بْن ناصرٍ، نا أبو عليٍّ الحُسَين بن سعدٍ الهَمذانِيُّ، نا أبو بكرٍ أحْمَد بن عليٍّ بن لال، ثنا الفَضل بن الفَضْل، ثنا السَّاجي، ثنا الرَّبيع بن سُلَيمان قَالَ: قَالَ الشَّافعيُّ: أمَّا استماعُ الحِدَاءِ، وَنَشيدُ الأعْرَاب فَلَا بأسَ به، ولا بأسَ بِقِرَاءَة الألْحَان، وتَحْسين الصَّوت.

قَالَ المصنف: وقلتُ: إنَّما أشَار الشَّافعيُّ إلَىٰ ما كَانَ فِي زمانِهِ، وَكَانوا يُلْحنونَ يسيرًا، فأمَّا اليَوْمَ، فقَدْ صيَّروا ذَلكَ عَلَىٰ قانون الأغَانِي، وكُلَّما قَرُبَ ذَلكَ من مُشَابهة الغِنَاءِ، زَادَتْ كراهتُهُ.

فإنْ أُخرِجَ القرآنُ عَنْ حدِّ وَضعِهِ، حَرُمَ ذَلكَ، ومِنْ ذَلكَ أنَّ قومًا من القُرَّاء يَتَسامحونَ بشَيءٍ مِنَ الخطَايا؛ كالغِيبَةِ للنُّظَراء، ورُبَّما أتَوْا أكْبَرَ من ذَلكَ الذَّنب، وَاعْتَقدوا أنَّ حِفْظَ القُرْآنِ يَرْفع عَنهم العَذَابَ، وَاحْتجُّوا بقَوْلِهِ عَلَيه الصَّلاة والسَّلام: «لَوْ جُعِلَ القُرْآنُ فِي إهَابٍ مَا احْترقَ»(١).

وَذَلكَ مِنْ تَلْبيس إبْلِيسَ عَلَيهم؛ لأنَّ عذابَ مَنْ يَعْلم أكْثَر مِنْ عَذَاب مَنْ لَمْ يَعْلم، إذْ زِيَادةُ العِلْمِ تُقوِّي الحُجَّةَ، وكَوْن القَارئ لَمْ يَحْترم ما يَحْفظ ذنبٌ آخَرُ، قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ [الرعد:١٩]، وَقَالَ فِي أزْوَاج رسول الله ﷺ: ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب:٣٠].

وقَدْ أخْبَرنا أحمدُ بن أحْمَد المتوكلي، نا أحْمَد بن عليٍّ بن ثابتٍ، نا أَبُو الحَسَن بن رزقويه، نا إسْمَاعيل الصَّفَّار، ثنا زَكَريا بن يَحيَىٰ، ثنا مَعْروفٌ الكرخيُّ، قَالَ: قَالَ بَكْر بن

(١) أخرجه أحمد (١٦٩١٤) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٥٢٨٢).

خُنيس: إنَّ فِي جهنَّم لواديًا تَتعوَّذُ جَهنَّمُ من ذَلكَ الوَادِي كلَّ يَوْمٍ سَبْعَ مرَّاتٍ، وإنَّ فِي الوَادِي لجُبًّا يَتعوَّذ الوادي وجَهنَّمُ من ذَلكَ الجُبُّ كلَّ يومٍ سَبْعَ مرَّاتٍ، وإنَّ في الجُبِّ لَحيَّةً يَتعوَّذ الجُبُّ وَالوَادي وجَهنَّم من تِلْكَ الحيَّة كلَّ يومٍ سَبْعَ مَرَّاتٍ، يُبْدأ بفَسَقة حَمَلة القُرْآن، فيَقُولُون: أيْ ربِّ، يُبْدأ بنا قَبْلَ عَبَدة الأَوْثَان، فَقِيلَ لَهم: لَيْسَ مَنْ يَعْلمُ كمَنْ لا يَعْلم.

قَالَ المصنف: فَلْنَقْتصِرْ عَلَىٰ هَذَا الأُنْمُوذج فِيمَا يَتعلَّق بالقُرَّاء.

ذكر تلبيس إبليس علَى أصحاب الحديث:

من ذلك: أنَّ قومًا اسْتَغْرقوا أَعْمارَهُمْ فِي سَماع الحديث، والرِّحلة فيه، وجَمْع الطُّرُق الكَثيرَة، وطَلَب الأَسَانيد العَاليَة والمُتُون الغَريبَة.

وَهَؤُلاء عَلَىٰ قسمين: قِسْمٌ قَصَدوا حِفْظَ الشَّرْع بِمَعْرفة صَحِيحِ الحَدِيثِ من سقيمِهِ، وهُمْ مَشْكُورُونَ عَلَىٰ هَذَا القَصْد، إلَّا أنَّ إبليسَ يُلبِّسُ عَلَيهم بأنْ يَشْغلَهمْ بِهَذَا عمَّا هو فرضُ عينٍ من مَعْرفة ما يَجبُ عَلَيهم، والاجْتهَاد فِي أَدَاء اللَّازم، والتَّفقُّه فِي الحديث.

فإنْ قَالَ قائلٌ: لقَدْ فَعَل هَذَا خَلْقٌ كثيرٌ من السَّلَف كيَحْيَىٰ بن معينٍ، وَابْن المَدينيِّ، والبُخاريِّ، ومسلمٍ.

فالجواب: أنَّ أُولَئك جَمَعوا بَيْنَ مَعْرفة المُهمِّ من أُمُور الدِّين والفقه فيه، وبَيْنَ ما طَلَبوا من الحديث، وأَعَانَهم عَلَىٰ ذَلكَ قصرُ الإسْنَاد، وقلَّةُ الحَدِيثِ، فَاتَّسعَ زَمَانُهم للأَمْرين.

فأمَّا فِي هَذَا الزَّمان، فإنَّ طُرُقَ الحَدِيثِ طَالَتْ، والتَّصانيف فِيهِ اتَّسعَتْ، وما فِي هَذَا الكتاب من تِلْكَ الكُتُب، وإنَّما الطُّرُقُ تَخْتلفُ، فقَلَّ أن يُمكِّنَ أحدٌ أنْ يَجْمعَ بَيْن الأَمْرين، فَتَرىٰ المُحدِّث يَكْتُبُ ويَسْمعُ خَمْسينَ سنةً، ويَجْمع الكُتُبَ، ولا يَدْري ما فيها، ولَوْ وَقَعتْ له حادثةٌ فِي صَلَاتِهِ لافْتقَرَ إلَىٰ بَعْض أَحْداث المُتفقِّهة الَّذين يَتردَّدون إليه لسَمَاع الحَدِيثِ مِنْهُ، وبِهَؤُلَاء تَمكَّن الطَّاعنونَ عَلَىٰ المُحدِّثين، فَقَالوا: زَوَاملُ أَسْفَار لا يَدْرُونَ ما مَعَهمْ.

فإنْ أفلحَ أحدُهُمْ، ونَظَر فِي حديثِهِ، فرُبَّما عَمِلَ بحديثٍ مَنْسُوخٍ، وربَّما فَهِمَ من الحديث ما يَفْهمُ العاميُّ الجَاهلُ، وعَمِلَ بذَلكَ، ولَيْسَ بالمُرَاد من الحديث، كَمَا رُوِّينا أَنَّ بعضَ المُحدِّثين رَوَىٰ عن رسول الله ﷺ: «أنَّه نَهَىٰ أنْ يَسْقي الرَّجلُ ماؤُهُ زرعَ غَيْره»(١).

فقَالَ جَمَاعةٌ من حضر: قَدْ كنَّا إِذْ فَضَل عنَّا ماءٌ فِي بَسَاتيننا سَرَّحناه إِلَىٰ جِيرَانِنَا، ونَحْن نَسْتَغفرُ اللهَ، فَمَا فَهِمَ القارئُ، وَلَا السَّامعُ، وَلَا شَعَرُوا أَنَّ المرادَ وطءُ الحَبَالَىٰ من السَّبَايا.

قَالَ الخطابِي: وكَانَ بَعْضُ مَشَايخنا يَرْوي الحديثَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ: «نَهَىٰ عَنِ الحِلَقِ قَبْلَ الصَّلاة يَوْمَ الجُمُعة»(٢)، بِإسْكَانَ اللَّام، قَالَ: وأَخْبَرني: إِنَّه بَقِيَ أربعينَ سنةً لَا يَحلقُ رأسَهُ قَبْل الصَّلَاة، قَالَ: فقُلْتُ لَهُ: إنَّما هُوَ الحِلَقُ جَمْع حَلْقةٍ، وإنَّما كُرِهَ الاجْتمَاعُ قَبْل الصَّلاة للعِلْمِ والمُذَاكرة، وأَمَر أنْ يشتغلَ بالصَّلاة، وينصتَ للخُطْبة، فَقَالَ: فَرَّجت عليَّ، وكَانَ مِنَ الصَّالحينَ.

وَقَدْ كَانَ ابْنُ صَاعِدٍ كبيرَ القَدْر فِي المُحدِّثينَ، لَكنَّه لمَّا قَلَّت مُخالطتُهُ للفُقَهاء، كَانَ لا يَفْهم جوابَ فَتْوىٰ، حتَّىٰ إنَّه قَدْ أَخْبَرنا أبو مَنْصورٍ القزَّاز، نا أبو بكرٍ أحمد بن عليِّ بن ثابتٍ، قَالَ: سمعتُ البرقانِيَّ يَقُول: قَالَ أبو بكرٍ الأَبْهريُّ الفقيهُ، قَالَ: كنتُ عند يَحْيَىٰ بن مُحمَّد بن صاعِدٍ، فَجَاءته امرأةٌ، فَقَالتْ: أيُّها الشَّيخ، ما تَقُولُ فِي بئرٍ سَقَطتْ فيه دَجَاجةٌ فَمَاتتْ، فَهَل الماءُ طاهرٌ أو نجسٌ؟

فقَالَ يَحْيَىٰ: وَيْحَك! كَيْفَ سَقَطت الدَّجاجةُ إِلَىٰ البئر؟ قَالَتْ: لَمْ تكن البئرُ مُغطَّاةً. قَالَ يَحيَىٰ: أَلَا غَطَّيتها حتَّىٰ لا يقعَ فيها شيءٌ.

---

(١) أخرجه أبو داود (٢١٥٨) من حديث رُوَيفع بن ثابتٍ الأنصاري رضي الله عنه، وحَسَّنه الألبانِيُّ فِي «صحيح الجامع» (٦٥٠٧، ٧٦٥٤).

(٢) أخرجه أبو داود (١٠٧٩)، والترمذي (٣٢٢) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وحَسَّنه الألبانِيُّ فِي «صحيح الجامع» (٦٨٨٥).

قَالَ الأبهري: فقلت: يا هَذِهِ، إنْ كَانَ الماءُ تَغيَّر، فهُوَ نجسٌ، وإلَّا فهُوَ طاهرٌ.

قَالَ المصنف: وكَانَ ابْنُ شاهين قَدْ صَنَّف فِي الحديث مُصَنَّفاتٍ كثيرةً، أقلُّها جزءٌ، وأكْثَرها التَّفسيرُ، وهو ألْفُ جُزْءٍ، ومَا كَانَ يَعْرفُ من الفِقْهِ شيئًا، وقَدْ كَانَ فيهم مَنْ يَقْدمُ عَلَىٰ الفَتْوىٰ بالخَطَإِ؛ لئلَّا يُرَىٰ بعَيْن الجَهْل؛ فكَانَ فيهم مَنْ يَصيرُ بِما يُفْتي به ضُحْكةً، فسُئِلَ بَعْضُهمْ عَنْ مَسْألةٍ من الفَرَائض، فكَتَب فِي الفَتْوىٰ: تُقْسَمُ عَلَىٰ فَرَائض الله ﷻ.

وأنبأنا مُحمَّد بن أبِي مَنْصورٍ، نا أَحْمَد بن الحَسَن بن خَيْرون، نا أحمد بن مُحمَّد العتيقي، نا أبو عُمَر بن حيويه، نا سُلَيمان بن إسحاق الجلاب، ثنا إبراهيمُ الحربِيُّ، قَالَ: بَلَغني أنَّ امرأةً جَاءَتْ إلَىٰ عليِّ بن داود، وهُوَ يُحدِّثُ، وبَيْنَ يَدَيه مِقْدَار ألْف نفسٍ، فَقَالتْ له: حلفتُ بصَدَقة إزَاري، فَقَالَ لَها: بِكَمِ اشْتَريتيه؟ قالت: باثْنَيْنِ وعِشْرينَ دِرْهمًا. قَالَ: اذْهَبِي فَصُومِي اثنَين وعِشْرينَ يومًا، فلَمَّا مرَّتْ، جَعَل يَقُول: آه، آه، غَلطنَا، واللهِ أَمَرناها بكَفَّارة الظِّهار.

قَالَ المصنف: قلتُ: فَانْظُرُوا إلَىٰ هَاتَين الفَضِيحَتَين: فَضِيحَة الجَهْل، وفَضِيحَة الإقْدَام عَلَىٰ الفَتْوىٰ بِمِثْلِ هَذَا التَّخليط.

وَاعْلَمْ أنَّ عُمُومَ المُحدِّثينَ حَمَلوا ظاهرَ ما تَعلَّق من صِفَاتِ الباري سُبْحَانه عَلَىٰ مُقْتَضىٰ الحسِّ، فَشَبَّهُوا؛ لأنَّهم لَمْ يُخَالطوا الفُقَهاءَ، فيَعْرفوا حَمْلَ المُتَشابه عَلَىٰ مُقْتَضىٰ المُحْكَم، وقَدْ رَأيْنا فِي زَمَاننا مَنْ يَجْمعُ الكُتُبَ منهم، ويُكْثر السَّماعَ، وَلَا يَفْهم مَا حَصَلَ [١].

---

(١) يُلَاحظ علىٰ المؤلف في قوله: «واعلم أن عموم المحدثين حملوا ...».
أنه توسع في ذلك؛ لأن عُمُوم المحدثين علىٰ المنهج الحق في هذا الباب (أي: باب الأسماء والصفات)؛ لأنهم أعلم بمعاني كتاب الله من غيرهم، كما قال عمر ؓ: ناظروا أصحاب الأهواء بالسُّنَّة، فإنَّ أهل السُّنَّة أعلم بكتاب الله من أهْل الأهواء. [زيد المدخلي].

ومنهم: مَنْ لَا يَحْفظُ القُرْآنَ، وَلَا يَعْرِفُ أركَانَ الصَّلَاة، فتَشَاغل هَؤُلَاء عَلَىٰ زَعْمهم بفُرُوض الكِفَايَة عَنْ فُرُوض الأَعْيَان، وإِيثَار ما لَيْسَ بِمُهمٌ عَلَىٰ المُهمّ من تَلْبيس إِبْلِيسَ.

القسم الثاني: قَوْمٌ أَكْثَروا سَمَاعَ الحديث، ولَمْ يَكُنْ مَقْصودُهُمْ صحيحًا، ولَا أَرَادوا مَعْرفةَ الصَّحيح من غَيْره بجَمْع الطُّرُق، وإنَّما كَانَ مُرَادُهُمْ العَوَالِيَ والغَرَائبَ، فطَافوا البُلْدانَ ليَقُولَ أَحَدُهُم: لقيتُ فلانًا، وَلِي مِنَ الأَسَانيد مَا لَيْسَ لغَيْري، وعِنْدِي أَحَاديثُ لَيْسَتْ عند غَيْري.

وقَدْ كَانَ دَخَل إلينا إِلَىٰ بَغْدادَ بَعْضُ طَلَبة الحديث، وكَانَ يأخُذُ الشَّيخَ فيُقْعدُهُ فِي الرَّقَّة، وهِيَ البُسْتَان الَّذي عَلَىٰ شاطئ دجلةَ، فيَقْرأ عَلَيه، ويَقُولُ فِي مَجْموعاتِهِ: حَدَّثَنِي فلانٌ، وفلانٌ بالرَّقَّة، ويُوهِمُ النَّاسَ أنَّها البَلْدةُ الَّتي بِنَاحيَةِ الشَّام ليَظنُّوا أنَّه قَدْ تَعِبَ فِي الأَسْفَار لطَلَب الحَدِيثِ.

وكَانَ يُقْعِدُ الشَّيخَ بين نَهْر عِيسَىٰ والفُرَات، ويَقُولُ: حَدَّثَنِي فُلَانٌ مِنَ وَرَاء النَّهر، يُوهِمُ أنَّه قَدْ عَبَر خُرَاسان فِي طَلَب الحديث، وكَانَ يَقُولُ: حَدَّثَنِي فلانٌ فِي رحلتِي الثَّانية والثَّالثة، ليعلم النَّاسُ قَدْرَ تَعبِهِ فِي طَلَب الحديث، فَمَا بُورِكَ له، وماتَ فِي زَمَان الطَّلب.

قَالَ المصنف: وهَذَا كُلُّهُ من الإخلَاص بِمَعْزلٍ، وإنَّما مَقْصودُهُم الرِّياسةُ والمُبَاهاةُ، ولذَلكَ يَتَّبعون شاذَّ الحديث وغَريبَهُ، ورُبَّما ظَفرَ أَحدُهُمْ بجزءٍ فيه سَمَاع أَخِيهِ المُسْلم، فأخْفَاه لينفردَ هو بالرِّواية، وقَدْ يَموتُ هُوَ وَلَا يَرْويه فيَفُوت الشَّخصين، ورُبَّما رَحَل أَحدُهُمْ إِلَىٰ شيخٍ أوَّلُ اسمِهِ قافٌ، أو كافٌ ليكتبَ ذَلكَ فِي مشيختِهِ فحَسْب.

ومن تَلْبيس إبليسَ عَلَىٰ أَصْحاب الحَدِيثِ: قَدْحُ بَعْضهم فِي بَعْضٍ؛ طلبًا للتَّشفِّي، ويُخْرجُونَ ذَلكَ مَخْرجَ الجرح والتَّعديل الَّذي استعملَهُ قُدَماء هَذِهِ الأُمَّة للذَّبِّ عن الشَّرْع، والله أعلمُ بالمَقَاصد، ودليلُ مَقْصد خُبْثِ هؤلاء: سُكُوتُهُمْ عَمَّنْ أَخَذوا عَنْه، وما كَانَ

القُدَماءُ هَكَذا، فَقَدْ كَانَ عليٌّ بن المدينيّ يُحدِّث عَنْ أَبِيهِ، وكَانَ ضعيفًا، ثُمَّ يَقُولُ: وفِي حديث الشَّيخ ما فِيهِ.

أخبرنا أبو بكر بن حبيب العامريُّ، نا أبو سعد بن أَبِي صادق، نا أبو عبد الله بن باكويه، ثنا بكر أنَّ ابْنَ أحمد الجيلي، قَالَ: سمعتُ يُوسُفَ بن الحُسَين يَقُول: سألتُ حارثًا المُحَاسبيَّ عن الغِيبَةِ، فَقَالَ: احْذَرْهَا؛ فإنَّها شرٌّ مُكْتَسبٌ، ومَا ظنُّك بشيءٍ يَسْلبك حَسَناتِكَ، فيُرضي به خُصَمَاءَك، ومَنْ تُبْغِضُهُ فِي الدُّنيا كَيْفَ تَرْضي به خَصمَك يَوْمَ القِيَامَة، يأخُذُ من حَسَناتِكَ، أَوْ تأخُذُ من سَيِّئَاتِهِ، إِذْ ليس هناك درهمٌ، وَلَا دينارٌ، فَاحْذَرْهَا، وتَعرَّف مَنْبعَها، فإنَّ مَنْبعَ غيبة الهَمَج والجُهَّال مِنْ إِشْفَاء الغَيْظِ، والحميَّةِ، والحَسَدِ، وسُوء الظَّنِّ، وتِلْكَ مكشوفةٌ غير خفيَّةٍ.

وأمَّا غِيبَةُ العُلَماء فمَنْبعها من خُدْعة النَّفس عَلَىٰ إِبْدَاء النَّصيحة، وتأْويل مَا لَا يَصحُّ من الخَبَر، ولو صحَّ ما كَانَ عونًا عَلَىٰ الغيبة، وهُوَ قولُهُ: «أَتَرْغَبونَ عن ذِكْرِهِ، اذْكُروه بِما فيه ليَحْذَرهُ النَّاسُ»[1].

ولَوْ كَانَ الخبرُ مَحفوظًا صحيحًا، لَمْ يكن فيه إِبْدَاء شَنَاعةٍ عَلَىٰ أَخِيكَ المُسْلم من غَيْر أَنْ تسأَلَ عنه، وإنَّما إذا جَاءَكَ مُسْترشدٌ، فَقَالَ: أريدُ أَنْ أُزوِّج كَريمتِي من فُلَانٍ، فَعَرفتُ منه بدعةً، أو أنَّه غير مَأمونٍ عَلَىٰ حُرَم المُسْلمينَ صَرَفْته عَنه بأَحْسَن صرفٍ، أَوْ يَجيئُكَ رجلٌ آخر، فَيَقُولُ لَكَ: أريد أَنْ أُودِعَ مالِي فلانًا، ولَيْسَ ذَلكَ الرَّجل موضعًا للأَمَانة، فتَصْرفه عنه بأَحْسَن الوُجُوه، أو يَقُول لك رجلٌ: أُرِيدُ أَنْ أُصلِّي خلف فلانٍ، أَوْ أَجْعَلَهُ إِمَامِي فِي عِلْمٍ، فتَصْرفُهُ عنه بأَحْسَن الوُجُوه، وَلَا تُشْفِ غَيْظك من غيبتِهِ.

وَأَمَّا مَنْبعُ الغِيبَةِ مِنَ القُرَّاءِ والنُّسَّاكِ، فمِنْ طَرِيقِ التَّعجُّب يُبْدي عَوَار الأخ، ثُمَّ يَتصنَّع

(١) أخرجه البيهقي في «السنن» (١٠/ ٢١٥)، وقال الألبانيُّ في «الضعيفة» (٥٨٣): موضوع.

بالدُّعاء فِي ظَهْر الغيب، فَيتَمكَّنُ من لَحْم أخِيهِ المُسْلم، ثُمَّ يَتزيَّن بالدُّعاء له.

وأمَّا مَنْبَعُ الغيبةِ مِنَ الرُّؤسَاء والأسَاتذة، فمِنْ طَرِيقِ إِبْدَاء الرَّحْمة والشَّفَقة حتَّىٰ يَقُول: مسكينٌ، فُلَانٌ ابْتُلِيَ بكَذَا، وامْتُحِنَ بكَذَا، نَعُوذ بالله من الخِذْلَانِ، فيَتصنَّع بإِبْدَاء الرَّحْمة والشَّفَقة عَلَىٰ أخِيه، ثُمَّ يَتصنَّع بالدُّعاء له عند إخوانِهِ، ويَقُولُ: إنَّما أَبْدَيْتُ لَكُمْ ذَلكَ لتُكْثِرُوا دُعَاءكُمْ له، ونَعُوذُ بالله من الغيبة تَعْريضًا أو تَصْريحًا، فاتَّقِ الغيبةَ، فَقَدْ نَطَقَ القرآنُ بكَرَاهتها، فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات:١٢]، وقَدْ رُوِيَ عَنِ النَّبيِّ ﷺ فِي ذَلكَ أخبارٌ كثيرةٌ.

ومِنْ تَلْبِيسِ إِبْلِيس عَلَىٰ عُلَماء المُحدِّثين: رِوَايَة الحَدِيثِ المَوْضوع من غَيْر أَنْ يُبيِّنُوا أنَّه موضوعٌ، وهَذِهِ جنايةٌ مِنْهُمْ عَلَىٰ الشَّرع، ومَقْصُودُهمْ ترويجُ أحَاديثهم، وكَثْرة رِوَايَاتِهِمْ، وَقَدْ قَالَ ﷺ: «مَنْ رَوَىٰ عنِّي حديثًا يَرَىٰ أنَّه كذبٌ، فهُوَ أَحَد الكَاذِبِينَ»(١).

وَمِنْ هَذَا الفنِّ تَدْلِيسُهُمْ فِي الرِّواية، فَتارَةً يَقُول أحدُهُمْ: فلانٌ عن فلانٍ، أَوْ قَالَ: فلانٌ عن فلانٍ يُوهم أنَّه سَمِعَ منه المُنْقَطع، ولَمْ يَسْمَعْ، وهَذَا قبيحٌ؛ لأنَّه يَجْعَلُ المُنْقطعَ فِي مَرْتبة المُتَّصل، ومنهم مَنْ يَرْوِي عن الضَّعيف والكذَّاب، فيَنْفي اسْمَهُ، فرُبَّما سَمَّاه بغَيْر اسمِهِ، وربَّما كنَّاه، وربَّما نَسَبهُ إِلَىٰ جدِّه؛ لئلَّا يُعْرف، وهَذِهِ جنايةٌ عَلَىٰ الشَّرْع؛ لأنَّه يُثْبتُ حكمًا بِما لا يَثْبت به، فأمَّا إذا كَانَ المرويُّ عنه ثقةً، فنَسَبه إِلَىٰ جدِّه، أو اقْتصَرَ عَلَىٰ كُنْيتِهِ؛ لئلَّا يرىٰ أنَّه قَدْ ردَّد الرِّواية عنه، أو يَكُونُ المرويُّ عنه فِي مَرْتبة الرَّاوي، فيَسْتحي الرَّاوي من ذِكْرِهِ، فَهَذَا عَلَىٰ الكَرَاهة، والبُعْد من الصَّواب قريبٌ بشَرْط أَنْ يكونَ المَرْويُّ عنه ثِقَةً، واللهُ المُوفِّق.

---

(١) أخرجه مسلم فِي المقدمة، وابن ماجه (٣٩) من حديث سَمُرة بن جندب رضي الله عنه، وصَحَّحه الألبانِيُّ فِي «صحيح الجامع» (٦١٩٩).

ذكر تلبيس إبليس علَى الفقهاء:

قَالَ المُصنِّف: كَانَ الفُقَهاء فِي قَدِيم الزَّمَان هم أَهْلُ القُرْآن والحديث، فَمَا زَالَ الأمرُ يَتناقصُ حتَّىٰ قَالَ المُتأخِّرونَ: يَكْفينا أَنْ نعرفَ آيات الأَحْكَام من القُرْآن، وأَنْ نَعْتمدَ عَلَىٰ الكُتُب المَشْهورَة فِي الحديث كسُنَن أَبِي دَاوُدَ، ونَحْوها، ثُمَّ اسْتَهَانوا بِهَذَا الأَمْر أيضًا، وَصَار أَحدُهُمْ يَحتجُّ بآيَةٍ لَا يُعْرف مَعْنَاها، وبحَدِيثٍ لَا يَدْري، أصحيحٌ هُوَ أَمْ لا؟

وربَّما اعْتَمَدَ عَلَىٰ قياسٍ يُعَارضه حديثٌ صحيحٌ، وَلَا يعلم لقلَّة الْتفَاتِهِ إلَىٰ مَعْرفة النَّقل، وإنَّما الفقهُ اسْتِخْرَاجٌ من الكِتَابِ والسُّنَّة، فكَيْفَ يستخرج من شيءٍ لَا يَعْرفه، ومِنَ القبيح تَعْليقُ حُكْمٍ عَلَىٰ حديثٍ لَا يُدْرىٰ أصحيحٌ هُوَ أَمْ لا؟ ولقَدْ كانت مَعْرفة هَذَا تَصْعُبُ، ويَحْتاج الإنسانُ إلَىٰ السَّفَر الطَّويلِ والتَّعبِ الكثيرِ حتَّىٰ يَعْرفَ ذلكَ، فصُنِّفت الكُتُبُ، وتَقرَّرت السُّننُ، وعُرِفَ الصَّحيحُ من السَّقيم.

ولكن غَلَب عَلَىٰ المُتَأخِّرين الكسلُ بالمَرَّة عَلَىٰ أَنْ يُطَالعوا عِلْمَ الحَدِيثِ حتَّىٰ إنِّي رأيتُ بَعْضَ الأَكَابر من الفُقَهاء يَقُول فِي تصنيفِهِ عن أَلْفاظٍ فِي الصِّحاح: لا يَجُوز أَنْ يكونَ رسول الله ﷺ قَالَ هَذَا، ورأيتُهُ يحتجُّ فِي مسألةٍ، فَيَقُولُ: دَلِيلُنَا ما رَوَىٰ بَعْضُهُمْ أنَّ رَسُولَ الله كَذَا، ويُعجِّل الجوابَ عن حديثٍ صحيحٍ قَد احْتَجَّ به خَصْمُهُ أَنْ يقولَ: هَذَا الحديثُ لَا يُعْرف، هَذَا كلُّه جنايةٌ عَلَىٰ الإسْلَام.

ومِنْ تَلْبيس إبْلِيس عَلَىٰ الفُقَهاء: أنَّ جُلَّ اعْتمَادِهِمْ عَلَىٰ تَحْصيل عِلْمِ الجَدَل يَطْلبونَ بزَعْمِهِمْ تَصْحيحَ الدَّليل عَلَىٰ الحُكْمِ والاسْتِنْبَاطِ لدَقَائق الشَّرْع، وعِلَلِ المَذَاهب، ولَوْ صَحَّتْ هَذِهِ الدَّعْوَىٰ منهم لتَشَاغلوا بِجميع المَسَائل، وإنَّما يَتشَاغَلون بالمَسَائل الكبار؛ ليَتَّسعَ فيها الكَلَامُ، فيَتقدَّم المُناظرُ بذَلكَ عند النَّاس فِي خِصَامِ النَّظَر، فَهَمَّ أَحَدُهُمْ بتَرْتيب المُجَادلة والتَّفْتيش عَلَىٰ المُنَاقِضَاتِ طَلَبًا للمُفَاخرات والمُبَاهات، وربَّما لَمْ يَعْرف الحُكْمَ فِي مسألةٍ صغيرةٍ تَعُمُّ بِها البَلْوىٰ.

ذكر تلبيسه عليهم بإدخالهم في الجدل كلام الفلاسفة، واعتمادهم عَلَى تلك الأوضاع:

من ذلك: إيثَارُهُمْ للقِيَاسِ عَلَىٰ الحديث المُستدلّ به فِي المَسْألة ليَتّسعَ لَهم الْمَجالُ فِي النَّظَر، وَإن استدلَّ أَحَدٌ منهم بالحَدِيثِ هُجِّنَ، ومِنَ الأَدَب تَقْدِيم الاسْتِدْلَال بالحَدِيثِ، ومِنْ ذَلكَ أنّهم جَعَلوا النَّظرَ جُلَّ اشْتِغَالِهِمْ، ولَمْ يَمْزجوه بِما يُرقّقُ القُلُوبَ من قِرَاءَة القُرْآن، وَسَمَاع الحديث، وَسِيرَة الرَّسُول ﷺ وأصْحابِهِ.

ومعلومٌ أنَّ القُلُوبَ لا تَخْشَعُ بتكْرَار إِزَالَة النَّجَاسة وَالمَاء المُتغيِّر، وهِيَ مُحْتاجةٌ إِلَىٰ التّذكار والمَوَاعظ لتَنْهضَ لطَلَب الآخِرَةِ، ومَسَائل الخِلَافِ، وإِنْ كَانَتْ من عِلْمِ الشَّرْعِ إِلَّا أنّها لَا تَنهضُ بكُلِّ المَطْلُوبِ.

ومَنْ لَمْ يَطَّلعْ عَلَىٰ أَسْرَار سِيَرِ السَّلَف، وَحَال الَّذي تَمَذْهَب له لَمْ يُمْكنهم سُلُوك طَرِيقِهِمْ، ويَنْبغي أَنْ يُعْلمَ أنَّ الطَّبعَ لصٌّ، فإِذَا تركَ مَعَ أَهْل هَذَا الزَّمان، سرقَ مِنْ طَبَائِعِهِمْ، فَصَار مِثْلَهِمْ، فإِذَا نَظَر فِي سِيَرِ القُدَماء زَاحَمهُمْ، وتَأدَّب بأخلَاقِهِمْ.

وقد كَانَ بَعْض السَّلف يَقُول: حديثٌ يرقُّ له قَلْبي أحبُّ إليَّ من مئةِ قضيَّةٍ من قَضَايا شريح، وإنَّما قَالَ هَذَا؛ لأنَّ رقَّة القَلْب مَقصودةٌ، ولَها أسبابٌ.

ومن ذلك: أنّهم اقْتَصَروا عَلَىٰ المُنَاظرة، وأعْرَضوا عَنْ حِفْظِ المَذْهبِ، وبَاقِي عُلُوم الشَّرع، فَترىٰ الفقيهَ المُفْتي يُسْألُ عن آيَةٍ، أو حديثٍ، فَلَا يَدْري، وهَذَا غبنٌ، فأَيْنَ الأَنَفة من التَّقْصير.

ومن ذلك: أنَّ المُجَادلَةَ، إنَّما وُضِعَتْ ليَسْتبينَ الصَّوابُ، وقَدْ كَانَ مَقْصُودُ السَّلَف المُنَاصحةَ بإِظْهَار الحقِّ، وقَدْ كانوا يَنْتقلونَ من دليلٍ إِلَىٰ دليلٍ، وإِذَا خَفِيَ عَلَىٰ أَحَدهِمْ شيءٌ، نَبَّهُه الآخرُ؛ لأنَّ المقصودَ كَانَ إِظْهَارَ الحقِّ، فَصَار هَؤُلَاء إذا قاسَ الفقيهُ عَلَىٰ أصلٍ بعِلَّةٍ يَظنُّها، فَقِيلَ له: ما الدَّليلُ عَلَىٰ أنَّ الحكمَ فِي الأَصْل مُعلَّلٌ بِهَذِهِ العلَّة؟ فَقَالَ: هَذَا الَّذي

يَظْهرُ لِي، فإِنْ ظَهَر لكم ما هُوَ أَوْلَىٰ من ذَلكَ، فَاذْكُرُوهُ، فإنَّ المُعْترِضَ لَا يلْزمنِي ذِكْرَ ذَلكَ.

ولقَدْ صَدَق فِي أنّه لَا يلزمُهُ، ولَكنْ فيما ابْتدعَ مِنَ الجَدَل، بَلْ فِي باب النُّصح، وإظْهَار الحقِّ يَلْزمه.

ومن ذلك: أَنَّ أَحدهُمْ يَتبيّن له الصَّوابُ مَعَ خَصْمِهِ، وَلَا يَرْجع، ويضيقُ صدرُهُ، كَيْف ظَهَر الحقُّ مَعَ خصمِهِ، وربَّما اجْتَهَدَ فِي ردِّه مع علمِهِ أنَّه الحقُّ، وهَذَا من أَقْبَح القبيح؛ لأنَّ المُنَاظرةَ إنَّما وُضِعَتْ لبَيَان الحقِّ.

وقد قَالَ الشَّافعيُّ رَحِمَهُ اللهُ: ما نَاظَرْتُ أحدًا فأَنْكر الحُجَّة إلَّا سَقَط من عَيْني، ولا قَبِلَهَا إلَّا هِبْتُهُ، وما نَاظَرتُ أحدًا فبَالَيْتُ مع مَنْ كانت الحُجَّةُ، إنْ كَانَتْ مَعَه، صِرْتُ إليه.

ومن ذلك: أنَّ طَلَبهُمْ للرِّياسة بالمُنَاظرة تُثِيرُ الكامنَ فِي النَّفس من حبِّ الرِّياسة، فإِذَا رَأَىٰ أَحَدُهُمْ فِي كلامِهِ ضعفًا يُوجِبُ قَهْرَ خصمِهِ له، خَرَج إِلَىٰ المُكَابرة، فإنْ رأىٰ خَصْمَهُ قَد اسْتَطَال عليه بلفظٍ، أَخذتْهُ حَميَّةُ الكِبْرِ، فَقَابل ذَلكَ بالسَّبِّ، فَصَارت المُجَادلةُ مُخاذلةً.

ومن ذلك: تَرخُّصُهُمْ فِي الغِيبَةِ بحُجَّة الحِكَايَة عن المُنَاظرة، فَيَقُولُ أَحدُهُمْ: تكلَّمتُ مَعَ فُلانٍ، فَمَا قَالَ شيئًا، ويتكلَّم بِما يُوجِبُ التَّشفِّي من غَرَض خَصْمِهِ بتلك الحُجَّة.

ومن ذلك: أَنَّ إبليسَ لَبَّسَ عَلَيهم بأَنَّ الفقهَ وَحْده علم الشَّرْع، ليس ثَمَّ غيرُهُ، فإنْ ذُكِرَ لَهم مُحدِّثٌ، قَالُوا: ذَاكَ لَا يَفْهَمُ شيئًا، ويَنْسونَ أَنَّ الحديثَ هُوَ الأصلُ، فإِنْ ذكر لَهُمْ كلامٌ يَلِينُ بِهِ القلبُ، قَالُوا: هَذَا كلامُ الوُعَّاظ.

ومن ذلك: إِقْدَامُهُمْ عَلَىٰ الفَتْوىٰ، وما بَلَغوا مَرْتبتها، وربَّما أَفْتَوا بوَاقِعَاتِهِمْ المُخَالفة للنُّصُوص، ولَوْ توقَّفوا فِي المُشْكلات كَانَ أَوْلَىٰ.

فقَدْ أَخْبَرنا إسماعيلُ بن أَحْمَد السَّمرقنديُّ، نا مُحمَّد بن هبة الله الطَّبريُّ، ثنا مُحمَّد بن الحُسَين بن الفَضل، نا عبد الله بن جَعْفر بن دُرسْتُويه، ثنا يَعْقوب بن سُفْيَان، ثنا الحميديُّ،

ثنا سفيان، ثنا عَطَاء بن السَّائب، عَنْ عبد الرَّحمن بن أبِي لَيْلىٰ، قَالَ: أدركتُ مئةً وعِشْرينَ من أَصْحَاب رسول الله ﷺ يَسْأَلُ أَحَدُهم عن المَسْأَلةِ، فَيَردُّها هَذَا إِلَىٰ هَذَا، وهَذَا إِلَىٰ هَذَا حتَّىٰ تَرْجعَ إِلَىٰ الأوَّل.

قَالَ يعقوب: وَثَنا أبو نُعَيمٍ، ثنا سُفْيان، عن عَطَاء بن السَّائب، قَالَ: سَمعتُ عَبْد الرَّحمن ابن أبِي ليلىٰ أيضًا يَقُول: أدركتُ فِي هَذَا المَسْجد عِشْرينَ ومئةً من الأنْصَار من أَصْحَاب رسول الله ﷺ، ما مِنْهُمْ مَنْ يُحدِّثُ حديثًا إلَّا ودَّ أنَّ أَخَاه كَفَاه الحديث، ولا يسأل عن فُتْيا إلَّا ودَّ أنَّ أَخَاه كَفَاه الفُتْيا.

قَالَ المصنف: وقَدْ رُوِّينا عَنْ إبراهيم النَّخعيِّ أنَّ رجلًا سَألَه عَنْ مسألةٍ، فَقَالَ: ما وجدتُ مَنْ تسألُهُ غَيْري.

وعَنْ مالك بن أنسٍ رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: ما أفتيتُ حتَّىٰ سألتُ سَبْعينَ شيخًا، هَلْ ترون لي أَنْ أُفتي؟ فَقَالوا: نَعَمْ. فَقِيلَ له: فلَوْ نَهَوْك؟ قَالَ: لَوْ نَهَوْنِي انْتَهيتُ.

وقَالَ رجل لأحمد بن حنبل: إنِّي حَلَفتُ وَلَا أَدْري كيفَ حَلَفتُ؟ قَالَ: لَيْتَك إِذْ دَرَيْتَ كيف حَلَفت، دَرَيتُ أنا كَيْفَ أُفْتيكَ.

قَالَ المصنف: وإنَّما كَانَتْ هَذِهِ سَجيَّة السَّلَف لخَشْيتهم الله عَزَّوَجَلَّ، وخَوْفهم منه، ومَنْ نَظرَ فِي سِيرَتِهم تَأدَّبَ.

ومن تلبيس إبليس عَلَىٰ الفقهاء: مُخَالَطتهمْ الأُمَراء والسَّلاطين، ومُدَاهنتهمْ، وَترك الإنْكَار عَلَيهمْ مَعَ القُدْرة عَلَىٰ ذَلكَ، وربَّما رَخَّصُوا لَهُمْ فيما لا رُخْصةَ لَهم فِيهِ ليَنَالوا من دُنْياهُمْ عَرَضًا، فَيقَع بذَلِكَ الفَسَادُ؛ لثَلَاثة أَوْجهٍ:

الأوَّل: الأمير يَقُول: لَوْلَا أنِّي عَلَىٰ صوابٍ لأنكرَ عليَّ الفَقِيهُ، وكَيْف لا أكون مُصيبًا، وهو يأكُلُ من مالِي.

والثاني: العاميُّ أنّه يَقُول: لا بأس بِهَذَا الأمير، ولا بِمَالِهِ، ولا بأفعالِهِ، فإنَّ فلانًا الفقيه لا يَبرحُ عندهُ.

والثالث: الفقيهُ، فإنّه يُفسدُ دينَهُ بذَلكَ.

وقد لَبَّس إبليسُ عليهم فِي الدُّخول عَلَىٰ السُّلطان، فيَقُول: إنَّما ندخلُ لنَشْفَع فِي مُسْلمٍ، وينْكشف هَذَا التَّلبيس بأنَّه لو دَخَل غيرُهُ يشفعُ لَمَا أَعْجَبَه ذلكَ، ورُبَّما قَدَحَ فِي ذَلكَ الشَّخص لتفرُّدِهِ بالسُّلطان.

ومن تلبيس إبليس عَلَيهِمْ فِي أَخذ أَمْوَالِهم، فيَقُول: لَكَ فيها حقٌّ، ومَعْلومٌ أنَّها إِنْ كَانَتْ من حَرَامٍ لَمْ يحلَّ له منها شيءٌ، وإِنْ كَانَتْ من شُبْهَةٍ، فتَرَكُها أَوْلَىٰ، وإِنْ كَانَتْ من مُبَاحٍ، جَازَ له الأخذُ بِمِقْدَار مَكَانه من الدِّين لَا عَلَىٰ وَجْه إِنْفَاقِهِ فِي إِقَامَة الرُّعُونة، وربَّما اقْتدَىٰ العَوَام بظَاهِرِ فعلِهِ، وَاسْتَبَاحوا ما لا يُسْتَبَاحُ.

وقَدْ لبَّس إبليسُ عَلَىٰ قومٍ مِنَ العُلَماء يَنْقطعونَ عَنِ السُّلطان إقبالًا عَلَىٰ التَّعبُّدُ والدِّين، فيزين لَهم غيبةَ مَنْ يَدْخلُ عَلَىٰ السُّلطان من العُلَماء، فيَجْمَع لَهم آفَتَيْنِ: غيبة النَّاس، ومَدْح النَّفس.

وفِي الجملة: فالدُّخول عَلَىٰ السَّلاطين خطرٌ عظيمٌ؛ لأنَّ النِّيَّة قَدْ تَحْسن فِي أَوَّل الدُّخول، ثُمَّ تَتغيَّر بإِكْرَامِهِمْ وإِنْعَامِهِمْ، أو بالطَّمع فيهم، وَلَا يَتَمَاسكُ عَنْ مُدَاهنتِهِمْ، وتَرْك الإنْكَار عَلَيهم.

وقَدْ كَانَ سفيانُ الثَّوريُّ رَحِمَهُ اللهُ يَقُول: ما أَخَافُ من إِهَانَتهمْ لي، إنَّما أَخاف من إِكْرَامهم، فيَمِيلُ قَلْبِي إليهم.

وقَدْ كَانَ عُلَماء السَّلَف يَبْعُدُون عن الأُمَراء لما يَظْهر من جَوْرهم، فتَطْلُبُهم الأُمَراء لحَاجَتهم إِلَيْهِمْ فِي الفَتَاوىٰ والوَلَايات، فنَشأ أقوامٌ قَوِيَتْ رَغْبَتُهُمْ فِي الدُّنيا، فتَعَلَّموا العُلُومَ

الَّتي تَصْلح للأُمَراء، وحَمَلوها إِلَيْهم ليَنالوا من دُنْياهُمْ.

ويَدلُّك عَلَىٰ أنَّهم قَصَدوا بالعُلُوم الأُمَراءَ: أنَّ الأمراءَ كَانُوا قَدِيمًا يَميلُونَ إِلَىٰ سَمَاعِ الحُجَج فِي الأُصُول، فأَظْهَر النَّاس علمَ الكَلَام، ثُمَّ مَالَ بَعْض الأُمَراء إِلَىٰ المُنَاظرة فِي الفِقْهِ، فَمَالَ النَّاسُ إِلَىٰ الجَدَل، ثُمَّ مَالَ بَعْضُ الأُمَراء إِلَىٰ المَوَاعظ، فَمَالَ خلقٌ كثيرٌ من المُتعلِّمين إليها، ولمَّا كَانَ جُمْهور العوامِّ يَمِيلُونَ إِلَىٰ القَصَص، كَثُرَ القُصَّاصُ، وقَلَّ الفُقَهاءُ.

ومن تلبيس إبليس عَلَىٰ الفقهاء: أنَّ أَحَدهُمْ يأكُلُ من وَقْف المَدْرسة المبنيَّة عَلَىٰ المُتَشاغلين بالعِلْمِ، فيَمْكثُ فيها سِنِينَ، ولَا يَتشَاغل، ويَقْنع بِما عرف، أو يَنْتهي فِي العِلْمِ، فَلَا يَبْقىٰ له فِي الوَقْفِ حظٌّ؛ لأنَّه إنَّما جُعِلَ لمَنْ يَتعلَّم إلَّا أنْ يكونَ ذَلكَ الشَّخصُ مُعِيدًا، أو مُدرِّسًا، فإِنَّ شُغْلَهُ دائمٌ.

ومِنْ ذَلكَ مَا يُحكىٰ عَنْ بَعْض الأَحْدَاث المُتفقِّهَة من الانْبساط فِي المَنهيَّات، فبَعْضُهُمْ يَلْبسُ الحريرَ، ويَتحلَّىٰ بالذَّهب، ويُحَال عَلَىٰ المكس، فيأْخُذُه إِلَىٰ غَيْر ذَلكَ من المَعَاصي، وسَبَبُ انْبسَاط هَؤُلَاء مُخْتلفٌ، فمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ فَاسِدَ العَقِيدَةِ فِي أَصْل الدِّين، وهُوَ يَتفقَّه ليسترَ نَفْسَه، أَوْ ليَأْخُذَ من الوَقْفِ، أَوْ لِيَرْأسَ، أَوْ ليُنَاظرَ.

ومنهم: مَنْ عقيدتُهُ صحيحةٌ، لكن يَغْلبُهُ الهوىٰ، وحُبُّ الشَّهَوات، وليس عِنْدَه صارفٌ عَنْ ذَلكَ؛ لأنَّ نفسَ الجَدَلِ والمُنَاظرة تُحرِّكُ إِلَىٰ الكِبْرِ والعُجْب، وإنَّما يَتقوَّمُ الإنسانُ بالرِّياضة، ومُطَالعة سِيَرِ السَّلَف، وأَكْثَر القَوْم فِي بُعْدٍ عَنْ هَذَا، ولَيْسَ عندهم إلَّا ما يُعِينُ الطَّبع عَلَىٰ شُمُوخِهِ، فحينئذٍ يَسْرح الهَوَىٰ بلا زادٍ.

ومنهم: مَنْ يُلبِّسُ عليه إِبْليسُ بأنَّه عالِمٌ، وَفَقِيهٌ، ومُفْتٍ، والعِلْمُ يَدْفع عَنْ أربابِهِ، وهَيْهَاتَ! فإِنَّ العِلْمَ أَوْلَىٰ أَنْ يُحاجَّهُ ويُضَاعف عَذَابَهُ كَمَا ذَكَرنا فِي حقِّ القُرَّاء.

وقد قَالَ الحسنُ البصريُّ: إنَّما الفقيهُ مَنْ يَخْشىٰ الله عَزَّوَجَلَّ.

قَالَ ابن عقيل: رأيتُ فقيهًا خُراسانيًّا عَلَيه حريرٌ وَخَواتمُ ذَهَبٍ، فقلتُ لَهُ: ما هَذَا؟ فقَالَ: خُلَع السُّلطان، وكَمدُ الأَعْدَاء.

فقلت له: بَلْ هُوَ شَمَاتة الأَعْدَاء بك إِنْ كنتَ مُسْلمًا؛ لأنَّ إبليسَ عَدوُّك، وإِذَا بَلَغ منك مَبْلَغَك، أَلْبَسك ما يُسْخطُ الشَّرْعَ، فَقَدْ أَشْمَتَّهُ بنَفسِكَ، وهَلْ خُلَع السُّلطان سائغةٌ لنَهْي الرَّحمن يَا مسكين.

خَلَعَ عَلَيْكَ السُّلْطانُ، فَانْخَلَعت به مِنَ الإيمَانِ، وقَدْ كَانَ يَنْبغي أَنْ يَخْلعَ بِكَ السُّلطانُ لباسَ الفِسْقِ، ويُلْبسكَ لباسَ التَّقْوىٰ.

رَمَاكَ الله بخِزْيِهِ حَيْث هَوَّنتم أَمْرَهُ هَكَذا، لَيْتَك قلتَ: هَذِهِ رُعُونَاتُ الطَّبع، الآن تَمَّتْ مِحْنَتُك؛ لأنَّ عُدوانَك دليلٌ عَلَىٰ فَسَاد بَاطِنِكَ.

ومن تلبيسه عليهم: أَنْ يُحسِّن لَهم ازْدِرَاءَ الوُعَّاظ، ويَمْنَعهُمْ من الحُضُور عندهم، فَيقُولُون: مَنْ هَؤُلَاء؟ قُصَّاصٌ، ومُرَادُ الشَّيطان أَلَّا يَحْضروا فِي مَوْضعٍ يَلِينُ فيه القَلْبُ ويَخْشعُ. والقُصَّاصُ لا يُذَمُّون من حَيْث هَذَا الاسم؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قَالَ: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾[يوسف:٣]، وَقَالَ: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ ﴾[الأعراف:١٧٦].

وإنَّما ذُمَّ القُصَّاصُ؛ لأنَّ الغالبَ مِنْهُمْ الاتِّساع بِذِكْرِ القَصَص دون ذِكْر العِلْمِ المُفِيدِ، ثُمَّ غَالبُهُمْ يَخْلطُ فيما يُورِدُهُ، ورُبَّما اعتمَدَ عَلَىٰ ما أَكثرُهُ مُحَالٌ، فأَمَّا إذا كَانَ القَصَصُ صدقًا، ويُوجِبُ وَعْظًا، فهُوَ مَمْدوحٌ، وقَدْ كَانَ أَحْمَد بن حنبلٍ يَقُولُ: ما أَحْوجَ النَّاس إِلَىٰ قَاصٍّ صَدُوقٍ.

ذكر تلبيسه عَلَى الوُعَّاظ والقُصَّاص:

قَالَ المصنف: كَانَ الوُعَّاظُ فِي قديم الزَّمَان عُلَماء فُقَهاء، وقَدْ حَضَر مجلس عُبَيد بن عُمير عَبْد الله بن عُمَر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وَكَانَ عُمَر بن عَبْد العزيز يَحْضر مَجْلسَ القَاصِّ.

ثُمَّ خَسَّتْ هَذِهِ الصِّناعةُ، فتَعرَّض لَها الجُهَّالُ، فبَعُدَ عَن الحُضُور عِنْدَهُمُ المُميَّزون من النَّاس، وتَعلَّق بِهم العَوَامُّ والنِّساء، فلَمْ يَتَشَاغلوا بالعِلْمِ، وَأَقْبَلوا عَلَىٰ القَصَص ومَا يعجبُ الجَهَلة، وَتَنوَّعت البدعُ فِي هَذَا الفنِّ.

وقَدْ ذَكَرنا آفَاتِهِمْ فِي كتاب القُصَّاص والمُذكِّرين، إلَّا أَنَّا نَذْكرُ هنا جُملةً، فمِنْ ذَلكَ: أَنَّ قومًا منهم كَانُوا يَضَعون أَحَاديثَ التَّرغيب والتَّرهيب، ولبَّس عَلَيهم إبليسُ: بأنَّنا نَقْصدُ حثَّ النَّاس عَلَىٰ الخَيْر، وكَفَّهُم عن الشَّرِّ، وهَذَا افتياتٌ منهم عَلَىٰ الشَّريعة؛ لأَنَّها عِنْدَهُمْ عَلَىٰ هَذَا الفعل ناقصةٌ تَحْتاجُ إِلَىٰ تتمةٍ، ثُمَّ نَسَوْا قَوْلَهُ ﷺ: «مَنْ كذبَ عليَّ مُتعمِّدًا، فَلْيتبوَّأْ مَقْعدَهُ من النَّار»[1].

ومِنْ ذَلكَ أَنَّهم تَلمَّحوا ما يُزْعِج النُّفُوسَ، ويُطْرِب القُلُوبَ، فَنوَّعوا فيه الكلامَ، فَتَراهم يُنْشدُونَ الأَشْعَارَ الرَّائقةَ الغزليَّةَ فِي العشق.

ولبَّس عليهم إبليسُ: بأنَّنا نَقْصد الإشارةَ إِلَىٰ مَحبَّة الله عَزَّوَجَلَّ، ومعلومٌ أَنَّ عامَّة مَنْ يحضرهم العوام الَّذين بَوَاطِنُهُمْ مَشْحونةٌ بحبِّ الهَوَىٰ، فيَضلُّ القاصُّ ويُضِلُّ. ومِنْ ذَلكَ مَنْ يُظْهِرُ مِنَ التَّواجد والتَّخَاشع زيادةً عَلَىٰ ما فِي قلبِهِ، وكَثْرةُ الجَمْع تُوجِبُ زيادةً تُعْمَل، فتَسْمَح النَّفْسُ بفَضْل بُكَاءٍ وخُشُوعٍ، فمَنْ كَانَ منهم كاذبًا، فقَدْ خسرَ الآخرة، ومَنْ كَانَ صادقًا، لَمْ يَسْلَمْ صدقُهُ من رِيَاءٍ يُخَالطُهُ.

ومنهم: مَنْ يَتحرَّكُ الحَرَكات الَّتي يُوقِعُ بِها عَلَىٰ قِرَاءَة الأَلْحَان، والأَلْحانُ الَّتي قَدْ أَخْرَجوها اليومَ مُشَابهةٌ للغناء، فهِيَ إِلَىٰ التَّحْريم أَقْرَبُ منها إِلَىٰ الكَرَاهة، والقارئُ يَطْرب، والقاصُّ يُنْشدُ الغزلَ مع تَصْفيقٍ بيَدَيه، وإيقاعٍ برِجْلَيْه، فتشبه السُّكْرَ، ويُوجِبُ ذَلكَ تَحْريكَ الطِّباع، وتَهْييجَ وصِيَاح الرِّجال والنِّساء، وتَمْزيقَ الثِّياب لِمَا فِي النُّفُوس من دَفَائن الهوىٰ،

(١) أخرجه البخاري مُطوَّلًا (١١٠)، ومسلم في المقدمة (٣) من حديث أبي هُرَيرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

ثُمَّ يَخْرجون، فيَقُولون: كَانَ المجلسُ طيبًا، ويُشِيرُونَ بالطِّيبة إِلَىٰ ما لَا يَجُوزُ.

ومنهم: مَنْ يَجْرِي فِي مثل تلك الحَالَة الَّتي شَرَحناها، لَكنَّه يُنْشدُ أَشْعارَ النَّوح عَلَىٰ المَوْتَىٰ، ويصفُ مَا يَجْرِي لَهم من البَلَاء، ويَذْكُرُ الغُربةَ، ومَنْ ماتَ غريبًا، فيُبْكي بِها النِّساء، ويصيرُ المكَانُ كالمَأْتَمِ، وإنَّما يَنْبغي أَنْ يذكرَ الصَّبر عَلَىٰ فَقْد الأَحْباب، لَا ما يُوجِبُ الجزعَ.

ومنهم: مَنْ يَتكلَّمُ فِي دَقَائق الزُّهْد، ومَحبَّة الحقِّ سُبْحَانه، فلبَّس عليه إبليسُ: إنَّك من جُمْلة المَوْصُوفِينَ بذَلكَ؛ لأنَّك لَمْ تَقْدر عَلَىٰ الوَصْفِ حتَّىٰ عرفت ما تَصِفُ، وَسَلكت الطَّرِيقَ، وكَشْفُ هَذَا التَّلبيس أنَّ الوصفَ عِلْمٌ، والسُّلُوكُ غيرُ العِلْمِ.

ومنهم: مَنْ يتكلَّم بالطَّامات والشَّطح الخارج عَنِ الشَّرْع، ويَسْتشهدُ بأَشْعَار العِشْقِ، وغرضُهُ أَنْ يَكْثُرَ فِي مجلسِهِ الصِّياحُ ولَوْ عَلَىٰ كلامٍ فاسدٍ.

وكَمْ منهم مَنْ يُزَوِّقُ عبارةً لا مَعْنىٰ تَحْتها، وأَكْثَر كَلَامهم اليوم فِي مُوسَىٰ، والجَبَل، وزليخا، ويُوسُف، وَلَا يَكَادون يَذْكرون الفَرَائض، ولَا يَنْهون عن ذنبٍ، فمَتَىٰ يَرْجع صاحبُ الزِّنا، ومُسْتَعمل الرِّبا، وتَعْرفُ المرأةُ حقَّ زَوْجِهَا، وتَحْفظ صَلَاتَها، هَيْهات، هَؤُلَاء تَرَكوا الشَّرعَ وَرَاء ظُهُورهِمْ، وَلِهَذَا نَفَقتْ سِلَعُهُمْ؛ لأنَّ الحقَّ ثقيلٌ، والباطلَ خفيفٌ.

ومنهم: مَنْ يحُثُّ عَلَىٰ الزُّهد، وقيامِ اللَّيل، ولا يُبيِّنُ للعامَّة المَقْصودَ، فرُبَّما تابَ الرَّجلُ مِنْهُمْ، وانْقطَعَ إِلَىٰ زَاوِيَةٍ، أَوْ خَرَج إِلَىٰ جبلٍ، فَبَقِيَتْ عَائلتُهُ لَا شَيءَ لَهُمْ.

ومنهم: مَنْ يَتكلَّمُ فِي الرَّجاء والطَّمع من غير أَنْ يمزجَ ذَلكَ بِمَا يُوجبُ الخوفَ والحذرَ، فيزيدُ النَّاس جراَةً عَلَىٰ المَعَاصي، ثُمَّ يَقْوىٰ ما ذكر بِمَيْلِهِ إِلَىٰ الدُّنيا من المَرَاكب الفَارِهَةِ، والمَلَابس الفَاخِرَةِ، فيُفْسد القُلُوبَ بقَوْلِهِ وفِعْلِهِ.

فصل [داء حب الظهور والرئاسة]

وقَدْ يَكُونُ الوَاعِظُ قاصدًا للنَّصيحة، إلَّا أنَّ مِنْهُمْ مَنْ شربَ الرِّئاسة فِي قلبِهِ مع الزَّمان، فيُحبُّ أنْ يُعَظَّم، وعلامتُهُ أنَّه إذا ظَهَرَ واعظٌ يَنُوبُ عنه، أو يعينُهُ عَلَىٰ الخَلْق، كَرِهَ ذَلكَ، ولَوْ صحَّ قَصْدُهُ، لَمْ يَكْره أنْ يُعِينَهُ عَلَىٰ خَلَائق الخَلْق.

فصل [فتن مجلس الوعظ]

ومِنَ القُصَّاص مَنْ يَخلط فِي مجلسِهِ الرِّجالَ والنِّساءَ، وَتَرىٰ النِّساءَ يُكثرنَ الصِّياحَ وَجْدًا عَلَىٰ زَعْمهنَّ، فلا يُنكرُ ذلكَ عَلَيهنَّ؛ جمعًا للقُلُوب عَلَيه، ولقَدْ ظَهَر فِي زَمَاننا هَذَا من القُصَّاص ما لا يَدْخل فِي التَّلْبيس؛ لأنَّه أمرٌ صريحٌ من كَوْنِهم جَعَلوا القصصَ معاشًا يَسْتَمْنحون بِهِ الأُمَرَاءَ، والظَّلَمَةَ، والأخْذ مِنْ أصْحَاب المُكُوس، والتَّكسُّب بِهِ فِي البُلْدَان، وَفِيهِمْ مَنْ يَحْضر المَقَابرَ، فيذكر البِلَىٰ، وفراقَ الأحبَّة، فيَبْكي النِّسوةُ، وَلَا يحثُّ عَلَىٰ الصَّبر.

وقد يُلبِّسُ عَلَىٰ الواعظ المُحقق، فيَقُولُ له: مِثْلُك لا يَعظُ، وإنَّما يَعِظُ مُتيقِّظٌ، فيحملُهُ عَلَىٰ السُّكُوت والانْقِطَاعِ، وذَلكَ من دَسَائس إبْلِيسَ؛ لأنَّه يَمْنع فِعْلَ الخَيْر، ويَقُولُ: إنَّك تَلْتذُّ بِما تُورِدُهُ، وَتَجدُ راحةً، فربَّما دَخَل الرِّياءُ فِي قَوْلك، وَطَرِيق الوِحْدة أسْلَمُ، ومقصودُهُ بذَلكَ سدُّ بَاب الخير.

وعَنْ ثابتٍ قَالَ: كَانَ الحسنُ فِي مَجْلسٍ، فَقِيلَ للعَلَاء: تكلَّمْ! فَقَالَ: أوَهُناك أنا؟ ثُمَّ ذَكَر الكلامَ، ومؤنتَهُ، وتَبِعَتَهُ. قَالَ ثابتٌ: فأعْجَبنِي. قَالَ: ثُمَّ تكلَّم الحسنُ: وإنَّنا هناك يودُّ الشَّيطانُ أنَّكُمْ أخَذتُمُوها عنه، فَلَمْ يَأْمُرْ أحدًا بخيرٍ، ولَمْ ينْهَهُ عن شرٍّ.

ذكر تلبيسه عَلَىٰ أهل اللغة والأدب:

قَالَ المصنف: قَدْ لَبَّس عَلَىٰ جُمْهورهم؛ فَشَغلهم بعُلُوم النَّحْو واللُّغة من المهمَّات اللَّازمة الَّتي هِيَ فَرْضُ عَيْنٍ، عَنْ مَعْرفة ما يَلْزمُهُمْ عرفانه من العِبَادَات، وما هُوَ أَوْلَىٰ بِهم مِنْ آدَاب النُّفُوس، وصَلَاح القُلُوب، وبِما هو أَفْضَلُ من عُلُوم التَّفسير، والحديث، والفِقْهِ، فأذْهَبوا الزَّمان كُلَّه فِي عُلُومٍ لا تُرَادُ لنَفْسها، بل لغَيْرها، فإنَّ الإنسانَ إذا فَهِمَ الكلمةَ، فيَنْبغي أَنْ يَترقَّىٰ إِلَىٰ العَمَل بِها، إِذْ هِيَ مُرَادةٌ لغَيْرها، فتَرَىٰ الإنسانَ منهم لا يَكَادُ يَعْرف من آدَاب الشَّريعة إِلَّا القليلَ، وَلَا من الفِقْهِ، وَلَا يَلْتفتُ إِلَىٰ تَزْكية نفسِهِ، وَصَلاح قَلْبِهِ.

ومَعَ هَذَا فَفِيهِمْ كِبْرٌ عظيمٌ، وقَدْ خيَّل لَهم إبليسُ أَنَّهمْ عُلَماء الإسلام؛ لأنَّ النَّحوَ واللُّغةَ من عُلُوم الإسلام، وبِها يُعْرفُ معنىٰ القُرْآن العزيز، ولعمري، إنَّ هَذَا لا يُنْكَر، ولكن مَعْرفة ما يَلْزم من النَّحْو لإِصْلَاح اللِّسان، وما يَحْتاج إليه من اللُّغة فِي تَفْسير القرآن والحديث- أمرٌ قريبٌ، وهُوَ أمرٌ لازمٌ، وَمَا عَدَا ذَلِكَ فَضْلٌ لا يُحْتَاجُ إليه، وإِنْفَاق الزَّمان فِي تَحْصيل هَذَا الفَاضل، ولَيْسَ بِمُهمٌّ مَعَ تَرْك المُهمِّ غلطٌ، وإيثاره عَلَىٰ ما هو أَنْفعُ، وأعْلَىٰ رُتْبةً كالفِقْهِ والحَدِيثِ غَبْنٌ، ولو اتَّسَعَ العُمْرُ لمَعْرفة الكلِّ كَانَ حسنًا، لكنَّ العُمُرَ قصيرٌ، فيَنْبَغي إيثار الأهمِّ والأفْضَل.

فصل [لزوم تفصيل المحتملات]

ومِمَّا ظَنُّوه صوابًا وهُوَ خطأٌ، ما أَخْبَرنا به أبو الحُسَين بن فارس، قَالَ: قِيلَ لفَقِيهِ العَرَب: هَلْ يجبُ عَلَىٰ الرَّجل إذا أَشْهَدَ الوُضُوءَ. قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: والإشهادُ: أَنْ يمْذِيَ الرَّجلُ.

قَالَ المصنف: وذَكَر من هَذَا الجِنْسِ مَسَائلَ كثيرةً، وهَذَا غايةٌ فِي الخَطَإِ؛ لأنَّه متَىٰ كَانَ الاسْمُ مشتركًا بين مُسمَّيين، كَانَ إِطْلَاقُ الفَتْوىٰ عَلَىٰ أَحَدهما دُونَ الآخر خطأً، مثالُهُ أَنْ

يَقُولَ المُسْتفتي: ما تَقُولُ فِي وَطْءِ الرَّجل زوجتَهُ فِي قُرْئِها؟ فإنَّ القُرْءَ يَقَعُ عند اللُّغويِّينَ عَلَىٰ الأَطْهَار، وعَلَىٰ الحَيْضِ.

فيقول الفقيه: يَجُوزُ إِشَارَةً إِلَىٰ الطُّهْر، أَوْ لا يَجُوز إشارةً إِلَىٰ الحَيْض خطأً.

وكَذَلك لو قَالَ السَّائل: هَلْ يَجُوز للصَّائم أَنْ يأكلَ بعد طُلُوع الفَجْر؟ لَمْ يجز إطلاقُ الجَوَاب، فَمَا ذَكَره فَقِيهُ العرب هُوَ خطأٌ من وَجْهين:

أحدهُما: أنَّه لَمْ يَسْتَفْصل فِي المُحْتَملاتِ.

والثاني: أنَّه صَرَف الفتوىٰ إِلَىٰ أَبْعَد المُحْتَملات، وتَرَكَ الأَظْهَر، وقَد اسْتَحْسَنوا هَذَا، وقلَّة الفقه أَوْجَبَتْ هَذَا الزَّلل.

فصل [فتنة البطالة]

ولَمَّا كَانَ عُمُوم اشْتِغَالِهِمْ بأَشْعَار الجاهليَّة، ولَمْ يجد الطَّبع صادًّا عمَّا وُضِعَ عليه من مُطَالعة الأَحَاديث، ومَعْرفة سِيَرِ السَّلَف الصَّالح، سَالَتْ بِهم الطِّباع إِلَىٰ هُوَّة الهَوَىٰ، فَانبَتَّ شَرْعُ البَطَالة يَعْبَثُ، فقلَّ أَنْ تَرَىٰ منهم مُتَشاغلًا بالتَّقْوىٰ، أَوْ ناظرًا فِي مطعمٍ، فإنَّ النَّحْوَ يَغْلب طلبُهُ عَلَىٰ السَّلَاطين، فيأكل النُّحَاةُ من أَمْوالِهم الحَرَام، كَمَا كَانَ أبو عليٍّ الفارسيُّ فِي ظلِّ عَضُد الدَّولة وغَيْره.

وقَدْ يَظنُّون جَوَازَ الشَّيء، وهو غَيْر جائزٍ لقلَّة فِقْهِهِمْ كَمَا جَرَىٰ للزَّجَّاج أَبِي إسحاق إبراهيم بن السري، قَالَ: كنتُ أُؤدِّبُ القاسمَ بن عبد الله، فأَقُولُ له: إِنْ بلغت إِلَىٰ مَبْلغ أبيك، ووليت الوَزَارة، مَاذَا تَصْنع بِي؟ فيَقُولُ: ما أَحْبَبتَ. فأَقُولُ له: أَنْ تُعْطِيني عِشْرينَ ألفَ دينارٍ، وَكَانَتْ غَايَةَ أُمْنِيَّتِي، فَمَا مَضَت إِلَّا سُنُون حتَّىٰ وُلِّي القاسمُ الوَزَارة، وأنا عَلَىٰ مُلَازمتِي له، وقَدْ صرتُ نَدِيمَهُ، فَدَعتنِي نَفْسي إِلَىٰ إِذْكَاره بالوَعْد، ثُمَّ هبتُهُ، فلَمَّا كَانَ فِي اليَوْم الثَّالث من وَزَارتِهِ، قَالَ لِي: يا أبا إسحاق، لَمْ أَرَكَ أذكرتنِي بالنَّذر. فقلتُ: عوَّلتُ عَلَىٰ رِعَايَة الوَزير

أيّدهُ الله، وأنّه لا يَحْتَاج إِلَىٰ إذْكارٍ لنَذْرٍ عليه فِي أمْر خادمٍ واجب الحقّ. فَقَالَ لِي: إنَّه المُعْتَضد، ولَوْلاه ما تَعَاظمنِي دَفْعُ ذَلكَ إِلَيْكَ فِي مَكَانٍ واحِدٍ، ولكن أخَافُ أنْ يصيرَ لي مَعَه حديثٌ، فأسْمَح بأخْذِهِ مُتفرِّقًا.

فقُلْتُ: أفْعَلُ. فَقَالَ: اجْلِسْ للنَّاس، وخُذْ رِقَاعَهُمْ فِي الحَوَائج الكِبَارِ، وَاسْتَعْجل عَلَيها، وَلَا تَمْتَنع مِنْ مُسَاءلتِي شيئًا تُخَاطب فِيهِ؛ صَحيحًا كَانَ أو مُحالًا إلَىٰ أنْ يحصلَ لَكَ مَالُ النَّذْر، ففعلتُ ذَلكَ، وكنتُ أعْرِضُ عَلَيه كلَّ يومٍ رِقَاعًا فيُوقعُ فِيهَا، ورُبَّما قَالَ لي: كَمْ ضُمِنَ لَكَ عَلَىٰ هَذَا؟ فأقُولُ: كَذَا وكَذَا، فيَقُولُ: غُبِنْتَ، هَذَا يُسَاوي كَذَا وكَذَا، فَاسْتَزِدْ، فَأُرَاجعُ القومَ، ولَا أزَال أُمَاكِسُهُمْ ويَزيدُونَنِي حتَّىٰ أبلغَ الحدَّ الَّذي رَسَمه. قَالَ: فَعَرضتُ عَلَيه شيئًا عظيمًا، فَحَصل عِنْدِي عِشْرُونَ ألْف دينارٍ، وأكْثَرُ منها فِي مُدَّةٍ مديدةٍ. فَقَالَ لي بَعْد شُهُورٍ: يا أبا إسْحَاق، حَصَل مالُ النَّذْر؟ فقلتُ: لَا، فَسَكت وكنتُ أعرضُ، ثُمَّ يَسْألنِي فِي كلِّ شهرٍ أوْ نَحْوه، هَلْ حَصَل المالُ؟ فأقُولُ: لَا، خوفًا من انقطَاع الكَسْب إلَىٰ أنْ حَصَلَ عِنْدِي ضعفُ المال، وَسَألنِي يَوْمًا، فَاسْتَحْييتُ من الكَذِبِ المُتَّصل.

فقلت: قَدْ حَصَل ذَلكَ بسَعَادة الوزير، فَقَالَ: فَرَّجْتَ -واللهِ- عنِّي، فقَدْ كنتُ مَشْغولَ القَلْب إلَىٰ أنْ يحصلَ لَكَ. قَالَ: ثُمَّ أخَذ الدَّواة، ووَقع لي إلَىٰ خازنِهِ بثَلَاثة آلافِ دِينَارٍ صِلَةً، فأخَذْتُها، وَامْتَنَعتُ أنْ أعرضَ عَلَيه شيئًا، ولَمْ أدرِ كَيْف أقَعُ منه، فلَمَّا كَانَ من الغَدِ جئتُهُ، وجَلَستُ عَلَىٰ رَسْمي، فأوْمَأ إليَّ: هَاتِ ما مَعَك ليَسْتدعي من الرِّقَاع عَلَىٰ الرَّسْم، فقُلْتُ: ما أخَذتُ مِنْ أحَدٍ رقعةً؛ لأنَّ النَّذْرَ قَدْ وَقَع الوفاءُ بِهِ، ولَمْ أدْر كَيْفَ أقَعُ مِنَ الوزير، فَقَالَ: يا سُبْحَان الله! أتُرَانِي كنتُ أقطعُ عَنْكَ شيئًا قَدْ صَارَ لَكَ عادةً، وعَلِمَ به النَّاسُ، وَصَارَتْ لكَ به مَنْزلةٌ عندهم وَجَاهٌ، وغدوٌّ وَرَوَاحٌ إلَىٰ بَابك، وَلَا يَعْلم سببَ انْقطَاعِهِ فيَظنُّ ذَلكَ لضَعْف جَاهِكَ عِنْدِي، أوْ تَغيُّر رُتْبتكَ، اعرِضْ عَلَيَّ رَسْمك، وخُذْ بلا حِسَابٍ، فَقبَّلْتُ يَدَه وبَاكرتُهُ من غدٍ بالرِّقَاع، وكنتُ أعْرِضُ عَلَيه كلَّ يومٍ شيئًا إلَىٰ أنْ

مات، وقَدْ تَأثّلت مَالِي هَذَا.

قَالَ المصنف: انظُرُوا ما يَصْنَع قلّة الفقه، فإِنَّ هَذَا الرَّجلَ الكبيرَ القَدْرِ فِي مَعْرفتِهِ النَّحْوَ واللُّغة لَوْ علمَ أنَّ هَذَا الَّذي جَرَىٰ له لَمْ يَجُز شرعًا ما حَكَاه، وتَبجَّح بِهِ، فإِنَّ إيصالَ الظُّلَامات واجبٌ، وَلَا يَجوزُ أَخْذُ البرطيل عَلَيها، ولا عَلَىٰ شيءٍ مِمَّا نصب الوَزير لَهُ من أُمُور الدَّولَة، وبِهَذَا تَبيَّن مَرْتبةُ الفِقْهِ عَلَىٰ غَيْره.

ذكر تلبيس إبليس عَلَى الشعراء:

قَالَ المصنف: وقَدْ لبَّس عَلَيهم فأَرَاهم أنَّهم من أَهْل الأَدَب، وأنَّهم قَدْ خصُّوا بفِطْنةٍ تَمَيَّزوا بِها عَنْ غَيْرهم، ومَنْ خَصَّكمْ بِهَذِهِ الفِطْنَةِ رُبَّما عَفَا عن زَلَلكمْ، فتَرَاهم يَهِيمُونَ فِي كلِّ وادٍ من الكَذِبِ، والقَذْفِ، والهِجَاءِ، وهَتْك الأَعْرَاض، والإقْرَار بالفَوَاحش، وأَقَلُّ أَحْوَالهم أنَّ الشَّاعرَ يَمْدح الإنسانَ، فيَخَاف أَنْ يَهْجُوهُ فيُعْطيه اتِّقاءَ شَرِّه، أَوْ يَمْدحه بَيْنَ جَمَاعةٍ، فيُعْطيه حياءً من الحَاضِرينَ، وجميعُ ذَلكَ مِنْ جِنْسِ المُصَادرة.

وتَرَىٰ خَلقًا من الشُّعَراء وأَهْل الأَدَب لا يَتَحاشَوْنَ من لُبْس الحَرِيرِ، والكَذِبِ فِي المَدْحِ خَارجًا عن الحدِّ، ويَحْكونَ اجْتمَاعهمْ عَلَىٰ الفِسْقِ، وشُرْب الخَمْر، وغَيْر ذَلكَ، ويَقُولُ أَحدُهُمْ: اجْتمَعتُ أنا وجَمَاعةٌ من الأُدَباء، ففَعَلنا كَذَا وكَذَا، هَيْهاتَ هَيْهاتَ، لَيْسَ الأَدبُ إلَّا مَعَ الله عَزَّوَجَلَّ باسْتِعْمَال التَّقْوىٰ لَهُ، ولَا قَدر للفطن فِي أُمُور الدُّنيا، ولا تَحْسن العبارةُ عِنْدَ الله إذا لَمْ يَتَّقِهِ، وجُمْهُورُ الأُدَباء إذا ضاقَ بِهم رزقٌ، تَسَخَّطُوا فكَفَروا، وأَخَذوا فِي لَوْم الأَقْدَار كقَوْلِ بَعْضِهِمْ:

لَئِنْ سَمَتْ هِمَّتِي فِي الفَضْلِ عَاليةً ... فإِنَّ حظِّي ببَطْن الأَرْض مُلْتصقُ

كَمْ يفعلُ الدَّهرُ بِي ما لا أُسرُّ به ... وكَمْ يُسيءُ زمانٌ جائرٌ حنقُ

وَقَدْ نَسِيَ هَؤُلَاء أَنَّ مَعَاصيهمْ تُضيِّقُ أَرْزَاقَهُمْ، فَقَدْ رَأَوْا أَنْفسهُمْ مُسْتحقِّين للنِّعم،

مُسْتَوجِبِينَ للسَّلَامة من البَلَاء، وَلَمْ يَتلمَّحُوا ما يَجبُ عَلَيهِمْ من امْتِثَال أَوَامر الشَّرْع، فقَدْ ضَلَّتْ فِطْنَتُهُمْ فِي هَذِهِ الغَفْلة.

ذكر تلبيس إبليس علَى الكاملين من العلماء:

قَالَ المصنف: إنَّ أَقْوامًا عَلَتْ هِممُهُمْ، فَحَصَّلوا عُلُومَ الشَّرْع مِنَ القُرْآن، والحَدِيثِ، والفِقْهِ، والأَدَب، وغَيْر ذَلكَ، فأَتَاهُمْ إبليسُ بخَفيِّ التَّلْبيس، فَأَرَاهُمْ أَنفُسَهمْ بعَيْنِ عظيمةٍ لَمَّا نَالُوا، وأَفَادوا غَيْرهُمْ.

فمنهم: مَنْ يَستفزُّه لطُول عَنَائِهِ فِي الطَّلَب، فَحَسَّن له اللَّذَّاتِ، وقَالَ له: إلَىٰ متَىٰ هَذَا التَّعب، فأَرِحْ جَوَارحَكَ من كُلَفِ التَّكَاليف، وَافْسَحْ لنَفْسِكَ فِي مُشْتَهاها.

فإِنْ وَقَعْتَ فِي زلَّةٍ، فالعلمُ يَدْفعُ عنك العُقُوبةَ، وأَوْرَد عَلَيه فَضْل العُلَماء، فإِنْ خُذِلَ هَذَا العبدُ، وَقَبِلَ هَذَا التَّلْبيسَ، يَهْلكُ، وإِنْ وُفِّق فيَنْبغي له أَنْ يَقُولَ: جَوَابُكَ مِنْ ثَلَاثة أَوْجهٍ:

أحدها: إنَّه إنَّما فُضِّل العُلَماءُ بالعِلْمِ، ولَوْلَا العملُ به ما كَانَ له مَعْنىٰ، وإذا لَمْ أَعْمَل بِهِ كنتُ كَمَنْ لَمْ يَفْهم المَقْصودَ به، ويَصِير مَثَلي كَمَثَل رجلٍ جَمَع الطَّعامَ، وأَطْعمَ الجِيَاعَ، ولَمْ يَأْكل، فلَمْ يَنْفَعْهُ ذَلكَ من جُوعِهِ.

والثاني: أَنْ يُعَارِضَه بِما وَرَد فِي ذمِّ مَنْ لَمْ يَعْمل بالعلم، لقَوْلِهِ ﷺ: «**أشدُّ النَّاس عَذابًا يَوْمَ القِيَامَة: عَالِمٌ لَمْ يَنْفَعْه اللهُ بعلمِهِ**»(١).

وحكايَتُهُ ﷺ عن رجلٍ يُلْقَىٰ فِي النَّار، فتَنْدلقُ أَقْتابُهُ، فيَقُولُ: «**كنتُ آمُرُ بالمَعْروفِ وَلَا آتِيهِ، وأَنْهَىٰ عن المُنْكَر وآتِيه**»(٢).

---

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٧٧٨) من حديث أبي هُرَيرة رضي الله عنه. وقال الألبانيُّ في «ضعيف الجامع» (٨٦٨): ضعيف جدًّا.

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٦٧)، ومسلم (٢٩٨٩) من حديث أُسَامة بن زيد رضي الله عنه.

وقَوْلُ أَبِي الدَّرْدَاء ﷺ: «ويلٌ لمَنْ لَا يَعْلم مرَّةً، وويلٌ لمَنْ عَلِمَ ولَمْ يَعْمَلْ سَبْعَ مَرَّاتٍ».

والثالث: أَنْ يذكرَ له عقابَ مَنْ هَلكَ مِنَ العُلَماء التَّاركينَ للعَمَل بالعلم؛ كإِبْلِيسَ وبلعام، ويَكْفِي فِي ذَمِّ العَالِمِ إِذَا لَمْ يَعْمَلْ قولُهُ تَعَالىٰ: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة:٥].

وقَدْ لبَّس إِبْلِيسُ عَلَىٰ أَقْوامٍ مِنَ المُحكمين فِي العِلْمِ والعَمَل من جِهَةٍ أُخرَىٰ، فحَسَّن لَهُمُ الكِبْرَ بالعِلْمِ، والحَسَد للنَّظير، والرِّياء لِطَالِبِ الرِّياسَة، فتارةً يُريهم أَنَّ هَذَا كالحقِّ الوَاجِبِ لَهُمْ، وتارةً يُقوِّي حبَّ ذلكَ عندهم، فَلَا يَتْركونَهُ مَعَ عِلْمهم بأنَّه خطأٌ، وعلاجُ هَذَا لمَنْ وُفِّق: إدمانُ النَّظَر فِي إِثْمِ الكِبْرِ، والحَسَدِ، والرِّياءِ، وَإِعْلَامُ النَّفْس أنَّ العِلْمَ لَا يَدْفَعُ شرَّ هَذِهِ المُكْتَسبات، بَل يُضَاعف عَذَابَها لتَضَاعُفِ الحُجَّة بِها، ومَنْ نَظَر فِي سِيَرِ السَّلَف من العُلَماء العَامِلِينَ اسْتَحْقرَ نَفْسَه، فلَمْ يَتكبَّر، ومَنْ عَرَف الله، لَمْ يُراءِ، ومَنْ لاحظَ جَرَيانَ أَقْدَاره عَلَىٰ مُقْتَضىٰ إرادتِهِ، لَمْ يَحْسد.

وقَدْ يَدْخُلُ إبليسُ عَلَىٰ هؤلاء بشُبْهةٍ ظريفةٍ، فيَقُول: طَلَبُكمْ للرِّفْعَة لَيْسَ بتكبُّرٍ؛ لأَنَّكُمْ نُوَّابُ الشَّرْع، فإنَّكُمْ تَطْلبون إِعْزَازَ الدِّين، ودَحْض أَهْل البدع، وإِطْلَاقكم اللِّسان فِي الحُسَّاد غَضبٌ للشَّرع، إِذِ الحُسَّاد قَدْ ذَمُّوا مَن قام به، وما تَظنُّونه رياءً فَلَيْسَ برياءٍ؛ لأنَّ مَنْ تَخَاشع منكم وتَبَاكىٰ، اقْتدَىٰ بِهِ النَّاسُ كَمَا يَقْتدُونَ بالطَّبيب إِذَا احْتَمَىٰ أَكْثَر من اقْتدَائِهِمْ بقولِهِ إذا وصف.

وكَشْف هَذَا التَّلبيس: أنَّه لو تكبَّر مُتكبِّرٌ عَلَىٰ غَيْرهم من جِنْسِهِمْ، وَصَعِدَ فِي المَجْلس فوقه، أَوْ قَالَ حاسدٌ عَنْه شيئًا، لَمْ يَغْضَبْ هَذَا العَالِمُ لذَلِكَ كغَضَبِهِ لنفسِهِ، وإِنْ كَانَ المَذْكور من نُوَّاب الشَّرع، فعلم أنَّه إنَّما لَمْ يَغْضب لنفسِهِ، بَلْ للعِلْمِ.

وأمَّا الرِّياءُ، فَلَا عُذْرَ فيه لأحدٍ، وَلَا يَصْلح أَنْ يُجْعلَ طريقًا لِدِعَايَة النَّاس، وقَدْ كَانَ أيُّوبُ السختيانِيُّ إذا حَدَّثَ بحديثٍ، فرق ومَسَح وَجْهَه، وقَالَ: مَا أشدَّ الزُّكام! وبَعْد هَذَا، فالأَعْمَالُ بالنِّيَّات، والنَّاقدُ بصيرٌ، وكَمْ من ساكتٍ عَنْ غِيبَةِ المُسْلمين إذا اغْتِيبُوا عنده، فَرِحَ قَلْبُهُ، وهُوَ آثمٌ بذَلكَ من ثَلَاثةِ أَوْجهٍ:

أحدها: الفَرَح، فإنَّه حَصَلَ بوُجُود هَذِهِ المَعْصيَة من المُغْتاب.

والثاني: لسُرُوره بثلب المُسْلمينَ.

والثالث: أنَّه لا يُنْكرُ.

فصل [حب علو الصيت]

وقَدْ لبَّس إبليسُ عَلَىٰ الكاملين فِي العُلُوم، فيَسْهَرون لَيْلَهمْ، ويَدْأبُونَ نَهارهم فِي تَصَانيف العُلُوم، ويُريهم إِبْليسُ أنَّ المَقْصودَ نَشْرُ الدِّين، ويَكُونُ مَقْصودُهُمْ الباطنُ انْتشَارَ الذِّكْر، وعُلوَّ الصِّيت والرِّياسة، وطَلَبَ الرِّحلة من الآفَاقِ إِلَىٰ المُصنِّف.

ويَنْكَشفُ هَذَا التَّلبيسُ بأنَّه لو انْتفَعَ بِمُصنَّفاته النَّاسُ من غير تَردُّدٍ إليه، أو قُرِئَتْ عَلَىٰ نَظِيرِه فِي العِلْمِ، فَرِحَ بذلك إِنْ كَانَ مرادُهُ نَشْر العلم، وقَدْ قَالَ بعض السَّلَف: ما من عِلْمٍ علمتُهُ إلَّا أحببتُ أَنْ يَسْتَفيدَهُ النَّاس من غَيْر أن يُنْسبَ إليَّ.

ومنهم: مَنْ يَفْرح بكثرة الأتباع، ويُلبِّسُ عَلَيه إبليسُ بأَنَّ هَذَا الفَرَحَ لكَثْرة طُلَّاب العِلْم، وإنَّما مُرَادُهُ كَثْرة الأَصْحَاب، وَاسْتطَارة الذِّكر، ومِنْ ذَلكَ العُجْبُ بكَلِمَاتِهم وعِلْمِهِمْ، ويَنْكشف هَذَا التَّلبيسُ بأنَّه لو انْقطَعَ بَعْضهم إِلَىٰ غَيْره مِمَّن هو أَعْلَمُ منه، ثَقُلَ ذَلكَ عَلَيه، وما هَذِهِ صِفَةُ المُخْلص فِي التَّعليم؛ لأنَّ مَثَلَ المُخْلصَ مَثَل الأَطبَّاء الَّذين يُدَاوون المَرْضىٰ لله ﷻ، فإِذَا شفي بَعْض المرضىٰ عَلَىٰ يَدِ طَبِيبٍ مِنْهُمْ، فَرِحَ الآخر.

وقَدْ ذَكَرنا آنفًا حديثَ ابْن أبِي ليلىٰ، قَالَ: أَدْرَكْتُ عِشْرينَ ومئةً مِنْ أَصْحَاب النَّبيِّ ﷺ من الأَنْصَار ما منهم رجلٌ يُسْأَل عن شيءٍ إلَّا ودَّ أَنَّ أخاهُ كَفَاه، وَلَا يُحدِّثُ بحديثٍ إلَّا ودَّ أَنَّ أَخَاه كَفَاه.

قَالَ المُصنِّف: وقَدْ يَتخلَّص العُلَماء الكَامِلُونَ من تَلْبيسات إبليس الظَّاهرة، فيَأْتِيهِمْ بخفيٍّ من تلبيسِهِ بأَنْ يقولَ لَهُ: ما لقيتُ مِثْلَك، ما أَعْرَفك بِمَدَاخلِي وَمَخارجي! فإِنْ سَكَن إلَىٰ هَذَا، هَلَكَ بالعُجْب، وإِنْ سَلِمَ من المُسَالمة له، سَلِمَ.

وقَدْ قَالَ السَّريُّ السقطيُّ: لَوْ أَنَّ رجلًا دَخَل بستانًا فيه مِنْ جَمِيع مَا خَلَق الله عَزَّوَجَلَّ من الأَشْجَار، عَلَيها من جَمِيعِ ما خَلَق اللهُ تَعَالىٰ من الأَطْيَار، فَخَاطبَه كلُّ طائرٍ بِلُغَتِهِ، وَقَالَ: السَّلَام عَلَيك يا وليَّ الله، فَسَكنتْ نفسُهُ إلَىٰ ذَلكَ، كَانَ فِي أَيْديها أسيرًا،

واللهُ الهَادِي لَا إلَهَ إلَّا هُوَ.

الباب السابع
في تلبيس إبليس على الولاة والسلاطين

قَالَ المصنف: قَدْ لبَّس عَلَيهِمْ إبليسُ من وُجُوهٍ كثيرةٍ، نَذْكُرُ أُمَّهاتها:

فالوَجْه الأوَّل: أنَّه يريد أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يُحبهُمْ، وَلَوْلَا ذَلكَ، مَا وَلَّاهمْ سُلْطَانه، ولا جَعَلهمْ نُوَّابًا عنه فِي عبادِهِ، ويَنكشفُ هَذَا التَّلبيسُ بأنَّهم إنْ كانوا نُوَّابًا عنه فِي الحقيقة فَلْيَحْكُمُوا بشرعِهِ، ولَيَتَّبعوا مَرَاضيه، فحينئذٍ يُحبُّهمْ لطاعتِهِ.

فأمَّا صُورَة المُلْك والسَّلطنة، فإنَّه قَدْ أعْطَاها خلقًا مِمَّن يبغضُهُ، وقَدْ بَسَط الدُّنيا لكثيرٍ مِمَّن لا يَنْظر إليه، وَسَلَّط جَماعةً من أُولَئك عَلَىٰ الأَوْلِيَاء والصَّالحين، فَقَتلوهم، وقَهَرُوهُمْ، فكَانَ ما أعْطَاهُمْ عَلَيهم لا لَهُمْ، ودَخَل ذلكَ فِي قولِهِ تَعَالىٰ: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾ [آل عمران:١٧٨].

والثاني: أنَّه يَقُولُ لَهُمْ: الولايةُ تَفْتقرُ إلَىٰ هَيْبةٍ، فيَتكبَّرون عن طَلَب العِلْمِ، ومُجَالسة العُلَماء، فيَعْملون بِآرَائِهِمْ، فيُتْلفُونَ الدِّينَ، والمَعْلومُ أنَّ الطَّبعَ يَسْرقُ مِنْ خِصَالِ المُخَالطين، فإِذَا خَالَطُوا مُؤْثِرِي الدُّنيا، الجُهَّالَ بالشَّرع، سَرَق الطَّبعُ من خِصَالِهم مَعَ ما عنده مِنْهَا، وَلَا يرىٰ ما يُقَاومها، ولا مَا يَزْجُرُهُ عنها، وذَلكَ سَبَبُ الهَلَاك.

والثَّالث: أنَّه يُخوِّفهمْ الأعْداءَ، ويَأمُرُهُمْ بتَشْديد الحِجَابِ، فَلَا يصلُ إلَيْهِمْ أَهْلُ المَظَالم، ويَتَوانىٰ مَنْ جُعِلَ بصَدَد رَفْع المَظَالم.

وقَدْ رَوَىٰ أبو مَرْيم الأسديُّ عن النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ وَلَّاهُ اللهُ شيئًا من أَمْر المُسْلمينَ،

فَاحْتَجَبَ دُونَ حَاجَتهم، وَخلَّتهم، وفقْرهم، احْتجَبَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ دُونَ حاجته، وَخلَّته، وفقْره»(١).

والرَّابع: أَنَّهُمْ يَسْتَعلمونَ مَنْ لَا يَصْلحُ مِمَّن لا عِلْمَ عِنْدَهُ، ولَا تَقْوىٰ، فيجتلبُ الدُّعاء عَلَيهم بظُلْمِهِ النَّاسَ، ويُطْعمهم الحَرَامَ بالبُيُوعِ الفَاسِدَةِ، ويحدُّ مَنْ لا يجبُ عَلَيه الحدَّ، ويَظنُّون أنَّهم يَتخلَّصون من الله عَزَّوَجَلَّ مِمَّا جَعَلوه فِي عُنُقِ الوالِي، هَيْهات! إنَّ العاملَ عَلَىٰ الزَّكاة إذا وَكَّل الفُسَّاقَ بتَفرِقَتِهَا فَخَانوا، ضَمِنَ.

والخامس: إنَّه يُحسِّن لَهُم العَمَلَ بِرَأْيهم، فيَقْطعون مَنْ لَا يَجُوزُ قَطْعُهُ، ويَقْتلونَ مَنْ لا يَحلُّ قَتْلُهُ، ويُوهِمُهُمْ أَنَّ هَذِهِ سِيَاسَةٌ، وتَحتَ هَذَا من المَعْنىٰ أنَّ الشَّريعةَ نَاقصةٌ تَحْتاجُ إلَىٰ إتمامٍ، ونَحْن نُتمُّها بآرَائِنَا.

وهَذَا من أقْبَحِ التَّلبيس؛ لأنَّ الشَّريعةَ سياسةٌ إلهيَّةٌ، ومُحَالٌ أنْ يقعَ فِي سِيَاسَة الإلَهِ خللٌ يحتاج مَعَه إلَىٰ سِيَاسَة الخَلْق، قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨]، وَقَالَ: ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ [الرعد:٤١]، فمُدَّعي السِّياسة مُدَّعي الخَلَل فِي الشَّريعة، وهَذَا يُزَاحم الكُفْرَ.

وقَدْ رُوِّينا عَنْ عضد الدَّولة أنَّه كَانَ يَميلُ إلَىٰ جاريةٍ، فكَانت تَشْغلُ قَلْبَه، فأَمَر بتَغْريقها؛ لئلَّا يشتغلَ قلبُهُ عن تَدْبير المُلْك، وهَذَا هو الجُنُونُ المُطْبَقُ؛ لأنَّ قتلَ مُسْلمٍ بلا جُرْمٍ لا يَحلُّ، واعتقادَهُ أنَّ هَذَا جائزٌ كفرٌ، وإن اعْتقَدَه غير جائزٍ؛ لكنَّه رآه مصلحةً، فَلَا مَصْلحةَ فيما يُخَالفُ الشَّرع.

والسادس: أنَّه يُحسِّنُ لَهم الانبسَاطَ فِي الأَمْوَال ظَانِّين أنَّها بحُكْمِهِمْ، وهَذَا تَلْبيسٌ

(١) أخرجه أبو داود (٢٩٤٨)، وصَحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٦٥٩٥).

يَكْشِفُهُ وُجُوبُ الحَجْرِ عَلَىٰ المفرِّط فِي مَالِ نفسِهِ، فكَيْفَ بالمُستأجَر فِي حِفْظِ مَال غَيْره، وإنَّما له من المَال بقَدْر عَمَلِهِ، فَلَا وَجْهَ للانْبسَاط.

قَالَ ابْنُ عقيلٍ: وقَدْ رُوِيَ عَنْ حَمَّادٍ الرَّاوية أنَّه أنْشَد الوليدَ بن يزيد أبياتًا، فأعْطَاه خَمْسينَ ألفًا وَجَاريتين.

قَالَ: وهَذَا مِمَّا يُروىٰ عَلَىٰ وَجْه المَدْح لَهم، وهُوَ غَايَةُ القَدْح فيهم؛ لأنَّه تَبْذيرٌ فِي بَيْت مَالِ المُسْلمينَ، وقَدْ يُزَيِّنُ لبَعْضهم مَنْعَ المُستحقِّينَ، وهُوَ نظيرُ التَّبذير.

والسَّابع: أنَّه يُحسِّنُ لَهم الانبساطَ فِي المَعَاصي، ويُلبِّسُ عَلَيهم أنَّ حِفْظَكُمْ للسَّبيل، وأمْن البلاد بِكُمْ يَمْنع عَنكم العِقَابَ، وَجَوابُ هَذَا أنْ يُقَالَ: إنَّما وُليتُمْ لتَحْفظوا البلادَ، وتُؤمِّنوا السُّبُلَ، وهَذَا واجبٌ عَلَيهم، وَمَا انْبسَطوا فِيهِ من المَعَاصي منهيٌّ عَنْه، فلا يرفعُ هَذَا ذَلكَ.

والثامن: أنَّه يُلبِّس عَلَىٰ أكْثَرهم بأنَّه قَدْ قامَ بِما يَجبُ من جِهَةِ أنَّ ظَوَاهرَ الأَحْوَال مُسْتَقيمةٌ، ولَوْ حَقَّق النَّظرَ لَرَأىٰ اختلالًا كثيرًا.

وقَدْ رُوِّينا عن القَاسِم بن طَلْحة بن مُحمَّد الشَّاهد، قَالَ: رأيتُ عليَّ بن عيسىٰ الوزير وقَدْ وَكَّل بدُورِ البِطِّيخ رجلًا برزقٍ يَطُوف عَلَىٰ بَاعَة العِنَبِ، فإذا اشْتَرىٰ أحدٌ سلَّة عنبٍ خمريٍّ، لَمْ يَعْرض له، وإنِ اشْتَرىٰ سَلَّتين فصاعدًا، طَرَح عَلَيها الملحَ؛ لئلَّا يَتمكنَّ من عَمَلها خمرًا.

قَالَ: وأدْرَكتُ السَّلاطينَ يَمْنعون المُنجِّمينَ من القُعُود فِي الطُّرُق حتَّىٰ لا يَفْشو العملُ بالنُّجُوم.

وأدْرَكنا الجُنْدَ ليس فيهم أحدٌ مَعَه غلامٌ أمردُ له طُرَّةٌ، وَلَا شعرٌ إلَىٰ أنْ بُدِئَ بحُكْم العجم.

والتاسع: أنَّه يُحسِّن لَهُم اسْتِجْلَابَ الأَمْوَال، وَاسْتِخْرَاجها بالضَّرب العنيف، وأَخْذ كلِّ ما يملكُهُ الخائنُ وَاسْتِخْلَافه، وإنَّما الطَّريقُ إقامةُ البيِّنة عَلَىٰ الخَائِنِ.

وقَدْ رُوِّينا عن عُمَر بن عبد العزيز أنَّ غلامًا كتب له: أنَّ غلامًا كَتَبَ لَهُ: أَنَّ قَوْمًا خَانُوا فِي مَال الله، ولا أَقْدر عَلَىٰ اسْتِخْلَاص ما فِي أَيْدِيهِمْ إلَّا أَنْ أَنَالَهُم بعَذَابٍ، فكَتَب إليه: لأَنْ يَلْقُوا الله بخِيَانَتهمْ أحبُّ إليَّ من أَنْ أَلْقَاه بدِمَائِهِمْ.

والعاشر: أنَّه يُحسِّنُ لَهم التَّصدُّق بَعْد الغَصْب يُريهم أَنَّ هَذَا يَمْحو ذَلكَ، ويَقُول: إنَّ درهمًا من الصَّدَقة يَمْحو إثمَ عَشرةٍ من الغَصْب، وهَذَا مُحالٌ؛ لأنَّ إثمَ الغَصْب باقٍ، ودِرْهم الصَّدقة إِنْ كَانَ من الغَصْب لَمْ يُقْبل، وإِنْ كانت الصَّدَقة من الحَلَال، لَمْ يدفع أيضًا إثمَ الغَصْب؛ لأنَّ إعطاءَ الفَقِيرِ لَا يَمْنعُ تَعلُّق الذِّمَّة بحقٍّ آخر.

والحادي عشر: أنَّه يُحسِّنُ لَهم مع الإصْرَار عَلَىٰ المَعَاصي زِيَارَة الصَّالحين وسُؤالهُمُ الدُّعاءَ، ويُريهم أَنَّ هَذَا يُخفِّفُ ذَلكَ الإثمَ، وَهَذَا الخيرُ لا يَدْفع ذلكَ الشَّرَّ.

وفِي الحَدِيثِ عَن الحُسَين بن زيادٍ، قَالَ: سَمعتُ منيعًا يَقُول: مرَّ تاجرٌ بعَشَّارٍ، فحَبَسوا عَلَيه سَفينَتَهُ، فَجَاء إِلَىٰ مالك بن دينارٍ، فَذَكَر له ذَلكَ، فَقَام مالكٌ، فمَشَىٰ مَعَه إِلَىٰ العَشَّار، فلَمَّا رَأَوْه، قالوا: يا أبا يَحيىٰ، أَلَا بَعَثْتَ إلينا في حَاجَتك؟ قَالَ: حَاجَتي أَنْ تُخلُّوا عَنْ سَفينَةِ هَذَا الرَّجل. قالوا: قَدْ فَعَلنا. قَالَ: وَكَانَ عِنْدَهُمْ كُوزٌ يَجْعلونَ ما يأخُذُون من النَّاس مِنَ الدَّراهم فيه، فَقَالوا: ادْعُ لنا يا أبا يَحيَىٰ. قَالَ: قُولُوا للكُوز يَدْعو لكم، كَيْف أَدْعو لكم وألفٌ يَدْعون عَلَيكمْ: أترىٰ يُسْتجابُ لواحدٍ وَلَا يُسْتجابُ لألفٍ؟!

والثانِي عشر: أنَّ مِنَ الوُلَاة مَنْ يَعْملُ لمَنْ فوقه، فيأمُرُه بالظُّلم فيَظْلم، ويُلبِّسُ عَلَيهم إبليسُ بأنَّ الإثمَ عَلَىٰ الأمير لَا عَلَيك، وهَذَا باطلٌ؛ لأنَّه مُعِينٌ عَلَىٰ الظُّلم، وكلُّ مُعِينٍ عَلَىٰ

المَعَاصي عاصٍ، فإنَّ رسول الله ﷺ: «لَعَن فِي الخَمْر عشرةً»[١]، «ولَعَن آكلَ الرِّبا، ومُوكله، وَكَاتبهُ، وشَاهِدَيْه»[٢].

وَمِنْ هَذَا الفنِّ أَنْ يُجْبي المالَ لمَنْ هو فوقه، وقَدْ علمَ أنَّه يُبذِّرُ فيه ويَخُون، فهَذَا مُعِينٌ عَلَىٰ الظُّلم أيضًا.

وفِي الحديث: بإسنادٍ مَرْفوعٍ إِلَىٰ جَعْفر بن سُلَيمان، قَالَ: سَمعتُ مالكَ بن دينارٍ يَقُول: «كَفَىٰ بالمَرْء خيانةً أَنْ يكونَ أمينًا للخَوَنة».

واللهُ الهَادِي إِلَىٰ الصَّواب.

---

(١) أخرجه الترمذي (١٢٩٥)، وابن ماجه (٣٣٨١) من حديث أنس بن مالكٍ رضي الله عنه، وصَحَّحه الألبانيُّ فِي «صحيح الجامع» (٥٠٩١).

(٢) أخرجه مسلم (١٥٩٨) من حديث جابر رضي الله عنه.

الباب الثامن
ذكر تلبيس إبليس على العباد في العبادات

قَالَ المُصنِّف: اعْلَمْ أنَّ البابَ الأَعْظمَ الَّذي يَدْخل منه إبليسُ عَلَىٰ النَّاس هُوَ الجَهْلُ، فهُوَ يَدْخل منه عَلَىٰ الجُهَّال بأَمَانٍ، وأمَّا العَالِمُ، فَلَا يَدْخل عليه إلَّا مُسَارقةً، وقَدْ لبَّس إبليسُ عَلَىٰ كثيرٍ مِنَ المُتعبِّدينَ بقلَّةِ عِلْمِهِمْ؛ لأنَّ جُمْهُورَهمْ يَشْتغل بالتَّعبُّد، ولَمْ يُحَكِّم العِلْمَ.

وقَدْ قال الرَّبيع بن خثيم: تَفقَّه، ثُمَّ اعْتَزِلْ.

فأوَّلُ تلبيسِهِ عَلَيهم: إيثارُهُمُ التَّعبُّد عَلَىٰ العِلْمِ، والعِلْمُ أفْضَل من النَّوافل، فأَرَاهمْ أنَّ المَقْصودَ مِنَ العِلْمِ العَمَلُ، ومَا فَهِمُوا مِنَ العَمَل إلَّا عَمَل الجَوَارح، ومَا عَلِمُوا أنَّ العَمَلَ عَمَلُ القَلْب، وعَمَلُ القلب أفضلُ مِنْ عَمَل الجَوَارح.

قَالَ مطرف بن عبد الله: فَضْلُ العِلْمِ خيرٌ من فَضْل العِبَادَة.

وقال يُوسُف بن أسباط: بابٌ من العِلْمِ تَتعلَّمُهُ أَفْضَلُ من سَبْعينَ غَزَاةً.

وقال المُعافىٰ بن عمران: كتابةُ حديثٍ واحدٍ أحبُّ إليَّ من صَلَاةِ ليلةٍ.

قَالَ المُصنِّف: فلَمَّا مرَّ عَلَيهم هَذَا التَّلبيسُ، وآثَرُوا التَّعبُّدَ بالجَوَارح عَلَىٰ العِلْمِ، تَمكَّنَ إبليسُ من التَّلبيس عَلَيهم فِي فُنُون التَّعبُّد.

ذكر تلبيسه عليهم في الاستطابة والحدث:

من ذلك: أنَّه يَأْمُرُهمْ بطُول المُكْثِ فِي الخَلَاء، وذلكَ يُؤذِي الكبدَ، وإنَّما يَنْبغي أنْ يكونَ بِمِقْدارٍ.

ومنهم: مَنْ يَقُومُ فَيَمْشي ويَتَنَحْنَح، ويَرْفع قدمًا، ويحطُّ أُخْرىٰ، وعنده أنَّه يَسْتنقي بِهَذَا،

وكُلَّما زاد فِي هَذَا، نَزَلَ البولُ، ويَيَانُ هَذَا أنَّ الماءَ يَرْشح إِلَىٰ المَثَانة، ويُجْمَعُ فِيهَا، فَإِذَا تَهيَّأَ الإنسانُ لبَوْلٍ خَرَج ما اجْتَمَعَ، فإذا مشىٰ وتَنَحْنَح وتوقَّف، رَشَح شيءٌ آخر، فالرَّشحُ لا يَنْقطعُ، وإنَّما يَكْفيه أنْ يَحْتلبَ ما فِي الذَّكَر بين أُصْبُعَيه، ثُمَّ يتبعُهُ الماءَ.

ومنهم: مَنْ يُحسِّنُ له اسْتِعْمالَ المَاء الكثير، وإنَّما يَجْزيه بَعْد زَوَال العَيْن سَبْعَ مرَّاتٍ عَلَىٰ أشدِّ المَذَاهب، فإن اسْتَعْمَل الأَحْجَارَ فيما لَمْ يتعدَّ المَخْرج، أَجْزَأه ثَلاثةُ أَحْجَارٍ إذا أنْقَىٰ بِهنَّ، ومَنْ لَمْ يَقْنَعْ بِما قَنعَ الشَّرعُ بِهِ، فهُوَ مُبْتدعٌ شرعًا، لا مُتَّبعٌ، واللهُ المُوفِّقُ.

ذكر تلبيسه عليهم فِي الوضوء:

منهم: مَنْ يُلبِّس عَلَيه فِي النِّيَّة، فَتَراه يَقُولُ: أَرْفَعُ الحدثَ، ثُمَّ يَقُولُ: أَسْتَبيحُ الصَّلاةَ، ثُمَّ يعيدُ، فيَقُول: أَرْفَع الحدثَ. وسَبَبُ هَذَا التَّلبيس: الجهلُ بالشَّرع؛ لأنَّ النِّيَّة بالقَلْب لا باللَّفظ، فتكلُّف اللَّفظ أمرٌ لا يُحْتَاج إليه، ثُمَّ لا مَعْنىٰ لتكْرَار اللَّفظ.

ومنهم: مَنْ يُلبِّس عَلَيه بالنَّظر فِي الماء المُتوضَّأ بِهِ، فيَقُولُ: مِنْ أَيْنَ لَكَ أنَّه طاهرٌ، ويُقدِّرُ له فيه كلَّ احْتمَالٍ بعيدٍ، وفَتْوىٰ الشَّرْع تكْفيه بأَنَّ أصلَ المَاء الطَّهارة، فَلَا يُتْركُ الأصلُ بالاحْتمَال.

ومنهم: مَنْ يُلبِّسُ عَلَيه بكَثْرة اسْتِعْمَالِ المَاءِ، وَذَلكَ يَجْمَعُ أربعةَ أَشْيَاءٍ مَكْروهةٍ:

- الإسْرَافُ فِي الماء.
- وتَضْييع العُمُر القيم فيما لَيْسَ بِوَاجبٍ، ولا مَنْدوبٍ.
- والتَّعاطي عَلَىٰ الشَّريعة إِذْ لَمْ يَقْنَعْ بِما قَنعَتْ بِهِ من اسْتِعْمَال المَاءِ القَليل.
- والدُّخُولُ فيما نَهَتْ عنه من الزِّيادة عَلَىٰ الثَّلاث، ورُبَّما أطالَ الوُضُوءَ، فَفَاتَ وَقْتُ الصَّلاة، أوْ فاتَ أوَّلُهُ، وهُوَ الفضيلةُ، أوْ فَاتَته الجَمَاعةُ.

وتَلْبِيسُ إِبْلِيس عَلَىٰ هَذَا بأنَّك فِي عِبَادةٍ مَا لَمْ تَصحَّ، لَا تَصحُّ الصَّلاةُ، ولَوْ تدبَّر أَمْرَه لعَلِمَ أنَّه فِي مُخَالفةٍ وتَفرِيطٍ، وقَدْ رأينا مَنْ يَنْظر فِي هَذِهِ الوَسَاوس، ولَا يُبَالي بِمَطْعمِهِ ومَشْربِهِ، وَلَا يَحْفظ لِسَانَه من غِيبَةٍ، فَلَيْتَهُ قَلَّبَ الأمرَ.

وفِي الحَدِيثِ عَنْ عَبْد الله بن عَمْرو بن العاص: «أنَّ النَّبِيَّ ﷺ مرَّ بسعدٍ وهُوَ يَتوضَّأ، فَقَالَ: «ما هَذَا السَّرفُ يا سعدُ؟». قَالَ: أَفِي الوُضُوءِ سَرفٌ؟ قال: «نَعَمْ، وإِنْ كنتَ عَلَىٰ نَهرٍ جارٍ»[(١)].

وفِي الحَدِيثِ عَنْ أُبَيٍّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «للوُضُوء شَيْطانٌ يُقَالُ له: الوَلْهَان، فَاتَّقُوهُ». أَوْ قَالَ: «فَاحْذَروه»[(٢)].

وعَن الحَسَن رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: شَيْطانُ الوُضُوء يُدْعىٰ الوَلْهان يَضْحَكُ بالنَّاس فِي الوُضُوء.

وبإسنادٍ مرفوعٍ إِلَىٰ أبِي نُعَامة، أنَّ عَبْدَ الله بن مُغفَّل سَمِعَ ابنَهُ يَقُول: اللَّهمَّ إنِّي أسْألُكَ الفردوسَ، وأسْألُكَ القصرَ الأبيضَ عَنْ يَمين الجنَّة إذا دَخَلتها، فقَالَ عبد الله: سَلِ اللهَ الجنَّةَ، وتَعوَّذْ به من النَّار، فإنِّي سمعتُ رسول الله ﷺ يَقُول: «سَيَكونُ فِي هَذِهِ الأُمَّة قومٌ يَعْتدون فِي الدُّعاء والطُّهُور»[(٣)].

وَعَن ابْنِ شَوْذب، قَالَ: كَانَ الحسنُ يُعرِّضُ بابْن سِيرِينَ، يَقُولُ: يَتوضَّأ أَحَدهُمْ بِقِرْبةٍ، ويَغْتسل بِمَزَادةٍ صبًّا صبًّا، وَدَلْكًا دَلْكًا، تَعْذيبًا لأنْفُسِهِمْ، وخلافًا لسُنَّة نَبِيِّهِمْ ﷺ.

وَكَانَ أَبُو الوَفَاء بنُ عَقِيلٍ يَقُولُ: أجلُّ مَخصوصٍ عِنْدَ العُقَلاء الوَقْتُ، وأَقلُّ مُتعبَّدٍ به المَاءُ. وقَدْ قَالَ ﷺ: «صُبُّوا عَلَىٰ بَوْلِ الأعرابِيِّ ذَنُوبًا من مَاءٍ»[(٤)].

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢٥)، وضَعَّفه الألبانِيُّ فِي «الإرواء» (١٤٠).

(٢) أخرجه الترمذي (٥٧)، وابن ماجه (٤٢١)، وضَعَّفه الألبانِيُّ فِي «ضعيف الجامع» (١٩٧٠).

(٣) أخرجه أبو داود (٩٦) من حديث عبد الله بن مُغفَّل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وصَحَّحه الألبانِيُّ فِي «صحيح الجامع» (٣٣٩٦).

(٤) أخرجه البخاري (٦٠٢٥)، ومسلم (٢٨٤) من حديث أنس بن مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وقَالَ فِي المنيّ: «أَمِطْهُ عَنْكَ بِإِذْخرةٍ»[١]، وَقَالَ فِي الحذاء: «طُهُورُهُ بِأَنْ يُدْلك بالأَرْض»[٢]، وفِي ذَيْل المرأة: «يُطهرُهُ ما بَعْده»[٣]، وقَالَ: «يُغسَل بَوْل الجَارِيَة، ويُنْضَح بَوْل الغُلَام»[٤].

«وَكَانَ يَحْمل ابْنَةَ أبي العاص بن الرَّبيع في الصَّلاة»[٥]. ونَهىٰ الرَّاعي عن إِعْلَام السَّائل له عن المَاء يَردُهُ، وَقَالَ: «يَا صَاحِبَ المَاءِ، لا تُخْبِرهُ»[٦]. وَقَالَ: «مَا أَبْقيتَ لَنَا من طهورٍ؟». «وقَدْ صَافَحَ رسول الله ﷺ الأعرابَ، ورَكِبَ الحمارَ معروريًا»[٧].

وما عُرِفَ من خُلُقِهِ التَّعبُّد بكَثْرة الماء، وتَوضَّأ من سِقَايَة المَسْجد، ومعلومٌ حالُ الأَعْرابِ الَّذين يَأْتِي أَحَدُهمْ من البادية كأنَّه بَهيمةٌ، أو ما سمعتُ أَنَّ أَحَدهُمْ أقدمَ عَلَىٰ البَوْل فِي المَسْجد، كلُّ ذَلكَ لتَعْليمنا، وإِعْلَامنا أنَّ الماءَ عَلَىٰ أَصْل الطَّهارة، وتَوضَّأ من غديرٍ كأَنَّ مَاءَهُ نُقَاعةُ الحِنَّاء[٨].

فأمَّا قولُهُ: «اسْتَنْزهوا مِنَ البَوْل»[٩]، فإنَّ للتَّنزُّه حدًّا مَعْلومًا، وهُوَ ألَّا يغفلَ عن مَحلٍّ قَدْ أصابَهُ حتَّىٰ يُتْبعه الماءَ، فأمَّا الاستنثارُ، فإنَّه إذا علق نَمَا، وَانْقطَع الوقتُ بِمَا لا يَقْضي بِمثلِهِ الشَّرعُ.

---

(١) أخرجه الترمذي (١١٧)، وقال الألبانيُّ فِي «الضعيفة» (٩٤٨): منكرٌ مرفوعٌ.

(٢) أخرجه أبو داود (٣٨٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصَحَّحَه الألبانيُّ فِي «صحيح أبي داود» (٣٧١).

(٣) أخرجه أبو داود (٣٨٣) من حديث أُمّ سلمة رضي الله عنها، وصَحَّحه الألبانيُّ في «صحيح أبي داود» (٣٦٩).

(٤) أخرجه أبو داود (٣٧٧) من حديث عليٍّ رضي الله عنه، وصَحَّحه الألبانيُّ فِي «صحيح الجامع» (٨١١٧).

(٥) أخرجه البخاري (٥١٦)، ومسلم (٥٤٣) من حديث أبي قتادة رضي الله عنه.

(٦) أخرجه الدارقطني (١/ ٢٦)، وضَعَّفه الألبانيُّ فِي «تَمام المنة» (ص ٤٨).

(٧) أخرجه ابن سعدٍ فِي «الطبقات الكبرى» (١/ ٢٧٠) عن حمزة بن عبد الله بن عتبة مرسلًا، وضَعَّفه الألبانيُّ فِي «ضعيف الجامع» (٤٥٤٩).

(٨) انظر: «تلخيص الحبير» (١/ ١٣، ١٤).

(٩) أخرجه الدارقطني (١/ ١٢٧) من حديث أنسٍ رضي الله عنه، وصَحَّحه الألبانيُّ فِي «صحيح الجامع» (٣٠٠٢).

قَالَ المُصنِّف: وَكَانَ أَسْودَ بن سالمٍ، وهُوَ من كِبَارِ الصَّالحينَ يَسْتَعمل ماءً كثيرًا فِي وضوئِهِ، ثُمَّ تَرِكَ ذَلكَ، فَسَأله رجلٌ عَنْ سَبَب تركِهِ، فقَالَ: نِمْتُ ليلةً، فإِذَا بَهاتفٍ يَهْتِف بِي: يا أَسْوَد، مَا هَذَا؟ فإِنَّ يَحْيَىٰ بْنَ سعيدٍ الأَنْصَاريَّ حَدَّثنِي عَنْ سعيد بن المُسيَّب، قَالَ: إذا جَاوَز الوضوءُ ثلاثًا، لَمْ يُرْفَع إِلَىٰ السَّماءِ. قَالَ: قلت: لَا أَعُودُ، لَا أعودُ، فأَنَا اليومَ يَكْفيني كفٌّ من ماءٍ.

ذكر تلبيسه عليهم فِي الأذان:

ومِنْ ذَلكَ: التَّلْحينُ فِي الأَذَان، وقَدْ كَرِههُ مالكُ بن أنسٍ وغَيْره من العُلَماء كراهيةً شديدةً؛ لأنَّه يُخرجُهُ عن مَوْضع التَّعْظيم إِلَىٰ مُشَابهة الغِنَاءِ، ومِنْهُ أَنَّهم يَخْلطُون أذانَ الفَجْر بالتَّذْكير، والتَّسبيح، وَالمَوَاعظ، ويَجْعلونَ الأَذَانَ وَسَطًا، فيَخْتلط.

وقَدْ كَرِهَ العُلَماءُ كلَّ ما يُضَافُ إِلَىٰ الأَذَان.

وقَدْ رَأَيْنا مَنْ يَقُوم باللَّيل كثيرًا عَلَىٰ المَنَارة، فيَعظُ ويُذكِّر، ومِنْهُمْ مَنْ يَقْرأ سُورًا من القُرْآن بصوتٍ مرتفعٍ، فيمنعُ النَّاسَ من نَوْمِهِمْ، ويَخْلط عَلَىٰ المُتهجِّدينَ قِرَاءَتَهمْ، وكلُّ ذلكَ من المُنْكَرات.

ذكر تلبيسه عليهم فِي الصلاة:

ومِنْ ذَلكَ: تَلْبيسُهُ عَلَيهِمْ فِي الثِّياب الَّتِي يُسْتَتر بِها، فَترىٰ أَحَدهُمْ يَغْسل الثَّوْبَ الطَّاهر مرارًا، ورُبَّما لَمَسه مسلمٌ فيَغْسله.

ومِنْهُمْ: مَنْ يَغْسل ثِيَابَهُ فِي دِجْلةَ، لَا يرىٰ غَسْلَها فِي البيت يُجْزِئ.

ومِنْهُمْ: مَنْ يُدلِّيها فِي البِئرِ كفِعْلِ اليَهُود، وما كَانَت الصَّحابةُ تَعْمل هَذَا؛ بَلْ قَدْ صَلَّوْا فِي ثِيَابِ فارس لَمَّا فَتَحوها، وَاسْتَعْمَلوا أَوْطِئتَهمْ وأكْسِيَتَهُمْ.

ومن الموسوسين: مَنْ يَقْطر عَلَيه قطرةُ ماءٍ، فيَغْسل الثَّوبَ كُلَّه، وربَّما تأخَّر لذَلكَ عن صَلَاة الجَمَاعة.

ومِنْهُمْ: مَنْ تَركَ الصَّلاةَ جَمَاعةً؛ لأَجْل مطرٍ يسيرٍ يَخافُ أنْ ينتضحَ عَلَيْه، وَلَا يَظنُّ ظانٌّ أنَّني أمْنَعُ مِنَ النَّظَافة والوَرَع، ولكنَّ المُبَالغةَ الخارجةَ عَنْ حدِّ الشَّرع، المُضيِّعة للزَّمَان، هِيَ الَّتي نَنْهَىٰ عنها.

ومِنْ ذَلكَ: تلبيسُهُ عَلَيهِمْ فِي نيَّةِ الصَّلاة:

فمِنْهُمْ: مَنْ يَقُولُ: أُصلِّي صلاةَ كَذَا، ثُمَّ يُعِيدُ هَذَا ظنًّا منه أنَّه قَدْ نَقضَ النِّيَّة، والنِّيَّةُ لا تُنْقضُ، وإنْ لَمْ يُرْضَ اللَّفظُ.

ومنهم: مَنْ يُكبِّر، ثُمَّ ينقضُ، ثُمَّ يُكبِّر، ثُمَّ ينقضُ، فإذا رَكَع الإمامُ، كَبَّر المُوسوسُ، وَرَكَع مَعَه، فليتَ شِعْرِي ما الَّذي أحْضَر النِّيَّة حينئذٍ، وَمَا ذاك إلَّا لأنَّ إبليسَ أرَاد أنْ يُفوِّتهُ الفضيلةَ.

وفِي المُوَسوسين مَنْ يَحْلفُ بالله لَا كَبَّرتُ غَيْر هَذِهِ المرَّة، وفيهم مَنْ يَحْلفُ بالله بالخُرُوج من مالِهِ، أو بالطَّلاق، وهَذِهِ كلُّها تَلْبيساتُ إبْلِيس.

والشَّريعةُ سَمْحةٌ سهلةٌ سليمةٌ من هَذِهِ الآفات، وَمَا جَرَىٰ لرسول الله ﷺ، وَلَا لأَصْحابِهِ شيءٌ من هَذَا، وقَدْ بَلَغنا عَنْ أبِي حازمٍ أنَّه دَخَل المَسْجدَ، فوَسْوَس إليه إبليسُ أنَّك تُصلِّي بغَيْر وضوءٍ، فَقَالَ: ما بَلَغ نُصْحُكَ إلَىٰ هَذَا.

وكَشْفُ هَذَا التَّلبيس أن يُقَالَ للمُوسوس: إنْ كنتَ تُريدُ إحضارَ النِّيَّة، فالنِّيَّةُ حاضرةٌ؛ لأنَّك قُمتَ لتُؤدِّي الفريضةَ، وهَذِهِ هي النِّيَّةُ، ومَحَلُّها القلبُ لا اللَّفظُ، إنْ كنتَ تريدُ تَصْحيحَ اللَّفظ، فاللَّفظُ لَا يَجبُ، ثُمَّ قَدْ قُلْتَه صحيحًا، فَمَا وَجْهُ الإعادة، أفَتراكَ تَظنُّ، وقَدْ قلت إنَّك ما قلت، هَذَا مَرَضٌ.

قَالَ المُصنِّف: وقَدْ حَكَىٰ لي بَعْضُ الأَشْيَاخ عَن ابْن عقيلٍ حكايةً عجيبةً أَنَّ رجلًا لَقِيَهُ، فَقَالَ: إنِّي أَغْسلُ العضوَ، وأَقُولُ: ما غسلتُهُ، وأُكبِّرُ، وأَقُول: ما كَبَّرتُ، فَقَالَ له ابْنُ عقيلٍ: دَعِ الصَّلَاة، فإنَّها ما تَجبُ عَلَيك. فَقَالَ قومٌ لابْن عقيلٍ: كَيْفَ تَقُول هَذَا؟ فقَالَ لَهم: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «رُفِعَ القَلَمُ عن المَجْنون حتَّىٰ يُفِيقَ»(١)، ومَنْ يُكبِّرُ، ويَقُولُ ما كَبَّرتُ، فَلَيْسَ بعَاقلٍ، والمَجْنونُ لَا تَجبُ عَلَيه الصَّلَاةُ.

قَالَ المُصنِّف: وَاعْلَمْ أَنَّ الوَسْوسةَ فِي نِيَّةِ الصَّلَاة سَبَبها خبلٌ فِي العَقْل، وجهلٌ بالشَّرع، ومعلومٌ أَنَّ مَنْ دخل عَلَيه عَالِمٌ فَقَامَ له، وَقَالَ: نَوَيْتُ أَنْ أَنْتَصبَ قائمًا لدُخُول هَذَا العَالِم لأَجْل عِلْمِهِ، مُقْبلًا عَلَيه بوجهِهِ، سُفِّه فِي عَقْلِهِ، فإِنَّ هَذَا قَدْ تُصُور فِي ذهنِهِ منذ رَأَىٰ العالمَ.

فقِيَامُ الإنْسَان إِلَىٰ الصَّلاة ليُؤَدِّي الفرضَ أمرٌ يُتصوَّرُ فِي النَّفْس فِي حالةٍ واحدةٍ، لا يَطُولُ زمانه؛ وإنَّما يَطُولُ زَمانُ نَظْم هَذِهِ الأَلْفَاظ، والأَلْفَاظُ لَا تَلْزم، والوَسْوَاس جهلٌ مَحضٌ.

وإِنَّ الموسوس يُكلِّف نَفْسَه أَنْ يحضرَ فِي قلبِهِ الظُّهريَّة والأَدائيَّة والفرضيَّة فِي حالةٍ واحدةٍ مفصلةٍ بألفاظِهِ، وهُوَ يُطَالعها، وذَلكَ مُحَالٌ.

ولَوْ كَلَّف نَفْسَه ذَلكَ فِي القيام للعالم لتَعذَّر عَلَيه، فمَنْ عَرَف هَذَا، عَرَف النِّيَّة، ثُمَّ إِنَّه يَجُوزُ تَقْديمُهَا عَلَىٰ التَّكْبير بزَمَانٍ يسيرٍ ما لَمْ يَفْسخها، فَمَا وَجْهُ هَذَا التَّعب فِي إِلْصَاقها بالتَّكْبير عَلَىٰ أنَّه إذا حَصَّلها، ولَمْ يَفْسخها، فَقَد الْتصَقَتْ بالتَّكْبير.

وعَنْ مسعرٍ قَالَ: أخرج إليَّ معنُ بن عبد الرَّحمن كتابًا، وحَلَف بالله أنَّه خطُّ أبيه، وإِذَا فيه قَالَ عَبْد الله: والَّذي لَا إِلَهَ إلَّا غَيْره، ما رأيتُ أحدًا كَانَ أشدَّ عَلَىٰ المُتنطِّعين من

(١) أخرجه البخاريُّ تعليقًا فِي كتاب الطلاق، وانظر: «صحيح الجامع» (٣٥١٢، ٣٥١٣).

رسول الله ﷺ، وَلَا رأيتُ بَعْده أشدَّ خوفًا عَلَيهم من أبِي بكرٍ، وإنِّي لأظنُّ عُمَر كان أشدَّ أَهْل الأرضِ خَوْفًا عَلَيهِمْ.

فصل [إهمال العبادة]

ومِنَ المُوَسوسين مَنْ إذا صَحَّت له النِّيَّةُ وَكبَّر، ذَهل عَنْ باقي صَلَاتِهِ كأنَّه المَقْصود من الصَّلاة التَّكْبير فقط، وهَذَا تلبيسٌ يَكْشفُهُ أنَّ التَّكْبيرَ يُرَاد للدُّخُول فِي العبادة، فكَيْف تُهْمَلُ العبادةُ، وهِيَ كالدَّار، ويقتصر عَلَىٰ التَّشاغلُ بحِفْظِ الباب.

فصل [الاشتغال بالواجب، وترك السنن]

ومِنَ الموسوسين مَنْ تصحُّ له التَّكْبيرةُ خَلْف الإمام، وقَدْ بَقِيَ من الرَّكعة يسيرٌ، فيستفتحُ ويَسْتعيذُ، فيَرْكعُ الإمامُ، وهَذَا تلبيسٌ أيضًا؛ لأنَّ الَّذي شُرِعَ فيه من التَّعوُّذ والاسْتِفْتَاح مَسْنونٌ، والَّذي تَركَه من قِرَاءَة الفاتحة، وهُوَ لازمٌ للمَأْمُوم عند جَمَاعةٍ من العُلَماء، فَلَا يَنْبغي أنْ يُقدِّمَ عَلَيه سُنَّةٌ.

قَالَ المُصنِّف: وقَدْ كنتُ أُصلِّي وَرَاء شيخنا أبِي بكرٍ الدِّينوري الفقيه فِي زَمَان الصِّبا، فرآنِي مرَّةً أَفْعَل هَذَا، فَقَالَ: يا بنيَّ، إنَّ الفُقَهاءَ قَد اخْتلَفوا فِي وُجُوب قِرَاءَة الفاتحة خَلْف الإمَامِ، ولَمْ يَخْتلفوا فِي أنَّ الاستفتاحَ سُنَّةٌ، فَاشْتَغلْ بالوَاجِبِ، ودَعِ السُّنَنَ.

فصل [ترك كثير من السنن]

وقَدْ لَبَّس إبليسُ عَلَىٰ قومٍ، فَتَركوا كثيرًا من السُّنَن لوَاقِعَاتٍ وَقَعتْ لَهُمْ.

فمنهم: مَنْ كانَ يَتخلَّف عن الصَّفِّ الأوَّل، ويَقُول: إنَّما أَرَاد قُرْب القُلُوب.

ومنهم: مَنْ لَمْ يُنْزِل يدًا عَلَىٰ يدٍ فِي الصَّلاة، وَقَالَ: أكْرهُ أنْ أُظْهرَ من الخُشُوع ما ليس

فِي قَلْبِي، وقَدْ رُوِّينا هَذَين الفعلين عَنْ بَعْض أَكَابر الصَّالحين.

وهَذَا أمرٌ أَوْجَبه قِلَّةُ العلم، فَفِي «الصَّحيحين» من حديث أَبِي هُرَيرة ﷺ، عَنِ النَّبيِّ ﷺ أنَّه قَالَ: «لَوْ يَعْلمُ النَّاسُ ما لَهُمْ فِي النِّداء، والصَّفِّ الأوَّل، ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إلَّا أَنْ يَسْتَهِموا عَلَيه لاسْتَهَموا»(١).

وفِي أفْرَاد مُسْلِمٍ فِي حديثِهِ، عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قَالَ: «خَيْرُ صُفُوف الرِّجال أوَّلُها، وَشَرُّها آخِرُها»(٢).

وأمَّا وَضْع اليدِ عَلَىٰ اليد من السُّنَّة(٣)، وأنَّ ابْنَ مسعودٍ كَانَ يصلِّي فوَضَع يدَهُ اليُسْرىٰ عَلَىٰ اليُمْنىٰ، فَرآه النَّبيُّ ﷺ فوَضَع يَدَه اليُمْنىٰ عَلَىٰ اليُسْرىٰ(٤).

قَالَ المُصنِّف: ولَا يَكْبرنَّ عَلَيك إنكَارنا عَلَىٰ مَنْ قَالَ: أَرادَ قُرْب القُلُوب، ولا أضعُ يدًا عَلَىٰ يدٍ، وإِنْ كان مِنَ الأكَابر، فإنَّ الشَّرعَ هو المُنْكِرُ، لا نَحنُ.

وقَدْ قيلَ لأحْمد بن حنبلٍ رَحْمة الله عليه: إنَّ ابْنَ المُبَارك يَقُول كَذَا وكَذَا، فَقَالَ: إنَّ ابْنَ المُبَارك لَمْ يَنْزل مِنَ السَّمَاء.

وقيل له: قَالَ إبراهيمُ بْنُ أَدْهَم، فقَالَ: جِئتُمُونِي ببُنيَّات الطَّريق، عَلَيْكُمْ بالأَصْل، فَلَا يَنْبغي أَنْ يُتْرَكَ الشَّرع لقَوْلِ مُعظَّمٍ فِي النَّفس، فإنَّ الشَّرعَ أَعْظَمُ، والخطأُ فِي التَّأويل عَلَىٰ النَّاس يَجْري، ومن الجَائز أَنْ تكونَ الأحاديثُ لَمْ تَبْلُغْه.

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٥)، ومسلم (٤٣٧).

(٢) أخرجه مسلم (٤٤٠).

(٣) أخرجه أبو داود (٧٥٤)، وضَعَّفه الألبانيُّ فِي «ضعيف أبِي داود» (١٥٦).

(٤) أخرجه أبو داود (٧٥٥)، وحَسَّنه الألبانيُّ فِي «صحيح أبِي داود» (٧٣٦).

فصل [الخروج عن قانون أدب العبادة]

وقَدْ لَبَّس إبليسُ عَلَىٰ بَعْض المُصلِّين فِي مَخَارج الحُرُوف، فتَراه يَقُول: الحمدُ الحَمْد، فيَخْرُجُ بإعَادة الكَلِمَةِ عَنْ قَانُون أَدَب الصَّلاة، وتارةً يُلبِّس عَلَيه فِي تَحْقيق التَّشديد، وتارةً فِي إِخْرَاج ضاد «المغضوب»، ولَقَدْ رأيتُ مَنْ يَقُول: «المغضوب»، فيُخْرِجُ بُصَاقَه مع إِخْرَاج الضَّادِ؛ لقُوَّة تَشْديدِهِ، وإنَّما المُرَاد تَحْقيقُ الحَرْفِ فحسب، وإبليسُ يُخْرِج هَؤُلَاء بالزِّيادة عن حدِّ التَّحقيق، ويَشْغَلهم بالمُبَالغَة فِي الحُرُوف عَنْ فَهْم التِّلاوة، وكلُّ هَذِهِ الوَسَاوسُ من إِبْليسَ.

وعَنْ سعيد بن عبد الرَّحمن بن أَبِي العمياء، أَنَّ سَهْلَ بن أَبِي أُمَامة حدَّثه: أنَّه دَخَل هُوَ وأَبُوه عَلَىٰ أنس بن مالكٍ ﷺ، وهُوَ يُصلِّي صلاةً خفيفةً كَأنَّها صلاةُ مُسَافرٍ، فلَمَّا سَلَّم، قَالَ: يَرْحمك الله، أرأيتَ هَذِهِ الصَّلاةَ المَكْتوبةَ كَصَلاة رسول الله ﷺ أَمْ شيءٌ تنفَّلتَه؟ قَالَ: إنَّها لَصَلاةُ رسول الله ﷺ، مَا أَخْطَاتُ إلَّا شيئًا سَهَوْتُ عنه أنَّ رسول الله ﷺ كَانَ يَقُولُ: «لا تُشدِّدوا عَلَىٰ أنفسكم فيُشَدِّد اللهُ عَلَيْكمْ، فإِنَّ قَوْمًا شَدَّدوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، فَشَدَّد اللهُ عَلَيهمْ، فتِلْكَ بقَايَاهُمْ فِي الصَّوَامع والدِّيارات رهبانيَّة ابْتَدَعوها مَا كَتبنَاها عَلَيهمْ»[1].

وَفِي أَفْرَاد مُسْلمٍ من حَدِيثِ عُثْمان بن أَبِي العاص قَالَ: قلتُ لرسول الله ﷺ: إنَّ الشَّيطانَ قَدْ حَالَ بَيْنِي وبَيْن صَلَاتِي وقِرَاءتِي يُلبِّسُها عليَّ. فَقَالَ رسول الله ﷺ: «ذَاكَ الشَّيطانُ يُقَالُ لَه خنْزَب، فإذا أَحْسَستهُ فتَعوَّذ بالله مِنْهُ ثلاثًا، واتْفُل عَنْ يَسَارك»، ففعلتُ ذَلكَ، فأَذْهَبَهُ الله عنِّي[2].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٠٤)، وصَحَّحهُ الألبانيُّ فِي «الصَّحيحة» (٣١٢٤).

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٠٣).

فصل [الانشغال بصورة العبادة عن حقيقتها]

وقَدْ لبَّس إبليسُ عَلَىٰ خَلْقٍ كثيرٍ من الجَهَلة المُتعبِّدين، فَرَأَوْا أنَّ العِبَادةَ هِيَ القيامُ والقُعُودُ فحَسْب، وهُمْ يَدْأَبُون فِي ذَلكَ، ويُخِلُّونَ فِي بَعْض وَاجِبَاتِهم، وَلَا يَعْلمونَ، وَقَدْ تَأَمَّلْتُ جَماعةً يُسلِّمون إذا سَلَّم الإمامُ، وقَدْ بَقِيَ عَلَيهم من التَّشهُّد الواجبَ شيءٌ، وَذَلكَ لا يحملُهُ الإمامُ عَنْهم.

ولبَّس عَلَىٰ آخَرينَ مِنْهُمْ، فهُمْ يُطيلُونَ الصَّلاةَ، ويُكْثرونَ القِرَاءَةَ، ويَتْركونَ المَسْنُونَ فِي الصَّلاة، ويَرْتكبونَ المَكْروه فيها، وقَدْ دَخَلتُ عَلَىٰ بَعْض المُتعبِّدين وهُوَ يَتنفَّل بالنَّهار، ويَجْهر بالقراءة، فقلتُ لَهُ: إنَّ الجهرَ بالقِرَاءَة بالنَّهار مَكْروهٌ، فَقَالَ لِي: أَنَا أطردُ النَّومَ عنِّي بالجَهْر! فقلتُ لَهُ: إنَّ السُّننَ لا تُتْرَك لأَجْل سَهَرك، ومتَىٰ غَلَبك النَّومُ، فنَمْ، فإنَّ للنَّفس عَلَيك حقًّا.

وعَنْ بُرَيدة قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: «مَنْ جَهَر بالقِرَاءَة فِي النَّهار، فَارْجُمُوه بالبَعْر»[1].

فصل [الانشغال بالسنن عن الواجبات]

وَقَدْ لبَّس إبليسُ عَلَىٰ جَمَاعةٍ من المُتعبِّدين، فأكْثَروا من صَلَاة اللَّيل، وَفِيهم مَنْ يسهرُهُ كُلَّه، ويَفْرَح بقِيَامِ اللَّيل، وَصَلاة الضُّحىٰ أكثر مِمَّا يَفْرح بأدَاء الفَرَائض، ثُمَّ يَقَع قبيل الفَجْر، فتفوتُهُ الفريضةُ.

أو يَقُومُ فيَتهيَّأ لَهَا، فتفوته الجَمَاعةُ، أَوْ يُصْبح كَسْلانَ فَلَا يَقْدر عَلَىٰ الكَسْب لعائلتِهِ، ولقَدْ رأيتُ شيخًا من المُتعبِّدين يُقَالُ له: حُسَين القزوينِي يَمْشي كثيرًا من النَّهار فِي جَامع

---

(١) أورده الديلميُّ فِي «مسند الفردوس» (١/ ٢٦٦) من حديث بُرَيدة رضي الله عنه.

المَنْصور، فسألتُ عَنْ سَبَبِ مَشْيه، فَقِيلَ لي: لئلَّا ينامَ، فقُلْتُ: هَذَا جَهْلٌ بِمُقْتضىٰ الشَّرع والعَقْل:

أمَّا الشَّرْعُ: فإنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إنَّ لنَفْسك عَلَيك حقًّا، فقُمْ ونَمْ»[1]، وَكَانَ يَقُولُ: «عَلَيكُمْ هَدْيًا قاصدًا، فَإنَّه مَنْ يُشادَّ هَذَا الدِّين يَغْلبهُ»[2].

وعَنْ أنس بن مالكٍ، قَالَ: دَخَلَ رسول الله ﷺ المَسْجدَ. وَحَبْلٌ ممدودٌ بَيْنَ سَارِيتَيْنِ، فَقَالَ: «مَا هَذَا؟». قَالُوا: لزينب تُصلِّي، فإِذَا كَسَلتْ، أو فَتَرتْ، أَمْسَكتْ به، فَقَالَ: «حُلُّوه»، ثمَّ قَالَ: «لِيُصَلِّ أحدكُمْ نَشَاطَهُ، فإِذَا كَسلَ أَوْ فترَ فَلْيَقعُدْ»[3].

وعَنْ عَائشةَ قَالَتْ: قَالَ رسول الله ﷺ: «إِذَا نَعسَ أَحدُكُمْ فَلْيَرْقُدْ حتَّىٰ يَذْهبَ عَنْه النَّومُ؛ فإِذَا صَلَّىٰ وهُوَ يَنْعسُ لعلَّه يَذْهب ليَسْتغفرَ، فيَذْهب، فيسبُّ نَفْسَهُ»[4].

قَالَ المُصنِّف: هَذَا حديثٌ صحيحٌ أَخْرَجه البخاريُّ ومسلمٌ، وَانْفَرَد بالَّذي قبله البخاريُّ.

وأمَّا العقلُ: فإنَّ النَّومَ يُجدِّد القُوَىٰ الَّتي كَلَّت بالسَّهر، فمَتَىٰ دَفَعه الإنسانُ وَقْتَ الحَاجَة إليه، أثَّر فِي بدنِهِ وعقلِهِ، فنَعُوذُ بالله من الجَهْل.

فإِنْ قَالَ قائلٌ: فَقَدْ روِيت لنا أَنَّ جَمَاعةً من السَّلف كَانوا يُحْيُونَ اللَّيل.

فَالجَوَاب: أُولَئكَ تَدرَّجوا حتَّىٰ قَدَروا عَلَىٰ ذَلكَ، وَكَانُوا عَلَىٰ ثِقَةٍ مِنْ حِفْظِ صَلَاة الفَجْر فِي الجَمَاعَة، وَكَانوا يَسْتَعينُونَ بالقَائِلَةِ مَعَ قِلَّةِ المَطْعم، وصحَّ لَهُمْ ذَلكَ، ثُمَّ لَمْ يَبْلغنا أَنَّ رسول الله ﷺ سهرَ ليلةً لَمْ يَنَمْ فيها، فسُنَّتُهُ هِيَ المَتْبوعَةُ.

---

(١) أخرجه البخاري (١١٥٣)، ومسلم (١١٥٩) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أحمد (٢٢٥٤٤) من حديث بُريدة الأسلمي رضي الله عنه، وصَحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١٠٨٦).

(٣) أخرجه البخاري (١١٥٠)، ومسلم (٧٨٤).

(٤) أخرجه البخاري (٢١٢)، ومسلم (٧٨٦).

فصل [فتنة التحديث بالعمل]

وقَدْ لَبَّسَ إبليسُ عَلَىٰ جَمَاعةٍ من قُوَّام اللَّيل، فتَحدَّثوا بذَلكَ بالنَّهار، فرُبَّما قَالَ أحدُهُمْ: فلانٌ المُؤذِّن أذَّنَ بوقتٍ؛ ليَعْلَمَ النَّاسُ أنَّه كان مُنْتبهًا، فأقلُّ مَا فِي هَذَا إِنْ سَلِمَ من الرِّياء، أَنْ ينقلَ من دِيوَان السِّرِّ إلَىٰ دِيوَانِ العَلَانيَة، فيقلُّ الثَّوابُ.

فصل تلبيسه عليهم في القرآن

وقَدْ لَبَّسَ عَلَىٰ آخرينَ انْفَرَدوا فِي المَسَاجد للصَّلاة والتَّعبُّد، فعُرِفُوا بذَلكَ، وَاجْتمعَ إليهم ناسٌ فَصَلَّوا بصَلَاتِهم، وَشَاعَ بَيْنَ النَّاس حَالُهُمْ، وذَلكَ من دَسَائس إبليس، وبِهِ تَقْوىٰ النَّفسُ عَلَىٰ التَّعبُّد؛ لعِلْمِهَا أنَّ ذَلكَ يَشيعُ، ويُوجِبُ المَدْحَ.

وعَنْ زَيْدِ بن ثابتٍ، أنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ: **«إنَّ أَفْضلَ صَلَاة المَرْءِ فِي بيتِهِ إلَّا الصَّلاة المَكْتوبَة»**(١).

قَالَ المُصنِّف: أَخْرَجاه فِي «الصَّحيحين».

وكَانَ عامرُ بن عَبْد قيس يَكْره أَنْ يَرَوْه يُصلِّي، وكانَ لا يَتنفَّل فِي المَسْجِدِ، وكانَ يُصلِّي كلَّ يومٍ ألفَ ركعةٍ، وكَان ابْنُ أَبِي ليلىٰ إذا صَلَّىٰ ودَخَل عليه داخلٌ، اضْطَجَع.

فصل [ستر البكاء خوف الرياء]

وقَدْ لَبَّسَ عَلَىٰ قومٍ مِنَ المُتعبِّدين، وكَانوا يَبْكونَ، والنَّاسُ حَوْلَهم، وهَذَا قَدْ يَقَعُ عَلَيه، فلا يُمْكن دَفْعُهُ، فمَنْ قَدَر عَلَىٰ سَتْره، فأَظْهَرَهُ، فَقَدْ تَعرَّض للرِّياء.

وَعَنْ عاصمٍ قَالَ: كانَ أَبُو وائلٍ إذا صَلَّىٰ فِي بيتِهِ، نشجَ نشيجًا، ولَوْ جُعِلَتْ له الدُّنيا

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣١)، ومسلم (٧٨١).

عَلَىٰ أنْ يَفعلَه وأحدٌ يَرَاه، مَا فَعَله.

وقَدْ كَانَ أيُّوبُ السختيانِيُّ إذا غَلَبه البكاءُ، قَامَ.

فصل «الانشغال بالمفضول عن الفاضل»

وقَدْ لَبَّسَ عَلَىٰ جَمَاعةٍ مِنَ المُتعبِّدينَ، فَتَراهم يُصلُّون اللَّيلَ والنَّهارَ، ولا يَنْظرونَ فِي إصْلَاح عَيْبٍ باطنٍ، ولا فِي مَطْعمٍ، والنَّظرُ فِي ذَلكَ أوْلىٰ بِهِمْ من كَثْرة التَّنفُّل.

ذكر تلبيسه عليهم في قراءة القرآن:

وقَدْ لبَّس عَلَىٰ قومٍ بكَثْرة التِّلاوة، فهُمْ يَهذُّون هذًّا من غَيْر ترتيلٍ، ولا تَثبُّتٍ، وهَذِهِ حالةٌ لَيْسَتْ بِمَحْمودَةٍ، وقَدْ رُوِيَ عن جَمَاعةٍ من السَّلَف أنَّهم كانوا يَقْرؤونَ القرآنَ في كلِّ يومٍ، أوْ فِي كلِّ ركعةٍ، وهَذَا يَكُونُ نادرًا منهم، ومَنْ دَاوَمَ عَلَيه، فإنَّه وإنْ كانَ جائزًا إلَّا أنَّ التَّرتيلَ والتَّثبُّتَ أحبُّ إلَىٰ العُلَماء، وقَدْ قَالَ رسول الله ﷺ: «لا يَفْقهُ مَنْ قرأَ القرآنَ فِي أقلَّ من ثَلاثٍ»(١).

قَالَ المُصنِّف: وقَدْ لبَّسَ إبليسُ عَلَىٰ قومٍ مِنَ القُرَّاء، فَهُمْ يَقْرؤونَ القرآنَ فِي مَنَارة المَسْجد باللَّيل بالأَصْوَات المُجْتَمعة المُرْتَفعة الجزءَ والجُزْءينِ، فيَجْمَعون بين أذَىٰ النَّاس فِي مَنْعهم من النَّوم، وبَيْنَ التَّعرُّض للرِّياء، ومِنْهُمْ مَنْ يَقْرأ فِي مسجدِهِ وقتَ الأذَانِ؛ لأنَّه حين اجْتمَاع النَّاس فِي المَسْجد.

قَالَ المُصنِّف: ومِنْ أعْجَبِ ما رأيتُ فيهم أنَّ رجلًا كَانَ يُصلِّي بالنَّاس صلاةَ الصُّبح يَوْمَ الجُمُعة، ثُمَّ يَلْتفتُ فيَقْرأ المُعوِّذتين، ويَدْعو دُعَاءَ الخَتْمة؛ ليُعْلِم النَّاس أنِّي قَدْ ختمتُ الختمةَ.

---

(١) أخرجه أبو داود (١٣٩٤)، والترمذي (٢٩٤٩) من حديث ابن عمرو رضي الله عنهما، وصَحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٧٧٤٣).

وَمَا هَذِهِ طريقةُ السَّلف، فإنَّ السَّلفَ كَانوا يَسْترونَ عِبَادَاتِهِمْ، وَكَانَ عَمَلُ الرَّبيع بن خثيم كلُّه سرًّا، فرُبَّما دَخل عَلَيه الدَّاخلُ، وقَدْ نَشر المُصْحفَ فيُغطِّيه بثوبِهِ، وَكَان أَحْمَد بن حنبلٍ يَقْرأ القرآنَ كثيرًا، ولا يُدْرىٰ متىٰ يَخْتمُ.

قَالَ المُصنِّف: قَدْ سَبَقَ ذِكْرُ جُمْلةٍ من تَلْبيس إبْليس عَلَىٰ القُرَّاء، واللهُ أَعْلَمُ بالصَّواب، وهُوَ المُوفِّق.

ذكر تلبيسه عليهم في الصوم:

قَالَ المُصنِّف: وقَدْ لَبَّس عَلَىٰ أَقْوامٍ، فَحَسَّن لَهُمْ الصَّومَ الدَّائمَ، وذَلكَ جائزٌ إذا أفْطَر الإنسانُ الأَيَّامَ المُحرَّمُ صَوْمُهَا إلَّا أنَّ الآفَةَ فِيهِ مِنْ وَجْهَين:

أحدهُما: أنَّه رُبَّما عَادَ بضَعْفِ القُوىٰ، فأَعْجَز الإنْسَانَ عَن الكَسْب لعائلتِهِ، ومَنَعه من إعْفَاف زوجتِهِ، وفِي «الصَّحيحين» عَنْ رسول الله ﷺ أنَّه قَالَ: «**إنَّ لزَوْجِكَ عَلَيك حقًّا**»[(١)]، فكَمْ من فرضٍ يَضِيعُ بِهَذَا النَّفل.

والثانِي: أنَّه يُفوِّت الفضيلةَ، فإنَّه قَدْ صحَّ عَنْ رسول الله ﷺ أنَّه قَالَ: «**أَفْضَلُ الصِّيام صيامُ داود عَلَيه الصَّلاة والسَّلام، كان يَصُوم يومًا، ويُفْطر يومًا**»[(٢)].

وبالإسْنَاد عَنْ عَبْد الله بن عمرٍو، قَالَ: لَقِيَنِي رسول الله ﷺ، فَقَالَ: «**أَلَمْ أُحدَّث عَنْك أنَك تَقُوم اللَّيل؟ وأنتَ الَّذي تَقُول: لأقومنَّ اللَّيلَ، ولأَصُومنَّ النَّهارَ؟**». قَالَ -أحْسَبه قَالَ-: نَعَمْ، يَا رَسُولَ الله، قَدْ قُلْتُ ذَلكَ، فَقَالَ: «**فَقُمْ ونَمْ، وصُمْ وأفْطر، وصُمْ من كلِّ شهرٍ ثَلاثَةَ أيَّامٍ، ولَكَ مِثْل صِيَامِ الدَّهر**». قَالَ: قلتُ: يَا رَسُولَ الله، إنِّي أُطِيقُ أَكْثرَ من ذَلكَ. قَالَ: «**فصُمْ يومًا، وأفْطِرْ يَوْمين**». قلتُ: إنِّي أُطِيقُ أفْضَلَ مِنْ ذَلكَ. قَالَ: «**فصُمْ يَوْمًا، وأفْطر يومًا، وهُوَ**

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٧٥)، ومسلم (١١٥٩) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (١١٣١)، ومسلم (١١٥٩) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

أعدلُ الصَّوم، وهُوَ صيامُ دَاوُدَ ﷺ». قلتُ: إنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ من ذَلكَ. فَقَالَ رسول الله ﷺ: «لا أَفْضلَ مِنْ ذَلكَ»[1]، أَخْرَجاه فِي «الصَّحيحين».

فإِنْ قَالَ قائلٌ: فقَدْ بَلَغنا عَنْ جَمَاعةٍ من السَّلَف أَنَّهم كانوا يَسْردونَ الصَّوْمَ.

فالجَوَاب: أَنَّهم كَانُوا يَقْدرونَ عَلَىٰ الجَمْع بَيْنَ ذَلكَ، وبَيْنَ القِيَام بِحُقُوق العائلة، ولعلَّ أَكْثَرهم لَمْ تكنْ له عائلةٌ، وَلَا حاجةٌ إِلَىٰ الكَسْب، ثُمَّ إنَّ فيهم مَنْ فعلَ هَذَا فِي آخر عُمُره، عَلَىٰ أَنَّ قَوْلَ رسول الله ﷺ: «لا أَفْضَلَ من ذَلكَ». قطع هَذَا الحديث.

وقَدْ دَاوَم جَماعةٌ من القُدَماء عَلَىٰ الصَّوْم مَعَ خُشُونَة المَطْعم، وقلَّتِهِ، ومِنْهُمْ مَنْ ذَهَبتْ عينُهُ، ومِنْهُمْ مَنْ نَشفَ دماغُهُ، وهَذَا تفريطٌ فِي حقِّ النَّفس الوَاجِبِ، وحَمْلٌ عَلَيها ما لا تُطِيقُ، فَلَا يَجُوز.

فصل [خفي الرياء]

وقَدْ يشيعُ عن المُتعبِّد أنَّه يَصُومُ الدَّهْرَ، فيعلمُ بشياع ذَلكَ، فَلَا يُفْطر أصلًا، وإِنْ أفطرَ، أَخفَىٰ إِفْطَاره؛ لئلَّا يَنْكَسرَ جاهُهُ، وهَذَا من خَفِيِّ الرِّياء، ولو أَرَاد الإخلاصَ، وَسَتر الحال؛ لأفطَر بَيْنَ يَدَي مَنْ قَدْ علم أنَّه يَصُومُ، ثُمَّ عادَ إِلَىٰ الصَّوْم، ولَمْ يُعْلم به، ومِنْهُمْ مَنْ يُخْبر بِما قَدْ صَامَ، فيَقُول: اليوم مُنْذُ عشرينَ سنةً مَا أَفطرتُ، ويُلبِّسُ عَلَيه بأنَّك إِنَّما تُخْبر ليُقْتَدىٰ بكَ، والله أَعْلمُ بالمَقَاصد.

قَالَ سفيانُ الثَّوريُّ رحمه الله: إنَّ العبدَ لَيَعْمَلُ العَمَلَ فِي السِّرِّ، فلا يَزالُ به الشَّيْطانُ حتَّىٰ يَتحدَّث به، فيَنْتقل من دِيوَانِ السِّرِّ إِلَىٰ دِيوَان العَلَانية.

وَفِيهِمْ مَنْ عادتُهُ صَوْمُ الإِثْنَيْنِ والخَميس، فإِذَا دُعِيَ إِلَىٰ طَعَامٍ، قَالَ: اليَوْمُ الخميسُ،

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٧٦)، ومسلم (١١٥٩).

ولَوْ قَالَ: أنا صائمٌ، كَانَتْ محنةً، وإنَّما قولُهُ: اليومُ الخميسُ مَعْناه أنِّي أصومُ كلَّ خميسٍ، وفِي هَؤُلَاء مَنْ يَرَىٰ النَّاسَ بعَيْنِ الاحتقار؛ لكَوْنِهِ صَائمًا وهُمْ مُفْطرونَ، ومِنْهُمْ مَنْ يُلَازِم الصَّومَ، وَلَا يُبَالِي عَلَىٰ مَاذَا أَفْطَرَ، وَلَا يَتحَاشَىٰ فِي صومِهِ عَنْ غيبةٍ، وَلَا عَنْ نظرةٍ، ولا عَنْ فُضُولِ كلمةٍ، وقَدْ خَيَّل له إبليسُ أنَّ صَوْمَكَ يَدْفعُ إِثْمَكَ، وكلُّ هَذَا من التَّلبيس.

ذكر تلبيسه عليهم فِي الحج:

قَالَ المُصنِّف: قَدْ يُسْقطُ الإنسانُ الفَرْضَ بالحجِّ مرَّةً، ثُمَّ يعودُ لَا عن رِضَاءِ الوَالِدَيْنِ، وهَذَا خطأٌ، ورُبَّما خَرَج وعَلَيه دُيُونٌ أو مَظَالمُ، ورُبَّما خَرَج للنُّزهة، وربَّما حجَّ بمالٍ فيه شُبْهةٌ، ومِنْهُمْ مَنْ يحبُّ أَنْ يُتلقَّىٰ ويُقَالَ: الحاجُّ، وجُمْهورُهُمْ يُضيِّعُ فِي الطَّريق فرائضَ من الطَّهَارة والصَّلاة، ويَجْتَمعون حَوْل الكعبة بقُلُوبٍ دَنِسَةٍ، وبَوَاطنَ غَيْر نقيَّةٍ، وإِبْلِيسُ يُرِيهمْ صُورَة الحجِّ فيَغُرُّهُمْ، وإنَّما المُرَاد من الحجِّ القربُ بالقُلُوب لا بالأَبْدَان، وإنَّما يكونُ ذَلكَ مَعَ القِيَام بالتَّقْوىٰ.

وكَمْ من قاصدٍ إِلَىٰ مكَّة هِمَّتُهُ عددُ حَجَّاتِهِ، فَيَقُولُ: لي عشرونَ وقفةً، وكَمْ من مُجَاورٍ قَدْ طالَ مُكْثُهُ، ولَمْ يشرع فِي تَنْقية باطنِهِ، وربَّما كَانَتْ هِمَّتُهُ مُتعلِّقةً بفُتُوحٍ يصل إليه مِمَّن كَانَ، وربَّما قَالَ: إنَّ لي اليوم عِشْرِينَ سنةً مُجَاورًا، وكَمْ قَدْ رأيتُ فِي طريق مكَّةَ من قاصدٍ إِلَىٰ الحجِّ يَضْرب رُفَقَاءه عَلَىٰ الماءِ، ويُضَايقُهمْ فِي الطَّريق، وقَدْ لبَّس إبليسُ عَلَىٰ جَمَاعةٍ من القَاصِدِينَ إِلَىٰ مكَّة، فَهُمْ يُضيِّعون الصَّلوات، ويُطفِّفُونَ إذا بَاعُوا، وَيَظنُّون أنَّ الحجَّ يَدْفعُ عَنْهم، وقَدْ لَبَّس إِبْلِيسُ عَلَىٰ قومٍ مِنْهُمْ فَابْتَدعوا فِي المَنَاسك ما لَيْسَ منها، فرَأيتُ جَمَاعةً يَتصنَّعونَ فِي إِحْرَامِهِمْ، فيَكْشِفُونَ عَنْ كتفٍ واحدةٍ، ويَبْقونَ [تَحْت] الشَّمس أيَّامًا، فتكشطُ جُلُودُهُمْ، وتَنْتفخُ رُؤوسُهُمْ، ويَتزيَّنونَ بَيْنَ النَّاس بذَلكَ.

وفِي أَفْراد البُخَاريِّ مِنْ حديث ابْن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رأىٰ رجلًا يَطُوفُ

بالكَعْبة بزِمَامٍ فَقَطعه[١].

وفِي لفظٍ آخَرَ: رَأىٰ رجلًا يَقُودُ إِنْسَانًا بِخزامةٍ فِي أَنْفِهِ فَقَطَعَها بيدِهِ، ثُمَّ أَمَره أنْ يَقُودَهُ بيدِهِ[٢].

قَالَ المُصنِّف: وهَذَا الحديثُ يَتضمَّن النَّهيَ عن الابْتدَاع فِي الدِّين، وإِنْ قُصِدَتْ بذَلك الطَّاعة.

وقَدْ لَبَّسَ عَلَىٰ قومٍ يَدَّعونَ التَّوكُّلَ، فَخَرجوا بِلَا زادٍ، وَظَنُّوا أنَّ هَذَا هُوَ التَّوكُّل، وهُمْ عَلَىٰ غايةٍ من الخطإ.

قَالَ رجلٌ للإمَام أَحْمَد بن حنبلٍ رَحِمَهُ اللهُ: أريدُ أنْ أخرجَ إِلَىٰ مكَّة عَلَىٰ التَّوكُّل من غَيْر زادٍ.

فقَالَ له أحمد: فَاخْرُجْ فِي غَيْر القافلة.

قَالَ: لَا، إلَّا مَعَهُمْ.

قَالَ: فعَلَىٰ جِرَابِ النَّاس تَوكَّلتَ؟ فنَسْأل الله أنْ يُوفِّقنا.

ذكر تلبيس إبليس عَلَى الغزاة:

قَالَ المُصنِّف: قَدْ لبَّس إِبْلِيسُ عَلَىٰ خَلْقٍ كثيرٍ، فَخَرجوا إِلَىٰ الجِهَادِ وَنِيَّتهُمُ المُبَاهاةُ والرِّياءُ، ليُقَالَ: فُلَانٌ غازٍ، وَربَّما كَانَ المَقْصود أنْ يُقَالَ: شجاعٌ، أَوْ كَانَ طَلَب الغنيمةَ، وإنَّما الأَعْمَالُ بالنِّيَّات.

وعَنْ أَبِي مُوسَىٰ قَالَ: جَاءَ رجلٌ إِلَىٰ النَّبيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، أَرَأيْتَ الرَّجلَ

---

(١) أخرجه البخاري (١٦٢١).

(٢) أخرجه البخاري (٦٧٠٣) من حديث ابْن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

يُقَاتل شَجَاعةً، ويُقَاتل حَميَّةً، ويُقَاتل رياءً، فأيُّ ذَلكَ فِي سبيل الله؟ فَقَالَ رسول الله ﷺ: «مَنْ قَاتَل لتكونَ كَلِمةُ الله هِيَ العُلْيا، فهُوَ فِي سبيل الله»[١]، أخرَجاه فِي «الصَّحيحين».

وعَنِ ابْنِ مَسْعودٍ رضي الله عنه قَالَ: «إيَّاكُمْ أَنْ تَقُولَوا: مَاتَ فلانٌ شَهيدًا، أَوْ قُتِلَ فلانٌ شَهيدًا، فإنَّ الرَّجلَ ليُقَاتل ليغنمَ، ويُقَاتل ليُذكرَ، ويُقَاتل ليُرَىٰ مَكَانه»[٢].

وبالإسْنَاد عَنْ أَبِي هُرَيرة رضي الله عنه، عَن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قَالَ: «أَوَّلُ النَّاس يُقْضىٰ فيه يَوْمَ القِيَامَة ثلاثةٌ، رجلٌ اسْتُشْهِدَ فَأُتِيَ به، فعَرَّفه نِعَمَهُ، فعَرَفها، فَقَالَ: ما عَمِلْتَ فيها؟ قَالَ: قَاتَلتُ فيكَ حتَّىٰ قُتِلْتُ. قَالَ: كَذَبتَ؛ ولكنَّك قَاتَلتَ ليُقَالَ: هُوَ جَريءٌ، فقَدْ قيلَ، ثُمَّ أُمِرَ، فسُحِبَ عَلَىٰ وجهِهِ حتَّىٰ أُلقي فِي النَّار، ورجلٌ تعَلَّمَ العِلْمَ وَعَلَّمَهُ، وقَرَأَ القرآنَ، فأُتِيَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعمَهُ، فَعَرفَها، فَقَالَ: ما عملتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعلَّمتُ فيكَ العِلْمَ وعَلَّمتُهُ، وقَرأْتُ القرآنَ، فَقَالَ: كَذَبتَ، ولكنَّك تَعلَّمتَ ليُقَالَ: هُوَ عالِمٌ، فَقَدْ قيلَ، وقَرأتَ القُرْآنَ ليُقَالَ: هُوَ قارئٌ، فَقَدْ قيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ، فَسُحبَ عَلَىٰ وجهِهِ حتَّىٰ أُلقِيَ فِي النَّار، ورجلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيه، فأَعْطَاه من أَصْنَاف المال كُلِّه، فأُتِيَ بِهِ، فعَرَّفه نِعَمَه، فعَرفها، فقَالَ: ما عَمِلْتَ فِيهَا؟ فقَالَ: ما تَركتُ من سبيلٍ أَنتَ تُحبُّهُ أَنْ ينفقَ فِيهَا إلَّا أَنْفَقتُ فِيهَا لَكَ. قَالَ: كَذَبْتَ؛ ولكنَّك فعلتَ ليُقَالَ: هُوَ جوادٌ، فقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ، فَسُحِبَ عَلَىٰ وجهِهِ حتَّىٰ أُلْقي فِي النَّار»[٣]، انْفرَدَ بإخراجِهِ مسلمٌ.

وبإسنادٍ مَرْفوعٍ عَنْ أَبِي حاتمِ الرَّازي قَالَ: سَمعتُ عبدة بن سُلَيمان يَقُول: كنَّا فِي سَرِيَّةٍ مع عَبْد الله بن المُبَارك فِي بلاد الرُّوم، فَصَادفنا العدوَّ، فلمَّا الْتقَىٰ الصَّفَّان، خَرَج رجلٌ من العدوِّ، فَدَعا إلَىٰ البراز، فَخَرج إليه رجلٌ فطَارده ساعةً، فطَعنَهُ فقَتله، ثُمَّ آخر فَقَتلَهُ، ثُمَّ آخر

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٣)، ومسلم (١٩٠٤) من حديث أبي موسىٰ رضي الله عنه.
(٢) أخرجه أحمد (٣٩٤٢) عن ابن مسعود رضي الله عنه موقوفًا.
(٣) أخرجه مسلم (١٩٠٥).

فَطَعَنَهُ فَقَتَلَهُ، ثُمَّ دَعَا إِلَىٰ البراز، فَخَرج إِلَيْه رَجُلٌ، فَطَارده ساعةً، فَطَعَنه الرَّجلُ، فَقَتلَهُ، فَازْدَحمَ النَّاسُ عَلَيه، فكنتُ فِيمَن ازدَحم عَلَيه، فإِذَا هُوَ مُلَثَّمٌ وَجْهَهُ بكُمِّه، فأَخذتُ بطَرف كُمِّه فمددتُهُ، فإذا هُوَ عبد الله بن المُبَارك، فَقَالَ: وأنتَ يا أبا عمرٍو مِمَّنْ يُشَنِّعُ عَلَينا. قلتُ: فَانظُرُوا -رحِمكم اللهُ- إِلَىٰ هَذَا السَّيِّد المُخْلص، كيف خَافَ عَلَىٰ إخلاصِهِ برُؤْية النَّاس له، ومَدْحهم إِيَّاه فَستر نَفْسَه.

وقَدْ كانَ إبراهيمُ بن أَدْهَمَ يُقَاتل، فإِذَا غَنمُوا، لَمْ يأخذ شيئًا من الغنيمة ليُوفَّر له الأجرُ.

فصل (فتنة الغلول)

وقَدْ لبَّسَ إِبْليسُ عَلَىٰ المُجَاهد إذا غنمَ، فربَّما أَخَذ من الغَنِيمَةِ ما ليس له أَخْذُهُ، فإمَّا أَنْ يَكُونَ قليلَ العِلْمِ، فيرىٰ أَنَّ أَمْوَالَ الكُفَّار مُبَاحةٌ لمَنْ أَخذها، ولا يَدْري أَنَّ الغُلُولَ من الغَنَائم مَعْصيةٌ.

وفِي «الصَّحيحين» مِنْ حديث أَبِي هُرَيرة، قَالَ: «خَرجنا مَعَ رسول الله ﷺ إِلَىٰ خَيْبر، فَفَتح اللهُ عَلَينا، فلم نَغْنَمْ ذهبًا ولا وَرِقًا، غَنِمْنا المتاعَ، والطَّعامَ، والثِّيابَ، ثُمَّ انطَلَقنا إِلَىٰ الوادي، ومَعَ رسول الله ﷺ عبدٌ له، فلَمَّا نَزَلنا، قَامَ عبدُ رسول الله ﷺ يحلُّ رَحْلهُ، فرُمِيَ بسَهْمٍ، فكَان فِيه حَتْفُهُ، فلَمَّا قُلْنا له: هنيئًا له الشَّهادة يا رَسُولَ الله، فقَالَ: «**كلَّا، والَّذي نفسُ مُحمَّدٍ بيدِهِ، إنَّ الشَّملةَ لتَلْتهبُ عَلَيه نارًا أَخَذها من الغَنَائم يوم خَيْبر لَمْ تُصبها المَقَاسمُ**».

قَالَ: فَفَزِعَ النَّاسُ، فَجَاء رجلٌ بشراكٍ أو شِرَاكَيْنِ، فَقَالَ: أصبتُهُ يَوْمَ خيبر، فَقَالَ رسول الله ﷺ: «**شِرَاكٌ من نارٍ**»، أو: «**شِرَاكَان من نارٍ**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٧٠٧)، ومسلم (١١٥).

فصل [أثر الإيمان والعلم في الوقاية من فتنة المال]

وقَدْ يَكُونُ الغَازي عَالِمًا بالتَّحريم إلَّا أنَّه يرىٰ الشَّيءَ الكثيرَ، فَلَا يَصْبرُ عَنه، وربَّما ظَنَّ أنَّ جِهَادَهُ يَدْفعُ عنه ما فَعَل، وهاهنا يَتبيَّن أثرُ الإيمَانِ والعِلْمِ.

رُوِّينا بإسنادٍ عن هُبَيرة بن الأشعث، عَنْ أبِي عُبَيدة العنبريِّ، قَالَ: لمَّا هَبَط المُسْلمونَ المَدَائنَ، وجَمَعوا الأقباضَ، أقْبَلَ رجلٌ بحقٍّ مَعَه، فَدَفعه إلَىٰ صاحب الأقْبَاض، فَقَالَ الَّذين مَعَه: ما رأينا مثلَ هَذَا قطُّ.

ما يعدلُهُ ما عندنا، ولا ما يُقَاربُهُ، فقَالَ له: هَلْ أخذتَ منه شيئًا؟

فَقَالَ: أمَا -واللهِ- لَوْلَا اللهُ ما أتيتُكُمْ به، فَعَرفوا أنَّ للرَّجل شأنًا.

فَقَالوا: مَنْ أنتَ؟

فَقَالَ: واللهِ، لا أُخْبِرُكُمْ لتَحْمدوني، وَلَا أُغْرِيكُمْ لتُقَرِّظوني، ولَكنِّي أَحْمَدُ اللهَ، وأرْضَىٰ بثوابِهِ، فأتْبَعوه رجلًا حتَّىٰ انْتهَىٰ إلَىٰ أصْحابِهِ، فسأل عنه، فإذَا هُوَ عامر بن عَبْد قَيْسٍ.

ذكر تلبيسه علَى الآمرين بالمعروف، والناهين عن المنكر:

وهُمْ قِسْمَانِ: عَالِمٌ، وَجَاهلٌ، فدُخُولُ إبليس عَلَىٰ العَالِمِ من طَرِيقَيْن:

الطَّريق الأوَّل: التَّزيُّن بذَلكَ، وَطَلب الذِّكْر، والعُجْب بذَلكَ الفِعْلِ.

رُوِّينا بإسنادٍ عَنْ أحمد بن أبِي الحواري، قَالَ: سَمعتُ أبا سُلَيمان يَقُول: سَمعتُ أبَا جَعْفرٍ المنصورَ يَبْكي فِي خطبتِهِ يوم الجُمُعة، فَاسْتَقبلنِي الغضبُ، وحَضَرتنِي نيَّةٌ أنْ أقومَ فأعظَهُ بِما أعْرفُ من فِعْلِهِ إذا نَزلَ، قَالَ: فَكَرهتُ أنْ أقومَ إلَىٰ خَليفةٍ فأعظَهُ، والنَّاس جُلوسٌ يَرْمقُونَني بأبْصَارهمْ، فيَعْرض لي تَزيُّنٌ، فيأمر بِي، فأُقْتَل عَلَىٰ غَيْر صحيحٍ، فجلستُ وسكتُّ.

والطَّرِيق الثَّانِي: الغضبُ للنَّفس: وربَّما كان ابتداءً، وربَّما عرضَ فِي حَالَة الآمر بالمَعْروف لأجْل ما يَلْقىٰ به المُنْكر من الإهَانَة، فتصير خُصُومةٌ لنفسِهِ، كما قَالَ عُمَر بن العزيز لرجلٍ: «لَوْلَا أنِّي غَضْبان لعَاقبتُكَ»، وإنَّما أراد أنَّك أغْضَبتنِي، فخفتُ أنْ تَمْتزجَ العُقُوبةُ من غَضَبٍ لله وَلِي.

فصل [جهل الآمر بالمعروف]

فأمَّا إذا كَانَ الآمرُ بالمَعْروف جاهلًا، فإنَّ الشَّيطانَ يَتلَاعبُ به، وإنَّما كان إفسادُهُ فِي أمْره أكْثَر من إصلاحِهِ؛ لأنَّه ربَّما نَهَىٰ عن شيءٍ جَائزٍ بالإجْمَاع، وربَّما أنكر ما تأوَّل فيه صاحبُهُ، وَتَبِعَ فيه بَعْض المَذَاهب، وربَّما كسر البابَ، وتَسوَّر الحيطانَ، وَضَرب أهْلَ المُنْكر، وقَذَفهم، فإنْ أجَابوه بكلمةٍ تَصْعب عَلَيه، صار غضبُهُ لنفسِهِ، وربَّما كَشَف ما قَدَ أمَر الشَّرعُ بسِتْرِهِ.

وقَدْ سئل الإمامُ أحمد: عَن القوم يَكُونُ مَعَهم المُنْكر مغطىٰ مثل طُنْبورٍ ومُسْكرٍ.

قَالَ: إذا كان مُغطًّىٰ، فَلَا تَكْسره.

وَقَالَ فِي روايةٍ أُخرىٰ: اكْسِرْهُ، وَهَذَا مَحمولٌ عَلَىٰ أنَّه يَكُونُ مغطًّىٰ بشيءٍ خفيفٍ يَصفُهُ، فيَتبيَّن، والأَوْلَىٰ عَلَىٰ أنَّه لا يتبيَّنُ، وسُئِلَ عن الرَّجُل يَسْمعُ صوتَ الطَّبل والمِزْمَار، وَلَا يَعْرف مَكَانه.

فقَالَ: ولا عَلَيك ما غَابَ عَنْكَ، فلا تُفتِّشْ. وربَّما رَفَع هَذَا المُنْكِرُ أهْلَ المُنْكر إلَىٰ مَنْ يَظْلمُهُم.

وقد قَالَ الإمام أحمد بن حنبل: إنْ علمتَ أنَّ السُّلطانَ يُقِيمُ الحُدُودَ، فَارْفَعْ إلَيْهِ.

فصل (التباهي بالإنكار وفضيحة العاصين)

ومِنْ تَلْبيس إبْليس عَلَىٰ المُنْكِرِ أنَّه إذا أنْكَر، جلسَ فِي مَجْمعٍ يَصفُ ما فَعَل، ويَتبَاهىٰ بِهِ، ويسبُّ أَصْحَابَ المُنْكَر سبَّ الحَنق عَلَيهم ويَلْعَنهمْ، ولعلَّ القومَ قَدْ تابوا، وربَّما كانوا خيرًا منه، لنَدَمِهِمْ وكِبْره، ويَنْدرج فِي ضِمْنِ حديثِهِ كَشْفُ عَوَرات المُسْلمينَ؛ لأنَّه يُعْلِمُ مَنْ لا يَعْلَم، والسَّتْرُ عَلَىٰ المسلم واجبٌ مَهْما أَمْكَنَ.

وسَمعتُ عَنْ بَعْض الجَهَلة بالإنكار أنَّه يَهْجمُ عَلَىٰ قومٍ ما يتيقَّن ما عِنْدهُمْ، ويَضْربُهم الضَّربَ المُبرِّح، ويَكْسر الأَوَانِي، وكلُّ هَذَا يوجبُهُ الجهلُ، فأمَّا العَالِمُ إذا أنكرَ، فأَنْتَ منه عَلَىٰ أمانٍ.

وقَدْ كانَ السَّلفُ يَتلطَّفونَ فِي الإنْكَار، ورَأَىٰ صلةُ بن أشيمَ رجلًا يُكلِّم امْرَأةً، فَقَال: إنَّ الله يَراكُمَا، سَتَرنا اللهُ وإيَّاكُمَا، وكَانَ يمرُّ بقَومٍ يَلْعبون، فيَقُول: يا إِخْوَاني، ما تَقُولون فيمَنْ أرادَ سَفرًا، فَنامَ طُولَ اللَّيل، ولعبَ طولَ النَّهار متَىٰ يَقْطع سَفَرَه.

فَانْتَبه رجلٌ منهم، فَقَالَ: يا قَوْم، إنَّما يُعلِّمنا هَذَا، فتاب وَصَحبَهُ.

فصل (الإنكار على الأمراء)

وأَوْلَىٰ النَّاس بالتَّلطُّف فِي الإنْكَار، وهُمُ الأُمَراء، فيَصْلح أَنْ يُقَالَ لَهُمْ: إنَّ الله قَدْ رَفَعكمْ، فَاعْرفوا قَدْر نِعْمتِهِ. فإنَّ النِّعمَ تَدُومُ بالشُّكْر، فَلا يَحْسُنُ أن تُقَابَلَ بالمَعَاصي.

فصل (فتنة ترك تغيير المنكر تورعًا)

وقَدْ لبَّسَ إبليسُ عَلَىٰ بَعْض المُتعبِّدين، فيرىٰ منكرًا، فَلَا يُنْكرُهُ، ويَقُولُ: إنَّما يأمرُ ويَنْهىٰ مَنْ قَدْ صَلُحَ، وأنا لستُ بصالحٍ، فكَيْفَ آمُرُ غَيْرِي، وهَذَا غلطٌ؛ لأنَّه يَجب عَلَيه أَنْ يأمرَ ويَنْهىٰ، ولَوْ كانت تلك المَعْصيةُ فيه، إلَّا أنَّه متَىٰ أنكر مُتنزِّهًا عن المُنْكَر، أثَّر إنكارُهُ،

وإذا لَمْ يكن مُتنزِّهًا لَمْ يَكَدْ يَعملُ إنكارُهُ، فينْبغي للمُنكِرِ أن يُنزِّه نَفْسه ليُؤثِّر إنكارُهُ.

قَالَ ابن عقيل: رَأَيْنا فِي زَمَاننا أبا بكرِ الأقفالِيَّ فِي أيَّام القائم إِذَا نَهَض لإنكَار مُنْكرٍ اسْتَتْبَع مَعَه مَشَايخَ لَا يَأْكُلُون إلَّا من صَنْعة أَيْديهم؛ كَأَبِي بكرِ الخبَّاز شَيْخٌ صالحٌ، أضرَّ من اطِّلاعِهِ فِي التَّنُّور وتبعَهُ، وجَمَاعةٍ ما فيهم مَنْ يأْخُذُ صدقةً، وَلَا يُدنِّس بقَبُول عطاءٍ، صُوَّامِ النَّهار، قُوَّامِ اللَّيل، أرْبَابِ بُكَاءٍ، فإذا تَبعَهُ مخلطٌ، ردَّهُ، وقَالَ: متَىٰ لَقينَا الجيشَ بِمُخلِّطٍ؛ انْهَزم الجيشُ.

الباب التاسع
في ذكر تلبيس إبليس على الزهاد والعباد

قَدْ يَسْمَعُ العامِّيُّ ذمَّ الدُّنيا فِي القُرْآن المجيد والأحاديث، فيرىٰ أنَّ النَّجاةَ تَرْكُها، ولا يَدْري ما الدُّنيا المَذْمومة، فيُلبِّسُ عَلَيه إبليسُ: بأنَّك لا تَنْجو في الآخِرَةِ إلَّا بتَرْك الدُّنيا، فيَخْرج عَلَىٰ وجهِهِ إلَىٰ الجِبَالِ، فيَبْعد عن الجُمُعة، والجَمَاعة، والعِلْمِ، ويَصير كالوَحْش، ويُخيَّل إليه أنَّ هَذَا هو الزُّهْدُ الحقيقيُّ.

كَيْفَ لا وقَدْ سمع عن فلانٍ أنَّه هَامَ عَلَىٰ وَجْهِهِ، وعن فلانٍ أنَّه تَعبَّد فِي جبلٍ، وربَّما كَانَتْ له عائلةٌ فَضَاعتْ، أو والدةٌ فبكَتْ لفراقِهِ، وربَّما لَمْ يَعْرف أرْكانَ الصَّلاة كما يَنْبغي، وربَّما كانت عَلَيه مَظَالمُ لَمْ يَخْرج منها.

وإنَّما يَتمكَّنُ إبليسُ من التَّلبيس عَلَىٰ هَذَا لقلَّة علمِهِ، ومِنْ جهلِهِ رِضَاهُ عن نفسِهِ بِما يَعْلم، ولو أنَّه وُفِّق لصُحْبة فقيهٍ يَفْهم الحقائقَ لَعرَّفه أنَّ الدُّنيا لا تُذمُّ لِذَاتِها، وكَيْف يُذَمُّ ما منَّ الله تَعَالىٰ به، وما هُوَ ضَرُورةٌ فِي بَقَاء الآدميِّ، وسَبَبٌ فِي إعانتِهِ عَلَىٰ تَحْصيل العِلْمِ والعِبَادَة من مَطْعمٍ، ومَشْربٍ، ومَلْبسٍ، ومسجدٍ يُصلِّي فيه، وإنَّما المَذْمومُ أَخْذُ الشَّيء من غَيْر حلِّه، أو تَنَاوله عَلَىٰ وَجْه السَّرف، لا عَلَىٰ مِقْدَار الحَاجَة، ويصرف النَّفس فيه بِمُقْتضىٰ رُعُوناتها، لَا بِإذْنِ الشَّرْع.

وإنَّ الخُرُوجَ إلَىٰ الجِبَالِ المُنْفردة منهيٌّ عنه، فإنَّ النَّبيَّ ﷺ: «نَهىٰ أَنْ يبيتَ الرَّجلُ وَحْده»(١). وإنَّ التَّعرُّضَ لتَرْك الجَمَاعة والجُمُعة خسرانٌ لا ربحٌ، والبُعْدُ عن العِلْمِ والعُلَماء

---

(١) أخرجه أحمد (٥٦١٨)، من حديث ابن عمر رضي الله عنه، وصَحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٦٩١٩).

يُقوِّي سلطانَ الجَهْل، وفراقُ الوَالِدِ والوالدة فِي مِثْلِ هَذَا عُقُوقٌ، والعُقُوقُ من الكَبَائر، وأمَّا مَنْ سُمِعَ عَنه أنَّه خَرَج إِلَىٰ جبلٍ، فأَحْوَالُهُمْ تَحْتمل أنَّهم لَمْ يكنْ لَهم عيالٌ، ولا والدٌ، ولا والدةٌ، فَخَرجوا إِلَىٰ مكانٍ يَتعبَّدون فيه مُجْتمعينَ، ومَنْ لَمْ يَحْتمل حَالَهم وجهًا صحيحًا فهُمْ عَلَىٰ الخطإِ مَنْ كانوا.

وقَدْ قَالَ بَعْض السَّلف: خَرَجنا إِلَىٰ جبلٍ نَتعبَّد، فَجَاءنا سفيان الثَّوريُّ، فردَّنا.

ومن تلبيسِهِ عَلَىٰ الزُّهَّاد: إِعْرَاضُهُمْ عن العِلْمِ شغلًا بالزُّهْد، فَقَد اسْتَبْدلوا الَّذي هو أدْنَىٰ بالَّذي هو خيرٌ.

وبيَان ذلك: أنَّ الزَّاهدَ لا يَتعدَّىٰ نفعُهُ عتبةَ بابِهِ، والعَالِمُ نفعُهُ مُتعدٍّ، وكَمْ قَدْ ردَّ إِلَىٰ الصَّواب من مُتعبِّدٍ.

ومن تلبيسِهِ عليهم: أنَّه يُوهِمُهُمْ أنَّ الزُّهدَ تَرْكُ المُبَاحات.

فمِنهُمْ: مَنْ لا يزيدُ عَلَىٰ خبز الشَّعير، ومنهم: مَنْ لا يَذُوقُ الفاكهةَ، ومنهم مَنْ يُقلِّل المطعمَ حتَّىٰ ييبسَ بدنُهُ، ويُعذِّب نفسَهُ بلبس الصُّوف، ويَمْنعها الماءَ الباردَ، وَمَا هَذِهِ طريقةُ الرَّسُول ﷺ، وَلَا طَرِيقُ أَصْحابِهِ وأتباعِهِ.

وإنَّما كانَ يَجُوعُون إذا لم يَجدُوا شيئًا، فإذا وَجَدوا أكَلوا، وقَدْ كانَ رسول الله ﷺ يأكُلُ اللَّحمَ ويُحِبُّهُ، ويأكُلُ الدَّجاجَ، ويُحبُّ الحَلْوىٰ، ويَسْتعذبُ له الماءَ الباردَ، ويَخْتار الماءَ البائتَ، فإنَّ الماءَ الجاري يُؤذِي المعدَةَ، وَلَا يَرْوي.

وَقَدْ كان رجلٌ يَقُولُ: أنا لا آكُلُ الخبيصَ؛ لأنِّي لا أقومُ بشُكْره.

فَقَالَ الحسنُ البصريُّ: هَذَا رجلٌ أحمقُ، وهَلْ يَقُومُ بشُكْر الماء البارد؟!

وقَدْ كان سفيانُ الثَّوريُّ إذَا سَافَر، حَمَل فِي سفرتِهِ اللَّحمَ المشويَّ، وَالفَالوذجَ، ويَنْبغي للإِنْسَان أنْ يَعْلمَ أنَّ نَفْسَه مَطيَّته، ولا بُدَّ من الرِّفق بِها ليصلَ بِها إِلَىٰ المَقْصود، فَلْيأخُذْ ما

يُصْلحها، وليَتْرك ما يُؤْذيها من الشّبع والإفْرَاط فِي تَنَاول الشَّهَوات، فإنَّ ذلكَ يُؤْذي البدنَ والدِّين.

ثُمَّ إنَّ النَّاسَ يَخْتلفونَ فِي طِبَاعِهِمْ، فإنَّ الأعرابَ إذا لَبِسُوا الصُّوفَ، وَاقْتَصروا عَلَىٰ شُرْب اللَّبن، لَمْ نَلُمْهُمْ؛ لأنَّ مَطَايا أَبْدَانِهِمْ تَحْمل ذلكَ. وأَهْلُ السَّواد إذا لَبِسُوا الصُّوفَ، وأَكَلوا الكَوَامِخَ، لَمْ نَلُمْهم أيضًا، ولا نَقُول فِي هَؤُلَاء مَنْ قَدْ حَمَل عَلَىٰ نفسِهِ؛ لأنَّ هَذِهِ عَادةُ القَوْم.

فأمَّا إذا كان البدنُ مُتْرفًا قَدْ نَشأ عَلَىٰ التَّنعُّم، فإنَّا نَنْهَىٰ صاحِبَهُ أَنْ يَحْملَ عليه ما يُؤْذيه، فإنْ تَزهَّد، وآثَرَ تَرْكَ الشَّهوات، إمَّا لأنَّ الحلالَ لا يَحْتمل السَّرَفَ، أو لأنَّ الطَّعامَ اللَّذيذَ يُوجبُ كَثْرَةَ التَّناوُل، فيكثر النَّوم والكسل، فهَذَا يَحْتاجُ أَنْ يعلم ما يضرُّ تَرْكه، وما لا يضرُّ، فيأخذ قَدْر القِوَامِ من غَيْر أن يُؤْذي النَّفسَ.

وقَدْ ظنَّ قومٌ أنَّ الخبزَ القفارَ يَكْفي فِي قوام البَدَن، ولَوْ كفىٰ إلَّا أنَّ الاقتصارَ يُؤْذي من جِهَةِ أنَّ أَخلَاطَ البَدَن تَفْتقر إلَىٰ الحَامِضِ، والحُلْو، والحارِّ، والبارد، والمُمسِّك، والمُسهِّل.

وقَدْ جُعِلَ فِي الطَّبع ميلٌ إلَىٰ المُلَائم، فتارةً يميلُ إلَىٰ الحَامِضِ، وَتارةً يَميلُ إلَىٰ الحُلْو، وَلذَلكَ أَسْبابٌ: مثل أَنْ يقلَّ عنده البَلْغَمُ الَّذي لا بُدَّ فِي قِوَامِهَا منه، فتَشْتاق إلَىٰ اللَّبن، ويَكْثر عِنْدَها الصَّفراء، فتميل إلَىٰ الحُمُوضة، فمَنْ كفَّها عن التَّصرُّف عَلَىٰ مُقْتضىٰ ما قَدْ وضع فِي طَبْعها مِمَّا يُصْلحُها، فَقَدْ آذَاهَا، إلَّا أَنْ يكفَّها عن الشّبع والشَّره ومَا يُخَافُ عَاقبتُهُ، فإنَّ ذَلكَ يُفْسدُها.

فأمَّا الكفُّ المُطْلَقُ فخطأٌ، فَافْهَمْ هَذَا، ولا تَلْتفت إلَىٰ قَوْل الحارث المُحَاسبِيِّ، وأَبِي طالب المكِّيِّ فيما ذكرا من تَقْليل المطعم، ومُجَاهدة النَّفس بتَرْك مُبَاحاتِها، فإنَّ اتِّبَاعَ

الشَّارع وَصَحَابته أَوْلَىٰ.

وكان ابْنُ عقيلٍ يَقُول: ما أعجبَ أُمُوركَمْ فِي التَّديُّن، إمَّا أهواء مُتَّبَعَةٌ أو رهبانيَّةٌ مبتدَعةٌ، بَيْنَ تَجْرِير أذيال المرح فِي الصِّبا واللَّعب، وبَيْنَ إِهْمَال الحُقُوق، واطِّراح العيال، واللُّحوق بزَوَايا المَسَاجد، فهلَّا عبدُوا عَلَىٰ عقلٍ وشرعٍ.

فصل (المعنى الحقيقي للزهد)

ومن تلبيسِهِ عَلَيهم أنَّه يُوهِمُهُمْ أنَّ الزُّهدَ هو القناعةُ بالدُّون من المَطْعم، والمَلْبس فحسب، فهُمْ يَقْنعون بذَلكَ، وقُلُوبُهم راغبةٌ فِي الرِّياسة، وطَلَب الجاه، فَتَراهم يَترصَّدون لزيارة الأُمَراء إيَّاهمْ، ويُكْرمون الأغنياء دونَ الفُقَراء، ويَتخَاشعون عند لقاء النَّاس، كأنَّهم قَدْ خَرَجوا من مُشَاهدةٍ، وربَّما ردَّ أحدُهُم المالَ؛ لئلَّا يُقَالَ: قَدْ بدا له من الزُّهد. وهم من تَردُّد النَّاس إليهم، وتَقْبيل أيديهم فِي أوْسَع بابٍ من ولايات الدُّنيا؛ لأنَّ غايةَ الدُّنيا الرِّياسةُ.

وأَكْثَرُ ما يُلبِّسُ به إبليسُ عَلَىٰ العُبَّادِ والزُّهَّاد خفيُّ الرِّياء.

فأمَّا الظَّاهر من الرِّياء فلا يَدْخلُ فِي التَّلبيس، مثل: إِظْهَار النُّحُول، وصَفَار الوجه، وشَعَث الشَّعَر ليستدلَّ به عَلَىٰ الزُّهد، وكَذَلك خَفْض الصَّوت لإظْهَار الخُشُوع، وكَذلكَ الرِّياء بالصَّلاة والصَّدقة، ومثل هَذِهِ الظَّواهر لا تَخْفىٰ، وإنَّما نشير إلَىٰ خفيِّ الرِّياء، وقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بالنِّيَّات»[1].

ومتَىٰ لَمْ يُرِدْ بالعمل وَجْهَ الله ﷻ، لَم يُقْبَلْ. قَالَ مالكُ بن دينارٍ: قُولُوا لمَنْ لَمْ يَكُنْ صادقًا: لا تتعب.

وَاعْلَمْ أنَّ المؤمنَ لَا يريدُ بعملِهِ إلَّا الله ﷻ وإنَّما يَدْخل عليه خفيُّ الرِّياء، فيُلبِّسُ

(١) أخرجه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧) من حديث عُمَر بن الخطَّاب رضي الله عنه.

الأمر، فنجاتُهُ منه صعبةٌ.

وفِي الحديث مَرْفوعًا عَنْ يَسَارٍ قَالَ لي يُوسُفُ بن أسباط: تَعلَّموا صحَّة العمل من سقمِهِ، فإنِّي تعلَّمْتُهُ فِي اثنتين وعِشرينَ سنةً.

وفِي الحديث مَرْفوعًا، عن إبراهيم الحنظليِّ، قَالَ: سمعتُ بقيَّةَ بن الوليد يَقُولُ: سمعتُ إبراهيمَ بن أدْهَمَ يَقُول: تَعلَّمتُ المعرفةَ من راهبٍ يُقَالُ له: سمعان، دَخَلْتُ عليه فِي صومعتِهِ، فقلتُ له: يا سمعان، منذ كَمْ أنتَ فِي صَوْمعتك هذِهِ؟ قَالَ: منذ سبعين سنةً.

قلتُ: ما طَعَامُك؟ قَالَ: يا حنيفي، وما دَعَاك إلَىٰ هذا؟ قلتُ: أحببتُ أنْ أعلمَ. قَالَ: فِي كلِّ ليلةٍ حمصةٌ. قلتُ: فما الَّذي يَهيجُ من قَلْبك حتَّىٰ تكفيك هَذِهِ الحمصةُ؟ قَالَ: ترىٰ الَّذين بحِذَائِكَ؟ قلت: نعم. قَالَ: إنَّهم يأتونني فِي كلِّ سنةٍ يومًا واحدًا، فيُزَيِّنون صَوْمعتِي، ويَطُوفُون حَوْلها يُعظِّمونني بذلك، وكُلَّما تَثَاقَلَتْ نفسي عن العبادة، ذَكَّرْتُهَا تلك السَّاعة، فأنا أحتملُ جهدَ سنةٍ لعزِّ ساعةٍ، فَاحْتَمِلْ يا حنيفيُّ جهدَ ساعةٍ لعزِّ الأبد، فوَقَر فِي قلبِي المَعْرفة.

فَقَالَ: أَزِيدُكَ؟ قلتُ: نعم. قَالَ: انْزِلْ عن الصَّومعةِ. فنزلتُ، فأَدْلَىٰ إليَّ ركوةً فيها عشرون حمصةً، فَقَالَ لي: ادخل الدَّيرَ، فَقَدْ رَأَوْا ما أدليتُ إليك.

فلمَّا دَخَلتُ الدَّير، اجْتَمَعت النَّصارىٰ، فَقَالوا: يا حنيفيُّ، ما الَّذي أَدْلَىٰ إليك الشَّيخُ؟ قلت: من قُوتِهِ. قالوا: وَمَا تَصْنع به؟ نَحْن أحقُّ، سَاوِمْ.

قلتُ: عشرين دينارًا، فأَعْطَوْنِي عشرينَ دينارًا، فرَجَعتُ إلَىٰ الشَّيخ، فَقَالَ: أَخْطَأْتَ، لَوْ سَاوَمْتَهمْ عشرين ألفًا لأعْطَوك، وهَذَا عزُّ مَنْ لا يعبدُهُ، فانظر كَيْفَ تكون بعزِّ مَنْ تعبدُهُ، يا حنيفيُّ، أقْبِلْ عَلَىٰ ربِّك.

قلتُ: ولخَوْف الرِّياء، سَتَرَ الصَّالحون أَعْمَالَهم؛ حذرًا عَلَيها، ويَهرجُوها بضدِّها، فكَان

ابْنُ سيرين يَضحكُ بالنَّهار، ويَبكي باللَّيل، وَكَانَ فِي ذيل أيُّوب السختيانِيّ بَعْض الطُّولِ، وكان ابن أدهم إذا مَرِضَ، يرىٰ عندَه ما يأكُلهُ الأصحَّاءُ.

وبالإسْنَاد عَنْ عبد الله بن المبارك، عن بكَّار بن عبد الله، أنَّه سَمِعَ وهبَ بن منبه يَقُولُ: كان رجلٌ من أفْضَل أهْل زمانِهِ، وكَانَ يزار فيعظهم، فَاجْتَمَعوا إليه ذاتَ يومٍ، فَقَالَ: إنَّا قَدْ خَرَجنا من الدُّنيا، وَفَارقنا الأَهْلَ والأموالَ مَخَافة الطُّغيان، وقَدْ خفتُ أنْ يكون قَدْ دخل علينا فِي هَذِهِ حالةٌ من الطُّغيان، أكثر مِمَّا يدخل عَلَىٰ أهْل الأمْوَال فِي أمْوَالِهم، أرانا يُحبُّ أحَدُنا أن تُقْضَىٰ له حَاجتُهُ، وإن اشترىٰ بيعًا أنْ يقاربَ لمكان دينِهِ، وإن لُقِيَ حُيِّي ووُقِّر لمكان دينِهِ.

فَشَاع ذلك الكلامُ حتَّىٰ بلغ الملك، فعجب بِهِ، فركبَ إليه ليُسلِّم عليه، ويَنْظر إليه، فلمَّا رآه الرَّجلُ قيل له: هَذَا الملكُ قَدْ أتاكَ ليُسلِّم عَلَيك.

فَقَالَ: وما يصنعُ؟ قَالَ: للكلام الَّذي وعظت بِهِ، فَسَأل غُلَامَهُ: هل عندك طعامٌ؟ فقَالَ: شيءٌ من ثَمَر الشَّجر مِمَّا كنت تُفْطرُ به.

فأمر به، فأتَىٰ عَلَىٰ مسحٍ، فوضع بَيْن يَدَيه، فأخذ يأكُلُ منه، وكان يَصُوم النَّهارَ ولا يُفْطر، فوَقَف عليه الملكُ، فَسلَّمَ عليه، فأجَابه بإجابةٍ خَفيَّةٍ، وأقبلَ عَلَىٰ طعامِهِ يأكلُهُ، فقَالَ الملكُ: أيْنَ الرَّجلُ؟ فقيل له: هُوَ هَذَا.

قَالَ: هَذَا الَّذي يأكُلُ؟ قالوا: نَعَمْ. قَالَ: فما عند هَذَا من خيرٍ فأدْبَر. فقَالَ الرَّجل: الحَمْدُ لله الَّذي صَرَفك عنِّي بِما صَرَفك به.

وفِي روايةٍ أخرىٰ عن وَهْبٍ، أنَّه لمَّا أقبل الملكُ، قَدَّمَ الرَّجلُ طَعامَه، فَجَعل يَجْمع البُقُولَ فِي اللُّقمة الكبيرة، ويَغْمسها فِي الزَّيت، فيأكل أكلًا عنيفًا، فقَالَ له الملكُ: كيف أنتَ يا فلان؟ فقَالَ: كالنَّاس.

فردَّ الملكُ عنانَ دابَّتِهِ، وقَالَ: ما فِي هَذَا من خيرٍ. فقَالَ: الحَمْدُ لله الَّذي أَذْهَبَه عنِّي وهُوَ لائمٌ لي.

وبإسنادٍ عَنْ عطاءٍ، قَالَ: أرادَ الوليدُ بن عبد الملك، أَنْ يُولِّي يزيدَ بن مرثد، فبَلَغَ ذلك يزيدَ، فلبسَ فروةً، فَجَعل الجلدَ عَلَىٰ ظَهْره، والصُّوفَ خارجًا، وأَخذ بيده رغيفًا وعَرْقًا، وخرجَ بلا رداءٍ، وَلَا قلنسوةٍ، ولا نَعْلٍ، ولا خُفٍّ، فجَعَل يَمشي فِي الأسواق ويأكُلُ، فقيل للوليد: إنَّ يزيدَ قَد اخْتلَطَ. وأخبر بِما فَعَل، فتَركه، ومثْلُ هَذَا كثيرٌ.

ومِنَ الزُّهَّادِ مَنْ يَسْتعمل الزُّهدَ ظاهرًا وباطنًا، لكنَّه قَدْ علم أنَّه لا بدَّ أن يَتحدَّث بتَرْكه للدُّنيا أصحابُهُ، أو زوجتُهُ، فيهون عَلَيه الصَّبر كما هان عَلَىٰ الرَّاهب الَّذي ذَكَرنا قصَّته مع إبراهيم بن أدهم، ولَوْ أنَّه أرادَ الإخلاصَ فِي زهدِهِ لأَكَل مع أهلِهِ قَدْرَ ما يَنْمحي به جاهُ النَّفس، ويَقْطع الحديث عنه، فَقَدْ كان داود ابن أبِي هند، صامَ عشرين سنةً، ولَمْ يعلم به أَهْله، كان يأخُذُ غِذَاءَهُ، ويَخْرج إلَىٰ السُّوق، فيَتصدَّق به فِي الطَّريق، فأَهْلُ السُّوق يَظنُّون أنَّه قَدْ أكل فِي البيت، وأَهْلُ البيت يَظنُّون أنَّه قَدْ أكل فِي السُّوق، هكذا كان النَّاس.

ومن المتزهدين: مَنْ قوتُهُ الانقطاعُ فِي مسجدٍ، أو رباطٍ، أو جبلٍ، فلذَّتُهُ علمُ النَّاس بانفرادِهِ، وربَّما احتجَّ لانقطاعِهِ، بأنِّي أخافُ أَنْ أرىٰ فِي خُرُوجي المُنْكرات.

وله فِي ذلك مقاصد: منها الكبرُ، وَاحْتقارُ النَّاس.

ومنها: أنَّه يخافُ أَنْ يُقَصِّرُوا فِي خدمتِهِ.

ومنها: حفظُ نَامُوسِهِ ورياستِهِ، فإِنَّ مُخَالطة النَّاس تُذْهبُ ذلكَ، وهُوَ يريد أَنْ يَبْقىٰ إطراؤهُ وذكرُهُ.

وربَّما كَانَ مقصودُهُ سترَ عُيُوبِهِ، ومَقَابحه، وجَهْله بالعلم، فيرىٰ هَذَا، ويحبُّ أَنْ يُزارَ ولا يَزُور، ويَفْرح بِمَجيء الأُمَراء إليه، وَاجْتمَاع العوامِّ عَلَىٰ بابِهِ، وتَقْبيلهم يده، فهُوَ يَتْرك

عيادةَ المرضىٰ، وشُهُود الجَنَائز، ويَقُول أصحابُهُ: اعذروا الشَّيخ، فهَذِهِ عادتُهُ، لا كَانَتْ عادةٌ تُخالفُ الشَّريعة.

وَلَو احْتاجَ هَذَا الشَّخص إِلَىٰ القُوتِ، ولَمْ يكن عنده مَنْ يَشْتريه له صبرٌ عَلَىٰ الجوع؛ لئلَّا يخرج لشراء ذَلكَ بنفسِهِ، فيضيع جاهُهُ لمَشْيه بين العوامِّ، ولو أنَّه خَرَج فَاشْتَرىٰ حَاجَته لانقَطعَتْ عنه الشُّهرة، ولكن فِي باطِنِهِ حفظ النَّاموس، وقَدْ كَانَ رسول الله ﷺ يَخرج إِلَىٰ السُّوق، ويَشْتري حَاجتَهُ، ويَحْملها بنفسِهِ.

وَكَان أبو بكرٍ رضي الله عنه يَحْمل الثِّيابَ عَلَىٰ كَتِفِهِ، فيبيع ويَشْتري.

والحديثُ بإسنادٍ عن مُحمَّد بن القاسم، قَالَ: مرَّ عَبْدُ الله بن سلامٍ وعَلَىٰ رأسه حزمةُ حطبٍ، فقَالَ النَّاسُ: ما يَحْملُك عَلَىٰ هَذَا وقَدْ أغناك الله؟ قَالَ: أردتُ أَنْ أدفعَ به الكبرَ، وذلك أنِّي سمعتُ رسول الله ﷺ يَقُول: «لا يَدْخُلُ الجنَّةَ عَبْدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنَ الكِبْرِ»(١).

فصل [توقير العلم والعلماء]

قَالَ المصنف: وهَذَا الَّذي ذكرتُهُ من الخُرُوج لشراء الحَاجَة ونَحْوها من التَّبذُّل، كان عادة السَّلَف القُدَماء، وقَدْ تَغيَّرت تلك العادة كما تَغيَّرت الأحوالُ والملابسُ، فَلَا أرىٰ للعالم أَنْ يخرجَ اليوم لِشِرَاءِ حاجتِهِ؛ لأنَّ ذلكَ يكشفُ نُورَ العلم عند الجَهَلة، وتعظيمُهُ عندهم مشروعٌ، ومُرَاعاة قُلُوبهم فِي مثل هَذَا يخرج إِلَىٰ الرِّياء، وَاسْتِعْمَال ما يوجب الهَيْبَةَ فِي القُلُوب لا يَمْنع منه.

وليس كلُّ ما كَانَ فِي السَّلَف مِمَّا لا يَتغيَّرُ به قُلُوبُ النَّاس يَوْمئِذٍ، يَنْبغي أَنْ يُفْعَلَ اليوم.

---

(١) أخرجه مسلم (٩١).

قَالَ الأوزاعيُّ: كنَّا نَضحكُ ونَمْزحُ، فإذا صرنا يُقْتدىٰ بنا، فلا أَرَىٰ ذلكَ يَسَعنا، وقَدْ رُوِّينا عن إبراهيم بن أدهم، أنَّ أصْحابَهُ كانوا يومًا يَتمَازحونَ، فدقَّ رجلٌ البابَ، فأَمَرهُمْ بالسُّكُوت والسُّكون، فَقَالوا له: تُعلِّمُنا الرِّياء؟ فقَالَ: إنِّي أكْره أن يُعْصىٰ الله فيكم.

قَالَ المصنف: وإنَّما خافَ قَوْل الجَهَلة، انظروا إلَىٰ هَؤُلَاء الزُّهَّاد كيف يَفْعلونَ، وذلك أنَّ العوامَّ لا يَحْتملونَ مثل هَذَا للمُتعبِّدين.

فصل [الداء الخفي]

ومِنْ هَؤُلَاء قومٌ لَوْ سُئِلَ أَحَدهُمْ أَنْ يلبسَ اللَّيِّنَ من ثوبِهِ ما فعل؛ لئلَّا يتوكَّس جاهُه فِي الزُّهد، ولَوْ خرج روحُهُ لا يأكل والنَّاس يَرَونه، ويَحْفظ نفسه فِي التَّبسُّم فضلًا عن الضَّحك، ويُوهِمُهُ إبليسُ أنَّ هَذَا لإصلاح الخلق، وإنَّما هو رياءٌ يَحفظ به قانون النَّاموس، فَتَراه مُطَأطِئ الرَّأس، عليه آثَارُ الحَزْم، فإذا خَلَا، رأيتَهُ لَيْثَ شَرَىٰ(١).

فصل [البعد عن محمدة الناس]

وقَدْ كَانَ السَّلَفُ يَدْفعون عنهم كلَّ ما يوجب الإشَارَة إليهم، ويَهْربونَ من المَكَانِ الَّذي يُشارُ إليهم فيه، والحديثُ بإسنادٍ عَنْ عبد الله بن خُبيق، قَالَ: قَالَ يُوسُف بن أسباط: خَرَجتُ من منبج راجلًا حتَّىٰ أتيتُ المصيصة، وجرابِي عَلَىٰ عُنُقي، فقام ذا من حانوتِهِ يُسلِّم عليَّ، وذا يُسلِّم، فَطَرحتُ جرابِي، وَدَخلتُ المسجدَ أُصلِّي رَكْعَتين، فأَحْدَقوا بِي، فاطَّلع رجلٌ فِي وَجْهي، فقلتُ فِي نَفْسي: كَمْ بقاء قَلْبِي عَلَىٰ هَذَا؟

فأخذتُ جرابِي ورَجَعتُ بعرقي وعَنَائي إلَىٰ منبج، فَمَا رجعتُ إلَىٰ قَلْبِي سنين.

---

(١) الشَّرَىٰ: مكانٌ في بلاد العَرب يُوصف بكثرةِ الأُسود.

فصل [من خفي الرياء]

ومِنَ الزُّهاد مَنْ يلبسُ الثَّوبَ المُخرَّق، ولا يخيطُهُ، ويترُك إصلاحَ عمامتِهِ، وتَسْريح لحيتِهِ؛ ليُرىٰ أنَّه ما عنده من الدُّنيا خيرٌ.

وهَذَا من أبْوَاب الرِّياء، فإنْ كَانَ صادقًا فِي إعراضِهِ عَنْ أغراضِهِ كما قيل لداود الطَّائي: ألَا تُسرِّحُ لِحْيتَكَ؟

فَقَالَ: إنِّي عنها لَمَشغولٌ، فليعلم أنَّه سَلَك غير الجادَّة؛ إذْ ليست هَذِهِ طريقةَ الرَّسُول ﷺ، ولا أصحابِهِ؛ فإنَّه كَانَ يُسرِّحُ شعره، وينظُرُ فِي المرآة، وَيَدَّهنُ، ويتطيَّب، وهُوَ أشغلُ الخَلْق بالآخرة، وكَانَ أبو بكرٍ وعُمَر رضي الله عنهما يَخْضبان بالحنَّاء والكَتَم، وهُمَا أخوفُ الصَّحَابة وأزْهَدهُمْ، فمن ادَّعىٰ رُتْبةً تزيد عَلَىٰ السُّنَّة، وأفْعَال الأكَابر، لَمْ يُلْتفَتْ إليه.

فصل [مراعاة حقوق الأهل]

ومِنَ الزُّهَّاد من يَلْزمُ الصَّمتَ الدَّائم، ويَنْفرد عن مُخَالطة أهلِهِ فيؤذيهم بقُبح أخلاقِهِ، وزيادة انقباضِهِ، ويَنْسىٰ قَوْلَ النَّبيِّ ﷺ: «**إنَّ لأهْلِكَ عَلَيك حقًّا**»[1].

وقَدْ كَانَ رسول الله ﷺ يَمْزح، فيُلَاعبُ الأطفالَ، ويُحدِّث أزْواجَهُ، وسَابَقَ عائشةَ... إلَىٰ غَيْر ذلك من الأخْلَاق اللَّطيفة.

فهَذَا المُتزهِّد الجاعل زَوْجتَهُ كالأيم، ووَلَدَه كاليتيم لانفرادِهِ عنهم، وقُبْح أخلاقِهِ؛ لأنَّه يرىٰ أنَّ ذلكَ يَشْغلُهُ عن الآخرة، ولا يَدْري لقلَّة علمِهِ أنَّ الانبساطَ إلَىٰ الأهْل من العَوْن عَلَىٰ الآخرة.

---

(١) تقدم تخريجه.

وفِي «الصَّحيحين» أنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ لِجابرٍ: «هَلَّا تَزوَّجْتَ بِكْرًا تُلَاعِبُهَا وتُلَاعِبُكَ»(١).

وربَّما غَلَبَ عَلَىٰ هَذَا المُتزهِّد التَّجفُّفُ، فترك مُبَاضعة الزَّوجة، فيُضيِّعُ فرضًا بنافلةٍ غير ممدوحةٍ.

ومن الزُّهَّاد مَنْ يرىٰ عَمَله فيعجبه، فلَوْ قيل له: أنتَ مِنْ أَوْتَاد الأرض، رأىٰ ذلك حقًّا، ومنهم: مَنْ يَترصَّدُ لظُهُور كرامتِهِ، ويُخيَّل إليه أنَّه لَوْ قرب من الماء قدر أَنْ يَمْشي عليه، فإذا عرض له أمرٌ، فَدَعا فلم يُجَبْ، تذمَّر فِي باطنِهِ، فكأنَّه أجيرٌ يطلبُ أجرَ عملِهِ، ولو رُزِقَ الفهم لَعَلِمَ أنَّه عبدٌ مملوكٌ، والمَمْلوكُ لا يَمُنُّ بعملِهِ، ولو نَظَر إِلَىٰ توفيقِهِ للعلم، لرأىٰ وُجُوبَ الشُّكر، فَخَاف من التَّقْصير فيه.

وقَدْ كَانَ يَنْبغي أَنْ يَشْغَلهُ خوفُهُ عَلَىٰ العَمَل من التَّقْصير فيه، عن النَّظَر إليه، كما كانت رابعةُ تَقُول: أَسْتَغفر اللهَ من قلَّة صدقي فِي قَوْلي. وقيل لَها: هل عملتِ عملًا ترين أنَّه يُقْبلُ منكِ؟ فقالت: إذا كَانَ، فمَخَافتِي أن يُردَّ عليَّ.

فصل «المخاطبة بالقرآن»

ومِنْ تَلْبيس إبليس عَلَىٰ قومٍ من الزُّهَّاد الَّذي دَخَل عَلَيهِمْ فيه من قلَّة العلم أنَّهم يَعْملون بوَاقِعَاتِهِمْ، وَلَا يَلْتفتونَ إِلَىٰ قَوْل الفقيه. قَالَ ابن عقيلٍ: كَانَ أبو إسحاق الخرَّاز صَالِحًا، وهو أوَّل مَنْ لقَّنني كتابَ الله، وكَانَ من عادتِهِ الإمساكُ عن الكَلَام فِي شهر رمضان، فكَانَ يُخَاطِبُ بآي القرآن فيما يَعْرض إليه من الحَوَائج، فَيَقُولُ فِي إذنه: ﴿ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ﴾ [المائدة:٢٣]، ويَقُولُ لابنِهِ فِي عَشيَّة الصَّوم: ﴿مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا﴾ [البقرة:٦١]، آمرًا له أَنْ يشتري البقلَ.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٩٧)، ومسلم (٧١٥).

فقلتُ لَهُ: هَذَا الَّذي تعتقدُهُ عبادةً هو معصيةٌ، فَصعبَ عَلَيه، فقلتُ: إنَّ هَذَا القرآنَ العزيز أُنْزِلَ فِي بَيَان أَحْكَامٍ شرعيَّةٍ، فَلَا يستعمل فِي أغراضٍ دُنيويَّةٍ، وما هَذَا إلَّا بمَثَابةِ صَرِّكَ السِّدْرَ والأشنانَ فِي وَرَق المُصْحف، أو تَوسُّدك له. فهَجَرني، ولَمْ يُصْغِ إلَىٰ الحجَّة.

قَالَ المصنف: قلتُ: وقَدْ يسمعُ الزَّاهدُ القليلُ العلم أشياءَ من العوامِّ، فيُفْتِي به.

حَدَّثنِي أبو حكيم إبراهيم بن دينار الفقيه، أنَّ رجلًا اسْتَفْتَاه، فَقَالَ: ما تَقُولُ فِي امرأةٍ طُلِّقَتْ ثلاثًا، فَوَلدتْ ذكرًا، هل تَحلُّ لزَوْجها؟ قَالَ: فقلت: لا. وكَانَ عندي الشَّريف الدحالِيُّ، وكَانَ مشهورًا بالزُّهْد، عظيمَ القَدْر بين العوامِّ، فقَالَ لي: بل تحلُّ. فقلتُ: ما قَالَ بِهَذَا أحدٌ! فقَالَ: والله، لقَدْ أفتيتُ بِهَذَا من هاهنا إلَىٰ البصرة.

قَالَ المصنف: فَانْظُرْ ما يَصْنع الجهلُ بأهلِهِ، ويُضَاف إليه حفظُ الجاه؛ خوفًا أن يَرَىٰ الزَّاهدُ بعَيْن الجهل.

وقَدْ كَانَ السلفُ يُنْكرون عَلَىٰ الزَّاهد مع معرفتِهِ بكثيرٍ من العلم أنْ يُفْتي؛ لأنَّه لَمْ يَجمع شُرُوط الفتوىٰ، فكَيْفَ لو رَأوا تَخْبيطَ المُتَزهِّدين اليومَ فِي الفَتْوىٰ بالواقعات!

وبالإسْنَاد عَنْ إسماعيل بن شبَّة قَالَ: دخلتُ عَلَىٰ أحمد بن حنبلٍ، وقَدْ قدم أحمدُ بن حرب من مكَّة، فَقَالَ لِي أحمد بن حنبل: مَنْ هَذَا الخراسانِيُّ الَّذي قَدْ قَدِمَ؟

قُلْتُ: من زُهْدِهِ كذا وكذا، ومن وَرَعِهِ كَذَا وكَذَا.

فقَالَ: لا يَنْبغي لمَنْ يَدَّعي ما يَدَّعيه أن يُدْخِلَ نَفْسَهُ فِي الفُتْيَا.

فصل (فتنة التقليل من شأن العلماء)

ومن تلبيسِهِ عَلَىٰ الزُّهاد: احْتقَارُهُم العُلَماء، وذَمُّهُمْ إيَّاهم، فهُمْ يقولون: المقصودُ العملُ، ولا يَفْهمون أنَّ العلمَ نُورُ القلب، ولَوْ عَرَفوا مَرْتبةَ العُلَماء فِي حفظ الشَّريعة، وأنَّها

مَرْتبةُ الأَنْبِيَاء، لَعَدُّوا أنفسهم كالبُكْمِ عند الفُصَحاء، والعُمْي عند البُصَراء، والعلماءُ أدلَّةُ الطَّريق، والخَلْقُ وراءهم، وسليم هؤلاء يَمْشي وحده.

وفِي «الصَّحيحين» مِنْ حديث سَهْل بن سعدٍ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لعليِّ بن أبِي طالبٍ رضي الله عنه: «واللهِ، لأنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ»(١).

فصل [المعنى الحقيقي للمباح]

ومِمَّا يعيبون به العلماء: تَفسُّح العُلَماء فِي بَعْض المُبَاحات الَّتي يَتقوُّونَ بِها عَلَىٰ دِرَاسَة العلم، وَكَذلك يَعيبُونَ جَامعَ الأَمْوَال، ولَوْ فَهِمُوا معنىٰ المُبَاح لعَلِمُوا أنَّه لا يُذمُّ فاعلُهُ، وغايةُ الأَمْر أَنَّ غَيْره أَوْلىٰ منه، أَفَيَحْسُنُ لمَنْ صلَّىٰ اللَّيلَ أَنْ يعيبَ عَلَىٰ مَنْ أَدَّىٰ الفرضَ ونامَ.

ولقد رُوِّينا بإسنادٍ عَنْ مُحمَّد بن جعفرٍ الخولانِيِّ، قَالَ: حَدَّثنِي أبو عبد الله الخوَّاص، وكَانَ من أَصْحَاب حاتمِ الأصم، قَالَ: دَخلنا مع حاتمِ البلخيِّ إِلَىٰ الرَّيِّ، ومَعَه ثلاث مئة وعشرون رجلًا من أصحابِهِ يريد الحجَّ، وعَلَيهم الصُّوفُ والزرمانقات، لَيْسَ فيهم مَنْ معه جرابٌ ولا طعامٌ، فَنزلَنا عَلَىٰ رجلٍ من التُّجَّار مُتنسِّكٍ، فَضَافنا تلك اللَّيلة، فلَمَّا كَانَ من الغد، قَالَ لحاتمٍ: يا أبا عبد الرَّحمن، لك حاجةٌ، فإنِّي أريد أَنْ أعودَ فقيهًا لنا هو عليلٌ.

فَقَالَ حاتمٌ: إنْ كَانَ لكم فقيهٌ عليلٌ، فعِيَادةُ الفقيه لَها فضلٌ كبيرٌ، والنَّظَرُ إِلَىٰ الفقيه عبادةٌ، وأنا أجيءُ مَعَك، وكَانَ العليلُ مُحمَّد بن مقاتل قاضي الريِّ، فقَالَ له: مُرْ بنا أبا عبد الرَّحمن.

فَجَاؤوا إِلَىٰ باب داره، فإذا البَوَّابُ، فبقي حاتمٌ مُتفكِّرًا، يَقُول: يا ربِّ، دارُ عالمٍ عَلَىٰ هَذِهِ الحال!

(١) أخرجه البخاري (٢٩٤٢)، ومسلم (٢٤٠٦).

ثُمَّ أذنَ لَهم فَدَخلوا، فإِذَا بدارٍ قوراءَ، وآلةٍ حسنةٍ، وبزَّةٍ، وفُرُشٍ، وسُتُورٍ، فبقي حاتمٌ مُتفكِّرًا ينظر حتَّىٰ دَخَلوا إِلَىٰ المجلس الَّذي فيه مُحمَّد بن مقاتلٍ، وإذا بِفِرَاشٍ حَسَنٍ وَطِيءٍ، وهُوَ عليه راقدٌ، وعند رأسِهِ مذبَّةٌ وناسٌ وُقُوفٌ، فَقَعد الرَّازيُّ، وبقي حاتمٌ قائمًا، فأَوْمَأَ إليه مُحمَّدُ بنُ مقاتلٍ بيدِهِ أن اجْلِسْ، فَقَالَ حاتمٌ: لا أجلسُ. فقَالَ له ابْنُ مقاتلٍ: فَلَكَ حاجةٌ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: وما هي؟ قَالَ: مسألةٌ أَسْألك عنها. قَالَ: فاسألني. قَالَ حاتمٌ: قُمْ فَاسْتَوِ جالسًا حتَّىٰ أسألك عنها.

فأَمَر غِلْمانَهُ فأَسْنَدوه، فقَالَ حاتمٌ: عِلْمُكَ هَذَا من أَيْنَ جِئتَ به؟ فقَالَ: حدَّثني الثِّقاتُ عن الثِّقات من الأئمَّة.

قَالَ: عمَّن أخذوه؟ قَالَ: عن التَّابعين. قَالَ: والتَّابعون مِمَّن أَخَذوه؟ قَالَ: عن أَصْحَاب رسول الله ﷺ. قَالَ: وأَصْحَابُ رسول الله ﷺ عَمَّنْ أَخَذوه؟ قَالَ: عَنْ رسول الله ﷺ. قَالَ: ورسول الله ﷺ من أَيْنَ جاء به؟ قَالَ: عن جِبْرِيلَ، عَن الله عَزَّوَجَلَّ. فقَالَ حاتمٌ: فَفِيمَ أَدَّاهُ جبريلُ عن الله عَزَّوَجَلَّ إِلَىٰ النَّبيِّ ﷺ، وأَدَّاه النَّبِيُّ ﷺ إِلَىٰ أصحابِهِ، وأَدَّاه الصَّحابةُ إِلَىٰ تَابِعِيهِمْ، وأَدَّاه التَّابعونَ إِلَىٰ الأئمَّة، وأَدَّاه الأئمَّة إِلَىٰ الثِّقات، وأَدَّاه الثِّقات إليكم؟ هَلْ سمعت فِي هَذَا العلم مَنْ كانت دارُهُ فِي الدُّنيا أحسن، وفراشُهُ أَلْيَنَ، وزينتُهُ أكثر، كَانَ له المَنْزِلة عند الله عَزَّوَجَلَّ أكبر؟ قَالَ: لا.

قَالَ: فكيف سَمِعْتَ؟ قَالَ: سمعتُ مَنْ زَهِدَ فِي الدُّنيا، ورَغِبَ فِي الآخرة، وأحبَّ المَسَاكينَ، وقدَّم لآخرتِهِ، كَانَ عند الله عَزَّوَجَلَّ له منزلة أكثر، وإليه أقرب.

قال حاتم: وأنت بمن اقتديت؟ أبالنبيِّ ﷺ وبأصحابِهِ والتَّابعينَ من بَعْدهم، والصَّالحين عَلَىٰ أثرهم، أو فرعون ونمروذ؟ فإِنَّهما أوَّل مَنْ بَنَىٰ بالجَصِّ والآجُرِّ.

يَا عُلَماءَ السُّوء، إِنَّ الجاهلَ المُتكالب عَلَىٰ الدُّنيا، الرَّاغب فيها، يَقُول: هَذَا العالم عَلَىٰ

هَذَه الحالة ألَا أكون أنا؟

قَالَ: فَخَرج من عندِهِ، وَازْدَاد مُحمَّد بن مُقَاتلٍ مرضًا، وَبَلغ أَهْل الرَّيِّ ما جَرَىٰ بين حاتمٍ وبَيْنَ ابن مقاتلٍ، فَقَالوا لحاتمٍ: إنَّ مُحمَّد بن عُبيد الطنافسي بقزوين أكثرُ شيئًا من هَذَا. فصار إليه، فَدَخل عَلَيه وعنده الخَلْقُ يُحدِّثهمْ، فقَالَ له: رَحِمَكَ اللهُ، أنا رجلٌ أعجميٌّ، جئتُكَ لتُعلِّمني مَبْدأ دِينِي، ومفتاحَ صَلَاتِي، كيف أتوضَّأ للصَّلاة؟

فقَالَ: نَعَمْ وكرامة، يا غلام، إناءً فيه ماءٌ.

فجَاءَه بإناءٍ فيه ماءٌ، فقعد مُحمَّد بن عُبَيد، فتوضَّأ ثلاثًا، ثُمَّ قَالَ له: هَكَذا فتَوضَّأ. قَالَ حاتمٌ: مَكَانَك رَحِمَكَ اللهُ حتَّىٰ أتوضَّأ بَيْنَ يَدَيك؛ ليكون أوْكَدَ لما أريد.

فَقَام الطنافسيُّ، وقعد حاتمٌ مَكَانه، فتَوضَّأ وغَسَل وَجْهه ثلاثًا، حتَّىٰ إذا بَلَغ الذِّراعَ غسل أربعًا، فقَالَ الطنافسيُّ: أسرفتَ.

قال حاتم: فَبِمَاذَا أَسْرَفْتُ؟ قال: غسلتَ ذراعَك أربعًا. قال: يا سُبْحَان الله! أنا فِي كفٍّ ماءٍ أَسْرَفتُ، وأنت فِي جميع هَذَا الَّذي أَرَاه كُلِّه لَمْ تُسْرفْ؟

فَعَلِمَ الطنافسيُّ أنَّه أراده بذَلكَ، فدَخَل البيت، ولَمْ يَخرج إلَىٰ النَّاس أربعين يومًا، وخَرَج حاتمٌ إلَىٰ الحجاز، فلَمَّا صار إلَىٰ المدينة أحبَّ أنْ يخصمَ عُلَماء المدينة، فلمَّا دَخَل المدينةَ قَالَ: يا قومُ، أيُّ مدينةٍ هذِهِ؟ قالوا: مدينة الرَّسُول ﷺ. قَالَ: فأَيْنَ قَصْرُ رسول الله ﷺ حتَّىٰ أَذْهبَ إليه فأُصلِّي فيه رَكْعَتين؟ قالوا: ما كَانَ لرسول الله ﷺ قصرٌ، إنَّما كَانَ له بيتٌ لاطئٌ. قَالَ: فأين قُصورُ أهلِهِ، وأصحابِهِ، وأزواجِهِ؟

قالوا: ما كَانَ لَهم قُصورٌ، إنَّما كَانَ لَهم بُيُوتٌ لاطئةٌ.

فَقَالَ حاتمٌ: فهَذِهِ مدينة فرعون. قَالَ: فَسَبُّوه، وذَهَبوا به إلَىٰ الوالي، وَقَالوا: هَذَا العجميُّ يَقُول: هَذِهِ مدينة فرعون. فَقَالَ الوالِي: لِمَ قلتَ ذَلكَ؟ قَالَ حاتمٌ: لا تَعْجل عليَّ

أيُّها الأمير، أنا رجلٌ غريبٌ دَخَلتُ المدينة، فسألتُ: أيُّ مدينةٍ هذِهِ؟ قالوا: مدينة رسول الله ﷺ. وسألتُ عَنْ قَصْر رسول الله ﷺ، وقُصُور أصحابِهِ، قالوا: إنَّما كَانَتْ لَهم بُيُوتٌ لاطئةٌ، وسمعتُ الله ﷻ يَقُول: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب:٢١]، فأنْتُمْ بمَنْ تَأَسَّيتُمْ؟ برسول الله ﷺ، أو بفرعون؟

قَالَ المُصنِّف: قلتُ: الويلُ للعُلَماء من الزَّاهد الجاهل، الَّذي يَقْتنع بعلمِهِ، فيرىٰ الفضلَ فرضًا، فإنَّ الَّذي أنْكَره مباحٌ، والمُبَاحُ مأذونٌ فيه، والشَّرْعُ لا يأذن فِي شيءٍ ثُمَّ يعاتب عليه، فَمَا أَقْبحَ الجهل!

ولَوْ أنَّه قَالَ لَهم: لو قَصَّرتُمْ فيما أنتم فيه لتَقْتدي النَّاسُ بكم، كَانَ أقرب حالةً، ولَوْ سمع هَذَا بأنَّ عبد الرَّحمن بن عوف، والزُّبير بن العوام، وعبد الله بن مسعودٍ -رضوان الله عليهم- وفلانًا وفلانًا من الصَّحَابة خلَّفوا مالًا عظيمًا، أتُراه ماذا كَانَ يَقُول، وقد اشترىٰ تميمٌ الدَّاريُّ حُلَّةً بألف درهمٍ، وكَانَ يقوم فيها باللَّيل، ففرضٌ عَلَىٰ الزَّاهد التَّعلُّم من العلماء، فإذا لَمْ يَتعلَّمْ فليسكُتْ.

والحديثُ بإسنادٍ عن مالك بن دينارٍ رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: إنَّ الشَّيطانَ ليلعبُ بالقُرَّاء كما يلعب الصِّبيانُ بالجوز.

وبإسنادٍ عن حبيبٍ الفارسيِّ يَقُول: والله، إنَّ الشَّيطانَ لَيَلْعبُ بالقُرَّاء، كما يلعب الصِّبيانُ بالجوز.

قَالَ المصنف: قلتُ: المُرَادُ بالقُرَّاء الزُّهادُ، وهَذَا اسمٌ قديمٌ لَهم معروفٌ، والله المُوفِّقُ للصَّواب، وإليه المَرْجع والمآب.

الباب العاشر
في ذكر تلبيسه على الصوفية من جملة الزهاد

قَالَ المصنف: الصُّوفيَّةُ من جُمْلة الزُّهَّاد، وقَدْ ذكرنا تلبيسَ إبليس عَلَىٰ الزُّهَّاد، إلَّا أنَّ الصُّوفيَّةَ انْفَرَدوا عن الزُّهَّاد بصفاتٍ وأَحْوالٍ، وتَوسَّموا بسِمَاتٍ، فَاحْتَجنا إلَىٰ إِفْرَادهمْ بالذِّكْر، والتَّصوُّفُ طريقةٌ كَانَ ابْتدَاؤها الزُّهد الكُلِّيُّ، ثُمَّ تَرخَّص المُنْتسبونَ إليها بالسَّماع والرَّقص، فَمَال إليهم طُلَّابُ الآخرة من العوامِّ؛ لما يُظْهرونهُ من التَّزهُّدِ، ومال إليهم طُلَّابُ الدُّنيا لِمَا يَرَوْنَ عندهم من الرَّاحة واللَّعب.

فلا بُدَّ من كَشْف تلبيس إبليس عَلَيهم فِي طريقة القوم، ولا يَنْكشف ذلك إلَّا بكَشْف أَصْلِ هَذِهِ الطَّريقة وفُرُوعها، وشَرْح أُمُورها، واللهُ المُوفِّقُ للصَّواب.

فصل [أصل الصوفية]

قَالَ المصنف: كَانَت النِّسبةُ فِي زَمَن رسول الله ﷺ إلَىٰ الإيمان والإسلام، فيُقَالُ: مسلمٌ ومؤمنٌ، ثُمَّ حَدَث اسمُ «زاهد، وعَابد»، ثُمَّ نَشَأ أقوامٌ تَعلَّقوا بالزُّهد والتَّعبُّد، فتَخلَّوْا عن الدُّنيا، وَانْقَطعوا إلَىٰ العبادة، واتَّخذوا فِي ذَلكَ طريقةً تَفرَّدُوا بِها، وأخلاقًا تَخلَّقُوا بها، ورَأَوْا أنَّ أوَّل من انْفرَدَ به بخِدْمةِ الله ﷻ عند بيتِهِ الحرام رجلٌ يُقَالُ له: صوفة، واسمُهُ الغَوْثُ بنُ مُرٍّ، فَانْتَسبوا إليه؛ لمُشَابهتهمْ إيَّاه فِي الانقطاع إلَىٰ الله ﷻ فَسُمُّوا بالصُّوفيَّة.

أنبأنا مُحمَّد بن ناصرٍ، عن أَبِي إسحاق إبراهيم بن سعيد الحبَّال، قَالَ: قَالَ أبو مُحمَّد عبد الغني بن سعيد الحافظ، قَالَ: سَأَلتُ وليد بن القاسم: إلَىٰ أيِّ شيءٍ يُنْسَبُ الصُّوفِيُّ؟ فَقَالَ: كَانَ قومٌ فِي الجاهليَّة يُقَالُ لَهم: صوفة، انْقَطَعوا إلَىٰ الله ﷹ وقَطَنوا الكعبةَ، فمَنْ

تَشبّه بِهم فهُمُ الصُّوفيّة.

قَالَ عبد الغني: فهَؤُلَاء المَعْروفون بصوفة، ولدُ الغوث بن مُر ابن أخي تميم بن مُر.

وبالإسناد إلَىٰ الزُّبير بن بكارٍ، قَالَ: كَانَت الإجازةُ بالحجِّ للنَّاس من عَرَفةَ إلَىٰ الغوث بن مر بن أد بن طابخة، ثُمَّ كَانَتْ فِي ولدِهِ، وكَانَ يُقَالُ لَهم: صوفة، وكَانَ إذا حَانَت الإجازةُ قَالَت العربُ: أَجِزْ صوفة.

قَالَ الزُّبير: قَالَ أبو عبيدة: وصوفة وصوفان يُقَالُ لكلِّ مَنْ وَلِيَ من البيت شيئًا من غَيْر أهلِهِ، أو قام بشيءٍ من أَمْر المَنَاسك، يُقَالُ لَهم: صوفة وصوفان.

قَالَ الزُّبير: حَدَّثني أبو الحسن الأثريُّ، عن هشام بن مُحمَّد بن السَّائب الكلبيِّ، قَالَ: إنَّما سُمِّي الغوثُ بن مر صوفة؛ لأنَّه ما كَانَ يعيشُ لأُمِّه وَلَدٌ، فَنذَرتْ لئن عاشَ لتَعلقنَّ برأسِهِ صوفة، ولتجعلنَّهُ ربيطَ الكعبة، فَفَعلَتْ، فقيل له: صوفة، ولولدِهِ من بعده.

قَالَ الزُّبيرُ: وحَدَّثنِي إبراهيم بن المنذر، عَنْ عبد العزيز بن عمران، قَالَ: أَخْبَرنِي عقال بن شبَّة، قَالَ: قالت أُمُّ تميم بن مر، وقَدْ وَلَدتْ نسوةً، فَقَالتْ: لله عليَّ إنْ وَلَدتُ غلامًا لأُعَبِّدَنَّهُ للبيت. فوَلَدت الغوثَ بن مرة، فلَمَّا رَبطَتْهُ عند البيت، أَصَابَه الحرُّ، فمرَّت به، وقَدْ سَقَط واسْتَرْخىٰ، فَقَالتْ: ما صار ابني إلَّا صوفة، فسُمِّي صوفة، وكَانَ الحجُّ وإجازةُ النَّاس من عرفة إلَىٰ منىٰ، ومن منىٰ إلَىٰ مكَّة لصوفة.

فلَمْ تَزل الإجازةُ فِي عَقِبِ صوفة حتَّىٰ أَخَذتها عدوان، فلَمْ تزل فِي عَدْوان حتَّىٰ أَخَذتها قريشٌ.

قَالَ المصنف: وقَدْ ذَهَب قومٌ إلَىٰ أنَّ التَّصوُّف منسوبٌ إلَىٰ أَهْل الصُّفَّة، وإنَّما ذَهَبوا إلَىٰ هَذَا لأنَّهم رأوا أَهْلَ الصُّفَّة عَلَىٰ ما ذَكَرنا من صفة صوفة فِي الانقطاع إلَىٰ الله عز وجل، ومُلَازمة الفقر، فإنَّ أَهْلَ الصُّفَّة كانوا فُقَراء يقدمون عَلَىٰ رسول الله ﷺ وما لَهم أهلٌ، ولا

مالٌ، فبُنِيَتْ لَهم صُفَّةٌ فِي مَسْجدِ رسول الله ﷺ، وقيل: أَهْل الصُّفَّة.

والحديثُ بإسنادٍ عن الحسن، قَالَ: بُنِيَتْ صُفَّةٌ لضُعَفاء المُسْلمينَ، فجَعَل المُسْلمونَ يُوصلُون إليها ما اسْتَطَاعوا من خيرٍ، وكَانَ رسول الله ﷺ يَأْتيهم فيَقُولُ: «السَّلامُ عَلَيكمْ يا أَهْلَ الصُّفَّةِ». فيَقُولُونَ: وعَلَيْكَ السَّلام يا رَسُولَ الله. فيَقُولُ: كَيْفَ أَصْبَحتُمْ؟ فيَقُولونَ: بخَيْرٍ يا رَسُولَ الله[(١)].

وبإسنادٍ عَنْ نُعَيم بن المجمر، عن أبيه، عَنْ أَبِي ذرٍّ قَالَ: كنتُ من أَهْل الصُّفَّة، وكنَّا إذا أَمْسَينا حَضَرنا بابَ رسول الله ﷺ فيأمرُ كلَّ رجلٍ فيَنْصرفُ برجلٍ، فيَبْقىٰ مَنْ بَقِيَ من أَهْل الصُّفَّة عشرة أو أقلّ، فيؤثرنا النَّبِيُّ ﷺ بعشائِهِ، فنَتعشَّىٰ، فإذا فَرَغنا، قَالَ رسول الله ﷺ: «نَامُوا فِي المَسْجد»[(٢)].

قَالَ المُصنِّف: وهَؤُلَاء القوم إنَّما قَعَدوا فِي المَسْجد ضرورةً، وإنَّما أكَلوا من الصَّدَقة ضرورةً، فلمَّا فتحَ اللهُ عَلَىٰ المسلمين، اسْتَغنَوا عَنْ تلك الحال وخَرَجوا.

ونسبةُ الصُّوفيِّ إِلَىٰ أَهْل الصُّفَّة غلطٌ؛ لأنَّه لو كَانَ كَذلكَ لقيل: صُفِّي، وقَدْ ذَهَب قومٌ إِلَىٰ أنَّه من الصُّوفانة، وهي بَقْلةٌ رعناء قصيرةٌ، فنُسِبُوا إليها؛ لاجْتزَائِهِمْ بنبات الصَّحراء، وهَذَا أيضًا غلطٌ؛ لأنَّه لَوْ نُسِبُوا إليها لقيل: صوفاني.

وقَالَ آخرون: هُوَ مَنْسوبٌ إِلَىٰ صوفة القفا، وهي الشَّعرات النَّابتة فِي مُؤخّرِه، كَأَنَّ الصُّوفيَّ عطف به إِلَىٰ الحقِّ، وَصَرفه عن الخَلْق.

وقَالَ آخرون: بَلْ هو منسوبٌ إِلَىٰ الصُّوف، وهَذَا يحتملُ، والصَّحيحُ الأوَّلُ.

وهَذَا الاسمُ ظَهَر للقوم قبل سَنَة مئتين، ولمَّا أَظْهَره أَوَائلُهُمْ، تكلَّموا فيه، وَعَبَّروا عن

(١) أخرَجه أبو نعيم فِي «الحلية» (١/ ٣٤٠) مرسلًا.

(٢) أخرجه أبو نعيم فِي «الحلية» (١/ ٣٥٢).

صفتِهِ بعباراتٍ كثيرةٍ.

وحاصلها: أنَّ التَّصوُّف عندهم رياضةُ النَّفس، ومُجَاهدة الطَّبع بردِّه عن الأَخْلَاق الرَّذيلة، وحَمْله عَلَىٰ الأَخْلاق الجميلة من الزُّهْد، والحِلْمِ، والصَّبر، والإِخْلَاص، والصِّدق إِلَىٰ غَيْر ذَلكَ من الخِصَالِ الحَسَنة الَّتي تُكْسِبُ المَدَائح فِي الدُّنيا، والثَّوابَ فِي الأُخْرَىٰ.

والحديثُ بإسنادٍ عن الطُّوسيِّ يَقُول: سمعتُ أبا بكر بن المثاقف يَقُولُ: سألتُ الجنيدَ ابن مُحمَّد عن التَّصوُّف، فَقَالَ: الخُرُوجُ عن كلِّ خُلُقٍ رديءٍ، والدُّخُول فِي كلِّ خُلُقٍ سنيٍّ.

وبإسنادٍ عن عبد الواحد بن بكر قَالَ: سمعتُ مُحمَّد بن خفيفٍ يَقُول: قَالَ رُويمٌ: كلُّ الخَلْق قَعَدوا عَلَىٰ الرُّسُوم، وقَعَدَتْ هَذِهِ الطَّائفةُ عَلَىٰ الحَقَائق، وطالب الخَلْق كلهم أنفسهم بظَوَاهر الشَّرع، وهُمْ طَالَبوا أَنْفسَهمْ بِحَقِيقَةِ الوَرَع، ومُدَاومة الصِّدق.

قَالَ المصنف: وعَلَىٰ هَذَا، كَانَ أوائلُ القوم، فَلبَّس إبليسُ عَلَيهم فِي أشياء، ثُمَّ لبَّس عَلَىٰ مَنْ بعدهم من تَابِعِيهمْ، فكُلَّما مَضَىٰ قرنٌ، زاد طمعُهُ فِي القرن الثَّانِي، فزادَ تلبيسُهُ عليهم إِلَىٰ أَنْ تَمكَّن من المُتأخِّرين غايةَ التَّمكُّن.

وكَانَ أصلُ تلبيسِهِ عَلَيهم أَنْ صَدَّهمْ عن العلم، وأَرَاهم أنَّ المَقْصودَ العمل، فلَمَّا أطفأ مصباح العلم عندهم، تَخبَّطُوا فِي الظُّلُمات.

فمنهم: مَنْ أَرَاه أنَّ المقصودَ من ذَلكَ تَرْك الدُّنيا فِي الجملة، فرَفَضوا ما يُصْلح أَبْدَانَهم، وَشَبَّهوا المالَ بالعقارب، ونَسَوْا أنَّه خُلِقَ للمَصَالح، وبَالَغوا فِي الحَمْل عَلَىٰ النُّفُوس، حتَّىٰ إنَّه كَانَ فيهم مَنْ لا يضطجع، وهؤلاء كَانَتْ مَقاصدُهُمْ حسنةً، غَيْر أنَّهم عَلَىٰ غَيْر الجادَّةِ، وفيهم مَنْ كَانَ لقلَّة علمِهِ يَعْمل بِما يَقَعُ إليه من الأَحَاديث المَوْضوعة، وهُوَ لا يدري.

ثُمَّ جاءَ أقوامٌ، فتكلَّموا لَهم فِي الجوع، والفَقْر، والوَسَاوس، والخَطَرات، وَصَنَّفوا فِي

ذَلكَ، مثل الحارث المُحَاسبِيّ.

وَجَاءَ آخَرُونَ، فهَذَّبوا مذهبَ التَّصوُّف، وأفْرَدوه بصِفَاتٍ مَيَّزُوه بِها من الاخْتصَاص بالمرقعة والسَّماع والوَجْد والرَّقص والتَّصفيق، وتَميَّزوا بزيادة النَّظافة والطَّهارة، ثُمَّ مَا زَالَ الأمرُ يَنمو، والأشياخُ يَضَعون لَهم أوضاعًا، ويَتكلَّمون بوَاقِعَاتِهِمْ، ويَتَّفِقُ بُعْدُهُم عن العُلَماء، لا بَلْ رؤيتهم ما هُمْ فيه أَوْفىٰ العُلُوم حتَّىٰ سَمَّوْه: العلم الباطن، وجَعَلوا عِلْمَ الشَّريعة: العلم الظَّاهر.

ومنهم: مَنْ خَرَج به الجُوعُ إلَىٰ الخيالات الفاسدة، فَادَّعَىٰ عِشْقَ الحقِّ والهَيَمان فيه، فَكَأنَّهمْ تَخَايلوا شخصًا مُسْتَحسن الصُّورة، فَهَاموا به، وهؤلاء بَيْنَ الكفر والبدعة.

ثُمَّ تَشعَّبت بأَقْوامٍ منهم الطُّرُقُ، ففَسَدتْ عَقائدُهُمْ.

فمن هؤلاء مَنْ قَالَ بالحُلُول، ومنهم مَنْ قَالَ بالاتِّحاد، ومَا زَالَ إبليسُ يَخبِطُهم بفُنُون البدع، حتَّىٰ جَعَلوا لأنفسهم سُنَنًا، وَجَاء أبو عبد الرَّحمن السُّلميُّ، فصَنَّفَ لَهم «كتاب السُّنن»، وَجَمَع لَهم حَقَائقَ التَّفسير، فذكر عنهم فيه العجب، فِي تَفْسيرهم القرآنَ بِما يَقَعُ لَهم، من غير إسناد ذلك إلَىٰ أَصْلٍ من أُصُول العلم، وإنَّما حَمَلوه عَلَىٰ مَذَاهبِهِمْ.

والعجبُ من وَرَعهم فِي الطَّعام، وَانْبسَاطهم فِي القرآن.

وقد أخبرنا أبو مَنْصورٍ عبد الرَّحمن القزَّازُ، قَالَ: أخبَرنا أبو بكرٍ الخطيبُ، قَالَ: قَالَ لي مُحمَّد بن يُوسُف القطَّان النَّيسابوريُّ، قَالَ: كَانَ أبو عبد الرَّحمن السُّلمي غير ثقةٍ، ولَمْ يَكُنْ سمعَ من الأصمِّ إلَّا شيئًا يسيرًا، فلمَّا مات الحاكمُ أبو عبد الله بن البَيِّعِ، حدَّث عن الأصم بتاريخ يَحيَىٰ بن معين، وبأشياءَ كثيرةٍ سِوَاهُ، وكَانَ يَضَعُ للصُّوفية الأحاديثَ.

قَالَ المصنف: وَصنَّفَ لَهم أبو نصر السرَّاج كتابًا سَمَّاه: «لُمَعَ الصُّوفيَّة» ذَكَر فيه من الاعْتقَاد القبيح، وَالكَلَام المَرْذول ما سَنَذْكُرُ منه جُمْلةً إنْ شاء الله تَعَالىٰ.

وَصنَّف لَهم أبو طالبٍ المكِّيُّ: «قُوت القُلُوب»، فذَكَر فيه الأحاديثَ الباطلةَ، ومَا لا يستند فيه إِلَىٰ أَصْلٍ من صلوات الأَيَّام واللَّيالِي، وغَيْر ذلك من المَوْضوع، وَذَكَر فيه الاعتقادَ الفاسدَ.

ورَدَّد فيه قَوْل «قَالَ بَعْضُ المُكَاشفين» وهَذَا كلامٌ فارغٌ، وذَكَر فيه عَنْ بَعْض الصُّوفيَّة، أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يَتجلَّىٰ فِي الدُّنيا لأوليائِهِ.

أخبرنا أبو مَنْصورٍ القزَّاز، أخبرنا أبو بكرٍ الخطيب، قَالَ: قَالَ أبو طَاهرٍ مُحمَّد بن العلاَّف قَالَ: دَخَل أبو طالبٍ المكِّيُّ إِلَىٰ البصرة بعد وَفَاة أَبِي الحُسَين بن سالم، فَانْتَمىٰ إِلَىٰ مقالتِهِ، وقدم بغداد، فَاجْتَمَع النَّاسُ عليه فِي مَجْلس الوعظ، فخَلَط فِي كلامِهِ، فحُفِظَ عنه أنَّه قَالَ: ليس عَلَىٰ المَخْلوق أضرُّ من الخالق.

فبدَّعهُ النَّاسُ وهَجَروه، فَامْتَنَع من الكَلَام عَلَىٰ النَّاس بعد ذلك.

قَالَ الخطيبُ: وصَنَّف أبو طالبٍ المكِّيُّ كتابًا سَمَّاه «قُوت القُلُوب» عَلَىٰ لسان الصُّوفيَّة، وَذَكر فيه أشياءَ مُسْتبشعةً فِي الصِّفات.

قَالَ المصنف: وَجَاء أبو نُعَيمٍ الأصبهانِيُّ فصنَّف لَهم كتاب «الحلية» وذَكَر فِي حُدُود التَّصوُّف أشياءَ مُنْكرةً قبيحةً، ولَمْ يستحِ أَنْ يذكر فِي الصُّوفيَّة أبا بكرٍ، وعمر، وعثمان، وعليًّا، وسَادَات الصَّحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُم فذَكَر عنهم فيه العجب، وذَكَر منهم شُرَيحًا القاضي، والحَسَن البصريَّ، وسُفْيان الثَّوريَّ، وأَحْمد بن حنبلٍ، وكَذَلك ذكر السُّلميُّ فِي «طبقات الصُّوفيَّة» الفُضَيلَ، وإبراهيمَ بن أدهم، ومَعْروفًا الكرخيَّ، وجَعَلهمْ من الصُّوفيَّةِ، بأَنْ أشارَ إِلَىٰ أنَّهم من الزُّهَّاد.

فالتَّصوُّفُ مَذْهبٌ مَعْروفٌ يزيد عَلَىٰ الزُّهْد، ويدُلُّ عَلَىٰ الفرق بينهما أنَّ الزُّهدَ لَمْ يَذمَّه أحدٌ، وقَدْ ذَمُّوا التَّصوُّف عَلَىٰ ما سيأتِي ذِكْرُهُ، وصَنَّفَ لَهم عبد الكريم بن هوازن القشيري

كتاب «الرسالة»، فذَكَر فيها العجائبَ من الكَلَام فِي الفَنَاء، والبَقَاء، والقَبْض، والبسط، والوَقْت، والحال، والوجد، والوُجُود، والجمع، والتَّفرقة، والصَّحْو، والسكر، والذَّوق، والشُّرب، والمحو، والإثبات، والتَّجلِّي، والمُحَاضرة، والمُكَاشفة، واللَّوائح، والطَّوالع، واللَّوامع، والتَّكْوين، والتَّمْكين، والشَّريعة، والحقيقة، إِلَىٰ غَيْر ذَلكَ من التَّخْليط الَّذي ليس بشيءٍ، وتفسيرُهُ أَعْجَبُ منه.

وَجَاءَ مُحمَّد بن طاهر المقدسيُّ، فصَنَّف لَهم «صفوة التَّصوُّف»، فَذَكر فيه أشياءَ يَسْتحيي العاقلُ من ذِكْرِهَا، سَنَذْكر منها ما يصلح ذِكْرُهُ فِي مواضعِهِ إِنْ شاء الله تَعَالىٰ.

وكَانَ شيخنا أبو الفضل بن ناصر الحافظ يقول: كَانَ ابْنُ طاهرٍ يَذْهبُ مذهبَ الإباحة، قَالَ: وَصَنَّفَ كتابًا فِي جَوَاز النَّظر إِلَىٰ المُرْد، أَوْردَ فيه حكايةً عن يَحيَىٰ بن معينٍ، قَالَ: رأيتُ جاريةً بِمصر مليحةً، صلَّىٰ اللهُ عَلَيها، فقيل له: تُصلِّي عليها؟ فقَالَ: صلَّىٰ اللهُ عَلَيها، وعَلَىٰ كلِّ مليحٍ.

قَالَ شيخنا ابن ناصر: ولَيْسَ ابْنُ طاهرٍ مِمَّن يُحتجُّ به.

وجاءَ أبو حامدٍ الغزالِيُّ، فصَنَّف لَهم كتاب «الإحياء» عَلَىٰ طريقة القوم، ومَلأَه بالأَحَاديث الباطلة وهُوَ لَا يَعْلمُ بُطْلانَها، وَتكلَّم فِي عِلْمِ المُكَاشفة، وَخَرج عَنْ قانون الفقه، وقَالَ: إنَّ المرادَ بالكَوْكب والشَّمس والقمر اللَّواتِي رآهنَّ إبراهيمُ -صَلَوات الله عليه- أنوارٌ هي حُجُبُ الله عَزَّوَجَلَّ، ولَمْ يُرد هَذِهِ المَعْروفات، وهَذَا من جِنْسِ كَلَام الباطنيَّة.

وقَالَ فِي كتابِهِ: «المفصح بالأَحْوَال»: إنَّ الصُّوفيَّةَ فِي يَقَظتهم يُشَاهدون الملائكةَ وأَرْواحَ الأَنْبيَاء ويَسْمعون منهم أصواتًا، ويَقْتبسُونَ منهم فوائدَ، ثُمَّ يترقَّىٰ الحالُ من مُشَاهدة الصُّورة إِلَىٰ دَرَجاتٍ يضيقُ عنها نطاقُ النُّطق.

قَالَ المصنف: وكَانَ السَّببُ فِي تَصْنيف هَؤُلاء مثل هَذِهِ الأَشْيَاء قلَّة عِلْمهم بالسُّنَن،

والإسلام، والآثار، وإقبالهم علىٰ ما استحسنوه من طريقة القوم، وإنّما استحسنوها لأنّه قد ثبت في النّفوس مدح الزّهد، وما رأوا حالة أحسن من حالة هؤلاء القوم في الصّورة، ولا كلامًا أرقّ من كلامهم.

وفي سِيَر السّلف نوعُ خشونةٍ، ثُمّ إنّ مَيْل النّاس إلىٰ هؤلاء القوم شديدٌ؛ لِمَا ذكرنا من أنّها طريقةٌ ظاهرُها النّظافةُ والتّعبُّد، وفي ضمنها الرّاحةُ والسّماعُ، والطّباع تميلُ إليها، وقد كان أوائل الصّوفيّة ينفرون من السّلاطين والأمراء، فصاروا أصدقاءَ.

فصل [الوساوس والخطرات]

وجُمهُور هَذِهِ التّصانيف التي صُنّفتْ لهم، لا تستند إلىٰ أصلٍ، وإنّما هِيَ واقعاتٌ تلقّفها بعضُهُمْ عن بعضٍ، ودَوّنوها، وقد سمّوها بالعلم الباطن، والحديث بإسنادٍ إلىٰ أبي يَعقوب إسحاق بن حيّة، قَالَ: سمعتُ أحمَدَ بن حنبلٍ، وقد سئل عن الوَساوس والخطَرات، فقَالَ: ما تكلّم فيها الصّحابة، ولا التّابعون.

قَالَ المصنف: وقد رُوّينا في أوّل كتابنا هَذَا عن ذي النُّون نَحْو هذا، ورُوّينا عن أحمد ابن حنبلٍ، أنّه سَمع كلام الحارث المُحَاسِبِيّ، فقَالَ لِصَاحِبٍ له: لا أرىٰ لك أنْ تُجالسَهمْ.

وعَنْ سعيد بن عمرٍو البرذعيّ قَالَ: شهدتُ أبا زُرْعَةَ وسُئِلَ عن الحارث المحاسبيّ وكُتُبه، فقَالَ للسّائل: إيّاك وهَذِهِ الكُتُب، هَذِهِ الكُتُبُ كُتُبُ بدعٍ وضلالاتٍ، عَلَيك بالأثر، فإنّك تجد فيه ما يُغْنيكَ عن هَذِهِ الكُتُب.

قيل له: في هَذِهِ الكُتُب عبرةٌ. قَالَ: مَنْ لَمْ يكنْ له فِي كتاب الله عَزَّوَجَلَّ عبرةٌ، فلَيْسَ له فِي هَذِهِ الكُتُب عبرةٌ.

بَلَغكمْ أنّ مالكَ بن أنسٍ، وسفيانَ الثّوريّ، والأوزاعيّ، والأئمّة المُتقدّمة، صَنّفوا فِي هَذِهِ الكُتُب فِي الخطَرات والوَساوس، وهَذِهِ الأشياء، هَؤُلَاء قومٌ خَالفوا أهْلَ العلم، يأتُونَنا

مرَّةً بالحارث المُحاسِبِيِّ، ومرَّةً بعبد الرَّحيم الدَّيبليِّ، ومرَّةً بحاتمِ الأصمِّ، ومرَّةً بشقيقٍ، ثُمَّ قَالَ: ما أسرعَ النَّاسَ إِلَىٰ البدع!

أخبرنا مُحمَّد بن عبد الباقي، نا أبو مُحمَّد رزق الله بن عبد الوَهَّاب التَّميميُّ، عن أَبِي عبد الرَّحمن السُّلميِّ قَالَ: أَوَّلُ مَنْ تكلَّم فِي بَلْدَتِهِ فِي ترتيب الأَحْوَال، ومَقَامات أَهْل الولاية، ذو النُّون المصريُّ، فأَنْكَرَ عليه ذلك عبد الله بن عبد الحكم، وكَانَ رئيسَ مصر، وكَانَ يذهبُ مَذْهبَ مالكٍ، وهَجَرَهُ لذَلكَ عُلَماءُ مصر، لَمَّا شَاعَ خَبَرُهُ أَنَّه أَحْدَثَ علمًا لَمْ يَتكلَّم فيه السَّلفُ حتَّىٰ رَمَوْه بالزَّنْدقة.

قَالَ السُّلميُّ: وأَخرَج أبو سليمان الدَّارانِيُّ من دمشق، وَقَالوا: إِنَّه يَزْعم أَنَّه يَرَىٰ الملائكة، وأَنَّهم يُكلِّمونه، وَشَهد قومٌ عَلَىٰ أحمد بن أَبِي الحواري: أَنَّه يفضل الأولياءَ عَلَىٰ الأنبياء، فهَرَب من دمشق إِلَىٰ مكَّة، وأَنْكَر أَهْل بسطام عَلَىٰ أَبِي يزيد البسطامي ما كَانَ يَقُول، حتَّىٰ إِنَّه ذُكِرَ للحُسَين بن عيسىٰ أَنَّه يَقُولُ: لي معراجٌ كَمَا كَانَ للنَّبِيِّ ﷺ معراجٌ، فأَخرَجوه من بسطام، وأقامَ بِمكَّةَ سنتين، ثُمَّ رَجَع إِلَىٰ جرجان، فأَقَام بِها إِلَىٰ أَنْ مات الحُسَين بن عيسىٰ، ثُمَّ رَجَع إِلَىٰ بسطام.

قَالَ السُّلميُّ: وحكىٰ رجلٌ، عَنْ سهل بن عبد الله التُّستري أَنَّه يقول: إِنَّ المَلَائكةَ، والجنَّ، والشَّياطينَ يَحْضرونَهُ، وإِنَّه يَتكلَّم عَلَيهم، فأنكر ذَلكَ عليه العوامُّ حتَّىٰ نَسَبوه إِلَىٰ القَبَائح، فَخَرج إِلَىٰ البصرة، فَمَات بِها.

قَالَ السُّلميُّ: وتَكَلَّم الحارثُ المُحاسبِيُّ فِي شيءٍ من الكَلَام والصِّفات، فَهَجَره أحمد ابن حنبلٍ، فَاخْتَفَىٰ إِلَىٰ أَنْ مَاتَ.

قَالَ المُصنِّف: وقَدْ ذَكَر أبو بكرٍ الخلَّال فِي «كتاب السُّنَّة» عَنْ أحمد بن حنبلٍ أَنَّه قَالَ: حَذِّروا من الحارث أشدَّ التَّحْذير.

الحارثُ أَصْلُ البليَّة، يَعْني فِي حَوَادث كَلَام جهم، ذَاكَ جَالَسَه فلانٌ وفلانٌ، وأَخْرَجهمْ إِلَىٰ رَأْيِ جهم، ما زَالَ مَأْوىٰ أَصْحَاب الكَلَام، حارث بِمَنْزلة الأسد المُرَابط، انظر أيَّ يوم يَثِبُ عَلَىٰ النَّاس.

قَالَ المصنف: وقَدْ كَانَ أوائل الصُّوفيَّة يقرُّون بأنَّ التَّعويلَ عَلَىٰ الكتاب والسُّنَّة، وإنَّما لَبَّسَ الشَّيطانُ عليهم لقلَّة عِلْمهِمْ.

وبإسْنادٍ عن جَعْفرٍ الخلديِّ يَقُول: سمعتُ الجنيدَ يَقُول: قَالَ أبو سُلَيمان الدَّارانِي، قَالَ: ربَّما تَقَع فِي نفسي النُّكْتة من نُكَت القَوْم أيَّامًا، فَلَا أقبلُ منه إلَّا بشَاهِدَيْن عَدْلين؛ الكتاب والسُّنَّة.

وبإسنادٍ عَنْ طيفور البسطاميِّ يَقُول: سمعتُ موسىٰ بن عيسىٰ يَقُول: قَالَ لي أَبِي: قَالَ أبو يزيدَ: لَوْ نَظَرتُمْ إِلَىٰ رجلٍ أعطي من الكَرَامات حتَّىٰ يرتفعَ فِي الهَوَاء، فلا تَغترُّوا به حتَّىٰ تَنْظروا كيف تَجدُونَهُ عند الأمر والنَّهْي، وحِفْظِ الحُدُود.

وبإسنادٍ عَنْ أَبِي موسىٰ يَقُولُ: سمعتُ أبا يزيدَ البسطاميَّ قَالَ: مَنْ تركَ قراءةَ القُرْآنَ والتَّقشُّفَ، ولُزُوم الجَمَاعة، وحُضُور الجَنَائز، وعيادة المَرْضىٰ، وادَّعىٰ بِهَذَا الشَّأن، فهُوَ مبتدعٌ.

وبإسنادٍ عن عليِّ بن عبد الحميد الحلبي يَقُول: سَمعتُ سريًّا يَقُول: مَن ادَّعىٰ باطنَ علمٍ يَنْقضُ ظاهرَ حُكْمٍ، فهُوَ غالطٌ.

وعن الجنيد أنَّه قَالَ: مَذْهبنا هَذَا مُقيَّدٌ بالأُصُول: الكتاب والسُّنَّة.

وقَالَ أيضًا: عِلْمُنَا مَنُوطٌ بالكتاب والسُّنَّة، مَنْ لَمْ يَحْفظ الكتابَ، ويَكْتب الحديثَ، ولَمْ يَتفقَّه، لا يُقْتدىٰ به.

وقَالَ أيضًا: ما أَخَذْنا التَّصوُّف عن القِيلِ وَالقَال، لكن عَن الجُوع وتَرْك الدُّنيا وقَطْع

المَألوفَات والمُسْتَحْسَنات؛ لأنَّ التَّصوُّفَ من صَفَاء المُعَاملة مَعَ الله ﷺ وأصلُهُ التَّفرُّق عن الدُّنيا كَمَا قَالَ حارثةُ: عَرَفتُ نَفْسي فِي الدُّنيا، فأَسْهَرتُ لَيْلي، وأظمأتُ نَهَاري.

وعن أَبِي بكر الشَّقَّاق: مَنْ ضيَّعَ حُدُودَ الأمر والنَّهْي فِي الظَّاهر حُرِمَ مُشَاهدة القَلْب فِي الباطن.

وقَالَ الحُسَين النُّوريُّ لبَعْض أصحابِهِ: مَنْ رأيتَهُ يدَّعي مع الله ﷻ حالةً تُخْرجه عن حدِّ علم الشَّرْع، فلا تَقربنَّهُ، ومَنْ رأيتَهُ يَدَّعي حالةً لا يدلُّ عَلَيها دليلٌ، ولا يَشْهدُ لَها حفظٌ ظاهرٌ، فاتَّهمهُ عَلَىٰ دينِهِ.

وعن الجريري قَالَ: أمْرُنا هَذَا كلُّهُ مَجموعٌ عَلَىٰ فَضلٍ واحدٍ، هُوَ أن تُلْزِمَ قَلْبك المُرَاقبةَ، ويكون العلمُ عَلَىٰ ظَاهرك قائمًا.

وعَنْ أَبِي جعفرٍ قَالَ: مَنْ لَمْ يزن أقوالَهُ، وأفعالَهُ، وأحوالَهُ بالكتاب والسُّنَّة، ولَمْ يتَّهمْ خاطره، فلا تعُدَّهُ فِي ديوان الرِّجال.

فصل [تنزيه الشريعة]

قَالَ المصنف: وإِذْ قَدْ ثَبتَ هَذَا من أقْوَال شُيُوخِهِمْ، وَقَعتْ من بَعْض أَشْياخِهِمْ غلطاتٌ لبُعْدهم عن العلم، فإِنْ كَانَ ذَلكَ صحيحًا عنهم، تَوجَّه الرَّدُّ عليهم، إِذْ لا مُحَاباة فِي الحقِّ، وإِنْ لَمْ يصحَّ عنهم حذرنا من مثل هَذَا القَوْل، وَذَلكَ المَذْهب من أيِّ شخصٍ صَدَر.

فأَمَّا المُشبَّهونَ بالقوم، ولَيْسُوا منهم، فأغْلَاطهم كثيرةٌ، ونَحْن نَذْكر بعضَ ما بَلَغنا من أَغْلَاط القَوْم، واللهُ يَعْلمُ أنَّنا لَمْ نَقْصد ببَيَان غلط الغالط إلَّا تَنْزيه الشَّريعة، والغَيْرة عليها من الدَّخل، وما عَلَينا من القائل والفاعل، وإنَّما نُؤدِّي بذلك أَمَانةَ العِلْمِ.

وما زَالَ العُلَماءُ يُبيِّنُ كلُّ واحدٍ منهم غلطَ صاحبِهِ قصدًا لبَيَان الحقِّ، لا لإِظْهَار عَيْب الغالط، ولا اعتبار بقَوْل جاهلٍ يَقُول: كيف يُرَدُّ عَلَىٰ فلانٍ الزَّاهد المُتبرَّك به؛ لأنَّ الانقيادَ

إنَّما يَكُونُ إلَىٰ ما جَاءَتْ به الشَّريعةُ، لا إلَىٰ الأَشْخَاص، وقَدْ يكون الرَّجُلُ من الأَوْلِيَاء، وأَهْل الجنَّة، وله غلطاتٌ، فَلَا تَمْنعُ مَنْزلتُهُ بيانَ زَلَـلِهِ.

وَاعْلَمْ أنَّ مَنْ نظرَ إلَىٰ تَعْظيم شخصٍ، ولَمْ ينظر بالدَّليل إلَىٰ ما صَدَر عنه، كَانَ كمَنْ ينظر إلَىٰ ما جرىٰ عَلَىٰ يد المسيح -صَلَوات الله عليه- من الأُمُور الخارقة، ولَمْ يَنْظر إليه، فادَّعىٰ فيه الإلهيَّة، ولَوْ نَظَر إليه، وأنَّه لا يَقُوم إلا بالطَّعام، لَمْ يُعطِهِ إلَّا ما يستحقُّهُ.

وقَدْ أَخْبَرنا إسماعيلُ بن أحمد السَّمرقنديُّ بإسنادٍ إلَىٰ يَحيَىٰ بن سعيدٍ قَالَ: سألتُ شعبةَ، وسُفْيانَ بن سعيدٍ، وسفيانَ بن عُيَينة، ومالك بن أنسٍ، عن الرَّجُل لا يَحْفظُ، أو يُتَّهمُ فِي الحديث، فَقَالوا جَميعًا: يُبيَّنُ أمرُهُ.

وقَدْ كَانَ الإمامُ أحمد بن حنبلٍ يَمْدح الرَّجلَ، ويُبَالغ، ثُمَّ يَذْكرُ غَلطَهُ فِي الشَّيء بعد الشَّيء.

وقَالَ: نِعْمَ الرَّجل فلان، لَوْلَا أنَّ خلَّةً فيه. وقَالَ عن سريٍّ السقطي: الشَّيخُ المعروفُ بطيب المَطْعم، ثُمَّ حُكِيَ له عنه أنَّه قَالَ: إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لمَّا خلقَ الحُرُوفَ، سَجَدتِ الباءُ، فقَالَ: نَفِّرُوا النَّاسَ عنه.

سياق ما يروى عن الجماعة منهم من سوء الاعتقاد

ذكر تلبيس إبليس فِي السماع وغيره:

عن أبِي عَبْد الله الرملي قَالَ: تكلَّم أبو حمزة فِي جامع طَرَسُوس فقبلوه، فَبَيْنا هو ذات يومٍ يَتكلَّم، إذْ صاحَ غرابٌ عَلَىٰ سَطْح الجامع، فزعق أبو حمزة، وقَالَ: لَبَّيك لَبَّيك. فنَسَبوه إلَىٰ الزَّندقة، وقالوا: حُلُوليٌّ زنديقٌ، وبِيعَ فرسُهُ بالمُنَاداة عَلَىٰ باب الجامع: هَذَا فرسُ الزِّنديق.

وبإسنادٍ إِلَىٰ أَبِي بكر الفرغاني أَنَّه قَالَ: كَانَ أبو حمزة إذا سَمِعَ شيئًا يَقُول: لبَّيك لبَّيك. فأَطْلَقوا عليه أنَّه حلولِيٌّ، ثُمَّ قَالَ أبو عليٍّ: وإنَّما جَعَله داعيًا من الحقِّ أيقظه للذِّكْر.

وعَنْ أَبِي علي الروذباري قَالَ: أطلق عَلَىٰ أَبِي حمزة أنَّه حُلوليٌّ، وذَلكَ أنَّه كَانَ إذا سَمِعَ صوتًا مثل هُبُوب الرِّياح، وخرير الماء، وصياح الطُّيُور، كَانَ يصيحُ، ويَقُولُ: لبَّيك لبَّيك. فرَمَوْه بالحُلُول.

قَالَ السَّراج: وَبَلغني عَنْ أَبِي حمزة أنَّه دَخَل دارَ الحارث المُحاسبِيِّ، فَصَاحت الشَّاةُ: ماء، شهقَ أبو حمزةَ شهقةً، وقَالَ: لبَّيك يا سيِّدي، فَغَضِبَ الحارثُ المحاسبِيُّ، وعَمدَ إِلَىٰ سِكِّينٍ، وقَالَ: إنْ لَمْ تَتُبْ من هَذَا الَّذي أنتَ فِيه، أذبَحك.

قَالَ أبو حمزةَ: إذا أنتَ لَمْ تُحْسن تَسْمع هَذَا الَّذي أنا فيه، فَلِمَ تأكُلُ النُّخالةَ بالرَّمَاد.

وقال السراج: وَأَنْكَرَ جَمَاعَةٌ من العلماء علىٰ أبي سعيد أحمد بن عيسىٰ الخراز، وَنَسَبُوهُ إِلىٰ الكفر، بألفاظٍ وجدوها في كتابٍ صَنَّفَهُ، وهو كتاب السِّرِّ، ومنه قوله: عبدٌ طائعٌ، ما أُذِنَ له، فَلَزِمَ التَّعْظِيمُ لله، فقدَّس اللهُ نَفْسَهُ.

قال: وأبو العبَّاس أحمد بن عطاء، نُسِبَ إلىٰ الكفر والزَّنْدَقَةِ.

قال: وكم من مرَّةٍ أُخِذَ الجُنَيْدُ، مع عِلْمِهِ، وَشُهِدَ عليه بالكفر والزَّنْدَقَةِ، وكذلك أكثرهم.

وقَالَ السراج: ذُكِرَ عن أَبِي بكرةَ مُحمَّد بن موسىٰ الفرغانِي الواسطي أنَّه قَالَ: مَنْ ذكر افترىٰ، ومَنْ صَبَر اجْتَرىٰ، وإيَّاك أَنْ تلاحظَ حبيبًا، أو كليمًا، أو خليلًا، وأنتَ تجدُ إِلَىٰ مُلَاحظة الحقِّ سبيلًا.

فَقِيلَ له: أَوَلَا أُصلِّي عليهم؟ قَالَ: صلِّ عَلَيهِمْ بلا وقارٍ، ولا تَجْعل لَها فِي قَلْبك مقدارْ.

قَالَ السراج: وَبَلغنِي أنَّ جَماعةً من الحُلوليِّينَ زَعَموا أنَّ الحقَّ عَزَّوَجَلَّ اصْطَفَىٰ أجسامًا حلَّ فيها بِمَعَانِي الرُّبوبيَّة، وأزَالَ عنها مَعَانِيَ البشريَّة، ومنهم مَنْ قَالَ بالنَّظَر إِلَىٰ الشَّواهد المُسْتَحْسَنَاتِ، ومنهم مَنْ قَالَ: حالٌّ فِي المُسْتَحسَنات.

قَالَ: وَبَلغنِي عَنْ جَماعةٍ من أَهْل الشَّام أنَّهم يَدَّعون الرُّؤيةَ بالقُلُوب فِي الدُّنيا، كالرُّؤية بالعَيَان فِي الآخرة.

قَالَ السراج: وَبَلغنِي أنَّ أبا الحُسَين النُّوريَّ شهد عليه غُلَام الخليل أنَّه سَمِعَهُ يَقُول: أنا أعشقُ الله عَزَّوَجَلَّ وهُوَ يَعْشقنِي. فَقَالَ النُّوريُّ: سمعتُ الله يَقُول: ﴿وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ﴾ [المائدة:٤٥]، ولَيْسَ العشقُ بأكْثَر من المحبَّة.

قَالَ القاضي أبو يعلىٰ: وقَدْ ذَهبت الحُلُوليَّة إِلَىٰ أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يعشقُ.

قَالَ المُصنِّف: وهَذَا جهلٌ من ثَلَاثة أوجهٍ:

أحدها: من حَيْث الاسم، فإنَّ العشقَ عند أَهْل اللُّغة لا يكون إِلَّا لِمَا يُنْكح.

والثانِي: أنَّ صفاتِ الله عَزَّوَجَلَّ مَنْقولةٌ، فهُوَ يُحبُّ، ولا يُقَالُ: يعشقُ، كما يُقَالُ: يعلم، ولا يُقَالُ: يعرف.

والثالث: مِنْ أينَ له أنَّ الله تَعَالىٰ يحبُّهُ، فهَذِهِ دَعْوةٌ بلا دليلٍ، وقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ قَالَ: إنِّي فِي الجنَّة، فهُوَ فِي النَّار»(١).

وَعَنْ أَبِي عبد الرَّحمن السُّلميِّ، حُكِيَ عَنْ عمرٍو المَكِّيِّ أنَّه قَالَ: كنتُ أُمَاشي الحُسَين بن مَنْصورٍ فِي بعض أزقَّة مكَّة، وكنتُ أقْرأُ القرآنَ، فسمع قِرَاءَتِي، فَقَالَ: يُمْكننِي أنْ أقولَ مثل هَذَا ففارقتُهُ.

---

(١) ذكره الهيثمي فِي «المجمع» (١/ ١٨٦)، وعزاه للطبراني فِي «المعجم الصغير».

وعَنْ مُحمَّد بن يَحيَىٰ الرَّازيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ عمرو بن عثمان يَلْعن الحلَّاج، ويَقُول: لَوْ قَدَرتُ عَلَيه لقتلتُهُ بيدي. قلت: بأيِّ شيءٍ وجد عليه الشَّيخُ؟ فَقَالَ: قرأتُ آيةً من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، فَقَالَ: يُمْكنني أَنْ أقولَ أو أُؤلِّف مثلَهُ، وأتكلَّم بِهِ.

وَبِإِسْنَادٍ عن أبِي القاسم الرَّازي يَقُول: قَالَ أبو بكر بن حمشاذ، قَالَ: حَضَر عندنا بالدِّينور رجلٌ ومَعَه مِخلاةٌ، فما كَانَ يُفَارقُها، لا باللَّيل، ولا بالنَّهار، فَفتَّشوا المخلاةَ، فَوَجدوا فيها كتابًا للحلَّاج عنوانُهُ: من الرَّحمن الرَّحيم إِلَىٰ فلان بن فلانٍ، فوُجِّه إِلَىٰ بغدادَ، فأُحْضِرَ، وعُرِضَ عليه، فقَالَ: هَذَا خَطِّي، وأنا كتبتُهُ، فَقَالوا: كنت تَدَّعي النُّبوَّة، فصرت تَدَّعي الرُّبوبيَّة.

فَقَالَ: ما أَدَّعي الرُّبوبيَّة، وَلكن هَذَا عَيْن الجمع عندنا، هل الكاتبُ إِلَّا الله تَعالىٰ، وَاليَد فيه آلةٌ، فَقِيلَ له: هل مَعَك أحدٌ؟ فقَالَ: نَعَمْ، ابْن عَطَاء، وأبو مُحمَّد الجريري، وأبو بكر الشبلي، وأبو مُحمَّد الجريري يَتستَّرُ، والشبلي يَتستَّر، فإِنْ كان: فابن عطاءٍ، فأحضر الجريري، وسُئِلَ، فَقَالَ: قائلُ هَذَا كافرٌ، يُقْتلُ مَنْ يَقُول هَذَا. وسُئِلَ الشِّبليُّ، فَقَالَ: مَنْ يَقُول هَذَا يُمْنع، وسئل ابْنُ عطاءٍ عن مَقَالة الحلَّاج، فَقَالَ بِمقالتِهِ، وكَانَ سبب قتلِهِ.

وبِإِسْنَادٍ عَنْ ابن باكويه، قَالَ: أسمعت عيسىٰ بن بردل القزوينِي، وقَدْ سَأَلَ أبو عبد الله بن خفيفٍ عَنْ معنىٰ هَذِهِ الأبيات:

سُبْحانَ مَنْ أَظْهَر ناسُوتَهُ ... سرَّ سنا لاهوتِهِ الثَّاقبِ
ثُمَّ بَدَا فِي خلقِهِ ظاهرًا ... فِي صُورَة الآكِلِ والشَّاربِ
حتَّى لقَدْ عَايَنَهُ خلقُهُ ... كلَحْظَة الحاجبِ بالحاجبِ

فَقَالَ الشَّيخ: عَلَىٰ قائلِهِ لَعْنةُ الله.

قَالَ عيسىٰ بن فورك: هَذَا شعر الحُسَين بن مَنْصور.

قَالَ: إِنْ كَانَ هَذَا اعتقادَهُ، فهُوَ كافرٌ، إلَّا أنَّه ربَّما يكونُ مُتَقوَّلًا عليه.

وبإسنادٍ عَنْ عليِّ بن المحسن القاضي، عن أَبِي القاسم إسماعيل بن مُحمَّد بن زنجي، عَنْ أبيه، أنَّ بنتَ السمري أُدْخِلَتْ عَلَىٰ حامد الوزير، فَسَألها عن الحلَّاج، فَقَالتْ: حَمَلنِي أَبِي إليه، فقَالَ: قَدْ زَوَّجتك من ابني سُلَيمان، وهو مُقِيمٌ بنيسابور، فمَتَىٰ جرىٰ شيءٌ تُنْكرينه من جهتِهِ، فصومي يَوْمكِ، وَاصْعَدي فِي آخر النَّهار إِلَىٰ السَّطح، وقُومِي عَلَىٰ الرَّماد، وَاجْعَلي فِطْرَكِ عَلَيه، وعَلَىٰ ملح جريش، وَاسْتَقبلينِي بوَجْهك، وَاذْكري لِي ما أنْكَرتِيهِ منه، فإنِّي أسمعُ وأَرَىٰ.

قالت: وكنتُ ليلةً نائمةً فِي السَّطح، فأَحْسَستُ بِهِ قَدْ غَشِيَنِي، فَانْتبهتُ مَذْعورةً لما كَانَ منه، فَقَالَ: إنَّما جئتك لأُوقِظَكِ للصَّلاة، فلَمَّا نَزَلنا، قَالَتْ ابنتُهُ: اسجدي له. فقلت: أَوَ يَسْجُدُ أحدٌ لغَيْر الله؟ فَسَمع كَلَامي، فَقَالَ: نَعَمْ، إلهٌ فِي السَّماء، وإلهٌ فِي الأرض.

قَالَ المصنف: اتَّفق علماءُ العصر عَلَىٰ إباحة دَم الحلَّاج، فأوَّل مَنْ قَالَ: إنَّه حَلالُ الدَّم: أبو عُمَر القاضي، وَوَافَقه العُلَماءُ، وإنَّما سَكَت عنه أبو العبَّاس بن سريجٍ، قَالَ: وَقَالَ: لا أَدْري ما يَقُول، والإجماعُ دليلٌ معصومٌ من الخطإ.

وبإسنادٍ عن أَبِي هُرَيرة قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ أَجَارَكُمْ أَنْ تَجْتَمعوا عَلَىٰ ضَلالَةٍ كُلُّكمْ»(١).

وبإسنادٍ عن أَبِي القاسم يوسف بن يعقوب النعمانِي قَالَ: سَمعتُ وَالِدِي يَقُول: سمعتُ أبا بكرٍ مُحمَّد بن داود الفقيه الأَصْبهانِيّ يَقُول: إنْ كَانَ ما أَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ عَلَىٰ نَبيِّه ﷺ حقًّا، فَمَا يقولُ الحلَّاجُ باطلٌ، وكَانَ شديدًا عَلَيه.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٥٣) من حديث أبِي مالكٍ الأشعري رضي الله عنه مطولًا، وضعَّفه الألبانِيّ فِي «ضعيف الجامع» (١٥٣٢)، ولكن فِي «الصحيحة» (١٣٣١)، حَسَّن الألبانِيّ رحمه الله هذه اللفظة من الحديث، وانظر أيضًا «ظلال الجنة في تخريج السُّنَّة» (٨٢، ٨٣).

قَالَ المُصنِّف: وقَدْ تَعصَّبَ للحلَّاج جماعةٌ من الصُّوفيَّة؛ جهلًا منهم، وقلَّة مُبَالاة بإِجْمَاع الفُقَهاء.

وبإسنادٍ عَنْ مُحمَّد بن الحُسَين النَّيسابوريِّ قَالَ: سمعتُ إبراهيمَ بن مُحمَّد النصرآباذي كَانَ يَقُولُ: إِنْ كَانَ بعد النَّبيِّين والصِّدِّيقينَ مُوحِّدٌ، فهُوَ الحَلَّاجُ.

وعَلَىٰ هَذَا أَكْثَر قُصَّاص زَمَاننا، وصُوفيَّة وَقْتنا، جهلًا من الكُلِّ بالشَّرع، وبُعْدًا عن مَعْرفة النَّقل، وقَدْ جَمَعتُ فِي أَخْبَار الحلَّاج كتابًا بَيَّنتُ فيه حِيَلَهُ ومَخَاريقَهُ، ومَا قَالَ العُلَماءُ فيه، واللهُ المعينُ عَلَىٰ قَمْع الجُهَّال.

وبإسنادٍ عن أَبِي نُعَيم الحافظ قَالَ: سمعتُ عُمَر البنَّا البغداديَّ بِمكَّة يَحْكي أنَّه لمَّا كانت مِحْنَة غُلَام الخليل، ونِسْبَة الصُّوفيَّة إِلَىٰ الزَّندقة، أَمَر الخليفةُ بالقَبْض عَلَيهِمْ، فأُخِذَ النُّوريُّ فِي جَمَاعةٍ، فأُدْخِلُوا عَلَىٰ الخليفة، فأَمَر بضَرْب أَعْناقِهِمْ، فَتقدَّم النُّوريُّ مبتدرًا إِلَىٰ السَّيَّاف ليضربَ عُنُقه، فَقَالَ له السَّيَّاف: ما دَعَاك إِلَىٰ البدار؟ قَالَ: آثرتُ حَيَاة أَصْحابِي عَلَىٰ حَيَاتِي هَذِهِ اللَّحظة، فتَوقَّف السَّيَّاف، فَرَفع الأمرَ إِلَىٰ الخليفة، فردَّ أَمْرهُمْ إِلَىٰ قاضي القُضَاة إسماعيل بن إسحاق، فَأمَر بتَخْلِيَتِهِمْ.

وبإسنادٍ إِلَىٰ أَبِي العبَّاس أحمد بن عطاء قَالَ: كَانَ يَسْعىٰ بالصُّوفيَّة ببغداد غُلَام الخليل إِلَىٰ الخليفة، فَقَالَ: هاهنا قومٌ زَنَادقة، فأُخِذَ أبو الحُسَين النُّوري، وأبو حَمْزة الصُّوفيُّ، وأبو بَكْرٍ الزَّقَّاق، وجَمَاعةٌ من أَقْرَان هَؤُلَاء، واسْتَتَر الجُنَيد بن مُحمَّد بالفقه عَلَىٰ مَذْهب أَبِي ثورٍ، فأدخلوا إِلَىٰ الخليفة، فأَمَر بضَرْب أَعْناقِهِمْ، فأَوَّلُ مَنْ بَدَر أبو الحُسَين النُّوريُّ، فَقَالَ له السَّيَّاف: لِمَ بَادَرتَ أَنْتَ من بين أَصْحَابك ولَمْ تُرَعْ؟ قَالَ: أَحْبَبْتُ أَنْ أُوثِرَ أَصْحَابِي بالحياة مِقْدَار هَذِهِ السَّاعة، فردَّ الخليفةُ أَمْرَهمْ إِلَىٰ القاضي، فأُطْلِقُوا.

قَالَ المصنف: ومن أَسْبَاب هَذِهِ القِصَّةِ، قَوْلُ النُّوريِّ: أنا أعشقُ اللهَ، واللهُ يَعْشقنِي،

فشهدَ عَلَيه بِهَذَا، ثُمَّ تَقدَّم النُّوريُّ إِلَىٰ السَّيَّاف لِيُقتَلَ إعانةً عَلَىٰ نفسِهِ، فهو خطأٌ أيضًا.

وبإسنادٍ عن ابن باكويه، قَالَ: سَمِعْتُ أبا عمرٍو تلميذ الرَّقِّي قَالَ: سمعتُ الرَّقِّيَّ يَقُول: كَانَ لنا بيتُ ضيافةٍ، فَجَاءنا فقيرٌ، عَلَيه خِرْقَتَانِ يُكْنَىٰ بأبِي سُلَيمان، فَقَالَ: الضِّيافة. فقلتُ لابنِي: امْضِ به إِلَىٰ البَيْت، فأقَام عندنا تِسْعَةَ أيَّامٍ، فأكلَ فِي كلِّ ثَلاثة أيَّامٍ أكلةً، فسألتُهُ المقامَ، فَقَالَ: الضِّيافة ثلاثةُ أيَّامٍ.

فقلتُ له: لا تَقْطع عنَّا أَخبارَك، فغابَ عنَّا اثنتي عَشْرةَ سنةً، ثُمَّ قَدِمَ، فقلتُ: من أين؟ فقَالَ: رأيتُ شيخًا يُقَالُ له: أبو شُعَيب المُقفَّع مُبتلىٰ، فأقَمتُ عنده أَخدمُهُ سنةً، فَوَقع فِي نَفْسي أنْ أسألَهُ: أيُّ شيءٍ كَانَ أصل بلائِهِ؟ فلَمَّا دنوتُ منه ابْتدَأنِي قبل أنْ أسْألَهُ، فَقَالَ: ومَا سُؤالُكَ عمَّا لا يَعْنيكَ، فَصَبرتُ حتَّىٰ تمَّ لي ثَلَاث سنين، فَقَالَ فِي الثَّالثة: لا بدَّ لك، فقلتُ له: إِنْ رأيت.

فَقَالَ: بَيْنما أنا أُصلِّي باللَّيل، إِذْ لاحَ لي من المحراب نورٌ، فقلتُ لَهُ: اخْسَأْ يا ملعون، فإنَّ ربِّي عَزَّوَجَلَّ غَنِيٌّ عن أنْ يَبْرز للخَلْق ثلاث مرَّاتٍ. قَالَ: ثُمَّ سمعتُ نداءً من المحراب: يا أبا شُعَيب، فقلتُ: لبَّيك. فقَالَ: تُحبُّ أنْ أقبضك فِي وَقْتك، أو نُجَازيك عَلَىٰ ما مَضَىٰ لك، أو نَبْتليك ببلاءٍ نَرْفعُك به فِي عِلِّيِّينَ؟ فَاخْتَرتُ البلاءَ، فَسَقطَتْ عَيْناي ويَدَاي ورِجْلَاي، قَالَ: فمَكَثتُ أخدمُهُ تمامَ اثْنتي عشرة سنةً.

فَقَالَ يومًا من الأيَّام: اذنُ منِّي، فدَنَوتُ منه، فسمعتُ أعضاءَه يُخَاطبُ بَعْضُها بعضًا: ابرُزْ، حتَّىٰ بَرَزتْ أَعْضاؤُهُ كُلُّها بين يَدَيه وهو يُسبِّحُ ويُقدِّسُ، ثُمَّ مات.

قَالَ المصنف: وهَذِهِ الحكايةُ تُوهِمُ أنَّ الرَّجلَ رأىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، فلَمَّا أنكر عُوقِبَ، وقَدْ ذَكَرنا أنَّ قومًا يَقُولُون: إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يُرىٰ فِي الدُّنيا.

وقد حكىٰ أبو القاسم عبد الله بن أحمد البلخي فِي كتاب «المقالات» قَالَ: قَدْ حَكَىٰ

قومٌ من المُشبِّهة أنَّهم يُجيزُونَ رؤيةَ الله تَعَالىٰ بالأبْصار فِي الدُّنيا، وأنَّهم لا يُنكرونَ أنْ يكونَ بعض مَنْ تَلْقاهُمْ فِي السِّكَك، وإنَّ قومًا يُجيزُونَ مَعَ ذلكَ مُصَافحتَهُ ومُلَازمتَهُ، ومُلَامستَهُ، ويدعون أنَّهم يَزُورُونَهُ، ويَزُورهُمْ، وهُمْ يُسمَّون بالعراق: أصْحَاب الباطن، وأصْحَاب الوَسَاوس، وأصْحَاب الخَطَرات.

قَالَ المصنف: وهَذَا فَوْق القبيح، نَعُوذُ بالله من الخِذْلَان.

ذكر تلبيس إبليس علَى الصوفية فِي الطهارة:

قَالَ المُصنِّف: قَدْ ذَكَرنا تَلْبيسَهُ عَلَىٰ العُبَّاد فِي الطَّهارة، إلَّا أنَّه قَدْ زاد فِي حقِّ الصُّوفيَّة عَلَىٰ الحدِّ، فقَوَّىٰ وَسَاوسَهُمْ فِي اسْتِعْمَال الماء الكثير حتَّىٰ بَلَغني أنَّ ابْنَ عقيلٍ دَخَل رباطًا فتَوضَّأ، فَضَحكُوا لقلَّة استعمالِهِ الماءَ، وما عَلِمُوا أنَّ مَنْ أسْبغَ الوُضُوءَ برطلٍ من الماء كَفَاهُ.

وبلغنا عن أبِي حامد الشِّيرازي أنَّه قَالَ لفقيرٍ: من أيْنَ تَتوضَّأ؟ فَقَالَ: من النَّهر، بِي وَسْوسةٌ فِي الطَّهارة. قَالَ: كَانَ عَهْدي بالصُّوفيَّة يَسْخرون من الشَّيطان، والآن يَسْخرُ بِهم الشَّيطانُ، ومنهم مَنْ يَمْشي بالمَدَاس عَلَىٰ البَوَاري، وهَذَا الَّذي لا بأسَ به، إلَّا أنَّه رُبَّما نَظَر المُبْتَدئ إلىٰ مَنْ يَقْتَدي به، فيظنُّ ذَلكَ شَريعَةً، وَمَا كان خِيَار السَّلَف علىٰ هَذَا، والعجبُ مِمَّن يُبَالغُ فِي الاحْتِرَاز إلَىٰ هَذَا الحدِّ مُتَّصفًا بتَنْظيف ظاهرِهِ، وبَاطنُهُ مَحْشُوٌّ بالوَسَخ والكَدَر، واللهُ المُوفِّقُ.

ذكر تلبيس إبليس عليهم فِي الصلاة:

قَالَ المصنف: وقَدْ ذَكَرنا تلبيسَهُ عَلَىٰ العُبَّاد فِي الصَّلاة، وهو بذَلكَ يُلبِّس عَلَىٰ الصُّوفيَّة ويزيدُ، وقَدْ ذَكَر مُحمَّد بن طاهر المقدسيُّ أنَّ من سُنَّتهم الَّتي يَنْفردُونَ بِهَا، ويَنْتسبونَ إليها صَلَاة رَكْعَتين بعد لُبْس المرقعة والتَّوبة، واحتجَّ عَلَيه بحديث ثُمَامة بن أُثالٍ: «أنَّ النَّبِيَّ ﷺ

أَمَرهُ حين أسلمَ أنْ يَغْتسلَ»(١).

قَالَ المُصنِّف: وما أقبح الجَاهِل إذْ تَعَاطىٰ ما لَيْسَ من شُغْلِهِ، فإنَّ ثُمَامةَ كَانَ كافرًا فأسْلمَ، وإذا أسلمَ الكافرُ، وَجَب عليه الغُسْلُ فِي مَذْهب جَمَاعةٍ من الفُقَهاءِ، منهم: أحمد ابن حنبلٍ.

وأمَّا صَلَاةُ رَكْعتين، فَمَا أَمَر بِها أحدٌ من العُلَماء لمَنْ أسْلمَ، وليس فِي حديث ثُمَامة ذِكْرُ صَلَاة رَكْعَتين، فيُقَاس عَلَيه، وهَلْ هَذَا إلَّا ابتداعٌ فِي الواقع سَمَّوه سُنَّةً.

ثُمَّ مِنْ أقْبح الأشْيَاء قولُهُ: إنَّ الصُّوفيَّةَ يَنْفردونَ بسننٍ؛ لأنَّها إنْ كانت مَنْسوبةً إلَىٰ الشَّرْع، فالمُسْلمونَ كُلُّهمْ فيها سواء، والفُقَهاء أعْرَفُ بِها، فما وَجْه انفراد الصُّوفيَّة بِها، وإنْ كانت بآرَائِهِمْ فَإنَّمَا انْفرَدُوا بِها؛ لأنَّهم اخْترَعُوهَا.

ذكر تلبيس إبليس علَىٰ الصوفية فِي المساكن:

قَالَ المُصنِّف: أمَّا بناءُ الأربطة، فإنَّ قومًا من المُتعبِّدين الماضين اتَّخذوها للانْفرَاد بالتَّعبُّد، وهَؤُلَاء إذا صحَّ قَصْدهُمْ، فهُمْ عَلَىٰ الخَطَإ من ستَّة أوْجهٍ:

أحدها: أنَّهم ابْتَدعوا هَذَا البناءَ، وإنَّما بُنْيانُ أهْل الإسلام المَسَاجد.

والثانِي: أنَّهم جَعَلوا للمَسَاجد نظيرًا يُقلِّلُ جَمْعها.

والثالث: أنَّهم أفَاتوا أنْفسَهُمْ نَقْلَ الخُطَا إلَىٰ المَسَاجد.

والرابع: أنَّهم تَشبَّهوا بالنَّصَارىٰ بانْفرَادِهِمْ فِي الأديرة.

والخامس: أنَّهمْ تعزَّبوا، وهُمْ شبابٌ، وأكْثرهُمْ مُحْتاجٌ إلَىٰ النِّكاح.

والسادس: أنَّهم جَعَلوا لأنْفُسِهِمْ علمًا يَنْطقُ بأنَّهم زُهَّادٌ، فيُوجِبُ ذَلكَ زِيَارتهمْ والتَّبرُّك

(١) أخرجه البخاري (٤٦٢)، ومسلم (١٧٦٤) من حديث أبي هريرة ﵁.

بِهم، وإنْ كَانَ قَصْدُهمْ غير صحيحٍ، فإنَّهم قَدْ بَنَوْا دكاكينَ للكُوبَة، ومُناخًا للبطالة، وأعْلَامًا لإظْهَار الزُّهد.

وقَدْ رأينا جُمْهورَ المُتأخِّرين منهم مُسْتَريحين فِي الأَرْبطَة من كَدِّ المعاش، مُتَشاغلين بالأَكْلِ، والشُّرْبِ، والغناءِ، والرَّقْص، يَطْلُبُون الدُّنيا من كلِّ ظالمٍ، ولا يَتورَّعونَ من عَطَاءِ ماكسٍ، وأَكْثرُ أَرْبطتهم قَدْ بَناهَا الظَّلَمةُ، ووَقَفوا عَلَيها الأموالَ الخبيثةَ، وقَدْ لَبَّس عَلَيهم إبليسُ أنَّ ما يصلُ إِلَيكم رزقُكُم، فأَسْقِطُوا عن أَنفسِكُمْ كُلْفة الوَرَع.

فمَهمَّتُهُمْ دَوَران المطبخ، والطَّعام، والماء المبرد، فأَيْنَ جُوعُ بشرٍ، وأَيْنَ وَرَعُ سَريٍّ، وأين جِدُّ الجُنَيد؟ وهَؤُلَاء أكثر زَمَانِهِمْ يَنْقضي فِي التَّفكُّه بالحديث، أَوْ زيارة أَبْنَاء الدُّنيا، فإذا أَفْلَحَ أحدُهُمْ، أَدْخَلَ رأسَهُ فِي زرمانقته، فغَلَبت عليه السَّوداءُ، فيَقُولُ: حَدَّثنِي قَلْبِي عن ربِّي، ولقَدْ بلغنِي أنَّ رجلًا قَرَأَ القرآنَ فِي رباطٍ، فَمَنعوه، وأنَّ قومًا قَرَؤوا الحديثَ فِي رباطٍ، فَقَالوا لَهُمْ: ليس هَذَا مَوْضعه، واللهُ المُوفِّق.

ذكر تلبيس إبليس عَلَى الصوفية فِي الخروج عن الأموال والتجرد عنها:

كَانَ إبليسُ يُلبِّسُ عَلَىٰ أوائل الصُّوفيَّة لِصِدْقِهِمْ فِي الزُّهد، فيُرِيهم عَيْبَ المال، ويُخوِّفهمْ من شرِّه، فيتجرَّدون من الأَمْوَال، ويَجْلسونَ عَلَىٰ بِسَاطِ الفقر، وكَانَتْ مَقَاصدُهُمْ صالحةً، وأَفْعَالُهُمْ فِي ذلكَ خطأً؛ لقلَّة العلم.

فأمَّا الآن، فقَدْ كُفِيَ إبليسُ هَذِهِ المُؤْنة، فإنَّ أَحدهُمْ إذا كَانَ له مالٌ، أَنفَقه تبذيرًا وضياعًا، والحديثُ بإسنادٍ عن مُحمَّد بن الحُسَين السُّليميِّ، قَالَ: سمعتُ أبا نَصْرٍ الطُّوسيَّ قَالَ: سمعتُ جَماعةً من مَشَايخ الرَّيِّ يَقُولُون: ورثَ أبو عبد الله المقري من أَبِيهِ خَمْسينَ ألفَ دينارٍ سوىٰ الضِّياع، والعقار، فَخَرج عَنْ ذلك كُلّه، وأَنْفقَهُ عَلَىٰ الفُقَراء.

وقَدْ رُوِيَ مثل هَذَا عن جَمَاعةٍ كثيرةٍ، وهَذَا الفعلُ لَا أَلُومُ صاحبَهُ إذا كَانَ يَرْجع إِلَىٰ

كفايةٍ قد ادَّخرها لنفسِهِ، أَوْ إن كَانَتْ له صناعةٌ يَسْتغني بِها عن النَّاس، أو كَانَ المالُ عن شُبْهةٍ، فَتصدَّق به.

أَمَّا إذا أَخْرَج المالَ الحلالَ كلَّه، ثُمَّ احتاج إِلَىٰ ما فِي أَيْدي النَّاس، وأَفْقر عيالَهُ، فهُوَ إِمَّا أَنْ يتعرَّض لِمِنَنِ الإخوان، أَوْ لِصَدَقَاتِهِمْ، أَوْ أن يأخذَ من أَرْبَاب الظُّلم والشُّبهات، فهَذَا هُوَ الفعلُ المَذمومُ المنهيُّ عنه.

ولستُ أتعجَّبُ مِنَ المُتزهِّدينَ الَّذين فَعَلوا هَذَا مع قلَّة عِلْمهِمْ، وإنَّما العجبُ من أقوامٍ لَهُمْ عقلٌ وعلمٌ كَيْفَ حثُّوا عَلَىٰ هَذَا، وأَمَروا به مع مُصَادمتِهِ للعَقْل والشَّرْع، وقَدْ ذكر الحارثُ المحاسبيُّ فِي هَذَا كلامًا طويلًا، وَشَيَّده أبو حامدٍ الغزاليُّ ونَصَره، والحارثُ عندي أَعْذرُ من أَبِي حامدٍ؛ لأنَّ أبا حامدٍ كَانَ أفقهَ غَير أنَّ دُخُولَهُ فِي التَّصوُّف أوجب عَلَيه نُصْرة ما دَخَل فيه.

فَمِنْ كَلَام الحارث المُحَاسبيِّ فِي هَذَا أنَّه قَالَ: أيُّها المفتون، متَىٰ زَعَمْتَ أنَّ جَمْعَ المال الحَلَال أعْلَىٰ وأفْضَل من تَرْكه، فقَدْ أَزْرَيتَ بِمُحمَّدٍ ﷺ والمُرْسلينَ، وَزَعمتَ أنَّ مُحمَّدًا ﷺ لَمْ يَنْصح الأُمَّة، إِذْ نَهاهم عن جَمْع المال، وقَدْ علم أنَّ جَمْعه خيرٌ لَهم، وَزَعمتَ أنَّ الله لَمْ يَنْظر لعبادِهِ حين نَهَاهُمْ عن جَمْع المال، وقَدْ علم أنَّ جَمْعَهُ خيرٌ لَهم، وَمَا يَنْفعك الاحتجاجُ بِمال الصَّحَابة.

ودَّ بْنُ عوفٍ فِي القيامة أَنَّهُ لَمْ يُؤتَ من الدُّنيا إلَّا قُوتًا.

قَالَ: ولقَدْ بَلَغني أنَّه لمَّا تُوفِّي عبد الرَّحمن بن عوفٍ، فَقَالَ ناسٌ من أَصْحَاب رسول الله ﷺ: إِنَّا نَخافُ عَلَىٰ عبد الرَّحمن فيما ترك، قَالَ كعبٌ: سُبْحان الله! وما تَخافُون عَلَىٰ عبد الرَّحمن، كَسَب طَيِّبًا، وأنفق طيِّبًا، فبَلَغ ذَلكَ أبا ذرٍّ، فخَرَج مُغْضبًا يريد كعبًا، فمَرَّ بلحي بعيرٍ، فأَخَذه بيده، ثُمَّ انطَلَق يَطْلب كعبًا، فقيل لكعبٍ: إِنَّ أبا ذرٍّ طَلَبك، فخَرَج هاربًا

حتَّىٰ دَخَل عَلَىٰ عثمان يَسْتغيثُ به، وأخبَره الخبرَ، فأقبل أبو ذرٍّ يَقْتصُّ الأثرَ فِي طَلَب كعبٍ حتَّىٰ انتهَىٰ إلَىٰ دار عُثْمَان، فلَمَّا دَخَل قامَ كعبٌ، فَجَلس خَلْف عثمان هاربًا من أبِي ذرٍّ، فَقَالَ له أبو ذرٍّ: هيه يابْنَ اليهوديَّة، تزعُمُ أنَّه لا بأس بِما ترك عَبْد الرَّحمن بن عوفٍ، لقَدْ خَرَج رسول الله ﷺ يومًا، فَقَالَ: «الأكثَرون هُمُ الأقلُّون يومَ القِيَامَة، إلَّا مَنْ قَالَ هَكَذا وهَكَذا». ثُمَّ قَالَ: «يَا أبَا ذرٍّ، وأنتَ تريدُ الأكثرَ، وأنا أريدُ الأقلَّ»[1]، فرسول الله ﷺ يريد هَذَا، وأنتَ تَقُولُ يابْنَ اليَهوديَّة: لا بأسَ بِمَا تَرَكَ عَبْدُ الرَّحْمَن بن عوفٍ، كَذَبْتَ وكَذبَ مَنْ قَالَ بقَوْلك، فلم يردَّ عليه حرفًا حتَّىٰ خَرَجَ.

قَالَ الحارث: فهَذَا عَبْد الرَّحمن مع فضلِهِ يُوقَفُ فِي عَرَصة القِيَامَة بسَبَب مالٍ كَسَبه من حلالٍ للتَّعفُّف، ولصَنَائع المَعْروف، فيُمْنعُ من السَّعْي إلَىٰ الجنَّة مَعَ فُقَراء المُهَاجرين، وَصَار يَحْبو فِي آثارِهِمْ حبوًا، وقَدْ كَانَ الصَّحابةُ ﷺ إذا لَمْ يكنْ عندهم شيءٌ فَرِحُوا، وأنتَ تدَّخرُ المالَ، وتَجْمعهُ خوفًا من الفَقْر، وذلكَ من سُوء الظَّنِّ بالله، وقلَّة اليقين بضَمَانِهِ، وكَفَىٰ به دائمًا، وعَسَاك تَجمع المالَ لنعيم الدُّنيا، وزَهْرتها، وَلَذَّاتِها؟ وقَدْ بَلَغنا أنَّ رسول الله ﷺ قَالَ: «مَنْ أَسِفَ عَلَىٰ دُنْيا فَاتَتْهُ، قَرُبَ من النَّار مسيرةَ سنةٍ»[2].

وأنتَ تأسفُ عَلَىٰ ما فَاتَك غَيْر مكترثٍ بقُرْبك من عَذَاب الله ﷻ، وَيْحَك! هَلْ تجدُ فِي دَهْرك من الحَلَال كَمَا وَجَدت الصَّحَابةُ، وأَيْنَ الحلالُ فتجمعُهُ، وَيْحَك! إنِّي لك ناصحٌ، أرَىٰ لَكَ أنَّك تَقْنع بالبُلْغة، ولا تَجْمع المالَ لأعْمَال البرِّ، فَقَدْ سُئِلَ بَعْض أهْل العلم عن الرَّجل يَجْمع المالَ لأعْمَال البرِّ، فَقَالَ: تَرْكُهُ أبرُّ منه.

وبَلَغنا أنَّ بَعْض خيارَ التَّابِعِينَ سُئِلَ عَنْ رَجُلين أحَدهما طَلَب الدُّنيا حلالًا، فأصَابَها،

(١) أخرجه البخاري (٦٢٦٨) دون قوله: «يا أبا ذرٍّ، وأنت تريد الأكثر...» إلخ.

(٢) ذَكَره السيوطي فِي «الجامع الصغير» (١٢١٩١)، وعَزَاه للرازي فِي مشيخته، من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ، وضَعَّفه الألبانيُّ فِي «ضعيف الجامع» (٥٤١٣).

فَوَصل بِها رَحِمَهُ، وَقدَّم منها لنفسِهِ، والآخر جَانَبهَا، ولَمْ يَطْلبها، ولَمْ يَبْذلها، فأيُّهما أَفْضَلُ؟ فَقَالَ: بعيدٌ -والله- ما بَيْنهما، الَّذي جَانَبها أفضلُ كَمَا بَيْنَ مَشَارق الأرض ومَغَاربِها.

قَالَ المُصنِّف: فَهَذَا كلُّهُ كلامُ الحارث المُحَاسِبِيِّ، ذَكَره أبو حَامِدٍ، وَشَيَّده وقَوَّاه بحديث ثَعْلبةَ، فإنَّه أُعْطِيَ المالَ، فَمَنعَ الزَّكَاة[1].

قَالَ أبو حامِدٍ: فَمَنْ رَاقبَ أحوالَ الأنْبيَاء والأوْليَاء، وأقْوَالهم، لَمْ يشكَّ فِي أنَّ فَقْدَ المال أفْضَل من وُجُودِهِ، وإِنْ صُرِفَ إِلَىٰ الخَيْرات، إِذْ أقلُّ ما فيه اشْتِغَالهم بإصلاحِهِ عن ذِكْرِ الله عَزَّوَجَلَّ، فيَنْبغي للمريد أنْ يخرجَ من مالِهِ حتَّىٰ لا يَبْقىٰ له إلَّا قَدْر ضَرُورتِهِ، فَمَا بَقِيَ له درهمٌ يَلْتفت إليه قلبُهُ، فهُوَ مَحْجوبٌ عن الله عَزَّوَجَلَّ.

قَالَ المُصنِّف: وهَذَا كلُّهُ بخلاف الشَّرْع، والعَقْل، وسوء فَهْمٍ للمُرَاد بالمال.

أمَّا شرفُ المال، فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ عَظَّم قَدْره، وأمَر بحفظِهِ، إِذْ جَعَله قوامًا للآدميِّ الشَّريف، فهُوَ شريفٌ، فَقَالَ تَعَالىٰ: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ [النساء:٥]، ونَهَىٰ عَزَّوَجَلَّ أن يُسلَّمَ المالُ إِلَىٰ غَيْر رشيدٍ، فَقَالَ: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النساء:٦].

وقَدْ صحَّ عَنْ رسول الله ﷺ أنَّه نَهىٰ عن إِضَاعَة المال[2]، وقَالَ لسَعْدٍ: «لأنْ تَتْركَ وَرَثتَكَ أغنياء، خيرٌ لك من أنْ تتركُهمْ عالةً يتكفَّفونَ النَّاسَ»[3].

---

(١) انظر «الشهاب الثاقب في الذب عن الصحابي الجليل ثعلبة بن حاطب» للشيخ سليم الهلالي حفظه الله، وفي هذه الرسالة تبيانٌ مفصلٌ لطرق هذه القصة، وبيان ضعفها.

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٠٨)، ومسلم (٥٩٣) من حديث المغيرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (١٢٩٥)، ومسلم (١٦٢٨).

وقَالَ: «ما نَفَعني مالٌ كَمَالِ أبِي بكرٍ»(١).

والحديثُ بإسناد مَرْفوعٍ، عَنْ عَمْرو بن العاص، قَالَ: بَعَث إليَّ رسول الله ﷺ فَقَالَ: «خُذْ عَلَيْك ثيابَكَ وسِلاحَك، ثُمَّ ائْتني»، فأتيتُهُ، فَقَالَ: «إنِّي أريدُ أنْ أبْعثَكَ عَلَىٰ جيشٍ فيُسَلمك الله ويُغْنمك، وأرْغَب لَكَ من المال رغبةً صالحةً»، فقلتُ: يا رَسُولَ الله، مَا أسْلَمتُ من أجْل المال، ولَكنِّي أسْلمتُ رغبةً فِي الإسْلَام. فَقَالَ: «يَا عَمْرو، نِعْمَ المالُ الصَّالح للرَّجل الصَّالح»(٢).

والحديثُ بإسْنَادٍ عن أنس بن مالكٍ، أنَّ رسول الله ﷺ دَعَا له بكلِّ خيرٍ، وكَانَ فِي آخر دُعَائِهِ أنْ قَالَ: «اللَّهمَّ أكثر مَالَهُ، ووَلَدَه، وبَارك لَهُ»(٣).

وبإسنادٍ عَنْ عبد الرَّحمن بن كعب بن مالكٍ أنَّ عُبَيد الله بن كعب بن مالكٍ قَالَ: سمعتُ كعبَ بن مالكٍ يُحدِّث حديثَ توبتِهِ، قَالَ: فقلتُ: يا رَسُولَ الله، إنَّ مِنْ تَوْبتِي أنْ أنخلعَ من مَالِي صدقةً إلَىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، وإلَىٰ رَسُولِهِ ﷺ، فَقَالَ: «أَمْسِكْ بَعْض مَالِكَ، فهُوَ خيرٌ لكَ»(٤).

قَالَ المُصنِّف: فهَذِهِ الأحاديثُ مُخرَّجةٌ فِي الصِّحاح، وهي خلاف ما تعتقدُهُ المُتصوِّفة، من أنَّ إكثارَ المال حِجَابٌ وعقوبةٌ، وأنَّ حَبْسَهُ يُنَافي التَّوكُّل.

وَلَا يُنْكر أنَّه يَخَاف من فتنتِهِ، وإنَّ خلقًا كثيرًا اجْتَنبوه لخَوْف ذَلكَ، وأنَّ جَمْعَهُ من وجهٍ يعزُّ، وَسَلامة القَلْب من الافتتان به يبعدُهُ، وَاشْتغَال القَلْب مع وُجُودِهِ بذِكْرِ الآخرة

(١) أخرجه الترمذي (٣٦٦١)، وابن ماجه (٩٤) من حديث أبِي هُرَيرة رضي الله عنه، وصَحَّحه الألبانِيُّ فِي «صحيح الجامع» (٥٦٦١، ٥٨٠٨).

(٢) أخرجه أحمد (١٧٣٠٩)، وصَحَّحه الألبانِيُّ فِي «مشكلة الفقر» (ص ٣٦).

(٣) أخرجه البخاري (٦٣٣٤)، ومسلم (٢٤٨١).

(٤) أخرجه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩).

يَنْدُرُ، ولِهَذَا خِيفَ فتنتُهُ.

فأمَّا كَسْبُ المال، فإنَّ مَن اقْتصَرَ عَلَىٰ كَسْبِ البُلْغة من حِلِّها، فذَلكَ أمرٌ لا بُدَّ منه.

وأمَّا مَنْ قَصَد جَمْعَه، والاستكثارَ منه من الحَلَال، نَظَرنا فِي مقصودِهِ، فإنْ قَصَد نَفْسَ المُفَاخرة والمُبَاهاة، فبئس المَقْصود، وإنْ قَصَدَ إعفافَ نفسِهِ، وعائلتِهِ، وَادَّخر لحَوَادث زمانِهِ وزَمَانِهِمْ، وقَصَد التَّوسعةَ عَلَىٰ الإخوان، وإغناء الفُقَراء، وفعل المَصَالح، أُثِيبَ عَلَىٰ قَصْدِهِ، وكَانَ جمعُهُ بِهَذِهِ النِّيَّة أفْضَل من كثيرٍ من الطَّاعات.

وقَدْ كَانَ نِيَّاتُ خَلْقٍ كثيرٍ من الصَّحابة -رضي الله عَنْهم أجْمَعين- فِي جَمْع المال سليمةً؛ لحُسْن مَقَاصدهمْ لجمعِهِ، فَحَرصوا عَلَيه، وَسَألوا زيادتَهُ.

وبإسنادٍ عن ابْن عُمَر، أنَّ رسول الله ﷺ أقْطَع الزُّبير حُضر فرسِهِ بأرضٍ يُقَال لَها: ثوير، فأجْرَىٰ فَرَسه حتَّىٰ قام، ثُمَّ رَمَىٰ سَوْطه، فقَالَ: «أعْطوه حيث بَلَغ السَّوطُ»[(١)]، وكَانَ سَعْد بن عُبَادة يَدْعو فيقُول: اللَّهمَّ وسِّع عليَّ.

قَالَ المصنف: وأبْلَغُ من هَذَا أنَّ يَعْقوبَ عَلَيه الصَّلاة والسَّلام، لمَّا قَالَ له بَنُوهُ: ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ [يوسف:٦٥]، مَالَ إلَىٰ هَذَا، وأرْسَل ابنَهُ بنيامين مَعَهمْ، وأنَّ شُعَيبًا طَمعَ فِي زيادة ما ينالُهُ، فَقَالَ: ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾ [القصص:٢٧].

وأنَّ أيُّوبَ ﷺ لمَّا عُوفِيَ، نُثِرَ عليه رجل جرادٍ من ذَهَبٍ، فأخَذ يَحْثو فِي ثوبِهِ يَسْتكثرُ منه، فَقِيلَ له: «أمَا شَبعتَ؟ قَالَ: يا ربِّ، مَنْ يَشْبعُ من فَضْلك»[(٢)]، وهَذَا أمرٌ مَرْكوزٌ فِي الطِّباع، فإذا قُصِدَ به الخير، كَانَ خيرًا مَحضًا.

وأمَّا كَلَامُ المُحَاسبِيِّ، فخطأٌ يدلُّ عَلَىٰ الجَهْل بالعلم، وقولُهُ: إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ نَهىٰ عِبادَهُ

(١) أخرجه أبو داود (٣٠٧٢)، وضعفه الألباني فِي «ضعيف أبي داود» (٦٧٣).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٩١) بنحوه من حديث أبِي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

عَنْ جَمْع المال، وأنَّ رسول الله ﷺ نهىٰ أُمَّته عن جَمْع المال، فهَذَا مُحَالٌ، وإنَّما النَّهي عن سُوء القَصْد بالجَمْع، أوْ عَنْ جمعِهِ من حلِّه.

وما ذَكَره من حديث كعبٍ، وأبِي ذرٍّ، فمُحَالٌ من وَضع الجُهَّالِ، وخَفَاءُ صِحَّتِهِ عنه ألحقه بالقوم، وقَدْ رُوِيَ بَعْض هَذَا، وإنْ كَانَ طريقُهُ لا يثبت.

وبإسنادٍ عَنْ مالك بن عبد الله الزِّياديِّ، عن أبِي ذرٍّ أنَّه جاء يَسْتأذنُ عَلَىٰ عثمان، فأَذِنَ له، وبيدِهِ عَصَاه، فقَالَ عثمان: يا كعبُ، إنَّ عبد الرَّحمن تُوفِّي وتَرَك مالًا، فَمَا ترىٰ فيه؟ فَقَالَ: إنْ كَانَ يصلُ فيه حقَّ الله تَعَالىٰ، فلا بأسَ، فَرَفع أبو ذرٍّ عَصَاه، فَضَرب كعبًا، وقَالَ: سمعتُ رسول الله ﷺ يَقُول: «ما أُحبُّ لَوْ أنَّ لي هَذَا الجبل ذهبًا أنفقُهُ، ويُتَقَبَّلُ منِّي أذَرُ خَلْفِي ستَّ أواقٍ»، أنشُدُك بالله يا عثمانُ، أسمعتَ هَذَا؟ ثلاثَ مرَّاتٍ. قَالَ: نَعَمْ[1].

قَالَ المصنف: وهَذَا الحديثُ لا يَثْبتُ، وابْنُ لهيعة: مَطْعونٌ فيه. قَالَ يَحْيَىٰ: لا يُحتجُّ بحديثِهِ.

والصَّحيح: فِي التَّاريخ أنَّ أبا ذرٍّ تُوفِّي سَنَة خمسٍ وعِشْرينَ، وعبدُ الرَّحمن تُوفِّي سنةَ اثنتين وثلاثين، فقَدْ عاشَ بعدَ أبِي ذرٍّ سبعَ سنينَ، ثُمَّ لَفظُ ما ذَكَروه من حَدِيثِهِمْ يدلُّ عَلَىٰ أنَّ حَديثَهُمْ موضوعٌ.

ثُمَّ كيف تَقُولُ الصَّحابةُ رضي الله عنهم: إنَّا نَخَافُ عَلَىٰ عبد الرَّحمن، أو لَيْسَ الإجماعُ مُنْعقدًا عَلَىٰ إباحة جَمْع المال من حلِّه، فَمَا وَجْهُ الخَوْف مع الإبَاحَة، أَوَ يأذنُ الشَّرْعُ فِي شيءٍ، ثُمَّ يُعَاقب عليه، هَذَا قِلَّةُ فَهْمٍ وفقهٍ، ثُمَّ تعلُّقُه بعبد الرَّحمن وَحْده دليلٌ عَلَىٰ أنَّه لَمْ يَسِرْ سيرةَ الصَّحَابة، فإنَّه قَدْ خلَّف طَلْحة ثَلَاث مئة بهار، فِي كلِّ بِهارٍ ثلاثة قناطير، والبهار: الحِمْلُ، وكَانَ مال الزُّبير خَمْسينَ ألف ألف، ومئتي ألفٍ، وخَلَّف بْن مسعودٍ رضي الله عنه تسعين ألفًا،

(١) أخرجه أحمد (٤٥٥)، وصَحَّحه الألبانيُّ فِي «المشكاة» (١٨٢٣).

وأكثرُ الصَّحابة كَسَبوا الأموالَ، وَخَلَّفوها، ولَمْ يُنْكر أحدٌ منهم عَلَىٰ أحدٍ.

وأما قوله: إنَّ عبد الرَّحمن يَحْبو حبوًا يوم القِيَامَة، فهَذَا دليلٌ عَلَىٰ أنَّه لا يَعْرف الحديثَ، أَوْ كَانَ هَذَا منامًا، وليس هو فِي اليَقَظة.

أَعُوذُ بالله من أَنْ يَحْبو عبد الرَّحمن فِي القيامة، أفَترىٰ من يَسْبق إذا حَبَا عبد الرَّحمن بن عوفٍ، وهو من العَشْرة المَشْهود لَهم بالجنَّة، ومن أَهْل بَدْرٍ المغفور لَهم، ومِنْ أَصْحَاب الشُّورىٰ.

ثُمَّ الحديثُ يَرْويه عمَارة بن زاذان، وقَالَ البخاريُّ: ربَّما اضطرب حديثُهُ. وقَالَ أحمد: يَرْوي عن أنسٍ أَحَاديثَ مناكير. وقَالَ أبو حَاتمٍ الرَّازيُّ: لَا يحتجُّ به. وَقَالَ الدَّارقطنِيُّ: ضعيفٌ.

أخبرنا أبو الحُصَين مَرْفوعًا إِلَىٰ عمارة، عَنْ ثابتٍ، عن أنسٍ ﷺ، قَالَ: بَيْنما عائشة ﷺ فِي بَيْتها سمعت صوتًا فِي المدينة، فَقَالتْ: ما هَذَا؟ فقالوا: عِيرٌ لعبد الرَّحمن ابن عوفٍ قَدِمَتْ من الشَّام تَحْملُ من كلِّ شيءٍ، قَالَ: وَكَانَتْ سبع مئة بعيرٍ، فَارتجَّت المدينةُ من الصَّوْت. فَقَالت عائشةُ ﷺ: سَمعتُ رسول الله ﷺ يَقُول: «قَدْ رأيتُ عَبْد الرَّحمن بن عوفٍ يَدْخلُ الجنَّة حبوًا»، فَبلَغ ذَلكَ عَبْد الرَّحمن بن عوفٍ، فَقَالَ: إن اسْتَطعتُ لأدْخُلنَّها قائمًا، فَجَعلها بأَقْتَابِها وأَحْمَالِها فِي سبيل الله ﷻ[1].

وقوله: تَرْكُ المال الحَلَال أفْضَل من جمعِهِ، ليس كَذَلك، بَلْ متَىٰ صحَّ القصدُ، فجمعُهُ أَفْضَل بلا خلافٍ عند العُلَماء.

والحديثُ الَّذي ذَكَره عَنْ رسول الله ﷺ: «مَنْ أسفَ عَلَىٰ دنيا فَاتَته...إلخ»[2]،

(١) أخرجه أحمد (٢٤٣٢١).

(٢) تقدم تخريجه.

مُحَالٌ، ما قَالَه رسول الله ﷺ قطُّ.

وقوله: هَلْ تجدُ فِي دَهْرِك حلالًا، فيُقَالُ له: وَمَا الَّذي أَصَاب الحلالَ، والنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «الحلالُ بيِّنٌ، والحرامُ بيِّنٌ»[1]، أتُرَىٰ يريدُ بالحَلَال وُجُود حبَّةٍ مُذْ خَرَجت من المَعْدن ما تَقلَّبتْ فِي شُبْهةٍ، هَذَا يبعُدُ، وما طُولبنا به.

بَلْ لوَ بَاعَ المسلمُ يهوديًّا، كَانَ الثَّمنُ حلالًا بلا شكٍّ، هَذَا مَذْهب الفُقَهاء، وأَعْجَب لسُكُوت أَبِي حامِدٍ، بل لنُصْرته ما حَكَىٰ، وكَيْفَ يَقُولُ: إنَّ فَقْدَ المال أفضلُ من وُجُودِهِ وإِنْ صُرِفَ إِلَىٰ الخَيْرات، ولو ادُّعِيَ الإجماعُ عَلَىٰ خلاف هَذَا لَصحَّ، ولكنَّ تَصوُّفَهُ غَيْر فَتْواه.

وعن المروزيِّ قَالَ: سمعتُ رجلًا يَقُولُ لأبِي عبد الله: إنِّي فِي كِفَايةٍ، فَقَالَ: الْزَم السُّوقَ، تصل به الرَّحمَ، وتَعُود المَرْضىٰ.

وقوله: يَنْبغي للمريد أنْ يخرجَ من مالِهِ، قد بَيَّنَّا أنَّه إنْ كَانَ حرامًا، أو فيه شُبْهة، أَوْ إِنْ يَقْنع هو باليَسير، أَوْ بالكَسْبِ جَازَ له أَنْ يخرجَ منه، وإلَّا فلا وَجْهَ لذَلكَ، وأمَّا تَغْلبة فما ضَرَّهُ المالُ، إنَّما ضَرَّهُ البُخْلُ بالوَاجِبِ.

وأمَّا الأنبياءُ، فقَدْ كَانَ لإبراهيم -عَلَيه الصَّلاة والسَّلام- زرعٌ ومالٌ، ولشُعَيبٍ ولغَيْره، وكَانَ سعيد بن المسيب ﷺ يَقُولُ: لا خَيرَ فيمَنْ لا يطلب المالَ يَقْضي به دَيْنَهُ، ويَصُون به عِرْضَهُ، ويصلُ به رَحِمَهُ، فإنْ مات، تَركَه ميراثًا لمَنْ بعده، وخلَّف ابنُ المسيب أربع مئة دينارٍ، وقَدْ ذَكَرنا ما خَلَّفت الصَّحَابةُ.

وَقَدْ خلَّف سفيان الثَّوريُّ ﷺ مئتين، وكَانَ يَقُولُ: المالُ فِي هَذَا الزَّمان سلاحٌ، وَمَا زَالَ السَّلفُ يَمْدحون المالَ، ويَجْمعونَهُ للنَّوائب، وإِعَانةِ الفُقَراء.

وإنَّما تَجَافاه قَوْمٌ منهم إيثارًا للتَّشاغل بالعبادات، وجَمْع الهمم، فَقَنعوا باليسير، لَوْ قَالَ

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النُّعْمان بن بشيرٍ ﷺ.

هَذَا القائلُ أنَّ التَّقلُّل منه أَوْلَىٰ، قَرُبَ الأمرُ، ولكنَّه زاحم به مَرْتبةَ الإثم.

وَاعْلَمْ أنَّ الفقرَ مرضٌ، فَمَن ابْتُلي به فَصَبر، أُثيبَ عَلَىٰ صَبْره، ولِهَذَا يَدْخلُ الفُقَراءُ الجنَّةَ قبل الأغنياءِ بخَمْس مئة عامٍ لمكَان صَبْرهم عَلَىٰ البَلَاء، والمَالُ نعمةٌ، والنِّعمة تَحْتاجُ إِلَىٰ شكرٍ، والغنيُّ وإِنْ تعبَّد وخاطرَ كالمُفْتي والمُجَاهد، والفقيرُ كالمُعْتزلة فِي زاويةٍ.

وقَدْ ذَكَر أبو عبد الرَّحمن السُّلميُّ فِي كتاب «سنن الصُّوفيَّة» باب كَرَاهية أَنْ يُخلِّفَ الفقير شيئًا، فذَكَر حديث الَّذي ماتَ من أَهْل الصُّفَّة، وخلَّف دينارين، فَقَالَ رَسُولُ الله: «كَيَّتانِ»(١).

قَالَ المصنف: وهَذَا احتجاجُ مَنْ لَا يَفْهم الحالَ، فإنَّ ذَلكَ الفقيرَ كَانَ يُزَاحمُ الفقراءَ فِي أَخْذ الصَّدَقة، وحبس ما مَعَه، فلذَلكَ قَالَ: «كَيَّتان»، ولَوْ كَانَ المَكْروه نَفْس تَرْك المال لَمَا قَالَ رسول الله ﷺ لسعدٍ: «إنَّك إِنْ تَذَر وَرَثتَك أغنياء خَيْر من أَنْ تَذرهُمْ عَالةً يَتكفَّفُون النَّاسَ»(٢)، ولَمَا كَانَ أحدٌ من الصَّحابة يُخلِّف شيئًا.

وقَدْ قَالَ عُمَرُ بن الخطَّاب رضي الله عنه: «حثَّ رسول الله ﷺ عَلَىٰ الصَّدقَة، فَجئتُ بِنِصْفِ مالي، فَقَالَ رسول الله ﷺ: «وَمَا أبقيتَ لأَهْلكَ؟»، فقلتُ: مثله(٣)، فلَمْ يُنْكر عَلَيه رسول الله ﷺ.

قَالَ ابن جريرٍ الطبريُّ: وفِي هَذَا الحديث دليلٌ عَلَىٰ بُطْلان ما يقولُهُ جَهَلة المُتصوِّفة أَنْ ليس للإنسان ادِّخارُ شيءٍ فِي يومِهِ لغدِهِ، وأنَّ فاعلَ ذَلكَ قَدْ أساء الظَّنَّ بربِّه، ولَمْ يتوكَّل عَلَيه حقَّ توكُّله.

---

(١) أخرجه أحمد (٧٩٠) من حديث عليٍّ رضي الله عنه، وصَحَّحه الألبانيُّ فِي «صحيح الترغيب» (٩٣٥).

(٢) أخرجه البخاري (١٢٩٥)، ومسلم (١٦٢٨).

(٣) أخرجه أبو داود (١٦٧٨)، وحسَّنه الألبانيُّ فِي «المشكاة» (٦٠٢١).

قَالَ ابن جرير: وكَذَلكَ قولُهُ عَلَيه الصَّلاة والسَّلام: «اتَّخذوا الغنمَ، فإنَّها بَرَكةٌ»[١]، فيه دلالةٌ عَلَىٰ فَسَاد قَوْل مَنْ زَعَم من المُتصوِّفة أنَّه لا يصحُّ لعبدِ التَّوكُّل عَلَىٰ ربِّه إلَّا بأَنْ يصبحَ وَلَا شيء عنده من عَيْنٍ، ولا عَرَضٍ، ويُمْسي كَذَلك، أَلَا تَرَىٰ كيف ادَّخر رسول الله ﷺ لأزواجِهِ قُوتَ سَنَةٍ[٢].

وقَدْ خَرَج أقوامٌ من أَمْوالِهم الطَّيِّبة، ثُمَّ عادوا يَتعرَّضون للأَوْسَاخ، ويَطْلبون، وهَذَا لأنَّ حاجةَ الإِنْسَان لا تَنْقطع، والعاقلُ يُعِدُّ للمُسْتقبل، وهَؤُلَاء مثلُهُم فِي إِخْرَاج المال عند بِدَايَة تَزهُّدهمْ مثل مَنْ رَوَىٰ فِي طريق مكَّة، فبدَّد الماءَ الَّذي مَعَه.

والحديثُ بإسنادٍ عَنْ جابر بن عبد الله، قَالَ: قَدِمَ أبو حُصَين السُّلميُّ بذَهَبٍ من مَعْدنهم، فَقَضىٰ دَيْنًا كَانَ عليه، وفَضَل معه مثل بَيْضة الحَمَامة، فأَتَىٰ بِها رسول الله ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، ضَعْ هَذِهِ حَيْث أَرَاكَ الله، أَوْ حَيْثُ رأيتَ، قَالَ: فَجَاءه عن يمينِهِ، فأَعْرَض عنه، ثُمَّ جاء عَنْ يَسَاره، فأَعْرض عنه، ثُمَّ جاءه من بَيْن يَدَيه، فنكسَ رسول الله ﷺ رأسَهُ، فلَمَّا أكثر عليه، أَخذها من يَدَيه، فحَذَفه بِها، لَوْ أَصَابَتْهُ لعَقَرتهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيه رسول الله ﷺ، فقَالَ: «يَعْمد أحدُكُمْ إِلَىٰ مالِهِ فيَتصدَّق به، ثُمَّ يَقْعد فيتكفَّفُ النَّاسَ، وإنَّما الصَّدقةُ عَنْ ظَهْر غنىٰ، وَابْدَأ بمَنْ تَعُولُ»[٣].

وقَدْ رَوَاه أبو داود فِي «سُنَنه» من حديث مَحْمود بن لبيدٍ، عَنْ جابر بن عبد الله، قَالَ: كُنَّا عند رسول الله ﷺ، إِذْ جَاءَه رجلٌ بِمِثْلِ البيضة من ذهبٍ، فَقَالَ: يا رَسُولَ الله، أصبتُ هَذَا من معدنٍ، فخُذْها، فَهِيَ صدقةٌ ما أملكُ غَيْرها، فأَعْرَض عنه رسول الله ﷺ، ثُمَّ أتاه من قبل رُكْنه الأيمن، فَقَالَ مثلَ ذَلكَ، فأعرضَ عَنْه، ثُمَّ أتاه من قِبَلِ رُكْنِهِ الأيسر، فأَعْرَض عنه

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٣٠٤)، وصَحَّحه الألبانيُّ فِي «صحيح الجامع» (٨٢).
(٢) أخرجه البخاري (٥٣٥٧)، ومسلم (١٧٥٧) من حديث عمر رضي الله عنه.
(٣) أخرجه أبو داود (١٦٧٣)، وضَعَّفه الألبانيُّ فِي «ضعيف الجامع» (٦٤٠٨).

رسول الله ﷺ، ثُمَّ أتاه من خَلْفه، فأخَذها رسول الله ﷺ فحَذَفهُ بِها، فلو أصابَته لأَوْجَعتْهُ، أوْ لَعَقرتْهُ، فَقَالَ رسول الله ﷺ: «يَأْتِي أَحدكُمْ بِمَا يَمْلكُ، فيَقُولُ: هَٰذِهِ صدقةٌ، ثُمَّ يَقْعد يَتكفَّف النَّاسَ، خَيْرُ الصَّدقة ما كَانَ عن ظَهْر غنىٰ». وفِي روايةٍ أُخرىٰ: «خُذْ عنَّا مالكَ، لا حاجةَ لنا بِهِ»(١).

ورَوَىٰ أبو داود من حديث أبِي سعيدٍ الخدريِّ ﷺ، قَالَ: دَخَل رجلٌ المسجدَ، فأمَر رسول الله ﷺ أنْ يَطْرحوا ثيابًا، فَطَرحوا، فأَمَر لَهُ منها بثَوْبين، ثُمَّ حثَّ عَلَىٰ الصَّدَقة، فجاءَ فَطَرح أحد الثَّوْبين، فَصَاحَ به: «خُذْ ثَوْبَكَ»(٢).

قَالَ المصنف: ونَقَلْتُ من خطِّ أبِي الوَفَاء بنُ عَقِيلٍ: قَالَ: قَالَ ابْنُ شَاذَان: دَخَل جَماعةٌ من الصُّوفيَّة عَلَىٰ الشِّبلي، فأنفذ إِلَىٰ بَعْض المَيَاسير يسألُهُ مالًا ينفقُهُ عَلَيهم، فردَّ الرَّسُولُ وقَالَ: يا أبا بكرٍ، أنت تَعْرفُ الحقَّ، فهلَّا طلبتَ منه، فَقَالَ للرَّسُول: ارْجعْ إليه، وقُلْ له: الدُّنيا سفلةٌ، اطْلبها من سفلةٍ مثلك، واطْلُب الحقَّ من الحقِّ، فبَعَث إليه بِمئة دينارٍ.

قَالَ ابن عقيل: إنْ كَانَ أنفذ إليه المئة دينارٍ للافْتدَاء من هَٰذَا الكَلَام القبيح وأمثالِهِ، فقَدْ أكَل الشبليُّ الخبيثَ من الرِّزق، وأطْعَمَ أضْيَافَهُ منه.

وقَدْ كَانَ لبَعْضهمْ بضاعةٌ فأنْفَقها، وقَالَ: ما أريدُ أنْ تكونَ ثقتي إلَّا بالله، وهَٰذَا قلَّةُ فَهْمٍ؛ لأنَّهم يَظنُّون أنَّ التَّوكُّلَ قطع الأَسْبَاب، وإِخْرَاج الأَمْوَال.

أخبرنا القزاز، قَالَ: أَخْبَرنا الخطيبُ، قَالَ: أَخْبَرنا أبو نُعَيم الحافظ قَالَ: أنبأنا جَعْفر الخلديُّ فِي كتابِهِ قَالَ: سَمعتُ الجُنيدَ يَقُول: دَقَقتُ عَلَىٰ أبِي يعقوب الزيَّات بَابَهُ فِي جَمَاعةٍ

---

(١) أخرجه الدارمي فِي «سننه» (١٦٥٨)، وابن حبان فِي «صحيحه» (٣٣٧٢) من حديث جابر بن عبد الله ﷺ، وضعَّفه الألبانيُّ فِي «ضعيف الجامع» (٦٤٠٨).

(٢) أخرجه أبو داود (١٦٧٥)، والنسائي (١٤٠٨) وحَسَّنه الألبانيُّ في «صحيح أبي داود» (١٤٦٩).

من أصْحَابنا، فقَالَ: ما كَانَ لكم شغلٌ فِي الله عَزَّوَجَلَّ يَشغلُكُم عن المجيء إليَّ. فقلتُ له: إذا كَانَ مجيئنا إليك من شُغْلنا به فلِمَ نَنْقطع عنه، فسألتُهُ عن مسألةٍ فِي التَّوكُّل، فأَخرَج دِرْهَمًا كَانَ عنده، ثُمَّ أجَابنِي، فأَعْطَىٰ التَّوكُّلَ حَقَّهُ، ثُمَّ قَالَ: اسْتَحْييتُ من الله أن أُجيبَكَ وعِنْدِي شيءٌ.

قَالَ المصنف: لَوْ فَهِمَ هؤلاء معنىٰ التَّوكُّل، وأنَّه ثقةُ القلب بالله عَزَّوَجَلَّ، لَا إخراج صُوَر المال، ما قَالَ هؤلاء هَذَا الكلامَ، ولكن قلَّ فَهْمُهُمْ، وقَدْ كَانَ ساداتُ الصَّحابة والتَّابعين يَتَّجِرُونَ ويَجْمعون الأموالَ، وما قَالَ مثل هَذَا أحدٌ مِنْهُمْ.

وقَدْ رُوِّينا عَنْ أَبِي بكرٍ الصِّدِّيق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّه قَالَ حين أُمِرَ بتَرْك الكَسْب لأجْل شغلِهِ بالخلافة: فَمِنْ أَيْنَ أُطْعِمُ عِيَالِي؟

وهَذَا القولُ مُنْكَرٌ عند الصُّوفيَّة، يُخرجُون قائلَهُ من التَّوكُّل، وكَذَلك يُنْكرونَ عَلَىٰ مَنْ قَالَ: هَذَا الطَّعام يَضرُّنِي، وقَدْ رَوَوا فِي ذَلكَ حكايةً عَنْ أَبِي طالب الرَّازي قَالَ: حضرتُ مَعَ أَصْحَابنا فِي موضعٍ، فقدموا اللَّبنَ، وقَالَ لي: كُلْ، فقلتُ: لا آكلُهُ، فإنَّه يَضرُّنِي، فلمَّا كَانَ بعد أربعين سنةً، صَلَّيتُ يومًا خلف المَقَام، ودَعَوْتُ الله عَزَّوَجَلَّ، وقلتُ: اللَّهمَّ إنَّك تَعْلمُ أنِّي ما أشركتُ بك طَرْفةَ عينٍ، فسمعتُ هاتفًا يَهْتف بِي، ويَقُول: ولا يوم اللَّبن.

قَالَ المُصنِّف: وهَذِهِ الحكايةُ الله أعلمُ بصِحَّتها -وأعْلم أنَّ مَنْ يَقُول: هَذَا يضُرُّنِي، لا يريد أنَّ ذَلكَ يَفْعل الضَّرر بنفسِهِ، وإنَّما يريد أنَّه سَبب الضَّرر، كَمَا قَالَ الخليلُ صلواتُ الله وسلامُهُ عليه: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ﴾[إبراهيم:٣٦]، وقَدْ صحَّ عن رسول الله ﷺ أنَّه قَالَ: «ما نَفَعني مالٌ كَمَال أَبِي بكرٍ»(١)، وقوله: «مَا نَفَعني»، مُقَابلٌ لقَوْل القائل: ما ضَرَّنِي.

(١) أخرجه ابن ماجه (٩٤) من حديث أبي هُرَيرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وصَحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٥٨٠٨).

وصحَّ عَنه ﷺ أنَّه قَالَ: «مَا زَالَتْ أَكْلةُ خَيْبر تُعَاودني، فهَذَا أوانُ قطعت أبْهري»[١].

وقَدْ ثبتَ أنَّه لا رُتْبَةَ أَوْلَىٰ من رُتْبة النُّبوَّة، وقَدْ نسب النَّفْع إلَىٰ المال، والضَّرر إلَىٰ الطَّعام، فالتَّحَاشي عن سُلُوك طريقِهِ ﷺ، تعاطٍ عَلَىٰ الشَّريعة، فلا يُلْتفتُ إلَىٰ هَذَيان مَنْ هَذَىٰ فِي مثل هَذَا.

قَالَ المصنف: وقَدْ بيَّنَّا أنَّه كَانَ أَوَائل الصُّوفيَّة يَخْرجون من أمْوَالِهم زُهْدًا فيها، وذكرنا أنَّهم قَصَدوا بذلك الخير إلَّا أنَّهم غَلَطوا فِي هَذَا الفعل.

كَمَا ذَكَرناه من مُخَالفتهم بذَلكَ الشَّرع والعَقْل؛ فأمَّا مُتأخِّروهُمْ، فَقَدْ مالوا إلَىٰ الدُّنيا، وجَمْع المال من أيِّ وجهٍ كَانَ؛ إيثارًا للرَّاحة، وحُبًّا فِي الشَّهوات.

فمنهم مَنْ يَقْدر عَلَىٰ الكسب، ولا يَعْمَل، ويَجْلس فِي الرِّباط، أو المَسْجد، ويَعْتَمد عَلَىٰ صَدَقات النَّاس، وقلبُهُ مُعلَّقٌ بطَرْق الباب.

ومعلومٌ «أنَّ الصَّدقةَ لا تحلُّ لغنيٍّ، ولا لذي مِرَّةٍ سويٍّ»[٢]. ولا يُبَالون مَنْ بعث إليه، فربَّما بعث الظَّالمُ والماكسُ، فلَمْ يَردُّوه، وقَدْ وَضَعوا فِي ذَلكَ بَيْنهم كلماتٍ منها تَسْميةُ ذَلكَ بـ «الفُتُوح»، ومنها: إنَّ رِزْقَنا لا بُدَّ أنْ يصلَ إلينا.

ومنها: إنَّه من الله، فلا يُرَدُّ عليه، ولا نَشْكر سواه.

وهَذَا كلُّه خلافُ الشَّريعة، وجهلٌ بِها، وعكس ما كَانَ السَّلف الصَّالح عَلَيه، فإنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ: «الحلالُ بيِّنٌ، والحرامُ بيِّنٌ، وبَيْنها أُمورٌ مُشْتبهاتٌ، لا يَعْلمهنَّ كثيرٌ من النَّاس، فَمَن اتَّقىٰ الشُّبُهات، فَقَد اسْتَبْرأ لدينِهِ وعرضِهِ»[٣]. وقَدْ قاءَ أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه من أكْل الشُّبهة.

---

(١) أخرجه البخاريُّ مُعلقًا فِي كتاب المغازي، (باب مرض النَّبيِ ﷺ ووفاته)، عند الحديث (٤٤٢٩).

(٢) أخرجه الترمذي (٦٥٣)، والنسائي (٢٥٩٧)، وابن ماجه (١٨٣٩) وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٢٥١).

(٣) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

وكَانَ الصَّالحون لا يَقْبلون عطاءَ ظالمٍ، ولا مِمَّنْ فِي ماله شُبْهةٌ، وكثيرٌ من السَّلَف لَمْ يَقْبل صِلَةَ الإخوان عفافًا وتنزُّهًا. وعن أبِي بكرٍ المروزيِّ قَالَ: ذَكَرتُ لأبِي عبد الله رجلًا من المحدثين، فَقَالَ رَحِمَهُ اللهُ: أيَّ رجلٍ كَانَ لَوْلا خَلَّةٌ واحدةٌ، ثُمَّ سكتَ، ثُمَّ قَالَ: ليس كلُّ الخلال يُكْملها الرَّجل. فَقُلْتُ له: أليس كَانَ صاحبَ سُنَّةٍ؟ فَقَالَ: لعمري، لقَدْ كتبتُ عَنْه، ولكن خلةٌ واحدةٌ كَانَ لا يُبَالِي مِمَّن أَخَذ.

قَالَ المصنف: ولقَدْ بَلَغنا أنَّ بَعْضَ الصُّوفيَّة دَخَل عَلَىٰ بَعْض الأُمَراء الظَّلَمة، فوَعَظه، فأَعْطَاه شيئًا، فَقَبله، فَقَالَ الأميرُ: كُلُّنا صَيَّادون، وإنَّما الشِّباكُ تَخْتلف، ثُمَّ أيْنَ هؤلاء من الأَنَفة من المَيْل للدُّنيا، فإنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «اليدُ العُلْيا خيرٌ من اليَد السُّفلىٰ»(١)، واليَدُ العُلْيا هي المُعْطية، هَكَذا فَسَّره العُلَماءُ، وهُوَ الحقيقة، وقَدْ تأوَّلهُ بعضُ القَوْم، فَقَالَ: العُلْيا هِيَ الآخذةُ. قَالَ ابْن قُتَيبة: وَلَا أرىٰ هَذَا إلَّا تأويل قَوْمٍ اسْتَطابوا السُّؤالَ.

قَالَ المصنف: ولقَدْ كَانَ أَوَائلُ الصُّوفيَّة يَنْظرون فِي حُصُول الأَمْوَال من أيِّ وجهٍ، ويُفَتِّشونَ عن مَطَاعمهم، وسُئِلَ أَحْمَد بن حنبل عن السري السقطي، فقَالَ: الشَّيخُ المعروفُ بطِيبِ المَطْعم. وقَالَ السري: صَحبتُ جَماعةً فِي الغزو، فَاكْترينا دارًا، فنُصِبَ فيها تَنُّورٌ، فتورَّعوا أنْ يَأْكُلُوا من خبز ذلك التَّنُّور، فأمَّا مَنْ يرىٰ ما قَدْ تَجدَّد من صوفيَّةِ زَمَاننا من كَوْنِهم لا يُبَالونَ من أيْنَ أَخذوا، فإنَّه يَعْجبُ.

ولقَدْ دَخَلت بَعْض الأربطة، فسألتُ عن شيخٍ، فَقِيلَ لي: قَدْ مضىٰ إلَىٰ الأمير فُلَانٍ، يُهنِّئه بخلعةٍ قَدْ خُلِعَتْ عليه، وكَانَ ذَلكَ الأميرُ من كبار الظَّلَمة، فقلت: وَيْحَكُمْ! ما كَفَاكُمْ أن فَتحتُم الدُّكَّانَ حتَّىٰ تطوفوا عَلَىٰ رُؤوسِكُمْ بالسِّلع، يَقْعُدُ أَحدُكُمْ عن الكسب مع قُدْرتِهِ عَلَيه مُعوِّلًا عَلَىٰ الصَّدَقات والصِّلات، ثُمَّ لا يَكْفيه حتَّىٰ يأخذ مِمَّن كَانَ، ثُمَّ لا يَكْفيه حتَّىٰ

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٢٧)، ومسلم (١٠٣٣) من حديث حكيم بن حزام رضي الله عنه.

يَدُورَ عَلَىٰ الظَّلَمة فيَستعطي منهم، ويُهنِّئهمْ بِمَلْبوسٍ لا يحلُّ، وولايةٍ لا عَدْلَ فيها، والله، إنَّكمْ أضرُّ عَلَىٰ الإسْلَام من كلِّ مضرٍّ.

فصل [جمع المال من الشبهات]

قَالَ المُصنِّف: وقَدْ صار جَماعةٌ من أشْيَاخهمْ يَجْمعون المالَ من الشُّبُهات، ثُمَّ يَنْقسمونَ، فمِنْهُمْ مَنْ يدَّعي الزُّهدَ مع كَثْرة المال، وحرصِهِ عَلَىٰ الجمع، وهَذِهِ الدَّعْوىٰ مُضادَّةٌ للحال، ومنهم مَنْ يُظْهِرُ الفقرَ مع جمعِهِ المالَ، وأكْثَر هؤلاء يُضيِّقونَ عَلَىٰ الفُقَراء بأخْذهمُ الزَّكاة، وَلَا يَجُوز لَهم ذَلكَ.

وقَدْ كَانَ أبو الحَسَن البسطامي شيخُ رباط بن المجيان يَلْبسُ الصُّوف صيفًا وشتاءً، وتقصدُهُ النَّاس يَتبرَّكون بِهِ، فَمَات، فخَلَّفَ أربعةَ آلاف دينارٍ.

قَالَ المصنف: وهَذَا فَوْق القبيح، وقد صحَّ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّ رجلًا من أهْل الصُّفَّة ماتَ، فخَلَّفَ دِينَارَين، فَقَالَ ﷺ: «كيَّتانِ»[(١)].

ذكر تلبيس إبليس عَلَى الصوفية فِي لباسهم:

قَالَ المصنِّف: لمَّا سمع أوَائل القوم أنَّ النَّبيَّ ﷺ كَانَ يُرقِّع ثَوْبَه[(٢)]. وأنَّه قَالَ لعائشةَ رضي الله عنها: «لا تَخلعي ثوبًا حتَّىٰ تُرقعِيهِ»[(٣)]، وأنَّ عُمَرَ بن الخطَّاب رضي الله عنه كَانَ فِي ثوبِهِ رقاعٌ، وأنَّ أُوَيسًا القرنيَّ كَانَ يَلْتقطُ الرِّقاعَ من المَزَابل، فيَغْسلها فِي الفرات، ثُمَّ يَخِيطُها فيَلْبسُها، اخْتَاروا المُرقَّعات، وقَدْ أبعدوا فِي القياس، فإنَّ رسول الله ﷺ وأصحابَهُ كانوا يُؤْثرون البذاذةَ، ويُعْرِضُون عن الدُّنيا زهدًا، وكَانَ أكْثرُهم يَفْعل هَذَا لأجْل الفقر، كَمَا رُوِّينا

(١) أخرجه أحمد (٧٩٠) من حديث عليٍّ رضي الله عنه، وصَحَّحه الألبانيُّ فِي «صحيح الترغيب» (٩٣٥).
(٢) أخرجه أحمد (٢٤٢٢٨) من حديث عائشة رضي الله عنها، وصَحَّحه الألبانيُّ فِي «صحيح الجامع» (٤٩٣٧).
(٣) أخرجه الترمذي (١٧٨٠)، وضَعَّفه الألبانيُّ فِي «ضعيف الجامع» (١٢٩٤).

عن مَسْلمة بن عبد الملك أنَّه دَخَل عَلَىٰ عُمَر بن عبد العزيز، وعَلَيه قميصٌ وسخٌ، فَقَالَ لامرأتِهِ فاطمة: اغْسِلِي قميصَ أمير المُؤمنينَ، فَقَالَت: واللهِ، ما لَهُ قميصٌ غيرُهُ، فأمَّا إذا لَمْ يكنْ هَذَا لفقرٍ، وقَصْد البذاذة، فَمَا له من معنًىٰ.

قَالَ المصنف: فأمَّا صوفيَّةُ زَمَاننا، فإنَّهم يَعْمدونَ إِلَىٰ ثَوْبين أو ثَلاثةٍ، كلُّ واحدٍ منها عَلَىٰ لونٍ، فيَجْعلونها خِرَقًا، ويُلفِّقونها، فيَجْمعُ ذلك الثَّوب وَصْفَين: الشُّهرةَ والشَّهوة، فإنَّ لبس مثل هَذِهِ المُرقَّعات أشهىٰ عند خلقٍ كثيرٍ من الدِّيباج، وبها يَشْتهر صاحبُهَا أنَّه من الزُّهَّاد، أفتراهم يَصِيرُونَ بصورة الرِّقاع كالسَّلف؟ كَذَا قَدْ ظنُّوا، وإنَّ إبليس قد لَبَّسَ عليهم، وقَالَ: أنتم صوفيَّةٌ؛ لأنَّ الصُّوفيَّة كانوا يَلْبسون المُرقَّعات، وأنتم كَذَلك، أتراهم ما عَلِمُوا أنَّ التَّصوُّفَ معنىٰ لا صُورَة، وهَؤُلَاء قَدْ فَاتَهم التَّشبيه فِي الصُّورَة والمعنَىٰ.

أمَّا الصُّورة، فإنَّ القدماءَ كانوا يَرْقعون ضرورةً، وَلَا يَقْصدون التَّحسُّنَ بالمُرقَّع، ولا يأخُذُونَ أثوابًا جُدُدًا مُختلفة الألوان، فيقطعون من كلِّ ثوبٍ قطعةً، ويُلفِّقونَها عَلَىٰ أحْسَن التَّرقيع، ويَخِيطُونَها، ويُسمُّونها مرقعةً، وأمَّا عُمَرُ ﵁ لمَّا قدمَ بَيْتَ المقدس حين سأل القسِّيسُون والرُّهْبَان عن أمير المُسْلمينَ، فَعَرضوا عَلَيهم أُمَراء العَسَاكر، مثل: أبِي عبيدَةَ، وخالد بن الوليد، وغَيْرهما، فَقَالوا: ليس هَذَا المُصوَّر عندنا، ألكم أميرٌ أو لا؟ فَقَالوا: لنا أميرٌ غيرُ هؤلاء. فَقَالوا: هو أميرُ هَؤُلَاء؟

قالوا: نَعَمْ، هُوَ عُمَر بن الخطَّاب ﵁، فَقَالوا: أرْسلوا إليه ننظُرهُ، فإنْ كَانَ هو، سَلَّمنا إليكم من غير قتالٍ، وإنْ لَمْ يكنْ هو، فَلَا، فلو حَصَرْتُمونا ما تَقْدرون علينا، فأرسل المُسْلمونَ إِلَىٰ عُمَر ﵁، وأعْلَموه بذَلكَ، فَقَدِمَ عَلَيهم، وعَلَيه ثوبٌ مرقعٌ سبعَ عشرةَ رقعةً، بَيْنَها رقعةٌ من أديمٍ، فلَمَّا رآوه الرُّوحانيُّون والقسوسُ عَلَىٰ هَذِهِ الصِّفة، سلَّموا بيتَ المقدس إليه من غَيْر قتالٍ، فأين هَذَا مِمَّا يفعلُهُ جُهَّالُ الصُّوفيَّة فِي زَمَاننا، فنَسْأل الله العفوَ والعافيةَ، وأمَّا المعنىٰ فإنَّ أُولَئك كانوا أصْحَابَ رياضةٍ وزهدٍ.

فصل [لابسو الصوف]

قَالَ المصنف: ومِنْ هَؤُلَاء المَذمومين مَنْ يَلْبسُ الصُّوفَ تحت الثِّياب، ويُلوِّح بكُمِّه حتَّىٰ يُرَىٰ لباسُهُ، وهَذَا لصٌّ ليليٌّ، ومنهم مَنْ يَلْبسُ الثِّيابَ اللَّيِّنة عَلَىٰ جَسَدِهِ، ثُمَّ يَلْبس الصُّوفَ فَوْقها، وهَذَا لصٌّ نَهاريٌّ مكشوفٌ.

وَجَاء آخَرُون، فأَرَادوا التَّشبُّه بالصُّوفيَّة، وَصَعب عَلَيهم البذاذة، وأحبُّوا التَّنعُّمَ، ولَمْ يروا الخُرُوجَ من صورة التَّصوُّف؛ لئلَّا يتعطَّل المعاشُ، فلبسوا الفُوط الرَّفيعة، وَاعْتمُّوا بالرُّومي الرَّفيع إلَّا أنَّه بغَيْر طرازٍ، فالقميصُ والعمامةُ عَلَىٰ أحَدهمْ بثَمَن خَمْسة أثوابٍ من الحَرير.

وقَدْ لبَّس إبليسُ عَلَيهمْ أنَّكُمْ صوفيَّةٌ بنفيس النَّفس، وإنَّما أَرَادوا أن يَجْمعوا بَيْنَ رُسُوم التَّصوُّف، وتَنعُّم أَهْل الدُّنيا، ومن عَلَاماتِهمْ مُصَادقةُ الأُمَراء، ومُفَارقة الفُقَراء كبرًا وتعظيمًا. وقَدْ كَانَ عيسىٰ ابن مَرْيم -صَلَواتُ الله وسلامُهُ عليه- يَقُول: «**يا بني إِسْرَائيل، ما لكُمْ تَأْتونني وعَلَيكُمْ ثيابُ الرُّهْبان، وقُلُوبكُمْ قُلُوبُ الذِّئاب الضَّواري، الْبَسوا لباسَ المُلُوك، وألِينُوا قُلُوبكمْ بالخَشْية**».

أَخْبَرنا مُحمَّد بن أَبِي القَاسم، قَالَ: أَخْبَرنا حمد بن أحمد الحَدَّاد، قَالَ: أَخبرنا أبو نُعَيم الحافظ، ثنا أحمد بن جعفر بن معبدٍ، ثنا يَحيَىٰ بن مُطرِّف، ثنا أبو ظفر، ثنا جعفر بن سُلَيمان، عن مالك بن دينارٍ، قَالَ: إنَّ من النَّاس ناسًا إذا لَقَوا القُرَّاء، ضَربوا مَعَهمْ بسهمٍ، وإذا لَقَوا الجبابرةَ وأبناءَ الدُّنيا، أَخذوا مَعَهمْ بسهمٍ، فكُونُوا من قُرَّاء الرَّحمن، بَارَكَ اللهُ فيكُمْ.

أخبرنا مُحمَّد، نا حمد، نا أبو نُعَيم، ثنا الحُسَين بن مُحمَّد بن العبَّاس الفقيه، ثنا أحمد ابن مُحمَّد الدَّلَّال، ثنا أبو حاتمٍ، ثنا هُدْبة، ثنا حزم، قَالَ: سَمعتُ مالك بن دينارٍ يَقُول: إنَّكمْ

فِي زَمَانٍ أشهب، لا يُبصرُ زَمَانَكُم إِلَّا البصيرُ، إِنَّكمْ فِي زَمَانٍ كثيرٌ تَفَاحُشهُمْ، قَد انْتفَخَتْ أَلْسنتُهُمْ فِي أَفْوَاههمْ، فَطَلبوا الدُّنيا بعَمَلِ الآخِرَةِ، فَاحْذَروهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ، لَا يُوقِعُوكُمْ فِي شِبَاكِهِمْ.

أخبرنا المُحمَّدان (ابنُ نَصَّارٍ، وَابْنُ عبد الباقي)، قَالَا: أَخْبَرنا حمد بن أحمد، نا أحمد بن عبد الله الحافظ، ثنا أحمد بن جعفر بن حمدان، ثنا عبد الله بن أحمد، ثني مهنا الشَّامي، ثنا ضمرة، عَنْ سعيد بن شبلٍ، قَالَ: نَظَرَ مالك بن دينارٍ إِلَىٰ شابٌّ مُلَازِمٍ للمَسْجد، فَجَلس إليه. فقَالَ له: هَلْ لكَ أَنْ أُكلِّم بَعْضَ العشَّارين يُجْرُون عَلَيك شيئًا، وتكُونُ مَعَهمْ؟ قَالَ: ما شئتَ يا أبا يَحيىٰ. قَالَ: فأَخذ كفًّا من ترابٍ، فَجَعله عَلَىٰ رأسِهِ.

أخبرنا المُحمَّدان قَالَا: نا حمد، نا أحمد، نا أبو نعيمٍ، ثنا فاروق بن عبد الكبير الخَطَّابِي، ثنا هشام بن عليٍّ السِّيرافي، ثنا فطر بن حَمَّاد بن واقدٍ، ثنا أبِي، ثنا مالك بن دينارٍ، قَالَ: كَانَ فتىً يَتقرَّىٰ، فكَانَ يأتيني، فَابْتُلِيَ، فولِيَ الجسر، فبَيْنما هو يُصلِّي إِذْ مَرَّتْ سفينةٌ فيها بطٌّ، فَنادَىٰ بَعْضُ أعوانِهِ: قَرِّب لنأخُذ للعامل بطةً، فأشَار بيدِهِ: سُبْحَان الله! أي بَطَّتين. قَالَ: فكَانَ أبِي إذا حَدَّثَ بِهَذَا الحديث بَكَىٰ وأَضْحَكَ الجُلَساء.

أخبرنا أبو بكر بن حبيبٍ، نا أبو سعد بن أبِي صادقٍ، أنا ابن باكويه، قَالَ: سَمعتُ مُحمَّد بن خفيفٍ، يَقُول: قلتُ لرُوَيم: أَوْصنِي. فَقَالَ: هو بَذْل الرُّوح، وإلَّا فلا تَشْتغل بتُرَّهات الصُّوفيَّة.

أخبرنا ابن ناصرٍ، نا أبو عبد الله الحميديُّ، نا أبو بكر أحمد بن مُحمَّد الأردستانِي، ثنا عبد الرَّحمن السُّلميُّ، قَالَ: سمعتُ أبِي، يَقُولُ: بَلَغنِي أنَّ رجلًا قَالَ للشِّبلي: قَدْ وَرَد جَمَاعةٌ من أَصْحَابك، وهُمْ فِي الجامع، فمَضَىٰ، فَرَأىٰ عليهم المُرقَّعات والفوط، فأَنْشَأ يَقُولُ:

أمَّا الخيامُ فإنَّها كخِيَامِهِمْ ... وأَرَى نساءَ الحيِّ غَيْرَ نِسَائِهَا

قَالَ المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: قلت: وَاعْلَمْ أنَّ هَذِهِ البَهْرجة فِي تَشْبيه هؤلاء بأُولَئك لا تَخفَىٰ إلَّا عَلَىٰ كلِّ غبيٍّ فِي الغَايَة، فأَمَّا أهْل الفطنة فيَعْلمونَ أنَّه تَنْميسٌ باردٌ، والأَمْرُ فِي ذَلكَ عَلَىٰ نَحْو قَوْل الشَّاعر:

تَشبَّهَتْ حُورُ الظِّبَاء بِهِمْ ... إنْ سَكَنتْ فيك ولا مثلُ سَكَنْ
أَصَامتٌ بناطقٍ ونافرٌ ... بآنسٍ وذُو خَلا بذي شَجَنْ
مُشْتبهٌ أعرفُهُ وإنَّما ... مُغَالطًا قلتُ لصحبِي دارُ مَنْ

قَالَ المصنف: وإنَّما كُرِهَ لُبْسُ الفوط المُرقَّعات لأَرْبَعة أوجهٍ:

أحدها: أنَّه لَيْسَ من لباس السَّلَف، وإنَّما كَانَ السَّلفُ يُرقِّعونَ ضرورةً.

والثانِي: أنَّه يَتضمَّن ادِّعاءَ الفَقْر، وقَدْ أُمِرَ الإنسانُ أنْ يُظْهرَ نِعْمةَ الله عَلَيه.

والثالث: أنَّه إظهارٌ للزُّهد، وقَدْ أُمِرْنَا بستره.

والرابع: أنَّه تَشبُّهٌ بِهؤلاء المُتَزحْزحين عن الشَّريعة، ومَنْ تَشبَّه بقومٍ فهُوَ منهم.

وقد أخبرنا ابن الحصين، نا ابن المذهب، نا أحمد بن جعفرٍ، ثنا عبد الله بن أحمد، ثنِي أبِي، ثنا أبو النَّضر، ثنا عبد الرَّحمن بن ثابت بن ثوبان، ثنا حَسَّان بن عطيَّة، عن أبِي مُنيب الجُرَشي، عن ابْن عُمَر، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: «مَنْ تَشبَّه بقَوْمٍ فهُوَ منهم»[1].

وقد أنبأنا أبو زُرْعة طاهر بن مُحمَّد بن طاهرٍ، قَالَ: أَخْبَرنِي أبِي، قَالَ: لمَّا دخلتُ بغدادَ فِي رحلتِي الثَّانية، قَصَدتُ الشَّيخ أبا مُحمَّد عبد الله بن أحمد السُّكري لأَقْرأَ عَلَيه أحاديثَ - وكَانَ من المُنْكرين عَلَىٰ هَذِهِ الطَّائفة- فأَخَذتُ فِي القِرَاءَة، فَقَالَ: أيُّها الشَّيخ، إنَّك لَوْ كنتَ من هؤلاء الجُهَّال الصُّوفيَّة لعَذَرْتُك، أنتَ رجلٌ من أهْل العلم تَشْتغلُ بحديث

(١) أخرجه أبو داود (٤٠٣١)، وصَحَّحه الألبانِيُّ في «صحيح الجامع» (٦١٤٩).

رسول الله ﷺ، وتَسْعىٰ فِي طلبِهِ، فقلتُ: أيُّها الشَّيخ، وأيُّ شيءٍ أنكرتَ عليَّ حتَّىٰ أنظرَ، فإنْ كَانَ له أصلٌ فِي الشَّريعة لَزِمتُهُ، وإِنْ لَمْ يكن له أصلٌ فِي الشَّريعة تركتُهُ.

فَقَالَ: ما هَذِهِ الشَّوازك الَّتي فِي مرقعتك؟

فقلت: أيُّها الشَّيخ، هَذِهِ أسماءُ بنت أبِي بكرٍ ﵄ تُخْبر أنَّ رسول الله ﷺ كَانَ له جُبَّةٌ مكفوفةُ الجَيْب، والكُمَّين، والفَرْجين بالدِّيباج، وإنَّما وَقَع الإنكارُ؛ لأنَّ هَذِهِ الشوازك لَيْسَتْ من جنس الثَّوْب، والدِّيباج ليس من الجُبَّة، فَاسْتَدْلَلنا بذَلكَ عَلَىٰ أنَّ لِهَذَا أصلًا فِي الشَّرْع يجوزُ مثلُهُ.

قَالَ المصنف: قلت: لقَدْ أَصَاب السُّكريُّ فِي إِنْكَاره، وقلَّ فِقْهُ ابْنُ طاهرٍ فِي الرَّدِّ عليه، فإنَّ الجُبَّةَ المَكْفوفةَ الجَيْب والكُمَّين، قَدْ جرت العادة بلُبْسها كَذَلك، فلا شُهْرةَ فِي لبسها.

فأمَّا الشوازك فتَجْمَع شُهْرةَ الصُّورة، وشُهْرة دَعْوىٰ الزُّهد، وقَدْ أخبرتُكَ أنَّهم يَقْطعون الثِّياب الصِّحاحَ ليَجْعلوهَا شوازك، لَا عَنْ ضَرُورَةٍ، يَقْصدون الشُّهرة لحُسْن ذلك، والشُّهرة بالزُّهد، ولِهَذَا وَقَعت الكراهيةُ، وقَدْ كَرهَهَا جَماعةٌ مِنْ مَشَايخهِمْ كَمَا بَيَّنَّا.

أخبرنا أبو بكر بن حبيب العامريُّ، نا أبو سعيد بن أبِي صادقٍ، ثنا أبو عبد الله بن باكويه، قَالَ: سمعتُ الحُسَين بن أحمد الفارسيَّ يَقُول: سَمعتُ أبا الحُسَين ابن هند يَقُول: سمعتُ جعفرًا الحذَّاء، يَقُول: لمَّا فقد القوم الفوائد من القُلُوب، اشْتَغَلوا بالظَّواهر وتَزْيينها، يَعْني بذلك: أَصْحَاب المصبغات والفُوط.

أخبرنا ابْنُ حبيبٍ، نا ابن صادقٍ، ثنا ابن باكويه، أَخْبَرنا أبو يعقوب الخرَّاط، قَالَ: سمعتُ النُّوريَّ يَقُول: كانت المُرقَّعَات غطاءً عَلَىٰ الدُّرِّ، فَصَارتْ جيفًا عَلَىٰ مزابلَ.

قَالَ ابن باكويه: وأَخْبَرنِي أبو الحَسَن الحنظليُّ، قَالَ: نَظَر مُحمَّد بن مُحمَّد بن عليٍّ الكتَّانِي إِلَىٰ أَصْحَاب المُرقَّعات، فَقَالَ: إخوانِي، إِنْ كَانَ لِباسُكُمْ مُوافقًا لسَرَائركم، لقَدْ

أحببتُمْ أنْ يَطَّلعَ النَّاسُ عَلَيها، وإنْ كانت مُخَالفةً لسَرَائركُمْ، فَقَدْ هَلكتُمْ وربِّ الكعبة.

أخبرنا مُحمَّد بن ناصرٍ، أنبأنا أبو بكر بن خلفٍ، ثنا مُحمَّد بن الحُسَين السُّلَمي، قَالَ: سمعتُ نَصْر بن أبِي نصرٍ يَقُول: قَالَ أبو عبد الله مُحمَّد بن عبد الخالق الدِّينوري لبَعْض أصحابِهِ: لا يُعجبنَّك ما تَرَىٰ من هَذِهِ اللُّبْسة الظَّاهرة عَلَيهم، فَمَا زيَّنُوا الظَّواهرَ إلَّا بعد أنْ خَرَّبُوا البواطنَ.

وقَالَ ابن عقيل: دخلتُ يومًا الحَمَّامَ، فرأيتُ عَلَىٰ بعض أوْتاد السلخ جُبَّةً مشوزكة مرقعةً بفوط. فقُلْتُ للحمامي: أرىٰ سلخ الحيَّة فمَنْ داخل؟ فذكر لي بَعْض مَنْ يَتصوَّف للبلاء حوشًا للأمْوَال.

قَالَ المصنف: وفِي الصُّوفيَّة مَنْ يُرقِّع المرقعةَ حتَّىٰ تصيرَ كثيفةً خارجةً عن الحدِّ.

أخْبرنا أبو منصور القزَّاز، قَالَ: أخبرنا أحمد بن عليِّ بن ثابتٍ، نا القاضي أبو مُحمَّد الحَسَن بن رامين الإستراباذي، نا أبو مُحمَّد عبد الله بن مُحمَّد الشِّيرازي، نا جعفر الخلديُّ، ثنا ابن خَبَّاب أبو الحُسَين صاحب ابن الكريني قَالَ: أوْصَىٰ لي ابن الكريني بمرقعتِهِ، فوزنت فَرْدةَ كُمٍّ من أكْمَامها، فإذا فيها أحَدَ عشر رِطْلًا. قَالَ جعفرٌ: وكَانَت المرقعاتُ تُسمَّىٰ فِي ذَلكَ الوقت: الكيلَ.

فصل [لبس المرقع]

وقَدْ قرَّروا أنَّ هَذِهِ المرقَّعة لا تُلبس إلَّا من يد شيخٍ. وجَعَلوا لَها إسنادًا مُتَّصلًا، كلُّه كذبٌ ومُحَالٌ، وقَدْ ذكر مُحمَّد بن طاهرٍ فِي كتابِهِ، فَقَال: باب السُّنَّة فِي لُبْس الخِرْقَة من يد الشَّيخ، فجَعَل هَذَا من السُّنَّة، واحتجَّ بحديث أُمِّ خالدٍ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ أُتِيَ بِثِيَابٍ فيها خَمِيصَةٌ سَوْداءُ، فَقَالَ: «مَنْ تَرَوْنَ أكْسو هذِهِ؟»، فَسَكت القومُ، فَقَال رسول الله ﷺ: «ائتُونِي بأُمِّ

خالدٍ». قالت: فَأُتِيَ بي، فألْبَسنيها بيدِهِ، وَقَال: «أَبْلي وأَخْلِقِي»[١].

قال المُصنِّف: وإنَّما ألْبَسها رسول الله ﷺ لكَوْنِها صبيَّةً، وكانَ أَبُوها خالد بن سعيد بن العاص، وأُمُّهَا هُمَيْنة بنت خلفٍ، قَدْ هَاجَروا إِلَىٰ أَرْض الحَبشَة، فَوَلدتْ لَهُمَا هناك أُمَّ خالدٍ، وَاسْمُها: أمة، ثُمَّ قَدِمُوا، فأكْرَمها رسول الله ﷺ لصِغَرِ سِنِّها، وكَمَا اتفقَ، فلا يصيرُ هَذَا سُنَّةً، وما كان من عَادَة رسول الله ﷺ إِلْبَاسُ النَّاس، ولا فَعَل هَذَا أحدٌ من أصْحابِهِ، ولَا تَابِعِيهِمْ.

ثُمَّ لَيْسَ من السُّنَّة عند الصُّوفيَّة أنْ يلبس الصَّغير دون الكبير، وَلَا أَنْ تكونَ الخِرْقَةُ سَوْدَاء، بَلْ مُرقَّعةً، أو فوطة، فهلَّا جَعَلوا السُّنَّة لُبْسَ الخِرَقِ السُّود كما جَاءَ فِي حديث أُمِّ خالدٍ. وذَكَر مُحمَّد بن طاهرٍ فِي كتابِهِ، فَقَال: باب السُّنَّة فيما شرط الشَّيخ عَلَىٰ المريد فِي لُبْس المُرقَّعه، واحتجَّ بحديث عُبَادَة: «بَايَعْنا رسول الله ﷺ عَلَىٰ السَّمْع والطَّاعة فِي العُسْر واليُسْر»[٢].

قال المصنف: فَانظُرْ إِلَىٰ هَذَا الفقه الدَّقيق، وأين اشْتِرَاطُ الشَّيخ عَلَىٰ المريد من اشْتِرَاط رسول الله ﷺ الواجب الطَّاعة عَلَىٰ البَيْعة الإسلاميَّة اللَّازمة.

فصل (لبس المصبغات)

وأمَّا لُبْسهم المُصبَّغات، فإنَّها إِنْ كَانَتْ زرقاء، فَقَدْ فَاتَهمْ فضيلةُ البَيَاض، وإِنْ كانت فوطًا، فهُوَ ثوبُ شهرةٍ، وشهرتُهُ أكثر من شُهْرة الأزرق، وإنْ كانت مُرقعةً، فَهِيَ أكْثَر شهرةً، وقَدْ أَمَر الشَّرْعُ بالثِّياب البيض، ونَهَىٰ عن لباس الشُّهْرة.

(١) أخرجه البخاري (٥٨٢٣).

(٢) أخرجه البخاري (٧٠٥٦)، ومسلم (١٧٠٩).

فَأَمَّا أَمرُهُ بالثِّياب البيض، فَأَخْبَرنا هبة الله بن مُحمَّد، نا الحَسَن بن عليٍّ التَّميمي، نا أحمد بن جعفرٍ، ثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، ثنِي أَبِي، ثنا عليُّ بن عاصمٍ، نا عبد الله بن عثمان بن خثيم، عَنْ سعيد بن جبيرٍ، عن ابْن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: «الْبَسوا من ثِيابكُم البيضَ، فإنَّها من خَيْر ثِيابِكُمْ، وكَفِّنُوا فيها مَوْتاكُمْ»(١).

قال عبد الله، وحَدَّثنِي أَبِي، ثنا يَحيَىٰ بن سعيدٍ، عن سُفْيان، ثنِي حبيب بن أَبِي ثابتٍ، عَنْ ميمون بن أَبِي شبيبٍ، عَنْ سُمَرة بن جُندبٍ، عن النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «الْبسوا الثِّيابَ البيضَ، فَإِنَّها أَطْهرُ وأطيبُ، وكَفِّنوا فيها مَوْتاكُمْ»(٢).

قال الترمذيُّ: هَذَان حَديثَانِ صَحِيحَانِ، وفِي الباب عن ابْن عُمَر.

قَالَ: وهَذَا الَّذي يستحبُّهُ أَهْلُ العلم. وقَالَ أحمد بن حنبلٍ، وإسحاق: أحبُّ الثِّياب إلينا أَنْ نُكفَّنَ فيها: البياضُ.

وقَدْ ذَكَر مُحمَّد بن طاهرٍ فِي كتابِهِ، فَقَال: باب السُّنَّة فِي لبسهم المُصبغات، وَاحتجَّ بأَنَّ النَّبِيَّ -صَلَواتُ الله عليه وسلامُهُ- لبسَ حُلَّةً حمراءَ(٣). وأنَّه دَخَل يَوْمَ الفتح، وعَلَيه عمامةٌ سَوْداء(٤).

قالَ المُصنِّف: قلت: وَلَا ينكر أَنَّ رسول الله ﷺ لبسَ هَذَا، وَلَا أَنَّ لبسَهُ غير جائزٍ، وقَدْ رُوِيَ أَنَّه كان يُعْجبه الحبرة(٥)، وإنَّما المسنونُ الَّذي يأمُرُ به، ويُدَاوم عليه، وقَدْ كانوا يَلْبسونَ الأسودَ والأحمرَ، فأمَّا الفُوطُ، والمُرقَّعُ، فإنَّه لبسُ شُهْرةٍ.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٨٧٨)، والترمذي (٩٩٤)، وابن ماجه (١٤٧٢)، وصَحَّحه الألبانيُّ فِي «صحيح الجامع» (١٢٣٦).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٨١٠)، وابن ماجه (٣٥٦٧)، وصَحَّحه الألبانيُّ فِي «صحيح الجامع» (١٢٣٥).

(٣) أخرجه البخاري (٥٨٤٨)، ومسلم (٢٣٣٧) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٤) أخرجه مسلم (١٣٥٨) من حديث جابر رضي الله عنه.

(٥) أخرجه البخاري (٥٨١٣)، ومسلم (٢٠٧٩) من حديث أنسٍ رضي الله عنه.

فصل (النهي عن لباس الشهرة)

وأمَّا النَّهْيُ عن لباس الشُّهرة وكراهتِهِ.

فأخبرنا أبو منصور بن خيرون، أنبأنا أبو بكرٍ الخطيب، نا ابن رزقويه، ثنا جَعْفرُ بن مُحمَّد الخلديُّ، ثنا مُحمَّد بن عبد الله أبو جعفر الحضرميُّ، ثنا روح بن عبد المؤمن، ثنا وكيع بن مُحْرز النَّاجي، ثنا عثمان بن جهم، عن زرِّ بن حُبَيْشٍ، عن أبِي ذرٍّ، عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قَالَ: «مَنْ لبس ثوبَ شُهْرةٍ، أَعْرضَ الله عنه حتَّىٰ يَضَعه»[1].

أخبرنا عبد الحقِّ بن عبد الخالق، قَالَ: أنبأنا المُبَارك بن عبد الجَبَّار، نا أبو الفَرَج الحُسَين بن عليٍّ الطَّناجيري (ح)، وأنبأنا هبة الله بن مُحمَّد، أنبأنا الحَسَن بن عليٍّ التَّميمي، قَالَا: أَخْبَرنا أبو حفص بن شاهين، ثنا خيثمة بن سُلَيمان بن حيدرة، ثنا مُحمَّد بن الهيثم، ثنا أحمد بن أبِي شُعَيب الحرَّانِي، ثنا مَخْلدُ بن يزيد، عن أبِي نُعَيم، عن عبد الرَّحمن بن حرملةَ، عَنْ سعيد بن المُسيَّب، عن أبِي هُرَيرة، وزيد بن ثابتٍ رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ: «أنَّه نَهىٰ عن الشُّهْرتين. فَقِيلَ: يا رَسُولَ الله، وما الشُّهْرتان؟ قال: «رِقَّةُ الثِّياب، وَغِلَظُها، وَلِينُها، وخُشُونتها، وطُولُها، وقِصَرُها، ولكِنْ سدادٌ بَيْنَ ذَلكَ وَاقْتِصَادٌ»[2].

أخبرنا مُحمَّد بن ناصر، نا مُحمَّد بن عليٍّ بن ميمون، نا عَبْد الوَهَّاب بن مُحمَّد الغُندجانِي، نا أبو بكر بن عبدان، ثنا مُحمَّد بن سهلٍ، ثنا مُحمَّد بن إسماعيل البخاريُّ، قال: قَالَ مُوسَىٰ بن حمَّاد بن سلمة، عَنْ ليث، عن مهاجر، عن ابْن عُمَر، قال: «مَنْ لبسَ ثوبًا مَشْهورًا، أذلَّهُ الله يَوْمَ القيامة»[3].

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٦٠٨)، وضَعَّفه الألبانيُّ فِي «ضعيف الجامع» (٥٨٢٨).

(٢) أخرجه البيهقي فِي «شعب الإيمان» (٦٢٣١)، وقال الألبانِيُّ فِي «ضعيف الجامع» (٦٠٤٤): موضوع.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٠٢٩)، وابن ماجه (٣٦٠٦)، وحَسَّنه الألبانِيُّ فِي «صحيح الجامع» (٦٥٢٦).

قال المصنف: وقَدْ رُوِيَ لنا مَرْفوعًا قال: أَخْبرنا ابنُ الحُصَين، نا ابْن المذهب، نا أحمد بن جعفرٍ، ثنا عبد الله بن أَحْمَد، ثني أَبِي، ثنا حَجَّاج، ثنا شريك، عَنْ عثمان بن أَبِي زُرْعة، عن مهاجرِ الشَّاميّ، عن ابن عمرَ، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: «مَنْ لبسَ ثيابَ شُهْرةٍ، أَلْبَسه الله ثوبَ المذلَّة يوم القيامة»[1].

أخبرنا مُحمَّد بن ناصرٍ، نا المُبَارك بن عبد الجبَّار، وعَبْد القادر بن مُحمَّد بن يُوسُف، قَالَا: أَخْبَرنا أبو إسحاق البرمكي، نا أبو بكر بن بخيت، ثنا أبو جعفر بن ذريح، ثنا هنَّاد، ثنا أبو مُعَاوية، عن ليثٍ، عَنْ مُهَاجر أَبِي الحَسَن، عن ابْن عُمَر رضي الله عنهما قَالَ: «مَنْ لبسَ شُهْرةً من الثِّياب، أَلْبَسَه اللهُ ثوبَ ذِلَّةٍ».

وعن ليثٍ، عن شَهْرٍ، عن أَبِي الدَّرداء رضي الله عنه، قَالَ: مَنْ ركبَ مَشْهورًا من الدَّوابِّ، أَعْرَضَ الله عنه ما دَامَ عَلَيه، وإِنْ كان كريمًا.

قال المصنف: وقَدْ رُوِّينا أنَّ ابْنَ عمر رضي الله عنهما رأىٰ عَلَىٰ ولدِهِ ثوبًا قبيحًا دونًا، فَقَال: لا تَلْبس هَذَا، فإنَّ هَذَا ثوبُ شُهْرةٍ.

أخبرنا إِسْمَاعيل بن أَحْمَد، نا إسماعيل بن مَسْعدة، ثنا حمزة بن يُوسُف، نا أبو أحمد بن عديٍّ، ثنا أحمد بن مُحمَّد بن الهيثم الدُّوريُّ، ثنا مُحمَّد بن عليٍّ بن الحَسَن بن شقيقٍ، قَالَ: حَدَّثنا مُحمَّد بن مزاحم، ثنا بكير بن مَعْروفٍ، عن مُقَاتل بن حيَّان، عن ابْن بُرَيدة، عَنْ أبيه بُريدة، قال: شَهِدْتُ مَعَ رسول الله ﷺ فتحَ خَيْبر، وكنتُ فيمَنْ صَعد الثُّلمةَ، فَقَاتلتُ حتَّىٰ رُؤِيَ مَكَانِي، وأَبْلَيتُ وعليَّ ثوبٌ أَحْمر، فَمَا علمتُ أنِّي رَكبتُ فِي الإِسْلَام ذنبًا أعظم منه للشُّهْرة.

وقال سُفْيان الثَّوريُّ: كانوا يَكْرهُونَ الشُّهْرتين: الثِّياب الجِيَاد الَّتي يشتهر بِها، ويَرْفع

(١) أخرجه أبو داود (٤٠٢٩)، وابن ماجه (٣٦٠٦)، وحَسَّنه الألبانيُّ فِي «صحيح الجامع» (٦٥٢٦).

النَّاسُ إليه فيها أَبْصارَهُمْ، والثِّيابُ الرَّديئة الَّتي يُحْتَقر فيها، ويُسْتَبذل.

وقال معمرٌ: عَتبتُ أيُّوب عَلَىٰ طول قميصِهِ، فَقَال: إنَّ الشُّهْرَةَ فيما مَضَىٰ كَانَتْ فِي طولِهِ، وَهِيَ اليوم فِي تَشْميره.

فصل [حكم لبس الصوف]

قال المصنف: ومِنَ الصُّوفيَّة مَنْ يَلْبسُ الصُّوف، ويحتجُّ بأنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَبِسَ الصُّوفَ، وبِمَا رُوِيَ فِي فضيلة لُبْس الصُّوف.

فأمَّا لُبْسُ رسول الله ﷺ الصُّوفَ، فَقَدْ كان يلبسُهُ فِي بَعْض الأَوْقَات، لَمْ يكن لبسُهُ شُهرةً عند العَرَب.

وأمَّا ما يُرْوىٰ فِي فَضْل لُبْسِهِ، فمن المَوْضوعات الَّتي لا يثبُتُ منها شيءٌ، ولا يَخْلو لابسُ الصُّوف من أَحَد أمْرين:

- إمَّا أنْ يكونَ مُتعوِّدًا لُبْسَ الصُّوف، وما يُجَانسه من غَليظ الثِّياب، فَلَا يُكْره ذلكَ له؛ لأنَّه لا يَشْتهر بِهِ.

- وإمَّا أنْ يكونَ مُتْرفًا لَمْ يَتعوَّده، فَلَا يَنْبغي له لبسُهُ من وَجْهين:

أحدهما: أنَّه يحمل بذَلكَ عَلَىٰ نَفْسه ما لا تطيقُ، وَلَا يَجُوزُ له ذلكَ.

والثاني: أنَّه يجمع بلُبْسِهِ بَيْنَ الشُّهْرة، وإظْهَار الزُّهد.

وقد أخبرنا أحمد بن منصورٍ الهمذانِي، نا أبو عليٍّ أحمد بن سعد بن علي العجلي، نا أبو ثابتٍ هجير بن منصور بن عليٍّ الصُّوفي إجازةً، ثنا أبو مُحمَّد جعفر بن مُحمَّد بن الحُسَين بن إسماعيل الأبهري، ثنا ابن روزبة، ثنا مُحمَّد بن إسماعيل بن مُحمَّد الطَّائي، ثنا بكر بن سهل الدِّمياطي، ثنا مُحمَّد بن عبد الله بن سليمان، ثنا داود، ثنا عبَّاد بن العوَّام، عن

عباد بن كثير، عن أنسٍ، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: «مَنْ لبسَ الصُّوف ليَعْرفه النَّاسُ، كان حقًّا عَلَىٰ الله عَزَّوَجَلَّ أَنْ يَكْسُوَه ثوبًا من جَرَبٍ حتَّىٰ تَتَساقطَ عروقُهُ»(١).

أنبأنا زَاهرُ بن طَاهرٍ، قَالَ: أنبأنا أبو عُثْمان الصَّابونيُّ، وأبو بكرٍ البيهقيُّ، قالا: أَخْبَرنا أبو عبد الله مُحمَّد بن عبد الله الحاكم، ثنا أبو إسحاق إبراهيم بن مُحمَّد بن يحيىٰ، ثنا العبَّاس بن منصورٍ، ثنا سَهْل بن عمَّار، ثنا نوح بن عبد الرَّحمن الصَّيرفيُّ، ثنا مُحمَّد بن عُبَيد الهَمَذانِي، ثني عبَّاد بن منصورٍ، عَنْ عكرمةَ، عن ابْن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: «إنَّ الأرضَ لَتعُجُّ إِلَىٰ ربِّها من الَّذين يَلْبسُون الصُّوفَ رياءً»(٢).

أخبرنا مُحمَّد بن ناصرٍ، نا جعفر بن أحمد، نا الحَسَنُ بن عليٍّ التَّميمي، ثنا أحمد بن جعفرٍ، ثنا عبد الله بن أحمد، ثنِي أبِي، ثنا عبد الصَّمد، ثنا خالد بن شوذب، قَالَ: شهدتُ الحسنَ، وأتاه فرقد، فأَخَذ الحسنُ بكسائِهِ، فمَدَّه إليه، وقَالَ: يا فُرَيقدُ، يابْنَ أُمِّ فُرَيقد، إنَّ البرَّ ليسَ فِي هَذَا الكِسَاءِ، وإنَّما البرُّ ما وَقَر فِي الصَّدْر، وصَدَّقَهُ العملُ.

أنبأنا مُحمَّد بن عبد الباقي، نا أبو مُحمَّد الجوهريُّ، نا أبو عُمَر بن حَيُّويه، نا أحمد بن مَعْروفٍ، ثنا الحُسَين بن الفهم، ثنا مُحمَّد بن سعدٍ، قَالَ: حَدَّثنا عمرو بن عاصمٍ، ثنا يزيد بن عوانة، ثني أبو شدَّاد المجاشعيُّ، قَالَ: سمعتُ الحسنَ -وذُكِرَ عنده الَّذين يَلْبسون الصُّوف- فَقَال: ما لَهم تَعَاقدوا ثلاثًا: أكنُّوا الكِبْرَ فِي قُلُوبِهم، وأَظْهَروا التَّواضعَ فِي لِبَاسِهِمْ، واللهِ، لأَحَدُهمْ أشدُّ عجبًا بكسائِهِ من صاحب المطرف بمطرفِهِ.

أنبأنا ابن الحُصَين، أنبأنا أبو عليٍّ التَّميميُّ، نا أبو حفص بن شاهين، ثنا مُحمَّد بن سعيد

---

(١) ذَكَره الشوكاني فِي «الفوائد المجموعة فِي الأحاديث الموضوعة» (١١٧٣)، وعزاه للديلمي، وانظر «كشف الخفاء» للعجلوني (٢٥٥٩).

(٢) ذَكَره السيوطي فِي «الجامع الصغير» (٣٣٣٣)، وعَزَاه للديلمي فِي «مسند الفردوس»، وقال الألبانيُّ فِي «ضعيف الجامع» (١٤٠٩): موضوع.

ابن يَحيىٰ البزوريُّ، ثنا عَبْدُ الله بن أيُّوب المخرمي، قَالَ: حدَّثنا عبد المجيد (يَعْنِي: ابن أبي روَّاد)، عن ابْن طهمان (يَعْنِي: إبراهيم)، عَنْ أَبِي مالكٍ الكوفيِّ، عن الحسن، أنَّه جَاءَه رجلٌ مِمَّنْ يَلْبس الصُّوفَ، وعَلَيه جُبَّةُ صوفٍ، وعمامةُ صُوفٍ، ورداءُ صوفٍ، فجَلَس فَوَضع بَصَره فِي الأَرْض، فَجَعل لا يَرْفع رأسَهُ، وكأنَّ الحسنَ خَالَ فيه العُجْبَ، فقَالَ الحسنُ: إنَّ قَوْمًا جَعَلوا كِبْرهُمْ فِي صُدُورهمْ، شَنَّعُوا -والله- دِينَهُمْ بِهَذَا الصُّوف، ثُمَّ قَالَ: إنَّ رسول الله ﷺ كان يَتعوَّذ من زيِّ المُنَافقينَ. قَالُوا: يَا أَبَا سعيدٍ، وما زيُّ المُنَافقين؟ قَالَ: خُشُوعُ اللِّباس بغَيْر خُشُوع القلب.

قَالَ ابن عقيل: هَذَا كَلَامُ رجلٍ قَدْ عَرَف النَّاسَ، ولَمْ يغرَّه اللِّباسُ، ولقَدْ رأيتُ الواحدَ من هَؤُلَاء يَلْبس الجُبَّة الصُّوفَ، فإِذَا قَالَ لَهُ القائلُ: يا أَبَا فُلَانٍ، ظَهَر منه ومن أوباشِهِ الإنكارُ، فعلم أنَّ الصُّوفَ قَدْ عمل عند هُؤلَاء ما لا يعملُهُ الدِّيباج عند الأَوْبَاش.

أخبرنا مُحمَّد بن عَبْد الباقي بن أحمد، نا حمد بن أَحْمَد الحدَّاد، نا أبو نُعَيم الحافظ، ثنا أبو حامد بن جبلة، ثنا مُحمَّد بن إسحاق، ثنا إسماعيل بن أَبِي الحارث، ثنا هَارُون بن مَعْروفٍ، عن ضمرةَ، قَالَ: سمعتُ رجلًا يَقُول: قَدِمَ حمَّاد بن أَبِي سُلَيمان البصرةَ، فَجَاءه فرقد السبخيُّ، وعَلَيه ثوبُ صوف، فَقَالَ له حَمَّادٌ: ضَعْ عنك نَصْرانيَّتك هذِهِ، فلَقَدْ رأيتنا ننتظر إبْرَاهيم (يعنِي: النَّخعي)، فيَخْرج عَلَينا وعَلَيه معصفرةٌ.

أخبرنا مُحمَّد بن القاسم، نا حمد بن أحمد، نا أبو نُعَيم الحافظ، ثنا عَبْد الله بن مُحمَّد، ثنا إبراهيم بن شريكٍ الأسديُّ، ثنا شهاب بن عَبَّاد، ثنا حَمَّاد، عن خالد الحذَّاء، أَنَّ أبا قلابة قَالَ: إيَّاكم وأَصْحَاب الأكسية.

أخبرنا مُحمَّد بن ناصر، وعُمَر بن ظفر، قَالَا: نا مُحمَّد بن الحَسَن الباقلانِيُّ، نا القاضي أبو العلاء الواسطيُّ، ثنا أبو نصر أحمد بن مُحمَّد النيازكي، نا أبو الحُسَين أحمد بن مُحمَّد البزَّار، ثنا مُحمَّد بن إسماعيل البخاريُّ، ثنا عليُّ بن حجرٍ، ثنا صالح بن عُمَر الواسطيُّ، عن

أبِي خالدٍ قَالَ: جاء عَبْد الكريم أبو أُميَّة إِلَىٰ أبِي العالية، وعَلَيه ثيابُ صوفٍ. فَقَالَ له أبو العالية: إنَّما هَذِهِ ثيابُ الرُّهْبان، وَكَان المُسْلمونَ إذا تَزاوَرُوا تَجمَّلوا.

أخبرنا مُحمَّد بن أبِي القاسم، نا حَمَد بن أحمد بن عبد الله الأصبهانِيُّ، نا أبو نُعَيم، ثنا أبو مُحمَّد بن حيَّان، ثنا أَحْمَد بن الحُسَين الحذَّاء، ثنا أحمد بن إبراهيم الدَّورقيُّ، ثنا الفيض ابن إسحاق، قَالَ: سمعتُ الفضيلَ يَقُول: تَزيَّنتَ لَهم بالصُّوف، فلَمْ تَرَهمْ يَرْفعون بك رأسًا، تَزيَّنتَ لَهم بالقرآن، فلَمْ تَرهُمْ يَرْفعون بك رأسًا، تَزيَّنتَ لَهُمْ بشيءٍ بعد شيءٍ، كلُّ ذلك إنَّما هو لحبِّ الدُّنيا.

أنبأنا ابن الحُصَين قَالَ: نا أبو علي بن المذهب، قَالَ: أَخْبَرنا أبو حفص بن شاهين، قَالَ: ثَنا إِسْمَاعيل بن عليٍّ، قَالَ: ثنا الحَسَن بن علي بن شبيب، قَالَ: ثنا أحمد بن الحواري، قَالَ: قَالَ أبو سُلَيمان: يَلْبسُ أحدُهُم عباءةً بثَلَاثة دَرَاهم ونصف، وشَهْوتُهُ فِي قلبه بخَمْسة دراهم، أمَا يَسْتحيي أنْ يُجَاوزَ شَهْوته لباسه، ولَوْ سَتَر زُهْده بثَوْبين أبيضين من أَبْصَار النَّاس كان أَسْلمَ له.

قَالَ أحمد بن أبِي الحواري قَالَ لي سُلَيمان بن أبِي سُلَيمان، وَكَان يعدل بأبيه: أيُّ شيءٍ أَرَادوا بلباس الصُّوف؟ قلت: التَّواضع. قَالَ: لا يَتكبَّر أَحَدهُمْ إلَّا إذا لبس الصُّوفَ.

أخبرنا المُبَارك بن أحمد الأنصاريُّ، نا عبد الله بن أحمد السَّمرقنديُّ، ثنا أبو بكرٍ الخطيب، نا الحَسَن بن الحُسَين النعاليُّ، نا أبو سعيد أحمد بن مُحمَّد بن رميح، ثنا روح بن عبد المجيد، ثنا أَحْمَد بن عُمَر بن يُونُس، قَالَ: أَبْصَر الثَّوريُّ رجلًا صوفيًّا، فَقَالَ له الثَّوريُّ: هَذَا بدعةٌ.

أخبرنا مُحمَّد بن عبد الباقي، نا حمد بن أحمد، نا أبو نُعَيم الحافظ، ثنا عبد المنعم بن عُمَر، ثنا أحمد بن مُحمَّد بن زيادٍ، قَالَ: سمعتُ أبا داود، يَقُول: قَالَ سفيان الثَّوريُّ لرجلٍ

عَلَيه صوفٌ: لباسُك هَذَا بدعةٌ.

أنبأنا زاهرُ بن طاهرٍ، أنبأنا أبو بكر أحمد بن الحُسَين البيهقيُّ، نا أبو عبد الله مُحمَّد بن عبد الله الحاكم، قَالَ: أَخبَرني مُحمَّد بن عُمَر، ثنا مُحمَّد بن المنذر، قَالَ: سمعتُ أحمد بن شدَّاد يَقُول: سمعتُ الحسنَ بن الرَّبيع يَقُولُ: سمعتُ عبد الله بن المُبَارك يَقُول لرجلٍ رأىٰ عَلَيه صوفًا مَشهورًا: أَكْرَه هَذَا، أَكْرَه هذا.

أخبرنا أبو بكر بن حبيبٍ، نا أبو سعد بن أَبِي صادقٍ، نا ابن باكويه، نا عبد الواحد بن بكر، ثنا عليُّ بن أَبِي عثمان بن زهيرٍ، ثنا عثمان بن أحمد، ثنا الحَسَن بن عمرٍو، قَالَ: سمعتُ بشر بن الحارث يَقُول: دخلَ عليٌّ الموصليُّ عَلَىٰ المُعَافىٰ وَعَليه جُبَّةُ صوفٍ، فَقَالَ له: ما هَذِهِ الشُّهرة يا أبا الحَسَن؟ فقَالَ: يا أَبَا مسعودٍ، أَخرجُ أنا وأنتَ، فَانظر أيُّنا أَشْهَرُ.

فَقَالَ له المعافىٰ: ليس شُهْرة البدن كشُهْرة اللِّباس.

أخبرنا إسماعيل بن أَبِي بكر المقرئ، نا طاهر بن أحمد، نا عليُّ بن مُحمَّد بن بشران، نا عثمان بن أحمد الدَّقَّاق، ثنا الحَسَنُ بن عمرٍو، قَالَ: سمعتُ بشر بن الحارث، يَقُولُ: دَخَل بُدَيل عَلَىٰ أيُّوب السَّختيانِيّ وقَدْ مدَّ عَلَىٰ فراشِهِ سَبنيَّة حمراءَ تَدْفع التُّرابَ، فقَالَ بُدَيلٌ: ما هَذَا؟ فقَالَ أيُّوب: هَذَا خيرٌ من الصُّوف الَّذي عَلَيك.

أخبرنا أبو بكر بن حبيب، نا أبو سعد بن أَبِي صادقٍ، قَالَ: أَخْبَرنا أبو عبد الله بن باكويه، ثنا علان بن أحمد، ثنا حبيب بن الحَسَن، ثنا الفضلُ بن أَحْمَد، ثنا مُحمَّد بن يَسَارٍ، قَالَ: سمعتُ بشرَ بن الحارث، وسئل عَنْ لبس الصُّوف، فَشَقَّ عليه، وَتَبيَّن الكَرَاهةَ فِي وَجْهه، ثُمَّ قَالَ: لُبْسُ الخزِّ والمُعَصفر أحبُّ إليّ من لُبْس الصُّوف فِي الأَمْصَار.

أخبرنا يَحيَىٰ بن ثابت بن بُنْدار، قَالَ: أَخبرنا أَبِي، نا الحُسَين بن عليٍّ الطَّناجيري، نا أحمد بن منصور النُّوشري، ثنا مُحمَّد بن مخلدٍ، ثنا أحمد بن منصور، ثنِي يزيد السَّقا رفيق

مُحمَّد بن إدريس الأنباريّ، قَالَ: رأيتُ فتىً عليه مُسُوحٌ، قَالَ: فقلتُ له: مَنْ لبس هَذَا من العُلَماء؟ مَنْ فَعَل هَذَا من العُلَماء؟ قَالَ: قَدْ رآنِي بشرُ بن الحارث فلَمْ ينكر عليَّ.

قَالَ يزيد: فَذَهبتُ إلَىٰ بشرٍ، فقلتُ له: يا أبا نصرٍ، رأيتُ فلانًا عليه جُبَّة مُسُوح، فأنكرتُ عَلَيه، فقَالَ: قَدْ رآنِي أبو نصرٍ فلَمْ يُنكر عليَّ. قَالَ: فقَالَ لي بشرٌ: لَمْ يَسْتشرنِي يا أبا خالدٍ، لو قُلْتُ له، لقَالَ لِي: لبسُ فلانٍ، ولبسُ فلانٍ.

أخبرنا أَحْمَد بن منصور الهمذانِيُّ، نا أبو عليٍّ أحمد بن سعد بن عليٍّ العجليُّ، نا أبو ثابت هجير بن منصور بن علي الصُّوفيُّ إجازةً، نا أبو مُحمَّد جعفر بن مُحمَّد بن الحُسَين بن إسماعيل الصُّوفيُّ، ثنا ابن روزبه، ثنا عبد الله بن أحمد بن نصر القنطريُّ، ثنا إبراهيم بن مُحمَّد الإمام، ثنا هشام بن خالدٍ، قَالَ: سَمعتُ أبا سُلَيمان الدَّارانِيَّ يَقُولُ لرجلٍ لَبِسَ الصُّوفَ: إنَّك قَدْ أظهرتَ آلةَ الزَّاهدين، فماذا أَوْرَثك هَذَا الصُّوف؟ فسَكَت الرَّجل، فَقَالَ له: يكونُ ظَاهِرُكَ قطنيًّا، وباطنُكَ صوفيًّا.

أخبرنا يَحيَىٰ بن عليٍّ المدبر، نا أبو بكر مُحمَّد بن علي الخيَّاط، نا الحَسَن بن الحُسَين بن حمكان، سمعتُ أبا مُحمَّد الحَسَن بن عثمان بن عبدويه البزاز، يَقُول: سمعتُ أبا بكر بن الزَّيَّات البغداديَّ، يَقُول: سَمعتُ بن سيرويه يَقُول: دَخَل أبو مُحمَّد بن أخي معروف الكرخي عَلَىٰ أبِي الحَسَن بن بشار، وعَلَيه جُبَّة صوفٍ. فقَالَ له أبو الحَسَن: يا أبا مُحمَّد، صوَّفت قلبك أَوْ جِسْمَك، صَوِّف قَلْبك، وألبس القوهي عَلَىٰ القوهي.

أخبرنا عبد الوَهَّاب بن المُبَارك الحافظ، نا جعفر بن أَحْمَد بن السَّراج، نا عَبْد العزيز بن حَسَن الضَّراب، قَالَ: حَدَّثنا أبِي، ثنا أحمد بن مروان، ثنا أبو بكر بن أبِي الدُّنيا، ثنا أحمد بن سعيدٍ، قَالَ: سمعتُ النَّضر بن شُمَيل يَقُول: قلتُ لبَعْض الصُّوفيَّة: تبيع جُبَّتك الصُّوف؟ فَقَالَ: إذا بَاعَ الصَّيادُ شبكتَهُ بأيِّ شيءٍ يَصْطاد.

قَالَ أبو جعفر بن جرير الطَّبريُّ: ولقَدْ أخطأ مَنْ آثرَ لباسَ الشَّعر والصُّوف عَلَىٰ لباس القُطْن والكتَّان، مَعَ وُجُود السَّبيل إليه من حِلِّه، ومن أكْل البُقُول والعَدَس، واخْتَاره عَلَىٰ خُبْز البرِّ، ومَنْ تَرَك أكْل اللَّحم خوفًا من عارض شَهْوة النِّساء.

فصل [لباس السلف]

قَالَ المصنف: وقَدْ كَانَ السَّلفُ يَلْبسون الثِّياب المُتوسِّطة، لا المُرْتفعة، ولا الدُّون، ويَتخيَّرون أَجْوَدها للجُمُعة والعيدين، ولقاء الإخْوَان، ولَمْ يكنْ غَيْر الأَجْوَد عندهم قبيحًا.

وقد أخرج مسلمٌ فِي «صحيحه» من حديث عُمَر بن الخطَّاب ﷺ، أنَّه رأىٰ حُلَّةً سيراء تُبَاعُ عند باب المَسْجد، فَقَالَ لرسول الله ﷺ: لو اشْتَريتها ليوم الجُمُعة، وللوُفُود إذا قَدِمُوا عليك. فَقَالَ رسول الله ﷺ: «إنَّما يَلْبسُ هَذِهِ مَنْ لا خَلَاقَ له فِي الآخِرَةِ»[1]، فَمَا أَنْكر عليه ذِكْر التَّجمُّل بِها، وإنَّما أَنْكر عَلَيه لكَوْنِها حريرًا.

قَالَ المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: وقَدْ ذَكَرنا عن أبِي العالية أنَّه قَالَ: كَانَ المُسْلمونَ إذا تَزَاوَرُوا تَجمَّلوا.

أخبرنا أبو بكر بن عبد الباقي، أنبأنا الحَسَنُ بن عليٍّ الجوهريُّ، نا أبو عُمَر بن حيويه، نا أحمد بن معروفٍ، نا الحُسَين بن الفهم، ثنا مُحمَّد بن سعدٍ، نا إسماعيل بن إبراهيم الأسدي، عن ابْن عونٍ، عن مُحمَّد قَالَ: كانَ المُهَاجرون والأنْصَار يَلْبسونَ لباسًا مُرْتفعًا، وقَد اشْتَرىٰ تميمٌ الدَّاريُّ حُلَّةً بألفٍ، ولكنَّه كان يُصلِّي بِها.

قَالَ ابن سعدٍ: وأخبَرنا عفَّان، ثنا حَمَّاد بن زيدٍ، ثنا أيُّوب، عن مُحمَّد بن سيرين، أنَّ تَميمًا الدَّاريَّ اشترىٰ حُلَّةً بألفِ درهمٍ، وكَانَ يَقُوم فيها باللَّيل إلَىٰ صلاتِهِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٨٨٦)، ومسلم (٢٠٦٨).

قَالَ: وحدَّثنا عفَّان، قَالَ: حدَّثنا حمَّاد بن سلمة، عن ثابتٍ، أنَّ تميمًا الدَّاريَّ كانت له حُلَّةٌ قد ابْتاعَها بألفٍ كان يَلْبسُها اللَّيلة الَّتي تُرْجىٰ فيها ليلةُ القَدْر، وأخبرنا الفضلُ بن دكين، ثنا هَمَّامٌ عن قتادة، أنَّ ابْنَ سيرين أَخْبَره أنَّ تَميمًا الدَّاريَّ اشْتَرىٰ رداءً بألفٍ، فكَان يُصلِّي بأصحابِهِ فيه.

قَالَ المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ قلت: وقَدْ كان ابْنُ مسعودٍ من أَجْود النَّاس ثوبًا، وأطْيَبهم ريحًا، وكَانَ الحسنُ البصريُّ يَلْبسُ الثِّيابَ الجيادَ.

قَالَ كلثوم بن جوشن: خَرَج الحسنُ وعَلَيه جُبَّةٌ يمنيَّةٌ، ورداءٌ يمنيٌّ، فَنظَر إليه فرقدٌ، فَقَالَ: يا أستاذ، لا يَنْبغي لمثلك أنْ يكونَ هَكَذا. فقَالَ الحسنُ: يابْنَ أُمِّ فرقدٍ، أَمَا علمتَ أنَّ أكثرَ أَصْحَاب النَّار أصحابُ الأَكْسية، وَكَان مالكُ بن أنسٍ يَلْبسُ الثِّيابَ العدنيَّة الجيادَ.

وَكَان ثوبُ أحمد بن حنبلٍ يُشْترىٰ بنَحْو الدِّينار، وقَدْ كانوا يُؤْثِرُونَ البذاذة إِلَىٰ حدٍّ، وربَّما لبسوا خِلْقَانَ الثِّياب فِي بُيُوتِهِمْ، فإذا خَرَجوا تَجمَّلُوا، وَلَبسوا ما لا يَشْتهرون به مِنَ الدُّون، ولا من الأَعْلَىٰ.

أخبرنا أَحْمَد بن منصور الهمذانِيُّ، نا أبو عليٍّ أحمد بن سعد بن عليٍّ العجليُّ، ثنا أبو ثابتٍ هجير بن منصور بن عليٍّ الصُّوفيُّ إجازةً، نا أبو مُحمَّد جعفر بن مُحمَّد الحُسَين الصُّوفيُّ، ثنا ابن روزبة، ثنا أبو سُلَيمان مُحمَّد بن الحُسَين بن علي بن إبراهيم الحرَّانِيُّ، ثنا مُحمَّد بن الحَسَن بن قتيبة، ثنا مُحمَّد بن خَلَف، ثنا عيسىٰ بن حازمٍ، قَالَ: كانَ لباسُ إبراهيم بن أَدْهَم كتانًا قطنًا فروةً، لَمْ أرَ عليه ثيابَ صوفٍ، ولا ثيابَ شُهْرةٍ.

أخبرنا مُحمَّد بن أَبِي القاسم، نا حمد بن أحمد، نا أبو نُعَيم أحمد بن عبد الله، قَالَ: سَمعتُ مُحمَّد بن إبراهيم، يَقُول: سَمعتُ مُحمَّد بن ريان يَقُول: رأىٰ عليَّ ذو النُّون خُفًّا أحمرَ، فَقَالَ: انْزِعْ هَذَا يا بُنيَّ، فإنَّه شُهْرةٌ، ما لَبِسَهُ رسول الله ﷺ، إنَّما لبسَ النَّبيُّ ﷺ خُفَّين

أَسْوَدين سَاذَجين.

أَخْبَرنا مُحمَّد بن ناصر، نا مُحمَّد بن عليّ بن مَيْمون، ثنا عبد الكريم بن مُحمَّد المحامليّ، نا عليّ بن عُمَر الدَّارقطنيّ، نا أبو الحَسَن أَحْمَد بن مُحمَّد بن سالم، نا أبو سعيد عبد الله بن شبيب المدنيّ، ثني الزُّبير عن أبي غزية الأنصاريّ، عن فليح بن سليمان، عن الرَّبيع بن يُونُس، قَالَ: قال أبو جعفرٍ المَنْصور: العُرْيُ الفادحُ خيرٌ من الزِّيِّ الفاضح.

فصل (لباس الشكوى)

قَالَ المُصنِّف: وَاعْلَمْ أنَّ اللِّبَاسَ الَّذي يُزْري بصاحبِهِ يَتضمَّنُ إظهارَ الزُّهْد، وإظهارَ الفَقْر، وكأنَّه لسانُ شكوىٰ من الله عَزَّوَجَلَّ، وَيُوجبُ احتقارَ اللَّابس، وكلُّ ذلكَ مَكْروهٌ، ومنهيٌّ عنه.

أخبرنا مُحمَّد بن ناصرٍ، نا عليُّ بن الحُسَين بن أيُّوب، نا أبو علي بن شاذان، ثنا أبو بكر بن سَلْمان النَّجاد، ثنا أبو بكر بن عبد الله بن مُحمَّد القرشي، ثنا عُبَيد الله بن عُمَر القواريريُّ، ثنا هشام بن عبد الملك، ثنا شُعْبة، عنْ أَبِي إسحاق، عن أَبِي الأحوص، عَنْ أبيه، قَالَ: «أَتيتُ رسول الله ﷺ وأنا قَشِفُ الهيئة، فَقَالَ: «هَلْ لك مالٌ؟». قلتُ: نَعَمْ. قَالَ: «من أيِّ المال؟». قلتُ: من كلِّ المال قَدْ آتانِي اللهُ عَزَّوَجَلَّ من الإبل، والخَيْل، والرَّقيق، والغَنَم. قَالَ: «فإذَا آتاكَ الله عَزَّوَجَلَّ مالًا، فليُرَ عَلَيك»[1].

أخبرنا ابن الحُصَين، نا ابن المذهب، نا أحمد بن جَعْفر، ثنا عبد الله بن أحمد، ثني أَبِي، ثنا مسكين بن بُكَير، ثني الأوزاعيُّ، عن حسَّان بن عطيَّة، عن مُحمَّد بن المنكدر، عَنْ جابر، قَالَ: أتانَا رسول الله ﷺ زائرًا فِي مَنْزِلِي، فرَأىٰ رجلًا شعثًا، فَقَالَ: «أَمَا كَانَ يَجدُ هَذَا ما

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٠٦٣)، وصَحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢٥٥).

يُسكِّنُ به رَأْسَهُ»، ورأىٰ رجلًا عليه ثيابٌ وَسِخَةٌ، فَقَالَ: «أَمَا كان يجدُ هَذَا ما يَغسلُ به ثيابَهُ»[1].

أخبرنا عبد الوَهَّاب بن المبارك، ومُحمَّد بن ناصر، قَالَا: نا أبو الحُسَين بن عبد الجبَّار، نا أبو مُحمَّد بن الحسن بن عليٍّ الجوهريُّ، وأبو القاسم عليُّ بن المحسِّن التَّنوخيُّ، قَالَا: نا أبو عمرٍو مُحمَّد بن العبَّاس بن حيُّويه، ثنا أبو بكر بن الأنباري، ثني أبِي، ثنا أبو عكرمة الضَّبيُّ، ثنا مَسْعود بن بشرٍ، عَنْ أبِي عُبَيدة معمر بن المثنَّىٰ، قَالَ: مَضَىٰ عليُّ بن أبِي طالبٍ إِلَىٰ الرَّبيع بن يزاد يَعُودُهُ، فقَالَ له: يا أميرَ المؤمنين، أَشكُو إليكَ عاصمًا أخي، قَالَ: مَا شأنُهُ؟ قَالَ: تَرِكَ الملاذَّ، ولبسَ العباءةَ، فغمَّ أهلَهُ، وأَحْزن وَلَدَه، فقَالَ: عليَّ عاصمًا، فلمَّا حَضَر بشَّ فِي وجهِهِ، وقَالَ: أترىٰ الله أحلَّ لك الدُّنيا، وهو يَكْره أَخْذك منها؟! أنتَ -والله- أهونُ عَلَىٰ الله من ذَلكَ، فوالله لابْتِذَالُك نِعَمَ الله بالفِعَالِ، أحبُّ إليه من ابْتِذَالك بالمَقَال. فَقَالَ: يا أميرَ المؤمنين، إنِّي أراك تُؤثرُ لبسَ الخَشِنِ، وأَكْل الشَّعير، فتَنفَّس الصُّعداءَ، ثُمَّ قَالَ: وَيْحَك يا عاصم! إنَّ الله افْترضَ عَلَىٰ أئمَّة العدل أنْ يقدروا أنفسهم بالعَوامِّ لئلَّا يتبيَّغ بالفقير فقرُهُ.

قَالَ أبو بكرٍ الأنباريُّ: المعنىٰ: لئلَّا يزيد ويَغلو، يُقَالُ: تَبيَّغ به الدَّمُ، إذا زَادَ وجَاوَز الحدَّ.

قَالَ المُصنِّف: فإنْ قَالَ قائلٌ: تَجْويدُ اللِّباس هوىٰ للنَّفس، وقَدْ أمرنا بِمُجَاهدتِها، وتَزيُّنٌ للخَلْق، وقَدْ أمرنا أنْ تكونَ أفعالُنَا لله لا للخَلْق.

فالجواب: إنَّه ليس كلُّ ما تَهْواه النَّفسُ يُذمُّ، ولا كلُّ التَّزيُّن للنَّاس يُكْره، وإنَّما يُنْهَىٰ عن ذلك إذا كان الشَّرْعُ قد نَهىٰ عنه، أو كَانَ عَلَىٰ وَجه الرِّياء فِي باب الدِّين، فإنَّ الإنسانَ يُحبُّ

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٠٦٢)، وصَحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١٣٣٣).

أَنْ يُرَىٰ جميلًا، وذلك حظُّ النَّفس، ولا يُلَام فيه، ولِهَذَا يُسرِّح شعره، ويَنْظر فِي المرآة، ويُسوِّي عمامتَهُ، ويَلْبس بطانةَ الثَّوب الخشن إِلَىٰ داخلٍ، وظهارتَهُ الحسنةَ إِلَىٰ خارجٍ، ولَيْسَ فِي شيءٍ من هَذَا ما يُكْرهُ، ولا يُذَمُّ.

أخبرنا المباركُ بن عليٍّ الصَّيرفيُّ، نا عليُّ بن مُحمَّد بن العلَّاف، نا عبد الملك بن مُحمَّد بن بشران، نا أحمد بن إبراهيم الكنديُّ، نا مُحمَّد بن جعفر الخرائطيُّ، ثنا بُنَان بن سُلَيمان، ثنا عبد الرَّحمن بن هانئ، عن العَلَاء بن كثيرٍ، عن مكحولٍ، عن عائشةَ قَالَتْ: كان نفرٌ من أَصْحَاب رسول الله ﷺ يَنْتظرونَهُ عَلَىٰ الباب، فَخَرج يريدُهُمْ، وفِي الدَّار ركوةٌ فيها ماءٌ، فَجَعل يَنْظر فِي الماء، ويُسوِّي شَعَره ولحيتَهُ، فقلتُ: يَا رَسُولَ الله، وأنتَ تَفْعلُ هذا؟ قَالَ: «نَعَمْ، إذا خرجَ الرَّجلُ إِلَىٰ إخوانِهِ فليُهيِّئْ من نفسِهِ، فإنَّ اللهَ جَميلٌ يُحبُّ الجمالَ»[1].

أخبرنا مُحمَّد بن ناصرٍ، أنبأنا عبد المحسن بن مُحمَّد بن عليٍّ، ثنا مسعود بن ناصر بن أبِي زيدٍ، نا أبو إسحاق بن مُحمَّد بن أحمد، نا أبو القاسم عبد الله بن أحمد الفقيه، نا الحَسَن بن سفيان، ثنا عبد الرَّحمن بن مُحمَّد بن عُبَيد الله العرزمي؛ عن أبيه، عن أُمِّ كلثوم، عَنْ عائشةَ، قَالَتْ: «خَرَج رسول الله ﷺ، فمرَّ بركوةٍ لنا فيها ماءٌ، فَنظَر إِلَىٰ ظلِّه فيها، ثُمَّ سَوَّىٰ لحيتَهُ ورَأْسَهُ، ثُمَّ مضىٰ، فلمَّا رجع قلتُ: يا رَسُولَ الله، تفعل هذا؟ قَالَ: «وأيَّ شيءٍ فعلتُ؟ نظرتُ فِي ظلِّ الماء، فهيَّأتُ من لِحْيتِي ورَأْسي، إنَّه لا باس أَنْ يَفْعلهُ الرَّجلُ المسلمُ إذا خَرَج إِلَىٰ إخوانِهِ أَنْ يُهيِّئ نفسَهُ»[2].

قَالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: فإنْ قيل: فَمَا وجه ما رويتم عن سريٍّ السَّقطيِّ، أنَّه قَالَ: لو أَحْسَستُ بإنسانٍ يَدْخل عليَّ فقلتُ كَذَا بلحيتي -وأمرَّ يَدَه عَلَىٰ لحيتِهِ كأنَّه يريد أَنْ يُسوِّيها

---

(١) أخرجه ابن عدي فِي «الكامل فِي الضعفاء» (١/ ٣٤٧)، وابن الجوزي فِي «العلل المتناهية» (٢/ ٦٨٧)، وانظر «لسان الميزان» (١/ ٤٨٨).

(٢) انظر السابق.

من أَجْل دُخُول الدَّاخل عليه- لَخَشيتُ أن يُعذِّبني اللهُ عَلَىٰ ذلك بالنَّار.

فالجواب: أنَّ هَذَا مَحْمولٌ منه عَلَىٰ أنَّه كَانَ يَقْصد بذَلكَ الرِّياءَ فِي باب الدِّين من إظْهار التَّخشُّع وغيره، فأمَّا إذا قَصَد تَحْسينَ صورتِهِ لئلَّا يُرىٰ منه ما لَا يُسْتَحسنُ، فإنَّ ذَلكَ غَيْر مذمومٍ، فمن اعْتقَدَه مَذْمومًا، فما عرف الرِّياء، وَلَا فَهِمَ المَذْمومَ.

أخبرنا سعد الخير بن مُحمَّد الأنصاريُّ، نا عليُّ بن عبد الله بن مُحمَّد النَّيسابوريُّ، نا أبو الحُسَين عبد الغافر بن مُحمَّد الفارسيُّ، نا مُحمَّد بن عيسىٰ بن عمرويه، ثنا إبراهيم بن مُحمَّد بن سُفْيان، ثنا مسلم بن الحَجَّاج، ثنا مُحمَّد بن المثنَّىٰ، ثني يَحيَىٰ بن حمَّاد، قَالَ: أَخْبرنا شُعْبة، عن أَبَان بن تغلب، عَنْ فُضَيل الفُقيمي، عن إبراهيم النَّخعيِّ، عن علقمة، عن ابْن مَسْعودٍ، عن النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «لا يَدْخُلُ الجنَّة مَنْ كان فِي قلبِهِ مِثْقَالُ ذرَّةٍ من كبرٍ»، فَقَالَ رجلٌ: إنَّ أَحَدنا يُحبُّ أَنْ يكونَ ثوبُهُ حسنًا، ونعلُهُ حَسَنةً، قَالَ: «إنَّ اللهَ جَميلٌ يُحبُّ الجمالَ، الكبرُ بَطَرُ الحقِّ، وغَمْطُ النَّاس»[1]، انْفرَدَ به مسلمٌ، ومَعْناه: الكِبْرُ كِبْرُ مَنْ بَطَر الحقَّ. وغمط: بِمَعْنَىٰ ازْدَرَىٰ وَاحْتَقر.

فصل [ثياب الشهرة]

وقَالَ المصنف رَحِمَهُ اللهُ: وقَدْ كان فِي الصُّوفيَّة مَنْ يَلْبس الثِّيابَ المرتفعةَ.

أخبرنا مُحمَّد بن ناصر، نا أبو طاهر مُحمَّد بن أَحْمَد بن أَبِي الصقر، نا عليُّ بن الحَسَن بن جحاف، قَالَ أبو عبد الله أحمد بن عطاءٍ، كان أبو العبَّاس بن عطاء يَلْبس المُرْتفعَ من البزِّ كالدَّبيقي، ويسبحُ بُسُبحِ اللُّؤلؤ، ويُؤْثرُ ما طال من الثِّياب.

قَالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: قُلْتُ: وَهَذا في الشُّهْرة كَالمُرقَّعات، وإنَّما يَنْبغي أَنْ تكونَ ثيابُ أَهْل الخير وَسَطًا، فَانْظُرْ إلىٰ الشَّيطان كَيْف يتلاعَب بِهَؤُلَاء بَيْن طَرْفي نقيضٍ.

---

(١) أخرجه مسلم (٩١).

فصل [إفساد الثوب]

قَالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: وَقَدْ كانَ فِي الصُّوفيَّة مَنْ إذا لبس ثوبًا، خَرَق بَعْضه، وربَّما أفْسَد الثَّوبَ الرَّفيعَ القدر.

أخبرنا أبو مَنْصور عبد الرَّحمن بن مُحمَّد القزَّاز، نا أبو بكر أحمد بن علي بن ثابتٍ، نا الحَسَن بن غالب المقري، قَالَ: سَمعتُ عيسىٰ بن عليٍّ الوزير، يَقُول: كان ابْنُ مُجَاهِدٍ يومًا عند أبِي، فقيل له: الشِّبْلِيُّ، فقَالَ: يَدْخل. فَقَالَ ابْنُ مُجَاهِدٍ: سَأُسْكتُهُ السَّاعة بين يَدَيك، وكَانَ من عادة الشِّبليِّ إذا لَبِسَ شيئًا، خَرَقَ فيه موضعًا، فلَمَّا جلسَ، قَالَ له ابْنُ مُجَاهِدٍ: يا أبا بَكْرٍ، أيْنَ فِي العِلْمِ فَسَادُ ما يُنْتفع به؟ فَقَالَ لَهُ الشِّبليُّ: أين فِي العلم: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾ [ص:٣٣].

قَالَ: فَسَكتَ ابْنُ مُجَاهِدٍ، فَقَالَ له أبِي: أردتَ أنْ تُسْكتَهُ فأسْكَتك، ثُمَّ قَالَ له: قَدْ أجمعَ النَّاسُ أنَّك مُقْرِئ الوَقْت، فأيْنَ فِي القرآن: «إنَّ الحبيبَ لا يُعذِّبُ حبيبَهُ»، فَسَكت ابْنُ مُجَاهِدٍ، فَقَالَ له أبِي: قل يا أبا بكرٍ، فَقَالَ: قولَهُ تَعَالىٰ: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاؤُا اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ [المائدة:١٨]، فقَالَ ابْنُ مُجَاهِدٍ: كأنَّني ما سمعتُهَا قطُّ.

قَالَ المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: قلت: هَذِهِ الحكايةُ أنا مُرْتابٌ بصِحَّتها؛ لأنَّ الحسنَ بن غالبٍ كَانَ لا يُوثَقُ به.

أخبرنا القزاز، نا أبو بكرٍ الخطيب، قَالَ: ادَّعىٰ الحَسَنُ بن غالبٍ أشياءَ تَبيَّن لنا فيها كَذبُهُ وَاختلاقُهُ، فإنْ كَانَتْ صَحيحةً، فقَدْ أبَانتْ عن قلَّة فَهْم الشِّبليِّ حين احتجَّ بِهَذِهِ، وقلَّة فَهْم ابْن مُجَاهِدٍ حين سَكَت عن جوابِهِ، وذَلكَ أنَّ قولَهُ: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾؛ لأنَّه لا يَجُوزُ أنْ ينسبَ إلَىٰ نبيٍّ مَعْصومٍ أنَّه فعل الفَسَاد.

والمُفسِّرون قد اختلفوا فِي مَعْنَىٰ الآية:

فمنهم مَنْ قَالَ: مَسَح عَلَىٰ أَعْنَاقها وسُوقِهَا، وقَالَ: أنتَ فِي سبيل الله، فهَذَا إصلاحٌ.

ومنهم مَنْ قَالَ: عَقَرها، وذَبَح الخيلَ، وأَكْلُ لَحْمها جائزٌ، فلَمَّا فعل شيئًا فيه جُنَاحٌ، فأمَّا إفسادُ ثوبٍ صحيحٍ لا لغرضٍ صحيحٍ، فإنَّه لا يَجُوزُ، ومِنَ الجائز أنْ يكونَ فِي شريعة سُلَيمان جَوَاز ما فعل، ولا يَكُونُ فِي شَرْعنا.

أخبرنا مُحمَّد بن ناصر الحافظ، أنبأنا مُحمَّد بن أَبِي الصَّقر، ثنا عليُّ بن الحَسَن بن جحاف الدِّمشقيُّ، قَالَ أبو عَبْد الله أَحْمَد بن عطاءٍ: كان مَذْهب أَبِي عليٍّ الرُّوذباريِّ تَخْريق أكمامِهِ، وتَفْتيق قميصِهِ، قَالَ: فكان يَخْرق الثَّوب المُثمَّن، فيَرْتدي بنصفِهِ، ويَأْتزر بنصفِهِ، حتَّىٰ إنَّه دَخَل الحَمَّامَ يومًا وعَلَيه ثوبٌ، ولَمْ يكنْ مَعَ أصحابِهِ ما يَأْتزرون به، فقَطعه عَلَىٰ عَدَدهم، فَاتَّزرُوا به، وتَقدَّم إليهم أنْ يَدْفعوا الخِرَقَ إذا خَرَجوا للحَمَّام.

قَالَ ابْن عطاءٍ: قَالَ لي أبو سعيدٍ الكازرُونيُّ: كنتُ مَعَه فِي هَذَا اليوم، وكَانَ الرِّداءُ الَّذي قَطَعه يُقوَّم بنَحْو ثَلَاثين دينارًا.

قَالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: وَنَظيرُ هَذَا التَّفريط ما أَنْبَأنا به زاهر بن طاهرٍ قَالَ: أنبأنا أبو بكرٍ البيهقيُّ، نا أبو عبد الله الحاكمُ، قَالَ: سَمعتُ عبد الله بن يُوسُف يَقُول: سَمعتُ أبا الحَسَن البوشنجيَّ يَقُول: كانت لي قُبجةٌ طلبت بِمئة دِرْهمٍ، فحَضَرنِي ليلة غَرِيبَانِ، فقلتُ للوالدة: عندكِ شيءٌ لضيفيَّ؟ قالت: لا، إلَّا الخبز، فَذَبحت القُبَّجة، وقَدَّمتها إليهما.

قَالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: قَدْ كان يُمْكنُهُ أن يستقرِضَ، ثُمَّ يَبِيعَهَا ويُعْطي، فلقَدْ فرَّط.

أخبرنا مُحمَّد بن عبد الباقي بن أحمد، قَالَ: أنبأنا رزق الله بن عبد الوَهَّاب، قَالَ: أنبأنا أبو عبد الرَّحمن السُّلميُّ، قَالَ: سمعتُ جَدِّي يَقُول: دَخَل أبو الحسن الدَّرَّاج البغداديُّ الرَّيَّ، وكَانَ يَحْتاج إِلَىٰ لفافٍ لرجلِهِ، فدَفَع إليه رجلٌ منديلًا دبيقيًّا، فَشقَّه نصفين، وتلفَّف

به، فقيل له: لو بعتَهُ وَاشْتَريت منه لفافًا، وأنفقت الباقي، فَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: أنا لا أَخُونُ المَذْهبَ.

قَالَ المُصنِّف: وقَدْ كان أَحْمَد الغزالي ببغداد، فَخَرج إِلَىٰ المحول، فَوَقف عَلَىٰ ناعورةٍ تئنُّ، فَرَمىٰ طيلسانَهُ عَلَيها، فَدَارتْ، فَتقَطَّع الطَّيلسان.

قَالَ المُصنِّفَ رَحِمَهُ اللَّهُ: قلت: فَانْظُرْ إِلَىٰ هَذَا الجَهْل والتَّفريط، والبُعْد عن العلم، فإنَّه قَدْ صحَّ عَنْ رسول الله ﷺ: «أنَّه نَهَىٰ عن إِضَاعَة المال»[1]، ولَوْ أنَّ رجلًا قطع دينارًا صحيحًا، وأنفقَهُ، كان عند الفُقَهاء مُفرِّطًا، فكيف بِهَذَا التَّبذير المُحرَّم.

ونَظيرُ هَذَا تَمْزيقُهُمْ الثِّياب المطروحة عند الوَجْد عَلَىٰ ما سَيَأتِي ذِكْرُهُ إِنْ شاء الله، ثُمَّ يَدَّعون أنَّ هَذِهِ حالة، وَلَا خَيْر فِي حالةٍ تُنَافِي الشَّرْعَ، أفَتراهم عبيدَ نُفُوسهم أمْ أمروا أن يَعْملوا بآرَائِهِمْ، فإِنْ كَانوا عَرَفوا أنَّهم يُخَالفون الشَّرْعَ بِفِعْلِهِمْ هَذَا، ثُمَّ فَعَلوه، إنَّه لعنادٌ، وإِنْ كانوا لا يَعْرفون فلَعَمْري إنَّه لَجَهْلٌ شديدٌ.

أخبرنا مُحمَّد بن أَبِي القاسم، نا حمد بن أحمد، نا أبو نُعَيم أحمد بن عبد الله الحافظ، قَالَ: سمعتُ مُحمَّد بن الحُسَين يَقُول: سَمعتُ عبدَ الله الرَّازيَّ يَقُول: لمَّا تغيَّر الحال عَلَىٰ أَبِي عثمان وقتَ وفاتِهِ، مزَّق ابنُهُ أبو بكرٍ قميصًا كَانَ عليه، ففَتَح أبو عثمان عينَهُ، وقَالَ: يا بنيَّ، خلاف السُّنَّة فِي الظَّاهر، ورياءٌ باطنٌ فِي القلب.

فصل (المبالغة في تقصير الثوب)

قَالَ المُصنِّف: وفِي الصُّوفيَّة مَنْ يُبَالغ فِي تَقْصير ثوبِهِ، وذَلكَ شهرةٌ أيضًا.

أخبرنا ابْنُ الحُصَين، نا ابن المذهب، ثنا أحمد بن جعفرٍ، ثنا عبد الله بن أحمد، ثنِي أَبِي، ثنا مُحمَّد بن أَبِي عديٍّ، عن العَلَاء، عن أبيه، أنَّه سمعَ أبا سعيدٍ: سئل عن الإزار، فَقَالَ:

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٠٨)، ومسلم (٥٩٣) من حديث المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

سمعتُ رسول الله ﷺ يَقُولُ: «إزارُ المُسْلم إِلَىٰ أَنْصَاف السَّاقين، لا جُنَاح -أَوْ: لَا حَرَجَ- عَلَيه فيما بينه وبَيْن الكَعْبين، ما كان أسفلَ من ذَلكَ ففي النَّار»[١].

أخبرنا المُحمَّدان (ابن ناصر، وَابْن عبد الباقي)، قَالَا: نا حمد بن أحمد، نا أبو نُعَيم أحمد بن عبد الله، ثنا أبو حامد بن جبلةَ، ثنا مُحمَّد بن إسحاق، ثنا إبراهيم بن سعيد الجوهريُّ، قَالَ: كتب إليَّ عبد الرَّزَّاق، عن معمرٍ قَالَ: كان فِي قميص أيُّوب بَعْض التَّذْييل، فَقِيلَ له: فَقَالَ: الشُّهْرة اليوم فِي التَّشمير.

وقَدْ رَوَىٰ إسحاقُ بن إبراهيم بن هانئ، قَالَ: دَخَلتُ يومًا عَلَىٰ أبِي عبد الله أحمد بن حنبلٍ، وعليَّ قميصٌ أسفل من الرُّكْبة، وفوق السَّاق، فقَالَ: أيُّ شيءٍ هذا؟! وأنْكَره، وقَالَ: هَذَا بالمرَّة لا يَنْبغي.

فصل [لبس الخرقة بدل العمامة]

قَالَ المُصنِّف: وقَدْ كَانَ فِي الصُّوفيَّة مَنْ يَجْعلُ عَلَىٰ رأسِهِ خرقةً مكانَ العمامة، وهَذَا أيضًا شهرةٌ؛ لأنَّه عَلَىٰ خلاف لباس أَهْل البلد، وكلُّ ما فيه شُهْرةٌ فهو مَكْروهٌ.

أخبرنا يَحيَىٰ بن ثابت بن بُنْدار، نا أبو الحُسَين بن عليٍّ، نا أحمد بن منصور النُّوشري، ثنا مُحمَّد بن مخلد، ثني مُحمَّد بن يُوسُف، قَالَ: قَالَ عبَّاس بن عبد العظيم العنبريُّ، قَالَ بشر بن الحارث: إنَّ ابْنَ المبارك دَخَل المسجدَ يَوْمَ جُمُعةٍ، وعَلَيه قلنسُوةٌ، فَنظَر النَّاسُ ليس عَلَيهم قَلَانس، فأَخَذها فَوَضعها فِي كُمِّه.

فصل [الاستكثار من الثياب]

قَالَ المصنف: وقَدْ كانَ فِي الصُّوفيَّة مَن اسْتَكْثر من الثِّياب وَسْوَسةً، فيجعل للخَلَاء

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٠٩٣)، وابن ماجه (٣٥٧٣)، وصَحَّحه الألبانِيُّ فِي «صحيح الجامع» (٩٢١).

ثوبًا، وللصَّلاة ثوبًا. وقَدْ روي هَذَا عن جَمَاعةٍ، منهم أبو يزيدَ، وهَذَا لا بأسَ به إلَّا أنَّه لا يَنْبغي خشيةَ أنْ يُتَّخذ سُنَّةً.

أخبرنا مُحمَّد بن أبِي القاسم، نا حمد بن أحمد، نا أبو نُعَيم أحمد بن عبد الله، ثنا أبو حامد أحمد بن مُحمَّد بن عبد الوَهَّاب، ثنا مُحمَّد بن إسحاق النَّيسابوريُّ، ثنا مُحمَّد بن الصَّباح، ثنا حاتم (يَعْنِي: ابْن إسماعيل)، ثَنِي جعفر، عَنْ أبيه، أنَّ عليَّ بن الحُسَين قَالَ: يا بنيَّ، لو اتَّخذت ثوبًا للغائط، رأيتُ الذُّبابَ يَقَعُ عَلَىٰ الشَّيء، ثُمَّ يَقَع عَلَىٰ الثَّوب، ثُمَّ أتيتُهُ، فَقَالَ: ما كَانَ لرسول الله ﷺ، وَلَا لأصحابِهِ إلَّا ثوبٌ فرَفَضه.

فصل (اتخاذ ثوب للجمعة والعيد)

قَالَ المُصنِّف: وقَدْ كَانَ فيهم مَنْ لا يَكُونُ له سوىٰ ثوبٍ واحدٍ زهدًا فِي الدُّنيا، وهَذَا أحسنُ إلَّا أنَّه إذا أمكنَ اتِّخاذُ ثَوْبٍ للجُمُعة والعيد، كانَ أصْلَحَ وأحسنَ.

أخبرنا عَبْدُ الأوَّل بن عيسىٰ، نا عبد الرَّحمن بن مُحمَّد بن المُظفَّر، نا عبد الله بن أحمد ابن حيُّويه، نا إبراهيم بن خُزَيم بن حُمَيد، ثني ابن أبِي شيبة، ثنا مُحمَّد بن عُمَر، عن عبد الحميد بن جعفرٍ، عن مُحمَّد بن يَحْيَىٰ بن حبَّان، عن يُوسُف بن عبد الله بن سلام، عَنْ أبيه، قَالَ: خَطَبنا رسول الله ﷺ فِي يَوْم جُمُعةٍ، فَقَالَ: «ما عَلَىٰ أحَدكمْ لو اشْتَرىٰ ثَوْبين ليَوْم جُمُعةٍ سوىٰ ثَوْب مهنتِهِ»[1].

أخبرنا مُحمَّد بن عبد الباقي، نا أبو مُحمَّد الجوهريُّ، نا أبو عُمَر بن حيُّويه، نا أحمد بن معروفٍ الخشَّاب، نا الحارث بن أبِي أُسَامة، ثنا مُحمَّد بن سعد، نا مُحمَّد بن عمر، ثني عبد الرَّحمن بن أبِي الزِّناد، عَنْ عبد المجيد بن سهل، عن أبِي سلمة، عَنْ أبِي هُرَيرة، قَالَ مُحمَّد

(١) أخرجه أبو داود (١٠٨٩)، وابن ماجه (١٠٩٥)، وصَحَّحه الألبانيُّ فِي «صحيح الجامع» (٥٦٣٥).

ابن عُمَر: وحَدَّثني غير مُحمَّد بن عبد الرَّحمن أيضًا ببعض ذَلكَ، قالوا: «كَانَ للرَّسُول ﷺ بُرْدٌ يَمنيٌّ، وإزارٌ من نسج عُمَان، فكَانَ يَلْبسُهُما فِي يَوْم الجُمُعة ويَوْم العيد، ثُمَّ يُطْوَيان»(١).

ذكر تلبيس إبليس عَلَى الصوفية فِي مطاعمهم ومشاربهم:

قَالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: قَدْ بالغَ إبليسُ فِي تلبيسِهِ عَلَىٰ قُدَماء الصُّوفيَّة، فأمَرهم بتَقْليل المَطْعَم، وخشونتِهِ، ومنعهم شُرْب الماء البارد، فلَمَّا بلغَ إلَىٰ المُتأخِّرين، اسْتَراح من التَّعب، وَاشْتَغل بالتَّعَجُّبِ من كَثْرة أكْلهم، ورَفَاهية عَيْشهم.

ذكر طُرف مِمَّا فعله قدماؤه:

قَالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: كَانَ فِي القَوْم مَنْ يَبْقىٰ الأيَّام لا يأكُل إلىٰ أنْ تضعفَ قُوَّتُهُ، وفيهم مَنْ يَتناولُ كلَّ يومٍ الشَّيء اليسيرَ الَّذي لا يُقيم البدنَ، فرُوِيَ لنا عن سهل بن عبد الله أنَّه كان فِي بدايتِهِ يَشْتري بدرهمٍ دبسًا، وبدِرْهَمين سمنًا، وبدِرْهمٍ دقيقَ الأرز، فيخلطُهُ، ويجعلُهُ ثلاثَ مئةٍ، وستِّين كُرةً، فيفطرُ كلَّ ليلةٍ عَلَىٰ واحدةٍ.

وحكىٰ عنه أبو حامد الطوسي قَالَ: كان سهل يَقْتات وَرقَ النَّبْق مُدَّةً، وأكَل دقاقَ التبن مُدَّةَ ثلاثَ سِنِينَ، وَاقْتاتَ بثَلَاث دَرَاهم فِي ثَلَاث سنينَ.

أخبرنا أبو بكر بن حبيب العامريُّ، نا أبو سعد بن أبي صادق، نا ابن باكويه، ثني أبو الفَرَج بن حمزة التكريتي، ثني أبو عبد الله الحُصَري، قَالَ: سمعتُ أبا جعفرٍ الحدَّاد يَقُولُ: أشرف عليَّ أبو ترابٍ يومًا وأنا عَلَىٰ بركة ماءٍ، ولي ستَّة عشرَ يومًا ولَمْ آكُلْ شيئًا، ولَمْ أشْرب فيها ماءً، فَقَالَ: ما جُلُوسُك هاهنا؟ فقُلْتُ: أنا بين العِلْمِ واليقين، وأنا أنْظرُ مَنْ يغلبُ، فأكُونُ مَعَه، فَقَالَ: سَيكُونُ لك شأنٌ.

(١) أخرجه البيهقي في «السنن» (٢/ ٢٨٠) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه، وضَعَّفه الألبانيُّ فِي «ضعيف الجامع» (١٤٨٠).

أخبرنا أبو بكر بن حبيبٍ، نا ابْنُ أَبِي صادقٍ، ثنا ابن باكويه، نا عَبْد العزيز بن الفضل، ثنا عليُّ بن عبد الله العمري، ثنا مُحمَّد بن فليح، ثنِي إبراهيم بن البنا البغداديُّ، قَالَ: صَحبتُ ذا النُّون من إخميم إِلَىٰ الإسكندريَّة، فلمَّا كان وَقْت إفطارِهِ، أَخْرَجتُ قرصًا وملحًا كان معي، وقلتُ: هلُمَّ. فَقَالَ لي: مِلْحُك مدقوقٌ. قلت: نَعَمْ. قَالَ: لست تُفْلحُ، فنَظَرتُ إِلَىٰ مِزْودِهِ، فإِذَا فيه قَليلُ سويق شعيرٍ يَسْتفُّ منه.

أخبرنا ابن ظفر، نا ابن السَّرَّاج، نا عبد العزيز بن عليٍّ الأزجي، نا ابن جهضم، ثنا مُحمَّد بن عيسىٰ بن هارون الدَّقَّاق، ثنا أحمد بن أنس بن أبي الحواريِّ، سَمعتُ أبا سُلَيمان يَقُول: الزُّبْدُ بالعسل إسرافٌ.

قَالَ ابن جهضم: وحَدَّثنا مُحمَّد بن يُوسُف البصريُّ قَالَ: سمعتُ أبا سعيدٍ صاحب سهلٍ يَقُول: بلغ أبا عبد الله الزُّبيري، وزكريا السَّاجي، وابن أَبِي أَوْفَىٰ أَنَّ سهل بن عبد الله يَقُول: أنا حُجَّةُ الله عَلَىٰ الخَلْق، فَاجْتَمعوا عنده، فأَقْبل عليه الزُّبيريُّ، فقَالَ له: بَلَغنا أنَّك قلت: «أنا حُجَّةُ الله عَلَىٰ الخَلْق»، فبِمَاذَا؟ أنبيٌّ أنت؟ أصِدِّيقٌ أنتَ؟ قَالَ سهلٌ: لَمْ أَذْهَبْ حيث تظنُّ، ولكن إنَّما قلتُ هَذَا لأَخْذي الحلال، فَتَعالوا كُلُّكُمْ حتَّىٰ نُصحِّح الحلالَ. قَالوا: فأنتَ قَدْ صَحَّحتَهُ. قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: وكيفَ؟ قَالَ سهل: قسمت عَقْلي ومَعْرفتِي وقُوتِي عَلَىٰ سَبْعة أجزاءٍ، فأتركُهُ حتَّىٰ يَذْهب منها ستَّة أجزاءٍ، ويَبْقىٰ جزءٌ واحدٌ، فإذا خِفْتُ أن يذهبَ ذَلكَ الجزءُ، ويُتْلف معه نَفْسي خِفْتُ أَنْ أكونَ قَدْ أعنتُ عَلَيها وقَتلتُها، دَفَعتُ إليها من البُلْغة ما يردُّ السِّتَّة الأجزاء.

أخبرنا ابْنُ حبيبٍ، نا ابن أَبِي صادقٍ، نا ابن باكويه، قَالَ: أَخْبَرنِي أبو عبد الله بن مُفْلح، قَالَ: أَخْبَرنِي أَبِي، أَخبرنِي أبو عبد الله بن زيدٍ، قَالَ لي: منذ أَرْبَعين سنةً ما أَطْعَمتُ نفسي طعامًا إلَّا فِي وقت ما أحلَّ الله لَها الميتة.

أخبرنا ابْنُ ناصرٍ، نا أبو الفضل مُحمَّد بن عليٍّ بن أحمد السهلكي، ثنِي أبو الحَسَن عليُّ بن مُحمَّد القوهي، ثنا عيسىٰ بن آدم أخي أبِي يزيد، قَالَ: جاء رجلٌ إلَىٰ أبِي يزيدَ قَالَ: أُريد أنْ أجلسَ فِي مَسْجدك الَّذي أنتَ فيه. قَالَ: لا تُطيقُ ذلك. فقَالَ: إنْ رأيت أنْ تُوسِعَ لي فِي ذلك، فأَذِنَ له فَجَلس يومًا لا يَطْعم، فَصَبر، فلَمَّا كان فِي اليوم الثَّانِي، قَالَ له: يا أستاذ، لا بُدَّ مِمَّا لا بُدَّ منه. فقَالَ: يا غلام، لا بُدَّ من الله. قَالَ: يا أستاذُ، نريد القُوتَ. قَالَ: يا غلام، القُوتُ عندنا إِطَاعةُ الله. فَقَالَ: يا أستاذ، أريد شيئًا يُقيم جَسَدي فِي طاعتِهِ عَزَّوَجَلَّ. فَقَالَ: يا غلام، إنَّ الأجْسَامَ لا تَقُومُ إلَّا بالله عَزَّوَجَلَّ.

أخبرنا المُحمَّدان (ابن ناصر، وابن عبد الباقي)، قَالَا: نا حَمَد بن أحمد، نا أبو نُعَيم الحافظ، قَالَ: سَمعتُ مُحمَّد بن الحُسَين يَقُول: سَمعتُ مُحمَّد بن عبد الله بن شَاذَان يَقُول: سمعتُ أبا عُثْمان الأدميَّ، يَقُول: سمعتُ إبراهيمَ الخوَّاص يَقُول: حَدَّثنِي أخٌ لي كان يَصْحبُ أبا ترابٍ، نَظَر إلَىٰ صوفيٍّ مدَّ يَدَه إلَىٰ قشر البطيخ، وكَانَ قَدْ طوىٰ ثلاثةَ أيَّامٍ، فقَالَ له: تمُدُّ يَدَكَ إلَىٰ قشر البطيخ؟ أنتَ لا يَصْلحُ لك التَّصوُّفُ، الْزَم السُّوقَ.

أخبرنا مُحمَّد بن أبِي القاسم، أنبأنا رزق الله بن عبد الوَهَّاب، نا أبو عبد الرَّحمن السُّلميُّ، قَالَ: سمعتُ أبا القاسم القيروانِي يَقُولُ: سَمعتُ بَعْضَ أَصْحَابنا يَقُول: أقامَ أبو الحَسَن النَّصيبيُّ بالحرم أيَّامًا مع أصحابٍ لَهُمْ سبعةٍ لَمْ يأكُلُوا، فَخَرج بعضُ أَصْحابه ليتطهَّر، فَرَأىٰ قشر بطيخ فأخذه فأكَله، فَرَآه إنسانٌ فاتَّبعَه بشيءٍ، وجاء برفقٍ، فَوَضعه بَيْنَ يَدَي القوم، فَقَالَ الشَّيخُ: مَنْ جَنَىٰ منكم هَذِهِ الجِنَايةَ؟ فَقَالَ الرَّجلُ: أنا وَجَدتُ قشر بطيخٍ فأكلتُهُ. فَقَالَ: كُنْ مع جِنَايتِكَ ومَعَ هَذَا الرزْقِ، وخَرَج من الحَرَم ومَعَه أصحابُهُ، وتَبعَهُ الرَّجل. فَقَالَ: أَلَمْ أَقُلْ لك: كُنْ مع جِنَايتِكَ. فَقَالَ الرَّجلُ: أنا تَائبٌ إلَىٰ الله تَعالَىٰ مِمَّا جَرَىٰ منِّي. فَقَالَ الشَّيخُ: لا كَلَامَ بعد التَّوْبة.

أخبرنا عُمَر بن ظفر، نا ابن السَّرَّاج، نا أبو القاسم الأزجيُّ، نا أبو الحَسَن بن جهضم،

ثنا إبراهيم بن مُحمَّد الشنوزي، قَالَ: سمعتُ بنان بن مُحمَّد، يَقُول: كنتُ بمكَّة مُجَاورًا، فَرَأيتُ بِها إبراهيمَ الخوَّاص، وأتىٰ عليَّ أيَّامٌ لَمْ يفتح عليَّ بشيءٍ، وكَانَ بمكَّة مزيِّنٌ يحبُّ الفُقَراءَ، وَكَان من أخلاقِهِ إِذا جاءه الفقيرُ يَحْتجم، اشْتَرىٰ له لحمًا، فَطَبخه فأطْعَمه، فقصدتُهُ، وقلتُ: أريدُ أَنْ أَحْتَجمَ، فأرْسل مَنْ يَشْتري لحمًا، وأمَر بإصلاحِهِ، وَجَلستُ بَيْنَ يَدَيه، فَجَعلَتْ نَفْسي تَقُول: ترىٰ يكون فَرَاغ القِدْرِ مع فَرَاغ الحِجَامَة، ثُمَّ اسْتَيقظتُ وقلتُ: يا نفس، إنَّما جئتِ تَحْتَجمين لا لتَطْعمي، عَاهَدْتُ الله تَعَالىٰ ألَّا ذُقْت من طعامِهِ شيئًا، فلَمَّا فَرَغ، انْصَرفتُ، فَقَالَ: سُبْحانَ الله! أنتَ تَعْرف الشَّرط.

فقلتُ: ثَمَّ عقدٌ، فَسَكت، وَجِئت إلَىٰ المَسْجد الحَرَام، ولَمْ يُقْدرْ لي شيءٌ آكلُهُ، فلمَّا كان من الغد، بقيتُ إِلَىٰ آخر النَّهار، ولَمْ يَتَّفق أيضًا، فلَمَّا قُمْتُ لصَلَاة العصر، سَقَطتُ وغُشِيَ عليَّ، وَاجْتَمعَ حَوْلِي ناسٌ، وَحَسبوا أنِّي مَجْنونٌ، فَقَامَ إبراهيمُ، وفرَّق النَّاسَ، وَجَلس عندي يُحَدِّثني.

ثُمَّ قَالَ: تأكُلُ شيئًا؟ قلتُ: قرب اللَّيل. فَقَالَ: أَحْسَنتُمْ يا مُبْتدئُونَ، اثْبتُوا عَلَىٰ هَذَا تُفْلِحُوا، ثُمَّ قامَ، فلمَّا صَلَّينا العشاءَ الآخرةَ إذا هُوَ قَدْ جَاءَنِي، ومَعَه قصعةٌ فيها عدسٌ، وَرَغيفان، ودَوْرق ماءٍ، فَوَضعه بَيْنَ يدي، وَقَالَ: كُلْ ذلكَ، فأكَلْتُ الرَّغيفين والعدسَ، فَقَالَ: فيك فَضْلٌ تأكُلُ شيئًا آخر؟ قلتُ: نَعَمْ، فمَضَىٰ، وَجَاء بقصعة عدسٍ ورَغِيفَيْن، فَأكلتُهُما، وقلتُ: قَد اكْتَفيتُ، فَاضْطَجعتُ، فَمَا قمتُ ليلتِي، وَنمتُ إلَىٰ الصَّباح ما صَلَّيتُ، وَلَا طُفْتُ.

أنبأنا أبو المُظفَّر عبد المنعم بن عبد الكريم، ثنا أبِي، قَالَ: سمعتُ مُحمَّد بن عبد الله الصُّوفيَّ يَقُول: سَمعتُ منصور بن عبد الله الأصفهانِيَّ يَقُول: سَمعتُ أبا عليٍّ الرُّوذباري يَقُول: إذا قَالَ الصُّوفيُّ بعد خَمْسة أيَّامٍ: أنَا جائعٌ، فألْزمُوهُ السُّوقَ، وأمُرُوهُ بالكَسْب.

أنبأنا عَبْد المُنْعم، ثنا أبِي، قَالَ: سمعتُ ابن باكويه، يَقُول: سمعتُ أبا أحمد الصَّغير يَقُول: أمرنِي أبو عبد الله بن خفيف أَنْ أُقدِّم إليه كلَّ ليلةٍ عشر حَبَّات زبيبٍ لإفْطَاره،

فأشْفَقتُ عليه ليلةً، فَحَملتُ إليه خمسةَ عَشرة حبَّة، فَنظَر إليّ، وقَالَ: مَنْ أمَرك بِهَذَا؟ وأكَل عَشْرَ حَبَّاتٍ، وَتَرك الباقي.

أخبرنا أبو بكر بن حبيبٍ، نا عليُّ بن أبِي صادقٍ، نا ابن باكويه، قَالَ: سَمِعْتُ أبا عبد الله ابن خفيف، يَقُول: كنتُ فِي ابْتدَائي بقيتُ أرْبَعين شهرًا أفطر كلَّ ليلةٍ بكفٍّ باقلَّاء، فَمَضيتُ يومًا، فَافْتصَدتُ، فَخَرج من عرقي شبهُ ماء اللَّحْم، وغشي عليَّ، فتَحيَّر الفصَّادُ، وَقَالَ: ما رأيتُ جَسَدًا لا دمَ فيه إلَّا هَذَا.

فصل [ترك أكل اللحم]

قَالَ المُصنِّف: وقَدْ كان فيهم قومٌ لَا يأكُلُون اللَّحم حتَّىٰ قَالَ بَعْضُهُمْ: أكْلُ درهمٍ من اللَّحم يُقسِّي القلبَ أرْبَعينَ صباحًا، وَكَانَ فيهم مَنْ يَمْتنعُ من الطَّيِّبات كُلِّها، ويحتجُّ بِما أخْبَرنا به عليُّ بن عبد الواحد الدِّينوري، نا أبو الحَسَن القزوينيُّ، نا أبو حفص بن الزَّيَّات، ثنا ابن ماجة، ثنا أزْهرُ بن جميلٍ، ثنا بزيع، عَنْ هشامٍ، عن أبيه، عن عائشةَ، قَالَتْ: قَالَ رسول الله ﷺ: «**احْرِمُوا أنْفسَكُمْ طيبَ الطَّعام، فإنَّما قَوِيَ الشَّيطانُ أن يَجْري فِي العُرُوق بِهَا**»[(١)].

وَفِيهِمْ مَنْ كان يَمْتنعُ من شُرْب الماء الصَّافِي، وفيهم مَنْ يَمْتنع من شُرْب الماء البارد، فيَشْرب الحارَّ، ومنهم مَنْ كَانَ يَجْعل ماءَهُ فِي دَنٍّ مَدْفونٍ فِي الأرض، فيصير حارًّا، ومنهم مَنْ يُعَاقب نفسه بتَرْك الماء مُدَّةً.

وأخبرنا مُحمَّد بن ناصر، أنبأنا أبو الفَضْل مُحمَّد بن عليٍّ السهلكيُّ، قَالَ: سَمعتُ عبد الواحد بن بكر الرُّويانِيَّ، ثنِي مُحمَّد بن سعدان، ثنِي عيسىٰ بن موسىٰ البسطاميُّ، قَالَ:

---

(١) أورده الديلمي فِي «مسند الفردوس» (٩٨٨)، وقال الألبانِيُّ فِي «الضعيفة» (١٨٧٩): موضوع.

سمعتُ أبِي يَقُولُ: قَالَ: سمعتُ عَمِّي خادم أبِي يزيد يَقُول: ما أكلتُ شيئًا مِمَّا يأكلُهُ بنو آدم أربعين سنةً. قَالَ: وأَسْهَلُ ما لَاقَتْ نفسي منِّي أنِّي سألتُهَا أمرًا من الأُمُور فأَبَتْ، فعزمتُ ألَّا أشربَ الماءَ سنةً، فَمَا شربتُ الماءَ سنةً.

وَحَكَىٰ أبو حامدٍ الغزاليُّ عن أبِي يزيدَ أنَّه قَالَ: دَعَوْتُ نَفْسي إِلَىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، فجَمَحتْ، فَعَزمتُ عَلَيها ألَّا أشربَ الماءَ سنةً، ولا أذُوقَ النَّومَ سنةً، فوفَّت لي بذلك.

فصل [ترتيب مطاعم الصوفية]

قَالَ المصنف: وقَدْ رتَّب أبو طالبٍ المَكِّيُّ للقوم تَرْتيباتٍ فِي المَطَاعم، فَقَالَ: أستحبُّ للمريد ألَّا يزيدَ عَلَىٰ رغيفين فِي يومٍ وليلةٍ. قَالَ: ومن النَّاس مَنْ كان يَعْمل فِي الأقْوَات فيقلها، وَكَانَ بَعْضُهمْ يزنُ قُوتَه بكربةٍ من كرب النَّخْل، وهي تجفُّ كلَّ يومٍ قليلًا، فينقص من قُوتِهِ بِمقدار ذَلكَ. قَالَ: ومنهم مَنْ كان يَعْمل فِي الأَوْقَات، فيأكُل كلَّ يومٍ، ثُمَّ يَتدرَّجُ إِلَىٰ يَوْمين وثلاثةٍ، قَالَ: والجوعُ يُنْقصُ دَمَ الفؤاد فيبيضه، وفِي بياضِهِ نورُهُ، ويُذيبُ شَحْمَ الفؤاد، وفِي ذوبانِهِ رِقَّتُهُ، وفِي رقَّتِهِ مفتاحُ المُكَاشفة.

قَالَ المُصنِّف رحِمَهُ الله تَعَالىٰ: وقَدْ صنَّف لَهم أبو عبد الله مُحمَّد بن عليٍّ التِّرمذيُّ كتابًا سَمَّاه: «رياضة النُّفُوس» قَالَ فيه: فيَنْبغي للمُبْتدئ فِي هَذَا الأَمْر أنْ يصومَ شَهْرين مُتَتَابعين تَوْبةً من الله، ثُمَّ يفطر، فيطعم اليسير، ويأكُل كسرةً كسرةً، ويَقْطع الإدامَ والفواكهَ واللذَّةَ، ومُجَالسةَ الإخوان، والنَّظرَ فِي الكُتُب، وهَذَا كلُّهُ أفراحٌ للنَّفس، فيمنع النَّفسَ لَذَّتها حتَّىٰ تَمْتلئ غمًّا.

قَالَ المُصنِّف: وقَدْ أخرَج لَهم بَعْض المُتأخِّرين الأربعينيَّة، يَبْقىٰ أحدهُمْ أربعين يومًا لا يأكُلُ الخبزَ، ولكنَّه يَشْرب الزُّيوتَات، ويأكُل الفواكهَ الكثيرةَ اللَّذيذة، فهَذِهِ نُبْذَةٌ من ذِكْرِ أفْعَالهِمْ فِي مَطَاعمهم يَدلُّ مَذْكُورُهَا عَلَىٰ مُغفَّلها.

فصل في بيان تلبيس إبليس عليهم في هذه الأفعال وإيضاح الخطإ فيها

قَالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: أمَّا ما نُقِلَ عن سهلٍ، ففِعْلٌ لا يَجُوزُ؛ لأنَّه حملٌ عَلَىٰ النَّفس ما لا تطيق، ثُمَّ إنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ أكرَمَ الآدميِّين بالحِنْطَةِ، وجَعَل قُشُورها لبَهَائِمِهِمْ، فَلَا تَصْلحُ مُزَاحمة البَهَائم فِي أكْل التبن، وأيُّ غذاءٍ فِي التبن، ومثل هَذِهِ الأشْياء أشْهَر من أن تحتاجَ إلَىٰ ردٍّ.

وقَدْ حَكَىٰ أبو حامدٍ عَنْ سهل أنَّه كان يَرَىٰ أنَّ صلاة الجائع الَّذي قَدْ أضعفَهُ الجوعُ قاعدًا أفْضَل من صلاتِهِ قائمًا إذا قَوَّاه الأكْلُ.

قَالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: وهَذَا خطأٌ، بَلْ إذا تَقوَّىٰ عَلَىٰ القيام، كان أكلُهُ عبادةً؛ لأنَّه يُعِينُ عَلَىٰ العبادة، وإذا تَجوَّع إلَىٰ أنْ يُصلِّي قاعدًا، فقَدْ تَسبَّب إلَىٰ تَرْك الفَرَائض، فلَمْ يَجُزْ له، ولَوْ كان المُتَناوَلُ ميتةً ما جَازَ هَذَا، فكيف وهُوَ حلالٌ، ثُمَّ أيُّ قُرْبةٍ فِي هَذَا الجوع المُعطِّل أدَوات العبادة.

وأمَّا قول الحداد: وأنا أنظُرُ مَنْ يغلب: العلمُ أم اليقينُ؟ فإنَّه جهلٌ محضٌ؛ لأنَّه لَيْسَ بَيْنَ العلم واليقين تَضادٌّ، إنَّما اليقينُ أعْلَىٰ مَرَاتب العلم، وأَيْنَ من العِلْمِ واليقين تَرْكُ ما تَحْتاجُ إليه النَّفْسُ من المَطْعَم والمَشْرب، وإنَّما أشَار بالعلم إلَىٰ ما أمَره الشَّرْعُ، وأشَارَ باليقين إلَىٰ قوَّة الصَّبر، وهَذَا تخليطٌ قبيحٌ، وهؤلاء قومٌ شَدَّدُوا فيما ابْتدَعوا، وكانوا كقُرَيش فِي تَشدُّدهمْ حتَّىٰ سُمُّوا بالحُمس، فجَحَدوا الأصلَ، وشَدَّدوا فِي الفرع.

وقول الآخر: «مِلْحُك مدقوقٌ، لست تُفْلحُ»، من أقْبَح الأشياء، وكَيْفَ يُقَال عَمَّن استعمل ما أُبِيحَ له: «لستَ تُفْلحُ»، وأمَّا سويقُ الشَّعير، فإنَّه يورثُ القولنج.

وقول الآخر: الزُّبْدُ بالعسل إِسْرَافٌ؛ قولٌ مَرْذولٌ؛ لأنَّ الإِسْرَافَ مَمْنوعٌ منه شرعًا،

وهَذَا مَأْذونٌ فيه، وقَدْ صحَّ عن رسول الله ﷺ: «أنَّه كَانَ يأكُلُ القِثَّاء بالرُّطَب»[١]، «وَكَان يُحِبُّ الحَلْوىٰ والعسل»[٢].

وأمَّا ما رُوِّينا عن سهلٍ أنَّه قَالَ: قَسَمتُ قُوتِي وعَقْلي سَبْعةَ أجزاءٍ، فَفِعْلٌ يُذَمُّ به، ولا يُمْدحُ عَلَيه إِذْ لَمْ يأمر الشَّرعُ بِمثلِهِ، وهُوَ إِلَىٰ التَّحْريم أقرب؛ لأنَّه ظُلْمٌ للنَّفس، وتَرْكٌ لحقِّها.

وَكَذَلك قَوْلُ الَّذي قَالَ: ما أكَلتُ إِلَىٰ وَقْت أنْ يُبَاح لي أكْلُ الميتة: فإنَّه فعل برأيه المَرْذول، وحمل عَلَىٰ النَّفْس مَعَ وُجُود الحَلَال.

وقول أبِي يزيد: «القُوتُ عندنا لله»، كَلامٌ ركيكٌ، فإنَّ البدنَ قَدْ بُنِيَ عَلَىٰ الحَاجَة إِلَىٰ الطَّعام حتَّىٰ إنَّ أهْلَ النَّار في النَّار يَحْتاجون إِلَىٰ الطَّعام.

وأمَّا التَّقبيحُ عَلَىٰ مَنْ أَخَذَ قشرَ البطيخ بعد الجوع الطَّويل، فلا وَجْهَ له، والَّذي طوىٰ ثلاثًا، لَمْ يَسْلم من لَوْم الشَّرع، وكَذَلك الَّذي عَاهَد ألَّا يأكلَ حين احْتَجمَ حتَّىٰ وَقَع فِي الضَّعْف، فإنَّه فَعَل ما لا يَحلُّ له، وقَوْلُ إبراهيم له: «أحْسنتُمْ يَا مُبْتدئون»، خطأٌ أيضًا، فإنَّه كان يَنْبغي أن يُلْزِمهُ بالفطر، ولَوْ كَانَ فِي رَمَضان، إِذْ مَنْ له أيَّامٌ لَمْ يأكل، وقد احْتَجَمَ وغشي عليه، لَا يَجُوزُ له أن يصومَ.

أَخْبَرنا أبو منصور القزاز، نا أبو بكر بن ثابتٍ، ثَنِي الأزهريُّ، ثنا عليُّ بن عُمَر، ثنا أبو حامدٍ الحضرميُّ، ثنا عبد الرَّحمن بن يُونُس السَّرَّاج، ثنا بقيَّةُ بن الوليد، عن عُبَيد الله بن عُمَر، عن نافعٍ، عن ابْن عُمَر، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: «مَنْ أَصَابه جهدٌ فِي رَمَضان، فلَمْ يُفْطر فماتَ، دَخَل النَّار»[٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٤٤٠)، ومسلم (٢٠٤٣) من حديث عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (٥٤٣١)، ومسلم (١٤٧٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (١٠/ ٢٦٩)، وانظر «الجرح والتعديل» (٧/ ٣٢٥)، و«ميزان الاعتدال» (٤/ ٣٣١).

قَالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: قلتُ: كلُّ رجالِهِ ثقاتٌ، وقَدْ أَخْبرنا به عاليًا مُحمَّد بن عبد الباقي، نا أبو يَعْلَىٰ مُحمَّد بن الحُسَين، نا عليُّ بن عُمَر، ثنا أحمد بن مُحمَّد الأسديُّ، ثنا عبد الرَّحمن بن يُونُس فَذَكره، وَقَالَ: مَنْ أصابَه جهدٌ فِي رَمَضان، فلَمْ يُفْطر، دَخل النَّارَ.

قَالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: وأمَّا تقليلُ ابن خفيف، فِفعْلٌ قبيحٌ لا يُسْتَحسنُ، وما يورد هَذِهِ الأخبار عَنْهم إيرادًا مُسْتَحسنًا لَها إلَّا جاهلٌ بأُصُول الشَّرْع، فأمَّا العالمُ المُتَمكِّن، فإنَّه لا يهولُهُ قَوْلُ مُعظَّمٍ، فكيف بِفِعْلِ جاهلٍ مُبرسم.

وأمَّا كَوْنُهم لا يأكُلُون اللَّحمَ، فهَذَا مَذْهبُ البَراهمة الَّذين لا يَرَوْنَ ذبحَ الحَيَوان، واللهُ عَزَّوَجَلَّ أَعْلمُ بِمَصَالح الأبْدَان، فأبَاح اللَّحْمَ لتَقْويتها، فأكْلُ اللَّحْمِ يُقوِّي القوَّة، وتَرْكه يُضْعفها، ويُسِيءُ الخُلُقَ، وقَدْ «كَانَ رسول الله ﷺ يأكُلُ اللَّحمَ، ويحبُّ الذِّراعَ من الشَّاة»[1]، ودَخل يومًا، فَقُدِّم إليه طَعَامٌ من طعَام البيت، فَقَالَ: «لَمْ أَرَ لكم بُرْمةً تَفُور»[2].

وَكَانَ الحسنُ البصريُّ يَشْتري كلَّ يومٍ لحمًا، وعَلَىٰ هَذَا كان السَّلف إلَّا أنْ يكونَ فيهم فقيرٌ، فيبعُدُ عَهْدُهُ باللَّحم لأجْل الفقر، وأمَّا مَنْ منعَ نَفْسَه الشَّهوات، فإنَّ هَذَا عَلَىٰ الإطلاق لا يَصْلحُ؛ لأنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ لَمَّا خَلَق بني آدَمَ عَلَىٰ الحَرَارة والبُرُودة واليُبُوسة والرُّطُوبة، وجَعَل صحَّته مَوْقوفةً عَلَىٰ تعادُلِ الأَخْلَاط: الدَّم، والبلغم، والمرَّة الصَّفراء، والمرَّة السَّوداء، فتارَةً يزيد بَعْض الأَخْلَاط فتميل الطَّبيعة إلَىٰ ما ينقصُهُ، مثل أنْ تزيدَ الصَّفراء، فيميل الطَّبع إلَىٰ الحُمُوضة، أو ينقص البلغمُ، فَتَميل النَّفس إلَىٰ المرطبات، فقَدْ رُكِّبَ فِي الطَّبع الميلُ إلَىٰ ما تميل إليه النَّفسُ وتُوَافقه، فإذا مَالَت النَّفسُ إلَىٰ ما يُصْلحها، فمُنِعَتْ، فقَدْ قُوبِلَتْ حِكْمَةُ الباري سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بِرَدِّها، ثُمَّ يؤثر ذَلكَ فِي البَدَن، فكَان هَذَا الفعلُ مُخَالفًا للشَّرْع والعقل.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٩٧)، ومسلم (١٥٠٤) من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

ومَعْلومٌ أنَّ البدنَ مطيَّةُ الآدميِّ، ومتَىٰ لَمْ يُرْفق بالمطيَّة، لَمْ تَبْلغ، وإنَّما قَلَّتْ عُلُومُ هؤلاء، فَتَكلَّموا بآرَائِهِمْ الفَاسِدَةِ، فإنْ أَسْنَدوا، فإلىٰ حَديثٍ ضَعيفٍ، أَوْ موضوعٍ، أَوْ يكون فَهْمُهمْ منه رديئًا، ولقَدْ عَجبتُ لأبِي حامدٍ الغزالِي الفقيه كَيْفَ نَزَلَ مع القَوْم من رُتْبة الفقه إلَىٰ مَذَاهبهمْ حتَّىٰ إنَّه قَالَ: لا يَنْبغي للمريد إذا تَاقَتْ نفسُهُ إلَىٰ الجماع أَنْ يأكلَ، ويُجَامع فيُعْطي نَفْسَه شَهْوتين، فتَقْوىٰ عليه.

قَالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: وهَذَا قبيحٌ فِي الغاية، فإنَّ الإدامَ شَهْوةٌ فوق الطَّعام، فينْبغي ألَّا يأكلَ إدامًا، والماءُ شهوةٌ أُخْرىٰ.

أوَ لَيْسَ فِي الصَّحيح أنَّ رسول الله ﷺ: «طَافَ عَلَىٰ نسائِهِ بغسلٍ واحدٍ»[1]، فهلَّا اقْتصَرَ عَلَىٰ شهوةٍ واحدةٍ. أوَ لَيْسَ فِي «الصَّحيحين» أنَّ رسول الله ﷺ: «كَانَ يأكُلُ القثَّاء بالرُّطَب»[2]، وَهَاتانِ شَهْوتانِ، أَوَمَا أَكَل عند أبِي الهيثم بن التَّيِّهان خبزًا، وشواءً، وبُسرًا، وشربَ ماءً باردًا؟ أَوَمَا كان الثَّوريُّ يأكُلُ اللَّحمَ والعنبَ والفالوذجَ، ثُمَّ يَقُوم فيُصلِّي، أَوَمَا تُعْلَفُ الفرسُ الشَّعيرُ والتبنُ والقتُّ، وتُطْعم النَّاقةُ الخبطَ والحمضَ، وهل البدنُ إلَّا ناقةٌ.

وإنَّما نَهَىٰ بَعْضُ القُدَماء عن الجمع بين إدَامَين عَلَىٰ الدَّوام؛ لئلَّا يُتَّخذ ذلك عادةً، فيحوج إلَىٰ كُلْفةٍ، وإنَّما تُجْتَنب فُضُول الشَّهوات؛ لئلَّا يَكُونَ سببًا لكَثْرة الأَكْل، وجَلْب النَّوم، ولئلَّا تتعوَّد فيقل الصَّبر عنها، فيحتاج الإنسانُ إلَىٰ تَضْييع العُمُر فِي كَسْبها، وربَّما تَناوَلها مِنْ غَيْر وَجْهها، وهَذَا طريقُ السَّلَف، في تَرْك فُضُول الشَّهوات.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٨)، ومسلم (٣٠٩) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٥٤٤٠)، ومسلم (٢٠٤٣) من حديث عبد الله بن جعفر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

والحديثُ الَّذي احْتجُّوا به: «احْرِمُوا أنفسكم طيبَ الطَّعام»[١]، حديثٌ موضوعٌ عَمِلَتْهُ يَدَا بزيع الرَّاوي.

وأمَّا إذا اقْتصَرَ الإنسانُ عَلَىٰ خبز الشَّعير والملح الجريش، فإنَّه يَنْحرفُ مِزَاجُهُ؛ لأنَّ خُبْزَ الشَّعير يابسٌ مُجفِّفٌ، والملحَ يابسٌ قابضٌ يَضُرُّ الدِّماغَ والبصرَ، وتَقْليلُ المَطْعم يُوجِبُ تَنْشيفَ المَعِدَةِ، وضِيقَهَا، وقَدْ حَكَىٰ يُوسُف الهمدانيُّ عن شيخِهِ عَبْد الله الحوفيِّ أنَّه كان يأكُلُ خبزَ البلُّوط بغَيْر إدامٍ، وكان أصحابُهُ يَسْألونَهُ أنْ يأكلَ شيئًا من الدُّهن والدُّسُومات، فلا يفعل.

قَالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: وهَذَا يُورث القولنج الشَّديد، وَاعْلَمْ أنَّ المَذْمومَ من الأَكْل إنَّما هُوَ فرط الشِّبع، وأَحْسَنُ الآداب في المَطْعم أدَبُ الشَّارع ﷺ.

أخبرنا ابْنُ الحُصَين، نا ابن المذهب، نا أبو بكر بن حمدان، ثنا عَبْد الله بن أحمد، ثنِي أبِي، ثنا أبو المغيرة، ثنا سُلَيمان بن سُلَيم الكنانيُّ، ثنا يَحْيَىٰ بن جابر الطَّائي، قَالَ: سمعتُ المقدامَ بن معدي كرب يَقُولُ: سمعتُ رسول الله ﷺ يَقُولُ: «مَا مَلأَ ابْنُ آدمَ وعاءً شرًّا من بطنِهِ، حَسْب ابن آدَمَ أكلاتٌ يُقِمْنَ صُلْبهُ، فإنْ كان لا بُدَّ، فَثُلُثٌ لطَعَامِهِ، وثُلثٌ لشَرَابِهِ، وثُلثٌ لنَفَسِهِ»[٢].

قَالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: قلت: فَقَدْ أَمَر الشَّرْعُ بِما يقيم النَّفْسَ حفظًا لَها، وسَعْيًا فِي مَصْلحتها، ولَوْ سمع أبقراط هَذِهِ القِسْمةَ فِي قولِهِ: ثُلُثٌ، وثُلُثٌ، وثُلُثٌ، لدُهِشَ من هَذِهِ الحكمة؛ لأنَّ الطَّعامَ والشَّرابَ يَرْبوان فِي المعدَّة، فيتقارب مِلْؤُهَا، فيَبْقَىٰ للنَّفَس من الثُّلُث قريبٌ، فهَذَا أعدلُ الأُمُور، فإنْ نقصَ منه قليلًا، لَمْ يضرَّ، وإنْ زاد النُّقصان أضعفَ القوَّةَ، وضَيَّقَ المَجَاري عَلَىٰ الطَّعام.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٨٠)، وابن ماجه (٣٣٤٩)، وصَحَّحه الألبانِيُّ في «صحيح الجامع» (٥٦٧٤).

فصل [الجوع]

قَالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: وَاعْلَمْ أنَّ الصُّوفيَّة إنَّما يَأمُرُون بالتَّقلُّل شُبَّانهم ومُبْتدئيهم، ومِنْ أضرِّ الأَشْيَاء عَلَىٰ الشَّابِّ: الجوع، فإنَّ المشايخَ يَصْبرونَ عَلَيه، والكُهُولُ أيضًا، فأمَّا الشُّبَّانُ فلا صَبْرَ لَهم عَلَىٰ الجوع، وسَبَبُ ذلك أنَّ حَرَارةَ الشَّباب شديدةٌ، فلِذَلِكَ يَجُودُ هضمُهُ، ويكثر تَحلُّل بدنِهِ، فيحتاج إلَىٰ كَثْرة الطَّعام كما يَحْتاج السِّراجُ الجديدُ إلَىٰ كَثْرة الزَّيت، فإذا صَابَر الشَّابُّ الجوعَ وتأبَّتَهُ فِي أوَّل النُّشُوء، قَمَع نُشُوءَ نفسِهِ، فكَان كَمَنْ يُعَرْقب أُصُولَ الحيطان، ثُمَّ تَمْتدُّ يدُ المَعدَّة لعَدَم الغذاء إلَىٰ أَخْذ الفُضُول المُجْتَمعة فِي البَدَن، فتُغذِّيه بالأَخْلَاط، فيَفْسدُ الذِّهْنُ والجسمُ، وهَذَا أصلٌ عظيمٌ يَحْتاج إلَىٰ تَأمُّلٍ.

فصل [حكم التقلل الشديد من الطعام]

قَالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: وَذَكَر العُلَماءُ التَّقلُّلَ الَّذي يُضْعفُ البدنَ.

أخبرنا مُحمَّد بن ناصر الحافظ، نا أبو الحُسَين بن عبد الجبَّار، نا عبد العزيز بن عليٍّ الأزجيُّ، نا إبراهيم بن جعفر السَّاجي، نا أبو بكر أحمد بن مُحمَّد بن هارون الخلَّالُ، نا عَبْدُ الله بن إبراهيم بن يَعْقوب الجيلي، قَالَ: سَمعتُ أبَا عَبْد الله أحمد بن حنبلٍ، قَالَ له عُقْبةُ بن مكرمٍ: هَؤُلَاء الَّذين يأكُلُونَ قليلًا، ويُقلِّلون منْ مَطْعمهم. فَقَالَ: ما يُعْجبنِي، سَمعتُ عبد الرَّحمن بن مهديٍّ يَقُول: فَعَل قومٌ هَذَا، فقَطعهمْ عَن الفَرْض.

قَالَ الخلَّال: وأخْبَرنِي أبو بكرٍ أحْمَد بن مُحمَّد بن عبد الله بن صدقة، ثنا إسحاق بن داود بن صُبَيح، قَالَ: قلتُ لعَبْد الرَّحمن بن مهديٍّ: يَا أبَا سَعيد، إنَّ ببَلَدنا قومًا من هَؤُلَاء الصُّوفيَّة. فقَالَ: لا تَقْرب هؤلاء، فإنَّا قَدْ رأينا من هَؤُلَاء قومًا أخْرَجهم الأمرُ إلَىٰ الجُنُون، وبَعْضهمْ أخرجهُمْ إلَىٰ الزَّندقة، ثُمَّ قَالَ: خَرَج سفيانُ الثَّوريُّ فِي سفرٍ فشَيَّعتُهُ، وكان معه سفرةٌ فيها فَالُوذَج، وكَانَ فيها حملٌ.

قَالَ الخلَّال: وأَخْبَرنِي المروزيُّ، قَالَ: سمعتُ أبا عبد الله أحمد بن حنبلٍ، وقَالَ له رجلٌ: إنِّي منذ خمسَ عشرةَ سنةً، قَدْ ولع بِي إبليسُ، وربَّما وَجَدْتُ وَسْوسةً أتفكَّرُ فِي الله عَزَّوَجَلَّ، فَقَالَ: لعَلَّك كنت تُدْمن الصَّوم، أفطِرْ، وكُلْ دسمًا، وجَالِسِ القُصَّاصَ.

قَالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: وفِي هَؤُلَاء القوم مَنْ يَتَناول المَطَاعمَ الرَّديئة، ويَهْجرُ الدَّسمَ، فيجتمع فِي مَعدتِهِ أَخْلاطٌ فَجَّةٌ، فتَتغذَّىٰ المَعِدَةُ منها مُدَّةً؛ لأنَّ المعدةَ لا بُدَّ لَها من شيءٍ تَهْضمُهُ، فإذا هَضَمتْ ما عندها من الطَّعام، ولَمْ تَجِدْ شيئًا، تناولت الأَخْلَاطَ، فهَضَمتْهَا، وجَعَلتها غذاءً، وذَلكَ الغذاءُ الرَّديءُ يَخْرج إِلَىٰ الوَسَاوسِ، والجُنُونِ، وَسُوءِ الأَخْلاقِ.

وهَؤُلَاء المُتقلِّلُون يَتنَاولُونَ مَعَ التَّقلُّل أَرْدَأَ المَأكولَات، فتكثر أَخْلَاطُهُمْ، فتَشْتَغل المَعِدَةُ بهَضْم الأَخْلَاط، ويَتَّفق لَهم تَعوُّدُ التَّقلُّل بالتَّدريج، فتضيق المَعِدَةُ، فيُمْكنهم الصَّبر عن الطَّعام أَيَّامًا، ويُعينُهُمْ عَلَىٰ هَذَا قوَّة الشَّباب، فيَعْتقدون الصَّبرَ عن الطَّعام كَرامةً، وإنَّما السَّببُ ما عَرَّفتك.

وقَدْ أنبأنا عبد المُنْعم بن عبد الكريم، قَالَ: حَدَّثنِي أبِي قَالَ: كَانَت امرأةٌ قَدْ طعنت فِي السِّنِّ، فَسُئلتُ عن حَالِها؟ فَقَالتْ: كنتُ فِي حال الشَّباب أجدُ من نَفْسي أحوالًا أَظنُّها قوَّة الحَال، فلَمَّا كبرتُ، زَالَتْ عنِّي، فعلمتُ أنَّ ذلكَ كان قوَّة الشَّباب، فتوهَّمتُها أَحْوالًا، قَالَ: سمعتُ أبا عليٍّ الدَّقَّاق يَقُول: ما سمعَ أحدٌ هَذِهِ الحكايةَ من الشُّيُوخ إلَّا رقَّ لِهَذِهِ العَجُوز، وَقَالَ: إنَّها كَانَتْ مُنْصفةً.

وقَالَ المُصنِّف: فإنْ قيل: كيف تَمْنعونَ من التَّقلُّل وقَدْ رويتم أنَّ عُمَر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يأكُلُ كلَّ يومٍ إحدىٰ عَشْرة لقمةً، وأنَّ ابْنَ الزُّبير كان يَبْقىٰ أسبوعًا لا يأكُلُ، وأنَّ إبراهيمَ التَّيميَّ بَقِيَ شَهْرين.

قلنا: قَدْ يَجْري للإنسان من هَذَا الفنِّ فِي بَعْض الأوقات غير أنَّه لا يَدُومُ عليه، ولا يَقْصد التَّرقِّي إليه، وقَدْ كَانَ فِي السَّلف مَنْ يَجُوع عِوَزًا، وَفِيهِمْ مَنْ كان الصَّبْرُ له عادةً لا

تضُرُّ بَدنَهُ، وفِي العَرَب مَنْ يَبْقىٰ أيامًا لا يزيدُ عَلَىٰ شُرْب اللَّبن، ونَحْن لا نأمُرُ بالشِّبع، إنَّما نَنْهىٰ عن جوعٍ يُضعفُ القوَّةَ، ويُؤذي البدنَ، وإذا ضَعُفَ البدنُ، قلَّت العبادةُ، فإنْ حَملت البدنَ قُوَّةُ الشَّباب، جاء الشَّيبُ فأقْذَع بالرَّاكب.

وقَدْ أخبرنا مُحمَّد بن ناصر الحافظ، نا عبد القادر بن يُوسُف، نا أبو إسحاق البرمكيُّ، ثنا أبو يَعْقوب بن سعدِ النَّسائيُّ، ثنا جدِّي الحَسَن بن سفيان، ثنا حرملة بْنُ يَحيىٰ، ثنا عَبْد الله ابن وَهْبٍ، ثنا سُفْيان بن عُيَيْنة، عن مالك بن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ يُطْرحُ لعُمَر بن الخطَّاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عنه الصَّاعُ من التَّمر، فيأكُلُهُ حتَّىٰ حَشَفه.

وقد رُوِّينا عن إبراهيم بن أدهم: أنَّه اشْترىٰ زُبدًا، وعسلًا، وخبزًا حُوَّاري. فَقِيلَ له: هَذَا كلُّه تأكلُهُ؟! فَقَالَ: إذا وَجَدنا، أكَلْنا أكْلَ الرِّجال، وإذا عَدِمْنَا صَبَرنا صَبْرَ الرِّجال.

قَالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: وأمَّا الشُّرْبُ من الماء الصَّافي: فَقَدْ تَخيَّرهُ رسول الله ﷺ.

أخبرنا ابن الحصين، نا ابن المذهب، نا أحمد بن جَعْفرٍ، ثنا عبد الله بن أحمد، ثنا أبِي، ثنا أبو عامر العقديُّ وغيرُهُ، ثنا فليح بن سُلَيمان، عن سعيد بن الحارث، عن جابر بن عبد الله، أنَّ رسول الله ﷺ: «أتىٰ قومًا من الأنْصَار يَعُودُ مريضًا، فَاسْتَسْقىٰ وجَدْولٌ قريبٌ منه، فَقَالَ: «إنْ كان عندكم ماءٌ باتَ فِي شَنٍّ وإلَّا كرعنا»[1]، أخْرَجه البخاريُّ.

وأخبرنا أبو مَنْصور القزَّاز، نا أبو بكرٍ الخطيب، نا أبو عُمَر بن مهديٍّ، ثنا الحُسَين ابن إسماعيل المحامليُّ، ثنا مُحمَّد بن عمرو بن أبِي مَذْعورٍ، ثنا عبد العزيز بن مُحمَّد، نا هشام بن عروة، عَنْ أبيه، عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «أنَّ رسول الله ﷺ كَانَ يُسْتقىٰ له الماءُ العَذْبُ من بئر السُّقيا»[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦١٣).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٧٣٥)، وأحمد (٢٤١٧٢)، وصَحَّحه الألبانيُّ فِي «صحيح الجامع» (٤٩٥١).

قَالَ المُصنِّف: ويَنْبغي أن يُعْلمَ أنَّ الماءَ الكدرَ يُولِّدُ الحصىٰ فِي الكُلَىٰ، والسَّددَ فِي الكبد، وأمَّا الماءُ الباردُ فإنَّه إذا كانت بُرُودتُهُ معتدلةً، فإنَّه يشدُّ المَعدَةَ، ويُقوِّي الشَّهوةَ، ويُحسِّن اللَّونَ، ويَمْنع عفنَ الدَّم، وصُعُود البُخَارات إلَىٰ الدِّماغ، ويَحْفظ الصِّحَّة، وإذا كان الماءُ حَارًّا، أفْسَدَ الهضمَ، وأحْدثَ التَّرهُّلَ، وأذبلَ البدنَ، وأدَّىٰ إلَىٰ الاستسقاء والدِّقِّ، فإنْ سُخِّن بالشَّمس، خِيفَ منه البَرَص.

وقَدْ كَانَ بَعْضُ الزُّهَّاد يَقُول: إذا أكَلتَ الطَّيِّبَ، وشربتَ الماءَ الباردَ، متَىٰ تُحبُّ الموتَ، وكَذَلك قَالَ أبو حامدٍ الغزَّاليُّ: إذا أكَل الإنسانُ ما يستلذُّهُ، قَسَا قلبُهُ، وكَرِهَ الموتَ، وإذا منع نَفْسَهُ شَهَواتِها، وَحَرمها لَذَّاتِها، اشْتَهتْ نفسُهُ الإفلاتَ من الدُّنيا بالمَوْت.

قَالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: واعجبًا كَيْفَ يَصْدرُ هَذَا الكَلَامُ من فقيهٍ، أترىٰ لَوْ تَقلَّبت النَّفسُ فِي أيِّ فنٍّ كان من التَّعْذيب ما أحبَّت الموتَ، ثُمَّ كيف يَجُوزُ لنا تَعْذيبُهَا وقَدْ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء:٢٩]، ورَضِيَ منَّا بالإفطار فِي السَّفَر رفقًا بِها، وَقَالَ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥]، أوَلَيْسَتْ مَطيَّتنا الَّتِي عَلَيها وُصُولنا:

وكَيْفَ لا نَأْوي لَها وهي الَّتِي ... بِها قَطَعنا السَّهْلَ والحزُونَا

وأمَّا مُعَاقبةُ أبِي يزيدَ نفسَهُ بتَرْك الماء سَنَةً، فإنَّها حالةٌ مَذْمومةٌ لا يَرَاها مُسْتَحسنةً إلَّا الجُهَّالُ، ووَجْهُ ذَمِّها أنَّ للنَّفس حقًّا، ومَنْعُ الحقِّ مُسْتحقَّهُ ظلمٌ، ولا يحلُّ للإنسان أن يُؤْذي نفسَهُ، ولا أنْ يَقْعدَ فِي الشَّمس فِي الصَّيف بقَدْر ما يَتأذَّىٰ، ولا فِي الثَّلْج فِي الشِّتاء، والماءُ يَحْفظ الرُّطُوبات الأصليَّة فِي البدن، وينفذ الأغْذَية، وقِوَامُ النَّفس بالأغْذيَة، فإذَا مَنَعها أغذيةَ الآدميِّينَ، ومَنَعها الماءَ، فَقَدْ أعانَ عَلَيها، وهَذَا من أفْحَش الخَطَإ، وكَذَلك منعُهُ إيَّاها النَّوم.

قَالَ ابن عقيل: ولَيْسَ للنَّاس إقَامةُ العُقُوبات، وَلَا اسْتيفَاؤُهَا من أنْفسهم، يدلُّ عَلَيه أنَّ إقامةَ الإنْسَان الحدَّ عَلَىٰ نفسِهِ لا يُجْزئُ، فإنْ فَعَله، أعَاده الإمامُ، وهَذِهِ النُّفُوس وَدَائعُ

الله عَزَّوَجَلَّ حتَّىٰ إنَّ التَّصرُّفَ فِي الأَمْوَال لَمْ يُطْلق لأَرْبَابِها إلَّا عَلَىٰ وُجُوهٍ مَخْصوصةٍ.

قَالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: قلت: وقَدْ رُوِّينا فِي حديث الهجرة أنَّ النَّبِيَّ ﷺ تزوَّد طعامًا وشرابًا، وأنَّ أبا بكرٍ فَرَشَ له فِي ظلِّ صخرةٍ، وحَلَب له لبنًا فِي قدحٍ، ثُمَّ صبَّ ماءً عَلَىٰ القدح حتَّىٰ بردَ أسفلُهُ، وكلُّ ذلك من الرِّفق بالنَّفْس.

وأمَّا ما رَتَّبه أبو طالبٍ المكِّيُّ، فَحَمْلٌ عَلَىٰ النَّفْس بِما يُضْعفها، وإنَّما يُمْدحُ الجوعُ إذا كان بِمِقْدَارٍ، وذِكْرُ المُكَاشفة مِنَ الحديث الفارغ.

وأمَّا ما صَنَّفه التِّرمذيُّ، فكَانَ ابتداءَ شَرْعٍ برأيه الفاسد، ومَا وَجْه صيام شَهْرين مُتَتابعين عند التَّوبة، وَمَا فائدةُ قَطْع الفَوَاكه المُبَاحة، وإذا لَمْ ينظر فِي الكُتُب، فبِأَيِّ سِيرَةٍ يَقْتدي.

وأمَّا الأَرْبعينيَّة، فحديثٌ فارغٌ، رَتَّبوه عَلَىٰ حديثٍ لَا أَصْلَ له: «**مَنْ أَخْلصَ لله أربعينَ صباحًا، لَمْ يَجُبَّ الإخلاصُ أبدًا**»[1]، فَمَا وَجْه تَقْديره بأَرْبَعينَ صباحًا، ثُمَّ لَوْ قدرنا ذَلكَ، فالإِخْلاصُ عَمَلُ القلب، فَمَا بالُ المطعم، ثُمَّ ما الَّذي حَسَّن مَنْعَ الفاكهة، ومَنْع الخبز، وهَلْ هَذَا كُلُّهُ إلَّا جهلٌ.

وقَدْ أنبأنا عبد المُنْعم بن القُشَيري، قَالَ: حَدَّثنا أَبِي، قَالَ: حُجَج الصُّوفيَّة أَظْهَرُ من حُجَج كلِّ أحدٍ، وقَوَاعدُ مَذْهبهم أقْوىٰ من قَوَاعد كلِّ مذهبٍ؛ لأنَّ النَّاس إمَّا أَصْحَاب نَقْلٍ وأثرٍ، وإمَّا أربابُ عقلٍ وفِكْرٍ، وشُيُوخُ هَذِهِ الطَّائفة ارْتَقوا عَنْ هَذِهِ الجملة، والَّذي للنَّاس غيبٌ، فلَهُمْ ظهورٌ، فهُمْ أهلُ الوِصَالِ، والنَّاسُ أَهْلُ الاستدلال، فيَنْبغي لمُريدِهِمْ أَنْ يقطعَ العَلَائقَ، وأَوَّلُهَا الخُرُوجُ من المال، ثُمَّ الخُرُوجُ من الجاه، وأَلَّا ينامَ إلَّا غلبةً، وأَنْ يُقلِّل غِذَاءهُ بالتَّدريج.

---

(١) أخرجه القضاعي فِي «مسند الشهاب» (١/ ٢٨٥)، ولفظُهُ: «مَنْ أخلص لله تعالىٰ أربعين صباحًا، نوَّر الله تَعَالىٰ قلبَهُ، وأجرىٰ ينابيع الحكمة من قلبه علىٰ لسانِهِ».
قال الألبانيُّ فِي «ضعيف الجامع» (٥٣٦٩): موضوع.

قَالَ المُصنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: قلت: مَنْ له أدنىٰ فَهمٍ، يعرف أنَّ هَذَا الكلامَ تَخليطٌ، فإنَّ مَنْ خَرَجَ عن النَّقل والعَقْل، فليس بِمَعْدودٍ فِي النَّاس، وليس أحدٌ من الخَلْق إلَّا وهو مستدلٌّ، وذِكْرُ الوِصَالِ حديثٌ فارغٌ، نَسْأل الله عَزَّ وَجَلَّ العصمةَ من تَخليط المُرِيدِينَ والأَشْيَاخ، واللهُ المُوفِّق.

أخبرنا يَحيَىٰ بن عليٍّ المُدْبر، نا أبو بكر مُحمَّد بن عليٍّ الخيَّاط، ثنا الحسنُ بن الحُسَين ابن حمكان، ثنا عبدان بن يزيدَ العطَّار (ح)، وأَخبَرنا مُحمَّد بن أبِي منصورٍ، أنبأنا الحَسَن بن أحمد الفقيه، ثنا مُحمَّد بن أحمد الحافظ، ثنا أبو عبد الله مُحمَّد بن عيسىٰ البُرُوجردي، ثنا عُمَير بن مِرْداس، قَالَا: حَدَّثنا مُحمَّد بن بكير الحضرميُّ، ثنا القاسم بن عبد الله بن عُمَر بن حفص بن عاصم العُمَري، عن عُبَيد الله بن عُمَر، عن عليِّ بن زيد بن جدعان، عَنْ سعيد بن المُسيَّب قَالَ: جاءَ عثمانُ بن مَظْعونٍ إلَىٰ النَّبيِّ ﷺ، فَقَالَ: يا رَسُولَ الله، غَلَبنِي حديثُ النَّفس، فلَمْ أحبَّ أن أُحدثَ شيئًا حتَّىٰ أَذْكَرَ لك ذَلكَ. فَقَالَ رسول الله ﷺ: «وَمَا تُحدِّثُك نَفْسُك يا عثمان؟». قَالَ: تُحدِّثنِي نَفْسي بأَنْ أَخْتَصي. فَقَالَ: «مهلًا يا عثمان، فإنَّ خِصَاءَ أُمَّتي الصِّيامُ». قَالَ: يَا رَسُول الله، فإنَّ نَفْسي تُحدِّثنِي أنْ أترهَّب فِي الجبال. قَالَ: «مهلًا يا عثمان، فإنَّ تَرهُّبَ أُمَّتي الجُلُوسُ فِي المَسَاجد، وانتظار الصَّلاة بعد الصَّلاة». قَالَ: يَا رَسُولَ الله، فإنَّ نَفْسي تُحدِّثنِي بأنْ أَسِيحَ فِي الأرض. قَالَ: «مهلًا يا عُثْمَان، فإنَّ سياحةَ أُمَّتي الغَزْوُ فِي سبيل الله، والحجُّ والعُمْرة». قَالَ: يا رَسُولَ الله، فإنَّ نَفْسي تُحدِّثنِي بأَنْ أخرجَ من مالي كلِّه. قَالَ: «مهلًا يا عثمان، فإنَّ صَدَقتك يومًا بيومٍ، وتَكُفُّ نَفْسَك وعِيالَكَ، وتَرْحمُ المسكينَ واليتيمَ، وتطعمُهُ أفضل من ذَلكَ». قَالَ: يا رَسُولَ الله، فإنَّ نَفْسي تُحدِّثنِي بأَنْ أطلقَ خَوْلةَ امرأتِي. قَالَ: «مهلًا يا عثمان، فإنَّ هِجْرةَ أُمَّتي مَنْ هَجَرَ ما حَرَّم اللهُ عليه، أو هَاجر إلَيَّ فِي حَيَاتِي، أو زَارَ قَبْري بعد مَوْتي، أو مَاتَ، ولَهُ امرأةٌ، أو امْرَأتان، أو ثلاثٌ، أو أربعٌ». قَالَ: يا رَسُولَ الله، فإنَّ نَفْسي تُحدِّثنِي ألَّا أَغْشَاها. قَالَ: «مَهْلًا يا عثمان، فإنَّ الرَّجل المسلمَ إذا

غَشِيَ أهلَهُ، فإنْ لَمْ يكن من وقعتِهِ تلك ولدٌ، كان له وَصِيفٌ فِي الجنَّة، فإنْ كان من وقعتِهِ تلك ولدٌ، فإنْ مات قبله، كان له فَرَطًا وشفيعًا يوم القيامة، وإنْ كان بعده، كان له نورًا يَوْمَ القيامة». قَالَ: يَا رَسُولَ الله، فإنَّ نَفْسي تُحدِّثني ألَّا آكلَ اللَّحمَ. قَالَ: «مهلًا يا عثمان، فإنِّي أحبُّ اللَّحْمَ، وآكلُهُ إذا وجدتُهُ، ولَوْ سألتُ ربِّي أنْ يُطعمني إيَّاه كلَّ يومٍ لأطْعَمني». قَالَ: يا رَسُولَ الله، فإنَّ نَفْسي تُحدِّثني ألَّا أمسَّ طِيبًا. قَالَ: «مهلًا يا عثمان، فإنَّ جبريلَ أمَرني بالطِّيب غِبًّا، ويَوْم الجُمُعة لا متركَ له، يا عُثْمان، لا تَرْغب عَنْ سُنَّتي، فمَنْ رغبَ عَنْ سُنَّتي، ثُمَّ مات قبل أن يَتُوبَ، صَرَفتِ المَلائكةُ وَجْهَه عَنْ حَوْضي»[(١)].

قَالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: هَذَا حديثُ عُمَير بن مِرْداسٍ.

أَخْبَرنا مُحمَّد بن عبد الباقي، نا أبو مُحمَّد بن أبِي طاهرٍ الجوهريُّ، نا أبو عمر بن حيُّويه، نا أحمد بن معروفٍ، نا الحُسَين بن الفهم، ثنا مُحمَّد بن سعدٍ، نا الفضلُ بن دُكَين، ثنا إسرائيلُ، ثنا أبو إسحاق، عن أبِي بُرْدة، قَالَ: دَخَلت امرأةُ عُثْمان بن مَظْعونٍ عَلَىٰ نِسَاءِ النَّبيِّ ﷺ، فَرَأينها سَيِّئة الهَيْئة، فقُلْنَ لَها: ما لك؟ فَمَا فِي قريشٍ رجلٌ أغنىٰ من بَعْلك. قَالَتْ: ما لنا منه شيءٌ، أمَّا ليلُهُ فَقائمٌ، وأمَّا نَهارُهُ فَصائمٌ، فدَخلن إلَىٰ النَّبيِّ ﷺ، فَذَكرنَ ذَلكَ له، فلَقِيَهُ، فَقَالَ: «يا عُثْمان، أمَا لَكَ بِي أسوةٌ؟». فقَالَ: بأبِي وأُمِّي أنتَ، وما ذَاكَ؟ قَالَ: «تَصُومُ النَّهارَ، وتَقُومُ اللَّيل». قَالَ: إنِّي لأفعلُ، قَالَ: «إنَّ لعَيْنك عَلَيك حقًّا، وإنَّ لجَسَدك عَلَيك حقًّا، وإنَّ لأهْلك عليك حقًّا، فَصَلِّ ونَمْ، وصُمْ وأفْطر»[(٢)].

قَالَ ابن سعدٍ: وأَخْبرنا عارم بن الفضل، ثنا حَمَّاد بن زيدٍ، ثنا مُعَاوية بن عَبَّاسٍ الجرميُّ، عن أبِي قلابة، أنَّ عُثْمانَ بن مظعون اتَّخذَ بيتًا، فَقَعد يَتعبَّدُ فيه، فبَلَغ ذلك

---

(١) ذكره الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (٤/ ٩) بطوله.

(٢) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٣/ ٣٩٥) مرسلًا.

النَّبِيّ ﷺ، فأتاه بعضادتي باب البيت الَّذي هُوَ فيه، وَقَالَ: «يا عُثْمان، إنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ لَمْ يَبْعثني بالرَّهبانيَّة -مرَّتين أو ثلاثًا- وإِنَّ خَيْرَ الدِّين عند الله الحنيفيَّة السَّمْحة»(١).

أخبرنا مُحمَّد بن ناصرٍ، ثنا مُحمَّد بن علي بن ميمون، نا عبد الوَهَّاب بن مُحمَّد الغُندجانِي، نا أبو بكر بن عبدان، نا مُحمَّد بن سهلٍ، ثنا البخاريُّ، قَالَ: قَالَ موسىٰ بن إسماعيل، نا حَمَّاد بن يزيد بن مسلم، ثنا مُعَاوية بن قرَّة، عن كهمس الهلالِيِّ، قَالَ: «أَسْلَمتُ، وأتيتُ النَّبِيَّ ﷺ، فأخبرتُهُ بإِسْلَامي، فمَكَثْتُ حَوْلًا، ثُمَّ أتيتُهُ، وقَدْ ضمرتُ، ونَحُلَ جِسْمِي، فَخَفض فيَّ البصرَ، ثُمَّ صَعَّدَهُ. قلت: أَمَا تَعْرفنِي، قَالَ: «ومَنْ أنتَ؟». قلت: أنا كهمسٌ الهلاليُّ. قَالَ: «فَمَا بلغ بك ما أرىٰ؟». قلتُ: ما أفطرتُ بَعْدك نَهارًا، ولَا نِمْتُ ليلًا. قَالَ: «ومَنْ أَمَرك أن تُعذِّب نَفْسَك؟ صُمْ شهر الصَّبر، ومِنْ كلِّ شهرٍ يومًا». قلت: زِدْنِي. قَالَ: «صُمْ شَهْر الصَّبر، ومن كلِّ شهرٍ يَوْمين». قلت: زِدنِي. قَالَ: «صُمْ شَهْر الصَّبر، ومِنْ كلِّ شهرٍ ثلاثة أيَّامٍ»(٢).

أنبأنا مُحمَّد بن عبد الملك بن خَيْرون، أنبأنا أبو بكرٍ أحمد بن عليِّ بن ثابتٍ، ثنا أبو حازمٍ عمر بن أحمد العبدُوي، نا أبو أحمد مُحمَّد بن الغطريف، ثنا أبو بكرٍ الذَّهبيُّ، ثنا حُمَيد بن الرَّبيع، ثنا عُبَيدة بن حميدٍ، عن الأعمش، عَنْ جرير بن حازمٍ، عن أيُّوب، عَنْ أبِي قلابةَ، بَلَغ به النَّبِيّ ﷺ أَنَّ ناسًا من أصحابِهِ اخْتَموْا النِّساء واللَّحم، اجْتَمعوا، فَذَكرنا تَرْكَ النِّساء واللَّحم، فأَوْعَد فيه وعيدًا شديدًا، وقَالَ: «لَوْ كنتُ تَقدَّمت فيه لفعلتُ»، ثُمَّ قَالَ: «إِنِّي لَمْ أُرْسَل بالرَّهبانيَّة، إِنَّ خَيْرَ الدِّين الحنيفيَّةُ السَّمْحةُ»(٣).

قَالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: وقَدْ رُوِّينا فِي حديثٍ آخر عن النَّبِيِّ ﷺ أنَّه قَالَ: «إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ

(١) أخرجه ابن سعد فِي «الطبقات» (٣/ ٣٩٥)، وصَحَّحه الألبانِيُّ فِي «تمام المنة» (ص ٤٥)، وانظر «الصحيحة» (١٩٢٤).
(٢) أخرجه أبو داود (٢٤٢٨)، وصَحَّحه الألبانِيُّ فِي «صحيح الجامع» (٣٧٩٤).
(٣) تقدم نحوه قريبًا.

يُحبُّ أَنْ يَرَىٰ آثارَ نعمتِهِ عَلَىٰ عبدِهِ فِي مأكلِهِ ومَشْربِهِ»(١).

وقَالَ بكر بن عبد الله: مَنْ أُعْطِيَ خيرًا، فرُؤِي عَلَيه، سُمِّي حبيبَ الله، مُحدِّثًا بنِعْمَةِ الله عَزَّوَجَلَّ.

فصل (التقلل الزائد في الحد)

قَالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: وهَذَا الَّذي نُهِينَا عَنْه من التَّقلُّل الزَّائد فِي الحدِّ، قد انْعكَس فِي صُوفيَّة زَمَانِنا، فَصَارت هِمَّتهُمْ فِي المأكل كَمَا كانت هِمَّةُ مُتقدِّميهمْ فِي الجوع، لَهم الغَدَاءُ والعشاءُ والحلوىٰ، وكلُّ ذلك أَوْ أكثرُهُ حاصلٌ من أَمْوالٍ وَسِخَةٍ، وقَدْ تَركوا كَسْبَ الدُّنيا، وأَعْرَضوا عن التَّعبُّد، وَافتَرشوا فراشَ البطالَة، فَلَا هِمَّةَ لأكْثَرهم إلَّا الأَكْلُ واللَّعبُ، فإنْ أَحْسَنَ مُحْسنٌ منهم قَالُوا: طرح شكرًا، وإنْ أساءَ مُسِيءٌ قَالوا: اسْتَغْفر، ويُسمُّون ما يلْزمُهُ إيَّاه واجبًا، وتَسْميةُ ما لَمْ يُسمِّه الشَّرعُ واجبًا جنايةٌ عَلَيه.

أخبرنا عبد الرَّحمن بن مُحمَّد القزَّاز، نا أحمد بن عليِّ بن ثابتٍ، نا أحمد بن مُحمَّد بن يَعْقوب، نا مُحمَّد بن عبد الله بن مُحمَّد الحافظ النَّيسابوري، ثنا أبو زَكريا يَحيَىٰ بن مُحمَّد العنبريُّ، ثنا أحمد بن سلمة، ثنا مُحمَّد بن عبدوس السَّرَّاج البغداديُّ، قَالَ: قَامَ أبو مرحوم القاصُّ بالبَصْرة يقُصُّ عَلَىٰ النَّاس، فأبكىٰ، فلمَّا فرغَ من قَصَصِهِ قَالَ: مَنْ يُطْعمنا أُرْزَه فِي الله؟ فَقَام شابٌّ من المَجْلس، فَقَالَ: أنا، فَقَالَ: اجْلِسْ يَرْحمك اللهُ، فَقَدْ عَرَفنا مَوْضعك، ثُمَّ قامَ الثَّانية ذلك الشَّابُّ، فَقَالَ: اجلس، فقَدْ عَرَفنا مَوْضعكَ، فَقَام الثَّالثة: فَقَالَ أبو مرحوم لأصحابِهِ: قُومُوا بنا إليه، فَقَاموا مَعَه، فأتوا مَنْزله، قَالَ: فأَتيْنَا بقِدْرٍ من باقلَّاء، فأكَلنا بلا ملحٍ، ثُمَّ قَالَ أبو مرحوم: عليَّ بخِوَانٍ خُماسيٍّ، وخَمْسَة مكاكيك أُرْز، وخَمْسة أمنان سمنٍ،

---

(١) ذكره السيوطي فِي «الجامع الصغير» (٣٦٣٨)، وَعَزاه لابن أبِي الدنيا فِي «قِرَىٰ الضيف» عن علي بن زيد بن جدعان مرسلًا، وضَعَّفه الألبانِيُّ فِي «ضعيف الجامع» (١٧١٥).

وعَشرة أمنان سكر، وخَمسة أمْنَان صنوبر، وخَمسة أمْنَان فُستق، فَجيء بِها كُلّها، فَقَالَ أبو مَرحوم لأصْحابِهِ: يا إِخْوَانِي، كيف أَصْبَحت الدُّنيا؟ قالوا: مُشرقٌ لَوْنُها، مُبيضةٌ شَمْسُها. فَقَالَ: يا إِخْوَانِي، أَجْرُوا فيها أنْهَارها. قَالَ: فأُتِيَ بذَلكَ السَّمن، فأُجْرِيَ فيها، ثُمَّ أَقْبَلَ أبو مَرحوم عَلَىٰ أصحابِهِ، فَقَالَ: يا إِخْوَانِي، كيف أَصْبَحت الدُّنيا؟ قالوا: مشرقٌ لَوْنها، مُبيضَّةٌ شَمْسها، مُجْرَاةٌ فيها أنْهَارها، فَقَالَ: يا إِخْوَانِي، اغرسُوا فِيهَا أشْجَارها. قَالَ: فأُتِيَ بذَلِكَ الفُسْتق، والصنوبر، ثُمَّ أَقْبَلَ أبو مرحوم عَلَىٰ أصْحَابِهِ، فَقَالَ: يا إِخْوَانِي، كَيْفَ أَصْبَحت الدُّنيا؟ قالوا: مشرقٌ لَوْنُها، مُبيضَّةٌ شَمْسُها، وقَدْ أُجْرِيَتْ فيها أنْهارُها، وقَدْ غُرِسَتْ فيها أَشْجَارُها، وقَدْ تَدلَّت لنا ثِمَارُها، فَقَالَ: يا إِخْوَانِي، ارْمُوا الدُّنيا بحِجَارَتِهَا. قَالَ: فأُتِيَ بذَلكَ السكر، فأُلْقِيَ فِيهَا، ثمَّ أَقْبَلَ أبو مَرْحوم علىٰ أصحابِهِ، فَقَال: يا إِخْوَانِي كَيْفَ أَصْبَحت الدُّنيا؟ قالوا: مُشْرقٌ لَوْنها، مُبيضَّةٌ شَمْسها، وقَدْ أُجْرِيَتْ فيها أنْهَارها، وقَدْ غرست فيها أشْجَارها، وقَدْ تَدلَّتْ لنا ثِمَارُهَا. فَقَالَ: يا إِخْوَانِي، ما لَنا وللدُّنيا، اضْربُوا فِيهَا بِرَاحَتها. قَالَ: فَجَعل الرَّجُلُ يَضْربُ فيها براحتِهِ، ويَدْفعه بالخمس. قَالَ أبو الفَضْل أَحْمَد بن سَلَمة: ذكرتُهُ لأبِي حاتِمِ الرَّازيِّ، فَقَالَ: أَمْلِهِ عليّ، فأمليتُهُ عَلَيه، فَقَالَ: هَذَا شأنُ الصُّوفيَّة.

قَالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: قلتُ: وقَدْ رأيتُ منهم مَنْ إذا حَضَر دَعْوةً، بَالَغ فِي الأكْل، ثُمَّ اخْتارَ من الطَّعام، فرُبَّما مَلأ كُمَّيه من غَيْر إِذْنِ صاحب الدَّار، وذَلكَ حَرَامٌ بالإجْمَاع، ولقَدْ رأيتُ شيخًا منهم قَدْ أَخَذ شيئًا من الطَّعَام ليَحْملَهُ مَعَه، فَوَثبَ صاحبُ الدَّار، فأَخَذه منه.

ذكر تلبيس إبليس على الصوفية فِي السَّماع والرقص والوجد:

قَالَ المُصنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: اعْلَمْ أنَّ سماعَ الغناء يَجْمع شَيْئين:

أحدهُما: أنَّه يُلْهي القلبَ عن التَّفكُّر فِي عَظَمة الله ﷻ، والقِيَامِ بخدمتِهِ.

والثانِي: أنَّه يُميلُهُ إِلَىٰ اللَّذَّات العاجلة الَّتي تَدْعو إِلَىٰ اسْتيفَائِهَا من جَميع الشَّهَوات

الحسِّيَّة، ومُعْظَمها النِّكَاح، ولَيْسَ تَمَام لذَّته إلَّا فِي المُتجدِّدات، وَلَا سبيل إِلَىٰ كَثْرة المُتجدِّدات من الحلِّ، فلِذَلِكَ يَحُثُّ عَلَىٰ الزِّنا، فبين الغناء والزِّنا تَناسُبٌ، من جِهَةِ أَنَّ الغناءَ لذَّة الرُّوح، والزِّنا أكْبَرُ لَذَّات النَّفس، وَلِهَذَا جاءَ فِي الحديث: «**الغناءُ رُقْيةُ الزِّنا**»[١].

وقَدْ ذكر أبو جعفرٍ الطَّبريُّ: أنَّ الَّذي اتَّخذ المَلَاهي رَجُلٌ مِنْ وَلَد قابيل يُقَالُ له: ثوبال. اتَّخذ فِي زَمَان مهلائيل بن قينان آلات اللَّهْو من المَزَامير والطُّبول والعيدان، فَانْهَمَكَ وَلَدُ قابيل فِي اللَّهْو، وتَنَاهَىٰ خَبَرُهُمْ إِلَىٰ مَنْ بالجبل من نَسْل شيث، فَنزلَ مِنْهم قومٌ، وَفَشتِ الفاحشةُ، وشُرِبَتِ الخُمُور.

قَالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: وهَذَا، لأنَّ الالْتذَاذَ بشيءٍ يَدْعو عَلَىٰ الْتذَاذِهِ بغَيْره خُصُوصًا ما يُنَاسبُهُ، ولمَّا يئسَ إبليسُ أَنْ يَسْمَعَ من المُتعبِّدين شيئًا من الأَصْوَات المُحرَّمة؛ كالعود، نَظَر إِلَىٰ المَعْنَىٰ الحَاصِلِ بالعُود، فَدَرجه فِي ضِمْنِ الغناء بغَيْر العود، وَحَسَّنه لَهم، وإنَّما مرادُهُ التَّدريج من شيءٍ إِلَىٰ شيءٍ.

والفقيهُ مَنْ نَظَر فِي الأَسْبَاب والنَّتائج، وتأمَّل المَقَاصدَ، فإنَّ النَّظرَ إِلَىٰ الأمْرد مباحٌ إِنْ أمن ثَوَران الشَّهوة، فإِنْ لَمْ يُؤْمَنْ لَمْ يَجُزْ، وتَقْبيل الصَّبيَّة الَّتي لَها من العُمُر ثلاث سنين جائزٌ، إِذْ لا شَهْوةَ تَقَع هناك فِي الأَغْلب، فإِنْ وَجَد شهوةً، حَرُمَ ذلكَ، وكَذَلك الخَلْوةُ بذَوَات المَحَارم، فإِنْ خِيفَ من ذَلكَ حَرُمَ، فتَأمَّل هَذِهِ القاعدةَ.

قَالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: وقَدْ تكلَّمَ النَّاسُ فِي الغناء فأَطَالوا، فمِنْهُمْ مَنْ حَرَّمه، ومنهم مَنْ أَبَاحه من غَيْر كَرَاهةٍ، ومنهم مَنْ كَرِهَه مَعَ الإِبَاحَة.

وفَصْلُ الخطاب أَنْ نقُول: يَنْبَغي أن ينظرَ فِي مَاهيَّة الشَّيء، ثُمَّ يُطْلق عليه التَّحْريم، أو الكَرَاهة، أَوْ غَيْر ذَلكَ.

---

(١) ذكره القاري فِي «الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة» برقم (٣١٢).

والغناءُ اسمٌ يُطْلَق عَلَىٰ أشياء، منها: غناءُ الحَجِيجِ فِي الطُّرُقات، فإنَّ أقوَامًا من الأعَاجم يَقْدمُون للحجِّ، فيُنْشِدُونَ فِي الطُّرُقات أشعارًا يَصِفُونَ فيها الكعبةَ، وزَمْزَم، والمَقَامَ، ورُبَّما ضَرَبوا مَعَ إنْشَادِهِمْ بطبلٍ، فَسَماعُ تلك الأشْعَار مباحٌ، ولَيْسَ إنْشَادُهُمْ إيَّاها مِمَّا يطربُ ويخرجُ عَن الاعْتدَال، وفِي مَعْنىٰ هَؤُلاء: الغُزَاة، فإنَّهم يُنْشدونَ أشعارًا يُحرِّضون بِها عَلَىٰ الغَزْو، وفِي مَعْنىٰ هَذَا إنشادُ المُبَارزين للقتال للأشْعَار تَفَاخرًا عند النِّزال، وفِي مَعْنىٰ هَذَا أشْعَار الحُدَاة فِي طريق مكَّة؛ كقَوْل قَائِلِهِمْ:

بَشَّرها دَلِيلُها وَقَالا ... غدًا تَرينَ الطَّلْحَ والجِبالا

وهَذَا يُحرِّكُ الإبلَ والآدميَّ، إلَّا أنَّ ذلكَ التَّحريكَ لا يُوجِبُ الطَّربَ المُخْرِجَ عن حدِّ الاعتدال.

وأصْل الحدَاء، ما أنبأنَا به يَحيَىٰ بن الحَسَن بن البناء، نا أبو جعفر بن المَسْلمة، نا المخلص، نا أحمد بن سُلَيمان الطُّوسيُّ، ثنا الزُّبير بن بكَّار، ثَنِي إبراهيم بن المُنْذر، ثنا أبو البختري وهبٌ، عَنْ طلحة المكِّيِّ، عن بَعْض عُلَمائهمْ: «أنَّ رسول الله ﷺ مَالَ ذاتَ ليلةٍ بطريق مكَّة إلَىٰ حادٍ مَعَ قَوْمٍ، فَسلَّم عَلَيهم، فَقَالَ: «إنَّ حَادِينَا نَامَ فَسمِعْنا حَادِيكُمْ، فَمِلتُ إليكم، فهَلْ تَدْرونَ أنَّىٰ كان الحُدَاءُ؟». قالوا: لا واللهِ، قَالَ: «إنَّ أبَاهُمْ مضر خَرَجَ إلَىٰ بعض رُعاتِهِ، فَوَجد إبِلَهُ قَدْ تَفرَّقتْ، فأخَذ عصا فَضَرب بِها كفَّ غلامِهِ، فَعَدا الغلامُ فِي الوادي وهُوَ يصيحُ: يا يَدَاهُ، يا يَدَاهُ، فَسَمعَتِ الإبلُ ذَلكَ، فَعَطفتْ عَلَيه، فَقَالَ مُضَرُ: لو اشتُقَّ مثل هَذَا لانْتفعَتْ به الإبلُ، وَاجْتَمعَتْ، فاشتقَّ الحُدَاء»[(١)].

قَالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: وقَدْ كان لرسول الله ﷺ حادٍ يُقَالُ له: أنْجَشةُ، يَحْدو فتعنق الإبلُ، فَقَالَ رسول الله ﷺ: «يا أنْجَشةُ، رُوَيْدكَ سَوْقًا بالقَوَارير»[(٢)].

(١) قَالَ الألبانيُّ فِي الضعيفة (٥٥٤): موضوع.

(٢) أخرجه البخاري (٦١٤٩)، ومسلم (٢٣٢٣) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

وفِي حَدِيثِ سَلَمة بن الأكوع، قَالَ: «خَرَجنا مَعَ رسول الله ﷺ إلَىٰ خَيْبر، فَسِرْنا ليلًا، فَقَالَ رجلٌ من القَوْم لعامر بن الأَكْوَع: أَلَا تُسْمِعُنا من هُنَيَّاتِكَ؟ وَكَان عامرٌ رَجلًا شَاعرًا، فَنزلَ يَحْدو بالقَوْل يَقُول:

اللَّهــمَّ لَـوْلا أنــتَ مــا اهْتــدَينا ... وَلا تَــصدَّقْنا ولا صَــلَّيْنَا

فــأَلْقِيَن سكينــةً عَلَينـــا ... وثَبِّــت الأقــدامَ إِنْ لاقَيْنَـــا

قَالَ رسول الله ﷺ: «مَنْ هَذَا السَّائق؟». قالوا: عامرُ بن الأَكوَع، فَقَالَ: «يَرْحمُهُ اللهُ»[(١)].

قَالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: وقَدْ رُوِّينا عن الشَّافعيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّه قَالَ: أَمَّا اسْتمَاعُ الحُدَاء، ونشيد الأَعْرَاب، فَلَا بأسَ به.

قَالَ المُصنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: ومِنْ إِنْشَاد العرب قَوْلُ أَهْل المدينة عِنْدَ قُدُوم رسول الله ﷺ عَلَيهِمْ:

طَلَــعَ البــدرُ عَلَينـــا ... مِــن ثَنِيَّــات الــوَدَاعِ

وَجَــبَ الــشُّكْرُ عَلَينـــا ... مَـــا دَعَـــا الله داعِ[(٢)]

ومِنْ هَذَا الجِنْسِ كَانُوا يُنْشدونَ أَشْعَارهم بالمدينة، ورُبَّمَا ضَرَبُوا عَلَيه الدُّفَّ عند إِنْشَادِهِ.

ومِنْها ما أَخْبَرنا به ابْنُ الحُصَين، نا ابن المذهب، نا أَحْمَد بن جعفرٍ، ثنا عبد الله بن أحمد، حَدَّثنِي أَبِي، ثنا أبو المُغيرَة، ثنا الأوزاعيُّ، ثني الزُّهريُّ، عن عروةَ، عَنْ عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «أنَّ أَبَا بكرٍ دَخَل عليها وعندها جَاريتَانِ فِي أَيَّام منىٰ تَضربان بدُفَّين، ورسول الله ﷺ

(١) أخرجه البخاري (٦١٤٨)، ومسلم (١٨٠٢).
(٢) انظر «فتح الباري» (٧/ ٢٦١)، وضَعَّفَ الحديث الألباني في «الضعيفة» (٥٩٨).

مُسجًّى عليه بثوبِهِ، فَانتَهرَهُما أبو بكرٍ، فكَشف الرسول الله ﷺ عَنْ وَجْهه، وقَالَ: «دَعْهُنَّ يا أبا بكرٍ، فإنَّها أيَّامُ عيدٍ»[١]، أخرَجاه في «الصَّحيحين».

قَالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: والظَّاهرُ من هَاتَين الجَاريتَيْن صِغَرُ السِّنِّ؛ لأنَّ عائشةَ كَانَتْ صغيرةً، وكَانَ رسول الله ﷺ يُسرِّبُ إليها الجَوَاري، فيَلْعَبن مَعَها[٢].

وقَدْ أخبرنا مُحمَّد بن ناصرٍ، نا أبو الحُسَين بن عبد الجَبَّار، نا أبو إسحاق البرمكيُّ، أنبأنا عبد العزيز بن جعفرٍ، ثنا أبو بكرٍ الخَلَّال، أَخْبَرنا منصور بن الوليد بن جعفر بن مُحمَّد، حَدَّثهمْ قَالَ: قُلْتُ لأَبي عَبْد الله أحْمَد بن حنبلٍ حديثَ الزُّهريِّ، عَنْ عُرْوة، عن عائشةَ، عَنْ جوارٍ يُغنِّين: أيُّ شيءٍ هَذَا الغناء؟ قَالَ: غناءُ الرَّكْب: أَتيناكُمْ، أتيناكُمْ.

قَالَ الخَلَّالُ: وحدَّثنا أحمد بن فرج الحمصيُّ، ثنا يَحيَىٰ بن سعيدٍ، ثنا أبو عقيلٍ، عن نَهية، عَنْ عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قَالَتْ: كَانَتْ عندنا جاريةٌ يتيمةٌ من الأَنْصَار، فزوَّجناها رجلًا من الأَنْصَار، فَكنتُ فيمَنْ أَهْدَاها إلَىٰ زَوْجها، فقَالَ رسول الله ﷺ: «يا عَائِشَةُ، إنَّ الأنصارَ أُنَاسٌ فيهم غَزَلٌ: فما قُلْتِ؟». قَالَتْ: دَعَوْنا بالبَركَة، فَقَالَ: «أفَلا قُلْتم:

أَتيناكُمْ أَتيناكُمْ ... فَحيُّونا نُحيِّيكُمْ
ولَوْلا الذَّهب الأحمر ... ما حلَّتْ بوادِيكُمْ
ولَوْلا الحبَّةُ السَّمراءُ ... لَمْ تَسْمنْ عَذاريكُمْ[٣]

أَخْبَرنا أبو الحُصَين، نا أبو المذهب، نا أحمد بن جَعْفر، ثنا عبد الله بن أحمد، ثني أبِي، ثنا أَسْوَد بن عامرٍ، نا أبو بكرٍ، عَنْ أجلح، عن أبِي الزُّبير، عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ لعائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «أَهْديتُمْ الجارية إلَىٰ بيتها؟». قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَ: «فَهلَّا بَعثتُمْ

(١) أخرجه البخاري (٩٤٩)، ومسلم (٨٩٢).

(٢) أخرجه البخاري (٦١٣٠)، ومسلم (٢٤٤٠) من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

(٣) أخرجه ابن ماجه (١٩٠٠)، والطبراني في «الأوسط» (٣/ ٣١٥)، وحسنه الألباني في «الإرواء» (١٩٩٥).

مَعَها مَنْ يُغنِّيهمْ يَقُولُ:

أتينــــــــاكُمْ أتينــــــــاكُمْ ... فحيُّونـــــــا نُحيِّـــــيكُمْ

فإِنَّ الأنْصارَ قومٌ فيهم غزلٌ»[1].

قَالَ المصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: فقَدْ بَانَ بِمَا ذَكَرنا ما كانوا يُغنُّون به، ولَيْسَ مِمَّا يُطْربُ، ولا كَانَتْ دُفُوفُهُنَّ عَلَىٰ ما يُعرَفُ اليوم، ومِنْ ذَلكَ أَشْعارٌ يُنْشدُها المُتَزهِّدونَ بتَطْريبٍ وتلحينٍ تُزْعجُ القُلُوبَ إِلَىٰ ذِكْرِ الآخرة، ويُسمُّونَها الزُّهْديَّات؛ كقَوْل بَعْضِهِمْ:

يَـــا غاديًـــا فِـــي غفلـــةٍ وَرَائحًـــا ... إلَـــى متَـــى تَسْتحســـنُ القَبائِحَـــا

وكَـــمْ إلَـــى كـــمْ لا تَخَـــافُ مَوْقفًـــا ... يَســـتنطقُ اللهُ بــــه الجَوَارحَـــا

يـــا عجبًـــا منـــك وأنـــتَ مُبْـــصرٌ ... كيـــف تَجنَّبـــتَ الطَّريـــقَ الوَاضِـــحَا

فَهَذَا مُبَاحٌ أيضًا، وإِلَىٰ مثلِهِ أَشَار أحمدُ بن حنبلٍ فِي الإبَاحَة فيما أَنْبأنَا به أبو عَبْد العزيز كاوس، نا المُظفَّر بن الحَسَن الهمذانِي، نا أبو بكر بن لال، ثنا الفضلُ الكنديُّ، قَالَ: سمعتُ عَبْدوس يَقُول: سمعتُ أبا حامدٍ الخُلْقانِي يَقُول لأَحْمَد بن حنبلٍ: يا أبا عبد الله، هَذِهِ القَصَائدُ الرِّقاق الَّتي فِي ذِكْرِ الجنَّة والنَّار، أيُّ شيءٍ تَقُول فيها؟ فَقَالَ: مثل أي شيءٍ؟ قلت: يَقُولُون:

إذا مـــــا قَـــــالَ لـــــي ربِّـــــي ... أَمَـــــا اسْـــــتَحييتَ تَعْـــــصيني

وتُخْفـــــي الـــــذَّنبَ مـــــن خَلْقـــــي ... وبالعِـــــصْيان تَأْتيِنـــــي

قَالَ: أَعِدْ عليّ، فَأَعدتُ عَلَيه، فَقَالَ: ودَخَل بَيْتَهُ، وردَّ البابَ، فَسَمعتُ نَحيبَهُ من دَاخل البَيْت، وهُوَ يَقُول:

إذا مـــــا قَـــــالَ لـــــي ربِّـــــي ... أَمَـــــا اسْـــــتَحييتَ تَعْـــــصيني

---

(١) أخرجه أحمد (١٤٧٨٧)، وضعفه الألباني في «الإرواء» (١٩٩٦).

وتُخْفِي الذَّنبَ مِن خَلْقِي ... وبالعِصْيَان تَأْتِينِي

ومِنَ الأَشْعَار أشعارٌ تُنْشدها النواح، يُثِيرُونَ بِها الأَحْزَانَ والبُكَاءَ، فيُنْهَىٰ عنها لِمَا فِي ضمنها.

فأَمَّا الأشعارُ الَّتي يُنْشدها المُغنُّون المُتهيِّئُونَ للغناء، وَيَصفُونَ فيها المُسْتَحسَنات، والخَمْرَ، وغَيْر ذلك مِمَّا يُحرِّكُ الطِّباعَ، ويُخْرجُها عن الاعتدال، وَيُثِيرُ كَامِنَهَا، من حُبِّ اللَّهْو، وهو الغناءُ المَعْرُوفُ فِي هَذَا الزَّمان مثل قَوْل الشَّاعر:

ذَهَبِيُّ اللَّون تَحْسبُ مِن ... وَجْنَتَيه النَّار تُقْتَدحُ
خَوَّفُونِي مِن فَضِيحتِهِ ... لَيْتَه وَافَى وأُفْتَضَحُ

وقَدْ أَخْرَجوا لِهَذِهِ الأَغَانِي ألحانًا مُخْتلفةً، كُلُّها تُخْرجُ سَامِعَهَا عن حَيِّز الاعتدال، وتُثِير حُبَّ الهَوَىٰ، ولَهُمْ شيءٌ يُسمُّونه البسيط يُزْعجُ القُلُوبَ عن مهلٍ، ثُمَّ يأتون بالنَّشيد بَعْده، فيُعَجْعِج القُلُوب، وقَدْ أَضَافوا إلَىٰ ذَلكَ ضَرْب القَضِيبِ، وَالإيقَاع بِهِ عَلَىٰ وَفْق الإِنْشَاد والدُّفِّ بالجَلَاجل، والشَّبابة النَّائبة عن الزَّمْر، فهَذَا الغناءُ المَعْروف اليوم.

فصل [الغناء]

قَالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: وقَبْل أَنْ نَتكلَّم فِي إباحتِهِ، أو تحريمِهِ، أَوْ كراهتِهِ، نَقُولُ: يَنْبغي للعاقل أَنْ ينصحَ نَفْسَهُ وإخوانَهُ، ويَحْذَر تَلْبيسَ إبليسَ فِي إِجْرَاء هَذَا الغناء مَجْرىٰ الأَقْسَام المُتقدِّمة الَّتي يُطْلَق عليها اسمُ الغناء، فَلَا يَحْمل الكلَّ مَحْملًا واحدًا، فيَقُولُ: قَدْ أَبَاحَهُ فلانٌ، وَكَرِهَهُ فلانٌ، فنَبْدأ بالكَلَام فِي النَّصيحة للنَّفس والإخوان، فَنقُولُ:

معلومٌ أنَّ طباعَ الآدميِّينَ تَتقَارب، وَلَا تَكَادُ تتفاوتُ، فإذا ادَّعىٰ الشَّابُّ السَّليمُ البدن، الصَّحيحُ المِزَاجِ، أَنَّ رؤيةَ المُسْتَحسنات لَا تُزْعجُهُ، وَلَا تُؤثِّر عنده، ولا تَضرُّه فِي دينِهِ، كذَّبناه، لِمَا نَعْلمُ من اسْتوَاء الطِّباع، فإِنْ ثَبتَ صِدْقُهُ، عَرَفنا أَنَّ به مرضًا خَرجَ به عَنْ حَيِّز

الاعْتِدَال، فإنْ تَعلَّل فَقَالَ: إنَّما أنظُرُ إلَىٰ هَذِهِ المُسْتَحْسَنات معتبرًا، فأَتعجَّب من حُسْن الصَّنعة فِي دَعَجِ العَيْنين، ورقَّة الأنف، ونَقَاء البَيَاض، قُلْنا له: فِي أَنْوَاع المُبَاحات ما يَكْفي فِي العِبْرَة، وهَاهُنَا مَيْل طَبْعك يَشْغَلك عن الفكرة، وَلَا يَدَعُ لبُلُوغ شَهْوتك وُجُود فكرةٍ، فإنَّ مَيْلَ الطَّبع شاغلٌ عَنْ ذَلِكَ.

وكَذَا مَنْ قَالَ: إنَّ هَذَا الغناءَ المطربَ المزعجَ للطِّباع، المُحرِّك لَها إلَىٰ العشق وحُبِّ الدُّنيا، لَا يُؤثِّرُ عندي، وَلَا يلفتُ قَلْبِي إلَىٰ حُبِّ الدُّنيا المَوْصوفة فيه، فإنَّا نُكذِّبُهُ لمَوْضع اشتراك الطِّباع، ثُمَّ إنْ كان قلبُهُ عَامِرًا بالخَوْفِ مِنَ الله عَزَّوَجَلَّ، غَائبًا عن الهَوَىٰ، لأحضرَ هَذَا المَسْموع الطَّبع، وإِنْ كَانَتْ قَدْ طَالَتْ غيبتُهُ فِي سَفَر الخَوْف، وأَقْبَحُ القبيح البَهْرَجةُ، ثُمَّ كيف تَمرُّ البَهْرجَةُ عَلَىٰ مَنْ يَعْلم السِّرَّ وأَخْفَىٰ.

ثُمَّ إنْ كان الأمرُ كَمَا زَعَم هَذَا المُتصوِّف، فَيَنْبغي أَلَّا نُبيحَهُ إلَّا لمَنْ هَذِهِ صفتُهُ، والقَوْمُ قَدْ أَبَاحُوهُ عَلَىٰ الإطْلَاق للشَّابِّ المُبْتدئ، والصَّبِيِّ الجاهل، حتَّىٰ قَالَ أبو حامدٍ الغَزَّاليُّ: إنَّ التَّشبيبَ بوَصْف الخُدُود، والأَصْدَاغ، وحُسْن القَدِّ، والقامة، وَسَائر أَوْصَاف النِّسَاء. الصَّحيحُ: إنَّه لَا يَحْرم.

قَالَ المُصنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: فأَمَّا مَنْ قَالَ: إنِّي لا أَسْمَعُ الغِنَاءَ للدُّنيا، وإنَّما آخُذُ منه إِشَارات، فهُوَ يُخْطِئُ مِنْ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُما: أنَّ الطَّبْعَ يَسْبِقُ إلَىٰ مَقْصُودِهِ، قَبْلَ أَخْذِ الإشارات، فَيَكُون كَمَنْ قَالَ: إنِّي أَنْظُرُ إلَىٰ هَذِهِ المَرْأَةِ المُسْتَحْسَنَةِ لأَتَفكَّرَ فِي الصَّنْعَةِ.

والثاني: أن يَقِلَّ فيه وُجُودُ شَيْءٍ يُشَارُ بِهِ إلَىٰ الخَالِقِ، وَقَدْ جَلَّ الخَالِقُ تَبَارَكَ وتعالىٰ، أَنْ يُقَالَ فِي حَقِّهِ أنَّه يُعْشَقُ، وَيَقَعُ الهَيَمَانُ به، وَإِنَّما نَصِيبُنَا من مَعْرِفَتِهِ الهَيْبَةُ والتَّعْظِيمُ فقط، وإذ قد انتهت النَّصيحةُ، فَنَذْكُرُ مَا قِيلَ فِي الغِنَاءِ.

أَمَّا مَذْهَبُ أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: فَإِنَّه كان الغِنَاءُ فِي زَمَانِهِ إِنْشَادُ قَصَائِدِ الزُّهْدِ، إِلَّا أَنَّهم لَمَّا كانوا يُلَحِّنُونَها اخْتَلَفَتِ الرِّوَايَةُ عنه؛ فَرَوَىٰ عنه ابنُه عبدُ الله أَنَّه قَالَ: الغِنَاءُ يُنبِتُ النِّفَاقَ فِي القَلْبِ، لا يُعْجِبُنِي.

ورَوَىٰ عنه إسماعيل بن إسحاق الثَّقَفِيُّ، أَنَّه سُئِلَ عَنِ اسْتِمَاعِ القَصَائِدِ فقَالَ: أَكْرَهُهُ، وهو بِدْعَةٌ، ولا يُجَالَسُون.

وروىٰ عنه أبو الحارث أَنَّه قَالَ: التَّغْبِيرُ بِدْعَةٌ، فقيل له: إِنَّه يُرَقِّقُ القَلْبَ. فقَالَ: هُوَ بِدْعَةٌ.

وروىٰ عنه يعقوب الهاشميُّ: التَّغْبِيرُ بِدْعَةٌ مُحْدَثٌ.

وَرَوَىٰ عَنْهُ يَعْقُوبُ بن غياث: أَكْرَهُ التَّغْبِيرَ، وأَنَّه نَهَىٰ عَن اسْتِمَاعِهِ.

قَالَ المُصَنِّفُ: فهَذِهِ الرِّواياتُ كُلُّهَا دَلِيلٌ عَلَىٰ كَرَاهِيَةِ الغِنَاءِ.

قَالَ أبو بكرٍ الخلَّال: كَرِهَ أَحْمَدُ القَصَائِدَ لَمَّا قِيلَ له: إِنَّهم يَتَمَاجَنُونَ.

ثُمَّ رَوَىٰ عَنْهُ مَا يدلُّ عَلَىٰ أَنَّه لا بَأْسَ بِها.

قَالَ المروزي: سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ الله عَنِ القَصَائِدِ.

فقَالَ: بِدْعَةٌ.

فَقُلْتُ له: إِنَّهم يَهْجُرُون.

فقَالَ: لا يَبْلُغُ بِهم هَذَا كلُّه.

قَالَ المصنِّفُ: وقد رُوِّينَا أَنَّ أَحْمَدَ سَمِعَ قوَّالًا عند ابنه صالح، فَلَمْ يُنْكِرْ عليه. فقَالَ له صالح: يا أَبَتِ، أَلَيْسَ كُنْتَ تُنْكِرُ هذا؟ فقَالَ: إِنَّما قيل لي إِنَّهم يستعملون المُنْكَرَ فَكَرِهْتُهُ، فَأَمَّا هَذَا فإِنِّي لا أَكْرَهُهُ.

قَالَ المصنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: قُلْتُ: وَقَدْ ذكر أَصْحَابُنَا عن أَبِي بكرِ الخَلَّال وَصَاحبه عبد العزيز إباحةَ الغناء، وإنَّما أَشَار إِلَىٰ ما كان فِي زَمَانِهما من القَصَائد الزُّهْدِيَّاتِ.

وعَلَىٰ هَذَا يُحْمَلُ ما لَمْ يَكْرَهْهُ أَحْمَدُ، ويدلُّ عَلَىٰ ما قُلْتُ أَنَّ أَحْمَدَ بن حنبل سُئِلَ عن رَجُلٍ مَاتَ وَتَرَكَ وَلَدًا وجارية مُغَنِّيَةً، فاحتاج الصَّبِيُّ إِلَىٰ بَيْعِهَا، فقَالَ: لا تُبَاعُ عَلَىٰ أَنَّها مُغَنِّيَةٌ. فقيل له: إنَّها تُسَاوي ثَلاثين ألفَ دِرْهَمٍ، وَلَعَلَّها إذا بِيعَتْ ساذجةً تُسَاوِي عِشْرِينَ دِينَارًا. فقَالَ: لا تُبَاعُ إِلَّا عَلَىٰ أَنَّها سَاذجَةٌ.

قَالَ المصنِّفُ: وإنَّما قَالَ هذا لأنَّ الجَارِيَةَ المُغَنِّيَةَ لا تُغَنِّي بقصائد الزُّهْدِيَّاتِ، بل بالأشعار المُطْرِبَةِ المُثِيرَةِ للطَّبْعِ إِلَىٰ العِشْقِ، وهَذَا دليلٌ عَلَىٰ أَنَّ الغِنَاءَ مَحْظُورٌ؛ إِذْ لَوْ لَمْ يَكُنْ مَحْظُورًا، ما أَجَازَ تَفْوِيتَ المَالِ عَلَىٰ اليَتِيمِ، وَصَارَ هَذَا كَقَوْلِ أَبِي طَلْحَةَ للنَّبِيِّ ﷺ: «عِنْدِي خَمْرٌ لأَيْتَامٍ». فقَالَ: «أَرِقْهَا»(١).

فَلَوْ جَازَ اسْتِصْلاحُهَا، لَمَا أَمَرَهُ بِتَضْيِيعِ أَمْوَالِ اليَتَامَىٰ.

وَرَوَىٰ المروزيُّ، عَنْ أَحْمَد بن حنبل، أنَّه قَالَ: كَسْبُ المُخَنَّثِ خَبِيثٌ يَكْسِبُهُ بالغِنَاءِ؛ وهَذَا لأنَّ المُخَنَّثَ لا يُغَنِّي بالقَصَائد الزُّهْدِيَّةِ، إنَّما يُغنِّي بالغَزَلِ والنَّوْحِ.

فَبَانَ مِنْ هَذِهِ الجُمْلَةِ أَنَّ الرِّوَايَتَيْنِ عَنْ أَحْمَدَ فِي الكَرَاهَةِ وَعَدَمِهَا، تَتَعَلَّقُ بالزُّهْدِيَّاتِ المُلَحَّنَةِ، فَأَمَّا الغِنَاءُ المَعْرُوفُ اليَوْمَ فَمَحْظُورٌ عِنْدَهُ، كيف ولو عَلِمَ ما أَحْدَثَ النَّاسُ من الزِّيادات.

قَالَ المُصَنِّفُ: وَأَمَّا مَذْهَبُ مَالِكِ بن أنس رَحِمَهُ اللَّهُ فَأَخْبَرَنا به ابنُ نَاصِر، نا أبو الحُسَيْنِ بن عبد الجبَّار، نا أبو إسحاق البرمكيُّ، نا عبد العزيز بن جعفر، ثنا أبو بكر الخلال، وأخبرنا عاليًا سعيد بن الحسن بن البنا، نا أبو نصر مُحمَّد بن مُحمَّد الزَّينبيُّ، نا أبو بكر مُحمَّد بن

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٨٥)، والترمذي (١٢٦٣)، وصححه الألباني في «المشكاة» (٣٥٧٥).

عمر الوَرَّاق، نا مُحمَّد بن السَّري بن عثمان التَّمَّار، قالا: أَخبَرَنَا عبد الله بن أحمد، عن أبيه، عن إسحاق بن عيسىٰ الطَّبَّاع، قَالَ: سَأَلْتُ مالك بن أنس، عن ما يَتَرَخَّصُ فيه أهلُ المدينة من الغناء. فقَالَ: إنَّمَا يَفعَلُهُ الفُسَّاقُ.

أَخْبَرَنَا هِبَةُ الله بن أحمد الحريريُّ، قَالَ: أَنبَأَنَا أبو الطَّيِّبِ الطَّبَرِيُّ، قَالَ: أَمَّا مالك بن أنس، فَإِنَّه نَهَىٰ عن الغِنَاءِ، وَعَنِ اسْتِمَاعِهِ، وقَالَ: إِذَا اشْتَرَىٰ جَارِيَةً فَوَجَدَهَا مُغَنِّيَةً، كَانَ لَهُ رَدُّهَا بِالعَيْبِ، وَهُوَ مَذْهَبُ سَائِرِ أَهْلِ المدينة، إلَّا إبراهيم بن سعد وَحْدَهُ، فإنَّه قد حكىٰ زَكَرِيَّا السَّاجِيُّ أَنَّه كان لا يَرَىٰ بِهِ بَأْسًا.

وأَمَّا مَذْهَبُ أَبِي حَنِيفَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ: أَخبَرَنَا هِبَةُ الله بن أحمد الحريري، عن أَبِي الطَّيِّبِ الطَّبَرِيِّ، قَالَ: كان أبو حَنِيفَةَ يَكْرَهُ الغِنَاءَ مَعَ إِبَاحَتِهِ شُرْبَ النَّبِيذِ، وَيَجْعَلُ سَمَاعَ الغِنَاءِ من الذُّنوب.

قَالَ: وكذلك مَذْهَبُ سائر أهل الكُوفَةِ: إبراهيم، والشعبيُّ، وحمَّاد، وسُفْيَان الثَّوْرِيُّ، وغيرُهم، لا اخْتِلافَ بَيْنَهُم فِي ذلك.

قَالَ: ولا يُعْرَفُ بَيْنَ أَهْلِ البَصْرَةِ خِلافٌ فِي كَرَاهَةِ ذلك، والمَنْعِ منه، إلَّا ما رَوَىٰ عُبَيْدُ الله بنُ الحَسَنِ العَنْبَرِيُّ، أنَّه كان لا يَرَىٰ به بَأْسًا.

وأَمَّا مَذْهَبُ الشافعيِّ رَحْمَةُ اللهِ عليه: قَالَ: حَدَّثَنَا إسماعيلُ بن أحمد، نا حمد بن أحمد الحدَّاد، نا أبو نعيم الأصفهانِيُّ، ثنا مُحَمَّدُ بن عبد الرَّحمن، ثنا أحمد بن مُحمَّد بن الحارث، ثنا مُحمَّدُ بن إبراهيم بن جنَّاد، ثنا الحسنُ بن عبد العزيز الجرويُّ، قَالَ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بنَ إِدْرِيس الشَّافِعِيَّ يقول: خَلَّفْتُ بالعِرَاقِ شَيْئًا أَحْدَثَتْهُ الزَّنَادِقَةُ يُسَمُّونَهُ: التَّغْبِيرَ، يَشْغَلُونَ بِهِ النَّاسَ عَنِ القُرْآنِ.

قَالَ المصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: وقد ذَكَرَ أَبُو مَنْصُور الأَزْهَرِيُّ: المُغَبِّرَةُ قَوْمٌ يُغَبِّرُونَ بِذِكْرِ الله

بِدُعَاءٍ، وتَضَرُّعٍ، وقد سَمَّوْا ما يَطْرَبُونَ فِيهِ مِنَ الشِّعْرِ فِي ذكر الله عَزَّوَجَلَّ: تغبيرًا، كأنَّهم إذا شَاهَدوها بالألْحَان، طَرِبُوا ورقصوا، فسُمُّوا مُغَبِّرَةً لِهَذَا المَعْنَىٰ.

وقَالَ الزَّجَّاجُ: سُمُّوا مُغَبِّرِينَ لِتَزْهِيدِهِمُ النَّاسَ فِي الفَانِي من الدُّنْيَا، وَتَرْغِيبِهِم فِي الآخرة.

وحدَّثنا هِبَةُ الله بن أحمد الحريريُّ، عَنْ أَبِي الطَّيِّبِ طاهر بن عبد الله الطَّبَرِيِّ، قَالَ: قَالَ الشَّافِعِيُّ: الغِنَاءُ لَهْوٌ مَكْرُوهٌ يُشْبِهُ البَاطِلَ، وَمَنِ اسْتَكْثَرَ منه فَهُوَ سَفِيهٌ تُرَدُّ شَهَادَتُهُ.

قَالَ: وكان الشَّافِعِيُّ يَكْرَهُ التَّغْبِيرَ.

قَالَ الطَّبَرِيُّ: فَقَدْ أَجْمَعَ عُلَمَاءُ الأَمْصَارِ عَلَىٰ كَرَاهِيَةِ الغِنَاءِ والمَنْعِ مِنْهُ، وإنَّما فَارَقَ الجَمَاعَةُ إبراهيم بن سعد، وَعُبَيْدَ الله العنبريَّ، وقَدْ قَالَ رسول الله ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِالسَّوَادِ الأَعْظَمِ»[1]. «فَإِنَّهُ مَنْ شَذَّ شَذَّ فِي النَّارِ»[2]. وقَالَ: «مَنْ فَارَقَ الجَمَاعَةَ، مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»[3].

قَالَ المصنِّفُ: قُلْتُ: وَقَدْ كان رؤساءُ أصحاب الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُمُ اللَّهُ يُنْكِرُونَ السَّمَاعَ، وَأَمَّا قُدَمَاؤُهُم فلا يُعْرَفُ بَيْنَهم خِلافٌ، وَأَمَّا أَكَابِرُ المتأخِّرين، فَعَلَىٰ الإنْكَارِ.

منهم: أَبُو الطَّيِّبِ الطَّبَرِيُّ، وله فِي ذَمِّ الغِنَاءِ والمَنْعِ كتابٌ مُصَنَّفٌ، حَدَّثَنَا به عَنْهُ أَبُو القَاسِمِ الحَرِيرِيُّ.

ومنهم: القَاضِي أبو بكر مُحمَّدُ بن مظفر الشَّامِيُّ، أَنْبَأَنَا عَبْدُ الوهَّاب بن المبارَك الأنماطيُّ عنه، قَالَ: لا يَجُوزُ الغِنَاءُ ولا سَمَاعُهُ، ولا الضَّرْبُ بالقَضِيبِ. قَالَ: وَمَنْ أَضَافَ

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٩٥٠) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وضعَّفه الألبانِيُّ فِي «ضعيف الجامع» (١٨١٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٢١٦٧) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وضعفه الألباني فِي «ضعيف الترمذي» (٢١١).

(٣) أخرجه البخاري (٧٠٥٤)، ومسلم (١٨٤٩) من حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

إِلَىٰ الشَّافِعِيِّ هَذَا، فَقَدْ كَذَبَ عَلَيْهِ.

وقد نَصَّ الشَّافِعِيُّ فِي كتاب: «أَدَبِ القَضَاءِ» عَلَىٰ أَنَّ الرَّجُلَ إذا دَامَ عَلَىٰ سَمَاعِ الغِنَاءِ، رُدَّتْ شَهَادَتُهُ، وَبَطَلَتْ عَدَالَتُهُ.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: قُلْتُ: فهَذَا قَوْلُ عُلَمَاءِ الشَّافِعِيَّةِ، وَأَهْلِ التَّدَيُّنِ منهم، وَإِنَّما رَخَّصَ فِي ذلك مِنْ مُتَأَخِّرِيهِم، مَنْ قَلَّ عِلْمُهُ، وَغَلَبَهُ هَوَاهُ.

وقَالَ الفُقَهَاءُ مِنْ أَصْحَابِنَا: لا تُقْبَلُ شَهَادَةُ المُغَنِّي والرَّقَّاصِ، واللهُ المُوَفِّقُ.

فصل في ذكر الأدلة على كراهية الغناء والنوح والمنع منهما

قَالَ المصنف: وَقَدِ اسْتَدَلَّ أَصْحَابُنَا بالقُرْآنِ، والسُّنَّةِ، والمَعْنَىٰ:

فَأَمَّا الاسْتِدْلالُ مِنَ القُرْآنِ فَثَلاثُ آيَاتٍ:

الآيَةُ الأُولَىٰ: قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ [لقمان:٦].

أَخْبَرَنَا عَبْدُ الوَهَّابِ بن المبارَك، ويَحْيَىٰ بن عليٍّ، قالا: نا أبو مُحمَّد الصريفينيُّ، نا أبو بكر بن عبدان، ثنا عبد الله بن منيع، ثنا عبيدُ الله بن عمر، ثنا صفوان بن عيسىٰ، قَالَ: قَالَ حميد الخَرَّاط: أَخْبَرَنَا عن عمَّار بن معاوية، عن سعيد بن جبير، عن أَبِي الصَّهْبَاءِ، قَالَ: سَأَلْتُ ابنَ مَسْعُودٍ عن قَوْلِ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾، قَالَ: هُوَ - واللهِ - الغِنَاءُ.

أخبرنا عَبْدُ الله بن عليٍّ المقريُّ، ومُحمَّدُ بن ناصر الحافظُ، قالا: نا طرادُ بن مُحمَّدٍ، نا ابن بشران، نا ابن صفوان، ثنا أبو بكر القرشيُّ، ثنا زُهَيْرُ بنُ حَرْبٍ، ثنا جريرٌ، عن عطاء بن السَّائِبِ، عن سعيدِ بن جُبَيْرٍ، عن ابن عَبَّاسٍ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾، قَالَ: هُوَ الغِنَاءُ وَأَشْبَاهُهُ.

أخبرنا عَبْدُ الله بن مُحمَّد الحاكم، وَيَحْيَىٰ بن عليّ المدبر، قالا: نا أبو الحسين بن النقور، نا ابن حيويه، ثنا البغوي، ثنا هدبة، ثنا حماد بن سلمة، عن حُميد، عن الحسن بن مسلم، عن مُجاهد: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾، قَالَ: الغِنَاءُ.

أَخْبَرَنَا ابنُ نَاصِرٍ، نا المُبَارَكُ بن عبد الجَبَّار، نا أبو إسحاق البرمكيُّ، نا أحمد بن جعفر بن سلم، نا أحمد بن مُحمَّد بن عبد الخالق، ثنا أبو بكر المروزيُّ، ثنا أحمدُ بن حنبل، ثنا عبدة، ثنا إسماعيل، عن سعيد بن يسار، قَالَ: سَأَلْتُ عِكْرِمَةَ عن لَهْوِ الحديث، قَالَ: الغِنَاءُ.

وَكَذَلِكَ قَالَ الحَسَنُ، وَسَعِيدُ بن جبير، وقتادة، وإبراهيم النَّخْعِيُّ.

الآية الثانية: قولُه عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النجم:٦١].

أخبرنا عبدُ الله بن عليّ، نا طراد بن مُحمَّد، نا ابن بشران، نا ابن صفوان، ثنا أبو بكر القرشي، ثنا عبيد الله بن عمر، ثنا يَحيَىٰ بن سعيد، عن سفيان، عن أبيه، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾، قَالَ: هو الغِنَاءُ؛ بالحِمْيَرِيَّةِ: سَمَدَ لنا: غَنَّىٰ لنا.

وقَالَ مُجَاهِدٌ: هُوَ الغِنَاءُ، يَقُولُ أَهْلُ اليَمَنِ: سَمَدَ فُلانٌ؛ إِذَا غَنَّىٰ.

الآيةُ الثَّالِثَةُ: قَوْلُهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ ﴾ [الإسراء:٦٤].

أخبرنا مَوْهُوبُ بن أحمد، نا ثَابِتُ بن بُنْدارٍ، نا عمر بن إبراهيم الزهريُّ، نا عبدُ الله بنُ إبراهيم بن ماسي، ثنا الحسين بن الكميت، ثنا مُحمَّدُ بن نعيم، عن القاسم الجرميِّ، عن سفيان الثَّوْرِيِّ، عن ليث، عن مجاهد: ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ ﴾، قَالَ: هو الغِنَاءُ والمَزَامِيرُ.

وأَمَّا السُّنَّةُ: أَخْبَرَنَا ابن الحصين، نا ابن المذهب، نا أحمد بن جعفر، نا عبد الله بن أحمد، ثني أبي، ثنا الوليد بن مسلم، ثنا سعيد بن عبد العزيز، عن سليمان بن موسىٰ، عن

نافع، عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنّه سَمِعَ صَوْتَ زمَّارةٍ راعٍ، فَوَضَعَ أُصْبعَيْهِ فِي أُذُنَيْهِ، وَعَدَلَ رَاحِلَتَهُ عَنِ الطَّرِيقِ، وَهُوَ يَقُولُ: يا نَافِعُ، أَتَسْمَعُ؟ فَأَقُولُ: نَعَمْ. فَيَمْضِي، حَتَّىٰ قُلْتُ: لا، فَوَضَعَ يَدَيْهِ، وَأَعَادَ رَاحِلَتَهُ إِلَىٰ الطَّرِيقِ، وقَالَ: «رَأَيْتُ رسول الله ﷺ سَمِعَ زَمَّارَةَ رَاعٍ، فَصَنَعَ مِثْلَ هَذَا»(١).

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: إِذَا كان هَذَا فِعْلَهُم فِي حَقِّ صَوْتٍ لا يَخْرُجُ عن الاعتدال، فكيف بِغِنَاءِ أَهْلِ الزَّمَانِ وَزَمُّورِهِم؟

أخبرنا مُحمَّدُ بن ناصر، نا المباركُ بنُ عبد الجبَّار، نا الحُسَيْنُ بن مُحمَّد النَّصيبِيُّ، ثنا إسماعيلُ بن سعيد بن سُوَيْدٍ، ثنا أبو بكر بن الأنباريِّ، ثنا عُبَيْدُ بنُ عبد الواحد بن شريك البزَّار، ثنا ابن أبي مريم، ثنا يَحْيَىٰ بنُ أَيُّوب، عن عبيد الله بن زحر، عن عليِّ بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أُمامة، قَالَ: نَهىٰ رسول الله ﷺ عن شِرَاءِ المُغَنِّيَاتِ وَبَيْعِهِنَّ وَتَعْلِيمِهِنَّ، وقَالَ: «ثَمَنُهُنَّ حَرَامٌ». وقرأ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ ﴾[لقمان:٦](٢).

أَخْبَرَنَا عَبْدُ الله بن عليِّ المقري، نا أبو منصور مُحمَّدُ بن المقري، نا أبو القاسم عبدُ الملك بن مُحمَّد بن بشران، نا عُمَرُ بن مُحمَّدِ بن عبد الرحمن الجُمَحِيُّ، ثنا منصورُ بن أبِي الأسود، عن أبِي المُهَلَّب، عن عبيد الله بن زَحْر، عن عَلِيِّ بن يزيد، عن القاسم، عن أبِي أُمامة، قَالَ: نَهىٰ رسول الله ﷺ عن بيع المُغَنِّيَاتِ، وعن التِّجَارَةِ فِيهِنَّ، وعن تعليمهنَّ الغِنَاءَ، وقَالَ: «ثَمَنُهُنَّ حَرَامٌ». وقَالَ فِي هذا، أو نَحْوِهِ. أو: وقَالَ: «شبهه نَزَلَتْ عليَّ»:

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٢٤)، وصححه الألباني فِي «تَحْريم آلات الطرب» (ص ١١٦).

(٢) أخرجه الترمذي (١٢٨٢)، وابن ماجه (٢١٦٨)، وضعَّفه الألبانيُّ في «الصحيحة» (٢٩٢٢)، إلا نزول الآية، وانظر «تحريم آلات الطرب» (ص٦٨).

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [لقمان:٦][١].

وقَالَ: «مَا مِنْ رَجُلٍ يَرْفَعُ عَقِيرةَ صَوْتِهِ للغِنَاءِ، إِلَّا بَعَثَ اللهُ شَيْطَانَيْنِ يَرْتَدِفَانِهِ، أَعْني: هَذَا عَنْ ذَا الجَانِبِ، وَهَذَا مِنْ ذَا الجَانِبِ، وَلا يَزَالانِ يَضْرِبَانِ بِأَرْجُلِهِمَا فِي صَدْرِهِ، حَتَّىٰ يَكُونَ هُوَ الَّذِي يَسْكُتُ»[٢].

وَرَوَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها عن النَّبِيِّ ﷺ أنَّه قَالَ: «إِنَّ اللهَ عز وجل حَرَّمَ المُغَنِّيَةَ وَبَيْعَهَا، وَثَمَنَهَا، وَتَعْلِيمَهَا، وَالاسْتِمَاعَ إِلَيْهَا». ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ ﴾[٣].

وَرَوَىٰ عبدُ الرحمن بن عوف، عن النَّبِيِّ ﷺ أنَّه قَالَ: «إِنَّمَا نُهِيتُ عَنْ صَوْتَيْنِ أَحْمَقَيْنِ فَاجِرَيْنِ، صَوْتٍ عِنْدَ نَغْمةٍ، وَصَوْتٍ عِنْدَ مُصِيبَةٍ»[٤].

أَخْبَرَنَا ظفر بن عليٍّ، نا أبو علي الحَسَنُ بن أحمد المقتدي، نا أبو نعيم الحافظ، نا حبيب بن الحسن، عن الحسن بن علي بن الوليد، ثنا مُحمَّدُ بن كليب، ثنا خَلَفُ بن خليفة، عن أبان المكتب، عن مُحمَّد بن عبد الرحمن، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عمر قَالَ: دَخَلْتُ مَعَ رسول الله ﷺ، فَإِذَا ابْنُهُ إبراهيم يَجُودُ بِنَفْسِهِ، فَأَخَذَهُ رسول الله ﷺ فَوَضَعَهُ فِي حِجْرِهِ، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، فَقُلْتُ: يا رَسُولَ اللهِ، أَتَبْكِي وَتَنْهَانَا عَنِ البُكَاءِ؟ فقَالَ: «لَسْتُ أَنْهَىٰ عَنِ البُكَاءِ، إِنَّمَا نُهِيتُ عَنْ صَوْتَيْنِ أَحْمَقَيْنِ فَاجِرَيْنِ، صَوْتٍ عِنْدَ نَغْمَةِ لَعِبٍ وَلَهْوٍ وَمَزَامِيرِ الشَّيْطَانِ، وَصَوْتٍ عِنْدَ مُصِيبَةٍ ضَرْبِ وَجْهٍ، وَشَقِّ جُيُوبٍ، وَرَنَّةِ شَيْطَانٍ»[٥].

أَخْبَرَنَا عَبْدُ الله بن علي المقري، نا جَدِّي أَبُو منصور مُحمَّدُ بنُ أحمد الخَيَّاطُ، نا عبد

---

(١) انظر التخريج السابق.

(٢) أخرجه ابن عدي في «الكامل في الضعفاء» (٦/ ٣١٥)، وقَالَ الألبانيُّ في «ضعيف الجامع» (٩٣١): ضعيفٌ جدًّا.

(٣) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٥/ ٥)، وانظر: «الصحيحة» للألبانيِّ (٢٩٢٢).

(٤) أخرجه الترمذي (١٠٠٥)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥١٩٤).

(٥) أخرجه الترمذي (١٠٠٥) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، وصَحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٥١٩٤)، وانظر «تحريم آلات الطرب» (ص٥٢).

الملك بن مُحمَّد بن بشران، ثنا أبو عليٍّ أَحْمَدُ بن الفضل بن خزيمة، ثنا مُحمَّدُ بنُ سُوَيْدٍ الطَّحَّانُ، ثنا عاصمُ بن عَلِيٍّ، ثنا عبد الرحمن بن ثابت، عن أبيه، عن مكحولٍ، عن جُبير بن نفير، عن مالك بن يخامر الثِّقَةِ، عن عكرمة، عن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «بُعِثْتُ بِهَدْمِ المِزْمَارِ وَالطَّبْلِ»(١).

أخبرنا ابن الحصين، نا أبو طالب بن غيلان، نا أبو بكر الشافعيُّ، ثنا عبد الله بن مُحمَّد بن ناجية، ثنا عَبَّادُ بنُ يعقوب، ثنا موسىٰ بن عمير، عن جعفر بن مُحمَّدٍ، عن أبيه، عن جَدِّهِ، عن عَلِيٍّ، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: «بُعِثْتُ بِكَسْرِ المَزَامِيرِ»(٢).

أَخْبَرَنَا أبو الفَتْحِ الكَروخيُّ، نا أبو عامر الأزديُّ، وأبو بكر الغُروجيُّ، قالا: نا الجراحيُّ، ثنا المحبوبِيُّ، ثنا الترمذيُّ، ثنا صالحُ بنُ عبد الله، ثنا الفرجُ بن فضالة، عن يَحيَىٰ بن سعيدٍ، عن مُحمَّدِ بن عمر بن عليِّ بن أَبِي طالبٍ، عن عليِّ بن أَبِي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: «إِذَا فَعَلَتْ أُمَّتِي خَمْسَ عَشْرَةَ خَصْلَةً حَلَّ بِهَا البَلاءُ -فَذَكَرَ مِنْهَا-: إِذَا اتَّخَذَتِ القِيَانَ وَالمَعَازِفَ»(٣).

قَالَ التِّرمذيُّ: وَحَدَّثَنَا عَلِيُّ بن حَجَر، نا مُحمَّدُ بنُ يَزِيد، عن المُسْتَلِم بن سعيدٍ، عن رُمَيْح الجذاميِّ، عن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: «إِذَا اتُّخِذَ الفَيْءُ دُوَلًا، وَالأَمَانَةُ مَغْنَمًا، وَالزَّكَاةُ مَغْرَمًا، وَتُعُلِّمَ لِغَيْرِ الدِّينِ، وَأَطَاعَ الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ وَعَقَّ أُمَّهُ، وَأَدْنَىٰ صَدِيقَهُ وَأَقْصَىٰ أَبَاهُ، وَظَهَرَتِ الأَصْوَاتُ فِي المَسَاجِدِ، وَسَادَ القَبِيلَةَ فَاسِقُهُم، وَكَانَ زَعِيمُ القَوْمِ أَرْذَلَهُم، وَأُكْرِمَ الرَّجُلُ مَخَافَةَ شَرِّهِ، وَظَهَرَتِ القِينَاتُ وَالمَعَازِفُ، وَشُرِبَتِ الخُمُورُ، وَلَعَنَ آخِرُ هَذِهِ الأُمَّةِ أَوَّلَهَا، فَلْيَرْتَقِبُوا عِنْدَ ذَلِكَ رِيحًا حَمْرَاءَ، وَزَلْزَلَةً، وَخَسْفًا، وَمَسْخًا، وَقَذْفًا،

---

(١) أَوْرَدَهُ الدَّيْلَمِيُّ فِي «مُسْنَدِ الفِرْدَوْسِ» (١/ ٣٩٨)، وَضَعَّفَهُ الأَلْبَانِيُّ فِي «ضَعِيفِ الجَامِعِ» (١٣٦٤).

(٢) ذكره القرطبي في «التفسير» (١٤/ ٥٣) وقَالَ: خَرَّجَهُ أبو طالب الغيلانِيُّ. وانظر التخريج السابق.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٢١٠)، وضعَّفه الألبانِيُّ في «ضعيف الجامع» (٦٠٨).

وَآيَاتٍ تَتَابَعُ كَنِظَامِ بَالٍ قُطِعَ سِلْكُهُ فَتَتَابَعَ»[(١)].

وقد رُوِيَ عَنْ سَهْلِ بن سَعْدٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «يَكُونُ فِي أُمَّتِي خَسْفٌ وَقَذْفٌ وَمَسْخٌ». قِيلَ: يا رسول الله، مَتَىٰ؟ قَالَ: «إِذَا ظَهَرَتِ المَعَازِفُ وَالقِينَاتُ، وَاسْتُحِلَّتِ الخَمْرُ»[(٢)].

أَنْبَأَنَا أبو الحسن سعدُ الخير بن مُحمَّدٍ الأَنْصَارِيُّ فِي «كتاب السُّنَنِ» لابن مَاجه، قَالَ: نا أبو العبَّاس أحمد بن مُحمَّد الأسدأباديُّ، نا أبو منصور المقومي، نا أبو طلحة القاسم بن المُنْذِرِ، نا أبو الحسن بن إبراهيم القَطَّان، ثنا مُحمَّد بن يزيد بن ماجه، ثنا الحسين بن أَبِي الربيع الجرجانِيُّ، ثنا عبد الرَّزَّاق، أخبرني يَحيَىٰ بن العلاء، أَنَّه سَمِعَ بِشْرَ بنَ نُمَيْرٍ، أَنَّه سَمِعَ مَكْحُولًا يَقُولُ: إنَّه سَمِعَ يزيد بن عبد الله، يقول: إنَّه سمع صفوان بن أُميَّة قَالَ: كنَّا مع رسول الله ﷺ فجاء عمرو بن قُرَّةَ، فقَالَ: يا رسولَ الله، إنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قد كتب عَلَيَّ الشِّقْوَةَ، فما أرانِي أُرْزَقُ إلَّا من دُفِّي بِكَفِّي، فَأْذَنْ لي فِي الغِنَاءِ فِي غير فاحشة.

فقَالَ له رسول الله ﷺ: «لا آذَنُ لَكَ، وَلا كَرَامَةَ، وَلا نِعْمَةَ عَيْنٍ، كَذَبْتَ يَا عَدُوَّ اللهِ، لَقَدْ رَزَقَكَ اللهُ حَلالًا طَيِّبًا، فَاخْتَرْتَ مَا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْكَ مِنْ رِزْقِهِ، مَكَانَ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ مِنْ حَلالٍ، وَلَوْ كُنْتُ تَقَدَّمْتُ إِلَيْكَ لَفَعَلْتُ بِكَ وَفَعَلْتُ، قُمْ عَنِّي وَتُبْ إِلَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أَمَا إِنَّكَ لَوْ قُلْتَ بَعْدَ التَّقْدِمَةِ إِلَيْكَ، ضَرَبْتُكَ ضَرْبًا وَجِيعًا، وَحَلَقْتُ رَأْسَكَ مُثْلَةً، وَنَفَيْتُكَ مِنْ أَهْلِكَ، وَأَحْلَلْتُ سَلَبَكَ نُهْبَةً لِفِتْيَانِ المَدِينَةِ».

فقام عمرو وبه من الشَّرِّ والخِزْيِ ما لا يَعْلَمُهُ إلَّا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فَلَمَّا وَلَّىٰ قَالَ رسول الله ﷺ: «هَؤُلاءِ العُصَاةُ، مَنْ مَاتَ مِنْهُم بِغَيْرِ تَوْبَةٍ، حَشَرَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عُرْيَانًا لا يَسْتَتِرُ

(١) أخرجه الترمذي (٢٢١١)، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٢٨٧).

(٢) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٦/ ١٥٠)، وصححه الألبانِيُّ في «صحيح الجامع» (٣٦٦٥).

مِنَ النَّاسِ بِهُدبةٍ(١) كُلَّمَا قَامَ صُرِعَ»(٢).

وَأَمَّا الآثَارُ: فقَالَ ابنُ مَسْعُودٍ: الغِنَاءُ يُنْبِتُ النِّفاقَ فِي القلب، كما يُنْبِتُ الماءُ البقلَ.

وقَالَ: إذا ركب الرَّجل الدَّابَّةَ، ولَمْ يُسمِّ، رَدِفَهُ الشَّيطان، وقَالَ: تَغَنَّه. فإن لَمْ يُحْسِنْ، قَالَ له: تَمَنَّهْ.

ومرَّ ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بقومٍ مُحْرِمِينَ، وفيهم رجلٌ يتغنَّىٰ، قَالَ: ألا لا سَمِعَ اللهُ لكم.

وَمَرَّ بجاريةٍ صغيرةٍ تغنِّي فقَالَ: لو ترك الشَّيْطَانُ أحدًا، لَتَرَكَ هذه.

وسأل رجلٌ القاسم بن مُحمَّد عن الغناء فقَالَ: أنهاك عنه، وَأَكْرَهُهُ لك.

قَالَ: أَحَرَامٌ هو؟ انظُر يا ابن أخي، إذا ميَّز الله الحقَّ من الباطل، ففي أيِّهما يَجْعَلُ الغناءَ.

وعن الشعبيِّ قَالَ: لُعِنَ المغنِّي والمُغَنَّىٰ له.

أخبرنا عبد الله بن علي المقري ومُحمَّد بن ناصر قالا: نا طراد بن مُحمَّد، نا أبو الحسين بن بشران، نا أبو علي بن صفوان، ثنا أبو بكر القرشي، ثني الحسين بن عبد الرحمن، ثني عبد الله بن عبد الوهاب قَالَ: أخبرني أبو حفص عمر بن عبيد الله الأرموي، قَالَ: كتب عمر بن عبد العزيز إلَىٰ مؤدِّبِ لولده: لِيَكُنْ أَوَّلُ ما يعتقدون مِنْ أَدَبِكَ بُغْضَ الملاهي، الَّتي بدؤُها من الشَّيطان، وعاقبتُها سَخَطُ الرحمن عَزَّ وَجَلَّ فإنَّه بَلَغَنِي عن الثِّقَاتِ من حَمَلَةِ العلم، أنَّ حضورَ المعازف واستماعَ الأغانِي واللَّهَجَ بِها، يُنْبِتُ النِّفَاقَ فِي القلب، كما يُنْبِتُ الماءُ العُشْبَ.

وَلَعَمْرِي لَتَوَقِّي ذلك بترك حُضُورِ تِلْكَ المَوَاطِنِ، أَيْسَرُ عَلَىٰ ذي الذِّهْنِ من الثُّبوت عَلَىٰ النِّفاق فِي قلبه.

---

(١) هدبة الثوب: طَرَفه، والمعنىٰ: ليس عليه أيُّ شيء يَسْتُره.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٦١٣)، وقَالَ الألباني في «ضعيف ابن ماجه» (٥٧٠): موضوع.

وقَالَ فضيل بن عياض: الغناء رُقْيَةُ الزِّنا.

وقَالَ الضَّحَّاكُ: الغناء مَفْسَدَةٌ للقلب، مَسْخَطَةٌ للرَّبِّ.

وقَالَ يزيد بن الوليد: يا بَنِي أُمَيَّةَ، إيَّاكم والغناءَ، فإنَّه يَزِيدُ الشَّهْوَةَ، ويَهْدِمُ المُرُوءَةَ، وإنَّه لَيَنُوبُ عن الخمر، ويفعل ما يَفْعَلُ السُّكْرُ، فإن كنتم لابُدَّ فاعلين فجنِّبوه النِّساء؛ فإنَّ الغناء داعيةُ الزِّنا.

قَالَ المصنف رَحِمَهُ اللهُ: قُلْتُ: وكم قد فَتَنَتِ الأصواتُ بالغناء مِنْ عابدٍ وزاهدٍ، وقد ذَكَرْنَا جُمْلَةً من أخبارهم فِي كتابنا المُسَمَّىٰ بـ«ذَمِّ الهَوَىٰ».

أخبرنا مُحمَّدُ بن ناصر، نا ثابت بن بندار، نا أبو الحُسَيْنِ مُحمَّدُ بن عبد الواحد بن رزمة، نا أبو سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي، ثني مُحمَّدُ بن يَحيَىٰ، عن معن، عن عبد الرحمن بن أبِي الزناد، عن أبيه، قَالَ: كان لسليمان بن عبد الملك فِي باديةٍ له، فَسَمِرَ لَيْلَةً عَلَىٰ ظَهْرِ سَطْحٍ، ثُمَّ تفرَّق عنه جُلَسَاؤُهُ، فدعا بِوَضوءٍ، فجاءت به جاريةٌ له، فبينما هي تصبُّ عليه إذ استمدَّها بيده، وأشار إليها، فإذا هي ساهيةٌ مُصْغِيَةٌ بِسَمْعِهَا، مَائِلَةٌ بِجَسَدِهَا كلُّه إلَىٰ صوت غناءٍ تسمعه فِي ناحية المُعَسْكَرِ، فَأَمَرَهَا، فَتَنَحَّتْ واستمع هو الصَّوت، فإذا صوتُ رجلٍ يغنِّي، فأنصت له حتَّىٰ فهم ما يغنِّي به من الشِّعر.

ثُمَّ دعا جاريةً من جَوَارِيهِ غَيْرِهَا، فَتَوَضَّأَ، فلمَّا أصبح أَذِنَ للنَّاس إِذْنًا عامًّا، فلمَّا أخذوا مجالسَهم أَجْرَىٰ ذِكْرَ الغناء، ومن كان يسمعه، وَلَيَّنَ فيه، حتَّىٰ ظَنَّ القومُ أنَّه يشتهيه، فأفاضوا فِي التَّلْيِينِ والتَّحليل والتَّسهيل، فقَالَ: هل بَقِيَ أحدٌ يسمع منه؟ فقام رجلٌ من القوم فقَالَ: يا أمير المؤمنين عندي رجلان من أهل أيلة حاذقان.

قَالَ: وأين منْزِلُكَ من العَسْكَرِ؟

فَأَوْمَأَ إلَىٰ الناحية الَّتي كان الغناءُ منها.

فقَالَ سُلَيْمَانُ: يُبْعَثُ إليهما.

فوجد الرسولُ أحدَهُما، فأقبل به حتَّىٰ أدخله عَلَىٰ سليمان، فقَالَ له: ما اسْمُكَ؟

قَالَ: سمير.

فسأله عن الغناء كيف هو فيه، فقَالَ: حاذقٌ مُحْكِمٌ.

قَالَ: ومتَىٰ عهدُك به؟

قَالَ: فِي ليلتِي الماضية.

قَالَ: وفِي أيِّ نواحي العسكر كنتَ؟

فذكر له النَّاحية الَّتي سمع منها الصَّوت.

قَالَ: فما غَنَّيْتَ؟

فَذَكَرَ الشِّعْرَ الَّذي سَمِعَهُ سليمانُ، فأقبل سليمانُ فقَالَ: هَدَرَ الجَمَلُ. فَضبعتِ النَّاقَةُ، وَهَبَّ التيسُ، فشكرت الشاة، وهدل الحمام، فزافت الحمامة، وغنَّىٰ الرَّجُلُ، فطربت المرأةُ، ثُمَّ أُمَرَ به فَخُصِيَ.

وسأل عن الغناء: أين أصلُه، وأكثرُ ما يكون؟

قالوا: بالمدينة، وهو فِي المخنَّثين وهم الحذَّاق به، والأئمَّة به، فكتب إلَىٰ عامله عَلَىٰ المدينة، وهو أبو بكر بن مُحمَّد بن عمرو بن حزم: أَنِ اخْصِ مَنْ قِبَلَكَ من المُخَنَّثين المُغَنِّين.

قَالَ المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: وأمَّا المعنىٰ فقد بيَّنَّا أنَّ الغناء يُخرج الإنسان عن الاعتدال، ويغيِّرُ العقل.

وبيان ذلك: أنَّ الإنسان إذا طَرِبَ، فَعَلَ ما يَسْتَقْبِحُهُ فِي حال صَمْتِهِ من غيره، من

تحريك رَأْسِهِ، وتصفيق يديه، ودقِّ الأرضِ بِرِجْلَيْهِ، إِلَىٰ غير ذلك مِمَّا يفعله أصحاب العقول السَّخيفة، والغناءُ يوجِبُ ذلك، بل يقارب فِعْلُهُ فِعْلَ الخمر فِي تغطية العقل، فينبغي أن يَقَعَ المَنْعُ منه.

أخبرنا عمر بن ظفر، نا جعفر بن أحمد، نا عبد العزيز بن عليِّ الأزجيّ، نا ابن جهضم، ثنا يَحيَىٰ بن المؤمل، ثنا أبو بكر الشقاق، ثنا أبو سعيد الخراز، قَالَ: ذُكِرَ عند مُحمَّد بن منصور أصحاب القصائد فقَالَ: هؤلاء الفَرَّارون من الله عَزَّوَجَلَّ لو ناصحوا اللهَ ورسولَه وصدقوه، لأفادهم فِي سرائرهم ما يَشْغَلُهُم عن كثرة التَّلاقي.

أخبرنا مُحمَّد بن ناصر، نا عبد الرحمن بن أَبِي الحسين بن يوسف، نا مُحمَّد بن علي العُشاري، قَالَ: قَالَ أبو عبد الله بن بطَّة العُكْبَرِيُّ: سألَنِي سائلٌ عن استماع الغِنَاءِ، فَنَهَيْتُهُ عن ذلك، وَأَعْلَمْتُهُ أَنَّه مِمَّا أَنْكَرَتْهُ العلماء، واستحسنه السُّفَهَاءُ، وإنَّما تفعله طائفةٌ سُمُّوا بالصُّوفيَّة، وسمَّاهم المحقِّقون الجَبْرِيَّةَ، أهلَ هِمَمٍ دنيئةٍ، وشرائعَ بدعيَّةٍ، يُظْهِرُون الزُّهد، وكلُّ أسبابِهم ظُلْمَةٌ، يدَّعون الشَّوق والمحبَّة بإسقاط الخوف والرَّجاء، يسمعونه من الأحداث، والنِّساء، ويطربون ويُصْعَقُون ويتغاشون ويتماوتون ويزعمون أنَّ ذلك من شدَّةِ حبِّهم لِرَبِّهم وشَوْقِهِم إليه، تعالىٰ اللهُ عَمَّا يقولُه الجاهلون عُلُوًّا كبيرًا.

فِي ذكر الشُّبَه الَّتي تعلَّق بِها من أجاز سَمَاعَ الغناء:

فمنها: حديثُ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنَّ الجاريتين كانتا تَضْرِبان عندها بِدُفَّيْنِ، وفِي بعض ألفاظه: «دَخَلَ عَلَيَّ أبو بكر، وعندي جاريتان من جواري الأنصار تُغَنِّيان بِما تقاولت به الأنصارُ يَوْمَ بُعاثٍ، فقَالَ أبو بكر: أَمَزْمُورُ الشَّيطان فِي بيت رسول الله ﷺ؟! فقَالَ رسول الله ﷺ: **دَعْهُمَا يَا أَبَا بَكْرٍ، إِنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ عِيدًا، وَهَذَا عِيدُنَا**»(١). وقد سبق ذكر الحديث.

---

(١) أخرجه البخاري (٩٥٢)، ومسلم (٨٩٢).

ومنها: حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أنها زَفَّتِ امرأةً إلَىٰ رجلٍ من الأنصار، فقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا عَائِشَةُ مَا كَانَ مَعَهُم مِنَ اللَّهْوِ؟ فَإِنَّ الأَنْصَارَ يُعْجِبُهُمُ اللَّهْوَ»(١). وقد سبق.

ومنها: حديث فضالة بن عبيد عن النَّبِيِّ ﷺ أنَّه قَالَ: «للهُ أَشَدُّ أَذَنًا إلَىٰ الرَّجُلِ الحَسَنِ الصَّوْتِ بِالقُرْآنِ مِنْ صَاحِبِ القِينَةِ إلَىٰ قِينَتِهِ»(٢).

قَالَ ابن طاهر: وَجْهُ الحُجَّةِ أنَّه أَثْبَتَ تحليل استماع الغناء، إذ لا يجوز أن يُقاسَ عَلَىٰ مُحرَّم.

ومنها: حديث أبِي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النَّبِي ﷺ أنَّه قَالَ: «مَا أَذِنَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِشَيْءٍ مَا أَذِنَ لِنَبِيٍّ يَتَغَنَّىٰ بالقُرْآنِ»(٣).

ومنها: حديث حاطب عن النَّبِي ﷺ أنَّه قَالَ: «فَصْلُ مَا بَيْنَ الحَلالِ وَالحَرَامِ الضَّرْبُ بِالدُّفِّ»(٤).

والجواب: أمَّا حَدِيثا عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فقد سبق الكلامُ عليهما، وَبَيَّنَّا أنَّهم كانوا ينشدون الشِّعْرَ، وسُمِّيَ بذلك غناءً، لنوعٍ يثبت فِي الإنشاد وترجيع، ومثل ذلك لا يُخرِجُ الطِّبَاعَ عن الاعتدال.

وكيف يحتجُّ بذلك الواقع فِي الزَّمان السَّليم عند قلوبٍ صافيةٍ، عَلَىٰ هَذِهِ الأصوات المُطْرِبَةِ الواقعة فِي زمانٍ كَدَرٍ عند نفوسٍ قد تملَّكها الهوىٰ؟ ما هَذَا إلَّا مغالطةٌ للفهم.

أَوَلَيْسَ قد صحَّ فِي الحديث عن عائشة، أنَّها قالت: لو رأىٰ رسول الله ما أَحْدَثَ النِّسَاءَ لمَنَعَهُنَّ المساجدَ.

---

(١) أخرجه البخاري (٥١٦٢).

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٣٤٠)، وضعفه الألباني فِي «ضعيف الجامع» (٤٦٣٠).

(٣) أخرجه البخاري (٧٤٨٢)، ومسلم (٧٩٢).

(٤) أخرجه الترمذي (١٠٨٨)، وابن ماجه (١٨٩٦)، وحسنه الألباني فِي «صحيح الجامع» (٤٢٠٦).

وإنَّما ينبغي للمفتي أن يَزِنَ الأحوالَ، كما ينبغي للطَّبيب أن يَزِنَ الزَّمانَ والسِّنَّ والبَلَدَ ثُمَّ يصف عَلَىٰ مقدار ذلك.

وأين الغناءُ بِما تقاولت به الأنصارُ يوم بُعاثٍ، من غناءِ أَمْرَدَ مستحسن بآلاتٍ مستطابةٍ، وصناعةٍ تَجذب إليها النَّفسَ، وغزليَّاتٍ يُذْكَرُ فيها الغَزَالُ والغزالة والخال والخدُّ والقدُّ والاعتدال؟

فهل يَثْبُتُ هُنَاكَ طَبْعٌ؟ هَيْهَاتَ، بل ينزعج شوقًا إِلَىٰ المستلذِّ، ولا يدَّعي أنَّه لا يَجِدُ ذلك إلا كاذبٌ أو خَارِجٌ عن حَدِّ الآدميَّة، ومن ادَّعىٰ أخذ الإشارة من ذلك إِلَىٰ الخالق، فَقَدِ استعمل فِي حقِّه ما لا يَلِيقُ به، عَلَىٰ أنَّ الطَّبْعَ يَسْبِقُهُ إِلَىٰ ما يَجِدُ مِنَ الهَوَىٰ.

وقد أجاب أبو الطَّيِّب الطبريُّ عن هَذَا الحديث بجوابٍ آخر: فأخبرنا أبو القاسم الحَرِيرِيُّ عنه أنَّه قَالَ: هَذَا الحديثُ حُجَّتُنَا؛ لأنَّ أبا بكرٍ سَمَّىٰ ذلك مَزْمُورَ الشَّيطان، ولَمْ يُنْكِرِ النَّبِيُّ ﷺ عَلَىٰ أَبِي بكر قولَه، وإنَّما مَنَعَهُ من التَّغليظ فِي الإنكار؛ لِحُسْنِ رِفْعَتِهِ، لا سيما فِي يوم العيد، وقد كانت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا صغيرةً فِي ذلك الوقت، ولَمْ يُنْقَلْ عنها بعد بلوغها وتحصيلها إلَّا ذَمُّ الغناء.

وقد كان ابنُ أخيها القاسم بن مُحمَّد يَذُمُّ الغناء، وَيَمْنَعُ من سماعه، وقد أخذ العِلْمَ عنها.

قَالَ المصنف رَحِمَهُ اللهُ: وأمَّا اللَّهْوُ المذكورُ فِي الحديث الآخر، فليس بصريحٍ فِي الغناء، فيجوز أن يكون إنشادَ الشِّعْرِ أو غيره.

وأمَّا التَّشبيهُ بالاستماع إِلَىٰ القِينَةِ فلا يَمْتَنِعُ أن يكون المُشَبَّهُ حرامًا، فإنَّ الإنسانَ لو قَالَ: وَجَدْتُ للعسل لَذَّةً أكثر من لذَّة الخمر. كان كلامًا صحيحًا، وإنَّما وقع التَّشبيهُ بالإصغاء فِي الحالتين، فيكون أحدُهُما حلالًا، أو حرامًا لا يمنع من التَّشبيه.

وقد قَالَ عليه الصلاة والسلام: «إِنَّكُم لَتَرَوْنَ رَبَّكُم كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ»[١]. فَشَبَّهَ أَيْضًا الرُّؤية بإيضاح الرؤية، وإن كان وقع الفرق بأنَّ القمرَ فِي جهةٍ يحيط به نظر النَّاظر، والحقُّ مُنَزَّهٌ عن ذلك.

والفقهاءُ يقولون فِي ماء الوضوء: لا ننشِّفُ الأعضاء منه؛ لأنَّه أثرُ عبادةٍ، فلا يُسَنُّ مَسْحُهُ كدم الشَّهيد، فقد جَمعوا بينهما من جهةِ اتِّفاقهما فِي كونِهما عبادةً، وإن افترقا فِي الطَّهارة والنَّجاسة.

واستدلالُ ابن طاهرٍ بأنَّ القياسَ لا يكون إلَّا عَلَىٰ مباحٍ، فِقْهُ الصُّوفيَّة، لا عِلْمُ الفقهاء.

وأمَّا قولُه: يتغنَّىٰ بالقرآن، فقد فسَّره سفيانُ بنُ عيينة، فقَالَ: معناه: يستغني به. وفسَّره الشَّافعيُّ فقَالَ: معناه: يتحزَّن به، ويترنَّم. وقَالَ غيرُهُما: يَجْعَلُهُ مكانَ غِنَاءِ الرُّكْبَانِ إذا ساروا.

وَأَمَّا الضَّرْبُ بِالدُّفِّ، فَقَدْ كَانَ جَمَاعَةٌ مِنَ التَّابِعِينَ يَكْسِرُونَ الدُّفوفَ، وما كانت هكذا، فكيف لو رَأَوا هذه؟

وكان الحَسَنُ البَصْرِيُّ يَقُولُ: لَيْسَ الدُّفُّ مِنْ سُنَّةِ المرسلين فِي شيءٍ.

وقَالَ أبو عبيد القاسم بن سلَّام: مَنْ ذَهَبَ به إِلَىٰ الصُّوفيَّة، فهو خطأُ التَّأْوِيلِ عَلَىٰ رسول الله ﷺ، وإنَّما مَعْنَاهُ عِنْدَنَا النِّكَاحُ، وَاضْطِرَابُ الصَّوْتِ، والذِّكْرُ فِي النَّاس.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: قُلْتُ: وَلَوْ حمل عَلَىٰ الدُّفِّ حقيقةً عَلَىٰ أنَّه قد قَالَ أحمد بن حنبل: أرجو ألا يكون بالدُّفِّ بَأْسٌ فِي العُرْسِ وَنَحْوِهِ، وأكره الطَّبل.

أخبرنا عبد الله بن علي المقرِّيُّ، نا نصر بن أحمد بن البطر، نا أبو مُحمَّد عبد الله بن

(١) أخرجه البخاري (٥٥٤)، ومسلم (٦٣٣) من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

عبيد الله المؤدِّب، ثنا الحسين بن إسماعيل المحاملي، ثنا عبيد الله بن جرير بن جبلة، ثنا عمرو بن مرزوق، ثنا زهير، عن أبِي إسحاق، عن عامر بن سعد البجليِّ، قَالَ: طَلَبْتُ ثابتَ بن سعد -وكان بدريًّا- فوجدتُه فِي عُرْسٍ له.

قَالَ: وإذا جَوَارٍ يُغَنِّينَ وَيَضْرِبْنَ بالدُّفوف، فَقُلْتُ: ألا تَنْهَىٰ عن هذا؟ قَالَ: لا. إنَّ رسول الله ﷺ رَخَّصَ لنا فِي هذا.

أخبرنا عبد الله بن علي، نا جدي أبو منصور، مُحمَّد بن أحمد الخياط، نا عبد الملك بن بشران، ثنا أبو علي أحمد بن الفضل بن خزيمة، ثنا أحمد بن القاسم الطائي، ثنا ابن سهم ثنا عيسىٰ بن يونس، عن خالد بن إلياس، عن ربيعة ابن أبِي عبد الرحمن، عن القاسم، عن عائشة قالت: قَالَ رسول الله ﷺ: «**أَظْهِرُوا النِّكَاحَ، وَاضْرِبُوا عَلَيْهِ بِالغرْبال. يعني: الدُّفَّ**»[1].

قَالَ المصنف رَحِمَهُ اللهُ: وكلُّ ما احتجُّوا به، لا يجوز أن يُسْتَدَلَّ به عَلَىٰ جَوَازِ هَذَا الغِنَاءِ المَعْرُوفِ المُؤَثِّر فِي الطِّباع، وقد احتجَّ لَهم أقوامٌ مَفْتُونون بحبِّ التَّصَوُّفِ بِما لا حُجَّةَ فيه؛ فَمِنْهُم أبو نُعَيْم الأصفهانِيُّ؛ فإنَّه قَالَ: كان البَرَاءُ بنُ مالكٍ يَمِيلُ إِلَىٰ السَّمَاعِ، وَيَسْتَلِذُّ بالتَّرَنُّمِ.

قَالَ المصنف رَحِمَهُ اللهُ: وإنَّما ذكر أبو نعيم هَذَا عن البَرَاءِ؛ لأنَّه رُوِيَ عنه أنَّه اسْتَلْقَىٰ يومًا فَترَنَّمَ، فانظر إِلَىٰ هَذَا الاحتجاج البارد، فَإِنَّ الإنسانَ لا يَخْلُو من أن يترنَّم، فأين التَّرَنُّمُ من السَّمَاعِ للغناء المُطْرِبِ.

وقد استدلَّ لَهم مُحمَّدُ بن طاهر بأشياء، لولا أن يَعْثُرَ عَلَىٰ مِثْلِهَا جاهل فيغترَّ، لَمْ يَصْلُحْ ذكرُها؛ لأنَّها ليست بشيء:

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١٨٩٥)، وضعفه الألباني فِي «الإرواء» (١٩٩٣).

فمنها: أنَّه قَالَ فِي كتابه: «باب الاقتراح عَلَىٰ القوَّال والسُّنَّة فيه»، فَجَعَلَ الاقتراح عَلَىٰ القوَّال سُنَّةً، واستدلَّ بِما روىٰ عمرو بن الشريد عن أبيه، قَالَ: استنشدني رسول الله ﷺ من شعر أميَّة، فَأَخَذَ يقول: هي هي[(١)]. حتَّىٰ أنْشَدْتُهُ مائة قافيةٍ.

وقَالَ ابن طاهر: بابُ الدَّليل عَلَىٰ استماع الغَزَلِ، قَالَ العجَّاجُ: سَأَلْتُ أبا هريرة رضي الله عنه: «طَافَ الخَيَالات فَهَاجَا سَقَمًا». فقَالَ أبو هريرة رضي الله عنه: كان يُنْشَدُ مِثْلُ هَذَا بين يدي رسول الله ﷺ[(٢)].

قَالَ المصنف رحمه الله: فانظر إلَىٰ احتجاج ابن طاهر، ما أعجبه! كيف يَحْتَجُّ عَلَىٰ جواز الغناء، بإنشاد الشِّعْرِ، وما مِثْلُهُ إلَّا كمثل من قَالَ: يجوز أن يُضْرَبَ بالكفِّ عَلَىٰ ظهر العُودِ، فجاز أن يُضْرَبَ بأوتاره. أو قَالَ: يجوز أن يُعْصَرَ العِنَبُ، ويُشْرَبَ منه فِي يَوْمِهِ، فجاز أن يُشْرَبَ منه بعد أيَّامٍ. وقد نَسِيَ أنَّ إنشاد الشِّعر لا يُطْرِبُ كما يُطْرِبُ الغناء.

وقد أنبأنا أبو زرعة بن مُحمَّد بن طاهر، عن أبيه، قَالَ: أخبرنا أبو مُحمَّد التميميُّ، قَالَ: سَأَلْتُ الشريف أبا علي بن أبِي موسىٰ الهاشمي عن السَّمَاعِ فقَالَ: ما أدري ما أقولُ فيه، غير أنِّي حضرتُ ذَاتَ يَوْمٍ شيخَنا أبا الحسن عبد العزيز بن الحارث التَّميميَّ، سَنَةَ سَبْعِينَ وثلاثَ مئةٍ، فِي دعوةٍ عَمِلَهَا لأصحابه، حضرها أبو بكر الأبْهريُّ شيخ المالكيِّين، وأبو القاسم الدَّاركيُّ شيخُ الشافعيِّين، وأبو الحسن طاهر بن الحسين شيخ أصحاب الحديث، وأبو الحسين بن سمعون شيخ الوُعَّاظِ والزُّهَّاد، وأبو عبد الله بن مجاهد شيخ المتكلِّمين، وصاحبُه أبو بكر بن الباقلانِي، فِي دار شيخنا أبِي الحسن التميمي شيخ الحنابلة، فقَالَ أبو علي: لو سقط السَّقْفُ عليهم، لن يبقَىٰ بالعراق مَنْ يُفْتِي فِي حَادِثَةٍ بِسُنَّةٍ.

(١) أخرجه مسلم (٢٢٥٥).

(٢) أخرجه ابن عدي فِي «الكامل» فِي الضعفاء (٣/ ١٨٠)، وذكره الهيثمي فِي «المجمع» (٨/ ١٢٨) وعزاه للطبرانِي.

ومعهم أبو عبد الله غلامٌ، وكان يقرأُ القرآنَ بِصَوْتٍ حَسَنٍ، فقيل له: قل شيئًا، فقَالَ: وهم يسمعون:

خَطَّتْ أَنَامِلَهَا فِي بَطْنِ قِرْطَاسِ ... رِسَالَةً بِعَبِيرٍ لا بِأَنْفَاسِ

أَنْ زُرْ فَدَيْتُكَ قِفْ لِي غَيْرَ مُحْتَشِمٍ ... فَإِنَّ حُبَّكَ لِي قَدْ شَاعَ فِي النَّاسِ

فَكَانَ قَوْلِي لِمَنْ أَدَّى رِسَالَتَهَا ... قِفْ لِي لِأَمْشِي عَلَى العَيْنَيْنِ والرَّاس

قَالَ أبو علي: فَبَعْدَمَا رأيتُ هَذَا، لا يمكنني أن أُفْتِي فِي هَذِهِ المسألة بِحَظْرٍ ولا إباحةٍ.

قَالَ المصنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: وهَذِهِ الحكاية إن صدق فيها مُحمَّدُ بن طاهر، فَإِنَّ شَيْخَنَا ابن ناصر الحافظ كان يقول: ليس مُحمَّد بن طاهر بِثِقَةٍ، حُمِلَتْ هَذِهِ الأبيات عَلَىٰ أنَّه أنشدها، لا أنَّه غَنَّىٰ بِها بِقَضِيبٍ ومِخَدَّةٍ؛ إذ لو كان كذلك لَذَكَرَهُ، ثُمَّ فيها كلام مُجْمَلٌ.

قوله: لا يمكنني أن أقول فيها بحظرٍ، ولا إباحةٍ؛ لأنَّه إن كان مقلِّدًا لَهم، فينبغي أن يُفْتِي بالإباحة، وإن كان ينظر فِي الدَّليل، فَيَلْزَمُهُ مع حضورهم أن يُفْتِي بالحظر، ثُمَّ بتقدير صِحَّتِهَا، أفلا يكون اتِّبَاعُ المذهب أَوْلَىٰ من اتِّباع أرباب المذاهب.

وقد ذَكَرْنَا عن أَبِي حنيفة ومالك والشافعيِّ وأحمد رضوان الله عليهم أجمعين، ما يكفي فِي هَذَا، وشيَّدْنَا ذلك بالأدلَّة.

وقَالَ ابن طاهر فِي كتابه: باب إكرامهم للقوَّال وإفرادهم الموضع له. وَاحْتُجَّ بأنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَمَىٰ بُرْدَةً كانت عليه إِلَىٰ كعب بن زهير، لَمَّا أَنْشَدَهُ: بانت سعادُ[1]. وإنَّما ذَكَرْتُ هَذَا لِيُعْرَفَ قَدْرُ فقه هَذَا الرَّجل واستنباطه، وإلَّا فالزَّمان أشرفُ من أن يَضِيعَ بمثل هَذَا التَّخليط.

وأنبأنا أبو زرعة، عن أبيه مُحمَّد بن طاهر، نا أبو سعيد إسماعيل بن مُحمَّد الحجاجي،

(١) انظر القصة فِي «السيرة النبوية» لابن هشام (٥/ ١٨١-١٩٤).

ثنا أبو مُحمَّد عبد الله بن أحمد المقري، ثنا أبِي، ثنا علي بن أحمد، ثنا مُحمَّد بن العباس بن بلال، قَالَ: سعيد بن مُحمَّد قَالَ: حدَّثني إبراهيم بن عبد الله -وكان النَّاس يتبرَّكون به- قَالَ: حَدَّثَنَا المُزَنِيُّ قَالَ: مَرَرْنَا مع الشافعي وإبراهيم بن إسماعيل عَلَىٰ دار قومٍ وجاريةٌ تُغَنِّيهم:

خَلِيلِـي مَـا بَـالُ المَطَايَـا كَأَنَّنَـا ... نَرَاهَـا عَلَـى الأَعْقَـابِ بِـالقَوْمِ تَـنْكِصُ

فقَالَ الشافعي: مِيلُوا بنا نَسْمَع.

فَلَمَّا فَرَغَتْ، قَالَ الشافعي لإبراهيم: أَيُطْرِبُكَ هذا؟

قَالَ: لا.

قَالَ: فما لك حِسٌّ.

قَالَ المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: قلت: وهَذَا مُحَالٌ عَلَىٰ الشَّافِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفِي الرواية مَجهولون، وابن طاهرٍ لا يُوثَقُ به، وقد كان الشَّافِعِيُّ أجَلَّ من هَذَا كلِّه.

ويدلُّ عَلَىٰ صحَّة ما ذكرناه، ما أخبرنا به أبو القاسم الحريريُّ، عن أبِي الطَّيِّبِ الطَّبَرِيِّ قَالَ: أمَّا سَمَاعُ الغناء من المَرْأَةِ الَّتي ليست بِمَحْرَمٍ، فإنَّ أصحاب الشَّافِعِيِّ قالوا: لا يجوز، سواء كانت حُرَّةً أو مملوكةً.

قَالَ: وقَالَ الشافعي: وصاحب الجارية إذا جَمَعَ النَّاسَ لِسَمَاعِهَا، فهو سَفِيهٌ تُرَدُّ شَهَادَتُهُ. ثُمَّ غَلَّظَ القَوْلَ فيه فقَالَ: وهو دِياثةٌ.

قَالَ المصنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: وإنَّما جُعِلَ صاحبُها سفيهًا فاسقًا؛ لأنَّه دعا النَّاسَ إلَىٰ الباطل، وَمَنْ دعا إلَىٰ الباطل كان سَفِيهًا فاسقًا.

قَالَ المصنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: قلت: وقد أخبرنا مُحمَّد بن القاسم البغداديُّ، عن أبِي مُحمَّد التَّميمي، عن أبِي عبد الرحمن السلميِّ، قَالَ: اشترىٰ سعد بن عبد الله الدمشقيُّ جاريةً قَوَّالةً للفقراء، وكانت تقول لَهم القصائد.

قَالَ المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قُلْتُ: وقد ذكر أبو طالب المَكِّيُّ فِي كتابه قَالَ: أدركنا مروان القاضي، وله جَوَارٍ يَسْمَعْنَ التَّلْحِينَ قد أعدَّهنَّ للصُّوفيَّة، قَالَ: وكانت لعطاء جاريتان تُلَحِّنان، وكان إخوانُه يسمعون التَّلْحِينَ منهما.

قَالَ المصنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قُلْتُ: أمَّا سعدُ الدِّمَشْقِيُّ فَرَجُلٌ جاهلٌ، والحكايةُ عن عطاء مُحَالٌ وكذب، وإن صحَّت الحكاية عن مروان فهو فاسق، والدليل عَلَىٰ ما قُلْنَا ما ذكرنا عن الشَّافعيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وهؤلاء القوم جهلوا العلم فمالوا إِلَىٰ الهَوَىٰ.

وقد أنبأنا زاهرُ بن طاهر، قَالَ: أنبأنا أبو عثمان الصَّابونِيُّ، وأبو بكر البيهقيُّ، قالا: أنبأنا الحاكم أبو عبد الله النَّيسابوريُّ، قَالَ: أَكْثَرُ ما التَقَيْتُ أنا وفارس بن عيسىٰ الصوفي، فِي دار أبِي بكر الإبريسمي، للسَّمَاعِ من هزارة -رحمها الله- فإنَّها كانت من مستورات القَوَّالات.

قَالَ المصنِّفُ: قُلْتُ: وهَذَا أَقْبَحُ شَيْءٍ من مثل الحاكم، كيف خَفِيَ عليه أنَّه لا يَحِلُّ له أن يسمع من امرأةٍ ليست بِمَحْرَمٍ، ثُمَّ يذكر هَذَا فِي كتاب «تاريخ نيسابور» وهو كتابُ عِلْمٍ، من غير تحاشٍ عن ذِكْرِ مِثْلِهِ، لقد كَفَاه هذا، قدحًا عدالته.

قَالَ المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فإن قيل: ما تقولُ فيما أَخْبَرَكُم به إسماعيل بن أحمد السمرقنديُّ، نا عمر بن عبد الله، نا أبو الحسين بن بشران، نا عثمان بن أحمد، نا حنبل بن إسحاق، ثنا هارون بن معروف، ثنا جرير، عن مغيرة، قَالَ: كان عون بن عبد الله يَقُصُّ، فإذا فَرَغَ، أَمَرَ جَارِيَةً له تقصُّ وتُطْرِبُ.

قَالَ المغيرةُ: فأرسلتُ إليه، أو أَرَدْتُ أن أُرْسِلَ إليه: إِنَّكَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ صِدْقٍ، وإنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيَّهُ ﷺ بالحُمْقِ، وإنَّ صَنِيعَكَ هَذَا صَنِيعُ أَحْمَقَ.

فالجوابُ: إنَّا لا نَظُنُّ بِعَوْنٍ أنَّه أَمَرَ الجارية أن تقصَّ عَلَىٰ الرِّجال، بل أَحَبَّ أن يَسْمَعَهَا مُنْفَرِدًا وهي مِلْكُهُ، فقَالَ له مغيرة الفقيه هَذَا القَوْلَ، وَكَرِهَ أن تُطْرِبَ الجارية

له، فما ظنُّك بِمن يُسْمِعُهُنَّ الرِّجال، ويُرْقِصُهُنَّ ويُطْرِبُهُنَّ.

وقد ذكر أبو طالب المكيُّ أنَّ عبد الله بن جعفر كان يسمع الغناء.

قَالَ المصنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وإنَّما كان يَسْمَعُ إنشادَ جَوَارِيه، وقد أردف ابن طاهر الحكايةَ الَّتي ذَكَرَهَا عن الشافعيِّ، وقد ذكرناها آنفًا بحكايةٍ عن أحمد بن حنبل، رواها من طريق عبد الرحمن السلميِّ، قَالَ: حَدَّثَنَا الحسينُ بن أحمد، قَالَ: سمعتُ أبا العبَّاس الفرغانِيَّ، يقول: سَمعت صالح بن أحمد بن حنبل يقول: كنت أحبُّ السَّماع، وكان أبِي أحمد يَكْرَهُ ذلك، فَوَعَدْتُ ليلةً ابنَ الخبَّازة، فَمَكَثَ عندي إِلَىٰ أن عَلِمْتُ أنَّ أبِي قد نام، وأخذ يغنِّي، فسمعتُ حِسَّ أبِي فوق السَّطْحِ، فصعدتُ فرأيتُ أبِي فوقَ السَّطْحِ يسمع، وذَيْلُهُ تحت إبطه، يتبخترُ عَلَىٰ السَّطْحِ كأنَّه يَرْقُصُ.

قَالَ المصنف رَحِمَهُ اللهُ: هَذِهِ الحكايةُ قد بَلَغَتْنَا من طُرُقٍ؛ ففي بعض الطُّرُقِ عن صالح قَالَ: كنت أدعو ابنَ الخبَّازة القصائدي، وكان يقول ويلحن، وكان أبِي فِي الزُّقاق يذهب ويجيء ويسمع إليه، وكان بيننا وبينه باب، وكان يقف من وراء الباب يستمع.

وقد أخبرنا بِها أبو منصور القزاز، نا أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت، نا أحمد بن علي بن الحسين التوزي، ثنا يوسف بن عمر القواس، قَالَ: سمعت أبا بكر بن مالك القطيعي، يحكي -أظنُّه عن عبد الله بن أحمد- قَالَ: كنت أدعو ابن الخبَّازة القصائدي، وكان يقول ويلحن، وكان أبِي ينهانِي عن التَّغَنِّي، فَكُنْتُ إذا كان ابن الخبَّازة عندي، أَكْتُمُهُ عن أبِي؛ لئلا يسمع، فكان ذات ليلةٍ عندي، وكان يغنِّي، فَعَرَضَتْ لأبِي عندنا حاجةٌ، وكانا فِي زقاقٍ، فجاء، فَسَمِعَهُ يغنِّي، فتسمَّع، فوقع فِي سمعه شيءٌ من قوله، فخرجتُ لأنظر، فإذا بأبِي ذاهبًا وجائيًا، فرددتُ الباب، فدخلتُ، فلمَّا كان من الغَدِ قَالَ لي: يا بنيّ، إذا كان هذا نعم الكلام. أو معناه.

قَالَ المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: وهَذَا ابن الخَبَّازَةِ كان يُنْشِدُ القصائد الزُّهْدِيَّاتِ الَّتي فيها ذِكْرُ الآخرة، ولذلك استمع إليه أحمد.

وَقَوْلُ من قَالَ: ينزعج. فإنَّ الإنسانَ قد يُزْعِجُهُ الطَّرَبُ، فَيَمِيلُ يمينًا وشمالًا.

وأمَّا روايةُ ابن طاهر الَّتي فيها: فرأيتُه وَذَيْلُهُ تحت إِبِطِهِ، يَتَبَخْتَرُ عَلَىٰ السَّطح كأنَّه يرقص، فإنَّما هو من تغيير الرُّواة، وتغييرُهم لما يظنُّونه المعنىٰ، تصحيحًا لمذهبهم فِي الرَّقص.

وقد ذكرنا القَدْحَ فِي السُّلميّ، وفِي ابن طاهرِ الرَّاوِيَيْنِ لِهَذِهِ اللَّفظات، وقد احتجَّ لَهم أبو طالب المكيُّ، عَلَىٰ جواز السَّماع بِمناماتٍ، وقَسَّمَ السَّمَاعَ إِلَىٰ أنواعٍ، وهو تقسيمٌ صوفيٌّ لا أَصْلَ له.

وقد ذَكَرْنَا أَنَّ مَنِ ادَّعىٰ أنَّه يسمع الغناء، ولا يؤثِّر عنده تحريك النَّفس إِلَىٰ الهَوَىٰ، فهو كاذبٌ.

وقد أخبرنا أبو القاسم الحريريُّ، عن أَبِي الطَّيِّبِ الطَّبَرِيِّ، قَالَ: قَالَ بعضُهم: إنَّا لا نسمع الغِنَاءَ بالطَّبْعِ الَّذي يشترك فيه الخاصُّ والعامُّ. قَالَ: وهَذَا تَجَاهُلٌ منه عَظِيمٌ؛ لأَمْرَيْنِ:

أَحَدُهُما: أنَّه يَلْزَمُهُ عَلَىٰ هَذَا أن يَسْتَبِيحَ العُودَ والطُّنْبُورَ وسائرَ الملاهي؛ لأنَّه يسمعه بالطَّبْعِ الَّذي لا يشاركه فيه أحدٌ من الناس، فإن لَمْ يَسْتَبِحْ ذلك، فقد نَقَضَ قولَه، وإن استباح فقد فَسَقَ.

والثانِي: أنَّ هَذَا المُدَّعِي لا يَخْلُو من أن يَدَّعِي أنَّه فَارَقَ طَبْعَ البَشَرِ، وصار بِمنْزلة الملائكة، فإن قَالَ هَذَا، فقد تَخرَّص عَلَىٰ طَبْعِهِ، وَعَلِمَ كُلُّ عَاقِلٍ كَذِبَهُ إذا رَجَعَ إِلَىٰ نفسه، وَوَجَبَ ألا يكون مجاهدًا لنفسه، ولا مُخالفًا لِهَوَاهُ، ولا يكون له ثوابٌ عَلَىٰ تَرْكِ اللَّذَّاتِ والشَّهَوَاتِ، وهَذَا لا يقوله عاقل، وإن قَالَ: أنا عَلَىٰ طبع البَشَرِ المَجْبُولِ عَلَىٰ الهوىٰ

والشَّهوة، قلنا له: فكيف تسمع الغناء المطرب بغير طبعك، أو تطرب لسماعه لغير ما غُرِسَ فِي نفسك.

أخبرنا ابن ناصر، نا أحمد بن علي بن خلف، ثنا أبو عبد الرحمن السلمي، قَالَ: سمعتُ أبا القاسم الدِّمَشْقِيّ، يقول: سُئِلَ أبو علي الروذباريُّ عَمَّنْ سَمِعَ الملاهي، ويقول: هي لِي حلالٌ؛ لأنِّي قد وَصَلْتُ إِلَىٰ دَرَجَةٍ لا تؤثِّر فِيَّ اختلاف الأحوال. فقَالَ: نعم. قد وَصَلَ لعمري، ولكن إِلَىٰ سَقَرٍ.

قَالَ المصنف رَحِمَهُ اللهُ: فإن قيل: قد بَلَغَنَا عن جَماعةٍ أنَّهم سمعوا عن المنشد شيئًا، فأخذوه عَلَىٰ مقصودهم فانتفعوا به. قُلْنَا: لا ينكر أن يسمع الإنسان بيتًا من الشِّعر أو حكمةً، فيأخذها إشارة فتزعجه بِمعناها، لا لأنَّ الصَّوْتَ مُطْرِبٌ، كما سمع بعض المريدين صوت مغنيةٍ تقول:

كُلَّ يَوْمٍ تَتَلَوَّنْ غَيْرُ هَذَا بِكَ أجْمَلْ

فَصَاحَ وَمَاتَ، فهَذَا لَمْ يقصد سماعَ المرأة، ولَمْ يَلْتَفِتْ إِلَىٰ التَّلحين، وإنَّما قتله المعنىٰ، ثُمَّ ليس سماعُ كلمةٍ أو بيتٍ لَمْ يَقْصِدْ سماعه، كالاستعداد لسماع الأبيات المذكورة الكثيرة المطربة، مع انضمام الضَّرب بالقضيب والتَّصفيق، إِلَىٰ غير ذلك.

إن ذلك السَّامع لَمْ يقصد السَّماع، ولو سألنا: هل يجوز لي أن أقصد سماع ذلك؟ مَنَعْنَاهُ.

قَالَ المصنف رَحِمَهُ اللهُ: وقد احتجَّ لَهم أبو حامد الطوسيُّ بأشياء، نزل فيها عن رُتْبَتِهِ عن الفَهْمِ، مَجْمُوعُهَا أنَّه قَالَ: ما يدلُّ عَلَىٰ تحريم السَّماع نصٌّ ولا قياسٌ. وجوابُ هَذَا ما قد أسلفناه، وقَالَ: لا وجه لتحريم سماع صوتٍ طَيِّبٍ، فإذا كان موزونًا فلا يحرم أيضًا، وإذا لَمْ يَحْرُمِ الآحادُ فلا يحرم المجموع؛ فإنَّ أفراد المباحات إذا اجتمعت، كان المجموعُ مُبَاحًا.

قَالَ: ولكن يُنْظَرُ فيما يُفْهَمُ من ذلك، فإن كان فيه شيءٌ محظورٌ، حَرُمَ نَثْرُهُ وَنَظْمُهُ، وَحَرُمَ التَّصْوِيتُ له.

قَالَ المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: قلت: وإنّي لأتعجّب من مثل هَذَا الكلام؛ فإنَّ الوَتَرَ بِمفرده أو العود وَحْدَهُ من غير وَتَرٍ، لو ضُرِبَ لَمْ يحرم، ولَمْ يُطْرِبْ، فإذا اجتمعا، وضُرِبَ بِهما عَلَىٰ وَجْهٍ مَخصوصٍ حَرُمَ وَأَزْعَجَ، وكذلك ماءُ العنب جائزٌ شُرْبُهُ، وإذا حَدَثَتْ فيه شِدَّةٌ مطربةٌ حَرُمَ.

وكذلك هَذَا المجموع يُوجِبُ طَرَبًا، يَخْرُجُ من الاعتدال، فيمنع منه ذلك.

وقَالَ ابن عقيل: الأصواتُ عَلَىٰ ثلاثةِ أَضْرُبٍ: مُحَرَّمٍ ومكروهٍ ومباحٍ.

فالمُحَرَّمُ: الزَّمْرُ والنَّايُ والسرْنَا والطُّنْبُورُ والمِعْزَفَةُ والرَّبَابُ وما ماثَلَهَا، نَصَّ الإمامُ أَحْمَدُ بن حنبل عَلَىٰ تَحْرِيمِ ذلك، وَيُلْحَقُ به الجرافة والجَنْك؛ لأنَّ هَذِهِ تُطْرِبُ، فَتُخْرِجُ عن حَدِّ الاعْتِدَالِ، وتفعل فِي طباع الغالب من الناس ما يَفْعَلُهُ المُسْكِرُ، وسواءٌ استعمل عَلَىٰ حزن يهيجه أو سرور؛ لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ: «نَهَىٰ عن صَوْتَيْنِ أحمقين: صوتٍ عند نَغَمَةٍ، وصوتٍ عند مصيبةٍ»[1].

والمَكْرُوهُ: القَضِيبُ، لَكِنَّهُ لَيْسَ بِمُطْرِبٍ فِي نَفْسِهِ، وإنَّما يُطْرِبُ بِما يَتْبَعُهُ، وهو تابعٌ للقول، والقولُ مكروهٌ، ومن أصحابنا من يحرِّم القضيب كما يحرِّم آلات اللَّهو، فيكون فيه وَجْهَانِ كالقَوْلِ نَفْسِهِ.

والمباحُ: الدُّفُّ، وقد ذكرنا عن أحمد أنّه قَالَ: أرجو ألا يكون بالدُّفِّ بَأْسٌ فِي العُرْسِ ونحوه، وَأَكْرَهُ الطَّبْلَ.

---

(١) أخرجه الترمذي (١٠٠٥) من حديث عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وصححه الألباني فِي «صحيح الجامع» (٥١٩٤).

وقد قَالَ أبو حامد: مَنْ أَحَبَّ اللهَ وَعَشِقَهُ واشتاق إِلَىٰ لقائه، فالسَّماعُ فِي حقِّه مؤكَّدٌ؛ لِعِشْقِهِ.

قَالَ المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قلت: وهَذَا قبيحٌ أن يُقَالَ عن الله عَزَّوَجَلَّ يُعْشَقُ، وقد بَيَّنَّا فيما تَقَدَّمَ خَطَأَ هَذَا القَوْلِ، ثُمَّ أيُّ توكيدٍ لِعِشْقِهِ فِي قول المغنِّي:

ذَهَبِيُّ اللَّوْنِ تَحْسَبُ مِنْ ... وِجْنَتَيْهِ النَّارَ تُقْتَدَحُ

قَالَ المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ قلت: وَسَمِعَ ابنُ عقيل بَعْضَ الصُّوفِيَّةِ يقول: إنَّ مشايخ هَذِهِ الطَّائفة كلَّما وَقَفَتْ طِبَاعُهُم، حَدَاها الحادي إِلَىٰ اللهِ بالأناشيد. فقَالَ ابن عقيل: لا كرامةَ لِهَذَا القائل؛ إنَّما تُحْدَىٰ القلوبُ بِوَعْدِ الله فِي القرآن، ووَعِيدِهِ، وسُنَّةِ الرَّسول ﷺ؛ لأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قَالَ: ﴿وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾ [الأنفال:٢]، وما قَالَ: وإذا أُنْشِدَتْ عليه القصائد طَرِبَتْ.

فَأَمَّا تَحْرِيكُ الطِّبَاعِ بالأَلْحَانِ، فقاطعٌ عن الله، والشِّعْرُ يتضمَّنُ صِفَةَ المخلوق والمعشوق، مِمَّا يتعدَّد عنه فتنه، ومن سوَّلت له نفسُه التقاط العِبَرِ من مَحاسن البشر، وحسن الصَّوت فمفتونٌ.

بل ينبغي النَّظَرُ إِلَىٰ المَحَالِّ الَّتِي أحالنا عليها الإبل والخيل والرِّياح ونحو ذلك؛ فإنَّها منظوراتٌ لا تَهِيج طَبْعًا، بل تُورِثُ اسْتِعْظَامًا للفاعل، وإنَّما خَدَعَكُمُ الشَّيْطَانُ، فَصِرْتُم عَبِيدَ شَهَواتكم، ولَمْ تقفوا، حتَّىٰ قُلْتُم هَذِهِ الحقيقة، وأنتم زنادقةٌ فِي زِيِّ عُبَّادٍ، شَرِهونَ، فِي زِيِّ زُهَّادٍ، مُشَبِّهَةٌ تعتقدون أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يُعْشَقُ ويُهَامُ فيه، وَيُؤْلَفُ، وَيُؤْنَسُ به.

وَبِئْسَ التَّوَهُّم؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ خَلَقَ الذَّوَاتِ مُشَاكِلَةً؛ لأنَّ أُصُولَهَا مُشَاكِلَةٌ؛ فَهِيَ تَتَآنَسُ وَتَتَآلَفُ بِأُصُولِهَا العنصريَّة، وتراكيبها المِثْلِيَّةِ فِي الأشكال الحَدِيثَةِ، فَمِنْ هَاهُنَا جاء التَّلاومُ والمَيْلُ وعشقُ بعضهم بعضًا، وعَلَىٰ قَدْرِ التَّقَارُبِ فِي الصُّورة يَتَأَكَّدُ الأُنْسُ.

والواحدُ مِنَّا يأنس بالماء؛ لأنَّ فيه ماءً، وهو بالنَّبات آنسُ؛ لِقُرْبِهِ من الحيوانيَّة بالقوَّة النَّمائيَّة، وهو بالحيوان آنسُ لمشاركته فِي أخصِّ النَّوع به أو أقربه إليه، فأين المشاركة للخالق والمخلوق حتَّىٰ يَحْصُلَ المَيْلُ إليه والعِشْقُ والشَّوْقُ؟ وما الَّذي بين الطِّينِ والماء وبين خالق السَّماء من المناسبة؟

وإنَّما هؤلاء يُصَوِّرون الباري ﷻ صورةً تثبت فِي القلوب، وما ذاك الله ﷯ ذاك صَنَمٌ شَكَّلَهُ الطَّبْعُ والشَّيْطَانُ، وليس لله وَصْفٌ تَمِيلُ إليه الطِّبَاعُ، ولا تَشْتَاقُ إليه الأنفس، وإنَّما مباينة الإلهيَّة للمُحْدَثِ، أَوْجَبَتْ فِي الأَنْفُسِ هَيْبَةً وحِشْمَةً، فما يَدَّعِيهِ عشَّاق الصُّوفيَّة لله فِي مَحبَّة الله، إنَّما هو وَهْمُ اعتراض، وصورةٌ شَكَلَتْ فِي نفوسٍ، فَحُجِبَتْ عن عبادة القديم، فيجدون بتلك الصُّورة أُنْسًا، فإذا غَابَتْ بِحُكْمِ ما يَقْتَضِيهِ العَقْلُ، أَقْلَقَهُمُ الشَّوْقُ إليها، فنالهم من الوَجْد وتحرُّك الطَّبع والهَيَمَان، ما ينال الهائم فِي العشق.

فنعوذ بالله من الهواجس الرَّديئة، والعوارض الطَّبيعيَّة، الَّتي يَجِبُ بِحُكْمِ الشَّرْعِ مَحْوُها عن القلوب، كما يَجِبُ كَسْرُ الأصنام.

قَالَ المصنف ؒ: وقد كان جَمَاعَةٌ من قدماء الصُّوفيَّة، يُنْكِرُون عَلَىٰ المبتدئ السَّماع؛ لعلمهم بِما يُثِير من قلبه.

أخبرنا عمر بن ظفر القمريُّ، نا جعفر بن أحمد، نا عبد العزيز بن علي الأزجي، ثنا ابن جهضم، ثني أبو عبد الله المقري، ثنا عبد الله بن صالح، قَالَ: قَالَ لِي جُنَيْدٌ: إذا رَأَيْتَ المريدَ يسمعُ السَّماع، فاعلم أنَّ فيه بقايا من اللَّعب.

أخبرنا أبو بكر بن حبيب، نا أبو سعيد بن أَبِي صادق، نا أبو عبد الله بن باكويه، قَالَ: سمعت أحمد بن مُحمَّد البَرْدعيَّ يقول: سمعت أبا الحسين النُّوريَّ يقول لبعض أصحابه: إذا رَأَيْتَ المُرِيدَ يسمعُ القصائد، ويَميل إِلَىٰ الرَّفاهية، فلا تَرْجُ خيرَه.

قَالَ المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: هَذَا قول مشايخ القوم، وإنَّما تَرَخَّصَ المتأخِّرون حُبَّ اللَّهو، فتعدَّىٰ شرُّهم من وجهين:

أحدهُما: سوءُ ظنِّ العوام بقدمائهم؛ لأنَّهم يظنُّون أنَّ الكلَّ كانوا هكذا.

والثانِي: أنَّهم جرَّأوا العوامَّ عَلَىٰ اللَّعب، فليس للعاميِّ حُجَّةٌ فِي لعبه، إلَّا أن يقول: فلانٌ يفعل كذا ويفعل كذا.

فصل (فتنة السماع)

قَالَ المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: وقد نَشَبَ السَّمَاعُ بِقُلُوبِ خَلْقٍ منهم، فَآثَرُوه عَلَىٰ قراءةِ القرآن، وَرَقَّتْ قلوبُهم عنده، بِما لا تَرِقُّ عند القرآن، وما ذاك إلَّا لِتَمَكُّنِ هَوَىٰ باطنٍ، تَمَكَّن منه، وَغَلَبَةِ طَبْعٍ، وهم يظنُّون غير هذا.

أخبرنا أبو منصور القزاز، نا أبو بكر الخطيب، نا عبد الكريم بن هوازن (ح) وأنبأنا عبد المنعم بن عبد الكريم، ثنا أبِي وقَالَ: سمعتُ أبا حاتم مُحمَّد بن أحمد بن يَحيَىٰ السِّجستانِيّ قَالَ: سمعت أبا نصر السَّرَّاج يقول: حكىٰ لي بعض إخواني، عن أبِي الحسين الدَّرَّاج قَالَ: قَصَدْتُ يوسف بن الحسين الرَّازي من بغداد، فَلَمَّا دَخَلْتُ الرَّيَّ، سَأَلْتُ عن مَنْزِلِهِ، وكلُّ مَنْ أَسْأَلُهُ عنه يقول: إيش تفعل بذلك الزِّنديق؟ فَضَيَّقوا صدري، حتَّىٰ عَزَمْتُ عَلَىٰ الانصراف، فَبِتُّ تلك الليلة فِي مسجدٍ، ثُمَّ قلتُ: جِئْتُ إِلَىٰ هَذِهِ البلدة، فلا أقلَّ من زيارته.

فلم أَزَلْ أَسْأَلُ عنه، حتَّىٰ دُفِعْتُ إِلَىٰ مسجده، وهو قاعدٌ فِي المحراب، بين يديه رجلٌ عَلَىٰ يَدَيْهِ مُصْحَفٌ، وهو يقرأ، فَدَنَوْتُ، فَسَلَّمْتُ، فَرَدَّ السَّلام وقَالَ: من أين؟ قلتُ: من بغداد، قَصَدْتُ زيارةَ الشَّيخ. فقَالَ: تُحْسِنُ أن تقول شيئًا؟ فقلتُ: نعم. وقلتُ:

رَأَيْتُكَ تَبْنِي دَائِمًا فِي قَطِيعَتِي ... وَلَوْ كُنْتَ ذَا حَزْمٍ لَهَدَّمْتَ مَا تَبْنِي

فَأَطْبَقَ المصحف، ولَمْ يَزَلْ يبكي، حتَّىٰ ابتلَّت لحيتُه وثوبُه، حتَّىٰ رَحِمْتُهُ من كثرةِ بكائه، ثُمَّ قَالَ لي: يا بنيّ! تلومُ أهل الرَّيِّ عَلَىٰ قولهم: يوسف بن الحسين زنديقٌ، وَمِنْ وقت الصلاة هو ذا، أقرأ القرآن، لَمْ تَقْطُرْ من عيني قطرةٌ، وقد قامت عليَّ القيامةُ بِهَذَا البيت.

وأنبأنا عبد المنعم بن عبد الكريم بن هوازن، نا أبِي، قَالَ: سمعتُ أبا عبد الرحمن السُّلميَّ، يقول: فأُخْرِجْتُ إِلَىٰ مرو فِي حياة الأستاذ أبِي سهل الصُّعلوكي، وكان له قبل خروجي أيَّام الجمع بالغدوات مَجْلِسُ دَرْسِ القرآن والختمات، فوجدتُه عند خروجي قد رَفَعَ ذلك المجلس، وعقد لابن الفرغانِيِّ فِي ذلك الوقت مجلس القَوَّال -يعنِي المُغَنِّي- فتداخلنِي من ذلك شيءٌ، فَكُنْتُ أقول: قد استبدل مجلس الختمات بِمجلس القَوَّال.

فقَالَ لي يومًا: أيُّ شيءٍ تقول النَّاس؟ فقلتُ: يقولون: رَفَعَ مجلسَ القرآن، ووضع مَجلس القَوَّال. فقَالَ: منْ قَالَ لأستاذه: لِمَ. لَمْ يفلح.

قَالَ المصنف رَحِمَهُ اللهُ: هَذِهِ عادةُ الصُّوفيَّة، يقولون: الشَّيخ يسلم له حالُه، وما لنا أحدٌ يَسْلَمُ إليه حالُه؛ فإنَّ الآدميَّ يُرَدُّ عَن مراداتِه بالشَّرع والعقل، والبهائمَ بالسَّوْطِ.

وقد اعتقد قومٌ من الصُّوفيَّة، أنَّ هذا الغِنَاءَ الَّذي ذَكَرْنَا عن قومٍ تحريمَه، وعن آخر كراهتَه، مُسْتَحَبٌّ فِي حقِّ قَوْمٍ.

وأنبأنا عبد المنعم بن عبد الكريم بن هوازن القشيريُّ، قَالَ: حدَّثنا أبِي، قَالَ: سمعتُ أبا عليٍّ الدَّقَّاق يقول: السَّماعُ حرامٌ عَلَىٰ العوامِّ؛ لبقاء نفوسِهم، مُبَاحٌ للزُّهَّادِ؛ لحصول مُجاهداتِهم، مُسْتَحَبٌّ لأصحابنا؛ لحياة قلوبِهم.

قَالَ المصنف رَحِمَهُ اللهُ: قُلْتُ: وهَذَا غَلَطٌ من خمسةِ أوْجُهٍ:

أحدها: أنَّا قد ذكرنا عن أبِي حامد الغزالِيِّ، أنَّه يُباحُ سماعُه لكلِّ أَحَدٍ، وأبو حامد كان

أَعْرَفَ مِنْ هَذَا القائل.

والثاني: أنَّ طِبَاعَ النُّفوس لا تتغيَّر، وإنَّما المجاهدةُ تكفُّ عملها؛ فَمَنِ ادَّعىٰ تغيُّرَ الطِّبَاع ادَّعىٰ المُحالَ، فإذا جاء ما يُحَرِّكُ الطِّباع، واندفع الَّذي كان يَكُفُّهَا عنه، عادتِ العادةُ.

والثالث: أنَّ العلماء اختلفوا فِي تحريمِه وإباحته، وليس فيهم من نظر فِي السَّامع؛ لعلمهم أنَّ الطِّبَاعَ تتساوىٰ؛ فَمَنِ ادَّعىٰ خروجَ طَبْعِهِ عن طباع الآدميِّين ادَّعَىٰ المُحَالَ.

والرابع: أنَّ الإجماعَ انْعَقَدَ عَلَىٰ أنَّه ليس بِمُسْتَحَبٍّ، وإنَّما غايتُه الإباحةُ؛ فَادِّعَاءُ الاستحباب خُرُوجٌ عن الإجماع.

والخامس: أنَّه يَلْزَمُ من هَذَا، أن يكون سماعُ العُودِ مُبَاحًا أو مستحبًّا عند من لا يغيِّر طبعه؛ لأنَّه إنَّما حُرِّمَ لأنَّهُ يُؤَثِّرُ فِي الطِّباع، ويدعوها إلَىٰ الهوىٰ، فإذا أُمِنَ ذلك، فَيَنْبَغِي أن يُبَاحَ، وقد ذَكَرْنَا هَذَا عن أَبِي الطَّيِّبِ الطَّبريِّ.

فصل [شبهة أن السماع قربة]

قَالَ المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: وقد ادَّعىٰ قَوْمٌ منهم، أَنَّ هَذَا السَّمَاعَ قُرْبَةٌ إِلَىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ.

قَالَ أبو طالب المكي: حدَّثني بعض أشياخنا، عن الجُنيد، أنَّه قَالَ: تَنْزِلُ الرَّحمةُ عَلَىٰ هَذِهِ الطَّائفةِ فِي ثلاثة مواطن: عند الأكل؛ لأنَّهم لا يأكلون إلَّا عن فاقةٍ، وعند المذاكرة؛ لأنَّهم يتجاوزون فِي مقامات الصِّدِّيقين وأحوال النَّبيِّين، وعند السَّماع؛ لأنَّهم يسمعون بِوَجْدٍ، ويشهدون حقًّا.

قَالَ المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: قلتُ: وهَذَا إن صَحَّ عن الجُنَيْدِ، وَأَحْسَنَّا به الظَّنَّ، كان محمولًا عَلَىٰ ما يَسْمَعُونَهُ من القصائد الزُّهْدِيَّةِ؛ فإنَّها تُوجِبُ الرِّقَّةَ والبكاء، فأمَّا أن تنزل الرَّحمة عن وَصْفِ سعدىٰ وليلىٰ، ويحمل ذلك عَلَىٰ صفات الباري تَعَالَىٰ فلا يجوز اعتقادُ هذا، ولو صَحَّ أَخْذُ الإشارة من ذلك، كانت الإشارةُ مستغرقةً فِي جنب غلبة الطِّبَاعِ.

وَيَدُلُّ عَلَىٰ ما حَمَلْنَا الأمرَ عليه، أَنَّه لَمْ يَكُنْ يُنْشَدُ فِي زمان الجُنَيْدِ، مثل ما يُنْشَدُ اليوم، إِلَّا أَنَّ بعض المتأخِّرين، قد حمل كلام الجنيد عَلَىٰ كلِّ ما يُقَالُ.

فحدثني أبو جعفر أحمد بن أزهر بن عبد الوهاب السَّباك، عن شيخنا عبد الوهَّاب بن المبارك الحافظ، قَالَ: كان أبو الوفا الفيروزأبادي شيخ رباط الزَّوْزَنِي صَدِيقًا لي، فكان يقول لي: واللهِ إنِّي لأدعو لك، وَأَذْكُرُكَ وَقْتَ وَضْعِ المخدَّة والقول.

قَالَ: فكان الشَّيخُ عبدُ الوهَّاب يتعجَّب ويقول: أَتَرَوْنَ هَذَا يَعْتَقِدُ أَنَّ ذلك وَقْتَ إجابةٍ؟ إنَّ هَذَا لعظيمٌ.

وقَالَ ابن عقيل: قد سمعنا منهم أنَّ الدُّعاءَ عند حَدو الحادي، وعند حضور المخدَّة مُجابٌ، وذلك أنَّهم يعتقدون أنَّه قُرْبَةٌ يُتَقَرَّبُ بِها إِلَىٰ الله تعالىٰ.

قَالَ: وهَذَا كُفْرٌ؛ لأنَّ مَنِ اعْتَقَدَ الحَرَامَ أو المَكْرُوهَ قُرْبَةً، كان بِهَذَا الاعتقاد كافرًا.

قَالَ: والنَّاسُ بين تَحْرِيمِه وكراهيَّته.

أخبرنا أبو منصور عبد الرحمن بن مُحمَّد القزَّاز، نا أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت، قَالَ: أخبرني علي بن أيوب، قَالَ: أخبرنا مُحمَّد بن عمران بن موسىٰ، قَالَ: حدَّثنا مُحمَّد بن أحمد الكاتب، قَالَ: حدَّثنا الحسين بن فهم، قَالَ: حدَّثني أبو همَّام، قَالَ: حدَّثني ابن أعْيَن، قَالَ: قَالَ صالح المُرِّيُّ: أَبْطَأُ الصَّرْعَىٰ نَهضةً صريعُ هوًىٰ يدَّعيه إِلَىٰ الله قُرْبَةً، وأثبتُ النَّاس قَدَمًا يومَ القيامة، آخَذُهُم بكتاب الله، وَسُنَّةِ نبيِّه مُحمَّدٍ ﷺ.

أنبأنا أبو المظفر عبد المنعم بن عبد الكريم القشيريُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبِي، قَالَ سمعتُ أبا عبد الرحمن السلميَّ، يقول: سمعتُ مُحمَّد بن عبد الله بن شاذان، يقول: سمعتُ أبا بكر النَّهَاوندي، يقول: سَمِعْتُ عَلِيًّا السَّائحَ يقول: سَمِعْتُ أبا الحارث الأولاسيَّ، يقول: رأيتُ إبليسَ فِي المَنَامِ عَلَىٰ بعض سطوح أولاس، وأنا عَلَىٰ سطحٍ، وعَلَىٰ يَمينه جَماعةٌ، وعَلَىٰ

يساره جَماعةٌ، وعليهم ثيابٌ لِطَافٌ، فقَالَ لطائفةٍ منهم: قولوا وغنُّوا. فاستغرقنِي طِيبُهُ، حتَّىٰ هَمَمْتُ أن أَطْرَحَ نفسي من السَّطْحِ، ثُمَّ قَالَ: ارقصوا، فَرَقَصُوا أطيبَ ما يكون، ثُمَّ قَالَ لِي: يا أبا الحارث، ما أَصَبْتُ منكم شيئًا أَدْخُلُ به عليكم إلَّا هذا.

تلبيس إبليس على الصوفية في الوجد

قَالَ المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: هَذِهِ الطَّائفة إذا سَمِعَتِ الغناء تَوَاجَدَتْ، وصفَّقَتْ، وصاحت، وَمَزَّقَتِ الثِّياب، وقد لَبَّسَ عليهم إبليس فِي ذلك وَبَالَغَ.

وقد احتجُّوا بِما أخبرنا به أبو الفتح مُحمَّدُ بن عبد الباقي، قَالَ: أنبأنا أبو علي الحسن بن مُحمَّد بن الفضل الكَرْمانِيُّ، قَالَ: أخبرنا أبو الحسن سهل بن علي الخشاب، قَالَ: أخبرنا أبو نصر عبد الله بن علي السراج الطوسيُّ، قَالَ: وقد قيل له: إنَّه لما نزلت: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [الحجر:٤٣]، صاح سلمان الفارسيُّ صيحةً، وَوَقَعَ عَلَىٰ رَأْسِهِ، ثُمَّ خرج هاربًا ثلاثةَ أيَّام.

واحتجُّوا بِما أخبرنا به عبد الوهَّاب بن المبارك الحافظ، قَالَ: أخبرنا أبو الحسين بن عبد الجبَّار، قَالَ: أخبرنا أبو بكر مُحمَّد بن علي الخيَّاط، قَالَ: أخبرنا أحمد بن مُحمَّد بن يوسف بن دوست، قَالَ: أخبرنا الحسين بن صفوان، قَالَ: حدَّثنا أبو بكر عبد الله بن مُحمَّد القرشيُّ، قَالَ: أخبرنا علي بن الجعد، قَالَ: حدَّثنا أبو بكر بن عياش، عن عيسىٰ بن سليم، عن أبِي وائل، قَالَ: خرجنا مع عبد الله ومعنا الربيع بن خثيم، فَمَرَرْنَا عَلَىٰ حدَّادٍ، فقام عبدُ الله ينظر إلَىٰ حديدةٍ فِي النَّار، فَنَظَرَ الرَّبيعُ إليها، فمال لِيَسْقُطَ، ثُمَّ إنَّ عبد الله مضىٰ حتَّىٰ أَتَيْنَا عَلَىٰ أتُونٍ عَلَىٰ شاطئ الفرات، فلمَّا رآه عبدُ الله والنَّارُ تَلْتَهِبُ فِي جَوْفِهِ، قرأ هَذِهِ الآية: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الفرقان:١٢]، إلَىٰ قوله: ﴿ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾ [الفرقان:١٤]، فَصُعِقَ الرَّبيعُ، وَاحْتَمَلْنَاهُ إلَىٰ أَهْلِهِ، ورابطه عبد الله حتَّىٰ يصلِّي

الظُّهر، فَلَمْ يُفِقْ، ثُمَّ رابطه إِلَىٰ العصر، فلم يُفِقْ، ثُمَّ رابطه إِلَىٰ المغرب، فأفاق، فَرَجَعَ عبدُ الله إِلَىٰ أَهْلِهِ.

قالوا: وقد اشْتَهَرَ عن خَلْقٍ كَثِيرٍ من العباد، أنَّهم كانوا إذا سَمِعُوا القرآن فمنهم من يموت، ومنهم من يُصْعَقُ وَيُغْشَىٰ عليه، ومنهم من يَصِيحُ، وهَذَا كثيرٌ فِي كُتُبِ الزُّهْدِ.

والجوابُ: أمَّا ما ذكره عن سلمان، فَمُحَالٌ وَكَذِبٌ، ثُمَّ ليس له إسنادٌ، والآية نزلت بِمكَّةَ، وَسَلْمَانُ إنَّما أَسْلَمَ بالمدينة، ولَمْ يُنْقَلْ عن أَحَدٍ من الصَّحَابَةِ مِثْلُ هَذَا أَصْلًا.

وأمَّا حكايةُ الرَّبيع بن خثيم، فإنَّ راويها عيسىٰ بن سليم، وفيه مغمزٌ.

أنبأنا عبد الوهَّاب بن المبارك الحافظ، قَالَ: أخبرنا أبو بكر مُحمَّد بن المظفر الشَّامي، قَالَ: أخبرنا أبو الحسن أحمد بن مُحمَّد العتيقي، قَالَ: أخبرنا أبو يعقوب يوسف بن أحمد الصيدلانِي، قَالَ: أخبرنا أبو جعفر بن عمرو بن موسىٰ العقيلي، قَالَ: قَالَ أحمد بن حنبل: عيسىٰ بن سليم عن أبِي وائل لا أعرفه.

قَالَ العقيلي: وَحَدَّثَنَا عبد الله بن أحمد، قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي، قَالَ: حَدَّثَنِي ابنُ آدَمَ قَالَ: سَمِعْتُ حَمْزَةَ الزَّيَّات قَالَ لسفيان: إنَّهم يَرْوُونَ عَنِ الرَّبيع بن خثيم، أنَّه صُعِقَ.

قَالَ: وَمَنْ يَرْوِي هذا؟ إنَّما كان يَرْوِيهِ ذاك القاصُّ -يعني: عيسىٰ بن سليم- فلقيتُه فقلت: عَمَّنْ تَرْوِي أنت ذا؟ مُنْكِرًا عَلَيْهِ.

قَالَ المصنف رَحِمَهُ اللهُ: قلتُ: فهَذَا سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ يُنْكِرُ أن يكون الرَّبيعُ بن خثيم جَرَىٰ له هذا؛ لأنَّ الرَّجُلَ كان عَلَىٰ السَّمْتِ الأوَّل، وما كان فِي الصَّحابة من يجري له مثل هَذَا ولا التَّابعين.

ثُمَّ نقول عَلَىٰ تقدير الصِّحَّةِ: إنَّ الإنسانَ قد يُغْشَىٰ عليه من الخَوْفِ، فَيُسْكِنُهُ الخَوْفُ وَيُسْكِتُهُ، فَيَبْقَىٰ كالمَيِّتِ، وعلامةُ الصَّادق أنَّه لو كان عَلَىٰ حائطٍ لَوَقَعَ؛ لأنَّه غائب.

فأمَّا من يدَّعي الوَجْدَ ويتحفَّظ من أن تَزِلَّ قَدَمُهُ، ثُمَّ يتعدَّىٰ إِلَىٰ تخريق الثِّياب وفِعْلِ المنكرات فِي الشَّرْعِ، فَإِنَّا نَعْلَمُ قَطْعًا أنَّ الشَّيْطَانَ يلعب به.

وأخبرنا أبو منصور القزاز، قَالَ: أخبرنا أحمد بن علي بن ثابت، قَالَ: أخبرنا مُحمَّد بن علي بن الفتح، قَالَ: أخبرنا مُحمَّد بن الحسين النيسابوري، قَالَ: سمعت أحمد بن مُحمَّد ابن زكريا، يقول: سمعت أحمد بن عطاء، يقول: كان للشلبيّ يوم الجمعة نَظْرَةٌ، وَمِنْ بَعْدِهَا صَيْحَةٌ، فصاح يومًا صيحةً تُشَوِّشُ من حولَه مِنَ الخَلْقِ، وكان بِجَنْبِ حلقته حلقةُ أَبِي عمران الأشيب، فجرَّد أبو عمران وأهل حلقته.

قَالَ المصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: واعلم -وفَّقك الله- أنَّ قلوبَ الصَّحابة كانت أَصْفَىٰ القلوب، وما كانوا يزيدون عند الوجد عَلَىٰ البكاء والخشوع، فجرىٰ من بعض غرائبهم نحو ما أنكرناه، فبالغ رسول الله ﷺ فِي الإنكار عليه.

فأخبرنا مُحمَّد بن ناصر الحافظ، قَالَ: أنبأنا أحمد بن علي بن خلف، قَالَ: أخبرنا أبو عبد الله مُحمَّد بن عبد الله الحافظ (ح) وأنبأنا ابنُ الحُصَيْن قَالَ: أنبأنا أبو علي بن المذهب قَالَ: أخبرنا أبو حفص بن شاهين، قَالَ: حَدَّثنا عثمان بن أحمد بن عبد الله قَالَ: حدثنا أحمد ابن مُحمَّد بن عبد الحميد الجُعفي، قَالَ: حدثنا عبد المتعال بن طالب قَالَ: حدثنا يوسف ابن عطية، عن ثابت، عن أنس قَالَ: وعظ رسول الله ﷺ يومًا فإذا رَجُلٌ قد صُعِقَ، فقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ ذَا المُلَبِّسُ عَلَيْنَا دِينَنَا؟ إِنْ كَانَ صَادِقًا فَقَدْ شَهَرَ نَفْسَهُ، وَإِنْ كَانَ كَاذِبًا، فَمَحَقَهُ اللهُ**»(١).

قَالَ ابن شاهين: وَحَدَّثَنَا عبدُ الله بن سليمان بن الأشعث، قَالَ: حدَّثنا عبيد الله بن يوسف الجبيريُّ، قَالَ: حدَّثنا روحُ بن عطاء، عن أَبِي ميمونة، عن أبيه، عن أنس بن مالك،

---

(١) ذكره ابن الجوزي فِي «الضعفاء والمتروكين» (١/ ٨٦)، وقَالَ: هذا حديثٌ باطلٌ، لا أَصْلَ له.

قَالَ: ذُكِرَ عندَه هؤلاء الَّذين يُصْعَقُون عند القراءة، فقَالَ أنس: «لقد رَأَيْتُنَا ووَعَظَنَا رسول الله ﷺ ذات يومٍ حتَّىٰ سمعنا للقوم خَنِينًا، حين أخذته الموعظةُ، وما سقط منهم أحد».

قَالَ المصنف رَحِمَهُ اللهُ: وهَذَا حديثُ العرباض بن سارية: وَعَظَنَا رسول الله ﷺ موعظةً ذَرَفَتْ منها العيونُ، ووَجِلَتْ منها القلوب[1].

قَالَ أبو بكر الآجري: ولَمْ يَقُلْ صَرَخْنَا، ولا ضَرَبْنَا صدورنا، كما يَفْعَلُ كثيرٌ من الجُهَّالِ الَّذين يتلاعب بِهِم الشَّيْطَانُ.

أخبرنا عبد الله بن علي المقري، قَالَ: أخبرنا أبو ياسر أحمد بن بندار بن إبراهيم، قَالَ: أخبرنا مُحمَّد بن عمر بن بكر النَّجَّار، قَالَ: أخبرنا أحمد بن جعفر بن حمدان، قَالَ: أخبرنا إبراهيم بن عبد الله البَصْري، قَالَ: حَدَّثَنَا حصينُ بن عبد الرحمن، قَالَ: قُلْتُ لأسماء بنت أبِي بكر: كيف كان أصحابُ رسول الله - صلىٰ الله عليه وآله- عند قراءة القرآن؟

قالت: كانوا كما ذكرهم الله -أو كما وصفهم عَزَّوَجَلَّ- تَدْمَعُ عيونُهم، وتقشعرُّ جلودُهم.

فَقُلْتُ لَها: إنَّ هاهنا رجالًا إذا قُرِئَ عَلَىٰ أحدِهم القرآن غُشِيَ عليه.

فقالت: أعوذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم.

أخبرنا مُحمَّد بن ناصر، نا جعفر بن مُحمَّد السراج، نا الحسن بن علي التميمي، نا أبو بكر بن مالك، ثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، ثنا الوليد بن شجاع، ثنا إسحاق الحلبِي، ثنا فرات، عن عبد الكريم، عن عكرمة، قَالَ: سَأَلْتُ أسماء بنت أبِي بكر: هل كان أَحَدٌ مِنَ السَّلَفِ يُغْشَىٰ عليه من الخوف؟ قالت: لا، ولكنَّهم كانوا يَبْكُون.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وصححه الألباني فِي «صحيح الجامع» (٢٥٤٩).

أخبرنا ابن ناصر، نا جعفر بن أحمد، نا الحسن بن علي التميمي (ح) وأخبرنا مُحمَّد بن عبد الباقي بن أحمد، نا حمد بن أحمد الحداد، نا أبو نعيم الحافظ، قالا: أخبرنا أبو بكر بن مالك، ثنا عبد الله بن أحمد، ثنا سُرَيْج بن يونس، ثنا سعيد بن عبد الرحمن الجمحي، عن أبِي حازم، قَالَ: مرَّ ابن عمر رضي الله عنه برجلٍ ساقطٍ من العراق، فقَالَ: ما شَأْنُهُ؟ فقالوا: إذا قُرِئَ عليه القرآن يُصِيبُهُ هذا. قَالَ: إنَّا لَنَخْشَىٰ الله عز وجل وما نَسْقُطُ.

أخبرنا سعيد بن أحمد بن البَنَّاء، نا أبو سعد مُحمَّد بن علي الرُّستُمِيُّ، نا أبو الحسين بن بشران، ثنا إسماعيل بن مُحمَّد الصَّفَّار، ثنا سعدان بن نصر، ثنا سفيان بن عُيَيْنَة، عن عبد الله ابن أبِي بُرْدة، عن ابن عباس: أنَّه ذكر الخوارج وما يَلْقَوْنَ عند تلاوة القرآن، فقَالَ: إنَّهم ليسوا بأشدَّ اجتهادًا من اليهود والنَّصارىٰ، وهم مُضِلُّون.

أنبأنا ابنُ الحُصَيْنِ، نا أبو علي بن المذهب، نا أبو حفص بن شاهين، ثنا مُحمَّد بن بكر ابن عبد الرزاق، نا إبراهيم بن فهد، عن إبراهيم بن الحجاج الشامي، ثنا شبيب بن مهران، عن قتادة، قَالَ: قيل لأنس بن مالك: إنَّ ناسًا إذا قُرِئَ عليهم القرآنُ يُصْعَقُون. فقَالَ: ذاك فِعْلُ الخوارج.

أخبرنا مُحمَّد بن ناصر، نا عبد الرحمن بن أبِي الحسين بن يوسف، نا عمر بن علي بن الفتح، نا أحمد بن مُحمَّد الكاتب، ثنا عبد الله بن المغيرة، ثنا أحمد بن سعيد الدمشقي، قَالَ: بَلَغَ عبدَ اللهِ بن الزُّبَيْر، أنَّ ابنَه عامرًا صَحِبَ قَوْمًا يُصْعَقُون عند قراءة القرآن، فقَالَ له: يا عامِرُ، لأعرفنَّ ما صحبت الَّذين يُصْعَقُون عند القرآن، لأُوسِعَنَّكَ جَلْدًا.

أخبرنا مُحمَّد بن عبد الباقي بن أحمد، نا حمد بن أحمد الحداد، نا أبو نعيم الحافظ، ثنا سليمان بن أحمد، ثنا مُحمَّد بن العباس، ثنا الزُّبَيْرُ بن بكَّار، ثني عبد الله بن مصعب بن ثابت، عن عبد الله بن الزُّبير، قَالَ: ثني أبِي، عن عامر بن عبد الله بن الزُّبَيْر، قَالَ: جِئْتُ إِلَىٰ أبِي فقَالَ لي: أين كُنْتَ؟ فقلتُ: وَجَدْتُ أقوامًا ما رأيتُ خَيْرًا منهم،

يَذْكُرُون الله عَزَّوَجَلَّ فَيُرْعَدُ أحدُهم حتَّىٰ يُغْشَىٰ عليه من خشية الله عَزَّوَجَلَّ فَقَعَدْتُ معهم، قَالَ: لا تَقْعُدْ معهم بعدَها.

فرآنِي كأنِّي لَمْ يأخذ ذلك فِيَّ، فقَالَ: رأيتُ رسول الله ﷺ يتلو القرآن، ورأيتُ أبا بكر وعمر يَتْلُوان القرآن، ولا يُصِيبُهُم هذا، أفتَرَاهُم أخشعَ لله من أبِي بكرٍ وَعُمَرَ؟ فَرَأَيْتُ أن ذلك كذلك، فتركتُهم.

أخبرنا مُحمَّد بن عبد الباقي، نا حمد بن أحمد، نا أبو نعيم الحافظ، نا مُحمَّد بن أحمد، فِي كتابه، ثنا مُحمَّد بن أيوب، ثنا حفص بن عمر النمري، ثنا حماد بن زيد، ثنا عمرو بن مالك، قَالَ: بَيْنَا نحن عند أبِي الجوزاء يحدِّثنا، إذ خَرَصَ رجلٌ، فاضطرب، فَوَثَبَ أبو الجوزاء يَسْعَىٰ قِبَلَهُ، فقيل له: يا أبا الجوزاء، إنَّه رَجُلٌ به المَوْتَةُ.

فقَالَ: إنَّما كُنْتُ أراه من هؤلاء القَفَّازين، ولو كان منهم لأَمَرْتُ به فَأُخْرِجَ من المسجد، إنَّما ذَكَرَهُمُ الله تعالىٰ فقَالَ: ﴿تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾ [المائدة:٨٣]، أو قَالَ: ﴿تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾ [الزمر:٢٣].

أخبرنا أبو مُحمَّد بن علي المقري، نا أحمد بن بندار بن إبراهيم، نا مُحمَّد بن عمر بن بكر النجار، نا أحمد بن جعفر بن حمدان، ثنا إبراهيم بن عبد الله البصري، ثنا أبو عمر حفص بن عمر الضرير، نا حماد بن زيد، ني عمرو بن مالك البكري، قَالَ: قرأ قارئٌ عند أبِي الجوزاء، قال: فصاح رجل من أخريات القوم- أو قال: من القوم- فقام إليه أبو الجوزاء، فقيل له: يا أبا الجوزاء، إنَّه رَجُلٌ به شيءٌ.

فقَالَ: ظَنَنْتُ أنَّه من هؤلاء القَفَّازين، فلو كان منهم، لَوَضَعْتُ رِجْلِي عَلَىٰ عُنُقِهِ.

وقَالَ أبو عمر: أخبرنا جرير بن حازم، أنَّه شَهِدَ مُحمَّد بن سيرين، وقيل له: إنَّ هاهنا رجالًا إذا قُرِئَ عَلَىٰ أحدِهم القرآنُ غُشِيَ عليه.

فقَالَ مُحمَّد بن سيرين: يَقْعُدُ أَحَدُهُم عَلَىٰ جدارٍ، ثُمَّ يقرأ عليه القرآن من أوَّلِهِ إِلَىٰ آخِرِه، فإن وَقَعَ فهو صادقٌ!

قَالَ أبو عمر: وكان مُحمَّدُ بن سيرين يذهب إِلَىٰ أَنَّهُ تَصَنُّعٌ، وليس بِحَقٍّ مِنْ قلوبِهم.

أخبرنا مُحمَّد بن عبد الباقي، ثنا حمد بن أحمد، نا أبو نعيم الحافظ، ثنا أبو مُحمَّد بن حيان، ثنا مُحمَّد بن العباس، ثنا زياد، عن يَحيَىٰ، عن عمران بن عبد العزيز، قَالَ: سمعت مُحمَّد بن سيرين، وسئل عَمَّنْ يَسْتَمِعُ القرآن فَيُصْعَقُ، فقَالَ: ميعادُ ما بيننا وبينَهم أن يجلسوا عَلَىٰ حائطٍ، فَيُقْرَأُ عليهم القرآنُ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَىٰ آخِرِهِ، فإن سَقَطُوا فَهُمْ كما يقولون.

أخبرنا ابن ناصر، نا أبو طاهر عبد الرحمن بن أَبِي الحسين بن يوسف، نا مُحمَّد بن علي العشاري، نا مُحمَّد بن عبد الله الدقاق، نا الحسين بن صفوان، ثنا أبو بكر القرشي، ثنا مُحمَّد بن علي، عن إبراهيم بن الأشعث، قال: سمعت أبا عصام الرمليَّ، عن رَجُلٍ، عن الحسن، أَنَّه وَعَظَ يَوْمًا، فَتَنَفَّسَ رَجُلٌ فِي مجلسه، فقَالَ الحسن: إن كان للهِ تعالىٰ فقد شَهَرْتَ نَفْسَكَ، وإن كان لِغَيْرِ الله فقد هَلَكْتَ.

أخبرنا ابن ناصر، نا جعفر بن أحمد، نا الحسن بن علي، نا أحمد بن جعفر، ثنا عبد الله ابن أحمد، ثنِي أَبِي، ثنا روح، ثنا السري بن يَحيَىٰ، ثنا عبد الكريم بن رشيد، قَالَ: كُنْتُ فِي حَلْقَةِ الحسن، فَجَعَلَ رَجُلٌ يَبْكِي، وارتفع صوتُه، فقَالَ الحسن: إنَّ الشَّيْطَانَ لَيُبْكِي هَذَا الآن.

أخبرنا مُحمَّد بن ناصر، نا أبو غالب عمر بن الحصين الباقلانِي، نا أبو العلاء الواسطي، نا مُحمَّد بن الحسين الأزدي، ثنا إبراهيم بن رحمون، ثنا إسحاق بن إبراهيم البغدادي، قَالَ: سَمِعْتُ أبا صفوان يقول: قَالَ الفضيل بن عياض لابنه، وقد سقط: يا بُنَيَّ، إن كُنْتَ صَادِقًا لقد فَضَحْتَ نَفْسَكَ، وإن كُنْتَ كاذبًا فقد أَهْلَكْتَ نفسَك.

أخبرنا أبو بكر بن حبيب، نا أبو سعيد بن أبِي صادق، نا ابن باكَوَيْهِ، ثنا مُحمَّد بن أحمد النجَّار، ثنا المُرْتَعِشُ، قَالَ: رأيتُ أبا عثمان سعيد بن عثمان الواعظ، وقد تواجد إنسانٌ بين يديه، فقَالَ له: يا بنيّ، إن كُنْتَ صادقًا فقد أظْهَرْتَ كلَّ ما لك، وإن كنتَ كاذبًا فقد أشركتَ بالله.

قَالَ المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: فإن قَالَ قائلٌ: إنَّما يفرض الكلام فِي الصَّادقين، لا فِي أهل الرِّياء، فما تقول فيمن أدركه الوجد، ولَمْ يَقْدِرْ عَلَىٰ دَفْعِهِ؟

فالجواب: إنَّ أوَّلَ الوَجْدِ انزعاجٌ فِي الباطن، فإن كَفَّ الإنسانُ نَفْسَهُ كيلا يُطَّلَعَ عَلَىٰ حالِهِ، يَئِسَ الشَّيْطَانُ منه، فَبَعُدَ عنه، كما كان أيُّوبُ السختيانِيُّ إذا تحدَّث، فَرَقَّ قَلْبُهُ، مَسَحَ أنْفَهُ، وقَالَ: ما أشَدَّ الزُّكام!

وإن أهمل الإنسان نَفْسَهُ، ولَمْ يُبَالِ بظهور وَجْدِهِ، أو أحبَّ اطِّلاع الناس عَلَىٰ نفسه، نفخ فيه الشَّيطان، فانزعج عَلَىٰ قَدْرِ نَفْخِهِ، كما أخبرنا هِبَةُ الله بن مُحمَّد، نا الحسن بن عليٍّ، نا أحمد بن جعفر، ثنا عبد الله، ثني أبِي، ثنا أبو معاوية، ثنا الأعمش، عن عمرو بن مُرَّة، عن يحيىٰ بن الجزار، عن ابن أخي زينب، عن امرأة عبد الله، قالت: جاء عبدُ الله ذاتَ يَوْمٍ، وعندي عَجُوزٌ تَرْقِينِي من الحَمْوَةِ، فَأَدْخَلْتُهَا تحت السَّرير، قالت: فَدَخَلَ، فَجَلَسَ إِلَىٰ جنبي، فرأىٰ فِي عُنُقِي خيطًا، فقَالَ: ما هَذَا الخَيْطُ؟

قُلْتُ: خَيْطٌ رُقِيَ لي فيه رُقْيَةٌ.

فَأَخَذَهُ وَقَطَعَهُ ثُمَّ قَالَ: إنَّ آلَ عبد الله لأَغْنِيَاءُ عَنِ الشِّرْكِ، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ فِي الرُّقَىٰ وَالتَّمَائِمِ وَالتِّوَلَةِ شِرْكًا».

قالت: فَقُلْتُ له: لِمَ تَقُولُ هذا وقد كانت عيني تقذف، وَكُنْتُ أختلف إِلَىٰ فلانٍ اليهوديِّ يَرْقِيهَا، فكان إذا رَقَاهَا سَكَنَتْ؟

قَالَ: إنّما ذاك مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ، كان يَنْخِسُهَا بيده، فإذا رَقَيْتُهَا كفَّ عنها، إنَّما كان يَكْفِيكِ أن تَقُولي كما قَالَ رسولُ الله: «أَذْهِبِ الْبَأْسَ، رَبَّ النَّاسِ، اشْفِ أَنْتَ الشَّافِي، لا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لا يُغَادِرُ سَقَمًا»[١].

قال المصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: التِّوَلَةُ ضَرْبٌ من السِّحر يحبِّبُ المرأةَ إِلَىٰ زوجِها.

أخبرنا مُحمَّد بن عبد الباقي بن أحمد، نا الحسن بن عبد الملك بن يوسف، نا أبو مُحمَّدٍ الخلال، ثنا أبو عمر بن حيويه، ثنا أبو بكر بن أَبِي داودَ، ثنا هارون بن زيد بن أَبِي الزرقاء، ثنا أَبِي، قال: ثنا سفيان، عن عكرمة بن عمَّارٍ، عن شعيب ابن أَبِي السُّنِّيِّ، عن أَبِي عيسىٰ أو عيسىٰ، قال: ذهبتُ إِلَىٰ عبد الله بن عمر، فقال أبو السَّوَّار: يا أبا عبدِ الرَّحمن، إنَّ قومًا عندنا إذا قُرِئَ عليهمُ القرآن يركضُ أحدُهم من خشيةِ الله. قال: كَذَبْتَ. قال: بلىٰ، وربِّ هَٰذِهِ البنية.

قال: وَيْحَكَ! إن كنتَ صادِقًا فإنَّ الشَّيطانَ ليدخل جَوْفَ أحدِهم، واللهِ، ما هكذا كان أصحاب مُحمَّدٍ ﷺ.

فإن قال قائلٌ: فَنَفْرِضُ أنَّ الكلامَ فيمَنِ اجتَهَدَ فِي دَفْعِ الوجْدِ، فلم يقدِرْ عليه، وغَلَبَهُ الأمرُ، فمِن أينَ يدخلُ الشَّيطان؟

فالجواب: إنَّا لا نُنْكِرُ ضعفَ بعضِ الطِّباع عن الدَّفع، إلَّا أنَّ علامةَ الصَّادق أنَّه لا يَقْدِرُ عَلَىٰ أن يدفعَ، ولا يدري مَا يَجري عليه، فهو من جنسِ قولِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف:١٤٣].

وقد أخبرنا مُحمَّد بن عبدِ الباقي، نا حمد بن أحمدَ، نا أحمد بن عبد الله، ثنا إبراهيمُ بن عبد الله، ثنا مُحمَّد بن إسحاقِ الثَّقَفيُّ، ثنِي حاتمُ بن اللَّيث الجوهريُّ، ثنا خالد بن خداش،

(١) أخرجه أبو داود (٣٨٨٣)، وابن ماجه (٣٥٣٠)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (٣٢٨٨).

قال: قُرِئَ عَلَىٰ عبد الله بن وهب كتاب «أهوال القيامة»، فخرَّ مغشِيًّا عليه، فلم يتكلَّمْ بكلمةٍ حتَّىٰ ماتَ بعد ذلك بأيَّامٍ.

قال المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: قُلْتُ: وقد مات خَلْقٌ كثيرٌ مِنْ سَمَاعِ الموعظة، وَأُغْشِيَ عليهم.

قُلْنَا: هَذَا التَّوَاجُدُ الَّذي يتضمَّنُ حَرَكَاتِ المتواجدين، وَقُوَّةَ صِيَاحِهِم وتَخَبُّطهم، فظاهره أنه مُتَعَمَّلٌ، والشَّيْطَانُ مُعِينٌ عليه.

قال المصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: فإن قيلَ: فهل فِي حقِّ المخلص نقص بِهَذِهِ الحالة الطَّارئة عليه؟ قيل: نعم من جِهَتَين:

إحداهُما: أنَّه لو قَوِيَ العلمُ أمسَكَ.

والثَّانِية: أنَّه قد خُولفَ به طريق الصَّحابة والتَّابعين، ويكفي هَذَا نقصًا.

أخبرنا عبد الله بن علي المقْرِي، نا هبةُ الله بن عبد الرزَّاق السّني، وأخبرنا عيسىٰ بن أحمد بن البناء، ثنا أبو سعيدٍ مُحمَّد بن علي الرَّستميُّ، قالا: نا أبو الحسين بن بشرانَ، نا أبو علي إسماعيل بن مُحمَّد الصفَّار، ثنا سعدان بن نصرٍ، ثنا سفيان بن عُيَيْنَةَ، قال: سمعتُ خلفَ بن حوشبٍ يقول: كان خوَّات يرعدُ عند الذِّكر، فقال له إبراهيمُ: إن كنتَ تملكُهُ، فما أبالِي ألَّا أعتدَّ بكَ، وإن كنتَ لا تملكُهُ، فقد خالفتَ من كان قَبلَك. وفِي روايةٍ: فقد خالفتَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ منك.

قال المصنِّف رَحِمَهُ اللهُ قلتُ: إبراهيمُ هو: النَّخعيُّ الفقيهُ، وكان متمسِّكًا بالسُّنَّة شديد الاتِّباع للأثرِ، وقد كان خَوَّات من الصَّالحين البُعَدَاءِ عنِ التَّصنُّع، وهَذَا خطابُ إبراهيمَ له، فكيف بِمن لا يَخفَىٰ حالُه فِي التَّصنُّع.

فإذا طَرِبَ أهلُ التَّصوُّف لسماعِ الغِنَاءِ صَفَّقُوا.

أخبرنا مُحمَّد بن عبد الباقِي، نا رزقُ الله بنُ عبد الوهَّاب التَّميميُّ، نا أبو عبد الرَّحمن

السُّلميُّ، قال: سمعتُ أبا سُلَيمان المغربِيَّ يقول: سمعتُ أبا عليٍّ بن الكاتبِ، يقول: كان ابن بنانٍ يتواجدُ، وكان أبو سعيدٍ الخرَّاز يصفق له.

قال المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: قُلْتُ: والتَّصفيقُ منكَرٌ يطرب، ويخرجُ عن الاعتدَالِ، وتَتَنَزَّهُ عن مثلِهِ العقلاء، ويتشبَّه فاعلُهُ بالمشرِكِين فيمَا كانُوا يفعلُونَه عندَ البيتِ من التَّصْدِيَةِ. وهي الَّتي ذمَّهم الله عَزَّوَجَلَّ بها فقال: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال:٣٥]، فالمُكاءُ: الصَّفيرُ، والتَّصدية: التَّصفيق.

أخبرنا عبد الوهَّاب الحافظُ، نا أبو الفضلِ بن خيرون، نا أبو عليٍّ بن شاذان، نا أحمد ابن كاملٍ، ثنِي مُحمَّد بن سعدٍ، ثني أبِي، ثنِي عمِّي، عن أبيه، عن جدِّه، عن ابن عبَّاس: ﴿مُكَآءً﴾، يعني: التَّصفير. ﴿وَتَصْدِيَةً﴾، يقول: التَّصفيق.

قال المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: قلتُ: وفيه أيضًا تشبُّهٌ بالنِّساء، والعاقل يأنف من أن يخرجَ عن الوقارِ إِلَىٰ أفعالِ الكفَّارِ والنِّسوة.

فإذا قَوِيَ طربُهم رَقَصُوا، وقد احتجَّ بعضُهم بقولِهِ تَعَالَىٰ لأيُّوب: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ [ص:٤٢].

قال المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: قلتُ: وهَٰذَا الاحتجاجُ باردٌ؛ لأنَّه لو كان أمر بضربِ الرِّجْلِ فرحًا كان لَهم فيه شبهةٌ، وإنَّما أمَرَ بضربِ الرِّجْلِ لينبعَ الماء.

قال ابن عقيلٍ: أين الدِّلالة فِي مُبتلىً أمر عند كشف البلاءِ، بأن يضربَ برجلِهِ الأرضَ لينبعَ الماءَ إعجازًا، من الرَّقص؟ ولئن جَازَ أن يكونَ تحريكُ رجلٍ قد أحلَّها تَحَكُّمُ الهوامِّ، دلالةً عَلَىٰ جواز الرَّقص فِي الإسلام، جاز أن يجعلَ قولُه تعالَىٰ لموسىٰ: ﴿ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ [البقرة:٦٠]، دلالةً عَلَىٰ ضربِ الجمادِ بالقُضبانِ، نعوذُ باللهِ من التَّلاعبِ بالشَّرع.

واحتجَّ بعضُ ناصِرِيهم بأنَّ رسول الله ﷺ قالَ لعليٍّ: «أَنْتَ مِنِّي، وَأَنَا مِنْكَ»[١]. فحجل، وقال لجعفر: «أَشبَهْتَ خُلُقِي وخَلْقِي»، فَحَجَلَ، وقال لِزيدٍ: «أنتَ أخُونا ومَوْلانا». فَحَجَلَ[٢].

ومنهم من احتجَّ بأنَّ الحبشةَ زَفَنَت، والنَّبِيُّ ﷺ ينظُرُ إليهم.

فالجوابُ: أمَّا الحَجَلُ فهو نَوْعٌ من المَشْيِ، يُفعلُ عند الفَرَحِ، فأينَ هو من الرَّقص، وكذلك زفن الحبشةِ نوعٌ من المشيِ بتشبيبٍ، يُفْعَلُ عند اللِّقاءِ بالحَرْبِ.

واحتجَّ لَهم أبو عبد الرَّحمن السُّلميُّ عَلَىٰ جواز الرَّقص، بِما أخبرَنا به أبو نصرٍ مُحمَّد ابن منصورٍ الهَمَذَانِيُّ، نا إسماعيل بن أحمد بن عبد الملك المؤذِّنُ، نا أبو صالح أحمد بن عبد الملكِ، وأبو سعيدٍ مُحمَّد بن عبد العزيزِ، وأبو مُحمَّد عبد الحميد بن عبد الرَّحمن، قالُوا: ثنا أبو عبد الرحمن السُّلميُّ، ثنا أبو العبَّاس أحمد بن سعيدٍ المعدانِي، ثنا مُحمَّد بن سعيد المَروَزيُّ، ثنا عبَّاسٌ التَّرْقُفِيُّ، ثنا عبدُ اللهِ بن عمرٍو الورَّاقُ، ثنا الحسن بن علي بن منصورٍ، ثنا أبو عتَّابٍ المصريُّ، عن إبراهيم بن مُحمَّدٍ الشَّافعيِّ، أنَّ سعيدَ بنَ المسيَّب مرَّ فِي بعض أزقَّة مكَّة، فسَمِعَ الأخضرَ الحدَّاء يتَغَنَّىٰ فِي دارِ العاصِ بنِ وائلٍ بِهذا:

تَضَوَّعَ مِسْكًا بطنُ نَعْمَانَ أنْ مشَتْ ... بـه زينبٌ فِي نِسْوةٍ عطِرات

فلمَّا رأتْ رَكْبَ النُّمَيريِّ أَعْرَضَتْ ... وهـنَّ مـن أن يلقينَهُ حَذِرَات

قال: فضرب بِرِجْلِه الأرضَ زَمَانًا، وقال: هذا مما يَلَذُّ سَمَاعه، وكانوا يَرْوُون الشِّعْر لِسَعيد بن المُسَيِّب.

قال المصنِّف: قلتُ: هَذَا إسنادُهُ مقطوعٌ مُظْلِمٌ، لا يَصِحُّ عَنِ ابن المُسَيَّبِ، ولا هَذَا شِعْرُهُ.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٠٠) دون قوله: «فحجل».

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٩٩) من حديث البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رضي الله عنه، دون قوله: «فحجل».

كان ابنُ المسيَّب أوْقَرَ من هذا، وهَذِهِ الأبياتُ مشهورةٌ لمحمَّد بن عبد الله بن نُميرٍ النُّمَيْرِيِّ الشَّاعر، ولَمْ يكن نُمَرِيًّا، وإنَّما نُسِبَ إِلَىٰ اسمِ جدِّه، وهو ثقفيٌّ، وزينبُ الَّتي يشبِّبُ بِها هي ابنةُ يوسفَ أختُ الحجَّاج، وسأله عبد الملك بن مروان عن الرَّكبِ؛ ما كان؟ فقال: كانت أخمِرةً عِجَافًا حملَت عليها قطرانًا من الطَّائف. فضَحِكَ، وأمَرَ الحجَّاج ألَّا يؤذيه.

قال المصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: ثُمَّ لو قدَّرْنَا أنَّ ابنَ المسيَّبَ ضَرَبَ بِرجلِهِ الأرضَ، فليسَ فِي ذلك حجَّةٌ عَلَىٰ جوازِ الرَّقصِ، فإنَّ الإنسانَ قد يضربُ الأرضَ برجلِهِ، أو يدقُّها بيدِهِ لشيءٍ يسمعُهُ، ولا يسمَّىٰ ذلك رقصًا.

فما أقبحَ هَذَا التَّعَلُّقَ! وأين ضَرَبَ الأرضَ بالقَدَمِ مرَّةً أو مرَّتَيْنِ من رقصِهم الَّذي يخرجون به عن سَمْتِ العُقَلَاءِ؟ ثُمَّ دَعُونَا مِنَ الاحتِجَاجِ، تَعَالَوا نَتَقَاضَىٰ إِلَىٰ العقولِ: أيُّ معنًىٰ فِي الرَّقص إلَّا اللَّعب الَّذي يليق بالأطفال؟! وما الَّذي فيه من تحريك القلوبِ إِلَىٰ الآخرةِ؟!

هَذَا واللهِ مكابرةٌ باردةٌ.

ولقد حدَّثني بعض المشايخِ عن الغزَّالي أنَّه قال: الرَّقْصُ حَمَاقَةٌ بين الكَتِفَين لا تزولُ إلَّا بالتَّعب، وقال أبو الوَفَاء بنُ عَقِيلٍ: قد نصَّ القرآنُ عَلَىٰ النَّهي عن الرَّقصِ، فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء:٣٧]، وذمَّ المختال فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾ [لقمان:١٨].

والرَّقصُ: أشدُّ المَرَحِ والبَطَر، أوَلَسْنَا الَّذينَ قِسنَا النَّبيذَ عَلَىٰ الخمرِ؛ لاتِّفاقِهما فِي الإطرابِ والسُّكرِ؟ فَمَا بالُنا لا نَقِيسُ القَضِيبَ، وتَلْحِينُ الشِّعر معه عَلَىٰ الطُّنبور والمزمارِ والطَّبل؛ لاجتِمَاعِهم فِي الإطرابِ؟

وهل شيءٌ يُزرِي بالعَقلِ والوَقَارِ، ويُخْرِجُ عن سمتِ الحلمِ والأدبِ، أقبحُ مِن ذِي

لحيةٍ يرقصُ؟ فكيف إذا كانتْ شيبةٌ ترقصُ وتصفِّقُ عَلَىٰ وقاعِ الألحانِ والقُضبان، خُصُوصًا إذا كانتْ أصواتَ نسوانٍ ومُردانٍ؟ وهل يحسُنُ بمَنْ بينَ يديهِ الموتُ والسؤالُ والحشرُ والصِّراطُ، ثُمَّ هو إلَىٰ إحدىٰ الدَّارين صائرٌ؛ أن يُشْمِس بالرَّقص شَمْسَ البَهائمِ، ويُصَفِّق تَصفيقَ النِّسوة؟

واللهِ، لقد رأيتُ مشايخَ فِي عصرِي، مَا بَانَ لَهم سنٌّ فِي تبسُّمٍ، فضلًا عن ضحكٍ، مع إدمانِ مُخالَطَتِي لَهم، كالشَّيخ أبِي القاسمِ بنِ زيدان، وعبد الملك بن بشران، وأبِي طاهرِ بن العلَّاف، والجنيد، والدِّينوريِّ.

فإذا تمكَّنَ الطَّرب من الصُّوفيَّة فِي حال رَقْصِهِم جذبَ أحدُهم بعضَ الجلوسِ ليقومَ معه، ولا يجوزُ عَلَىٰ مذهبِهِم للمجذُوبِ أن يقعدَ، فإذا قامَ قامَ البَاقُون تبَعًا له، فإذَا كَشَفَ أحدُهم رأسَهُ، كَشَفَ البَاقُون رءُوسَهم موافقةً له، ولا يَخفَىٰ عَلَىٰ عاقلٍ أنَّ كَشفَ الرَّأسِ مستَقبحٌ، وفيهِ إسقاطُ مرءوةٍ وتَرْكُ أدبٍ، وإنَّمَا يقعُ فِي المناسكِ تعبُّدًا للهِ وذُلًّا له.

فصل [الغيبة عند السماع]

فإذا اشْتدَّ طَرَبُهم رمَوا ثِيَابَهم عَلَىٰ المغنِّي، فمِنهُم مَنْ يَرمِي بِها صِحَاحًا، ومنهم مَنْ يخرقُها، ثُمَّ يَرمِي بِهَا، وَقدِ احتجَّ لَهم بعضُ الجُهَّالِ، فقال: هؤلاء فِي غَيبةٍ، فلا يُلامُون، فإنَّ مُوسَىٰ ﷺ لمَّا غلبَ عليه الغمُّ بعِبَادةِ قومِهِ العجلَ، رَمَىٰ الألواحَ، فكسَرَهَا، ولَمْ يدْرِ ما صَنَعَ.

والجوابُ أن نقولَ: من يصحِّح عن مُوسَىٰ بأنَّه رَمَاهَا رَمْي الكَاسِر، والَّذي ذكرَ فِي القُرآن إلقَاؤها فحسب، فَمِن أينَ لنَا أنَّها تَكَسَّرَتْ؟ ثُمَّ لو قِيلَ: تكسَّرَتْ، فمن أينَ لنا أنَّه قَصَدَ كَسْرَهَا؟ ثُمَّ لو صحَّحنا ذَلكَ عنه قُلنَا: كانَ فِي غيبةٍ حتَّىٰ لَوْ كانَ بينَ يديهِ حينئذٍ بحرٌ

من نارٍ لَخَاضَهُ، ومن يصحِّح لهؤلاء غيبَتهم وهُمْ يَعْرفُون المُغنِّي من غيرِهِ، ويحذرُون من بئرٍ إنْ كانت عندهم.

ثُمَّ كيف يُقَاسُ أحوالُ الأنبياءِ عَلَىٰ أحوالِ هؤلاء السُّفهاء؟

ولقَدْ رأيتَ شابًا من الصُّوفيَّة يَمشي فِي الأسواقِ، ويصيحُ والغلمانُ يَمشُون خَلْفَه، وهو يُبَربر ويخرجُ إلَىٰ الجُمُعَةِ، فيصيحُ صيحاتٍ، وهو يصلِّي الجُمُعة، فسُئِلت عن صلاتِهِ، فقلتُ: إن كانَ وقتَ صياحِهِ غَائِبًا، فقد بَطَلَ وَضُوؤه، وإن كان حاضِرًا، فهو متصنِّعٌ، وكان هَذَا الرِّجال جَلْدًا لا يعملُ شيئًا، بل يُدارُ له بزِنْبيلٍ فِي كلِّ يومٍ، فيجمع له ما يأكلُ هو وأصحابُهُ، فهَذِهِ حالة المتأكِّلين لا المتوكِّلين.

ثُمَّ لو قَدَّرْنا أنَّ القومَ يَصيحُون عَنْ غيبةٍ، فإنَّ تَعرُّضَهم لما يغطِّي عَلَىٰ العقولِ مِن سماعِ مَا يطربُ منهيٌّ عنه، كالتَّعرُّض لكلِّ ما غالبُهُ الأذَىٰ.

وقد سُئِلَ ابنُ عقيلٍ عن تَوَاجُدِهِم وتَخرِيقِ ثِيَابِهم، فقالَ: خطأٌ وحرامٌ، وقَد نَهىٰ رسول الله ﷺ عن إضَاعةِ المالِ[1]، وعن شقِّ الجيُوبِ[2].

فَقَالَ له قائلٌ: فإنَّهم لا يَعْقلُون ما يفعلُون؟

قال: إنْ حضرُوا هَذِهِ الأمكنةَ مع علمِهم أنَّ الطَّربَ يغلبُ عليهِم، فيزيل عُقُولهمْ أثِمُوا بِما يدخلُ عليهم من التَّخريق وغيره، مِمَّا يفسدُ ولا يسقطُ عنهم خطابُ الشَّرْعِ؛ لِأنَّهُم مُخاطبون قبل الحضورِ بتجنُّب هَذِهِ المَوَاضعِ الَّتي تُفضِي إلَىٰ ذلك، كما هم منهيُّون عن شربِ المُسكرِ، فإذَا سَكِرُوا وجَرَىٰ منهم إفسادُ الأموالِ لَمْ يسقطْ الخطابُ لسكرِهِم، كذلك هَذَا الطَّرب الَّذي يُسمِّيه أهل التَّصوُّف وَجْدًا، إن صدقُوا فيه، فسكر طبع، وإن كذبُوا

(١) أخرجه البخاري (٢٤٠٨)، ومسلم (٥٩٣) من حديث المغيرة ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (١٢٩٤)، ومسلم (١٠٣) من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ.

فنبيذٌ، ومع الصَّحو فلا سَلَامَةَ فيه من الحَالَين، وتجنُّب مواضع الرِّيب واجبٌ.

واحتجَّ لَهم ابنُ طاهرٍ فِي تخريقِهم الثِّيابَ بحديثِ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: «نصبت حجلة لي فيهَا رقمٌ، فمدَّها النَّبيُّ ﷺ، فشقَّها»(١).

قال المصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: فانظرْ إلَىٰ فقهِ هَذَا الرَّجل المسكينِ؛ كيف يقيسُ حالَ مَنْ يُمزِّق ثيابه فيفسدُها، وقد نَهىٰ رسول الله ﷺ عن إضاعةِ المالِ عَلَىٰ مدِّ سترٍ ليحطَّ فانشقَّ لا عن قصدٍ، أو كان عن قصدٍ لأجلِ الصُّورِ الَّتِي كانت فيه.

وهَذَا من التَّشديدِ فِي حقِّ الشَّارع، عن المنهيَّات، كما أَمَرَ بكسرِ الدِّنان فِي الخمورِ، فإنِ ادَّعَىٰ مُخرِّق ثيابِهِ أنَّه غائبٌ. قلنَا: الشَّيطانُ غيَّبَكَ؛ لأنَّك لو كنتَ مع الحقِّ لحَفِظَكَ، فإنَّ الحقَّ لا يفسد.

وقد أخبرنا مُحمَّد بن أَبِي القاسمِ، نا حمد بن أحمد، نا أبو نعيمٍ الحافظُ، ثنا مُحمَّد بن علي بن حُبيشٍ، ثنا عبد الله بن الصَّقرِ، ثنا الصَّلت بن مسعودٍ، ثنا جعفر بن سليمان، قال: سمعتُ أبا عمرانَ الجونيَّ، يقول: وعظَ موسىٰ بن عمران عَلَيْهِ السَّلَامُ يومًا، فشقَّ رجلٌ منهم قميصَه، فأَوْحَىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ لموسىٰ: قلْ لِصَاحِبِ القَميصِ لا يشقُّ قميصَه، أيشرحُ لِي عن قلبِهِ؟

وقد تكلَّم مشايخُ الصُّوفيَّة فِي الخِرَقِ المرميَّة، فقال مُحمَّد بن طاهرٍ: الدَّليلُ عَلَىٰ أنَّ الخرقةَ إذا طُرِحَتْ، صَارَتْ مِلْكًا لمن طُرِحَتْ بسببِهِ حديث جريرٍ: جاءَ قوم مُجتابِي النمار، فحضَّ رسول الله ﷺ عَلَىٰ الصَّدَقةِ، فجاءَ رجلٌ من الأنصارِ بِصُرَّةٍ، فتَتَابَعَ النَّاس حتَّىٰ رأيتُ كومَتينَ من ثيابٍ وطعامٍ(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٧٩)، ومسلم (٢١٠٧).

(٢) أخرجه مسلم (١٠١٧).

قال: والدَّليلُ عَلَىٰ أنَّ الجماعَةَ إذا قَدِمُوا عندَ تفريقِ الخِرْقةِ، أُسهَمَ لَهم حديثُ أَبِي موسَىٰ: قَدِمَ عَلَىٰ رسول الله ﷺ بغنيمةٍ وسلبٍ، فأسهَمَ لنا(١).

قال المصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: لقد تَلَاعَبَ هَذَا الرَّجلُ بالشَّريعة، واستخرجَ بسوءِ فهمِهِ ما يظنُّه يُوَافقُ مذهبَ المتأخِّرينَ مِنَ الصُّوفيَّة، فإنَّا ما عَرَفْنَا هَذَا فِي أوائِلِهم، وبَيَان فَسَاد استخراجِهِ أنَّ هَذَا الَّذي خَرقَ الثَّوب، وَرَمَىٰ به إن كانَ حَاضِرًا فَمَا جازَ له تخريقُهُ، وإنْ كَانَ غائبًا، فليسَ له تصرُّفٌ جائزٌ شرعًا لا هبةً، ولا تَمليكًا.

وَكَذلك يَزْعُمون بأنَّ ثوبَه كان كالشَّيءِ الَّذي يَقَع من الإنسانِ وَلَا يَدرِي به، فلا يَجوزُ لأحدٍ أن يتملَّكَه، وإنْ كَانَ رماهُ فِي حالِ حضورِهِ لَا عَلَىٰ أحدٍ، فَلَا وَجهَ لتملُّكِهِ، وَلَو رَمَاهُ إِلَىٰ المُغنِّي لَمْ يتملَّكْهُ؛ لِأنَّ التَّملُّكَ لا يكونُ إلَّا بعقدٍ شرعيٍّ، والرَّميُ ليسَ بعقدٍ.

ثُمَّ نقدِّرُ أنَّه ملكٌ للمُغنِّي، فمَا وجهُ تَصرُّفِ الباقِينَ فيهِ؟

ثُمَّ إذا تصَرَّفوا فيهِ، خرقُوهُ خَرْقًا، وذلك لا يجوزُ لوَجْهَينِ:

أحدُهُما: أنَّه تَصَرُّفٌ فِيمَا لا يَملكُونَه.

والثَّانِي: أنَّه إضاعةٌ للمَالِ، ثُمَّ ما وَجْهُ إسهامِ مَن لَمْ يحضرْ؟

فأمَّا حديثُ أبِي موسىٰ، فقالَ العلماءُ منهُم الخطَّابِي: يحتملُ أن يكونَ رسول الله ﷺ أجازَه عن رضَىٰ مِمَّن شهدَ الوَاقِعَةَ، أو مِنَ الخمسِ الَّذي هو حقُّه، وعَلَىٰ مذهبِ الصُّوفيَّة تُعْطىٰ هَذِهِ الخرقة لمن جاءَ.

وهَذَا مذهبٌ خارجٌ عن إجْماعِ المسلِمينَ، ومَا أشبهُ ما وَقَعَ هؤلاء بآرائِهم الفاسدةِ إلَّا بِمَا وَضَعَتِ الجَاهِلِيَّةُ مِن أَحكَامِ البَحِيرَةِ والسَّائِبةِ والوَصِيلَةِ والحامِي.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢٣٣).

قال ابنُ طاهرٍ: أجمعَ مشايخُنا عَلَىٰ أنَّ الخرقةَ المخرَّقةَ، وما انبعثَ من الخرق الصِّحاح الموافقة لَها أنَّ ذلك كلَّه يكونُ بِحكمِ الجمعِ، يفعلُون فيه ما يَرَاه المشَايِخ.

واحتجُّوا بقولِ عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «الغَنِيمةُ لِمَنْ شَهِدَ الوَاقِعَةَ»، وخَالَفَهم شيخُنا أبو إسماعيلَ الأنصاريُّ، فجَعَلَ الخرقةَ عَلَىٰ ضَرْبين: مَا كَانَ مَجرُوحًا قسم عَلَىٰ الجميعِ، وما كَانَ سَلِيمًا دفع إِلَىٰ القوَّال، واحتجَّ بحديثِ سَلَمَةَ: مَن قَتَلَ الرَّجل؟ قالوا: سلمة بن الأكوع. قال: «له سَلَبُهُ أجمع»[1].

فالقَتْل إنَّما وُجِدَ من جهة القوَّال، فالسَّلب له.

قال المصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: انظُروا إخوانِي -عَصَمَنَا الله وإيَّاكم من تلبيسِ إبليسَ- إِلَىٰ تلاعبِ هؤلاءِ الجهلةِ بالشَّريعةِ، وإجْماع مشايخِهِم الَّذي لا يُساوِي إجْماعهم بعرةً، فإنَّ مشايخَ الفقهاءِ أجْمعُوا عَلَىٰ أنَّ الموهوبَ لمنْ وُهِبَ له، سواءٌ كانَ مُخرَّقًا أو سليمًا، ولا يجوزُ لغيرِهِ التَّصرُّف فيه.

ثُمَّ إنَّ سلبَ القتيلِ كلُّ ما عليه، فما بالُهم جعلُوه ما رُمِي به، ثُمَّ ينبَغِي أن يكونَ الأمرُ عَلَىٰ عكسِ ما قَالَهُ الأنصاريُّ؛ لأنَّ المجروحَ من الثِّيابِ ما كان بسببِ الوجدِ، فينبغِي أن يكونَ المجروحُ للمُغنِّي دون الصَّحيح، وكلُّ أقوالِهم فِي هَذَا مُحالٌ وهَذَيَان.

وقد حكىٰ لي أبو عبدِ الله التّكريتِيُّ الصُّوفيُّ، عن أبِي الفتوحِ الإسفرايِينيِّ، وكنتُ أنا قد رأيتُهُ وأنَا صغيرُ السِّنِّ، وقد حَضَرَ فِي جمعٍ كثيرٍ فِي رباطٍ، وهناكَ المخادُّ والقُضبانُ ودف بجلاجلَ، فَقَام يرقُصُ حتَّىٰ وَقَعَتْ عمامتُه فبَقِيَ مكشوفَ الرَّأسِ. قالَ التّكريتيُّ: إنَّه رَقَصَ يَومًا فِي خفٍّ له، ثُمَّ ذَكَرَ أنَّ الرَّقصَ فِي الخفِّ خطأٌ عندَ القومِ، فانفَرَدَ وخَلَعَهُ، ثُمَّ نَزَعَ مطرفًا كان عليه، فوضَعَه بين أيدِيهم كفَّارةً لتلكَ الجنايةِ، فاقتسَمُوه خرقًا.

(١) أخرجه مسلم (١٧٥٤).

قال ابن طاهرٍ: والدَّليلُ عَلَىٰ أنَّ الَّذي يطرحُ الخرقة لا يجوزُ أن يشتريَها مِن الجمعِ حديث عمرَ: «لا تعودنَّ فِي صَدَقتِكَ»(١).

قال المصنِّف: انظرْ إِلَىٰ بُعدِ هَذَا الرَّجل عن فهمِ معانِي الأحاديثِ، فإنَّ الخرقةَ المطروحةَ باقيةٌ عَلَىٰ ملكِ صاحبِها، فلا يُحتاج إِلَىٰ أن يشتريَها.

فصل [تقطيع الثياب]

وأمَّا تقطيعُهم الثِّيابَ المطروحةَ خرقًا وتَفْريقها، فقد بيَّنا أنَّه إن كان صاحب الثَّوب رَمَاه إِلَىٰ المُغنِّي لَمْ يَمْلكْه بنفسِ الرَّمي حتَّىٰ يملكَه إيَّاه، فإذا ملَّكه إيَّاه فما وجهُ تصرُّف الغيرِ فيه؟

ولقد شَهدتُ بعضَ فقهائِهم يخرقُ الثِّياب ويقسِّمها، ويقولُ: هَذَا الخرقُ ينتفع بِها، وليسَ هَذَا بتفريطٍ! فقلتُ: وهل التَّفريط إلَّا هذا؟! ورأيتُ شيخًا آخرَ منهم يقول: خَرَّقتُ خِرَقًا فِي بلدِنا، فأصابَ رجلٌ منها خريقة فعملَها كفنًا، فبَاعَهُ بخسمةِ دنانيرَ، فقُلتُ له: إنَّ الشَّرع لا يجيزُ هَذِهِ الرُّعوناتِ، لمثلِ هَذِهِ النَّوادرِ.

وأعجبُ مِن هذينِ الرَّجلين أبو حامدِ الطُّوسِيُّ، فإنَّه قالَ: يُباحُ لَهم تَمْزيقُ الثِّيابِ، إذا خُرِّقت قطعًا مُربَّعةً تصلُحُ لتَرقيعِ الثِّيابِ والسَّجَّاداتِ، فإنَّ الثَّوبَ يمزَّق حتَّىٰ يخاطَ منه قميصٌ، ولا يكونُ ذلك تَضييعًا!

ولقد عَجِبتُ مِن هَذَا الرَّجلِ: كيفَ سلبه حبُّ مذهبِ التَّصوُّف عن أصولِ الفقهِ ومذهبِ الشَّافعيِّ، فَنَظَرَ إِلَىٰ انتفاعٍ خاصٍّ، ثُمَّ ما مَعنَىٰ قولِ: مربَّعة، فإنَّ المُطاولةَ ينتفعُ بِها أيضًا! ثُمَّ لو مزَّق الثَّوب قراملَ لانتفَعَ بِها، ولو كَسَرَ السَّيفَ نصفَين لانتفَعَ بالنِّصفِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٣٦)، ومسلم (١٦٢١).

غيرَ أنَّ الشَّرعَ يتلمَّح الفَوَائد العامَّة، ويُسمِّي ما نقصَ منه للانتفاعِ إتلافًا، ولِهَذَا ينهىٰ عن كسرِ الدِّرهم الصَّحيح؛ لِأَنَّه يذهبُ منه قيمةٌ بالإضافةِ إِلَىٰ المكسورِ، وليس العجبُ من تلبيسِ إبليسِ عَلَىٰ الجهَّال منهم، بل عَلَىٰ الفُقَهاء الَّذين اختارُوا بِدَعَ الصُّوفيَّة عَلَىٰ حُكْمِ أَبِي حنيفة والشَّافعيِّ ومالك وأحمد، رضوان الله عليهم أجْمعين.

فصل [غرامة المستغفر]

ولقَدْ أَغْرَبُوا فيمَا ابتدعُوا، وأقامُوا لَهم الأعذارَ مَنْ إِلَىٰ هَوَاهمْ مَالَ، ولقد ذَكَرَ مُحمَّد بن طاهرٍ فِي كتابِهِ: «باب: السُّنَّة فِي أَخْذِ شيءٍ من المستغفرِ»، واحتجَّ بحديثِ كعبِ ابن مالكٍ فِي توبتِهِ: «**يُجزئك الثُّلث**»[1]، ثُمَّ قال: «باب: الدَّليلِ عَلَىٰ أنَّ مَنْ وَجَبَتْ عليه غرامةٌ فَلَمْ يؤدِّها أَلزَمُوهُ أكثرَ منها»، واستدلَّ بحديثِ مُعَاويةَ بن حَيدةِ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قالَ فِي الزَّكاةِ: «**مَن مَنَعَهَا، فأنَا آخِذهَا وشطرَ مَالِهِ**»[2].

قال المصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: قلتُ: فانظرْ إِلَىٰ تلاعبِ هؤلَاءِ، وجهل هَذَا المحتجِّ لَهُمْ، وتَسْمِيَة ما يلزمُ بعضهم بِما لا يلزمُهُ غرامةً، وتسميةُ ذلك وَاجِبًا، وليسَ لنا غرامةٌ، ولا وُجُوبَ إِلَّا بالشَّرعِ، ومتَىٰ اعتقَدَ الإنسانُ مَا لَيسَ بواجبٍ واجِبًا كَفَرَ.

ومِن مَذْهَبِهِم كَشْفُ الرُّؤوسِ عندَ الاسْتغفارِ، وهَذِهِ بدعةٌ تسقطُ المروءةَ، وتُنَافِي الوَقَارَ، وَلَولَا وُرُود الشَّرْع بكشفِهِ فِي الإحرامِ مَا كَانَ له وجهٌ.

وأمَّا حَديث كعبِ بنِ مالكٍ؛ فإنَّه قَالَ: إنَّ مِن تَوْبَتِي أَنْ أنخَلِعَ مِن مَالِي، فَقَال له رسول الله ﷺ: «**يُجْزِئُك الثُّلث**»[3]، لا عَلَىٰ سبيلِ الإلزامِ له، وإنَّما تَبرَّع بذلك، فأخَذه منه.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٥٧)، ومسلم (٢٧٦٩)

(٢) أخرجه أبو داود (١٥٧٥)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٢٦٥).

(٣) تقدم تخريجه.

وأين إِلْزَامُ الشَّرع تاركَ الزَّكاةِ مِمَّا يزيدُ عَلَيهَا عقوبةً مِن إلزَامِهِم المريدَ غرامةً لا تجبُ عليه، فإذا امتَنَعَ ضاعفُوها، وليسَ إليهم الإلزامُ إنَّما يَنْفرِدُ بالإلزامِ الشَّرع وحدَه.

وهَذَا كلُّه جهلٌ وتلاعبٌ بالشَّريعة، فهَؤُلَاءِ الخوارجُ عليها حقًّا.

ذكر تلبيسِ إبليسَ عَلَى كثيرٍ من الصُّوفيَّة فِي صحبة الأحداث:

قَالَ المُصَنِّف: اعلمْ أنَّ أكثرَ الصُّوفِيَّةِ المتصوِّفة قد سَدُّوا عَلَىٰ أنفسِهم باب النَّظر إِلَىٰ النِّساء الأَجَانب، لبُعْدِهمْ عن مُصَاحبَتِهنَّ، وَامتنَاعِهم عن مُخالَطَتِهنَّ، واشتغلُوا بالتَّعبُّد عن النِّكاح، واتَّفقت صُحْبةُ الأحداثِ لَهم عَلَىٰ وجهِ الإرادةِ، وقصد الزَّهَادَةِ، فأَمَالَهم إبليسُ إليهِم.

وَاعْلَمْ أنَّ الصُّوفيَّة في صُحْبةِ الأحداثِ عَلَىٰ سبعةِ أقسامٍ:

القسمُ الأوَّل: أخبثُ القومِ، وهُمْ ناسٌ تشبَّهُوا بالصُّوفِيَّةِ، ويَقُولُون بالحُلُول.

أخبرنا مُحمَّد بن عبد الباقي بن أحمد بن سُلَيمان، نا أبو عليٍّ الحُسَين بن مُحمَّد بن الفضلِ الكِرمَانِيُّ، نا سهل بن علي الخشَّاب، نا أبو نصرٍ عبد الله بن علي السرَّاجُ، قال: بَلغَنِي أنَّ جَماعةً من الحُلُوليَّة زَعَمُوا أنَّ الحقَّ تعالىٰ اصطَفَىٰ أجسَامًا حَلَّ فيها بِمَعَانِي الرُّبوبيَّة، ومنهم مَنْ قالَ: هو حالٌّ فِي المُستحسَنَاتِ.

وذكرَ أبو عبد الله بن حامدٍ من أَصْحَابِنَا أنَّ طائفةً من الصُّوفيَّة قالُوا: إنَّهم يرونَ الله عَزَّوَجَلَّ فِي الدُّنيا، وأجازُوا أن يكونَ فِي صِفَةِ الآدميِّ، ولَمْ يأبَوْا كونَه حالًّا فِي الصُّورة الحَسَنةِ حتَّىٰ استَشهدُوه فِي رُؤْيتِهم الغلامَ الأسودَ.

القسم الثَّاني: قوم يتشبَّهون بالصُّوفيَّة فِي مَلْبسِهم، ويَقْصدونَ الفسقَ.

القسم الثَّالث: قوم يَسْتبيحُون النَّظرَ إِلَىٰ المستحسَنِ.

وقد صنَّف أبو عبد الرَّحمن السُّلميُّ كتَابًا سَمَّاه «سُنَن الصُّوفيَّة»، فَقَالَ فِي أَوَاخرِ

الكتابِ: بابٌ: فِي جَوَامع رُخَصِهِمْ، فذكرَ فيه الرَّقصَ والغناءَ، والنَّظر إِلَىٰ الوَجْه الحَسَنِ، وذكرَ فيه ما رُوِيَ عنِ النَّبيِّ ﷺ أنَّه قالَ: «اطْلبُوا الخيرَ عندَ حِسَانِ الوُجُوهِ»(١)، وأنَّه قالَ: «ثلاثةٌ تَجْلو البَصَرَ: النَّظَرُ إِلَىٰ الخُضْرةِ، والنَّظرُ إِلَىٰ الماءِ، والنَّظرُ إِلَىٰ الوجهِ الحسنِ»(٢).

قال المصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: وهذان الحدِيثَان لا أصلَ لَهُما عن رسول الله ﷺ.

أمَّا الحديثُ الأوَّلُ: فأخبرَنا به عبد الأوَّل بن عيسىٰ، نا عبدُ الرَّحمن بن مُحمَّد بن المظفَّر، نا عبد الله بن أحمد بن حمويه، نا إبراهيم بن خُزَيْمٍ، ثنا عَبْد بن حُمَيدٍ، ثنا يزيد بن هارون، ثنا مُحمَّد بن عبد الرَّحمن بن المجبر، عن نافعٍ، عن ابنِ عُمرَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «اطْلبُوا الخيرَ عندَ حِسَانِ الوُجُوهِ».

قالَ يَحيَىٰ بن معينٍ: مُحمَّد بن عبد الرَّحمن ليسَ بشيءٍ.

قال المصنِّف: قلتُ: وقَدْ رُوِيَ هَذَا الحديثُ من طُرُقٍ. قال العُقيليُّ: لا يثبتُ عن النَّبيِّ ﷺ فِي هَذَا شيءٌ.

وأمَّا الحديثُ الآخرُ: فأنبأنا أبو منصور بن خيرون، نا أحمد بن علي بن ثابتٍ، نا مُحمَّد بن أحمد بن يَعْقوبَ، نا مُحمَّد بن نعيمٍ الضَّبِّيُّ، نا أبو بكر مُحمَّد بن أحمد بن هارون، نا أحمد بن عمرو بن عبيدٍ الريحانيُّ، قَالَ: سَمعتُ أبا البختريَّ وهبَ بن وهبٍ يقول: كنتُ أدخلُ علىٰ الرَّشيدِ، وابنُهُ القاسمُ بين يديه، فكنتُ أُدمنُ النَّظرَ إليه، فقال: أراكَ تُدمِنُ النَّظرَ إِلَىٰ القاسمِ، تريد أن تَجعَلَ انقطاعَه إليكَ. قلتُ: أعيذُكَ بالله، يا أمير المؤمنين، أن تَرمِيَنِي بِما لَيسَ فِيَّ، وأمَّا إدمانُ النَّظرِ إليه، فإنَّ جعفرًا الصَّادقَ ثنا عن أبيه، عن جدِّه، عن

---

(١) أخرجه عبد بن حميد فِي «مسنده» (٧٥١)، وابن عدي فِي «الكامل» (٦/ ١٨٩)، وقال الألباني فِي «ضعيف الجامع» (٩٠٣): موضوع.

(٢) ذكره السيوطي في «الجامع الصغير» (٦٣١٥)، وعزاه للحاكم في «التاريخ»، وأبي نعيم في «الطب»، والخرائطي في «اعتلال القلوب»، وضَعَّفه الألباني فِي «ضعيف الجامع» (٢٥٦٨).

عليّ بن الحُسين، عن أبيه، عن جدِّه، قال: قَالَ رسول الله ﷺ: «ثلاثٌ يَزِدْنَ فِي قوَّة النَّظَرِ: النَّظَرُ إلَىٰ الخُضرةِ، وإلَىٰ الماءِ الجارِي، وإلَىٰ الوَجهِ الحَسَنِ».

قَالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: هَذَا حديثٌ موضوعٌ، ولا يختلفُ العلماءُ فِي أبِي البختريِّ أنَّه كذَّابٌ وضَّاعٌ، وأحمدُ بن عمر بن عبيدٍ أحدُ المجهُولينَ.

ثُمَّ قَدْ كانَ يَنْبَغِي لِأبِي عبد الرحمن السُّلميِّ، إذ ذَكَرَ النَّظر إلَىٰ المُستَحْسنِ، أنْ يقيِّدَه بالنَّظر إلَىٰ وجهِ الزَّوجة أو المملُوكة، فأمَّا إطلاقُهُ، ففيهِ سوءُ ظنٍّ. وقال شيخُنا مُحمَّد بن ناصرٍ الحافظُ: كان ابن طاهرٍ المقدسيُّ قد صنَّفَ كتابًا فِي جَوَازِ النَّظَرِ إلَىٰ المُرْد.

قال المصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: قلتُ: والفقهاءُ يقولُون: مَن ثَارَتْ شهوتُهُ عندَ النَّظرِ إلَىٰ الأمردِ، حَرُمَ عليه أن ينظُرَ إليه، ومتَىٰ ادَّعىٰ الإنسانُ أنَّه لا تَثُورُ شَهْوتُهُ عند النَّظرِ إلَىٰ الأَمْرَدِ المُستحسَنِ فهو كَاذِبٌ، وإنَّما أُبيحَ عَلَىٰ الإطلاقِ لِئَلَّا يقعَ الحَرَجُ فِي كثرَةِ المُخَالَطَةِ بِالمَنعِ، فإذَا وَقَعَ الإلحاحُ فِي النَّظَرِ، دلَّ عَلَىٰ العَمَلِ بِمُقتَضَىٰ ثَوَرَانِ الهَوَىٰ.

قال سعيدُ بنُ المسيَّبِ: إذا رأيتُمُ الرَّجلَ يلحُّ النَّظر إلَىٰ غلامٍ أمردَ، فاتَّهِمُوه.

القسم الرَّابع: قومٌ يقولُون: نحنُ لا ننظُرُ نَظَرَ شَهْوةٍ، وإنَّما ننظُرُ نَظَرَ اعتبارٍ، فَلَا يضرُّنَا النَّظرُ، وهَذَا مُحالٌ منهم، فإنَّ الطِّباعَ تَتَسَاوَىٰ، فَمَنِ ادَّعَىٰ تنزُّهَ نفسِهِ عن أبناءِ جنسِهِ فِي الطَّبعِ، ادَّعىٰ المُحالَ، وقَد كَشَفْنَا هَذَا فِي أوَّلِ كَلَامِنَا فِي السَّماع.

أخبرتنا شُهْدةُ بنت أحمد الأبري، قالتْ: بإسنادٍ مرفوعٍ إلَىٰ مُحمَّدِ بنِ جعفرٍ الصُّوفيِّ، قالَ: قَالَ أبو حمزةَ الصُّوفيُّ: حدَّثني عبد الله بن الزُّبير الحنفيُّ، قال: كنتُ جالسًا مع أبِي النَّضرِ الغنويِّ، وكان من المبرِّزين العَابدينَ، فنَظَرَ إلىٰ غلامٍ جميلٍ، فلَمْ تزلْ عيناه واقِعَتَين عليه حتَّىٰ دَنَا منهُ، فَقَالَ: سَأَلتُكَ باللهِ السَّميعِ، وعزِّه الرَّفيعِ، وسلطانه المنيعِ، إلَّا وَقَفْتَ عليَّ أَرْوِي مِنَ النَّظرِ إليكَ، فوَقَفَ قليلًا، ثُمَّ ذهبَ لِيمضيَ، فقال له: سألتُكَ بالحكيمِ المجيدِ،

الكريمِ المبدئِ المعيدِ، إلَّا وَقَفْتَ، فَوقفَ ساعةً، فأقبلَ يُصَعدُ النَّظَرَ إليه ويصوِّبه، ثُمَّ ذهب ليمضِيَ، فقال: سألتُك بالوَاحدِ الأحدِ، الجبَّارِ الصَّمدِ، الَّذي لَمْ يلدْ ولَمْ يولدْ، إلَّا وَقَفْتَ، فَوقَفَ ساعةً، فَنظَرَ إليه طويلًا، ثُمَّ ذَهَبَ لِيمضِيَ، فقال: سألتُكَ باللَّطيفِ الخبيرِ السَّميعِ البصيرِ، وبِمَنْ ليسَ له نظيرٌ إلَّا وَقفْتَ، فَوَقفَ، فَأقبَلَ ينظُرُ إليهِ، ثُمَّ أطرَقَ رأسَهُ إلَىٰ الأرضِ، ومَضَىٰ الغُلامُ، فَرَفَعَ رأسَه بعدَ طويلٍ، وهو يَبكِي، فقالَ: قَد ذَكَّرَنِي هَذَا بنَظَرِي إليه وجهًا جلَّ عنِ التَّشبيهِ، وتقدَّسَ عن التَّمثيلِ، وتَعَاظَمَ عن التَّحديدِ، والله، لأجهدنَّ نَفْسِي فِي بُلُوغِ رضاه بِمُجَاهَدَتِي جميعَ أعدائِهِ، ومُوَالَاتِي لِأولِيَائِهِ حتَّىٰ أصيرَ إلَىٰ ما أردتُهُ من نظرٍ إلَىٰ وَجْهِهِ الكريمِ، وبَهائِهِ العظيمِ، ولَوَدِدْتُ أنَّه قَد أَرَانِي وجهَه، وحَبَسَنِي فِي النَّار مَا دامَتِ السَّماوَاتُ والأرضُ، ثُمَّ غُشِيَ عليه.

وحدَّثنا مُحمَّد بن عبد الله الرَّازيُّ، قال: سمعتُ خيرًا النَّساج يقُولُ: كنتُ مع مُحاربِ ابن حسَّان الصُّوفيِّ فِي مسجدِ الخيفِ، ونحنُ مُحْرِمُونَ، فجَلَسَ إلينا غلامٌ جميلٌ من أَهْلِ المغربِ، فَرَأيتُ مُحارِبًا يَنْظر إِلَيْه نظرًا أنكرتُهُ، فقُلْتُ له بعد أَنْ قَامَ: إنَّك محرمٌ فِي شهرٍ حرامٍ، فِي بلدٍ حرامٍ، فِي مِشْعَرٍ حرامٍ، وقد رأيتُكَ تَنظُرُ إلَىٰ هَذَا الغلامِ نَظَرًا لَا ينظُرُهُ إلَّا المفتُونُون، فَقَال لِي: تَقُولُ هَذَا، يا شهوانِيَّ القلبِ والطَّرفِ، ألمْ تَعْلَمْ أنَّه قَد مَنَعَنِي مِنَ الوُقوعِ فِي شِرْكِ إبليسَ ثَلاثٌ؟ فقلتُ: وما هيَ؟ قال: سرُّ الإيمانِ، وعفَّة الإسلامِ، وأَعْظَمُها الحياءُ من اللهِ تَعَالَىٰ أن يطَّلِعَ عليَّ وأنا جاثِمٌ عَلَىٰ منكرٍ نَهَانِي عَنْه، ثُمَّ صُعِقَ حتَّىٰ اجتَمَعَ النَّاسُ علينا.

قال المصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: **قلتُ**: انظُرُوا إلَىٰ جهلِ الأحمقِ الأوَّل، ورَمْزِه إلَىٰ التَّشبيهِ، وإِنْ تَلَفَّظَ بالتَّنْزِيهِ، إلَىٰ حَمَاقَةِ هَذَا الثَّانِي الَّذي ظنَّ أنَّ المعصيةَ هي الفاحشةُ فَقطْ، وَمَا عَلِمَ أنَّ نفسَ النَّظر بشهوةٍ يحرُمُ، ومَحا عن نفسِهِ أثَرَ الطَّبعِ بدَعواهُ الَّتي تُكذِّبها شَهْوةُ النَّظر.

وقَدْ حدَّثنِي بَعْض العُلَماءِ: أنَّ صَبِيًّا أمردَ حَكَىٰ له، قال: قالَ لي فلانٌ الصُّوفيُّ، وهو

يحبُّنِي: يا بنيّ، لله فيك إقبالٌ والتفاتٌ، حيث جَعَلَ حَاجَتِي إليكَ!

وحَكَىٰ أنَّ جَماعةً من الصُّوفيَّة دخلُوا عَلَىٰ أحمَدَ الغزالي، وعندَهُ أمردُ وهو خَالٍ به، وبينهما وردٌ، وهو ينظُرُ إلَىٰ الوردِ تارةً، وإلَىٰ الأمردِ تارةً، فلما جلسُوا قال بعضُهم: لعلَّنا كدرنا. فقال: إي والله! فتَصَايَحَ الجَمَاعَةُ عَلَىٰ سبيلِ التَّواجدِ!

وَحَكَىٰ أبو الحُسَينِ بن يُوسُفَ: أنَّه كَتَبَ إليهِ فِي رُقْعةٍ: إنَّك تحبُّ غلامَك التُّركيَّ، فقَرَأَ الرُّقعةَ، ثُمَّ استدعَىٰ الغلامَ، فصعَّدَ إليه النَّظَرَ، فقبَّله بين عَينَيه، وَقَالَ: هَٰذَا جوابُ الرُّقعة.

قال المصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: قلتُ: إنِّي لَا أعجبُ من فعلِ هَذَا الرَّجلِ وإلقَائِهِ جِلبَابَ الحياءِ عن وجهِهِ، وإنَّما أعجبُ من البَهَائِمِ الحَاضِرِينَ: كَيفَ سَكَتُوا عنِ الإنْكَارِ عليهِ؟! ولكنَّ الشَّريعة بردَتْ فِي قُلُوبِ كثيرٍ مِنَ النَّاس.

وأخبرنا: أبو القاسِمِ الحريريُّ، أنبأنَا أبو الطَّيِّبِ الطَّبريُّ قالَ: بَلَغَنِي عن هَذِهِ الطَّائفة الَّتي تسمعُ السَّماعَ أنَّها تضيفُ إليه النَّظرَ إلَىٰ وجهِ الأمْردِ، ورُبَّما زيَّنَته بالحُلِيِّ والمصبغات من الثِّياب والحواشي، وتزعُمُ أنَّها تقصدُ به الازديادَ فِي الإيمانِ بالنَّظر والاعتبارِ والاستدلالِ بالصَّنعةِ عَلَىٰ الصَّانع، وهَذِهِ النِّهايةُ فِي مُتَابعة الهوىٰ، ومُخَادعةِ العقلِ، ومُخَالفةِ العلمِ، قَالَ الله تَعَالىٰ: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات:٢١]، وَقَالَ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾ [الغاشية:١٧]، وَقَالَ: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ [الأعراف:١٨٥]، فَعَدلُوا عمَّا أمرهُم اللهُ به مِنَ الاعتبارِ إلَىٰ مَا نَهاهُم عنه.

وإنَّما تفعلُ هَذِهِ الطَّائفَة ما ذكرنَاه بعد تَنَاوُلِ الألوانِ الطَّيِّبةِ والمآكَل الشَّهيَّة، فإذا استوفَتْ منهَا نُفُوسهمْ طَالَبتْهُم بِمَا يَتْبَعُها من السَّماع والرَّقص والاستمتَاع بالنَّظرِ إلَىٰ وُجُوهِ المُرْدِ، وَلَوْ أنَّهم تَقلَّلُوا من الطَّعامِ لَمْ يَحنُّوا إلَىٰ سماعٍ ونظرٍ.

قالَ أبُو الطَّيِّبِ: وقد أخبرَ بعضُهُم فِي شعرِهِ عن أحوالِ المستَمِعِين للغَنَاءِ، وما يجدُونَه حال السَّماعِ، فَقَال:

أتـذكُرُ وَقْتنـا وقَـدِ اجتَمَعْنَـا ... عَلَـى طيـبِ السَّمَاع إلَـى الصَّباح
ودارتْ بينَنَـا كـأسُ الأغَـانِي ... فأُسـكِرَت النُّفـوسُ بغيـرِ راح
فلَـمْ نـرَ فِـيهِم إلّا نـشَاوى ... سُـرُورًا والسُّرور هنـاك صَـاحي
إذا لَبَّـى أخـو اللَّـذَّات فيـه ... منـادي اللَّهـو: حـيَّ عَلَـى الفَـلاح
ولَـمْ نَملـكْ سِـوَى المهجـات شـيئًا ... أرَّقنَاهَـا لألحـاظِ مـلاحِ

قال: فَإذَا كَانَ السَّماعُ تأثيرُهُ فِي قُلُوبِهم ما ذَكَرَهُ هَذَا القَائِل: فكيفَ يُجدِي السَّماع نَفْعًا، أو يفيدُ فائدةً.

قال ابنُ عقيلٍ: قولُ مَنْ قَالَ: لا أخافُ مِن رُؤيةِ الصُّوَرِ المُستَحسَنَة ليس بشيءٍ؛ فإنَّ الشَّريعةَ جَاءَتْ عامَّة الخطَاب لا تميِّز الأشخاصَ، وآياتُ القرآنِ تُنْكرُ هَذِهِ الدَّعاوَىٰ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [النور:٣٠]، وَقَالَ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾﴾ [الغاشية:١٧- ١٩].

فلم يحلَّ النَّظر إلَّا عَلَىٰ صورٍ لا ميلَ للنَّفس إليها، ولا حَظَّ فيها، بل عبرةٌ لا يُمَازِجُها شهوةٌ، ولا تَعتَرِيهَا لذَّةٌ، فأمَّا صُور الشَّهَوَاتِ، فَإنَّها تُعبِّر عن العِبرَةِ بالشَّهوةِ، وكلُّ صورةٍ ليستْ بعبرةٍ لا يَنْبغِي أن يُنْظرَ إليها؛ لأنَّها قَد تكُونُ سَبَبًا للفِتنةِ، ولِذَلِكَ مَا بَعَثَ اللهُ تَعَالَىٰ امرأةً بالرِّسالةِ، ولا جَعَلَهَا قَاضِيًا، وَلَا إمامًا، ولا مؤذِّنًا، كلُّ ذلك لِأنَّها مَحلُّ فتنةٍ وشهوةٍ، ورُبَّما قَطعَت عمَّا قَصَدتْهُ الشَّريعَةُ بالنَّظرِ، وكلُّ مَنْ قَالَ: أنا أجدُ مِنَ الصُّورِ المُستَحسَنَةِ عِبَرًا كَذَّبْنَاه، وكلُّ مَنْ مَيَّزَ نفسَهُ بطبيعةٍ تُخْرِجُهُ عن طباعِنَا بالدَّعوَىٰ كذَّبْنَاه، وإنَّما هَذِهِ خدعُ الشَّيطَانِ للمدَّعين.

القسم الخامس: قومٌ صَحِبُوا المُردَان، ومنعُوا أنفسَهم مِنَ الفَوَاحِشِ، يَعْتَقِدُونَ ذلك مُجَاهدةً، وَمَا يعلَمُون أنَّ نفسَ صُحْبتهم، والنَّظر إليهم بشَهْوةٍ معصيةٌ، وهَذِهِ من خلالِ الصُّوفيَّة المَذْمُومات، وقَدْ كانَ قدماؤُهم عَلَىٰ غيرِ هَذَا، وقِيلَ: كانُوا عَلَىٰ هَذَا بدليلٍ، وهو ما أَخْبرَ أحْمَد بن عليّ بن ثابتٍ، قالَ: أنشَدَنَا أبُو علي الرَّوذباري:

أنــزهُ فِــي روضِ المَحَاسِــنِ مُقلَتــي وأمنَــعُ نفسِــي أن تَنَــالَ مُحرَّمَــا
وأحمــلُ مــن ثِقَــلِ الهَــوَى مَـا لَـو أنَّــه عَلَـى الجَبَـلِ الـصَّلدِ الأصـمِّ تَهـدَّمَا

قال المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: وسيأتِي حديثُ يُوسُفَ بنَ الحُسينِ، وقولُهُ: عَاهَدْتُ ربِّي ألَّا أَصْحَبَ حَدَثًا مئةَ مرَّةٍ، فَفَسَخَها عليَّ قوام القُدُود، وغَنَج العُيُون.

أَخْبرتْنَا شهدةُ الكاتِبَة بإسنادٍ عن أبِي المختارِ الضَّبِّيِّ، قال: حدَّثَنِي أبِي، قالَ: قلتُ: لِأَبِي الكُمَيتِ الأندلُسِيِّ، وكانَ جوَّالًا فِي أرضِ اللهِ: حَدِّثنِي بأَعْجبِ ما رأيتُ مِنَ الصُّوفيَّة. قال: صَحِبتُ رجُلًا منهُم يُقَالُ لهُ: مهرَجان، وكان مَجوسيًّا، فأسْلَمَ وتَصَوَّفَ، فَرَأَيتُ معه غلامًا جَميلًا لا يُفَارِقُهُ، وكان إذا جاءَ اللَّيل قَامَ فَصَلَّىٰ، ثُمَّ ينامُ إلَىٰ جَانِبِهِ، ثُمَّ يَقُومُ فَزِعًا، فيُصلِّي ما قُدِّرَ له، ثُمَّ يعودُ فينامُ إلَىٰ جانبِهِ حتَّىٰ فَعَلَ ذَلِكَ مِرَارًا، فإذَا أسفَرَ الصُّبحُ، أو كادَ يسفِرُ أوترَ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيه، وقال: اللَّهمَّ إنَّك تعلَمُ أنَّ اللَّيل قَدْ مَضَىٰ عَليَّ سَلِيمًا، فَلَمْ أقترفْ فيه فاحشةً، ولا كَتَبتْ عَليَّ الحَفَظَةُ فيه مَعصِيةً، وإنَّ الَّذي أُضْمِرُهُ بقَلبِي لو حَمَلَتْه الجبَالُ لتَصَدَّعَتْ، أو كَانَ بالأَرْضِ لتَدْكدَكَتْ، ثُمَّ يقولُ: يا ليلُ، اشْهَدْ بِمَا كانَ منِّي فيكَ، فقَدْ مَنَعَنِي خوفُ اللهِ عن طَلَبِ الحَرَامِ، والتَّعرُّضِ للآثَامِ، ثُمَّ يقولُ: سيِّدي، أنتَ تَجمَعُ بَينَنَا عَلَىٰ تقًى، فَلَا تُفرِّق بينَنَا يوم تَجْمَعُ فيه الأحبابَ، فأقمتُ معه مدَّةً طويلةً أراهُ يفعلُ ذلكَ فِي كلِّ ليلةٍ، وأسمَعُ هَذَا القولَ منه، فلمَّا هَمَمْتُ بالانصِرَافِ مِن عِندِهِ، قُلتُ: سمعتُكَ تقولُ: إذَا انقَضَىٰ اللَّيلُ كَذَا وكَذَا، فقالَ: وسَمِعتَنِي؟ قُلتُ: نعمْ. قال: فواللهِ، يا أخي، لا أُدَارِي مِن قَلْبِي، مَا لَوْ دَارَاه سُلطَانٌ من رعيَّته، لكانَ اللهُ حَقِيقًا بالمغفرةِ له، فقُلتُ: ومَا الَّذي يدعُوك

إِلَىٰ صُحبةِ من تَخَاف عَلَىٰ نفسِك العَنَتَ من قبلِهِ؟

وقال أبو مُحمَّد بن جعفر بن عبد الله الصُّوفيُّ: قال أبو حمزةَ الصُّوفيُّ: رأيتُ ببيتِ المقدسِ فتًىٰ من الصُّوفيَّةِ يصحبُ غُلَامًا مدَّةً طويلةً، فماتَ الفتىٰ، وطالَ حزنُ الغلامِ عَلَيه، حتَّىٰ صَارَ جِلْدًا وعَظْمًا من الضَّنَىٰ والكَمَدِ، فقلتُ له يَومًا: لقد طالَ حزنُك عَلَىٰ صديقِك حتَّىٰ أظنَّ أنَّك لا تسلُو بعدَه أبدًا.

فقالَ: كيفَ أسلُو عن رجلٍ أجَّل الله عَزَّوَجَلَّ أن يصيبَه معي طرفةَ عينٍ أبَدًا، وَصَانَنِي عن نَجَاسَةِ الفُسُوقِ فِي خلالِ صُحْبَتِي له وخَلوَاتِي معه فِي اللَّيلِ والنَّهار.

قال المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: هؤلاء قَوْمٌ رآهُم إبليسُ لا ينجذبُون معه إِلَىٰ الفَوَاحِشِ، فحسَّنَ لَهم بِدَايَاتِها، فتَعَجَّلُوا لذَّةَ النَّظر والصُّحبة والمُحَادَثةِ، وعَزَمُوا عَلَىٰ مُقَاوَمَةِ النَّفس فِي صدِّها عن الفَاحِشَةِ، فإن صَدَقُوا وتمَّ لَهم ذلك، فقدِ اشتَغَلَ القلبُ الَّذي ينبغِي أن يكونَ شغلُه باللهِ تعالىٰ لا بغيرِهِ، وصرف الزَّمان الَّذي ينبغي أن يخلوَ فيه القلبُ بِما ينفع به فِي الآخرة، بمُجاهدةِ الطَّبع فِي كفِّه عن الفَاحِشَةِ.

وهَذَا كلُّه جهلٌ وخروجٌ عن آدابِ الشَّرع، فإِنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أمرَ بغضِّ البصرِ؛ لِأنَّه طريقٌ إِلَىٰ القلبِ، لِيسلمَ القلبُ للهِ تَعَالىٰ من شَائِبٍ تَخَافُ منه، وما مثلُ هؤلاءِ إلَّا كمثلِ مَن أقبَلَ إِلَىٰ سباعٍ فِي غيضةٍ مُتَشَاغلةٍ عنه لا تَرَاهُ، فَأَثَارها وحَاربَها وقاومَها، فَيَا بُعْدَ سَلَامتِهِ مِن جراحةٍ، إن لَمْ يَهلك.

وفِي هؤلَاءِ مَن قَوِيَتْ مُجاهدتُهُ مدَّةً، ثُمَّ ضَعُفَتْ، فَدَعَتْهُ نفسُهُ إِلَىٰ الفَاحِشَةِ، فامتَنَعَ حينئذٍ من صُحبَةِ المُرْدِ.

أخبرتْنا شُهْدَةُ الكَاتبَة، عن عمر بن يوسفَ البَاقِلَّانِيِّ، قالَ: قالَ أبو حمزةَ: قُلتُ لِمحمَّد بن العلاءِ الدِّمشقيِّ، وكان سيِّد الصُّوفيَّة، وقد رأيتُهُ يُماشِي غُلَامًا وضيئًا مدَّةً، ثُمَّ

فَارَقَه، فقلتُ له: لِمَ هَجَرتَ ذلك الفَتَىٰ الَّذي كنتُ أراه معك بعدَ أن كنت له مُوَاصِلًا وإليه مَائِلًا؟ فقال: والله، لقد فَارَقْتُهُ عن غَيْرِ قِلًىٰ ولا مَلَلٍ.

قلتُ: ولِمَ فعَلْتَ ذلك؟ قال: رأيتُ قَلْبِي يدْعُونِي إِلَىٰ أَمْرٍ إذا خَلَوتَ بِهِ، وقرب مني، لو أَتَيتُهُ سَقَطتُ مِن عَينِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فهجرتُه لذلك تَنزِيهًا للهِ تَعَالَىٰ ولِنَفسِي من مَصَارِعِ الفِتَنِ.

ومنهم مَن تَابَ وأطَالَ البُكَاءَ مِن إطلاقِ نَظَرِهِ:

أخبرَنَا المحمَّدان (ابنُ ناصرٍ وابن عبد البَاقِي) بإسنادٍ عن مُحمَّد بن مُحمَّد بن عبيدِ اللهِ، قَالَ: سَمِعتُ أخِي أبَا عبدِ الله مُحمَّد بن مُحمَّد يقُولُ: سَمعتُ خيرًا النَّسَّاجَ يقولُ: كنتُ مع أميَّة بن الصَّامت الصُّوفيُّ؛ إذ نَظَرَ إِلَىٰ غلامٍ فقرأ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝﴾ [الحديد:٤].

ثُمَّ قال: وأين الفرارُ مِن سِجنِ اللهِ، وقد حصَّنَهُ بملائكةٍ غلاظٍ شدادٍ؟ تبارك اللهُ، فمَا أعظمَ مَا امتَحَنَنِي به من نَظَرِي إِلَىٰ هَذَا الغلامِ! مَا شبهت نظرِي إليه إلَّا بنارٍ وَقَعَتْ عَلَىٰ قصب فِي يوم ريحٍ، فَمَا أبقَتْ، ولا تَرَكَتْ.

ثُمَّ قالَ: أستغفِرُ اللهَ من بلاءٍ جَنَتْهُ عيناي عَلَىٰ قلبِي، لقد خِفتُ ألَّا أنجوَ مِن معرَّته، وألَّا أتخلَّصَ من إثمِهِ، ولو وَافَتْنِي القِيَامَةُ بعملِ سبعِين صدِّيقًا. ثُمَّ بَكَىٰ حتَّىٰ كادَ يقضِي نَحْبَه، فسَمِعْتُهُ يقولُ فِي بُكَائِهِ: يا طرفي، لأشغلنَّك بالبُكاءِ عنِ النَّظر إِلَىٰ البلاءِ.

ومنهم من تَلَاعَبَ به المَرَضُ من شدَّةِ المَحَبَّةِ:

أخبرتنا شُهدةُ الكاتبةُ بإسنادٍ: عن أَبِي حمزةَ الصُّوفيُّ قال: كان عبد الله بن موسىٰ من رُؤَسَاءِ الصُّوفيَّةِ ووُجُوهِهِم، فنَظَرَ إِلَىٰ غلامٍ حسنٍ فِي بعضِ الأسواقِ فبُلِيَ بِهِ، وكادَ يذهبُ عقلُهُ عليه صبابةً وحبًّا، وكان يقفُ كلَّ يومٍ فِي طريقِهِ حتَّىٰ يراه إذا أقبلَ، وإذا انصرفَ، فطَالَ به البلاءُ، وأقعدَهُ عن الحركةِ الضَّنَىٰ، وكان لا يقدرُ أن يَمشيَ خطوةً.

فَأتيتُهُ يومًا لِأعودَه، فقُلتُ: يَا أبَا مُحمَّدٍ، ما قصَّتُكَ؟ وما هَذَا الأمرُ الَّذي بَلَغَ بِكَ مَا أرَىٰ؟ فقال: أمورٌ امتَحَنَنِي الله بِها، فلم أصبرْ عَلَىٰ البلاءِ فيهَا، ولَمْ يكنْ لي بِها طاقةٌ، ورُبَّ ذنبٍ يستصغرُهُ الإنسان هو عندَ اللهِ أعظمُ من كبيرٍ، وحقيقٌ بمَن تعرَّض للنَّظر الحرامِ أن تطولَ به الأسقامُ. ثُمَّ بَكَىٰ.

قلتُ: ما يبكِيكَ؟ قال: أخافُ أن يطولَ فِي النَّار شقَائِي. فانصَرَفت عنه، وأنا راحمٌ له؛ لما رأيتُ به من سوءِ الحالِ.

قال أبو حمزة: ونَظَر مُحمَّد بن عبد الله بن الأشعثِ الدِّمشقيُّ، وكان من خيارِ عبادِ اللهِ، إلَىٰ غلامٍ جميلٍ، فغشيَ عليه، فحُمِلَ إلَىٰ منْزِلِهِ، واعتاده السَّقَمُ، حتَّىٰ أقْعَدَه مِنْ رِجْلَيْهِ، وكان لا يقومُ عليهِمَا زَمَانًا طَوِيلًا، فكنَّا نَأتِيهِ نعودُهُ ونسألُهُ عن حالِهِ وأمرِهِ، وكانَ لا يخبرُنا بقصَّتِهِ، ولا بسببِ مرضِهِ، وكان النَّاس يتحدَّثون بِحَدِيثِ نَظَرِهِ، فبلَغَ ذلك الغلامُ، فَأتَاهُ عائِدًا، فَهَشَّ إليه، وتحرَّك وضَحِكَ فِي وَجْهِهِ، واستَبْشَرَ برؤيتِهِ، فما زالَ يعودُهُ حتَّىٰ قامَ عَلَىٰ رجلَيهِ، وعادَ إلَىٰ حالتِهِ.

فسألَهُ الغلامُ يومًا أن يسيرَ معه إلَىٰ منْزِلِهِ، فأبَىٰ أن يفعلَ ذلك، فسألَنِي أن أسألَه أن يتحوَّلَ إليه، فسَألْتُهُ، فأبَىٰ أن يفعَلَ، فقلتُ للشَّيخِ: وما الَّذي تكره من ذلك؟ فقال: لستُ بِمعصومٍ من البلاءِ، ولا آمنُ مِنَ الفتنةِ، وأخافُ أن يقعَ عليَّ مِنَ الشَّيطانِ مِحْنَةٌ، فتَجرِي بينِي وبينَه معصيةٌ، فأكونَ من الخَاسِرينَ.

وفيهم من همَّتْ نفسُهُ إلَىٰ الفاحشةِ فقَتَلَ نفسَهُ:

حدَّثنِي أبو عبدِ الله الحسينُ بن مُحمَّد الدَّامغانِيُّ، قال: كان ببلادِ فارس صوفيٌّ كبيرٌ، فابْتُلِيَ بِحَدَثٍ، فلم يَمْلِكْ نفسَهُ أن دَعَتْهُ إلَىٰ فاحِشَةٍ، فَرَاقَبَ الله عَزَّوَجَلَّ ثُمَّ نَدِمَ عَلَىٰ هَذِهِ الهِمَّة، وكان منْزِلُهُ عَلَىٰ مكانٍ عالٍ، ووراء منْزِلِهِ بَحْرٌ من الماء، فلَمَّا أخَذَتْهُ النَّدامة، صَعَدَ

السَّطْحَ، ورمىٰ إلىٰ الماء، وتلا قوله تعالىٰ: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة:٥٤]، فَغَرَقَ فِي البَحْرِ.

قال المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: انظرْ إلَىٰ إبليسَ؛ كيفَ دَرَجَ هَذَا المسكينُ من رؤيةِ هَذَا الأمردِ، وإلىٰ إدمانِ النَّظرِ إليه، إلَىٰ أن مكَّن المحبَّة من قلبِهِ، إلَىٰ أن حرَّضه عَلَىٰ الفاحشةِ، فلمَّا رأىٰ استعصامَهُ، حسَّنَ له بالجهلِ قتلَ نفسِهِ، فقَتَلَ نفسَه، ولعلَّه هَمَّ بالفَاحِشَةِ، ولَمْ يَعْزِمْ، والهِمَّةُ مَعْفُوٌّ عنها؛ لقولِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «عُفِيَ لِأُمَّتِي عمَّا حَدَّثَتْ بِهِ نُفُوسُهَا»(١).

ثُمَّ إنَّه نَدِمَ عَلَىٰ همَّتِهِ، والنَّدمُ توبةٌ، فأراه إبليسُ أنَّ مِن تَمامِ النَّدمِ قتلَ نفسِهِ، كما فعلَ بنو إسرائيلَ، فأولئكَ أُمِرُوا بذلك بقولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]، ونحن نُهِينَا عنه بقولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء:٢٩]، فَلَقَدْ أتىٰ بكبيرةٍ عظيمةٍ.

وفِي «الصَّحيحين» عنِ النَّبيِّ ﷺ، أنَّه قَالَ: «مَنْ تَرَدَّىٰ مِنْ جَبَلٍ، فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَهُوَ يَتَرَدَّىٰ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، خَالِدًا مُخلَّدًا فِيهَا أَبَدًا»(٢).

فصل [الفتنة بالمحبة]

وفيهم من فُرِّقَ بينه وبينَ حَبيبِهِ، فقَتَلَ حَبيبَهُ.

بَلَغَنِي عن بعضِ الصُّوفيَّة: أنَّه كانَ مِن رِباطٍ عندَنَا بِبَغْدَادَ، ومعه صبيٌّ فِي البيتِ الَّذي هو فيه، فشنَّعُوا عليه، وفرَّقُوا بينهما، فدخلَ الصُّوفيُّ إلَىٰ الصَّبيِّ، ومعه سِكِّينٌ فقتَلَهُ، وجلسَ عنده يَبكِي، فجاءَ أهلُ الرِّباطِ، فَرَأَوه، فسَأَلُوهُ عن الحالِ، فَأَقَرَّ بقتلِ الصَّبيِّ، فرفعُوهُ إلَىٰ صاحبِ الشُّرطةِ فَأَقَرَّ، فجاءَ والدُ الصَّبيِّ يبكِي، فجلس الصُّوفيُّ يبكِي ويقولُ له: باللهِ عليك، إلَّا مَا أَقَدْتَنِي به. فقال: الآنَ قد عَفَوْتُ عنك. فقام الصُّوفيُّ إلَىٰ قبرِ الصَّبيِّ، فَجَعَلَ يبكِي

(١) أخرجه البخاري (٥٢٦٩)، ومسلم (١٢٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٧٨)، ومسلم (١٠٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عليهِ، ثُمَّ لَمْ يَزَلْ يَحُجُّ عَنِ الصَّبيِّ ويُهْدِي له الثَّوابَ.

وَمِن هؤلاءِ من قارَبَ الفِتنةَ، فَوَقَعَ فيها، ولَمْ تَنفَعْه دعوَىٰ الصَّبرِ والمُجَاهَدَةِ، والحديثُ بإسنادٍ: عن إدريسَ بن إدريس، قال: حَضَرْتُ بِمصرَ قَومًا مِنَ الصُّوفيَّة، ولَهم غلامٌ أمردُ يغنِّيهم، قالَ: فغَلَبَ عَلَىٰ رجلٍ منهم أمرُهُ، فلم يَدرِ ما يصنَعُ، فقالَ: يا هَذَا، قلْ: لا إلهَ إلَّا اللهُ. فقالَ الغلامُ: لَا إلهَ إلَّا اللهُ، فقالَ: أُقَبِّلُ الفَمَ الَّذِي قالَ: لَا إلهَ إلَّا اللهُ.

القسم السَّادس: قومٌ لَمْ يَقصِدُوا صحبَةَ المردَانِ، وإنَّما يتوبُ الصبِيُّ، ويتزهَّدُ ويصحبُهم عَلَىٰ طريق الإرادةِ، فلبَّسَ إبليسُ عليهِم، ويقولُ: لا تَمنعُوه من الخيرِ. ثُمَّ يتكرَّر نظرُهم إليه؛ لا عن قصدٍ، فيُثِيرُ فِي القلبِ الفتنةَ، إِلَىٰ أن ينالَ الشَّيطانُ منهم قَدْرَ ما يُمكِنُهُ، وربَّما وَثِقُوا بدينِهم، فاستفزَّهُمُ الشَّيطان، فرَمَاهُم إِلَىٰ أقصَىٰ المعاصِي، كما فَعَلَ بِبَرْصِيصَا.

قال المصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: وقد ذَكَرْنَا قصَّته فِي أوَّل الكتابِ، وغلطهم من جهة تعرُّضهم بالفِتَنِ، وصحبة من لا تُؤْمَنُ الفتنةُ فِي صحبتِهِ.

القسم السَّابع: قومٌ علموا أنَّ صحبةَ المردَانِ، والنَّظر إليهم لا يَجوزُ، غيرَ أنَّهم لَمْ يصبروا عن ذلك.

والحديثُ بإسنادٍ عن الرَّازيِّ، يقولُ: قال يوسفُ بن الحسين: كلُّ ما رأيتُمُونِي أفعلُهُ، فافعلُوه، إلَّا صحبةَ الأحداثِ؛ فَإِنَّها أفتنُ الفتنِ، ولقد عاهدتُ ربِّي أكثرَ مِن مائةِ مرَّةٍ، ألا أصْحَبَ حَدَثًا. فَفَسَخَها عَلَىٰ حُسْنِ الخُدُودِ، وقوامِ القُدُودِ، وغنجِ العيُون، وما سَأَلَنِي اللهُ معهم من معصيةٍ، وأنشَدَ صريعُ الغَوَانِي فِي معنَىٰ ذلك شِعرًا:

إنَّ وَرْدَ الخُـــدُودِ والحَـــدَقَ النُّجْـــلَ، وَمَـا فِـي الثُّغُـورِ مِـنْ أُقحُـوَانِ
وَاعْوِجَـاجَ الأَصْـدَاغِ فِي ظَـاهِرِ الخَـدِّ وَمَـا فِـي الـصُّدُورِ مِـنْ رُمَّـانِ
تَرَكَتْنِـي بَـيْنَ الغَوَانِـي صَرِيعًـا فَلِهَـذَا أُدْعَـى: صَرِيـعَ الغَوَانِـي

قال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قلتُ: هَذَا الرَّجلُ قد فَضَحَ نفسَه فِي شيءٍ سَتَرَهُ الله عليه، وأخبَرَ أنَّه كلَّما رأىٰ فتنةً، نقضَ التَّوبةَ، فأين عزائمُ التَّصوُّف فِي حملِ النَّفس عَلَىٰ المشاقِّ؟ ثُمَّ ظنَّ بجهلِهِ أنَّ المعصيةَ هي الفَاحشةُ فقط، وَلَو كَانَ له علمٌ لَعَلِمَ أنَّ صُحبَتَهم، والنَّظرَ إليهم معصيةٌ، فانظرْ إلَىٰ الجهلِ؛ كيف يصنعُ بأربابِهِ؟!

والحديثُ بإسنادٍ: عن مُحمَّد بن عمرَ، أنَّه قال: حُكِيَ لي عن أبِي مسلمٍ الخشوعيِّ، أنَّه نَظَرَ إلَىٰ غلامٍ جميلٍ فأطالَ، ثُمَّ قال: سبحانَ الله! ما أهجم طرفِي عن مكروه نفسه! وأدمنه عَلَىٰ سخطِ سيِّده! وأغراه بِما قد نُهِيَ عنه! وأبهجَه بالأمر الَّذي قد حُذِّر عنه! لقد نظرتُ إلَىٰ هَذَا نظرًا لا أحسَبُ إلَّا أنَّه سيفضحُنِي عند جميعِ مَن عَرَفَنِي فِي عرصاتِ القِيامةِ، ولقد تَرَكَنِي نظري هَذَا، وأنا أستحيِي مِنَ الله تعالىٰ، وإن غُفِرَ لي. ثُمَّ صُعِقَ.

وبإسنادٍ: عن أبِي بكرٍ مُحمَّد بن عبدٍ، يقولُ: سمعتُ أبَا الحسين النُّوريَّ، يقُولُ: رأيتُ غُلَامًا جَمِيلًا ببغدادَ، فَنَظَرْتُ إليه، ثُمَّ أردتُ أن أُردِّدَ النَّظر، فقلتُ له: تلبسُونَ النِّعال الصَّرَّارة، وتَمشُون فِي الطُّرُقات؟ فقال: أحسنتَ الحشر بالعلمِ.

وكلُّ من فَاتَه العلمُ تَخبَّطَ، فإن حَصَلَ له وفاتَهُ العَمَلُ به، كان أشدَّ تَخبيطًا، ومن استعمَل أدبَ الشَّرعِ فِي قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور:٣٠]، سَلِمَ فِي البدايةِ بِما صعُبَ أمرُهُ فِي النِّهاية.

وقد ورد الشَّرع بالنَّهي عن مُجالسة المُردانِ، وأوصَىٰ العلماءُ بذلك.

والحديثُ بإسنادِهِ: عن أنسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُجَالِسُوا أبنَاءَ المُلُوكِ؛ فَإِنَّ النُّفُوسَ تَشْتَاقُ إِلَيْهِم، مَا لا تَشْتَاقُ إِلَىٰ الجَوَارِي العَوَاتِقِ»[1].

والحديث بإسنادِهِ: عنِ الأعمشِ، عن أبِي صالحٍ، عن أبِي هُريرةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن

---

(١) ذكره ابن الجوزي فِي «العلل المتناهية» (٢/ ٧٧٠).

رسول الله ﷺ قال: «لَا تَمْلَأُوا أَعْيُنَكُم مِنْ أَوْلَادِ المُلُوكِ، فإنَّ لَهُم فِتْنَةً أَشَدَّ مِنْ فِتْنَةِ العَذَارَىٰ»[(١)].

والحديث بإسنادٍ عن الشَّعبيِّ، قالَ: قَدِمَ وفدُ عبدِ القَيسِ عَلَىٰ رسول الله ﷺ وفيهُم غُلَامٌ أمردُ ظاهرُ الوضاءةِ، فأجلسَه النَّبِيُّ -عليه الصلاة والسلام- وراءَ ظهرِهِ، وقالَ: «كانَتْ خَطِيئةُ دَاودَ عليه السلام النَّظَرَ»[(٢)].

وعن أبِي هريرة قال: «نَهَىٰ رسول الله ﷺ أن يُحِدَّ الرَّجُلُ النَّظَرَ إلَىٰ الغلامِ الأَمْرَدِ»[(٣)].

وقال عمرُ بن الخطَّاب: «مَا أَتَىٰ عَلَىٰ عالمٍ مِنْ سَبُعٍ ضَارٍ، أخوفُ عليه من غلامٍ أمردَ».

وبإسنادٍ: عن الحسنِ بن ذكوانَ، أنَّه قَالَ: لا تُجَالِسُوا أَوْلادَ الأَغْنِيَاءِ؛ فَإِنَّ لَهم صُوَرًا كَصُوَرِ النِّسَاءِ، وهم أَشَدُّ فِتْنَةً مِنَ العَذَارَىٰ.

وبإسنادٍ: عن مُحمَّد بن حُميرٍ، عنِ النَّجيبِ الصَّريِّ، قال: كانَ يُقالُ: لا يبيتُ الرَّجلُ فِي بيتٍ مع المُردِ.

وبإسنادٍ: عن عبد العزيز بن أبِي السَّائب، عن أبيه قالَ: لَأَنَا أخوفُ عَلَىٰ عابدٍ من غلامٍ من سبعينَ عَذرَاء.

وعن أبِي عليٍّ الرُّوذبَارِيِّ قال: سمعتُ جُنَيْدًا يقولُ: جاء رجلٌ إلَىٰ أحمد بن حنبلٍ، ومعه غلامٌ حَسَنُ الوجهِ، فقال له: مَنْ هذا؟ قال: ابنِي. فقال أحمدُ: لا تَجِئْ به مَعَكَ مَرَّةً أخرىٰ.

فلمَّا قامَ قالَ له مُحمَّدُ بنُ عبدِ الرَّحمن الحافظُ، وفِي رواية الخطيب: فقيلَ له: أَيَّدَ اللهُ

(١) ذكره ابن الجوزي فِي «العلل المتناهية» (٢/ ٧٧٠).

(٢) «الفوائد المجموعة»، وقال الألبانِي فِي «الضعيفة» (٣١٣): موضوع.

(٣) انظر: «السنن الكبرىٰ» للبيهقي (٧/ ٩٩)، و«لسان الميزان» (٦/ ٢١٣).

الشَّيْخَ: إنَّه رجلٌ مستورٌ وابنُهُ أفضلُ منه. فقال أحمد: الَّذي قَصَدْنَا إليه من هَذَا البابِ ليسَ يَمنعُ منه سترهما، عَلَىٰ هَذَا رأينَا أشياخَنا، وبه أخبرُونا عن أسلافِهم.

وبإسنادٍ: عن أبي بكر المروزيِّ قال: جاء حسنٌ البزَّازُ إلَىٰ أحمد بن حنبلٍ، ومعه غلامٌ حَسَنُ الوجه، فتحدَّث معه، فلمَّا أراد أن ينصرفَ، قال له أبو عبد الله: يا أبا عليٍّ، لا تَمشِ مع هَذَا الغلامِ فِي طريقٍ. فقال له: إنَّه ابن أختِي. قال: وإن كانَ، لا يَهلك النَّاس فيك.

وبإسنادٍ: عن شجاع بن مخلدٍ؛ أنَّه سَمِعَ بشرَ بن الحارثِ يقولُ: احذرُوا هؤلاءِ الأحداثِ.

وبإسنادٍ: عن فتحِ الموصليِّ، أنَّه قالَ: صَحِبْتُ ثَلَاثِينَ شَيخًا كانُوا يُعدُّون من الأبدالِ، كلُّهم أوصَونِي عندَ فِراقِي لَهم: اتَّقِ مُعَاشَرَةَ الأحداثِ.

وبإسنادٍ: عن الحلبيِّ، أنَّه قالَ: نَظَرَ سَلَّامٌ الأَسْوَدُ إلَىٰ رجلٍ ينظُرُ إلَىٰ حَدَثٍ، فقال له: يا هَذَا، أبْقِ عَلَىٰ جاهِكَ عندَ اللهِ؛ فإنَّك لا تزالُ ذا جاهٍ ما دُمتَ له مُعَظِّمًا.

وبإسنادٍ: عن أبِي منصور عبد القادرِ بن طاهرٍ يقولُ: من صَحِبَ الأحداثَ، وَقَعَ فِي الأحداث.

وعن أبِي عبد الرَّحمنِ السُّلميِّ قال: قال مظفَّر القرميسينيُّ: مَن صَحِبَ الأحداثَ عَلَىٰ شرطِ السَّلامةِ والنَّصيحةِ، أدَّاه ذلك إلَىٰ البلاءِ، فكيفَ بِمَن يصحبُهُم عَلَىٰ غير وجه السَّلامة؟!

وقد كان السَّلَفُ يبالِغُون فِي الإعراضِ عن المُرْدِ.

وقد روينَا عن رسول الله ﷺ أنَّه أجلسَ الشَّابَّ الحسنَ الوجه وراءَ ظهرِهِ، والحديثُ بإسنادٍ: عن عطاءِ بن مسلمٍ قال: كان سفيانُ لا يدعُ أمردَ يُجالسُهُ.

ورَوَىٰ إبراهيمُ بن هانئٍ، عن يَحيَىٰ بن معينٍ، قال: ما طمِعَ أَمْرَدُ بصُحبتِي، ولأحمد بن

حنبل قال: فِي طريقٍ.

وبإسنادٍ: عن أَبِي يعقوبَ قال: كنَّا مع أَبِي نصر بن الحارثِ، فوَقَفَتْ عليه جاريةٌ، ما رأينَا أحسَنَ منها، فقالتْ: يا شيخُ، أين مكان بابِ حربٍ؟ فقال لَهَا: هَذَا البابُ الَّذي يُقالُ له: بابُ حربٍ.

ثُمَّ جاء بعدَهَا غلامٌ، ما رأينا أحسنَ منهُ، فسَأَلَهُ فقالَ: يا شيخُ، أين مكانُ باب حربٍ؟ فأطرَقَ الشَّيخُ رأسَهُ، فردَّ عليه الغلامُ السُّؤالَ، وغمَّضَ عَيْنَيْهِ، فقُلنَا للغلامِ: تعال، إيش تريدُ؟ فقال: باب حربٍ. فقُلنَا له: هَا هو بين يديكَ.

فلمَّا غَابَ قُلنَا للشَّيخِ: يَا أَبَا نصرٍ، جَاءَتْكَ جاريةٌ، فأجَبتَهَا وكلَّمتَهَا، وَجَاءَكَ غلامٌ فلم تكلِّمْه؟! فقال: نعمْ، يُروَىٰ عن سفيانِ الثَّوريِّ: أنَّه قالَ: مع الجاريةِ شيطانٌ، ومع الغلامِ شيطانان، فخشيتُ عَلَىٰ نفسِي من شيطانيه.

وبإسناد: عن عبد الله بن المباركِ يقولُ: دخل سفيانُ الثَّوريُّ الحمَّامَ، فدخل عليه غلامٌ صبيحٌ، فقال: أخرجُوه، أخرجُوه، فإنِّي أرىٰ مع كلِّ امرأةٍ شَيْطَانًا، ومع كلِّ غلامٍ بضعةُ عشرَ شَيطَانًا.

وبإسنادٍ: عن مُحمَّد بن أحمد بن أَبِي القاسمِ قالَ: دخلْنا عَلَىٰ مُحمَّد بن الحسينِ صاحبِ يَحيَىٰ بن معينٍ، وكان يُقالُ: إنَّه مَا رَفَعَ رأسَه إِلَىٰ السَّماءِ منذ أربعِينَ سنةً، وكان مَعَنا غلامٌ حَدَثٌ فِي المجلسِ بين يديه، فقالَ له: قُمْ من حِذَائِي. فَأَجلَسَه من خلفِهِ.

وبإسنادٍ: عن أَبِي أمامةَ، قال: وكنَّا عند شيخٍ يُقرئُ، فبَقِيَ عنده غلامٌ يقرأُ عليه، فَأَرَدْتُ الانصرافَ، فَأَخَذَ بثَوْبِي وقال: اصبرْ حتَّىٰ يفرغَ هَذَا الغلامُ. وكَرِهَ أن يخلوَ مع هَذَا الغلامِ.

وبإسنادٍ: عن أَبِي علي الرُّوذبَاريِّ قالَ: قال لي أبو العبَّاس أحمد المؤدِّب: يا أبا عليٍّ، مِن أينَ أَخَذَ صوفيَّة عصرِنَا هَذَا الأُنسَ بالأحداثِ؟ فقُلتُ له: يا سيِّدي، أنتَ بِهم أعرفُ،

وقد تصحبُهُم السَّلامةُ إِلَىٰ كثيرٍ من الأمورِ. فقال: هيهاتَ، قد رَأينا من كان أقوَىٰ إيْمانًا منهم، إذا رأىٰ الحدثَ قد أقبلَ، فرَّ كفِرَاره من الزَّحفِ، وإنَّما ذلك حسب الأوقات الَّتي تغلب الأحوال عَلَىٰ أهلها، فتأخذها عن تصرُّفِ الطِّباع، ما أكثَرَ الخطر! ما أكثر الغلط!

وصُحبةُ الأحداثِ أقوىٰ حبائلِ إبليسَ، الَّتي يصيدُ بِها الصُّوفيَّة.

أخبرنا ابن ناصرٍ عن أبِي عبد الرَّحمن السُّلميّ قال: سمعتُ أبا بكرِ الرَّازيَّ، يقولُ: قال يوسف بن الحسينِ: نظرتُ فِي آفات الخلق، فعرفت من أين أتوا؟ ورأيتُ آفةَ الصُّوفيَّة فِي صحبةِ الأحداثِ، ومعاشرةِ الأضدادِ، وإرفاق النِّسوانِ.

وبإسنادٍ: عن أبِي الفرجِ الرُّستميّ الصُّوفيِّ، يقولُ: رأيتُ إبليسَ فِي النَّوم، فقلتُ له: كيفَ رأيتَنَا أعرضْنَا عنِ الدُّنيا ولذَّاتِها وأموالِها، فليسَ لكَ إلينَا طريقٌ؟ فقال: كيف رأيتَ ما اشتَمَلَتْ به قلوبُكُم باستماعِ الغِنَاءِ، ومعاشرةِ الأحداثِ؟

وبإسنادٍ: عن أبِي سعيدٍ الخرَّازِ يقُولُ: رأيتُ إبليسَ فِي النَّوم يمرُّغُنِي ناحيةً، فقُلتُ: تعال، فقال: إيش أعملُ بكُم؟ أنتُم طَرَحْتُم عن نفوسِكم، ما أخادعُ به النَّاسَ. قلتُ: ما هو؟ قال: الدُّنيا، فلمَّا وَلَّىٰ، الْتفَتَ إليَّ فقال: غير أنَّ فيكم لطيفةً، قلتُ: وما هي؟ قال: صحبةُ الأحداثِ. قال أبو سعيدٍ: وقلَّ من يتخلَّص منها مِنَ الصُّوفيَّة.

عن أبِي عبدِ اللهِ بن الجلاءِ قالَ: كنتُ أنظُرُ إِلَىٰ غلامٍ نصرانِيٍّ حسنِ الوجهِ، فمَرَّ بِي أبو عبد الله البلخيُّ، فقال: إيش وقوفُك؟ فقلت: يا عم، أما ترىٰ هَٰذِهِ الصُّورةَ كيف تعذَّب بالنَّار؟

فضربَ بيدِهِ بين كتفي، وقال: لتَجِدَنَّ غبَّها ولو بعد حينٍ. قال: فَوَجَدتُ غبَّها بعد أربعينَ سنةً، أن أُنسِيتُ القرآنَ.

وبإسنادٍ: عن أبِي الأذان وقال: كنتُ مع أستاذِي أبِي بكر الزَّقاق، فمرَّ حدثٌ فنظرتُ

إليه فَرَآنِي أستاذِي، وأنَا أنظرُ إليه، فقال: يا بنيّ، لتجدنَّ غبَّه ولو بعد حينٍ، فبقيتُ عشرين سنةً، وأنا أُرَاعي، فَمَا أجدُ ذلك الغبَّ، فنمتُ ذاتَ ليلةٍ، وأنا مفكِّرٌ فيه، فأصبحتُ وقد أُنسيتُ القرآنَ كلَّه.

وعن أبِي بكرٍ الكتانِيِّ، قال: رأيتُ بعضَ أصحابِنا فِي المنامِ فقُلتُ: ما فَعَلَ اللهُ بك؟ قال: عَرضَ عَلَيَّ سيِّئاتِي، وقالَ: فعلتَ كذا وكذا. فقلتُ: نعمْ، ثُمَّ قال: وفعلتَ كذا وكذا. فاستحيَيْتُ أن أُقرَّه، فقُلتُ: إنِّي أستحيِي أن أُقِرَّ. فقال: إنِّي غفرتُ لك بِما أقررتَ، فكيفَ بِما استَحْيَيْتَ؟ فقلتُ له: ما كان ذلك الذَّنب؟ فقال: مرَّ بِي غلامٌ حسنُ الوجهِ، فنَظَرْتُ إليه.

وقد رُوِيَ نحوُ هَذِهِ الحكاية: عَن أبِي عبد الله الزَّرَّاد، أنَّه رُؤِيَ فِي المنامِ، فقِيلَ له: ما فَعَلَ اللهُ بك؟ قال: غَفَرَ لي كلَّ ذنبٍ أقرَرْتُ به فِي الدُّنيا، إلَّا واحدًا، فاستحيَيْتُ أن أقرَّ به. فوَقَفَنِي فِي العرقِ حتَّىٰ سَقَطَ لحمُ وَجْهِي، فقيلَ له: ما الذَّنبُ؟ فقال: نظرتُ إلَىٰ شخصٍ جميلٍ.

وقد بلغنَا عن أبِي يعقوبَ الطَّبريِّ، أنَّه قالَ: كان معي شابٌّ حَسَنُ الوجه يخدمُنِي، فجاءَنِي إنسانٌ من بغداد صوفيٌّ، فكان كثيرَ الالتِفَات إلَىٰ ذلك الشَّابِّ، فكنتُ أجدُ عليه لذلك، فنمتُ ليلةً من اللَّيالي، فَرَأيتُ ربَّ العزَّة في المنامِ، فقال: يا أبا يعقوبَ، لِمَ لَمْ تنهَهُ - وأشارَ إلَىٰ البغداديِّ- عن النَّظرِ إلَىٰ الأحداثِ، فوعزَّتِي إنِّي لا أُشغِلُ بالأحداثِ إلَّا من بَاعَدْتُهُ عن قُربِي.

قال أبو يعقوبَ: فانتبهتُ، وأنا أضطربُ، فحكيتُ الرُّؤيا للبغداديِّ، فصاح صيحةً وماتَ، فغسَّلناه ودَفَنَّاه، واشتغَلَ عليه قلبِي، فَرَأيتُهُ بعد شهرٍ فِي النَّوم، فقُلتُ له: ما فعلَ اللهُ بكَ؟ قال: وبَّخنِي حتَّىٰ خِفتُ ألَّا أنجوَ، ثُمَّ عفا عنِّي.

قلتُ: إنَّما مددتُ النَّفَسَ يسيرًا فِي هَذَا البابِ؛ لأنَّه مِمَّا تعمُّ به البَلوَىٰ عند الأكثرِين،

فَمَن أَرادَ الزِّيادَةَ فيه، وفيما يتعلَّقُ بإطلاقِ البَصَرِ وجميع أسبابِ الهوىٰ، فلينظرْ فِي كتابِنَا المسمَّىٰ بـ«ذمِّ الهَوَىٰ»؛ ففيه غايةُ المرادِ مِن جميع ذلك.

ذكر تلبيسُ إبليس عَلَىٰ الصُّوفيَّة فِي ادِّعاء التَّوكُّل، وقطع الأسبابِ، وترك الاحترازِ فِي الأموالِ:

أخبرنا المحمَّدان (ابنُ ناصرٍ وابن عبدِ الباقِي) بإسنادٍ: عن أحمدَ بنِ أبِي الحواريِّ، قال: سمعتُ أبا سليمانَ الدَّارَانِيَّ يقول: لو توكَّلْنَا عَلَىٰ اللهِ تَعَالىٰ، ما بَنَيْنَا الحيطَانَ، ولا جَعَلْنَا لِبَابِ الدَّار غلقًا مَخافَةَ اللُّصوص.

وبإسنادٍ: عن ذي النُّون المصريِّ، أنَّه قالَ: سافرتُ سنينَ، وما صحَّ لي التَّوكُّل إلَّا وقتًا واحدًا، ركبتُ البحرَ، فَكُسِرَ المركبُ، فتَعَلَّقتُ بخشبةٍ مِن خشبِ المركبِ، فقالتْ لي نفسِي: إنْ حَكَمَ اللهُ عليك بالغَرَقِ، فمَا تَنفعُكَ هَذِهِ الخشبةُ؟ فخلَّيْتُ الخشبةَ، فطُفْتُ عَلَىٰ الماءِ، فَوَقَعَتُ عَلَىٰ السَّاحلِ.

أخبرنا مُحمَّدٌ، قال: سألتُ أبا يعقوبِ الزَّيَّات عن مسألةٍ فِي التَّوكُّل: فأخرج دِرهَمًا كان عنده، ثُمَّ أجابَنِي، فأعطَىٰ التَّوكُّل حقَّه، ثُمَّ قال: استحيَيْتُ أن أُجيبَكَ، وعندِي شيءٌ.

وذكر أبو نصرٍ السَّرَّاجُ فِي كتابِ «اللُّمَعِ»، قال: جاءَ رجلٌ إِلَىٰ عبد الله بن الجلاءِ، فَسَأَلَه عن مسألةٍ فِي التَّوكُّل، وعنده جَماعتُهُ، فلم يُجِبْهُ، ودَخَلَ البيتَ، فأخرجَ إليهم صرَّةً، فيها أربعةُ دَوَانِقَ، فقال: اشترُوا بِهَذِهِ شيئًا. ثُمَّ أجابَ الرَّجُلُ عن سؤالِهِ، فقيلَ له فِي ذلك، فقال: استحيَيْتُ من اللهِ تَعَالَىٰ أن أتكلَّم فِي التَّوكُّلِ وعندي أربعةُ دوانِقَ.

وقال سهلُ بن عبد الله: مَن طَعَنَ فِي الاكتسابِ، فقد طَعَنَ عَلَىٰ السُّنَّةِ، ومَنْ طَعَنَ عَلَىٰ التَّوكُّلِ، فقد طعَنَ عَلَىٰ الإيمانِ.

قال المصنِّفُ: قُلْتُ: قلَّةُ العلمِ أوجَبَتْ هَذَا التَّخلِيطَ، ولَو عَرَفُوا ماهيَّة التَّوكُّل، لعَلِمُوا

أنَّه ليسَ بينَه وبينَ الأسبابِ تَضادٌ، وذلك أنَّ التَّوكُّلَ اعتمادُ القلبِ عَلَىٰ الوكيلِ وحدَهُ، وذلك لا يناقضُ حركةَ البَدَنِ فِي التَّعلُّق بالأسبابِ، ولا ادِّخارِ المالِ؛ فقد قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا﴾ [النساء:٥]، أي: قوامًا لأبدانِكم.

وقال ﷺ: «**نِعْمَ المَالُ الصَّالِحُ مَعَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ**»(١).

وقال ﷺ: «**إنَّك إنْ تَدَعَ ورثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَدَعَهُم عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ**»(٢).

واعلمْ أنَّ الَّذي أَمَرَ بالتَّوكُّلِ، أَمَرَ بأخذِ الحَذَرِ، فقَالَ: ﴿خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ [النساء:٧١]، وقال: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ [الأنفال:٦٠]، وقال: ﴿فَأَسۡرِ بِعِبَادِي لَيۡلًا﴾ [الدخان:٢٣].

وقد ظَاهَرَ رسول الله ﷺ بين دِرعَينِ(٣)، وَشَاوَرَ طَبِيبَين، واختَفَىٰ فِي الغارِ، وقال: من يحرسُنِي اللَّيلةَ(٤)؟ وأمر بغلقِ الباب.

وفِي «الصَّحيحين»: من حديثِ جابرٍ: أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «**أَغْلِقْ بَابَكَ**»(٥). وقد أخبَرْنا أنَّ التَّوكُّلَ لا يُنَافِي الاحتِرَازِ.

أخبرنا إسماعيلُ بن أحمد السَّمرقنديُّ، نا عبد الله بن يَحيَىٰ الموصليُّ، ونصر بن أحمد، قالا: أخبرنا أبو الحسين بن بشرانَ، ثنا الحسين بن صفوانَ، ثنا أبو بكر القرشيُّ، ثنِي أبو حفصٍ الصَّيرفيُّ، ثنا يَحيَىٰ بن سعيدٍ، ثنا المغيرة بن أبِي قُرَّةَ السَّدوسيِّ، قال: سمعتُ

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري (١٢٩٥)، ومسلم (١٦٢٨) من حديث سعد رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أبو داود (٢٥٩٠)، وابن ماجه (٢٨٠٦) من حدث السائب بن يزيد رضي الله عنه وصححه الألباني فِي «صحيح أبِي داود» (٢٢٥٧).

(٤) أخرجه أبو داود (٢٥٠١) من حديث سهل بن الحنظلية رضي الله عنه وصححه الألبانِي فِي «صحيح أبِي داود» (٢١٨٣) وانظر البخاري (٢٨٨٥) ومسلم (٢٤١٠).

(٥) أخرجه البخاري (٣٢٨٠)، ومسلم (٢٠١٢).

أنسَ بن مالكٍ رضي الله عنه يقول: جاء رجلٌ إلَىٰ النَّبيِّ ﷺ وتَرَكَ ناقته بباب المسجدِ، فَسَأَلَهُ رسول الله ﷺ عنها، فقَالَ: أَطْلَقْتُهَا، وَتَوَكَّلتُ عَلَىٰ اللهِ. قال: «اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ»[١].

أخبرنا ابن ناصرٍ، نا أبو الحسين بن عبد الجبَّار، نا عبد العزيز بن علي الأزجيُّ، نا إبراهيم بن مُحمَّد بن جعفر، نا أبو بكر عبد العزيز بن جعفر، ثنا أبو بكرٍ الخلَّالُ، أخبرني حرب بن إسماعيل الكرمانِيُّ، ثنِي عبد الرَّحمن بن مُحمَّد بن سلامٍ، ثنا الحسين بن زياد المَرْوَزِيُّ، قال سَمِعتُ سفيانَ بن عُيَيْنَةَ، يقولُ: تفسير التَّوكُّل أن يرضَىٰ بِما يفعلُ به.

وقال ابن عقيلٍ: يظنُّ أقوامٌ أنَّ الاحتياطَ والاحترازَ ينافِي التَّوكُّل، وأنَّ التَّوكُّلَ هو إهمالُ العواقِبِ، واطِّراحُ التَّحفُّظِ، وذلك عند العلماءِ هو العجزُ والتَّفريطُ الَّذي يقتَضِي من العُقَلَاءِ التَّوبيخَ والتَّهجينَ، ولَمْ يأمُرِ اللهُ بالتَّوكُّل إلَّا بعد التَّحرُّز، واستفراغِ الوُسْعِ فِي التَّحفُّظِ، فقال تعالىٰ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١٥٩]، فلو كان التَّعلُّقُ بالاحتياطِ قَادِحًا فِي التَّوكُّلِ، لما خصَّ الله به نبيَّه حين قالَ له: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾.

وهل المشاورةُ إلَّا استفادةُ الرَّأيِ الَّذي منه يؤخذُ التَّحفُّظ والتَّحرُّز من العَدُوِّ، ولَمْ يقنعْ فِي الاحتياطِ بأن يَكِلَهُ إلَىٰ رَأْيِهم واجتهادِهم، حتَّىٰ نصَّ عليه، وجعله عملًا فِي نفس الصَّلاة، وهي أخصُّ العباداتِ، فقال: ﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء:١٠٢].

وبيَّنَ علَّة ذلك بقوله تعالىٰ: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [النساء:١٠٢].

ومَنْ عَلِمَ أنَّ الاحتياطَ هكذا، لا يُقال: إنَّ التَّوكُّل عليه تركُ ما علِمَ، لكنَّ التَّوكُّلَ

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٧)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (١٠٦٨).

التَّفويضُ فِيمَا لَا وُسعَ فيهِ، ولا طَاقَةَ.

قالَ عليه الصَّلاة والسَّلام: «اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ»(١).

ولو كان التَّوكُّلُ تَرْكَ التَّحرُّزِ، لَخُصَّ به خير الخلقِ ﷺ فِي خَيْرِ الأحوالِ، وهي حالةُ الصَّلاة، وقد ذهبَ الشَّافعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَىٰ وجوبِ حَمْلِ السِّلاحِ حينئذٍ؛ لقولِهِ: ﴿وَلْيَأْخُذُوٓا أَسْلِحَتَهُمْ﴾ فالتَّوكُّل لا يمنع من الاحتياط والاحترازِ؛ فإنَّ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا قيل له: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ [القصص:٢٠] فخرج.

ونبيُّنا ﷺ خرجَ من مكَّة؛ لِخَوْفِهِ من المُتآمِرينَ عليه، ووَقَاه أبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بسدِّ أثقابِ الغَارِ، وأعطَىٰ القَوْمُ التَّحرُّزَ حقَّه، ثُمَّ توكَّلوا.

وقال عَزَّ وَجَلَّ فِي بابِ الاحتياط: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾ [يوسف:٥]، وقال: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ﴾ [يوسف:٦٧]، وقال: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك:١٥]، وهَذَا لأنَّ الحركةَ للذَّبِّ عن النَّفس استعمالٌ لنعمةِ الله تعالىٰ، وكما أنَّ الله تعالىٰ يريدُ إظهار نعمِهِ المبداة، يُريدُ إظهارَ وَدَائِعِه، فَلَا وجهَ لتَعطِيلِ مَا أُودعَ اعتمادًا عَلَىٰ ما جادَ به، لكن يجبُ استعمال ما عندك، ثُمَّ اطلبْ ما عنده.

وقد جعل اللهُ تَعَالىٰ للطَّيرِ والبهائمِ عُدَّةً وأسلحةً تدفعُ عنها الشُّرورَ كالمخلبِ والظُّفْر والنَّاب، وخلقَ للآدميِّ عقلًا، يقودُه إِلَىٰ حمل الأسلحةِ، ويهديه إِلَىٰ التَّحصينِ بالأبنيةِ والدُّروع، ومَنْ عطَّلَ نعمةَ الله بِتَرْكِ الاحترازِ، فقد عطَّل حكمتَه، كمَن يتركُ الأغذيةَ والأدويةَ، ثُمَّ يموتُ جُوعًا أو مَرَضًا.

ولا أبلهَ مِمَّن يدَّعي العقلَ والعلمَ، ويستسلمُ للبلاءِ، إنَّما ينبغي أن تكونَ أعضاء المتوكِّل فِي الكسبِ، وقلبُهُ ساكنٌ مفوِّضٌ إِلَىٰ الحقِّ، مَنَعَ أو أعطَىٰ؛ لأنَّه لا يَرَىٰ إِلَّا أنَّ

(١) التخريج السابق نفسه.

الحقَّ ﷻ لا يَتصَرَّفُ إلَّا بِحكمةٍ ومصلحةٍ.

فمنعُهُ عطاءٌ فِي المعنَىٰ، وكم زُيِّنَ للعَجَزَةِ عَجزُهُم، وسوَّلَتْ لَهم أنفسُهُم أنَّ التَّفريطَ توكُّلٌ، فصَارُوا فِي غرورِهم بِمثابةِ مَنِ اعتَقَدَ التَّهوُّرَ شجاعةً، والخورَ حَزْمًا.

ومتَىٰ وُضِعَتْ أسبابٌ فأُهْمِلَتْ، كان ذلك جَهْلًا بِحكمةِ الواضعِ، مثل وضعِ الطَّعامِ سببًا للشُّبعِ، والماء للرِّيِّ، والدَّواء للمَرض، فإذا ترك الإنسان ذلكَ إِهوانًا بالسَّبب، ثُمَّ دعا وسألَ فرُبَّما قيلَ له: قد جَعَلْنَا لِعَافيتك سببًا، فإذا لَمْ تتناوله كان إهوانًا لعطائنا، فربَّما لَمْ نعافك بغير سببٍ لإهوانِكَ للسَّببِ، وَمَا هَذَا إلَّا بِمَثَابَةِ مَن بين قِرَاحِهِ وَمَاءِ السَّاقِيَةِ رفسةٌ بِمسحاةٍ، فأخذ يصلِّي صلاةَ الاستسقاءِ طلبًا للمطرِ، فإنَّه لا يُستَحسنُ منه ذلك شَرعًا ولا عقلًا.

قال المصنِّف ﵀: **فإن قالَ قائلٌ**: كيف أَحْتَرِزُ مع القَدَرِ؟ قيلَ له: وكيف لا تَحترزُ مع الأوامرِ من المقدِّرِ، فالَّذي قَدَّرَ هو الَّذي أمر، وقد قال تعالىٰ: ﴿خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ [النساء:٧١]؟

أنبأنا إسماعيلُ بن أحمدَ، نا عاصم بن الحسينِ، نا ابن بشرانَ، ثنا ابن صفوانَ، نا أبو بكر القرشيِّ، ثنِي سريج بن يونسَ، نا علي بن ثابتٍ، عن خطَّابِ بن القاسمِ، عن أبِي عثمانَ، قال: كان عيسَىٰ ﵇ يصلِّي عَلَىٰ رأسِ جبلٍ، فأتاهُ إبليسُ، فقال: أنتَ الَّذي تزعمُ أنَّ كلَّ شيءٍ بقضاءٍ وقدرٍ؟ قَالَ: نعمْ، قالَ: فألقِ نفسَكَ من الجبلِ، وقل قُدِّرَ عَلَيَّ. فقال: يا لَعِينُ، اللهُ يختبرُ العباد، وليس للعبادِ أن يختبرُوا اللهَ تعالىٰ.

فصل [التوكل ينافي الكسب]

وفِي معنَىٰ ما ذَكَرْنا من تلبيسِهِ عليهِم فِي تركِ الأسبابِ، أنَّه قد لَبَّسَ عَلَىٰ خلقٍ كثيرٍ منهم، بأنَّ التَّوكُّل ينافِي الكسبَ.

أخبرنا مُحمَّد بن أبِي القاسم، نا حمد بن أحمدَ، نا أبو نعيمٍ أحمد بن عبد الله، قال: سمعتُ أبا الحسنِ بن مقسمٍ، يقولُ: سَمِعْتُ مُحمَّدَ بنَ المنذرِ، يقولُ: سَمِعْتُ سهلَ بن عبد الله التُّستريَّ، يقولُ: مَنْ طَعَنَ فِي التَّوكُّلِ، فقد طَعَنَ فِي الإيْمانِ، ومن طَعَنَ عَلَىٰ الكسبِ، فقد طَعَنَ عَلَىٰ السنَّة.

أخبرنا مُحمَّد بن ناصرٍ، نا أحمد بن علي بن خلفٍ، نا أبو عبد الرَّحمن السُّلميُّ، قالَ: سَمِعْتُ مُحمَّدَ بن عبد الله الرَّازيَّ، يقول: سألَ رجلٌ أبا عبد الله بن سالم وأنا أسمعُ: أنحن مُتعبِّدون، بالكسب أم بالتَّوكُّل؟ فقال: التَّوكُّل حال رسول الله ﷺ والكسبُ سنَّة رسول الله ﷺ وإنَّما سُنَّ الكسبُ لمن ضعفَ عن التَّوكُّل، وسقط عن درجة الكمالِ الَّتي هي حالُهُ، فمَن أطاقَ التَّوكُّل، فالكسبُ غيرُ مباحٍ له بحالٍ، إلَّا كسب معاونة، لا كسب اعتماد عليه، ومن ضَعُفَ عن حال التَّوكُّل الَّتي هي حال رسول الله ﷺ أُبيحَ له طلبُ المعاش فِي الكسبِ؛ لئلَّا يسقط عن درجةِ سنَّته حين سقط عن درجة حَالِهِ.

أنبأنا عبد المنعم بن عبد الكريمِ، نا أبِي قال: سمعتُ مُحمَّد بن الحسينِ، قال: سمعتُ أبا القاسم الرَّازيَّ، يقول: سمعتُ يوسفَ بن الحسين، قال: إذا رأيتَ المُريدَ يشتغلُ بالرُّخصِ والكَسْبِ، فليس يَجِيءُ منه شيءٌ.

قال المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: قلتُ: هَذَا كلامُ قومٍ مَا فَهِمُوا معنىٰ التَّوكُّلِ، وظنُّوا أنَّه تَرْكُ الكَسْبِ، وتعطيلُ الجَوَارحِ عن العملِ، وقَد بَيَّنَّا أنَّ التَّوكُّلَ فعلُ القلبِ، فَلَا يُنافِي حركةَ الجَوَارِحِ، ولو كان كلُّ كاسبٍ ليس بِمتوكِّلٍ، لكان الأنبياءُ غيرَ متوكِّلينَ، فقد كانَ آدمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَرَّاثًا، ونوحٌ وزكريَّا نجَّارَين، وإدريسُ خيَّاطًا، وإبراهيم ولوط زَارِعَيْنِ، وصالحٌ تاجِرًا، وكان سليمانُ يعملُ الخوصَ، وداودُ يصنعُ الدِّرعَ، ويأكُلُ من ثمنِهِ، وكان مُوسَىٰ وشعيبٌ ومُحمَّدٌ رعاةً، صلواتُ اللهِ عليهِم أجْمعين.

وقال نبيُّنا ﷺ: «كُنْتُ أَرْعَىٰ غَنَمًا لِأَهْلِ مَكَّةَ بِالقَرَارِيطِ»(١). فلمَّا أغناه اللهُ عَزَّوَجَلَّ بِما فَرَضَ له من الفَيْءِ، لَمْ يَحْتَجْ إِلَىٰ الكَسْبِ.

وقد كان أبو بكرٍ، وعثمان، وعبد الرَّحمن بن عوفٍ، وطلحة -رضوان الله تعالىٰ عليهم- بَزَّازِينَ، وكذلك مُحمَّدُ بن سيرينَ، وميمون بن مهرانَ بَزَّازَيْنِ، وكان الزُّبيرُ بن العوامِّ، وعمرو بن العاص، وعامر بن كريز خَزَّازِين، وكذلك أبو حنيفَةَ، وكان سعدُ بنُ أبِي وقَّاص يبري النَّبْلَ، وكان عثمانُ بنُ طلحَةَ خيَّاطًا، ومازال التَّابعون وَمَنْ بَعْدَهُم يكتِسبُون، ويأمرون بالكَسْبِ.

أخبرَنا مُحمَّد بن أبِي طاهرٍ، نا أبو مُحمَّدٍ الجوهريُّ، نا ابن حيويه، نا أبو الحسن بن معروفٍ، نا الحسينُ بن الفَهمِ، ثنا مُحمَّد بن سعدٍ، نا مسلم بنُ إبراهيمَ، نا هشامٌ الدَّستوائيُّ، قال: حدَّثنا عطاءُ بن السَّائبِ، قال: لمَّا استخلَفَ أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أصبحَ غاديًا إِلَىٰ السُّوق، وعَلَىٰ رقبتِهِ أثوابٌ يتَّجرُ بِها فَلَقِيَهُ عُمَرُ، وأبو عبيدةَ، فقالا: أين تريد؟ فقال: السُّوق، قالا: تصنعُ ماذا؟ وقد وَلِيتَ أمورَ المسلِمين؟ قال: فمِن أين أُطْعِمُ عِيَالِي؟ قال ابن سعدٍ: وأخبرنا أحمد بن عبد الله بن يونسَ، ثنَا أبو بكرِ بن عيَّاشٍ، عن عمرو بن ميمون، عن أبيه، قال: لمَّا استخلَفَ أبو بكرٍ جعلُوا له أَلْفَيْنِ، فقال: زِيدُونِي، فإنَّ لي عِيَالًا، وقد شَغَلْتُمُونِي عن التِّجارةِ، فزادُوه خَمْسَ مِئَةٍ.

قال المصنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: قلتُ: لو قال رجلٌ للصُّوفيَّة مِن أينَ أُطعمِ عِيَالِي؟ لقالُوا: قد أشركتَ! ولو سُئِلُوا عمَّن يخرجُ إِلَىٰ التِّجارةِ، لقالُوا: ليسَ بِمتوكِّلٍ، ولا موقنٍ! وكلُّ هَذَا لجهلِهِم بِمعنىٰ التَّوكُّل واليقينِ، ولو كانَ أحَدٌ يغلقُ عليه الباب، ويتوكَّلُ لَقَرُبَ أَمْرُ دَعواهُم، لكنَّهم بين أمرَين: أمَّا الغَالِبُ من النَّاس، فمنهُم مَن يَسعَىٰ إِلَىٰ الدُّنيا مُسْتَجْدِيًا،

(١) أخرجه البخاري (٢٢٦٢) من حديث أبِي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

ومنهم مَن يَبْعَثُ غلامَه فيدورُ بالزِّنبيل، فيجمع له... وأمَّا الجُلُوسُ فِي الرِّباطِ فِي هيئةِ المسَاكِين، وقد عَلِمَ أنَّ الرِّباطَ لا يخلُو من فتوحٍ، كما لا تخلُو الدُّكَّانُ من أن تقصدَ للبيعِ والشِّراء.

أخبرنا عبدُ الوهَّاب الحافظُ، نا أبو الحسين بن عبد الجبَّار، نا أبو طالبٍ العَشَاريُّ، نا مُحمَّد بن عبد الرَّحمن المُخَلِّصُ، نا عبيدُ الله بن عبد الرَّحمن السُّكَّريُّ، ثنا أبو بكرِ بن عُبيدٍ، قال: حُدِّثتُ عن الهيثمِ بن خارجةَ، ثنا سهل بن هشامٍ، عن إبراهيم بن أدهمَ، قالَ: كان سعيدُ بن المسيَّب يقولُ: مَنْ لزِمَ المسجدَ، وترك الحرفةَ، وقبل ما يأتيه، فقد ألحفَ فِي السُّؤال.

أخبرنا المحمَّدان (ابن ناصرٍ وابن عبد الباقِي) قالا: نا حمد بن أحمد، نا أبو نعيمٍ الحافظُ، قال: سَمِعتُ مُحمَّد بن الحسينِ، يقولُ: سَمِعتُ جدِّي إسماعيلَ بن نُجيدٍ، يقولُ: كان أبو ترابٍ، يقولُ لأصحابِهِ: من لَبِسَ منكُم مُرَقَّعَةً، فقد سألَ، ومن قَعَدَ فِي خانقَاه أو مسجدٍ، فقد سَألَ.

قال المصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: قلتُ: وقد كان السَّلفُ يَنْهَوْنَ عن التَّعَرُّضِ لِهَذِهِ الأشياءِ، ويأمُرُون بالكَسْبِ.

أخبرنا عبد الوهَّاب بن المبارَكِ، نا أبو الحسينِ بنُ عبد الجبَّار، نا مُحمَّد بن علي بن الفتحِ، نا مُحمَّد بن عبد الرَّحمن المخلِّص، نا عبيد الله بن عبد الرَّحمن السُّكَّريُّ، نا أبو بكرٍ ابن عُبيدٍ القرشيُّ، نا علي بن الجعدِ، نا المسعوديُّ، عن خَوَّات التَّيميِّ، قال: قال عمرُ بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: يا معشرَ الفقراءِ، ارفعوا رءوسَكُم، فقد وَضَحَ الطَّرِيقُ، فاستَبقوا الخيرات، ولا تكونوا عِيالًا عَلَىٰ المسلِمِين.

أخبرنا ابن ناصرٍ، نا أبو الحسينِ بن عبد الجبَّار، نا أبو القاسم التَّنُوخيُّ، وأبو مُحمَّد

الجوهريُّ، وأبو الخير القزوينيُّ، قالوا: نا أبو عمر بن حَيويه، نا مُحمَّد بن خلفٍ، ثنا أبو جعفر اليمانيُّ، نا أبو الحسن المدائنيُّ، عن مُحمَّد بن عاصمٍ قال: بلغَنِي أنَّ عمرَ بن الخطَّاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كان إذا رأىٰ غُلَامًا، فأعجَبَه سَأَلَ عنه: هل له حِرْفةٌ؟ فإن قيلَ: لا، قال: سَقَطَ من عَينِي.

أخبرنا إسماعيل بن أحمدَ، نا عمرُ بن عبدِ الله البقَّال، نا أبو الحسين بنُ بشرانَ، نا عثمانُ بن أحمدَ الدَّقَّاقُ، نا حنبلٌ، ثنِي أبو عبدِ الله، نا معاذٌ بن هشامٍ، ثنِي أبِي، عن قتادةَ، عن سعيدِ بنِ المسيَّب، قال: كان أصحابُ رسول الله ﷺ يتَّجرون فِي تجر الشَّام، منهم: طلحةُ بن عبيدِ الله، وسعيدُ بن زيدٍ.

أخبرنا عبدُ الوهَّاب بن المباركِ، نا جعفر بن أحمد السَّرَّاج، نا عبد العزيز بن الحسنِ بن إسماعيلَ الضَّرَّاب، نا أبِي، نا أحمد بن مروان المالكيُّ، نا أبو القَاسِمِ بن الخُتَّلي: سألتُ أحمد بن حنبلٍ، قُلْتُ: ما تقولُ فِي رجلٍ جلسَ فِي بيتِهِ أو فِي مسجدِهِ، وقال: لا أعملُ شيئًا حتَّىٰ يأتِيَنِي رزقي؟ فقال أحمدُ: هَذَا رَجُلٌ جَهِلَ العِلْمَ، أَمَا سَمِعْتَ قولَ رسول الله ﷺ: «**جَعَلَ اللهُ رزقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمحِي**»(١).

وحَدِيثُه الآخَرُ فِي ذِكْرِ الطَّيْرِ: «**تَغْدُو خِمَاصًا**»(٢)، فَذَكَرَ أنَّها تغدُو فِي طَلَبِ الرِّزقِ، قال تعالىٰ: ﴿ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ [المزمل:٢٠]، وقال: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [البقرة:١٩٨].

وكان أصحابُ رسول الله ﷺ يتَّجرُون فِي البرِّ والبحرِ، ويعملُون فِي نخيلِهم، ولنا القُدوةُ بِهم، وقد ذَكَرْنَا فيما مَضَىٰ عن أحمدَ: أنَّ رجلًا قال له: أريدُ الحجَّ عَلَىٰ التَّوكُّل،

---

(١) أخرجه أحمد (٥٩٣) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٨٣١).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٤٤) وابن ماجه (٤١٦٤) من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٢٤٥).

فقال له: فاخرجْ فِي غير القَافِلَةِ. قال: لا. قال: فعَلَىٰ جرابِ النَّاس تَوَكَّلْتَ.

أخبرنا ابن ناصرٍ، نا أبو الحسين بن عبد الجبَّار، نا عبد العزيز بن عليٍّ الأزجيُّ، نا إبراهيم بن مُحمَّد بن جعفر السَّاجيُّ، نا أبو بكرٍ عبد العزيز بن جعفر، نا أبو بكر أحمد بن مُحمَّد الخَلَّال، نا أبو بكرٍ المَرْوزِيُّ، قال: قلتُ لأبِي عبدِ الله: هؤلاءِ المتوكِّلةُ يقولُون: نقعدُ وأرزاقُنا عَلَىٰ الله عز وجل.

فقال: هَذَا قولُ رديءٍ. أليسَ قد قالَ اللهُ تعالىٰ: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾ [الجمعة:٩]، ثُمَّ قالَ: إذا قال لا أعملُ، وجيءَ إليه بشيءٍ قد عمل واكتسب! لأيِّ شيءٍ يقبلُهُ من غيرِهِ؟!

قال الخلَّال: وأخبرنا عبد الله بن أحمدَ قالَ: سألتُ أبِي عن قومٍ يقولُون: نتوكَّلُ عَلَىٰ اللهِ، ولا نكتسبُ، فقال: ينبغي للنَّاس كلِّهم، يتوكَّلون عَلَىٰ الله، ولكن يعودون عَلَىٰ أنفسِهم بالكسبِ، هَذَا قول إنسانٍ أحمقَ.

قال الخلَّال: وأخبرني مُحمَّد بن عليٍّ قال: ثنا صالحٌ، أنَّه سأل أباه (يعنِي: أحمدَ بن حنبلٍ) عن التَّوكُّلِ، فقال: التَّوكُّلُ حَسَنٌ، ولكن ينبغِي أن يكتسبَ ويَعْمَلَ، حَتَّىٰ يُغْنِيَ نفسَه وعيالَه، ولا يترك العملَ. قال: وسُئِلَ أبِي وَأَنَا شاهدٌ عن قومٍ لا يعملُون، ويقولُون نحن المتوكِّلُون، فقال: هؤلاء مُبتدِعون.

قال الخلَّال: وأخبرنا المروزيُّ، أنَّه قال لأبِي عبدِ الله: إنَّ ابنَ عُيينَةَ كان يقول: هم مُبْتَدِعَةٌ، فقال أبو عبد الله: هؤلاء قومُ سوءٍ، يريدون تعطيلَ الدُّنيا.

وقال الخلَّال: وأخبرنا المروزيُّ، أنه قال: سَأَلْتُ أبا عبدِ اللهِ عن رجلٍ جلسَ فِي بيتِهِ، وقال: أجلسُ وأصبرُ وأقعدُ فِي البيتِ، ولا أُطْلِعُ عَلَىٰ ذلك أَحَدًا، فقال: لو خَرَجَ فاحترَفَ كان أحبَّ إليَّ، فإذا جَلَسَ خفت أن يخرجَهُ جلوسُهُ إِلَىٰ غير هذا.

قلتُ: إِلَىٰ أيِّ شيءٍ يخرجُهُ؟ قال: يخرجُهُ إِلَىٰ أن يكونَ يتوقَّع أن يرسلَ إليه.

قال الخلَّالُ: وحدَّثنا أبو بكرٍ المروزيُّ، قال: سمعتُ رجلًا يقولُ لأبِي عبد الله أحمد ابن حنبلٍ: إنِّي فِي كفايةٍ. قال: الزمِ السُّوقَ تَصِلُ به الرَّحمَ، وتعودُ به عَلَىٰ عيالِكَ. وقال لرجلٍ آخرَ: اعملْ وتصدَّقْ بالفضلِ عَلَىٰ قرابتِكَ.

وقال أحمد بن حنبلٍ: قد أمرتُهُم (يعنِي: أولادَه) أن يختلفُوا إِلَىٰ السُّوقِ وأن يتعرَّضوا للتِّجارة.

قال الخلَّال: وأخبرنِي مُحمَّد بن الحسينِ، أنَّ الفضلَ بنَ مُحمَّد بن زيادٍ، حدَّثهم، قال: سمعتُ أبا عبد الله يأمرُ بالسُّوق ويقولُ: ما أحسن الاستغناء عن النَّاس!

وقال الخلَّال: وأخبرنِي يعقوبُ بن يوسف المُطَّوِّعِيُّ قال: سمعتُ أبا بكر ابن النَّجَّادِ يقول: قال الجصَّاصيُّ: سَمِعْتُ أحمدَ بن حنبلٍ يقولُ: أحبُّ الدَّراهمِ إليَّ درهمٌ من تجارةٍ، وأكرهُهَا عندِي الَّذي من صلةِ الإخوانِ.

قال المصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: **قلتُ:** وكان إبراهيمُ بن أدهمَ يحصدُ، وسليمان الخوَّاص يلقطُ، وحذيفة المرعشيُّ يضرب اللَّبن.

وقال ابن عقيلٍ: التَّسبُّبُ لا يَقْدَحُ فِي التَّوَكُّلِ؛ لأنَّ تعاطي رتبةٍ تَرْقَىٰ عَلَىٰ رتبة الأنبياءِ نَقْصٌ فِي الدِّين، ولمَّا قيلَ لموسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ [القصص:٢٠] خَرَجَ، ولمَّا جاعَ واحتاجَ إِلَىٰ عفَّةِ نَفْسِهِ أجَّرَ نفسَهُ ثمانِ سنينَ، وقال الله تعالىٰ: ﴿فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك:١٥].

وهَذَا لِأَنَّ الحَرَكَةَ استعمالٌ لنعمةِ الله، وهي القُوَىٰ، فاستعمِلْ ما عندك، ثُمَّ اطلبْ ما عنده.

وقد يطلبُ الإنسانُ من ربِّه، وينسَىٰ مَا لَهُ عندَه من الذَّخائرِ، فإذا تأخَّرَ عنه ما يطلبُهُ يَسْخَطُ.

فترىٰ بعضَهم يَملِكُ عقَارًا وأثاثًا، فإذا ضَاقَ به القُوتُ، واجتمَعَ عليه دَيْنٌ، فقيلَ له: لو بِعْتَ عَقَارَكَ. قال: كيف أفرِّطُ فِي عقارِي وأُسقطُ جاهِي عند النَّاس، وإنَّما يفعلُ هَذِهِ الحماقات: العادات.

وإنَّما قَعَدَ أقوامٌ عن الكَسْبِ استثقَالًا له، فكانُوا بين أمرين قَبِيحَين، إمَّا تضييع العيالِ، فتَركوا الفرائضَ أو التَّزيُّن باسمِ أنَّه متوكِّل، فيحنُّ عليهم المكتسِبون، فضَيَّقوا عَلَىٰ عيالِهم لأجلِهم وأعطَوْهُم.

وهَذِهِ الرَّذيلةُ لَمْ تدخلْ قطُّ إلَّا عَلَىٰ دنِيءِ النَّفْسِ الرَّذيلةِ، وإلَّا فالرَّجلُ كلُّ الرَّجُلِ مَن لَمْ يضيِّعْ جَوْهَرَه الَّذي أَوْدَعَهُ اللهُ، إيثارًا للكَسَلِ، أو لاسمٍ يتزيَّنُ به بين الجُهَّال، فإنَّ اللهَ تعالىٰ قد يَحْرِمُ الإنسانَ المالَ، ويرزقُهُ جوهرًا، يتسبَّب به إلَىٰ تحصيلِ الدُّنيا بقبولِ النَّاس عليه.

فصل (ترك التكسب)

وقد تشبَّث القاعدون عن التَّكَسُّبِ بتعللات قبيحة:

منها: أنَّهم قالُوا لا بدَّ من أن يصلَ إلينا رزقُنا، وهَذَا فِي غايةِ القُبحِ، فإنَّ الإنسانَ لو ترك الطَّاعة، وقال: لا أقدر بطَاعَتِي أن أُغيِّر ما قَضَىٰ اللهُ عليَّ، فإن كنت من أهلِ الجنَّة، فأنا إلَىٰ الجنَّة، أو من أهل النَّار، فأنا من أهل النَّار، قلنا له: هَذَا يردُّ الأوامر كلَّها، ولو صحَّ لأحدٍ ذلك لَمْ يخرجْ آدمُ من الجنَّة؛ لأنَّه كان يقولُ: ما فَعَلْتُ إلَّا ما قَضَىٰ عَلَيَّ.

ومعلومٌ أنَّنا مطالبُون بالأمر لا بالقدر.

ومنها: أنَّهم يقولُون: أين الحلالُ حتَّىٰ نطلبَ؟ وهَذَا قولُ جاهلٍ؛ لأنَّ الحلالَ لا ينقطعُ أبدًا؛ لقولِهِ ﷺ: «الحَلالُ بيِّنٌ، وَالحَرَامُ بيِّنٌ»[1].

ومعلومٌ أنَّ الحلالَ ما أذِنَ الشَّرعُ فِي تناولِهِ، وإنَّما قَوْلُهم هَذَا احْتِجَاجٌ للكَسَلِ.

ومنها: أنَّهم قالُوا: إذا كسبْنا أعنَّا الظَّلمةَ والعُصاةَ، مثلَ مَا أخبرنا به عمر بن ظفرٍ، نا جعفر بن أحمدَ، نا عبد العزيز بن عليٍّ، نا ابن جهضم، نا علي بن مُحمَّد السيروانِيُّ، قال: سمعت إبراهيم الخوَّاصَ، يقول: طلبتُ الحلالَ فِي كلِّ شيءٍ حتَّىٰ طلبتُهُ فِي صيدِ السَّمَكِ، فأخذتُ قصبةً، وجعلتُ فيها شَعْرًا، وجلستُ عَلَىٰ الماءِ، فألقيتُ الشِّصَّ، فخرجتْ سمكةٌ فطرحتُها عَلَىٰ الأرضِ، وألقيتُ الثَّانيةَ، فخرجتْ لي سمكةٌ، فأنا أطرحُها ثالثةً إذًا من ورائي لَطْمَةٌ، لا أدري مِن يَدِ مَنْ هِيَ، ولا رأيتُ أحدًا، وسمعتُ قائلًا يقول: أنت لَمْ تُصِبْ رزقًا فِي شيءٍ، إلَّا أن تَعْمَدَ إلَىٰ مَن يذكُرُنَا فتقتله؟ قال: فَقَطَعْتُ الشَّعْرَ، وَكَسَرْتُ القَصَبَةَ، وَانْصَرَفْتُ!

أنبأنا أبو المظفَّر عبد المنعم بن عبد الكريم القشيريُّ، ثنا أبي، قال: سمعتُ مُحمَّد بن الحسينِ، يقول: سمعت أبا بكرٍ الرازيَّ، يقول: سمعتُ أبا عثمان بن الآدميِّ، قال: سمعتُ إبراهيمَ الخوَّاصَ يقول: طَلَبْتُ فَقَصَدْتُ... إلخ ما تقدَّم.

قال المصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: **قُلْتُ**: وهَذِهِ القصَّةُ إن صحَّت فإنَّ فِي الرِّوايتين بعض من يُتَّهم، فإنَّ اللَّاطمَ إبليسُ، وهو الَّذي هَتَفَ به؛ لأنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أباحَ الصَّيدَ، فلا يُعاقِبُ عَلَىٰ ما أبَاحَه.

وكيف **يُقالُ له**: تَعْمِدُ إلَىٰ من يُذَكِّرُنَا فتقتله، وهو الَّذي أباحَ له قَتْلَه؟ وكسبُ الحلالِ ممدوحٌ، ولو تركنا الصَّيدَ وذبحَ الأنعامِ؛ لأنَّها تذكرُ اللهَ تعالىٰ، لَمْ يكنْ لنا مَا يقيمُ قُوَىٰ

(١) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

الأبدانِ؛ لأنَّه لا يقيمُها إلَّا اللَّحم، فالتَّحرُّزُ من أخذِ السَّمَكِ، وذبحِ الحيوانِ مذهبُ البَرَاهِمَة.

فانظر إِلَىٰ الجهلِ ما يصنعُ، وإِلَىٰ إبليسَ كيف يفعلُ؟

أخبرنا أبو منصورٍ القزَّازُ، نا أحمد بن علي بن ثابتٍ، نا عبد العزيز بن عليٍّ الأزجيُّ، ثنا عليُّ بن عبد الله الهمذانِيُّ، ثنا مُحمَّد بن جعفر، ثنا أحمد بن عبد الله بن عبد الملكِ، قال: سمعتُ شيخًا يُكْنَىٰ أبا ترابٍ يقُولُ: قيلَ لفتحِ الموصِليِّ: أنت صيَّادٌ بالشَّبكةِ، ولَمْ تَصِدْ شيئًا إلَّا وتطعمُهُ لعيالِكَ، فلِمَ لا تصيدُ وتبيعُ ذلك للنَّاس؟ فقال: أخافُ أن اصطادَ مُطِيعًا لله تعالىٰ فِي جوفِ الماءِ، فأطعمه عاصِيًا للهِ عَلَىٰ وجه الأرضِ.

قال المصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: **قلتُ**: إن صحَّتْ هَذِهِ الحكايةُ عن فتحِ الموصليِّ، فهو مِنَ التَّعلُّلِ البارِدِ المخالفِ للشَّرعِ والعقلِ؛ لأنَّ اللهَ تعالىٰ أباحَ الكسبَ، وندبَ إليه، فإذا قالَ قائلٌ: ربَّما خَبَزَتْ خُبزًا، فأكلَهُ عاصٍ، كان حديثًا فارِغًا؛ لأنَّه لا يجوزُ لنا إذًا أن نبيعَ الخبزَ لليهودِ والنَّصارىٰ.

ذكر تلبيسِ إبليس عَلَى الصُّوفيَّة فِي ترك التَّداوي:

قال المصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: لا يَختلفُ العلماءُ أنَّ التَّداوِي مباحٌ، وإنَّما رَأَىٰ بعضُهم أنَّ العزيمةَ تركُهُ، وقد ذَكَرْنَا كلامَ النَّاس فِي هَذَا، وبيَّنا بِما اخترنَاه فِي كتابِنَا: «لقطُ المنافِعِ فِي الطِّبِّ».

والمقصودُ هاهُنا أنَّا نقولُ: إذا ثبتَ أنَّ التَّدَاويَ مباحٌ بالإجماعِ، مندوبٌ إليه عندِ بعضِ العُلماءِ، فَلَا يُلْتَفَتُ إِلَىٰ قولِ قومٍ، قد رأوا أنَّ التَّداوِي خارجٌ من التَّوكُّلِ؛ لأنَّ الإجماعَ عَلَىٰ أنَّه لا يَخْرُجُ من التَّوكُّلِ، وقد صحَّ عن رسول الله ﷺ أنَّه تَدَاوَىٰ وأمر بالتَّداوي، ولَمْ يخرجْ بذلك من التَّوكُّلِ، ولا أخرج مَنْ أَمَرَهُ أن يَتَدَاوَىٰ مِنَ التَّوَكُّلِ.

وفِي الصَّحِيحِ من حديثِ عثمانَ بن عفَّان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أنَّ النَّبِيَّ ﷺ رخَّصَ إذا اشتكَىٰ

المُحْرِمُ عَيْنَه، أن يضمِّدَها بالصَّبرِ»[١].

قال ابن جريرٍ الطَّبريُّ: وفِي هَذَا الحديثِ دليلٌ عَلَىٰ فسادِ ما يقولُهُ ذوُو الغَبَاوَةِ من أهل التَّصوُّف والعُبَّادِ، مِن أنَّ التَّوكُّل لا يصحُّ لأحدٍ عالجَ علَّةً به فِي جسدِهِ بدواءٍ، إذ ذاكَ عندَهم طلب العافيةِ من غيرِ مَنْ بِيَدِهِ العافيةُ والضُّرُّ والنَّفعُ.

وفِي إطلاقِ النَّبيِّ ﷺ للمُحْرِمِ علاجَ عَيْنِهِ بالصَّبر لدفعِ المكروهِ، أدَلُّ دليل عَلَىٰ أن معنىٰ التَّوكُّل غيرُ ما قَالَه الَّذين ذكرنا قولَهم، وأنَّ ذلك غيرُ مُخرجٍ فاعلَهُ من الرِّضا بقضاءِ اللهِ، كما أنَّ من عرض له كلب الجوع، لا يخرجه فزعُهُ إِلَىٰ الغذاءِ من التَّوكُّل والرِّضا بالقضاءِ؛ لأنَّ الله تعالىٰ لَمْ يُنْزِلْ داءً إلَّا أنزلَ له دواءً إلَّا الموت.

وجعلَ أسبابًا لدفعِ الأدواءِ، كَمَا جعلَ الأكلَ سَبَبًا لدفعِ الجوعِ، وقد كان قادِرًا أن يحيِيَ خلقَهُ بغيرِ هذا، ولكنَّه خَلَقَهُم ذوي حاجةٍ، فلا يندفِعُ عنهم أذَىٰ الجوعِ، إلَّا بِما جُعِلَ سببًا لدفعِهِ عنهم، فكذا الدَّاءُ العارضُ، والله الهادي.

ذكر تلبيسِ إبليسَ عَلَى الصُّوفيَّة فِي تركِ الجمعةِ والجماعةِ بالوحدةِ والعزلةِ:

قال المصنِّف: كان خيارُ السَّلَفِ يُؤْثِرُونَ الوحدةَ والعُزْلَةَ عن النَّاس؛ اشتغالًا بالعلمِ والتَّعبُّد، إلَّا أنَّ عُزْلَةَ القومِ لَمْ تقطعْهم عن جُمعةٍ ولا جَماعةٍ، ولا عيادة مريضٍ، ولا شهود جنازةٍ، ولا قيامٍ بحقٍّ، وإنَّما هي عزلةٌ عن الشَّرِّ وأهلِهِ، ومخالطةِ البطَّالين.

وقد لَبَّس إبليسُ عَلَىٰ جماعةٍ مِنَ المتصوِّفة، فمنهم من اعتزَلَ فِي جبلٍ كالرُّهبان، يبيتُ وحدَهُ، ويصبح وحدَهُ، ففاتَهُ الجمعةُ، وصلاةُ الجماعةِ، ومُخالطة أهل العلم، وعمومُهم اعتزَلَ فِي الأربطةِ، فَفَاتَهم السَّعيُ إِلَىٰ المساجِدِ، وتوطَّنوا عَلَىٰ فراشِ الرَّاحةِ، وتركوا الكسبَ.

---

(١) أخرجه مسلم (١٢٠٤).

وقد قال أبو حامدٍ الغزالي فِي «كتاب الإحياء»: مَقْصُودُ الرِّيَاضَةِ تَفْرِيغُ القَلْبِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا بخَلْوَةٍ فِي مكانٍ مُظْلِمٍ.

وقال: فَإِنْ لم يَكُنْ مكانٌ مُظْلِمٌ، فَيَلِفُّ رَأْسَهُ فِي جُبَّتِهِ، أو يَتَدَثَّرُ بِكِسَاءٍ، أو إزارٍ؛ ففي مثل هذه الحالة يَسْمَعُ نِدَاءَ الحَقِّ، ويُشَاهِدُ جَلالَ حَضْرَةِ الرُّبوبيَّة.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: انظرْ إِلَىٰ هَذِهِ التَّرتيباتِ، والعجبُ: كيف تصدُرُ من فقيهٍ عالِمٍ؟! ومن أين له أنَّ الَّذي يسمعُهُ نداءُ الحقِّ؟ وأنَّ الَّذي يشاهدُهُ جلال الرُّبوبيَّة؟ وما يُؤَمِّنُهُ أن يكونَ ما يجدُهُ من الوساوسِ والخيالاتِ الفاسدةِ؟ وهَذَا الظَّاهر مِمَّنْ يَسْتَعْمِلُ التَّقَلُّلَ فِي المطعمِ؛ فإنَّه يَغْلِبُ عليه الماليخُوليَا.

وَقَدْ يَسْلَمُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الحَالَة من الوَسَاوسِ، إِلَّا أنَّه إذا تَغشَّىٰ بثَوْبِهِ، وغمَّض عَيْنيه، تَخَايل هَذِهِ الأشياءَ؛ لأنَّ فِي الدِّماغِ ثلاثَ قُوىً: قوَّةٌ يكون بِها التَّخيُّل، وقوَّةٌ يكونُ بِها الفكرةُ، وقوَّةٌ يكون به الذِّكْر، وموضع التَّخيُّل: البطنَان المقدَّمان من بُطُون الدِّماغ. وموضع التَّفكُّر: البطنُ الأوسطُ من بُطُون الدِّماغ. ومَوْضع الحِفْظِ: المَوْضع المؤخَّر، فإنَّ أطرقَ الإنسانُ، وغمَّض عينيه جالَ الفكرُ، والتَّخيُّلُ، فيرىٰ خيالاتٍ، فيظنُّها ما ذَكَرَ من حَضْرة جَلَال الرُّبوبيَّة إِلَىٰ غَيْر ذلك، نعوذُ باللهِ من هَذِهِ الوساوسِ والخَيَالاتِ الفاسدةِ.

أخبرنا مُحمَّد بن أَبِي القاسمِ، نا رزق الله بن عبد الوَهَّاب، نا أبو عبد الرَّحمن السُّلميُّ، قال: سمعتُ أبا بكرٍ البجليَّ يَقُولُ: سمعتُ أبا عثمانَ بن الآدميِّ، قال: كان أبو عبيدٍ البُسريُّ إذا كان أوَّل يَوْمٍ من شهرِ رَمَضانَ، يدخل البيت، ويَقُول لامرأتِهِ: طيِّني بابَ البيتِ، وألقِ إليَّ كلَّ ليلةٍ من الكوَّة رغيفًا، فإذا كان يَوْم العيد دَخَلتْ فوَجَدتْ ثلاثينَ رغيفًا فِي الزَّاوية، ولا أكَلَ ولا شَرِبَ، ولا يتهيَّأُ لصلاةٍ، ويَبْقىٰ عَلَىٰ طُهرٍ واحدٍ إِلَىٰ آخر الشَّهر.

قَالَ المصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: **هَذِهِ الحكايةُ عندي بعيدةٌ عن الصِّحَّةِ من وَجْهين:**

أحدُهما: بقاءُ الآدميِّ شهرًا لا يُحْدِث بنومٍ، ولا بولٍ، ولا غَائطٍ، ولا ريحٍ.

والثَّانِي: تركُ المسلمِ صلاةَ الجُمُعةِ والجَمَاعةِ، وهي واجبةٌ، لا يحلُّ تركُها.

فإنْ صحَّت هَذِهِ الحكايةُ، فما أبقَىٰ إبليسُ لِهَذَا فِي التَّلبيس بقيَّةً.

قَال: أنبأنا زاهر بن طاهرٍ، نا أحمد بن الحسين البيهقيُّ، ثنا الحاكم أبو عبد الله النَّيسابوريُّ، وسَمعتُ أبا الحسن البُوشَنْجيَّ الصُّوفيَّ غيرَ مرَّةٍ يُعَاتَبُ فِي تَرْكِ الجُمُعَةِ والجماعةِ، والتَّخلُّف عنها، فيَقُولُ: إنْ كانتِ البركةُ فِي الجَمَاعةِ، فإنَّ السَّلامةَ فِي العُزْلةِ!

وقَدْ جاء النَّهيُ عن الانفرادِ الموجبِ للبُعْدِ عن العلم والجهادِ للعدوِّ.

أخبرنا ابن الحُصين، نا أبو علي بن المذهبِ، نا أبو بكر بن مالكٍ، ثنا عبد الله بن أحمد، قال: حدَّثنِي أبِي، ثنا أبو المغيرة، ثنا مُعَان بن رفاعةَ، ثنِي عليُّ بن يزيد، عن القاسمِ، عن أبِي أمامةَ، قال: خَرَجْنا مع رسول الله ﷺ فِي سَرِيَّةٍ من سَرَايَاه، قَالَ: فمرَّ رجلٌ بغارٍ فيه شيءٌ من ماءٍ، قال: فحدَّثَ نَفْسَه بأَنْ يقيمَ فِي ذلك الغارِ، فيقوِّتهُ ما كَانَ فيه، وفيه شيءٌ من مَاءٍ، ويصيبُ ما حَوْلَهُ من البقلِ، ويتخلَّىٰ عن الدُّنيا، ثُمَّ قالَ: لو أنِّي أتيتُ نبيَّ الله ﷺ، فذَكَرتُ ذلكَ له، فإن أَذِنَ لي فعلتُ، وإلَّا لَمْ أفعلْ، فأَتَاه فَقَالَ: يا نبيَّ الله، إنِّي مَرَرْتُ بغارٍ فيه ما يُقوِّتنِي من الماءِ والبقلِ، فحدَّثَتنِي نَفْسِي بأن أقيمَ فيه، وأتخلَّىٰ من الدُّنيا، قال: فقال نبيُّ الله ﷺ: «**إنِّي لَمْ أُبْعَثْ باليهوديَّةِ، ولا بالنَّصرانيَّة، ولكنِّي بعثتُ بالحنيفيَّة السَّمْحةِ، والَّذي نفسُ مُحمَّدٍ بيدِهِ، لَغَدْوةٌ أو رَوْحةٌ فِي سبيلِ اللهِ خيرٌ من الدُّنيا وما فيها، ولمقامِ أَحَدِكمْ فِي الصَّفِّ خيرٌ من صَلَاتِهِ ستِّين سنةً**»[1].

(١) أخرجه أحمد (٢١٧٨٨) من حديث أبِي أمامة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وانظر «المشكاة» (٣٧٧٢)، و«الصحيحة» (٢٩٢٤).

ذكر تلبيس إبليس علَى الصُّوفيَّة:

فِي التَّخشُّع وطأطأةِ الرَّأسِ وإقامةِ النَّاموس:

قال المصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: إذا سَكَنَ الخوفُ القلبَ، أوجبَ خُشُوعَ الظَّاهرِ، ولَا يَمْلكُ صاحبُهُ دفعَهُ، فتَرَاه مُطرَقًا مُتأدِّبًا مُتَذَلِّلًا، وقَدْ كانُوا يَجْتهدُون فِي سترِ ما يظهرُ منهم مِن ذلك، وكان مُحمَّد بن سيرينَ يضحكُ بالنَّهار، ويبكي باللَّيل، ولسْنَا نأمرُ العَالِمَ بالانبساطِ بين العوامِّ، فإنَّ ذلكَ يُؤْذِيهم:

فقَدْ رُوِيَ عن عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: إذا ذكرتُمُ العِلْمَ، فَاكْظمُوا عليه، ولا تخلطُوهُ بضحكٍ، فتمجَّهُ القلوبُ.

ومثل هَذَا لا يسمَّىٰ رياءً؛ لأنَّ قلوبَ العوامِّ تضيقُ عن التَّأويلِ للعالِمِ إذا تفسَّحَ فِي المُبَاحِ، فيَنْبغِي أَنْ يَتلقَّاهُمْ بالصَّمْت والأدَبِ، وإنَّما المَذْمومُ تكلُّفُ التَّخشُّعِ والتَّباكِي، وَطَأطأة الرَّأس، ليَرَىٰ الإنسانُ بعينِ الزُّهد والتَّهيُّؤ للمُصَافَحَةِ وتَقْبيل اليَدِ، وَربَّما قيلَ له: ادْعُ لنا فيتهيَّأُ للدُّعاءِ كأنَّه يَستنْزِلُ الإجابةَ، وقد ذَكَرْنَا عن إبراهيمَ النَّخعيِّ: أنَّه قيلَ له: ادْعُ لنَا فكَرِهَ ذلك، وَاشْتدَّ عليه.

وقد كانَ فِي الخائفِينَ مَنْ حَمَلَهُ الخوفُ عَلَىٰ شِدَّةِ الذُّلِّ والحياءِ، فلم يرفعْ رأسَه إِلَىٰ السَّماء، وليس هَذَا بفضيلةٍ؛ لأنَّه لا خُشُوعَ فوق خُشُوعِ رسول الله ﷺ.

وفِي «صحيح مسلم» من حديثِ أَبِي مُوسَىٰ، قال: «كانَ رسول الله ﷺ كثيرًا ما يرفعُ رأسَه إِلَىٰ السَّماء»[1].

وفِي هَذَا الحديث دليلٌ عَلَىٰ استحبابِ النَّظر إِلَىٰ السَّماء لأَجْل الاعتبارِ بآياتِها، وقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا﴾ [ق:٦]، وَقَالَ: ﴿قُلِ

(١) أخرجه مسلم (٢٥٣١).

﴿انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس:١٠١].

وفِي هَذَا ردٌّ عَلَىٰ المتصوِّفينَ، فإنَّ أحدَهم يبقَىٰ سنينَ لا ينظُرُ إلَىٰ السَّماء، وقد ضمَّ هؤلاء إلَىٰ ابتداعِهِم الرُّمُوز إلَىٰ التَّشبيه، ولو عَلِمُوا أنَّ إطراقَهم كرَفْعِهم فِي بابِ الحياءِ من اللهِ تعالىٰ، لَمْ يفعلُوا ذلك، غير أنَّ ما شَغلَ إبليس إلَّا التَّلاعبَ بالجهلةِ، فأمَّا العلماءُ؛ فهو بعيدٌ عنهم، شديدُ الخوفِ منهم؛ لأنَّهم يعرِفُون جميعَ أمرِهِ، ويحترزُون من فُنُون مَكْرِهِ.

أخبرنا مُحمَّد بن ناصرٍ، وعُمَر بن ظُفَر، قَالَا: أخبرنا مُحمَّد بن الحسنِ البَاقِلَّانِيُّ، نا القَاضي أبو العلاء الواسطيُّ، نا أبو نصرٍ أحمد بن مُحمَّدٍ، نا أبو الخير أحمد بن مُحمَّد البزَّازُ، ثنا البخاريُّ، ثنا إسحاق، ثنا مُحمَّد بن الفضيلِ، ثنا الوليدُ بن جميعٍ، عن أَبِي سَلَمَةَ ابن عبد الرَّحمنِ، قال: «لَمْ يكنْ أصحابُ رسول الله ﷺ مُنْحَرِفِينَ، ولا مُتَمَاوِتِينَ، وكانوا يتَنَاشَدُون الشِّعرَ فِي مَجَالِسِهم، ويذكُرُونَ أمرَ جاهليَّتِهِمْ، فإذا أُريد أحدٌ منهم عَلَىٰ شيءٍ من أمرِ دينِهِ، دارت حماليقُ عينيه، كأنَّه مَجنونٌ».

أخبرنا عبد الوهَّاب الحافظُ، ثنا جعفرُ بن أحمدَ، نا عبدُ العزيزِ الحَسَن بن إسماعيل الضَّرَّابُ، نا أَبِي، ثنا أحمد بن مروانَ، ثنا إبراهيمُ الحربِيُّ، ثنا مُحمَّد بن الحارثِ، عن المَدَائِنِي، عن مُحمَّد بن عبد الله القرشيِّ، عن أبيه، قال: نَظَر عُمَر بن الخطَّاب رضي الله عنه إلَىٰ شابٍّ قَدْ نكَّسَ رأسَه، فَقَال له: يا هَذَا، ارفعْ رأسَك، فإنَّ الخشوعَ لَا يزيدُ عَلَىٰ مَا فِي القَلْبِ، فمَنْ أظهَرَ للنَّاس خُشُوعًا فوقَ ما فِي قلبِهِ، فإنَّما أظهَرَ نفاقًا عَلَىٰ نفاقٍ.

أخبرنا عبد الوهَّاب، نا المبارك بن عبد الجبَّار، نا علي بن أحمد الفالي، ثنا أحمد بن مُحمَّد بن يُوسُف، ثنا ابن صفوان، نا أبو بكر القرشيُّ، ثنِي يعقوب بن إسماعيلَ، قال: قال عبد الله، أخبرنا المعتَمِر، عن كَهْمَس بن الحسنِ: أنَّ رجلًا تنفَّس عند عُمَر بن الخطَّاب كأنَّه يتحازَنُ، فلَكَزَهُ عُمَرُ، أو قال: لَكَمَهُ.

أخبرنا مُحمَّد بن ناصرٍ، نا جعفر بن أحمدَ، نا الحسنُ بن عليٍّ التَّميميُّ، نا أبو بكر ابن مالكٍ، ثنا عبد الله بن أحمد، ثَنِي أبِي، ثنا أسود بن عامرٍ، نا أبو بكرٍ، عَنْ عاصم بن كليبٍ الجَرْميِّ، قال: لقي أبِي عبدَ الرَّحمن بن الأسودِ، وهو يمشي، وكان إذا مشىٰ يمشِي جنبَ الحائطِ مُتخشِّعًا هكذا، وأمالَ أبو بكرٍ عُنُقَهُ شيئًا، فقال أبِي: ما لكَ إذا مشيتَ، مشيتَ إلَىٰ جنبِ الحائطِ؟! أمَا واللهِ، إنَّ عمرَ إذا مَشىٰ لشديدِ الوطءِ عَلَىٰ الأرضِ، جهوريُّ الصَّوت.

أخبرنا مُحمَّد بن أبِي طاهرٍ، نا أبو مُحمَّد الجوهريُّ، نا ابنُ حَيويه، نا أبو الحسنِ بن معروفٍ، ثنا الحسينُ بن الفهم، ثنا مُحمَّد بن سعدٍ، يرفعُهُ إلَىٰ سليمانَ بن أبِي خيثمةَ، عن أبيه، قَالَ: قالتِ الشِّفاءُ بنتُ عبد الله، ورأتْ فِتيَانًا يقصِّرون فِي المشيِ، ويتكلَّمُون رويدًا، فَقَالتْ: ما هذا؟ قالُوا: نُسَّاك. قالتْ: كانَ -والله- عُمَرُ إذا تكلَّم أَسْمَعَ، وإذا مَشَىٰ أسرَعَ، وإذا ضرَبَ أودَعَ، وهو النَّاسكُ حقًّا.

قال المصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: قلتُ: وقَدْ كان السَّلفُ يسترونَ أحوالَهم، ويتصنَّعون بترك التَّصنُّع.

وقد ذكرنَا عن أيُّوبَ السَّختيانِيِّ: أنَّه كان فِي ثوبِهِ بعضُ الطُّولِ ليسترَ حالَه. وكان سفيانُ الثَّوريُّ يقولُ: لا أعتدُّ بِما ظَهَرَ من عَمَلِي، وقال لصَاحِبٍ له، ورآه يصلِّي: ما أَجْرَأَكَ! تصلِّي والنَّاسُ يَرَونَكَ.

قال: حدَّثنا مُحمَّد بن ناصر، ثنا عبد القادر بن يُوسُفَ، نا ابن المُذَهَّب، نا القَطِيعِيُّ، ثنا عبد الله بن أحمدَ، ثنا أبو عبد الله (يعنِي: السُّلمِيّ)، ثنا بقيَّةُ، عن مُحمَّدِ بن زيادٍ، قال: مرَّ أبو أُمامةَ برجلٍ ساجدٍ، فقال: يا لَها من سجدةٍ لو كانتْ فِي بيتكَ!

أخبرنا أبو منصورٍ القَزَّازُ، نا أبو بكر بن ثابتٍ، نا الجوهريُّ، ثنا مُحمَّد بن العبَّاس، ثنا

مُحمَّد بن القاسم الأنباريُّ، ثنا الحارثُ بن مُحمَّدٍ، ثنا يَحيَىٰ بن أيُّوبَ، ثنا شعيبُ بن حربٍ، قال رجلٌ فِي مَجلسِ الحَسَنِ بنِ عمارةَ: آهٍ، قال: فَجَعَلَ يتبصَّرُهُ، ويقولُ: مَن هَذَا؟ حتَّىٰ ظننَّا أنَّه لو عَرَفَه، أَمَر بِهِ.

أخبرنا إسماعيلُ بن أحمد المقرِي، نا حمد بن الحدَّادِ، ثنا أبو نُعَيمٍ الحافظ، نا عبد الله ابن مُحمَّد بن جعفر، ثنا عبد الله بن محمد بن يعقوبَ، ثنا أبو حاتمٍ، ثنا حرملةُ، قال: سمعتُ الشَّافعيَّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقولُ:

وَدَعِ الَّـــذين إذا أَتَـــوْكَ تنســـسَّكوا وإذا خَلَـــوا فهـــمُ ذئـــابُ حِقَـــافِ

أخبرنا عبد الرَّحمن بنُ مُحمَّدٍ القَزَّازُ، نا أحمد بن علي بن ثابتٍ، نا أبو عمرَ الحسنُ بن عثمان الواعظُ، نا جعفر بن مُحمَّد الواسطيُّ، نا الحسين بن عبيد الله الأبزاريُّ، قال: سمعتُ إبراهيمَ بن سعيدٍ، يقولُ: كنتُ واقفًا عَلَىٰ رأس المأمونِ، فقال لي: يا إبراهيمُ. قلتُ: لبَّيك. قال: عشرةٌ مِن أَعْمَالِ البرِّ لا تَصْعدُ إِلَىٰ الله، واللهُ لا يقبلُ منها شيئًا. قلتُ: ما هي يا أميرَ المؤمنين؟ فَقَالَ: بكاءُ إبراهيمَ عَلَىٰ المنبرِ، وخُشُوعُ عبد الرَّحمن بن إسحاق، وتقشُّف ابن سماعةَ، وصلاةُ ابن خَيْعَويه باللَّيل، وصلاة عبَّاس الضُّحىٰ، وصيام بن السِّنديِّ: الإثنين والخميس، وحديث أبِي رَجَاءٍ، وقصص الحاجبِيِّ، وصدقة حفصويه، وكتاب «الشَّافي» ليعلىٰ بن قريشٍ.

ذكر تلبيسِ إبليس عَلَى الصُّوفيَّة فِي تركِ النِّكاح:

قال المصنِّف: النِّكاحُ مع خَوْف العَنَت واجبٌ، ومن غيرِ خوف العَنَتِ سنَّةٌ مؤكَّدةٌ عند جُمهورِ الفقهاءِ، وذَهَب أبو حنيفَةَ وأحمد بن حنبلٍ: أنَّه حينئذٍ أفضلُ من جميعِ النَّوافِلِ؛ لأنَّه سَبَبٌ فِي وُجُودِ الوَلَدِ.

قالَ عَلَيه الصَّلاة والسَّلام: «تَنَاكَحُوا تَنَاسلُوا»[١].

وقالَ رسول الله ﷺ: «النِّكاحُ من سُنَّتي، فَمَنْ رَغِبَ عَن سُنَّتي، فَلَيسَ منِّي»[٢].

أخبرنا مُحمَّد بن أَبِي طاهر، نا الجوهريُّ، نا أبو عمر بن حَيويه، نا أحمد بن معروف، ثنا الحسينُ بن الفهم، ثنا مُحمَّدُ بن سعد، نا سليمانُ بن داود الطَّيَالِسِيُّ، نا إبراهيم بن سعد، عن الزهريِّ، عن سعيد بن المُسَيَّبِ، عن سعد بن أبِي وقَّاصٍ، قال: «لقد رَدَّ رسول الله ﷺ عَلَىٰ عثمان بن مظعون التَّبَتُّلَ، ولو أَذِنَ له فِي ذلك لاخْتَصَيْنَا»[٣].

قال ابن سعد: وَأَخْبَرَنَا عفَّانُ، نا حمَّادُ بن سلمة، عن ثابت، عن أنس بن مالك، أَنَّ نَفَرًا من أصحاب رسول الله ﷺ سَأَلُوا أزواجَ النَّبيِّ ﷺ عن عَمَلِهِ فِي السِّرِّ، فأخبروهم.

فقال بعضُهم: لا آكُلُ اللَّحْمَ.

وقال بعضُهم: لا أتزوَّج النِّساء.

وقال بعضُهم: لا أنام اللَّيْلَ عَلَىٰ فراشٍ.

وقال بعضُهم: أصومُ ولا أُفطِرُ.

فَحَمِدَ اللهَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَثْنَىٰ عليه، ثُمَّ قال: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَالُوا كَذَا وَكَذَا، لَكِنِّي أُصَلِّي وَأَنَامُ، وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»[٤].

قال ابن سعد: وَأَخْبَرَنَا سعيدُ بن منصور، نا أبو عوانة، عن عطاء بن السَّائب، عن سعيد بن جُبَيْر، قال: قال ابن عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إِنَّ خَيْرَ هَذِهِ الأُمَّةِ كَانَ أَكْثَرَهَا نِسَاءً».

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٦/ ١٧٣)، وانظر «كشف الخفاء» (١/ ٣٨٠) حديث (١٠٢١)، وضعفه الألبانِيُّ فِي «ضعيف الجامع» (٢٤٨٤).

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٨٤٦) من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وصحَّحه الألبانِيُّ فِي «صحيح الجامع» (٦٨٠٧).

(٣) أخرجه البخاري (٥٠٧٣)، ومسلم (١٤٠٢).

(٤) أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١).

قال ابن سعد: وأخبرنا أحمد بن عبد الله بن قيس، ثنا مَنْدَل، عن أبِي رجاء الجزريِّ، عن عثمان بن خالد، عن مُحمَّد بن مسلم، قال: قال شدَّادُ بن أَوْسٍ: زَوِّجونِي؛ فإنَّ رسول الله ﷺ أوصانِي ألا أَلْقَىٰ الله عَزَبًا[١].

وأخبرنا ابن الحصين، نا ابن المذهب، نا أحمد بن جعفر، ثنا عبد الله بن أحمد، ثنِي أبِي، ثنا عبد الرزاق، نا مُحمَّد بن راشد، عن مكحول، عن رجل، عن أبِي ذَرٍّ، قال: دَخَل عَلَىٰ رسول الله ﷺ رَجُلٌ يُقَالُ له عكاف بن بشر التَّميميُّ الهلالِيُّ، فقال له النَّبِيُّ ﷺ: «يَا عُكَافُ، هَلْ لَكَ مِنْ زَوْجَةٍ؟ قال: لا. قال: ولا جَارِيَةٌ؟ قال: لا. قال: وَأَنْتَ مُوسِرٌ بِخَيْرٍ؟ قال: وأنا مُوسِرٌ. قال: أَنْتَ إذًا مِنْ إِخْوَانِ الشَّيَاطِين، لَوْ كُنْتَ مِنَ النَّصَارَىٰ، لَكُنْتَ مِنْ رُهْبَانِهِم، إِنَّ سُنَّتَنَا النِّكَاحُ، شِرَارُكُم عُزَّابُكُم، وَأَرَاذِلُ مَوْتَاكُم عُزَّابُكُم، أَبِالشَّيَاطِينَ تَمَرَّسُونَ؟ فَمَا للشَّيَاطِينِ مِنْ سِلاحٍ أَبْلَغَ فِي الصَّالِحِينَ مِنْ تَرْكِ النِّسَاءِ»[٢].

أخبرنا ابنُ الحُصَيْن، نا ابن المذهب، نا أحمد بن جعفر، نا عبد الله بن أحمد بن حنبل، ثنِي أبِي، ثنِي أيوب بن النجار، عن طيب بن مُحمد، عن عطاء بن أبِي رباح، عن أبِي هريرة قال: «لَعَنَ رسول الله ﷺ مُخَنَّثِي الرِّجَالِ، الَّذين يَتَشَبَّهون بالنِّساء، والمترجِّلات من النِّساء المتشبِّهات بالرِّجال، والمتبتِّلين من الرِّجال الَّذين يقولون: لا نتزوَّج، والمتبتِّلات من النِّساء اللاتِي يَقُلْنَ ذلك»[٣].

أخبرنا مُحمَّد بن ناصر، نا عبد القادر بن مُحمَّد، قال: نا أبو بكر الخطيب، نا أبو الفتح ابن أبِي الفوارس، نا أحمد بن جعفر الخُتَّلِيُّ، ثنا أحمد بن مُحمَّد بن عبد الخالق، ثنا أبو بكر المروزي، قال: سمعت أبا عبد الله أحمد بن حنبل، يقول: ليس العزوبةُ من أمر الإسلام فِي

(١) أخرجه ابن أبِي شيبة فِي «المصنف» (٣/ ١٥٣).

(٢) أخرجه أحمد (٢٠٩٣٩)، وضعفه الألبانِي فِي «ضعيف الجامع» (٣٣٨٨).

(٣) أخرجه أحمد (٧٨٣١)، وضعفه الألبانِي فِي «الضعيفة» (١١١٤).

شيء، والنَّبِيُّ ﷺ تزوَّج أَرْبَعَ عَشْرَةَ امْرَأَةٍ، ومات عن تِسْعٍ.

ثُمَّ قال: لو كان بشرُ بن الحارث تزوَّج، كان قد تَمَّ أَمْرُهُ كلُّه، لو ترك الناسُ النِّكاحَ لَمْ يَغْزُوا ولَمْ يحجُّوا، ولَمْ يكن كذا، ولَمْ يكن كذا، وقد كان النَّبِيُّ ﷺ يُصْبِحُ وما عنده شيءٌ، وكان يختار النِّكاح، ويحثُّ عليه، ويَنْهَىٰ عن التَّبَتُّلِ، فمَنْ رَغِبَ عن فِعْلِ النَّبِيِّ ﷺ فهو عَلَىٰ غير الحَقِّ.

ويعقوب عليه السلام فِي حُزْنِهِ قد تزوَّج ووُلِدَ له، والنَّبِيُّ ﷺ قال: «**حُبِّبَ إِلَيَّ النِّسَاءُ**»(١).

قلتُ: فَإِنَّ إبراهيم بن آدم يُحْكَىٰ عنه بِأَنَّه قال لروعة: صاحب عيال. فَمَا قَدَرْتُ أن أُتِمَّ الحَدِيثَ، حَتَّىٰ صَاحَ بِي، وقال: وَقَعْنَا فِي بُنَيَّاتِ الطَّرِيقِ.

انظر -عَافَاكَ اللهُ- ما كان عَلَيْهِ نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ وَأَصْحَابُهُ.

ثُمَّ قال: لَبُكَاءُ الصَّبِيِّ بَيْنَ يَدَيْ أَبِيهِ يَطْلُبُ مِنْهُ خُبْزًا، أَفْضَلُ مِنْ كذا وكذا، أَنَّىٰ يلحق المتعبِّدُ المتعزِّبُ المتزوِّجَ؟

وقد لَبَّس إبليس عَلَىٰ كثيرٍ من الصُّوفيَّةِ، فَمَنَعَهُم من النِّكَاحِ؛ فَقُدَمَاؤُهُم تَرَكُوا ذلك؛ تَشَاغُلًا بالتَّعَبُّدِ، وَرَأَوا النِّكَاحَ شَاغِلًا عن طاعة الله عز وجل وهؤلاء وإن كانت بِهم حاجةٌ إِلَىٰ النِّكَاحِ أو بِهم نَوْعُ تَشَوُّقٍ إليه، فقد خاطروا بأبدانِهم وأديانِهم، وإن لَمْ يَكُنْ بِهِم حَاجَةٌ إليه فاتتهم الفضيلة.

وفِي الصَّحيح من حديث أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أَنَّه قال: «**وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُم صَدَقَةٌ**. قالوا: يأتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ، وَيَكُونُ لَهُ فِيهِ أَجْرٌ؟ قال: **أَرَأَيْتُم لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ، أَكَانَ عَلَيْهِ وِزْرٌ**؟ قالوا: نعم. قال: **وَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الحَلالِ، كَانَ لَهُ أَجْرٌ**. ثُمَّ قال:

---

(١) أخرجه النسائي (٣٩٤٠) من حديث أنس رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣١٢٤).

أَفَتَحْتَسِبُونَ الشَّرَّ، وَلا تَحْتَسِبُونَ الخَيْرَ»(١).

ومنهم من قال: النِّكَاحُ يُوجِبُ النَّفَقَةَ، والكَسْبُ صَعْبٌ، وهَذِهِ حُجَّةٌ للتَّرَفُّهِ عن تَعَبِ الكَسْبِ.

وفِي الصحيح من حديث أَبِي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبِيِّ ﷺ أَنَّه قال: «دِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي رَقَبَةٍ، وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي الصَّدَقَةِ، وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ عَلَىٰ عِيَالِكَ، أَفْضَلُهَا الدِّينَارُ الَّذِي أَنْفَقْتَهُ عَلَىٰ عِيَالِكَ»(٢).

ومنهم من قال: النِّكَاحُ يُوجِبُ المَيْلَ إِلَىٰ الدُّنيا، فروِّينا عن أَبِي سليمان الدَّارانِيِّ أَنَّه قال: إذا طلب الرجل الحديث أو سافر فِي طلب المعاش، أو تزوج، فقد رَكَنَ إِلَىٰ الدُّنيا.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: قلت: وهَذَا كلُّه مُخَالِفٌ للشَّرْعِ، وكيف لا يُطْلَبُ الحديث، والملائكة تضع أجنحتَها لطالب العلم؟

وكيف لا يُطْلَبُ المعاش، وقد قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَأَنْ أَمُوتَ مِنْ سَعْيٍ عَلَىٰ رِجْلِي أَطْلُبُ كَفَافَ وَجْهِي، أَحَبُّ إِلَيَّ من أن أَمُوتَ غازِيًا فِي سبيل الله.

وكيف لا يتزوَّج وصاحبُ الشَّرْعِ يقول: «تَنَاكَحُوا تَنَاسَلُوا»(٣). فما أَرَىٰ هَذِهِ الأَوْضَاعَ إِلَّا عَلَىٰ خِلافِ الشَّرْعِ.

فإِنَّ جَمَاعَةً من مُتَأَخِّري الصُّوفيَّة، تَرَكُوا النِّكَاحَ لِيُقَالَ: زاهد، والعَوَامُّ تُعَظِّمُ الصُّوفِيَّ، إذا لَمْ تَكُنْ له زَوْجَةٌ فيقولون: ما عَرَفَ امْرَأَةً قَطُّ. فهَذِهِ رَهْبَانِيَّةٌ تخالف شَرْعَنَا.

قال أبو حامد: ينبغي ألا يَشْغَلَ المُرِيدُ نَفْسَهُ بالتَّزويج، فإِنَّه يشغله عن السُّلوك، ويأنس

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٠٦).

(٢) أخرجه مسلم (٩٩٥).

(٣) تقدم تخريجه.

بالزَّوْجَةِ، وَمَنْ أَنِسَ بِغَيْرِ الله شُغِلَ عن الله تعالىٰ.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: وإنِّي لأَعْجَبُ من كلامه، أتراه ما علم أنَّ مَنْ قَصَدَ عَفَافَ نَفْسِهِ، ووجودَ ولدٍ، أو عفافَ زَوْجَتِهِ؛ فإنَّه لَمْ يَخْرُجْ عن جادَّة السُّلوك؟ أو يَرَىٰ الأُنْسَ الطبيعي بالزوجة ينافي أُنْسَ القلوب بطاعة الله تعالىٰ، والله تعالىٰ قد مَنَّ عَلَىٰ الخَلْقِ بقوله: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم:٢١].

وفِي الحديث الصحيح، عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبيِّ ﷺ قال له: «**هَلَّا تَزَوَّجْتَ بِكْرًا تُلاعِبُهَا وَتُلاعِبُكَ**»(١).

وما كان بالَّذي لِيَدُلَّهُ عَلَىٰ ما يقطع أُنْسَهُ بالله تعالىٰ، أَتَرَىٰ رسول الله ﷺ لَمَّا كان يَنْبَسِطُ إِلَىٰ نسائه ويُسَابِقُ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أكان خارجًا عن الأُنْسِ بالله؟! هَذِهِ كلُّها جَهَالاتٌ بالعِلْمِ.

فصل [ترك النكاح]

واعلم أنَّه إذا دام تَرْكُ النِّكاح عَلَىٰ شُبَّانِ الصُّوفيَّة، أَخْرَجَهُم إِلَىٰ ثلاثة أنواع:

النوع الأول: المَرَض؛ بِحَبْسِ الماء؛ فإنَّ المَرْءَ إذا طال احتقانُه، تصاعد إِلَىٰ الدِّماغ منه مَنِيُّهُ.

قال أبو بكر مُحمَّد بن زكريا الرازي: أَعْرِفُ قومًا كانوا كثيري المَنِيِّ، فلمَّا منعوا أنفسَهم من الجماع لِضَرْبٍ من التَّفلسف، بَرَدَتْ أبدانُهم وَعَسُرَتْ حركاتُهم، ووقعت عليهم الكآبةُ بلا سببٍ، وعرضت لَهم أعراض الماليخوليا، وَقَلَّتْ شهواتُهم وهضمُهم.

قال: وَرَأَيْتُ رجلًا ترك الجماع، ففقد شهوةَ الطَّعام، وصار إن أكل القَلِيلَ لَمْ يَسْتَمْرِئْه،

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٦٧)، ومسلم (٧١٥).

وتَقَيَّأَهُ، فلمَّا عاد إِلَىٰ عادته من الجماع، سَكَنَتْ عنه هَٰذِهِ الأعراضُ سريعًا.

النوع الثانِي: الفرارُ إِلَىٰ المتروك؛ فَإِنَّ منهم خَلْقًا كثيرًا صابروا عَلَىٰ ترك الجماع، فاجتمع الماء فأُقْلِقُوا، ورجعوا فلامسوا النساء، ولابسوا من الدنيا أضعاف ما فرُّوا منه، فكانوا كَمَنْ أطال الجوعَ، ثُمَّ أكل ما تَرَكَ فِي زمن الصَّبر!

النوع الثالث: الانحراف إِلَىٰ صُحْبَةِ الصِّبيان؛ فإنَّ قومًا منهم أَيَّسُوا أنفسَهم من النِّكاح، فأقلقهم ما اجتمع عندهم، فصاروا يرتاحون إِلَىٰ صُحْبَةِ المُرْدِ.

فصل [شهوة النكاح]

وقد لَبَّسَ عَلَىٰ قومٍ منهم تزوَّجوا وقالوا: إنَّا لا ننكح شهوةً، فإن أرادوا أنَّ الأغلبَ فِي طلب النِّكَاحِ إرادةُ السُّنَّةِ جاز، وإن زعموا أنَّه لا شهوةَ لَهم فِي نفس النِّكاح فَمُحَالٌ ظَاهِرٌ.

وقد حَمَلَ الجَهْلُ أقوامًا، فجَبُّوا أنفسَهم، وزعموا أنَّهم فعلوا ذلك حياءً من الله تعالىٰ، وهَٰذِهِ غايةُ الحماقة؛ لأنَّ الله تعالىٰ شرَّفَ الذَّكَرَ عَلَىٰ الأُنْثَىٰ بِهَٰذِهِ الآلة، وَخَلَقَهَا لتكون سببًا للتَّناسل، والذي يجُبُّ نفسه يقول بلسان الحال: الصَّوابُ ضِدُّ هذا. ثُمَّ قَطْعُهُمُ الآلةَ لا تُزِيلُ شَهْوَةَ النِّكَاحِ من النَّفس، فما حصل لَهم مقصودهم.

ذكر تلبيس إبليس عَلَى الصوفية فِي ترك طلب الأولاد:

أخبرنا المحمدان ابن ناصر وابن عبد الباقي، قالا: نا حمد بن أحمد، نا أبو نُعيم أحمد بن عبد الله، ثنا إسحاق بن أحمد، ثنا إبراهيم بن يوسف، ثنا أحمد بن أبِي الحواري، قال: سمعت أبا سليمان الدَّارانِيَّ يقول: الَّذي يريد الولد أَحْمَقُ، لا للدنيا ولا للآخرة، إن أراد أن يأكل أو ينام أو يُجامع نَغَّص عليه، وإن أراد أن يتعبَّد شَغَلَهُ.

قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ: **قلت**: وهَٰذَا غلطٌ عظيمٌ، وبيانُه أنَّه لَمَّا كان مرادُ الله تعالىٰ من إيجاد

الدُّنيا اتِّصَالَ دَوَامِهَا إِلَىٰ أن يَنْقَضِي أجلُها، وكان الآدميُّ غير ممتدِّ البقاء فيها إلَّا إِلَىٰ أَمَدٍ يَسِيرٍ، أخلف اللهُ تعالىٰ منه مثلَه، فَحَثَّه عَلَىٰ سببه فِي ذلك، تارةً من حيث الطَّبْعِ، بإيقاد نار الشَّهْوَةِ، وتارةً من باب الشَّرْعِ، بقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ﴾ [النور:٣٢]، وقول الرسول ﷺ: «تَنَاكَحُوا، تَنَاسَلُوا؛ فَإِنِّي أُبَاهِي بِكُمُ الأُمَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَلَوْ بِالسِّقْطِ»[١].

وقد طلب الأنبياءُ -عليهم الصلاة والسلام- الأولادَ، فقال تعالىٰ حكايةً عنهم: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران:٣٨]، ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم:٤٠]... إِلَىٰ غير ذلك من الآيات.

وَتَسَبَّبَ الصَّالِحُون إِلَىٰ وُجودِهم، وَرُبَّ جِمَاعٍ حَدَث منه ولدٌ؛ مثل الشَّافِعي، وأحمد بن حنبل، فكان خيرًا من عبادة ألف سَنَةٍ.

وقد جاءت الأخبار بإثابة المباضعة، والإنفاق عَلَىٰ الأولاد والعيال، ومن يموت له ولد، وَمَنْ يُخَلِّفُ ولدًا بعده، فمن أعرض عن طلب الأولاد، والتَّزَوُّجِ، فقد خالف المسنون والأفضل، وحُرِمَ أَجْرًا جسيمًا، ومن فعل ذلك فإنَّما يطلب الرَّاحة.

أخبرنا عمر بن ظفر، نا جعفر بن أحمد بن السَّرَّاج، نا أبو القاسم الأزجيُّ، ثنا ابن جهضم، ثنا الخلدي، قال: سمعت الجُنيد يقول: الأولادُ عقوبةُ شهوة الحلال، فما ظنُّكم بعقوبة شهوة الحرام؟

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: وهَذَا غَلَطٌ؛ فإنَّ تَسْمِيَةَ المباح عُقُوبَةً لا يَحْسُنُ؛ لأنَّه لا يُبَاحُ شَيْءٌ، ثُمَّ يكون ما تجدَّد منه عقوبةً، ولا يُنْدَبُ إِلَىٰ شيءٍ، إلَّا وحاصلُه مثوبةٌ.

---

(١) ذكره العجلوني فِي «كشف الخفاء» (١٣٢١) وعزاه لعبد الرزاق والبيهقي، دون قوله: «ولو بالسقط». وضعفه الألباني فِي «ضعيف الجامع» (٢٤٨٤).

ذكر تلبيس إبليس عَلَى الصوفية فِي الأسفار والسياحة:

قد لَبَّسَ إِبْلِيسُ عَلَىٰ خَلْقٍ كثيرٍ منهم، فَأَخْرَجَهُم إِلَىٰ السِّيَاحَةِ، لا إِلَىٰ مكانٍ معروفٍ، ولا إِلَىٰ طَلَبِ عِلْمٍ، وأكثرُهم يخرج عَلَىٰ الوحدة، ولا يستصحب زادًا، ويدَّعي بذلك الفِعْلِ التَّوَكُّل، فكم تفوته من فضيلةٍ وفريضةٍ، وهو يرىٰ أنَّه فِي ذلك عَلَىٰ طاعةٍ، وأنَّه يقرب ذلك من الولاية، وهو من العصاة المخالفين لسنَّة رسول الله ﷺ.

وأمَّا السِّيَاحَةُ والخروج لا إِلَىٰ مكانٍ مقصودٍ، فقد نَهىٰ رسول الله ﷺ عن السَّعْيِ فِي الأرض فِي غير أربٍ وحاجةٍ.

أخبرنا مُحمَّدُ بن ناصر، نا المبارك بن عبد الجبَّار، نا إبراهيم بن عمر البرمكيُّ، نا ابن حيويه، نا عبيدُ الله بن عبد الرحمن السُّكريُّ، قال: سمعت أبا مُحمَّد بن قتيبة، يقول: ثني مُحمَّد بن عبيد، عن معاوية بن عمرو، عن أَبِي إسحاق، عن سفيان، عن ابن جريج، عن الحسن بن مسلم، عن طاوس، أن رسول الله ﷺ قال: «لا زِمَامَ، ولا خِزَامَ، ولا رَهْبَانِيَّةَ، ولا تَبَتُّلَ، ولا سِيَاحَةَ فِي الإِسْلامِ»[1].

قال ابن قتيبة: الزِّمَامُ: فِي الأَنْفِ. والخِزَامُ: حَلْقَةٌ مِنْ شَعْرٍ يُجْعَلُ فِي أحد جانبَيِ المِنْخَرَيْنِ. وأراد ﷺ ما كان عُبَّادُ بني إسرائيل يفعلونه من خَزْمِ التَّراقي وزمِّ الأنوف. والتَّبَتُّلُ: تَرْكُ النِّكاح. والسِّياحة: مفارَقةُ الأمصار والذَّهابُ فِي الأرض.

وروىٰ أبو داود فِي «سُنَنِهِ» من حديث أَبِي أمامة، أَنَّ رجلًا قال: يا رسول الله ائْذَنْ لِي فِي السياحة. فقال النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ سِيَاحَةَ أُمَّتِي الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ»[2].

قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ: وَقَدْ ذَكَرْنَا فيما تقدَّم من حديث ابن مظعون أنَّه قال: يا رسولَ الله،

---

(١) أخرجه عبد الرزاق فِي «المصنف» (٨/ ٤٤٨) عن طاوس مرسلًا، وضعَّفه الألبانِيُّ فِي «ضعيف الجامع» (٦٢٨٧).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٤٨٦)، وصححه الألبانِي فِي «صحيح الجامع» (٢٠٩٣).

إِنَّ نَفْسِي تحدِّثنِي بأن أَسِيحَ فِي الأرض. فقال النَّبِيُّ ﷺ له: «**مَهْلًا يَا عُثْمَانُ، فَإِنَّ سِيَاحَةَ أُمَّتِي الغَزْوُ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَالحَجُّ وَالعُمْرَةُ**»(١).

وقد روىٰ إسحاق بن إبراهيم بن هانئ، عن أحمد بن حنبل أنَّه سئل عن الرجل يَسِيحُ يَتَعَبَّدُ أَحَبُّ إليك، أو المقيم فِي الأمصار؟ قال: ما السِّيَاحَةُ فِي الإسلام فِي شيء، ولا من فعل النَّبيِّين ولا الصَّالحين.

وأمَّا الخروجُ عَلَىٰ الوحدة، فقد نَهىٰ رسول الله ﷺ أن يُسَافِرَ الرَّجُلُ وَحْدَهُ(٢).

فأخبرنا عبد الرحمن بن مُحمَّد، نا أحمد بن علي بن ثابت، نا مُحمَّد بن الطَّيِّب الصَّبَّاغ، نا أحمد بن سليمان النجاد، ثنا يَحيَىٰ بن جعفر بن أَبِي طالب، ثنا علي بن عاصم، ثنا عبد الرحمن بن حرملة، ثنا عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جَدِّهِ، أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «**الرَّاكِبُ شَيْطَانٌ، والاثْنَانِ شَيْطَانَانِ، والثَّلاثَةُ رَكْبٌ**»(٣).

أخبرنا هبة الله بن مُحمَّد، نا الحسن بن علي، نا أحمد بن جعفر، ثنا عبد الله بن أحمد، ثنِي أَبِي، ثنا أيوب بن النَّجار، عن طيب بن مُحمَّد، عن عطاء بن أَبِي رباح، عن أَبِي هريرة قال: «**لَعَنَ رسول الله ﷺ رَاكِبَ الفَلاةِ وَحْدَهُ**»(٤).

وقد يمشون باللَّيل أيضًا عَلَىٰ الوحدة، وقد نَهَىٰ النَّبِيُّ ﷺ عن ذلك.

وأخبرنا ابن الحصين، نا ابن المذهب، نا أحمد بن جعفر، ثنا عبد الله بن أحمد، ثنِي أَبِي، ثنا مُحمَّد بن عبيد، ثنا عاصم، عن أبيه، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال النَّبِيُّ ﷺ: «**لَوْ**

(١) تقدم تخريجه.
(٢) أخرجه أحمد (٥٦١٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وصححه الألباني فِي «صحيح الجامع» (٦٩١٩).
(٣) أخرجه أبو داود (٢٦٠٧)، والترمذي (١٦٧٤)، وصححه الألباني فِي «صحيح الجامع» (٣٥٢٤).
(٤) أخرجه أبو نعيم فِي «حلية الأولياء» (٦/ ٢٨٣)، وانظر: التخريج قبل السابق.

يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي الوِحْدَةِ، مَا سَارَ أَحَدٌ وَحْدَهُ بِلَيْلٍ أَبَدًا»(١).

قال عبد الله: وَحَدَّثَنِي أَبِي، ثنا مُحمَّدُ بن أَبِي عدي، ثنا مُحمَّد بن إسحاق، عن مُحمَّد بن إبراهيم، عن عطاء بن يسار، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أَقِلُّوا الخُرُوجَ إِذَا هَدَأَتِ الرِّجْلُ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَبُثُّ فِي خَلْقِهِ مَا شَاءَ»(٢).

قال المصنف رحمه الله: وفيهم من جعل دَأْبَهُ السَّفَرَ، والسَّفر لا يُرَادُ لِنَفْسِهِ، قال النَّبِيُّ ﷺ: «السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ العَذَابِ، فَإِذَا قَضَىٰ أَحَدُكُمْ نَهْمَتَهُ مِنْ سَفَرِهِ، فَلْيُعَجِّلْ إِلَىٰ أَهْلِهِ»(٣).

فَمَنْ جعل دَأْبَهُ السَّفَرَ فقد جمع بين تضييع العمر، وتعذيب النَّفْسِ، وكلاهُما مقصودٌ فاسدٌ.

أنبأنا عبد المنعم بن عبد الكريم، ثنا أَبِي قال: سمعت مُحمَّد بن أَبِي الطَّيِّب العكيَّ يقول: سمعت أبا الحسن البصري يقول: سمعتُ أبا حمزة الخراسانِيَّ يقول: كُنْتُ قد بَقِيتُ مُحْرِمًا فِي عباءٍ، أُسَافِرُ كُلَّ سَنَةٍ ألف فرسخٍ، تَطْلُعُ الشَّمْسُ عَلَيَّ وَتَغْرُبُ، كلَّما أحللتُ أحرمتُ.

ذكر تلبيسه عليهم في دخول الفلاة بغير زاد:

قال المصنف رحمه الله: قد لبَّس عَلَىٰ خَلْقٍ كثيرٍ منهم، فَأَوْهَمَهُم أنَّ التَّوَكُّلَ تَرْكُ الزَّاد، وقد بَيَّنَّا فسادَ هَذَا فيما تقدَّم، إلَّا أنَّه قد شاع هَذَا فِي جَهَلَةِ القوم، وجاء حَمْقَىٰ القُصَّاص يحكون ذلك عنهم، عَلَىٰ سبيل المَدْحِ لَهم به، فيتضمَّن ذلك تحريض الناس عَلَىٰ مِثْلِ ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٩٨).

(٢) أخرجه أحمد (١٣٨٧١)، وصححه الألباني فِي «صحيح الجامع» (١١٨٤).

(٣) أخرجه البخاري (١٨٠٤)، ومسلم (١٩٢٧) من حديث أبِي هريرة رضي الله عنه.

وبأفعال أولئك، وَمَدْحِ هؤلاء لهؤلاء، فَسَدَتِ الأحوالُ، وَخَفِيَتْ عَلَىٰ العَوَامِّ طُرُقُ الصَّوَابِ.

والأخبارُ عنهم بذلك كثيرةٌ، وأنا أذكر منها نُبْذَةً:

أنبأنا مُحمَّد بن عبد الملك، نا أبو بكر، نا رضوان بن مُحمَّد الدِّينوري، ثنا طاهر بن عبد الله، ثنا الفضل بن الفضل الكندي، ثني أبو بكر مُحمَّد بن عبد الواحد بن جعفر الواسطي، ثنا مُحمَّد بن السفاح، عن علي بن سهل البَصْرِيِّ، قال: أخبرني فتح الموصلي قال: خرجت حاجًّا، فَلَمَّا تَوَسَّطْتُ الباديةَ إذا أنا بغلامٍ صغيرٍ، فقلتُ: يا عجبًا! باديةٌ بيداء، وأرضٌ قفراء، وغلامٌ صغيرٌ. فَأَسْرَعْتُ، فَلَحِقْتُهُ، فَسَلَّمْتُ عليه، ثُمَّ قُلْتُ: يا بُنَيَّ، إِنَّكَ غُلامٌ صغيرٌ لَمْ تَجْرِ عليك الأحكام.

قال: يا عَمُّ، قد مات مَنْ كان أَصْغَرَ سِنًّا مِنِّي.

فَقُلْتُ: وَسِّعْ خُطَاكَ؛ فَإِنَّ الطَّرِيقَ بَعِيدٌ، حَتَّىٰ تلحق المنْزل.

قال: يا عَمُّ! عَلَيَّ المَشْيُ، وعَلَىٰ اللهِ البلاغُ، أَمَا قرأتَ قولَه تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾[العنكبوت:٦٩].

فقلتُ له: ما لي لا أرىٰ معك لا زادًا ولا راحلةً؟

فقال: يا عمُّ، زادي يقيني، وراحلتِي رجائي.

قلتُ: سألتُك عن الخبز والماء.

قال: يا عَمُّ، أخبرني لو أنَّ أخًا من إخوانك، أو صديقًا من أصدقائك، دعاك إِلَىٰ منْزله، أَكُنْتَ تستحسن أن تحمل معك طعامًا فتأكله فِي منْزله؟ فقلتُ: أُزَوِّدُكَ. فقال: إليك عنِّي يا بطَّال، هو يُطْعِمُنَا وَيَسْقِينَا. قال فتحٌ: فما رَأَيْتُ صغيرًا أَشَدَّ تَوَكُّلًا منه، ولا رأيتُ كبيرًا أَشَدَّ زُهْدًا منه.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: بِمِثْلِ هَذِهِ الحِكَايَةِ تَفْسَدُ الأمورُ، وَيظنُّ أنَّ هَذَا هو الصَّوابُ، ويقول الكبير: إذا كان الصَّغيرُ قد فعل هَذَا، فَأَنَا أَحَقُّ بِفِعْلِهِ منه. وليس العجب من الصَّبِيِّ، بل من الَّذي لَقِيَهُ، كيف لَمْ يعرفه؛ أنَّ هَذَا الذي يفعله منكر، وأنَّ الَّذي استدعاك أَمَرَكَ بالتَّزَوُّدِ، ومن ماله يُتَزَوَّدُ، ولكن مضىٰ عَلَىٰ هَذَا كِبَارُ القَوْمِ، فكيف الصِّغَارُ؟!

أخبرنا أبو منصور القزَّاز، نا أبو بكر بن علي الحافظ، نا أبو نُعيم الأصفهانِي، قال: سمعت مُحمَّد بن الحسن بن علي اليقطينِي يقول: حَضَرْتُ أبا عبد الله بن الجلاء، وقيل له عن هؤلاء الَّذين يدخلون البادية بلا زادٍ، ولا عُدَّةٍ، يزعمون أنَّهم متوكِّلون، فيموتون فِي البراري، فقال: هَذَا فِعْلُ رِجَالِ الحَقِّ، فإن ماتوا فالدِّيَةُ عَلَىٰ القاتل.

أخبرنا ابن ناصر، أنبأنا أحمد بن علي بن خلف، نا أبو عبد الرحمن السلمي، قال: سمعت أبا الحسين الفارسي، يقول: سمعت أحمد بن علي يقول: قال رجلٌ لأبِي عبد الله ابن الجلاء، ما تقول فِي الرجل يدخل البادية بلا زادٍ؟ قال: هَذَا من فِعْلِ رجال الله. قال: فإن مات. قال: الدِّيَةُ عَلَىٰ القاتل.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: قُلْتُ: هَذِهِ فَتْوَىٰ جَاهِلٍ بِحُكْمِ الشَّرْعِ؛ إذ لا خِلافَ بَيْنَ فقهاءِ الإسلام، أنَّه لا يَجُوزُ دخول البادية بغير زادٍ، وأنَّ مَنْ فعل ذلك فمات بالجُوعِ، فَإِنَّه عاصٍ لله تعالىٰ، مُسْتَحِقٌّ لدخول النَّار، وكذلك إذا تعرَّض بِما غالبُه العَطَبُ، فإنَّ الله جَعَلَ النُّفُوسَ وَدِيعَةً عندنا، فقال: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [النساء:٢٩].

وقد تكلَّمْنَا فيما تقدَّم فِي وجوب الاحتراز من المؤذي، ولو لَمْ يكن المسافرُ بغير زادٍ إلَّا أنَّه خالف أمر الله فِي قوله: ﴿وَتَزَوَّدُواْ﴾ [البقرة:١٩٧].

أخبرنا أبو بكر بن حبيب، نا أبو سعد بن أبِي صادق، نا ابن باكويه، قال: سمعتُ أبا أحمد الكبير، يقول: سمعت أبا عبد الله بن خفيف، قال: خرجتُ من شيراز فِي السَّفْرَةِ

الثَّالثة، فَتُهْتُ فِي البادية وَحْدِي، وَأصابَنِي من الجُوعِ والعَطَشِ ما أَسْقَطَ من أسنانِي ثمانيةً، وانْتَثَرَ شعري كلُّه.

قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ: **قُلْتُ**: هَذَا قد حكىٰ عن نفسه ما ظاهرُه طَلَبُ المدح عَلَىٰ ما فعل، والذَّمُّ لاحقٌ به.

أخبرنا أبو منصور القزاز، نا أحمد بن علي بن ثابت، نا عبد الكريم بن هوازن، قال: سمعتُ أبا عبد الرحمن السلمي، يقول: سمعت مُحمَّد بن عبد الله الواعظ، وأخبرنا أبو بكر ابن حبيب، نا أبو سعد بن أبِي صادق، نا أبو عبد الله بن باكويه واللَّفظُ له، ثنا أبو الفضل يوسف بن علي البَلخيّ، ثنا مُحمَّد بن عبد الله أبو حمزة الصوفي، قال: إنِّي لأَسْتَحْيِي من الله أن أَدْخُلَ البادية، وأنا شبعان، وقد اعتقدتُ التَّوَكُّلَ؛ لئلا يكون شِبَعِي زادًا تزوَّدتُه.

قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ: قلتُ: وقد سَبَقَ الكلامُ عَلَىٰ مِثْلِ هذا، وإنَّ هؤلاء القَوْمَ ظنُّوا أنَّ التَّوَكُّلَ تَرْكُ الأسباب.

ولو كان هكذا لكان رسول الله ﷺ حين تزوَّد لمَّا خرج إِلَىٰ الغار قَدْ خَرَجَ من التَّوكُّل، وكذلك موسىٰ لمَّا طلب الخَضِرَ تزوَّد حوتًا، وأهلُ الكهف حين خرجوا، فاستصحبوا دراهِمَ، واستخفُّوا ما معهم.

وإنَّما خَفِيَ عَلَىٰ هؤلاء معنىٰ التَّوكُّلِ؛ لِجَهْلِهِم، وقد اعتذر لَهم أبو حامد فقال: لا يَجُوزُ دُخُولُ المَفَازَةِ بغير زادٍ إلَّا بشرطين:

أحدُهما: أن يكون الإنسانُ قد راض نَفْسَهُ، حيث يُمْكِنُهُ الصَّبْرُ عَلَىٰ الطَّعام أُسْبُوعًا ونحوه.

والثانِي: أن يُمْكِنَهُ التَّقَوُّتُ بالحشيش، ولا تخلو البادية من أن يلقاه آدميٌّ بعد أسبوعٍ، أو ينتهي إِلَىٰ مَحَلَّةٍ، أو حَشِيشٍ، يُزْجِي به وَقْتَهُ.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قلت: أَقْبَحُ ما فِي هَذَا القول أنَّه صَدَرَ مِنْ فَقِيهٍ؛ فإنَّه قد لا يَلْقَىٰ أحدًا، وقد يَضِلُّ، وقد يَمْرَضُ، فلا يَصْلُحُ له الحشيشُ، وقد يلقىٰ من لا يُطْعِمُهُ، ويتعرَّض بمن لا يُضَيِّفُهُ، وَتَفُوتُهُ الجماعةُ قَطْعًا، وقد يَمُوتُ ولا يُقابِلُهُ أَحَدٌ.

ثُمَّ قد ذكرنا ما جاء فِي الوِحْدَةِ، ثُمَّ ما المُحْوِجُ إِلَىٰ هَذَه المِحَنِ، إن كان يُعْتَمَدُ فيها عَلَىٰ عادةٍ أو لقاء شخصٍ والاجتزاء بحشيشٍ؟ وأيُّ فَضِيلَةٍ فِي هَذِهِ الحال حتَّىٰ يُخَاطِرَ فيها بالنَّفْسِ؟ وأين أمر الإنسان أن يتقوَّت بحشيشٍ؟ ومن فعل هَذَا من السَّلَفِ؟

وكأنَّ هؤلاء القوم يَجْزِمُون عَلَىٰ الله سبحانه أن يرزقَهم فِي البادية، وَمَنْ طلب الطَّعام فِي البَرِّيَّةِ فقط، طلب ما لَمْ تَجْرِ به العادةُ.

ألا ترىٰ أَنَّ قَوْمَ موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لَمَّا سَأَلُوا مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وفُومِهَا وعَدَسِهَا وبَصَلِهَا، أَوْحَىٰ اللهُ إِلَىٰ موسىٰ، أَنِ اهْبِطُوا مِصْرًا؛ وذلك لأنَّ الَّذي طَلَبُوهُ فِي الأمصار، فهؤلاء القوم عَلَىٰ غايةِ الخَطَأِ فِي مُخالَفة الشَّرْعِ والعَقْلِ، والعملِ بِمُوَافَقَاتِ النَّفْسِ.

أخبرنا مُحمَّدُ بن ناصر، نا المباركُ بن عبد الجبَّار، نا عبد العزيز بن علي الأزجيُّ، نا إبراهيم بن مُحمَّد بن جعفر السَّاجي، نا أبو بكر عبد العزيز بن جعفر، ثنا أبو بكر أحمد بن مُحمَّد الخلال، نا الحسن بن أحمد الكرمانِي، ثنا أبو بكر، ثنا شبابة، ثنا ورقاء، عن عمرو ابن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: كان أَهْلُ اليَمَنِ يَحُجُّون ولا يتزوَّدون ويقولون: نحن متوكِّلون، فيحجُّون، فيأتون إِلَىٰ مَكَّةَ، فيسألون الناس، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة:١٩٧].

أخبرنا أبو المعمر الأنصاريُّ، نا يَحيَىٰ بن عبد الوهَّاب بن مَنْدَه، نا أبو طاهر مُحمَّد بن أحمد بن عبد الرحيم، نا أبو مُحمَّد بن حيَّان، ثنا أبو بكر أحمد بن هارون البرديجي، ثنا عبد الله بن الأزهر، ثنا أسباط، ثنا مُحمَّد بن موسىٰ الجرجانِي، قال: سألت مُحمَّد بن كثير

الصنعانِي، عن الزُّهَّادِ الَّذين لا يتزوَّدون، ولا يَنْتَعِلُون، ولا يَلْبَسُونَ الخفافَ، فقال: سَأَلْتَنِي عن أَوْلادِ الشَّياطين، ولَمْ تَسْأَلْنِي عن الزُّهَّادِ.

فَقُلْتُ له: فَأَيُّ شَيْءٍ الزُّهْدُ؟ قال: التَّمَسُّكُ بالسُّنَّةِ، والتَّشَبُّهُ بِأَصْحَابِ النَّبيِّ ﷺ.

أخبرنا مُحمَّد بن ناصر، نا أبو الحسين بن عبد الجبار، نا عبد العزيز بن علي الأزجي، نا إبراهيم بن مُحمَّد الساجي، نا أبو بكر عبد العزيز بن جعفر، نا أبو بكر أحمد بن مُحمَّد الخلال، نا أحمد بن الحسين بن حسان، أن أبا عبد الله أحمد بن حنبل سُئِلَ عن الرَّجُلِ يُرِيدُ المَفَازَةَ بِغَيْرِ زادٍ، فَأَنْكَرَهُ إنكارًا شديدًا، وقال: أُفٍّ أُفٍّ، لا، لا -وَمَدَّ بِها صَوْتَهُ- إلَّا بِزَادٍ وَرُفَقَاءِ قَافِلَةٍ.

قال الخلال: وقال أبو بكر المروزيُّ: وجاء رَجُلٌ إِلَىٰ أبِي عبد الله، فقال: رَجُلٌ يُرِيدُ سَفَرًا، أيُّما أَحَبُّ إليك؟ يَحْمِلُ مَعَهُ زَادًا أو يَتَوَكَّلُ؟ فقال له أبو عبد الله: يَحْمِلُ مَعَهُ زَادًا، وَيَتَوَكَّلُ؛ حتَّىٰ لا يتشرَّف للنَّاس.

قال الخلال: وأخبرني إبراهيم بن الخليل، أنَّ أحمد بن نصر، حَدَّثَهُم أنَّ رجلًا سأل أبا عبد الله: أَيَخْرُجُ الرَّجُلُ إِلَىٰ مَكَّةَ مُتَوَكِّلًا لا يَحْمِلُ مَعَهُ شَيْئًا؟

قال: لا يُعْجِبُنِي، فَمِنْ أين يأكل؟ قال: فيتوكَّل فيعطيه النَّاس. قال: فإذا لَمْ يعطوه، أليس يتشرَّف لَهم حتَّىٰ يُعطوه؟ لا يعجبني هذا، لَمْ يبلغني أنَّ أحدًا من أصحاب النَّبيِّ ﷺ والتَّابعين فَعَلَ هذا.

قال الخلال: وأخبرنا مُحمَّد بن علي السِّمسار، أنَّ مُحمَّد بن موسىٰ بن مشيش، حَدَّثهم أنَّ أبا عبد الله سَأَلَهُ رَجُلٌ فقال: أَحُجُّ بلا زادٍ؟ فقال: لا. اعمل واحترف. فقال: فهؤلاء الَّذين يُعْرَفُونَ ويَحُجُّون بلا زادٍ هم عَلَىٰ الخطأ؟ قال: نعم. هم عَلَىٰ الخطأ.

قال الخلال: وأخبرني مُحمَّدُ بن أحمد بن جامع الرازي، قال: سَمِعْتُ الحسين الرَّازي

قال: شَهِدْتُ أحمد بن حنبل، وجاءه رَجُلٌ من أهل خراسان، فقال له: يا أبا عبد الله، معي دِرْهَمٌ، أَحُجُّ بِهَذَا الدِّرهَمِ؟

فقال له أحمد: اذهب إِلَىٰ باب الكرخ، فَاشْتَرِ بِهَذَا الدِّرْهَمِ حَبًّا، وَاحْمِلْ عَلَىٰ رَأْسِكَ، حتَّىٰ يَصِيرَ عِنْدَكَ ثلاثُمائة درهمٍ فَحُجَّ.

قال: يا أبا عبد الله، أَتَرَىٰ مكاسبَ النَّاس؟

قال أحمد: لا تَنْظُرْ إِلَىٰ هَذَا؛ فإنَّه مَنْ رَغِبَ فِي هَذَا يُرِيدُ أن يُفْسِدَ عَلَىٰ الناس معايشَهم.

قال: يا أبا عبد الله، أنا مُتَوَكِّلٌ.

قال: فَتَدْخُلُ البادية وَحْدَكَ أو مع النَّاس؟

قال: لا. مع الناس.

قال: كَذَبْتَ، إذن لَسْتَ بِمُتَوَكِّلٍ، فَادْخُلْ وَحْدَكَ، وإلَّا فأنت متوكِّلٌ عَلَىٰ جراب النَّاس.

سياق ما جرى للصوفية في أسفارهم وسياحاتهم من الأفعال المخالفة للشرع

أخبرنا أبو منصور عبد الرحمن بن مُحمَّد القزَّاز، نا أبو بكر أحمد بن عَلِيّ بن ثابت (ح) نا مُحمَّد بن عبد الباقي، نا حمد بن أحمد، نا أبو نعيم الحافظ، ثنا أحمد بن مُحمَّد بن مقسم، ثني أبو بدر الخياط الصوفي، قال: سمعت أبا حمزة يقول: سَافَرْتُ سَفْرَةً عَلَىٰ التَّوَكُّلِ، فبينما أنا أَسِيرُ ذاتَ ليلةٍ والنَّوْمُ فِي عيني، إذ وَقَعْتُ فِي بِئْرٍ، فَرَأَيْتُنِي قد حصلت فيها، فلم أَقْدِرْ عَلَىٰ الخروج؛ لِبُعْدِ مُرْتَقَاها، فجلستُ فيها، فبينما أنا جالسٌ إذ وَقَفَ عَلَىٰ رأس البئر رَجُلانِ، فقال أحدُهُما لصاحبه: نجوز ونترك هَذَا البئر فِي طريق المسلمين السَّابلة والمارَّة.

فقال الآخر: فما نصنع؟

قال: فَبَدَرْتُ نفسي أن أناديهما؟ فنوديتُ: تتوكَّل علينا وتشكو بلاءَنا إِلَىٰ سوانا. فَسَكَتُّ، فَمَضَيَا، ثُمَّ رَجَعَا ومعهما شيءٌ، فجعلاه عَلَىٰ رأسِها غَطَّوْهَا به، فقالت لي نفسي: أَمِنْتُ طَمَّهَا، ولكن حَصَلْتُ فيها مسجونًا.

فَمَكَثْتُ يومي وليلتِي، فلمَّا كان الغدُ، ناداني شيءٌ يَهْتِفُ بي ولا أراه، تَمَسَّكْ بي شديدًا. فمددتُ يدي، فوقعتُ عَلَىٰ شيءٍ خَشِنٍ، فتمسَّكْتُ به، فعلاها وطرحنِي فوق الأرض، فإذا هو سَبُعٌ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُ لَحِقَ نَفْسِي من ذلك ما يلحق مِنْ مِثْلِهِ، فَهَتَفَ بِي هاتفٌ وهو يقول: يا أبا حمزة استنقذناك من البلاء بالبلاء، وكفيناك ما تَخاف بِما تخاف.

أخبرنا مُحمَّد بن ناصر، نا مُحمَّد بن أَبِي نصر الحميدي، نا أبو بكر مُحمَّد بن أحمد الأردستانِي، ثنا أبو عبد الرحمن السلمي، قال: سمعت مُحمَّد بن حسن المخرمي، سمعت

ابن المالكي يقول: قال أبو حمزة الخراسانيُّ: حَجَجْتُ سَنَةً مِنَ السِّنين، فبينا أنا أمشي فِي الطَّريق، وَقَعْتُ فِي بِئْرٍ، فَنَازَعَتْنِي نَفْسِي أن أَسْتَغِيثَ، فَقُلْتُ: لا والله، لا أستغيثُ.

فما أَتْمَمْتُ هَذَا الخاطر حتَّىٰ مَرَّ برأس البئر رجلان، فقال أحدُهما للآخر: تَعَالَ نَسُدُّ رَأْسَ هَذَا البِئْرِ فِي هَذَا الطَّريق، فَأَتَوْا بِقَصَبٍ وباريةٍ، فَهَمْهَمْتُ، فَقُلْتُ: إِلَىٰ مَنْ هو أقرب إليك منهما. وَسَكَتُّ حتَّىٰ طَمُّوا رَأْسَ البئر، فَإِذَا بِشَيْءٍ قد جاء، فَكَشَفَ عن رأس البئر ودلَّىٰ رِجْلَيْهِ، وكان يقول فِي همهمةٍ له: تَعَلَّقْ بِي. فتعلَّقْتُ به، فأخرجنِي، فنظرتُ، فإذا هو سَبُعٌ، فَهَتَفَ بِي هاتفٌ وهو يقول: يا أبا حمزة، أليس ذا حَسَنًا، نَجَّيْنَاكَ مِنَ التَّلَفِ بالتَّلَفِ.

أخبرنا أبو منصور القزاز، نا أحمد بن علي بن ثابت، نا أبو القاسم رضوان ابن مُحمَّد ابن الحسن الدينوري، قال: سَمِعْتُ أحمد بن مُحمَّد بن عبد الله النيسابوري، يقول: سمعت أبا بكر مُحمَّد بن أحمد بن عبد الوهاب الحافظ، يقول: سمعت أبا عبد الله مُحمَّد بن نعيم، يحكي عن أَبِي حمزة الصوفي الدمشقي، أنَّه لَمَّا خرج من البِئْرِ أَنْشَدَ يقول:

نَهَانِي حَيَائِي مِنْكَ أَنْ أَكْشِفَ الهَوَى ... فَأَغْنَيْتَنِي بِالقُرْبِ مِنْكَ عَنِ الكَشْفِ
تَرَاءَيْتَ لِي بِالغَيْبِ حَتَّى كَأَنَّنِي ... تُبَشِّرُنِي بِالغَيْبِ أَنَّكَ فِي الكَفِّ
أَرَاكَ وَبِي مِنْ هَيْبَتِي لَكَ وَحْشَةٌ ... وَتُؤْنِسُنِي بِالعَطْفِ مِنْكَ وَبِاللُّطْفِ
وَتُحْيِي مُحِبًّا أَنْتَ فِي الحُبِّ حَتْفُهُ ... وَذَا عَجَبٌ كَوْنُ الحَيَاةِ مَعَ الحَتْفِ

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: قُلْتُ: اخْتَلَفُوا فِي أَبِي حَمْزَةَ هَذَا الوَاقِعِ فِي البِئْرِ، فقال أبو عبد الرحمن السُّلميُّ: هو أبو حمزة الخراسانِيُّ، وكان من أَقْرَان الجُنَيْدِ، وَقَدْ ذَكَرْنَا فِي روايةٍ أخرىٰ أنَّه دِمَشْقِيٌّ.

وقال أبو نُعيم الحافظ: هو أبو حمزة البغداديُّ، واسمُه مُحمَّدُ بن إبراهيم، وذَكَرَهُ الخطيبُ فِي «تاريخه» وَذَكَرَ له هَذِهِ الحكايةَ، وأيّهم كان فهو مخطئٌ فِي فِعْلِهِ، مُخَالِفٌ

للشَّرْعِ بسكوتِه، مُعِينٌ بِصَمْتِهِ عَلَىٰ نَفْسِهِ، وقد كان يَجِبُ عليه أن يَصِيحَ، وَيَمْنَعَ مِنْ طَمِّ البِئْرِ، كما يَجِبُ عليه أن يَدْفَعَ عن نفسه مَنْ يقصد قتلَه.

وقوله: لا أستغيث. كقول القائل: لا آكُلُ الطَّعام، ولا أشرب الماء. وهَذَا جَهْلٌ من فاعله، ومُخالَفةُ الحكمة فِي وَضْعِ الدُّنيا؛ فَإِنَّ الله تعالىٰ وَضَعَ الأشياء عَلَىٰ حِكْمَةٍ، فَوَضَعَ للآدميِّ يَدًا يُدَافِعُ بِها، وَلِسَانًا يَنْطِقُ به، وَعَقْلًا يَهْدِيهِ إِلَىٰ دَفْعِ المَضَارِّ، واجتلاب المصالح، وَجَعَلَ الأَغْذِيَةَ والأدوية لمصلحة الآدميِّين، فَمَنْ أَعْرَضَ عن استعمال ما خُلِقَ له، وَأُرْشِدَ إليه، فقد رفض أَمْرَ الشَّرع، وَعَطَّلَ حكمةَ الصَّانع.

فإن قال جاهلٌ: فكيف أَحْتَرِزُ مع أَمْرِ القَدَرِ؟

قُلْنَا: وكيف لا يُحْتَرَزُ مع أمر المُقَدَّرِ وقد قال الله تعالىٰ: ﴿خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ [النساء:٧١]، وقد اختفىٰ النَّبِيُّ ﷺ فِي الغَارِ وقال لسراقة: «أَخْفِ عَنَّا»[١].

واستأجر دليلًا إِلَىٰ المدينة[٢]، ولَمْ يَقُلْ أَخْرُجُ عَلَىٰ التَّوَكُّلِ، وما زال بِبَدَنِهِ مع الأسباب، وبِقَلْبِهِ مع المسبِّب، وقد أحكمنا هَذَا الأصل فيما تقدَّم.

وقول أبي حمزة: فنوديتُ من باطنِي، هَذَا من حديث النَّفْسِ الجاهلةِ الَّتي قد اسْتَقَرَّ عندَها بالجهل، أَنَّ التَّوَكُّل تَرْكُ التَّمَسُّكِ بالأسباب؛ لأنَّ الشَّرْعَ لا يَطْلُبُ مِنَ الإنسان ما نَهاه عنه.

وَهَلَّا نَافَرَهُ بَاطِنُهُ فِي مَدِّ يَدِهِ، وَتَعَلُّقِهِ بذلك المتدلِّي إليه، وتمسُّكِه به؛ فَإِنَّ ذلك أيضًا نَقْضٌ لما ادَّعاه من تَرْكِ الأسباب الَّذي يسمِّيه التَّوَكُّلَ؛ لأنَّه أيُّ فَرْقٍ بين قوله: أنا فِي البئر. وبين تَمَسُّكِهِ بِما تَدَلَّىٰ عليه؟

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩٠٦).

(٢) أخرجه البخاري (٢٢٦٣) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

لا. بل هَذَا آكَدُ؛ لأنَّ الفِعْلَ آكَدُ مِنَ القَوْلِ، فهلا سَكَتَ حَتَّىٰ يُحْمَلَ بلا سببٍ.

فإن قال: هَذَا بَعَثَهُ اللهُ لي.

قلنا: والَّذي جاز عَلَىٰ البِئْرِ، مَنْ بَعَثَهُ؟ واللِّسانُ المستغيثُ مَنْ خَلَقَهُ؟ فإنَّه لو استغاب كان مستعملًا للأسباب الَّتي خَلَقَها اللهُ تعالىٰ، لينتفع بِها للدَّفع عنه، فلم يَسْتَعْمِلْها، وإنَّما بِسُكُوتِهِ عَطَّل الأسباب التي خَلَقَهَا اللهُ تعالىٰ له، وَدَفَعَ الحِكْمَةَ، فَصَحَّ لَوْمُهُ عَلَىٰ تَرْكِ السَّبَبِ، وأمَّا تخليصُه بالأسد، فإن صحَّ هَذَا فقد يتَّفق مثلُه، ثُمَّ لا يُنْكَرُ أنَّ اللهَ تعالىٰ يَلْطُفُ بِعَبْدِهِ، وإنَّما يُنْكَرُ فِعْلُهُ المخالفُ للشَّرع.

أخبرنا أبو منصور القزاز، نا أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت، ثنا عبد العزيز بن أبِي الحسن، قال: سَمِعْتُ علي بن عبد الله بن جَهْضم المكِّي، يقول: ثنا الخلديُّ، قال: قال الجنيدُ: قال لي مُحمَّد بن السَّمين: كنتُ فِي طريق الكوفة بِقُرْبِ الصَّحراء الَّتي بين قِبَاءٍ والصَّخرة التي تَفَرَّقْنَا منها، والطَّريق منقطعٌ، فرأيتُ عَلَىٰ الطَّريق جَمَلًا قد سقط ومات، عليه سبعةٌ أو ثمانيةٌ من السِّبَاعِ تتناهش لَحْمَهُ، يَحْمِلُ بعضُها عَلَىٰ بعضٍ.

فلمَّا أن رَأَيْتُهم كأنَّ نفسي اضطربت، وكانوا عَلَىٰ قارعةِ الطَّريق، فَقَالَتْ لي نَفْسِي: تَمِيلُ يَمِينًا أو شِمَالًا؟ فَأَبَيْتُ عليها إلا أن آخُذَ علىٰ قارعة الطَّريق، فَحَمَلْتُها عَلَىٰ أن مَشِيَتْ، حَتَّىٰ وَقَفْتُ عَلَيْهِم بالقُرْبِ منهم كأحدِهم، ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَىٰ نَفْسِي لأنظرَ كيف هي، فإذا الرَّوْعُ معي قائمٌ، فأبيت أن أبْرَحَ، وهَذِهِ صِفَتِي، فقعدتُ بينَهم، ثُمَّ نَظَرْتُ بعد قعودي، فإذا الرَّوْعُ معي، فَأَبَيْتُ أنْ أبْرَحَ وهَذِهِ صِفَتِي، فوضعتُ جنبي، فَنِمْتُ مضطجعًا، فتغاشاني النَّوْمُ، فَنِمْتُ وأنا عَلَىٰ تلك الهيئة، والسِّبَاعُ فِي المكان الَّذي كانوا عليه، فَمَضَىٰ بي وقتٌ وأنا نائمٌ، فاستيقظتُ فإذا السِّبَاعُ قد تفرَّقت، ولَمْ يَبْقَ منها شيءٌ، وإذا الَّذي كُنْتُ أَجِدُهُ قد زال، فَقُمْتُ وأنا عَلَىٰ تلك الهَيْئَةِ، فَانْصَرَفْتُ.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: قلت: فهَذَا الرجل قد خالف الشَّرع فِي تعرُّضه للسِّباع، ولا يحلُّ لأحدٍ أن يتعرَّض لِسَبُعٍ أو لِحَيَّةٍ، بل يَجِبُ عليه أن يَفِرَّ مِمَّا يُؤْذِيهِ أو يُهْلِكُهُ.

وفِي الصَّحيحين أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «إِذَا وَقَعَ الطَّاعُونَ وَأَنْتُمْ بِأَرْضٍ، فَلا تُقْدِمُوا عَلَيْهِ»[1].

وقال ﷺ: «فِرَّ مِنَ المَجْذُومِ فِرَارَكَ مِنَ الأَسَدِ»[2].

وَمَرَّ -عليه الصلاة والسلام- بحائطٍ مائلٍ فَأَسْرَعَ[3].

وهَذَا الرَّجُلُ قد أراد مِنْ طَبْعِهِ ألا يَنْزَعِجَ، وهَذَا شيءٌ ما سَلِمَ منه موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ فإنَّه لمَّا رَأَىٰ الحَيَّةَ خاف وولَّىٰ مُدْبِرًا، فإن صَحَّ ما ذكره -وهو بعيدُ الصِّحَّةِ- لأنَّ طباع الآدميِّين تَتَسَاوَىٰ؛ فَمَنْ قال: لا أخاف السَّبُعَ بطَبْعِي. كذَّبْناه، كما لو قال: أنا لا أَشْتَهِي النَّظَرَ إِلَىٰ المُسْتَحْسَنِ.

وكأنَّه قَهَرَ نفسَه حتَّىٰ نام بينهم، استسلامًا للهلاك؛ لِظَنِّهِ أنَّ هَذَا من التَّوَكُّلِ، وهَذَا خطأٌ؛ لأنَّه لو كان هو التَّوكُّل ما نهىٰ عن مقاربةِ ما يُخَافُ شرُّه، ولعلَّ السِّبَاعَ اشْتَغَلَتْ عنه، وشَبِعَتْ من الجَمَلِ، والسَّبُعُ إذا شَبِعَ لا يفترس.

ولقد كان أبو تراب النَّخْشَبِيُّ من كبار القوم، فَلَقِيَتْهُ السِّبَاعُ البَرِّيَّةُ، فَنَهَشَتْهُ فمات.

ثُمَّ لا يُنْكَرُ أن يكون اللهُ تعالىٰ لَطَفَ به وَنَجَّاه بِحُسْنِ ظَنِّه فيه، غَيْرَ أنَّا نبيِّنُ خَطَأً فِعْلِهِ للعامِّيِّ الَّذي إذا سمع هَذِهِ الحكاية، ظَنَّ أنَّها عزيمةٌ عظيمةٌ ويقينٌ قَوِيٌّ، وربَّما فَضَّلَ حالتَه عَلَىٰ حالة موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ إذ هرب من الحَيَّةِ، وعَلَىٰ حالة نبيِّنا ﷺ إذ مرَّ بجدارٍ مائلٍ فَهَرْوَلَ،

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٢٨)، ومسلم (٢٢١٨) من حديث أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٠٧) -تعليقًا- وأحمد (٩٤٢٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٥٣٠).

(٣) أخرجه أحمد (٨٤٥٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وعَلَىٰ لبسه ﷺ الدِّرع فِي غزواته كلِّها وقت الحرب، حتَّىٰ قال -عليه الصلاة والسلام- فِي غزوة الخندق: «لَيْسَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَلْبِسَ لامَةَ حَرْبِهِ، ثُمَّ يَنْزِعَهَا مِنْ غَيْرِ قِتَالٍ»[١].

وعَلَىٰ حالة أبِي بكر رضي الله عنه إذ سَدَّ خروقَ الغار؛ اتِّقَاءَ أَذَىٰ الحَيَّاتِ.

وهيهات أن تَعْلُو مَرْتَبَةُ هَذَا المُخَالفِ للشَّرْعِ عَلَىٰ مرتبة النَّبِيِّين والصِّدِّيقين، بِما يُخَايِلُ له ظَنُّهُ الفاسد، من أنَّ هَذَا الفِعْلَ هو التَّوَكُّلُ.

وقد أخبرنا عنه أبو منصور القزاز، نا أبو بكر الخطيب، نا إسماعيل بن أحمد الحيري، ثنا مُحمَّد بن الحسين السلمي، قال: سمعت مؤمِّلًا المغازليَّ يقول: كنتُ أصحب مُحمَّد بن السَّمِين، فسافرتُ معه ما بين تكريت والمُوصِلِ، فبينا نحن فِي بَرِّيَّةٍ نسير، إذ زَأَرَ السَّبُعُ من قَرِيبٍ مِنَّا، فعجزتُ وتغيَّرتُ وظَهَرَ ذلك عَلَىٰ وَجْهِي وهَمَمْتُ أن أبادرَ فأفرَّ، فَضَبَطَنِي وقال: يا مؤمِّل، التَّوَكُّلُ هاهنا ليس فِي المسجد الجامع.

قال المصنف رحمه الله: قُلْتُ: لا شَكَّ فِي أنَّ التَّوَكُّلَ يَظْهَرُ أَثَرُهُ فِي المتوكِّل عند الشَّدائد، ولكن ليس من شروطِه الاستسلام للسَّبُعِ؛ فإنَّه لا يجوز.

أخبرنا عمر بن ظفر، نا أبو السراج، نا عبد العزيز بن علي الأزجي، نا ابن جهضم، ثنا إبراهيم بن أحمد بن علي العطار، قال له الخَوَّاصُ: حدَّثَنِي بعض المشايخ، أنَّه قيل لعلي الرازي: ما لنا لا نراك مع أبِي طالب الجرجانِي؟ قال: خرجنا فِي سياحةٍ، فَبَيْنَا فِي موضعٍ فيه سِبَاعٌ، فَلَمَّا نظر إليَّ رآنِي لَمْ أَنَمْ طَرَدَنِي، وقال: لا تَصْحَبْنِي بعد هَذَا اليوم.

قال المصنف رحمه الله: لَقَدْ تعدَّىٰ هَذَا الرَّجل، إذ أَرَادَ مِنْ صَاحِبِهِ أن يغيِّر ما طُبِعَ عليه، وليس ذلك فِي قُدْرَتِهِ، ولا فِي وُسْعِهِ، ولا يُطَالِبُهُ بِمِثْلِهِ الشَّرْعُ، وما قدر عَلَىٰ هَذِهِ الحالة موسىٰ عليه السلام حين هَرَبَ من الحَيَّةِ، فهَذَا كُلُّهُ مَبْنَاهُ عَلَىٰ الجَهْلِ.

---

(١) أخرجه أحمد (١٤٣٧٣) من حديث جابر رضي الله عنه، وضعَّفه الألبانِي فِي «ضعيف الجامع» (٢٠٧٥).

أخبرنا ابن المظفر، نا ابن السراج، ثنا ابن جهضم، قال: سمعت الخلدي يقول: سمعت إبراهيم الخواص يقول: سمعت حسنًا أخا سنان يقول: كنت أَسْلُكُ طَرِيقَ مَكَّةَ، فتدخل فِي رجلي الشَّوكة، فيمنعنِي ما أعتقده من التَّوَكُّلِ أن أخرجَها من رجلي، فأدلك رجلي عَلَىٰ الأرض وأمشي.

أخبرنا مُحمَّد بن عبد الباقي بن أحمد، أنبأنا أبو علي الحسن بن مُحمَّد بن الفضل الكرمانِي، نا سهل بن علي الخشاب، نا عبد الله بن علي السَّرَّاج، قال: سمعت أحمد بن علي الوجيهي يقول: حَجَّ الدينوريُّ اثنتي عشرة حجَّةً حافيًا مكشوفَ الرَّأسِ، وكان إذا دَخَلَ فِي رِجْلِهِ شَوْكٌ يَمْسَحُ رِجْلَه فِي الأرض، ويَمشي ولا يُطَأْطِئُ إِلَىٰ الأرض من صِحَّةِ تَوَكُّلِهِ.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: قُلْتُ: انظروا إِلَىٰ ما يَصْنَعُ الجهلُ بأهله، وليس من طاعةِ الله أن يقطع الإنسانُ تلك البادية حافيًا؛ لأنَّه يُؤْذِي نفسَه غايةَ الأذىٰ، ولا مكشوفَ الرَّأس، وأيُّ قُرْبَةٍ تَحْصُلُ بِهذا، ولولا وجوبُ كَشْفِ الرَّأس فِي مدَّة الإحرام، لَمْ يَكُنْ لِكَشْفِهِ معنىٰ، فمن ذا الَّذي أمره ألا يخرج الشَّوْكَ من رِجْلِهِ، وأيُّ طاعةٍ تَقَعُ بِهذا؟ ولو أنَّ رِجْلَهُ انتفخت بِما يَبْقَىٰ فيها من الشَّوْكِ وَهَلَكَ، كان قد أعان عَلَىٰ نفسه، وهل دلَّك الرَّجلُ بالأرض إلَّا دَفْعُ شرِّ الشَّوْكِ، فهلا دفع الباقي بالإخراج.

وأين التَّوكُّل من هَذِهِ الأفعال المخالفة للعقل والشَّرع؛ لأنَّهما يقضيان بِجَلْبِ المنافع للنَّفس، ودفع المضارِّ عنها، ولذلك أجاز الشَّرْعُ لِمَنْ أَدْرَكَهُ ضررٌ فِي إحرامه، أن يَخْرِقَ حُرْمَةَ الإحرام، ويلبس ويغطِّي رأسَه ويفدي، ولقد سمعتُ أبا عبيدٍ يقول: إنِّي لأتبيَّن عقل الرَّجل، بأن يَدَعَ الشَّمْسَ ويمشي فِي الظِّلِّ.

أخبرنا أبو منصور القزاز، نا أبو بكر الخطيب، ثنا عبد العزيز بن أبِي الحسن القرميسينِي، قال: سمعت علي بن عبد الله بن جهضم قال: سمعت أبا بكر الرقي يقول:

حدَّثني أبو بكر الزَّقَّاق، قال: خرجتُ فِي وسط السَّنَةِ إِلَىٰ مكَّةَ، وأنا حَدَثُ السِّنِّ، فِي وَسَطِي نصف جُلٍّ[1]، وعَلَىٰ كَتفي نِصف جُلٍّ، فَرَمَدَتْ عيني فِي الطَّريق، وكُنْتُ أَمْسَح دُموعي بالجُلِّ، فأَقْرَحَ الجُلُّ الموضعَ، فكان يخرج الدَّمُ مع الدُّموع، فمن شدَّة الإرادة وقوَّة سروري بحالِي، لَمْ أفرِّق بين الدُّموع والدَّم، وذهبت عيني فِي تلك الحجَّة.

وكانت الشَّمسُ إذا أَثَّرتْ فِي بَدَنِي، قَبَّلْتُ يدي ووضعتُها عَلَىٰ عَيْنِي سرورًا منِّي بالبلاء.

أخبرنا مُحمَّد بن أَبِي القاسم، نا حمد بن أحمد الحداد، نا أبو نعيم الحافظ، قال: سَمِعْتُ أبا الفضل أحمد بن أَبِي عمران، يقول: سَمِعْتُ مُحمَّدَ بن داود الرقي، يقول: سمعت أبا بكر الزقاق، يقول: كان سَبَبُ ذهاب بصري، أنِّي خرجتُ فِي وَسَطِ السَّنَةِ أريد مَكَّةَ، وفِي وَسطي نِصف جُلٍّ، وعَلَىٰ كتفي نِصف جُلٍّ، فَرَمَدَتْ إحدىٰ عَيْنَيَّ، فمسحتُ الدُّموعَ بالجُلِّ، فقرح المكانُ، وكانت الدُّموعُ والدَّمُ تسيلان من عيني.

أخبرنا مُحمَّد بن أَبِي القاسم، نا أبو مُحمَّد التميمي، نا أبو عبد الرحمن السلمي، قال: سمعتُ أبا بكر الرَّازي يقول: قلتُ لأَبِي بَكْرٍ الزَّقَّاق، وكان بفرد عين: ما سَبَبُ ذَهَابِ عَيْنِكَ؟

قال: كُنْتُ أدخلُ الباديةَ عَلَىٰ التَّوَكُّلِ، فَجَعَلْتُ عَلَىٰ نَفْسِي ألا آكُلَ لأهل المنازل شيئًا تورُّعًا، فَسَالَتْ إحدىٰ عَيْنَيَّ عَلَىٰ خدِّي من الجوع.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إذا سمع مبتدئٌ حالةَ هَذَا الرَّجل، ظَنَّ أنَّ هَذِهِ مُجاهداتٌ.

وقد جَمَعَتْ هَذِهِ السفرة الَّتي افتخر فيها، فنونًا من المعاصي والمخالَفات، منها: خروجُه فِي تنصيف السَّنَةِ عَلَىٰ الوحدة، وَمَشْيُهُ بلا زادٍ ولا راحلةٍ، ولباسُه الجُلَّ، ومسحُ

(١) الجُلُّ: هو ما يُطرح علىٰ ظَهر البَعير مِن كِساءٍ ونحوِه.

عينيه به، وظنُّه أنَّ ذلك يقرِّبه إِلَىٰ الله تعالىٰ، وإِنَّما يُتَقَرَّبُ إِلَىٰ الله تعالىٰ بِما أَمَرَ به وشَرَعَهُ، لا بِما نَهَىٰ وكفَّ عنه.

فلو أنَّ إنسانًا قال: أريد أن أَضْرِبَ نفسي بعصًا؛ لأنَّها عَصَتْ، أَتَقَرَّبُ بذلك إِلَىٰ الله. كان عاصيًا.

وسرورُ هَذَا الرَّجُلِ بِهَذَا خطأٌ قبيحٌ؛ لأنَّه إنَّما يفرح بالبلاء إذا كان بغير تسبُّبٍ منه لنفسه؛ فلو أنَّ إنسانًا كَسَرَ رجلَ نفسِه ثُمَّ فرح بِهَذِهِ المصيبة، كان نِهايةً فِي الحماقَةِ، ثُمَّ تَرْكُهُ السُّؤَالَ وقت الاضطرار، وحَمْلُهُ عَلَىٰ النَّفْسِ فِي شدَّة المجاعة، حتَّىٰ سالت عينُه، ثُمَّ يسمِّي هَذَا تَوَرُّعًا، حماقات زهَّاد، أكبرها الجَهْلُ والبُعْدُ عن العلم.

وقد أخبرنا مُحمَّد بن أبِي القاسم، نا حمد بن أحمد، نا أبو نعيم الحافظ، ثنا سليمان بن أحمد، ثنا مُحمَّد بن العباس بن أيوب الأصفهانِي، ثنا عبد الرحمن بن يُونس الرقي، ثنا مطرف بن مازن، عن سفيان الثوري، قال: مَنْ جَاع فَلم يَسأل حتَّىٰ مات دَخَلَ النَّار.

قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ: فانظر إِلَىٰ كلام الفقهاء، ما أَحْسَنَهُ!

وَوَجْهُهُ أنَّ الله تعالىٰ قد جعل للجائع مكنةَ التَّسَبُّبِ، فإذا عَدِمَ الأسبابَ الظَّاهرةَ، فَلَهُ قُدْرَةُ السُّؤال الَّتي هي كَسْبُ مثله فِي تلك الحال، فإذا تَرَكَهُ، فقد فَرَّطَ فِي حَقِّ نَفْسِهِ، الَّتي هي وَدِيعَةٌ عِنْدَهُ، فاستحقَّ العقابَ.

وقد رُوِي لنا فِي ذهابِ عَيْنِ هَذَا الرَّجُلِ، ما هو أظرفُ مِمَّا ذكرنا، فأخبرنا مُحمَّد بن عبد الباقي بن أحمد، ثنا حمد بن أحمد الحداد، ثنا أبو نعيم، قال: سمعتُ أبا أحمد القلانسيَّ، يقول: قال أبو علي الروذباري، يحكي عن أبِي بكر الزَّقَّاق، قال: اسْتَضَفْتُ حيًّا من العَرَبِ، فَرَأَيْتُ جاريةً حسناءَ، فَنَظَرْتُ إليها، فَقَلَعْتُ عيني الَّتي نظرتُ بِها إليها، وقلتُ: مثلُكِ مَنْ نَظَرَ لله.

قال المصنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: قلتُ: فانظروا إِلَىٰ جَهْلِ هَذَا المسكين بالشَّريعة، والبُعْدِ عنها؛ لأنَّه إن كان نظر إليها من غير تَعَمُّدٍ فلا إِثْمَ عليه، وإن تَعَمَّدَ، فقد أتىٰ صَغِيرَةً، قد كان يكفيه منها النَّدَمُ، فَضَمَّ إليها كبيرةً وهي قَلْعُ عَيْنَيْهِ، ولَمْ يَتُبْ عنها؛ لأنَّه اعتقد قَلْعَهَا قُرْبَةً إِلَىٰ الله سبحانه.

وَمَنِ اعْتَقَدَ المَحْظُورَ قُرْبَةً، فقد انتهىٰ خطؤه إِلَىٰ الغاية، ولعلَّه سمع تلك الحكاية عن بعض بني إسرائيل، أنَّه نظر إِلَىٰ امرأةٍ فَقَلَعَ عَيْنَهُ، وتلك مع بُعْدِ صِحَّتِهَا، ربَّما جَازَتْ فِي شريعتهم، فأمَّا شريعتُنا فقد حرَّمتْ هذا.

وكأنَّ هؤلاء القوم ابتكروا شريعةً سمَّوها بالتَّصوُّف، وتركوا شريعةَ نبيِّهم مُحمَّدٍ ﷺ، نعوذ بالله من تلبيس إبليس.

وقد روي عن بعض عابدات الصُّوفيَّة مثلُ هذا.

أخبرنا أبو بكر بن حبيب العامري، نا أبو سعد بن أبِي صادق، نا ابن باكويه، قال: أخبرنِي أبو الحسن علي بن أحمد البصري، غلام شعوانة، قال: أخبرتنِي شعوانة، أنَّه كان فِي جيرانِها امرأةٌ صالحةٌ، فَخَرَجَتْ ذاتَ يومٍ إِلَىٰ السُّوق، فرآها بعضُ النَّاس، فَافْتُتِنَ بِها وتَبِعَهَا إِلَىٰ باب دارها، فقالت له المرأةُ: أيَّ شيءٍ تُرِيدُ مِنِّي؟ قال: فُتِنْتُ بك.

فقالت: ما الَّذي استحسنتَ منِّي؟

قال: عيناك.

فدخلت إِلَىٰ دارِها، فقلعت عينيها، وخرجت إِلَىٰ خلف الباب، ورمت بِهما إليه وقالت له: خذهما فلا بارك الله فيك.

قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ: فانظروا إخوانِي كيف يتلاعب إبليس بالجَهَلَةِ؛ فَإِنَّ ذلك الرَّجُلَ أَتَىٰ صغيرةً بالنَّظَرِ، وأتت هي بكبيرةٍ، ثُمَّ ظَنَّتْ أنَّها فَعَلَتْ طاعةً، وكان ينبغي أنَّها لا تكلِّمُ رجلًا أجنبيًّا.

وقد وجد من القوم ضد هَذَا، كما يروىٰ عن ذي النُّون المصريِّ وغيرِه، أنَّه قال: لَقِيتُ امرأةً فِي البَرِّيَّةِ، فقلتُ لَها وقالت لي. وهَذَا لا يحلُّ له، وقد أنكرت عليه امرأة متيقظة.

فأخبرنا عبد الملك بن عبد الله الكروخي، نا مُحمَّد بن علي بن عمير، نا أبو الفضل مُحمَّد بن مُحمَّد العامي، نا أبو سعيد مُحمَّد بن أحمد بن يوسف، ثنِي بكير، ثني مُحمَّد بن يعقوب الفرجي، قال: سَمِعْتُ ذا النُّون يقول: رأيتُ امْرَأَةً بنحو أرض البجة، فناديتُها، فقلتُ: وما للرِّجال أن يكلِّموا النِّساء؟ لولا نَقْصُ عقلك لرميتُك بشيءٍ.

أخبرنا عبد الرحمن بن مُحمَّد، نا أحمد بن علي بن ثابت، ثنا عبد العزيز الأزجي، ثنا علي بن عبد الله الهمداني، ثني علي بن إسماعيل الطَّلَّاء، ثنِي مُحمَّد بن الهيثم، قال: قال لي أبو جعفر الحداد: دخلتُ الباديةَ بعضَ السِّنين عَلَىٰ التَّوَكُّلِ، فَبَقِيتُ سَبْعَةَ عَشَرَ يَوْمًا لا آكل فيها شيئًا، وضعفتُ عن المشي، فبقيتُ أيَّامًا أُخرَ لَمْ أَذُقْ فيها شيئًا، فسقطتُ عَلَىٰ وَجْهِي وَغُشِيَ عليَّ، وَغَلَبَ عليَّ مِنَ القَمْلِ شيءٌ ما رأيتُ مثلَه ولا سمعتُ به، فبينا أنا كذلك إذ مَرَّ بِي ركبٌ فرأوني عَلَىٰ تلك الحالة، فَنَزَلَ أحدُهم عن راحلته، فَحَلَقَ رَأْسِي ولِحْيَتِي، وشقَّ ثوبِي، وتركنِي فِي الرَّمضاء، وسار، فمرَّ بِي رَكْبٌ آخرُ، فحملونِي إِلَىٰ حَيِّهم، وأنا مغلوبٌ، فطرحونِي ناحيةً، فجاءتنِي امرأةٌ، فَجَلَسَتْ عَلَىٰ رأسي، وَصَبَّتِ اللَّبَنَ فِي حَلْقِي، ففتحتُ عيني قليلًا، وقُلْتُ لَهم: أَقْرَبُ المواضع منكم أين؟ قال: جبل الشراة. فحملونِي إِلَىٰ جبل الشراة.

قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ قلتُ: لو يحكىٰ أنَّ رجلًا من المجانين انحلَّ من السلسلة فأخذ سكِّينًا، وجعل يشرِّح لحم نفسه، ويقول: أنا ما رأيتُ مثل هَذَا الجنون، لصُدِّقَ عَلَىٰ هذا، وإلَّا فانظروا إِلَىٰ حال هَذَا المسكين، وبِما فعل بنفسه، ثُمَّ يعتقد أن هَذِهِ قُرْبَةٌ، نسأل الله العافية.

أخبرنا أحمد بن ناصر، نا أحمد بن علي بن خلف، نا أبو عبد الرحمن السُّلمي، قال:

سمعت أبا بكر الرازي، يقول: سمعت أبا الحسن الريحانِيّ يقول: سمعتُ إبراهيم الخوَّاص يقول: رأيتُ شخصًا من أهل المعرفة، عَرَجَ بعد سبعة عشر يومًا عَلَىٰ سببٍ فِي البَرِّيَّةِ، فنهاه شيخٌ كان معه، فأبَىٰ أن يقبل، فسقط، ولَمْ يرتفع عن حدود الأسباب.

قلت: هَذَا قد أراد أن يصبر عن القوت أكثر من هذا، وليس الصَّبْرُ إِلَىٰ هَذَا الحَدِّ، وإن أطيق بفضيلة.

أخبرنا مُحمَّد بن أَبِي القاسم، نا رزق الله بن عبد الوهاب، نا أبو عبد الرحمن مُحمَّد بن الحسين، قال: سَمِعْتُ جدِّي إسماعيل بن نُجيد، يقول: دَخَلَ إبراهيم الهرويُّ مع شبة البَرِّيَّةَ.

فقال: يا شَبَّةُ، اطْرَحْ ما معك من العَلائِقِ.

قال: فطرحتُها كلَّها وأبقيتُ دينارًا، فخطا خطواتٍ ثُمَّ قال: اطْرَحْ كلَّ ما معك، لا تُشْغِلْ سِرِّي. قال: فطرحتُها كلَّها وأبقيتُ دينارًا، فخطا خطواتٍ، ثُمَّ قال: اطْرَحْ كلَّ ما معك، لا تُشْغِلْ سِرِّي.

قال: فَأَخْرَجْتُ الدِّينارَ، وَدَفَعْتُهُ إليه، فطرحه، ثُمَّ خطا خطواتٍ، وقال: اطرح ما معك. قلتُ: ليس معي شيءٌ. قال: بعد سرِّي مشتغل، ثُمَّ ذكرت أن معي دستجة شسوعٍ، فقلتُ: ليس معي إلَّا هذه. قال: فأخذها فطرحها، ثُمَّ قال: امْشِ. فَمَشَيْنَا، فما احتجتُ إِلَىٰ شِبعٍ فِي البادية، إلَّا وَجَدْتُهُ مطروحًا بين يدي، فقال لي: كذا من عامل الله بالصِّدْقِ.

قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ: **قلتُ:** كلُّ هَذِهِ الأفعال خطأٌ، ورَمْيُ المالَ حرام، والعجب مِمَّن يرمي ما يَمْلِكُهُ، ويأخذ ما لا يدري من أين هو، وهل يَحِلُّ له أخذُه أم لا؟

أخبرنا أبو بكر بن حبيب، نا أبو سعيد بن أَبِي صادق، نا ابن باكويه، قال: سمعتُ نصر ابن أَبِي نصر العطَّار يقول: سَمِعْتُ عليَّ بن مُحمَّد المصريَّ، قال: سمعتُ أبا سعيد الخراز

يقول: دخلتُ البادية مرَّةً بغير زادٍ، فأصابَتْنِي فاقةٌ، فَرَأَيْتُ المرحلةَ من بُعْدٍ، فَسُرِرْتُ بوصولي، ثُمَّ فَكَّرْتُ فِي نفسي أن شكيت، وأنّي توكَّلتُ عَلَىٰ غيرِه، فآليتُ ألا أدخلَ المرحلةَ إلَّا إن حُمِلْتُ إليها، فَحَفَرْتُ لِنَفْسِي فِي الرَّمْلِ حفرةً، وَوَارَيْتُ جسدي فيها إِلَىٰ صدري، فَسَمِعْتُ صَوْتًا فِي نصف اللَّيل عاليًا: يا أهل المرحلة، إنَّ لله وليًّا حَبَسَ نَفْسَهُ فِي هَذَا الرَّمْلِ فالحَقُوه، فجاء جَماعةٌ، فأخرجوني، وحملوني إِلَىٰ المرحلة.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: قلتُ: لقد تنطَّع هَذَا الرَّجُلُ عَلَىٰ طَبْعِهِ، فأراد منه ما لَمْ يُوضَعْ عليه؛ لأنَّ طَبْعَ ابنِ آدم أن يُهَشَّ إِلَىٰ ما يُحِبُّ، ولا لَوْمَ عَلَىٰ العطشان إذا هشَّ عَلَىٰ الماء، ولا عَلَىٰ الجائع إذا هَشَّ إِلَىٰ الطَّعام، فكذلك كلُّ من هَشَّ إِلَىٰ مَحبوبٍ له، وقد كان النَّبِيُّ ﷺ إذا قَدِمَ من سَفَرٍ فلاحت له المدينةُ، أسرع السَّيْرَ؛ حبًّا للوطن، ولمَّا خَرَجَ من مكَّةَ تَلَفَّتَ إليها شَوْقًا، وكان بلالٌ يقول: لَعَنَ اللهُ عُتْبَةَ وَشَيْبَةَ إذ أخرجونا من مكَّة. ويقول:

أَلا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيتَنَّ لَيْلَةً ... بِوَادٍ وَحَوْلِي إِذْخِرٌ وَجَلِيلُ

فنعوذ بالله من الإقبال عَلَىٰ العَمَلِ بغير مُقْتَضَىٰ العلم والعقل، ثُمَّ حَبْسُهُ نفسَه عن صلاة الجماعة قَبِيحٌ، وأيُّ شَيْءٍ فِي هَذَا مِنَ التَّقَرُّبِ إِلَىٰ الله سبحانه؟ إنَّمَا هو مَحْضُ جَهْلٍ.

أنبأنا ابن ناصر، نا جعفر بن أحمد السراج، نا عبد العزيز بن علي بن أحمد، ثنا أبو الحسن علي بن جهضم، ثنا بكر بن مُحمَّد، قال: كنت عند أَبِي الخير النيسابوري، فَبَسَطَنِي بِمحادَثَتِهِ لي، بِذِكْرِ بادِيَتِهِ، إِلَىٰ أن سَأَلْتُهُ عن سبب قطع يده؟ فقال: يَدٌ جَنَتْ فقُطِعَت.

ثُمَّ اجتمعتُ به مع جَماعةٍ، فسألوه عن ذلك، فقال: سَافَرْتُ، حتَّىٰ بَلَغْتُ إسكندريةَ، فَأَقَمْتُ بِها اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً، وكُنْتُ قد بَنَيْتُ بِها كُوخًا، فَكُنْتُ أجيء إليه من ليلٍ إِلَىٰ ليلٍ، وَأُفْطِرُ عَلَىٰ ما ينفضه المرابطون، وأزاحم الكلام عَلَىٰ قمامة السَّفر، وآكُلُ من البَرْديِّ فِي الشِّتاء، فَنُوديتُ فِي سِرِّي: يا أبا الخير! تَزْعُمُ أنَّك لا تشارك الخَلْقَ فِي أقواتِهم، وتشير إِلَىٰ التَّوَكُّلِ، وأنت فِي وسط القوم جالسٌ.

فقلتُ: إلهي وسيِّدي وعِزَّتِكَ، لا مَدَدْتُ يدي إلَىٰ شيءٍ مِمَّا تُنْبِتُهُ الأرضُ، حتَّىٰ تكُونَ الموصِّلَ إليَّ رزقي من حيث لا أكون فيه.

فَأَقَمْتُ اثْنَيْ عَشَرَ يَوْمًا أصلِّي الفَرْضَ وأتنفَّل، ثُمَّ عَجَزْتُ عن النافلة، فَأَقَمْتُ اثْنَي عشر يومًا أُصَلِّي الفرضَ لا غير، ثُمَّ عجزتُ عن القيام، فأقمت اثني عشر يومًا أصلِّي جالسًا لا غير، ثُمَّ عجزت عن الجلوس، فرأيت إن طَرَحْتُ نفسي ذَهَبَ فَرْضي، فلجأتُ إلَىٰ الله بِسِرِّي.

وقلتُ: إلهي وسيِّدي، افْتَرَضْتَ عَلَيَّ فَرْضًا تَسْأَلُنِي عنه، وَقَسَمْتَ لي رزقًا وضَمَنْتَه لي، فتفضَّل عليَّ برزقي، ولا تؤاخذنِي بِما عقدتُه معك، فوعزَّتك لأجتهدنَّ ألا حَلَلْتُ عَقْدًا عَقَدْتُه معك.

فإذا بين يَدَيَّ قُرْصَان بينهما شيءٌ، فَكُنْتُ أَجِدُهُ عَلَىٰ الدَّوام من اللَّيل إلَىٰ اللَّيل، ثُمَّ طُولِبْتُ بالمَسِيرِ إلَىٰ الثَّغرِ، فَسِرْتُ حتَّىٰ دخلتُ الفرما، فوجدتُ فِي الجامع قاصًّا يذكر قصَّة زكريَّا والمنشار، وأنَّ الله تعالىٰ أوحىٰ إليه حين نُشِرَ، فقال: إن صَعَدَتْ إليَّ منك أنَّةٌ لأمحونَّك من ديوان النُّبُوَّةِ. فَصَبَرَ حتَّىٰ قُطِعَ شِطْرَيْنِ، فقلتُ: لقد كان زكريَّا صبَّارًا، إلهي وسيِّدي، لَئِنِ ابْتَلَيْتَنِي لأَصْبِرَنَّ.

وسِرْتُ حتَّىٰ دَخَلْتُ أنطاكية، فَرَآنِي بعضُ إخوانِي، وَعَلِمَ أنِّي أريد الثَّغْرَ، فَدَفَعَ إليَّ سَيْفًا وترسًا وحَرْبَةً، فدخلتُ الثَّغْرَ، وكنتُ حِينَئِذٍ أَحْتَشِمُ من الله تعالىٰ أن أتوارىٰ وراء السُّور؛ خِيفَةً من العَدُوِّ، فَجَعَلْتُ مقامي فِي غابَةٍ، أَكُونُ فيها بالنَّهَارِ، وَأَخْرُجُ باللَّيل إلَىٰ شاطئ البحر، فَأَغْرِزُ الحَرْبَةَ عَلَىٰ السَّاحل، وَأُسْنِدُ التُّرْسَ إليها مِحْرَابًا، وأتقلَّد سيفي، وأصلِّي إلَىٰ الغداة، فإذا صلَّيْتُ الصُّبْحَ غَدَوْتُ إلَىٰ الغابة، فَكُنْتُ فيها نَهاري أَجْمَعَ.

فَبَدَوْتُ فِي بعض الأيَّام، فَعَثَرْتُ بِشَجَرَةٍ، فَاسْتَحْسَنْتُ ثَمَرَهَا، وَنَسِيتُ عَقْدِي مع الله،

وَقَسَمِي به، أني لا أمدَّ يدي إِلَىٰ شَيْءٍ مِمَّا تُنْبِتُ الأرض، فممددتُ يدي، فأخذتُ بعض الثَّمَرَةِ، فبينا أنا أَمْضَغُها، ذَكَرْتُ العَقْدَ، فَرَمَيْتُ بِها من فِيِّ، وَجَلَسْتُ وَيَدِي عَلَىٰ رَأْسِي، فَدَارَ بِي فِرْسَانٌ وقالوا لي: قُمْ. فَأَخْرَجُونِي إِلَىٰ السَّاحل، فإذا أَمِيرٌ وَحَوْلَهُ خَيْلٌ وَرِجَالُهُ، وبين يَدَيْهِ جَماعةٌ سُودَان، كانوا يَقْطَعُون الطَّرِيق، وقد أَخَذَهُم، وافْتَرَقَتِ الخَيْلُ فِي طلب مَنْ هرب منهم، فوجدونِي أَسْوَدَ، معي سَيْفٌ، وترسٌ، وحَرْبَةٌ، فلمَّا قَدِمْتُ إِلَىٰ الأَمِيرِ قال: إيش أنت؟

قلتُ: عَبْدُ بن عبيد الله.

فقال للسُّودان: تَعْرِفُونَهُ؟

قالوا: لا.

قال: بل هو رئيسُكم، وإنَّما تَفْدُونه بأنفسكم، لأُقَطِّعَنَّ أيديكم وأرجلَكم. فَقَدَّمُوهم.

ولَمْ يَزَلْ يُقَدِّمُ رَجُلًا رَجُلًا، وَيَقْطَعُ يَدَهُ وَرِجْلَهُ، حتَّىٰ انتهىٰ إليَّ، فقال: تقدَّم، مُدَّ يَدَكَ. فَمَدَدْتُهَا، فَقُطِعَتْ، ثُمَّ قال: مُدَّ رِجْلَكَ. فَمَدَدْتُهَا، وَرَفَعْتُ رَأْسِي إِلَىٰ السَّماء، وقلتُ: إلهي وسيِّدِي، يَدِي جَنَتْ، وَرِجْلِي إيش عَمِلَتْ؟

فإذا بِفَارِسٍ قد وَقَفَ عَلَىٰ الحَلْقَةِ، ورَمَىٰ بنفسِه إِلَىٰ الأرض، وصاح: إيش تعملون؟ تريدون أن تنطبق الخضراء عَلَىٰ الغبراء؟ هَذَا رَجُلٌ صالحٌ يُعْرَفُ بأبي الخير.

فَرَمَىٰ الأَمِيرُ نَفْسَهُ، وَأَخَذَ يَدِي المَقْطُوعَةَ من الأرض، وَقَبَّلها، وَتَعَلَّق بِي يُقَبِّلُ صَدْرِي ويبكي ويقول: سألتُك بالله أن تَجْعَلَنِي فِي حِلٍّ. فَقُلْتُ: قد جَعَلْتُكَ فِي حِلٍّ من أوَّل ما قَطَعْتَها، هَذِهِ يَدٌ قد جَنَتْ فَقُطِعَتْ.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: فانظروا -رحمكم الله- إِلَىٰ عَدَمِ العِلْمِ كيف صَنَعَ بِهَذَا الرجل، وقد كان من أهل الخير، ولو كان عنده عِلْمٌ، لَعَلِمَ أنَّ ما فَعَلَهُ حرامٌ عليه، وليس لإبليس

عَوْنٌ عَلَىٰ العُبَّادِ والزُّهَّادِ أكثرَ من الجهل.

أخبرنا أبو بكر بن حبيب، نا أبو سعيد بن صادق، نا ابن باكويه، قال: سَمِعْتُ الحُسَيْنَ ابن أحمد الفارسيَّ، قال: سَمِعْتُ مُحمَّدَ بن داود الدِّينَوريَّ يقول: سمعتُ ابن حديقٍ يقول: دَخَلْنَا المصيصةَ مع حاتم الأصمِّ، فعقد أنَّه لا يأكل فيها شيئًا، إلَّا حتَّىٰ يفتحَ فَمَهُ ويُوضَعَ فِي فيه، وإلَّا ما يأكل، فقال لأصحابه: تَفَرَّقُوا.

وَجَلَسَ، فأقام تِسْعَةَ أيَّامٍ لا يَأْكُلُ فيها شيئًا، فلمَّا كان فِي اليَوْمِ العاشر، جاء إليه إِنْسَانٌ، فَوَضَعَ بين يَدَيْهِ شَيْئًا يُؤْكَلُ، فقال: كُلْ. فَلَمْ يُجِبْهُ، فقال له ثلاثًا، فلم يُجِبْهُ، فقال: هَذَا مَجنونٌ. فأصلح لُقْمَةً، وأشار بِها إِلَىٰ فَمِهِ، فلم يَفْتَحْ فَمَهُ، ولَمْ يتكلَّم، فأخرج مِفْتَاحًا كان معه، فقال: كُلْ.

وَفَتَحَ فَمَهُ بالمِفْتَاحِ، وَدَسَّ اللُّقْمَةَ فِي فَمِهِ، فأكل، ثُمَّ قال له: إن أَحْبَبْتَ أن يَنْفَعَكَ اللهُ به فَأَطْعِمْ أولئك. وأشار إِلَىٰ أصحابه.

أنبأنا مُحمَّدُ بن أبِي طاهر، نا علي بن المحسن التنوخي، عن أبيه، ثنِي مُحمَّد بن هلال ابن عبد الله، ثنِي القاضي أحمد بن سيار، قال: حدَّثنِي رجلٌ من الصُّوفيَّة قال: صَحِبْتُ شَيْخًا من الصُّوفيَّة أنا وجَماعةٌ فِي سَفَرٍ، فَجَرَىٰ حديثُ التَّوَكُّلِ والأرزاق، وَضَعْفِ اليَقِينِ فيها وقُوَّتِهِ، فقال الشيخ: عليَّ عليَّ. وَحَلَفَ عليَّ أَيْمَانًا عَظِيمَةً، لا ذُقْتُ مأكولًا، أو يبعث لي بِجَامٍ فالوذج حَارٍّ لا آكُلُهُ إلَّا بَعْدَ أن يَحْلِفَ عليَّ.

قال: وَكُنَّا نَمْشِي فِي الصَّحراء، فقالت له الجماعة: إلَّا أنَّك غيرُ جاهدٍ.

وَمَشَىٰ وَمَشَيْنَا، فانْتَهَيْنَا إِلَىٰ قَرْيَةٍ، وقد مَضَىٰ يَوْمٌ وَلَيْلَتَانِ لَمْ يَطْعَمْ فيها شيئًا، فَفَارَقَتْهُ الجَمَاعَةُ غيري، فَطَرَحَ نفسَه فِي مسجد القرية مستسلمًا للموت ضَعْفًا.

فَأَقَمْتُ عليه، فلمَّا كان فِي ليلةِ اليوم الرَّابع، وقد انتصف اللَّيل، وكاد الشيخ يتلف، إذا

بباب المسجد قد فُتِحَ، وإذا بجاريةٍ سوداء، معها طَبَقٌ مُغَطًّى، فلمَّا رَأَتْنَا قالت: أنتم غرباء أو من أهل القرية؟

فَقُلْتُ: غرباء. فَكَشَفَتِ الطَّبق وإذا بِجامٍ فالوذج يَفُورُ لِحَرَارَتِهِ، فَقَدَّمَتْ لنا الطَّبَقَ وقالت: كلوا. فقلتُ له: كُلْ. فقال: لا أَفْعَلُ. فَرَفَعَتِ الجاريةُ يَدَهَا، فَصَفَعَتْهُ صَفْعَةً عظيمة وقالت: واللهِ لئن لَمْ تَأْكُلْ لأَصْفَعَنَّكَ هكذا إِلَىٰ أن تَأْكُلَ. فقال: كُلْ معي. فَأَكَلْنَا حتَّىٰ فَرَغَ الجام، وَهَمَّتِ الجاريةُ بالانصراف، فقلتُ للجارية: ما خَبَرُكِ وَخَبَرُ هَذَا الجام؟

فقالت: أنا جاريةٌ لرئيس هَذِهِ القرية، وهو رَجُلٌ حَادٌّ، طَلَبَ مِنَّا منذ ساعة فالوذج، فَقُمْنَا نُصْلِحُهُ له، فطال الأمرُ عليه، فاستعجلنا، فقلنا: نعم! فعاد فاستعجل، فقلنا: نعم، فَحَلَفَ بالطَّلاق، لا أَكَلَهُ هو، ولا أَحَدٌ مِمَّنْ هو في داره، ولا أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ القَرْيَةِ، ولا يَأْكُلُهُ إِلَّا رَجُلٌ غَرِيبٌ، فخرجنا نَطْلُبُ فِي المساجد رجلًا غَرِيبًا فلم نَجِدْ، إِلَىٰ أن انتهينا إليكم، ولو لَمْ يأكل هَذَا الشَّيْخُ، لَقَتَلْتُهُ ضَرْبًا إِلَىٰ أن يأكل؛ لئلا تُطلَّق سيِّدتِي من زَوْجِهَا.

قال: فقال الشيخ: كيف تَرَاهُ إذا أراد أن يُرْزَقَ؟

قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ: ربَّما سَمِعَ هَذَا جاهلٌ فَاعْتَقَدَهُ كرامةً، وما فعله الرَّجلُ مِنْ أقبح القبيح؛ فإنَّه يجرِّب عَلَىٰ الله، وَيَتَأَلَّىٰ عليه، وَيَحْمِلُ عَلَىٰ نفسه من الجوع ما لا يجوز له، وهَذَا لا يجوز له، ولا يُنْكَرُ أن يكون لَطَفَ به، إلَّا أنَّه فَعَلَ ضِدَّ الصَّواب، وربَّما كان إنفاذُ ذلك رديئًا؛ لأنَّه يعتقد أنَّه قد أُكْرِمَ، وأنَّ ذلك منْزلة.

وكذلك حكايةُ حاتم الَّتي قَبْلَهَا؛ فإنَّها إن صحَّت دلَّت عَلَىٰ جَهْلٍ بالعلم، وَفِعْلٍ لِما لا يجوز؛ لأنَّه ظَنَّ أنَّ التَّوَكُّلَ إنَّما هو تركُ التَّسبُّب، فلو عَلِمَ بِمُقْتَضَىٰ واقِعَتِهِ لَمْ يمضغِ الطَّعام، ولَمْ يَبْلَعْهُ؛ فإنَّه تَسَبُّبٌ، وهل هَذَا إلَّا مِنْ تَلاعُبِ إبليس بالجُهَّال؛ لقلَّة علمهم بالشَّرْعِ، ثُمَّ أيُّ قُرْبَةٍ فِي هَذَا الفعل البارد، وما أظنُّ غالبَه إلَّا من الماليخوليا؟

أخبرنا عبد الرحمن بن مُحمَّد القزاز، نا أحمد بن علي بن ثابت، نا علي بن المحسن، قال: حدَّثني أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد الطبري، قال: قال لي جعفر الخلدي: وَقَفْتُ بعرفة سِتًّا وخمسين وقفةً، منها إحدىٰ وعشرون عَلَىٰ المذهب.

فقلت لأبي إسحاق: وأيُّ شيءٍ أراد بقوله: عَلَىٰ المذهب؟

فقال: يصعد إِلَىٰ قنطرة الياسرية، فينفض كُمَّيْهِ حتَّىٰ يُعْلَمَ أنَّه ليس معه زادٌ، ولا ماءٌ، ويلبِّي ويسير.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وهَذَا مُخالفٌ للشَّرْعِ؛ فإنَّ الله تعالىٰ يقول: ﴿وَتَزَوَّدُواْ﴾ [البقرة:١٩٧]، ورسوله ﷺ قد تزوَّد، ولا يُمْكِنُ أن يُقَالُ: إنَّ هَذَا الآدميَّ لا يحتاج إِلَىٰ شَيْءٍ فِي مدَّة أشهر. فإن احتاج ولَمْ يتزوَّدْ فَعَطِبَ أَثِمَ، وإن سَأَلَ النَّاسَ، أو تَعَرَّضَ لَهم، لَمْ يَفِ ذلك بِدَعْوَىٰ التَّوَكُّلِ، وإن ادَّعىٰ أنَّه يُكْرَمُ ويُرْزَقُ بلا سببٍ، فنظَرُه إِلَىٰ أنَّه مستحقٌّ لذلك مِحْنَةٌ، ولو تَبِعَ أمرَ الشَّارع وَحَمَلَ الزَّاد، كان أصلح له عَلَىٰ كلِّ حالٍ.

وأنبأنا أبو زرعة طاهر بن مُحمَّد بن طاهر قال: أخبرني أبِي، عن بعض الصوفية، أنَّه قَدِمَ عليه من مَكَّةَ جماعةٌ من المتصوِّفة، فقال لَهم: من صَحِبْتُم؟ فقالوا: حاجُّ اليَمَنِ. فقال: أوه، التَّصَوُّفُ قد صار إِلَىٰ هَذَا، أو التَّوَكُّلُ قد ذهب! أنتم ما جئتم عَلَىٰ الطَّريقة والتَّصوُّف، وإنَّما جِئتُم من مائدةِ اليمن إِلَىٰ مائدة الحَرَمِ.

ثُمَّ قال: وَحَقِّ الأحباب والفتيان، لقد كُنَّا أربعةَ نفرٍ، مصطحبين فِي هَذَا الطَّريق، نخرج إِلَىٰ زيارة قبر النَّبيِّ ﷺ عَلَىٰ التَّجريد، ونتعاهد بيننا ألا نَلْتَفِتَ إِلَىٰ مَخلوقٍ، ولا نَسْتَنِدَ إِلَىٰ معلومٍ، فَجِئْنَا إِلَىٰ النَّبيِّ ﷺ وَمَكَثْنَا ثلاثةَ أيَّامٍ له يفتح لنا بشيءٍ، فخرجنا، حتَّىٰ بَلَغْنَا الجحفةَ، ونزلنا وبحذائنا نَفَرٌ من الأعراب، فَبَعَثُوا إلينا بسويقٍ، فَأَخَذَ بعضُنا ينظر إِلَىٰ بعضٍ ويقول: لو كنَّا من أهل هَذَا الشأن لَمْ يفتح لنا بشيءٍ، حتَّىٰ نَدْخُلَ الحَرَمَ. فشربناه عَلَىٰ الماء،

وكان طعامنا حتَّىٰ دخلنا مكَّة.

قلتُ: اسمعوا إخوانِي إلَىٰ توكُّل هؤلاء، كيف مَنَعَهُم من التَّزوُّدِ المأمور به، فأحوجهم إلَىٰ أخذ صدقات النَّاس، ثُمَّ ظنهم أنَّ ما فعلوه مَرْتَبَةٌ جهلٍ بمعرفة المراتب.

ومِنْ أعْجَبِ ما بلغني عنهم فِي أسفارهم، ما أخبرنا به مُحمَّد بن أبِي القاسم البغدادي، نا أبو مُحمَّد التميمي، عن أبِي عبد الرحمن السلمي، قال: بلغني أن أبا شعيب المقفَّع، وكان قد حَجَّ سبعين حَجَّةً راجلًا، أَحْرَمَ فِي كلِّ حَجَّةٍ بعمرة وحجَّة من عند صخرة بيت المقدس، ودخل باديةَ تَبُوكٍ عَلَىٰ التَّوَكُّلِ، فلمَّا كان فِي حَجَّتِهِ الأخيرة، رأىٰ كلبًا فِي البادية يلهث عطشًا، فقال: من يشترىٰ حجَّةً بشربة ماء.

قال: فدفع إليه إنسانٌ شَرْبَةَ ماءٍ، فسقىٰ الكلب، ثُمَّ قال: هَذَا خيرٌ لي من حَجِّي؛ لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «فِي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ حَرَّىٰ أَجْرٌ»(١).

أخبرنا عبد الأول بن عيسىٰ، نا ابن الكوفانِي، ثنا أبو مُحمَّد الحسن بن مُحمَّد بن قوري الخُبُوشانِي، نا أبو نصر عبد الله بن علي الطوسي المعروف بابن السراج، قال: سَمِعْتُ الوجيهيَّ يقول: سمعت أبا عليٍّ الرُّوذباري يقول: كُنَّا فِي البادية جَماعةً، ومعنا أبو الحسين العطوفِي، فَرُبَّمَا كانت تلحقنا القافلة، ويُظْلِمُ علينا الطَّريق، وكان أبو الحسين يصعد تَلًّا، فيصيح صِيَاحَ الذِّئبِ، حتَّىٰ تسمع كلابُ الحَيِّ، فينبحون، فيمرَّ عَلَىٰ بيوتِهم، ويحمل إلينا مَنْ عندهم مَعُونَةً.

قلت: وإنَّما ذَكَرْتُ مِثْلَ هَذِهِ الأشياء؛ ليتنزَّه العاقلُ فِي مبلغ علم هؤلاء، وفَهْمِهِم للتَّوَكُّلِ، وغيرُه يرىٰ مُخالفتَهم لأوامر الشَّرْعِ، وليت شعري، كيف يصنع من يخرج منهم

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٦٨٦)، وأحمد (١٧١٣١) من حديث سراقة بن جُعشم ﷺ، وصححه الألباني فِي «صحيح الجامع» (٤٢٦٣).

ولا شيء معه بالوضوء والصلاة؟ وإن تخرَّق ثوبُه ولا إبرةَ معه فكيف يفعل؟ وقد كان بعض مشايخِهم يأمر المُسَافِرَ بأخذ العدَّة قبل السَّفر.

فأخبرنا أبو منصور القزاز، نا أبو بكر الخطيب، نا أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري، قال: سمعنا أبا عبد الرحمن السلمي يقول: سمعت أبا العباس البغدادي يقول: سمعت الفرغانِي يقول: كان إبراهيم الخواص مُجَرَّدًا فِي التَّوَكُّلِ يدقِّق فيه، وكان لا تفارقه إبرةٌ وخيوطٌ وركوةٌ ومقراضٌ، فقيل له: يا أبا إسحاق، لِمَ تَجْمَعُ هَذَا وأنت تَمْنَعُ من كلِّ شيء؟

فقال: مثلُ هَذَا لا يَنْقُضُ التَّوَكُّلَ؛ لأنَّ لله تعالىٰ علينا فرائضَ، والفقيرُ لا يكون عليه إلَّا ثوبٌ واحدٌ، فَرُبَّما يتخرَّق ثَوْبُه، وإن لَمْ يكن معه إِبْرَةٌ وخُيُوطٌ تبدو عَوْرَتُهُ، فتفسدُ عليه صلواتُه، وإن لَمْ يَكُنْ معه ركوةٌ، تَفْسَدُ عليه طهارتُه، وإذا رأيتَ الفقير بلا ركوةٍ ولا إبرةٍ ولا خيوطٍ، فاتَّهِمْهُ فِي صلاته.

ذكر تلبيس إبليس عَلَىٰ الصوفية إذا قدموا من السفر:

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: مِنْ مَذْهَبِ القَوْمِ، أنَّ المسافرَ إذا قَدِمَ فَدَخَلَ الرباط وفيه جَماعة، لَمْ يُسَلِّمْ عليهم حتَّىٰ يَدْخُلَ المَيْضَأَةَ، فإذا تَوَضَّأَ جاء وصلَّىٰ ركعتين، ثُمَّ سَلَّم عَلَىٰ الشيخ، ثُمَّ سلَّم عَلَىٰ الجماعة، وهَذَا ما ابتدعه متأخِّروهم عَلَىٰ خلاف الشريعة؛ لأنَّ فقهاء الإسلام أجْمعوا عَلَىٰ أنَّ من دخل عَلَىٰ قومٍ، سُنَّ له أن يسلِّم عليهم، سواءٌ كان عَلَىٰ طهارةٍ، أو لَمْ يَكُنْ، إلَّا أن يكونوا أَخَذُوا هَذَا من مذهب الأطفال؛ فإنَّه إذا قيل للطِّفل: لِمَ لا تسلِّم علينا؟ قال: ما غَسَلْتُ وجهي بعد. أو لعلَّ الأطفالَ عُلِّموه من هؤلاء المبتدعين.

أخبرنا ابن الحصين، نا أبو علي بن المذهب، نا أبو بكر بن مالك، ثنا عبد الله بن أحمد، ثني أبِي، ثنا عبد الرزاق، ثنا معمر، عن همام بن مُنَبِّهٍ، ثنا أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال: قال

رسول الله ﷺ: «لِيُسَلِّمِ الصَّغِيرُ عَلَىٰ الكَبِيرِ، والمَارُّ عَلَىٰ القَاعِدِ، والقَلِيلُ عَلَىٰ الكَثِيرِ»(١).
أخرجاه فِي الصحيحين.

وَمِنْ مَذْهَبِ القوم تغميزُ القادم من السَّفر مَسَاءً.

أنبأنا أبو زرعة طاهر بن مُحمَّد، عن أبيه، قال: باب السُّنَّة فِي تغميزهم القادم من السَّفر أوَّلَ ليلةٍ لِتَعَبِهِ، واحتج بحديث عمر ﵁: دخلتُ عَلَىٰ النَّبيِّ ﷺ وغلامٌ له حبشيٌّ يغمز ظهرَه، فَقُلْتُ: ما شَأْنُكَ يا رسول الله؟ قال: «إِنَّ النَّاقَةَ قَدِ اقْتَحَمَتْنِي»(٢).

قال المصنف ﵀: انظُروا إِخْوَانِي إِلَىٰ فِقْهِ هَذَا المُحْتَجِّ؛ فإنَّه كان يَنْبَغِي أن يَقُولَ: بابُ السُّنَّةِ فِي تغميز مَنْ رَمَتْ به ناقتُه، وتكون السُّنَّةُ تَغْمِيزَ الظَّهْرِ لا القَدَمِ، ومن أين له أنَّه كان فِي سَفَرٍ، وأنَّه غَمَزَ أوَّلَ ليلةٍ، ثُمَّ يَجْعَلُ تَغْمِيزَ النَّبيِّ ﷺ كما اتَّفق لأَجْلِ أَلَمِ ظَهْرِهِ سُنَّةً.

لقد كان تَرْكُ استخراج هَذَا الفِقْهِ الدَّقيق أحسنَ مِنْ ذِكْرِهِ.

ومن مذهبِهم عملُ دعوةٍ للقادم، قال أبو طاهر: باب اتِّخاذ العَتِيرَةِ للقادم. واحتجَّ بحديث عائشة ﵂ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ سافر سَفَرًا، فَنَذَرَتْ جاريةٌ من قُرَيْشٍ إِنِ اللهُ تعالىٰ رَدَّهُ، أن تَضْرِبَ فِي بيت عائشةَ ﵂ بِدُفٍّ، فلمَّا رَجَعَ، قال النَّبِيُّ ﷺ: «إِنْ كُنْتِ نَذَرْتِ فَاضْرِبِي»(٣).

قال المصنف ﵀: قد بيَّنَّا أنَّ الدُّفَّ مُبَاحٌ، وَلَمَّا نَذَرَتْ هَذِهِ المرأةُ مباحًا أَمَرَهَا أن تَفِيَ، فكيف يُحْتَجُّ بِهَذَا علىٰ الغناء والرَّقْصِ عند قُدُومِ المسافر.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢٣١)، ومسلم (٢١٦٠).

(٢) أخرجه الضياء المقدسي في «المختارة» (١/ ١٨٤)، وانظر: «مجمع الزوائد» (٥/ ٩٦).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٦٩٠)، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (١٦٠٩).

ذكر تلبيس إبليس عَلَىٰ الصوفية إذا مات لَهم ميت:

لهم فِي ذلك تَلْبِيسانِ:

الأول: أنَّهم يقولون: لا يُبْكَىٰ عَلَىٰ هالكٍ، ومن بكىٰ عَلَىٰ هالكٍ، خَرَجَ عن طريقِ أَهْلِ المعارف.

قال ابن عقيل: وهَذِهِ دَعْوَىٰ تَزَيُّدٍ عَلَىٰ الشَّرع؛ فهي حديثُ خُرَافَةٍ، وتَخْرُجُ عن العادات والطِّبَاعِ؛ فَهِيَ انْحِرَافٌ عن المزاج المعتدل، فينبغي أن يُطَالَبَ لَها بالعلاج بالأدوية المعدِّلة للمزاج؛ فإنَّ الله تعالىٰ أَخْبَرَ عن نبيٍّ كريمٍ، فقال: ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾[يوسف:٨٤]، وقال: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾[يوسف:٨٤].

وبكىٰ رسول الله ﷺ عند مَوْتِ وَلَدِهِ، وقال: «إِنَّ العَيْنَ لَتَدْمَعُ»[(١)]. وقال: «وَاكَرْبَاهُ»[(٢)]، وقالت فاطمةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «وَاكَرْبَ أَبَتَاهُ»[(٣)]. فلم يُنْكِرْ، وَسَمِعَ عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ متمِّمًا يندب أخاه، ويقول:

وَكُنَّا كَنَدْمَانِي جُذَيْمَةَ حِقْبَةً ... مِنَ الدَّهْرِ حَتَّى قِيلَ لَنْ يَتَصَدَّعَا

فقال عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: لَيْتَنِي كُنْتُ أقول الشِّعْرَ فأندب أخي زيدًا. فقال متمِّمٌ: لو مات أخي كما مات أخوك ما رَثَيْتُهُ.

وكان مالكٌ مات عَلَىٰ الكُفْرِ، وَزَيْدٌ قُتِلَ شَهِيدًا، فقال عمر: ما عَزَّانِي أَحَدٌ فِي أَخِي كَمِثْلِ تَعْزِيَتِكَ.

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٠٣)، ومسلم (٢٣١٥) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الطبراني فِي «المعجم الكبير» (٣/ ٦٤)، وأبو نعيم فِي «الحلية» (٤/ ٧٨) مطوّلًا، وفِي سنده كذّاب. انظر: «مجمع الزوائد» (٩/ ٣٠).

(٣) أخرجه البخاري (٤٤٦٢) من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

ثُمَّ لا تزال الإبلُ الغليظةُ الأكباد تَحِنُّ إِلَىٰ مآلِفِهَا من الأعطان والأشخاص، وترغو للفصلان، وحمامُ الطَّير تُرَجِّعُ، وكلٌّ مأخوذٌ من البلاء، فلابدَّ أن يَتَضَرَّعَ، وَمَنْ لَمْ تُحَرِّكْهُ المَسَارُ والمُطْرِبَاتُ وتُزْعِجْهُ المُخْزِيَاتُ، فهو إِلَىٰ الجَمَادِ به أقْرَبُ.

وقد أَبَانَ النَّبِيُّ -عليه الصلاة والسلام- عن العَيْبِ فِي الخروج عن سَمْتِ الطَّبْعِ، فقال للذي قال: لَمْ أُقَبِّلْ أَحَدًا من وَلَدِي -وكان له عشرةٌ من الولد- فقال: «أَوَأَمْلِكُ لَكَ أَنْ نَزَعَ اللهُ الرَّحْمَةَ مِنْ قَلْبِكَ»(١). وَجَعَلَ يلتفت إِلَىٰ مكَّة لمَّا خرج.

فالمُطَالِبُ لِمَا يَخْرُجُ عن الشَّرائع، ويَنْبُو عن الطِّباع، جَاهِلٌ يُطَالِبُ بِجَهْلٍ، وَقَدْ قَنَعَ الشَّرْعُ مِنَّا ألا نَلْطُمَ خدًّا، ولا نَشُقَّ جَيْبًا، فأمَّا دَمْعَةٌ سائلةٌ وقلبٌ حزينٌ فلا عَيْبَ فِي ذلك.

التلبيس الثانِي: أنَّهم يَعْمَلُون عند موت الميِّت دَعْوَةً، ويسمُّونَها عُرْسًا، ويُغَنُّون فيها ويرقصون ويلعبون، ويقولون: نفرح للميِّت، إِذْ وَصَلَ إِلَىٰ رَبِّهِ، والتَّلْبِيسُ فِي هَذَا عَلَيْهِم من ثلاثةِ أَوْجُهٍ:

أحدُها: أنَّ المَسْنُونَ أن يُتَّخَذَ لأهل الميِّت طعامٌ؛ لاشتغالِهم بالمصيبة عن إعداد الطَّعام لأنفسهم، وليس من السُّنَّةِ أن يتَّخذَه أهل الميِّت ويطعمونه إِلَىٰ غيرهم.

والأصلُ فِي اتِّخاذ الطَّعام لأجل الميِّت، ما أخبرنا به أبو الفتح الكروخي، نا أبو عامر الأزدي وأبو بكر الغورجي قال: أخبرنا الجراحيُّ، ثنا المحبوبِيُّ، ثنا الترمذيُّ، ثنا أحمد بن منيع، وعليُّ بن حجر، قالا: حَدَّثَنَا سفيان بن عُيَيْنَة، عن جعفر بن خالد، عن أبيه، عن عبد الله بن جعفر، قال: لَمَّا جاء نَعْيُ جعفر، قال النَّبِيُّ ﷺ: «اصْنَعُوا لآلِ جَعْفَرَ طَعَامًا، فَإِنَّه قَدْ جَاءَهُم مَا يَشْغَلُهُم»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٩٨)، ومسلم (٢٣١٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه أبو داود (٣١٣٢)، والترمذي (٩٩٨)، وابن ماجه (١٦١٠)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (١٠٢٥).

قال الترمذي: هَذَا حديث حسن صحيح.

والثانِي: أنَّهم يَفْرَحُون للمَيِّتِ ويقولون: وَصَلَ إِلَىٰ رَبِّهِ. ولا وَجْهَ للفرح؛ لأنَّا لا نتيقَّن أنَّه غُفِرَ له، وما يُؤَمِّنَّا أن نَفْرَحَ له وهو فِي المعذَّبين.

وقد قال عمر بن ذرٍّ لما مات ابنُه: لقد شغلنِي الحزنُ لك عن الحزن عليك.

أخبرنا عبد الأوَّلِ، نا ابن المظفَّر، نا ابن أعين، ثنا الفربري، ثنا البخاري، ثنا أبو اليمان، نا شعيب، عن الزهري، ثني خارجة بن زيد الأنصاري، عن أم العلاء قالت: لمَّا مات عثمان ابن مظعون، دخل علينا رسول الله ﷺ فَقُلْتُ: رَحْمَةُ الله عليك يا أبا السَّائب، فشهادتِي عليك، لقد أكرمك الله.

فقال النَّبِيُّ ﷺ: «وَمَا يُدْرِيكِ أَنَّ الله أَكْرَمَهُ»[(١)].

والثالث: أنَّهم يرقصون ويلعبون فِي تلك الدَّعوة، فيخرجون بِهَذَا عن الطِّباع السَّليمة الَّتي يُؤَثِّرُ عندها الفِرَاقُ.

ثُمَّ إن كان مَيِّتُهُم قد غُفِرَ له، فما الرَّقْصُ واللَّعِبُ بشكرهم؟

وإن كان مُعَذَّبًا فأين أَثَرُ الحزن؟!

ذكر تلبيس إبليس عَلَى الصوفية فِي ترك التشاغل بالعلم:

قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ: اعْلَمْ أَنَّ أَوَّلَ تَلْبِيسِ إبليس عَلَىٰ النَّاس، صَدُّهُم عن العلم؛ لأنَّ العلم نُورٌ، فإذا أطفأ مصابيحَهم، خَبَّطَهم فِي الظُّلَمِ كيف شاء، وقد دَخَلَ عَلَىٰ الصُّوفِيَّةِ فِي هَذَا الفَنِّ من أبوابٍ:

أَحَدُها: أنَّه منع جُمهورهم من العلم أصلًا، وَأَرَاهُم أنَّه يَحْتَاجُ إِلَىٰ تَعَبٍ وكُلَفٍ، فَحَسَّنَ

(١) أخرجه البخاري (١٢٤٣).

عِنْدَهُمُ الرَّاحَةَ، فَلَبِسُوا المراقع، وجَلَسُوا عَلَىٰ بِسَاطِ البِطَالَةِ.

أخبرنا إسماعيل بن أحمد السمرقنديُّ، نا حمد بن أحمد الحداد، نا أبو نعيم الأصفهانِيُّ، ثنا أبو مُحمَّد بن حيان، ثنا أبو الحسن البغداديُّ، ثنا ابن صاعد، قال: سمعتُ الشَّافِعِيَّ رضي الله عنه يقول: أُسِّسَ التَّصَوُّفُ عَلَىٰ الكَسَلِ.

وبيان ما قاله الشافعي: أَنَّ مَقْصُودَ النَّفْسِ إمَّا الولايات، وإمَّا استجلاب الدُّنيا بالعلوم.

واستجلابُ الدُّنيا بالعلوم يَطُولُ، وَيُتْعِبُ البَدَنَ، وهل يَحْصُلُ المقصودُ أو لا يَحْصُلُ؟ والصُّوفِيَّةُ قد تعجَّلوا الولايات؛ فإنَّهم لا يَرَوْنَ بِعَيْنِ الزُّهْدِ واستجلاب الدُّنيا؛ فَإِنَّها إليهم سريعةٌ.

أخبرنا عبد الحقِّ، نا المبارك بن عبد الجبَّار، نا أبو الفَرَجِ الطناجيريُّ، ثنا أبو حفص بن شاهين، قال: ومن الصُّوفيَّة مَنْ ذَمَّ العُلَمَاءَ، وَرَأَىٰ أنَّ الاشْتِغَالَ بالعلم بِطالةٌ، وقالوا: إِنَّ علومَنا بلا واسطةٍ، وإنَّما رَأوا بُعْدَ الطَّريق فِي طلب العلم، فقصَّروا الثِّيابَ، ورقَّعوا الجِلْبَابَ، وحملوا الركاء، وأظهروا الزُّهْدَ.

والثاني: أنَّه قَنَعَ قَوْمٌ منهم باليَسِيرِ منه، ففاتَهم الفضلُ الكثير فِي كَثْرَتِهِ، فاقتنعوا بأطراف الأحاديث، وأوهمهم أنَّ عُلُوَّ الإسناد والجلوسَ للحديث، كُلُّهُ رِيَاسَةٌ ودنيا، وَأَنَّ للنَّفْسِ فِي ذلك لَذَّةً.

وكشف هَذَا التَّلبيس، أنَّه ما مِنْ مَقَامٍ عَالٍ، إلَّا وَلَهُ فَضِيلَةٌ، وفيه مُخَاطَرَةٌ، فإنَّ الإمارةَ والقَضَاءَ والفَتْوَىٰ كلُّه مُخاطَرَةٌ، وللنَّفْسِ فيه لَذَّةٌ، ولكن فضيلتُه عظيمةٌ كالشَّوْكِ فِي جِوَارِ الوَرْدِ، فينبغي أن تُطْلَبَ الفضائلُ، وَيُتَّقَىٰ ما فِي ضِمْنِهَا من الآفات.

فأمَّا ما فِي الطَّبْعِ من حُبِّ الرِّياسة، فإنَّه إنَّما وُضِعَ لتُجْتَلَبَ هَذِهِ الفضيلةُ، كما وُضِعَ حُبُّ النِّكاح لِيَحْصُلَ الوَلَدُ، وبالعلم يتقوَّم قَصْدُ العالم، كما قال يزيد بن هارون: طَلَبْنَا

العلم لِغَيْرِ الله، فأَبَىٰ إِلَّا أن يكون لله.

ومعناه: أنَّه دَلَّنا عَلَىٰ الإخلاص، ومَنْ طَالَبَ نَفْسَهُ بقطع ما فِي طَبْعِهِ لَمْ يُمْكِنْهُ.

والثالث: أَنَّهُ أَوْهَمَ قَوْمًا منهم، أَنَّ المَقْصُودَ العملُ، وما فَهِمُوا أَنَّ التَّشَاغُلَ بالعِلْمِ من أوفىٰ الأعمال، ثُمَّ إنَّ العالِمَ وإن قَصُرَ سَيْرُ عَمَلِهِ، فَإِنَّهُ عَلَىٰ الجَادَّةِ، والعابدُ بِغَيْرِ عِلْمٍ عَلَىٰ غَيْرِ الطَّرِيق.

والرابع: أنَّه أَرَىٰ خَلْقًا كثيرًا منهم، أَنَّ العالِمَ ما اكتسب من البواطن، حتَّىٰ إنَّ أَحَدَهُم يَتَخَايَلُ له وَسْوَسَةٌ فيقول: حَدَّثَنِي قَلْبِي عن رَبِّي. وكان الشبليُّ يقول:

إِنْ طَالَبُونِي بِعِلْمِ الوَرَقْ ... بَرَزْتُ عَلَيْهِم بِعِلْمِ الخِرَقْ

وقد سَمَّوْا عِلْمَ الشَّرِيعةِ عِلْمَ الظَّاهِرِ، وَسَمَّوْا هواجسَ النُّفُوس العلمَ الباطن، واحتجُّوا له بِما أخبرنا به عبدُ الحَقِّ بن عبد الخالق، نا الحسين بن علي الطناجيري، نا أبو حفص بن شاهين، ثنا عليُّ بن مُحمَّد بن جعفر بن أحمد بن عنبسة العسكريُّ، ثِني دارم بن قبيصة بن نَهشل الصنعانِيُّ، قال: سَمِعْتُ يَحْيَىٰ بن الحسين بن زيد بن علي، قال: سَمِعْتُ يَحيَىٰ بن عبد الله بن حسين، عن يَحيَىٰ بن زيد بن علي، عن أبيه، عن جَدِّهِ، عن الحسن بن عليٍّ، عن علي بن أبِي طالب -كرَّم اللهُ وجهه- عن النَّبِيِّ ﷺ أنَّه قال: «**عِلْمُ البَاطِنِ سِرٌّ مِنْ سِرِّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وَحُكْمٌ مِنْ أَحْكَامِ اللهِ تَعَالَىٰ، يَقْذِفُهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فِي قُلُوبِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ أَوْلِيَائِهِ**»[1].

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: قلت: وهَذَا حَدِيثٌ لا أَصْلَ له عن النَّبِيِّ ﷺ وفِي إِسْنَادِهِ مَجَاهِيلُ لا يُعرفون.

أنبأنا مُحمَّد بن ناصر، نا أبو الفضل بن علي السهلكي، نا أبو علي عبد الله بن إبراهيم النيسابوري، ثنا أبو الحسين علي بن عبد الله بن جهضم، ثنا أبو الفتح أحمد بن الحسن، ثنا

(١) أورده الديلمي في «مسند الفردوس» (٣/ ٤٢)، وقال الألباني في «ضعيف الجامع» (٣٧٢٤): موضوع.

علي بن جعفر، عن أبي موسىٰ، قال: كان فِي ناحيةِ أَبِي يزيد رَجُلٌ فَقِيهٌ عَالِمٌ تلك النَّاحِيَةَ، فقصد أبا يزيد، وقال له: قد حُكِيَ لي عنك عجائبُ. فقال أبو يزيد: وما لَمْ تَسْمَعْ من عجائبِي أَكْثَرُ.

فقال له: عِلْمُكَ هَذَا يا أبا يزيد عن من؟ ومن أين؟ ومِنْ مَنْ؟

فقال أبو يزيد: عِلْمِي من عطاء الله تعالىٰ، ومن حيث قال ﷺ: «مَنْ عَمِلَ بِمَا يَعْلَمُ، وَرَّثَهُ اللهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ»[1]. ومن حيث قال ﷺ: «العِلْمُ عِلْمَانِ: عِلْمٌ ظَاهِرٌ، وَهُوَ حُجَّةُ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ خَلْقِهِ، وَعِلْمٌ بَاطِنٌ، وَهُوَ العِلْمُ النَّافِعُ»[2]. وَعِلْمُكَ يا شيخُ نَقْلٌ من لسانٍ عن لسان التَّعليم، وعلمي من الله إلهامٌ من عنده.

فقال له الشيخ: عِلْمِي عن الثِّقات عن رسول الله ﷺ عن جبريل عن ربِّه عَزَّوَجَلَّ.

فقال له أبو يزيد: يا شيخُ! كان للنَّبِيِّ ﷺ عِلْمٌ عن الله لَمْ يَطَّلِعْ عَلَيْهِ جِبْرِيلُ، ولا ميكائيلُ.

قال: نعم. ولكن أُرِيدُ أن يَصِحَّ لي عِلْمُكَ الَّذي تقول، هو من عند الله؟

قال: نعم. أُبَيِّنُهُ لَكَ قَدْرَ ما يَسْتَقِرُّ فِي قَلْبِكَ مَعْرِفَتُهُ.

ثُمَّ قال: يا شيخُ! عَلِمْتَ أَنَّ اللهَ تعالىٰ كَلَّمَ موسىٰ تكليمًا، وكَلَّمَ مُحمَّدًا ﷺ ورآه كفاحًا، وَأَنَّ حِلْمَ الأنبياء وَحْيٌ؟

قال: نعم.

قال: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ كَلامَ الصِّدِّيقين والأولياء بإلهامٍ منه، وفوائضُ من قلوبِهم، حتَّىٰ

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ١٥) من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقال الألباني في «الضعيفة» (٤٢٢): موضوع.

(٢) أورده السيوطي في «الجامع الصغير» (٨٣١٤) وعزاه للخطيب البغدادي وغيره، من حديث جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وضعَّفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٣٨٧٨).

أَنْطَقَهُم بالحكمة، وَنَفَعَ بِهِم الأمَّة؟ ومِمَّا يؤكِّدُ ما قُلْتُ ما أَلْهَمَ اللهُ تعالىٰ أُمَّ مُوسَىٰ، أَنْ تُلْقِيَ مُوسَىٰ فِي التَّابوت، فَأَلْقَتْهُ، وأَلْهَمَ الخَضِرَ فِي السَّفينة والغلام والحائط، وقولُه لموسىٰ: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ [الكهف:٨٢]، وَكَمَا قال أبو بكرٍ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: إِنَّ ابْنَةَ خارجة حَامِلَةٌ بِبِنْتٍ.

وَأَلْهَمَ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَنَادَىٰ: يا ساريةَ الجَبَلِ.

أنبأنا ابنُ ناصر، أنبأنا أبو الفضل السهلكيُّ قال: سمعتُ أبا عبد الله الشِّيرازيَّ يقول: سَمِعْتُ يوسفَ بن الحسين يقول: سَمِعْتُ إبراهيم سبتيَّةَ يقول: حضرتُ مَجْلِسَ أبِي يزيد والنَّاسُ يقولون: فلانٌ لَقِيَ فلانًا، وَأَخَذَ من عِلْمِهِ، وَكَتَبَ منه الكَثِيرَ، وفُلانٌ لَقِيَ فلانًا.

فقال أبو يزيد: مساكينُ، أَخَذُوا عِلْمَهُم مَيِّتًا عن مَيِّتٍ، وَأَخَذْنَا عِلْمَنَا عن الحَيِّ الَّذي لا يَمُوتُ.

قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ: هَذَا الفِقْهُ فِي الحكاية الأُولَىٰ مِنْ قِلَّةِ العلم؛ إذ لو كان عالمًا لَعَلِمَ أَنَّ الإلهامَ للشَّيْءِ لا يُنَافِي العِلْمَ، ولا يَتَّسِعُ به عنه، ولا يُنْكَرُ أَنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يُلْهِمُ الإنسانَ الشَّيْءَ، كما قال النَّبِيُّ ﷺ: **«إِنَّ فِي الأُمَمِ مُحَدَّثِينَ، وَإِنْ يَكُنْ فِي أُمَّتِي فَعُمَرُ»**(١).

والمُرَادُ بالتَّحْدِيثِ إلهامُ الخَيْرِ، إِلَّا أَنَّ المُلْهَمَ لو أُلْهِمَ مَا يُخَالِفُ العِلْمَ لَمْ يَجُزْ له أن يَعْمَلَ عليه.

وأمَّا الخَضِرُ فقد قِيلَ: إنَّه نَبِيٌّ.

ولا يُنْكَرُ للأنبياء الاطِّلاعُ بالوَحْيِ عَلَىٰ العَوَاقِبِ، وليس الإلهامُ من العلم فِي شيءٍ، إِنَّمَا هو ثَمَرَةُ العلم والتَّقْوَىٰ، فَيُوَفَّقُ صَاحِبُهُمَا للخير، ويُلْهَمُ الرُّشْدُ.

(١) أخرجه البخاري (٣٦٨٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ومسلم (٢٣٩٨) من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

فأمَّا أن يترك العِلْمَ ويقول: إنَّه يَعْتَمِدُ عَلَىٰ الإلهامِ والخواطر، فليس هَذَا بشيءٍ؛ إِذْ لولا العِلْمُ النَّقْلِيُّ، مَا عَرَفْنَا ما يَقَعُ فِي النَّفْسِ؛ أَمِنَ الإِلْهَامِ للخَيْرِ أو الوَسْوَسَةِ من الشَّيْطَانِ.

واعلم أنَّ العلم الإلهاميَّ المُلْقَىٰ فِي القلب لا يَكْفِي عن العلم المنقول، كما أنَّ العلومَ العَقْلِيَّةَ لا تكفي عن العلوم الشَّرعيَّة؛ فَإِنَّ العقليَّة كالأغذية، والشَّرعيَّة كالأدوية، ولا يَنُوبُ هَذَا عن هذا.

وأمَّا قولُه: أخذوا عِلْمَهُم مَيِّتًا عن مَيِّتٍ. أَصْلَحُ ما يُنْسَبُ إليه هَذَا القائلُ أنَّه ما يدري ما فِي ضِمْنِ هَذَا القَوْلِ، وإلَّا فهَذَا طَعْنٌ عَلَىٰ الشَّريعة.

أنبأنا ابن الحصين، نا ابن المذهب، نا أبو حفص بن شاهين، قال: مِنَ الصُّوفيَّةِ مَنْ رَأَىٰ الاشتغالَ بالعلم بِطَالَةً، وقالوا: نحن عُلُومُنَا بلا واسطةٍ.

قال: وما كان المُتَقَدِّمُون فِي التَّصَوُّفِ إلَّا رُؤوسًا فِي القرآن والفقه والحديث والتَّفسير، ولكن هؤلاء أَحَبُّوا البطالةَ.

وقال أبو حامد الطوسي: اعلم أنَّ مَيْلَ أهل التَّصَوُّفِ إِلَىٰ الإلهيَّة دون التَّعْلِيمِيَّةِ، ولذلك لَمْ يتعلَّموا، ولَمْ يحرصوا عَلَىٰ دراسة العلم وتحصيل ما صَنَّفَهُ المصنِّفون، بل قالوا: الطَّرِيقُ تَقْدِيمُ المجاهَدات بِمَحْوِ الصِّفات المذمومة، وقَطْعُ العلائق كلِّها، والإقبالُ عَلَىٰ الله تعالىٰ بِكُنْهِ الهِمَّة، وذلك بأن يَقْطَعَ الإنسانُ هَمَّهُ عن الأهل والمال والولدِ والعلم، وَيَخْلُوَ بنفسه فِي زاويةٍ، وَيَقْتَصِرَ عَلَىٰ الفرائض والرَّواتب، ولا يَقْرِنَ هَمَّهُ بِقِرَاءَةِ قرآنٍ، ولا بالتَّأَمُّلِ فِي نفسه، ولا يَكْتُبَ حَدِيثًا ولا غَيْرَهُ، ولا يزال يقول: الله الله الله، إِلَىٰ أن يَنْتَهِيَ إِلَىٰ حالٍ يَتْرُكُ تحريكَ اللِّسان، ثُمَّ يَمْحِي عن القلب صورةَ اللفظ.

قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ: قلتُ: عَزِيزٌ عَلَيَّ أن يَصْدُرَ هَذَا الكلامُ مِنْ فَقِيهٍ؛ فإنَّه لا يَخْفَىٰ قُبْحُهُ، إنَّه عَلَىٰ الحقيقة طَيٌّ لبساط الشَّرِيعَةِ، الَّتي حَثَّتْ عَلَىٰ تِلاوَةِ القرآن وَطَلَبِ العِلْمِ.

وعَلَىٰ هَذَا المذهب فقد رأيتُ الفُضَلاءَ مِنْ عُلَمَاءِ الأَمْصَارِ؛ فإنَّهم ما سَلكُوا هَذِهِ الطَّرِيقَ، وإنَّما تشاغلوا بالعلم أوَّلًا.

وعَلَىٰ ما قد رتب أبو حامد تخلو النَّفْسُ بوساوسها وخيالاتِها، ولا يكون عندها من العلم ما يطرد ذلك، فيلعب بِها إبليس أيَّ مَلْعَبٍ، فَيُرِيها الوَسْوَسَةَ مُحادَثَةً ومُنَاجَاةً.

ولا نُنْكِرُ أنَّه إذا طَهُرَ القلبُ انْصَبَّتْ عليه أنوارُ الهُدَىٰ، فَيَنْظُرُ بنور الله، إلَّا أنَّه يَنْبَغِي أن يكون تَطْهِيرُه بِمُقْتَضَىٰ العلم، لا بِما يُنَافِيهِ؛ فَإِنَّ الجُوعَ الشَّدِيدَ، والسَّهَرَ، وَتَضْيِيعَ الزَّمَانِ فِي التَّخَيُّلات، أمورٌ يَنْهَىٰ الشَّرْعُ عنها، فلا يُسْتَفَادُ من صاحب الشَّرْعِ شَيْءٌ يُنْسَبُ إلَىٰ ما نَهَىٰ عنه، كما لا تُسْتَبَاحُ الرُّخَصُ فِي سَفَرٍ قد نَهَىٰ عنه.

ثُمَّ لا تَنَافِيَ بين العلم والرِّياضة، بل العلم يُعَلِّمُ كيفيَّة الرِّياضة، ويُعِينُ عَلَىٰ تصحيحها، وإنَّما تلاعب الشَّيْطَانُ بأقوامٍ أبْعَدُوا العلم، وأقبلوا عَلَىٰ الرياضة بِما يَنْهَىٰ عنه العلم، والعلمُ بَعِيدٌ عنهم، فتارةً يَفْعَلُون الفِعْلَ المَنْهِيَّ عنه، وتارةً يُؤْثِرُونَ مَا غَيْرُهُ أَوْلَىٰ منه، وإنَّما كان يُفْتِي فِي هَذِهِ الحَوَادِثِ العِلْمُ، وقد عَزَلُوهُ، فَنَعُوذُ بالله من الخُذْلانِ.

أنبأنا ابن ناصر، عن أبِي عليٍّ بن البَنَّا قال: كان عِنْدَنَا بسوق السِّلاح رَجُلٌ كان يقول: القُرْآنُ حجابٌ، والرَّسُولُ حجابٌ، ليس إلَّا عَبْدٌ وَرَبٌّ، فافْتُتِنَ جَمَاعَةٌ به، فَأَهْمَلُوا العبادات، واختفىٰ مَخافةَ القَتْلِ.

أنبأنا مُحمَّدُ بن عبد الملك، نا أحمد بن علي بن ثابت، نا أبو الحسن مُحمَّد بن عبيد الله ابن مُحمَّد الجُبَّائِيُّ، ثنا أحمد بن سلمان النجاد، ثنا مُحمَّد بن عبد الله بن سليمان، ثنا هشام ابن يونس، ثنا المحاربِيُّ، عن بكر بن حنش، عن ضرار بن عمرو قال: إنَّ قَوْمًا تَرَكُوا العلم، ومُجَالَسَةَ أَهْلِ العلم، واتَّخَذُوا مَحَارِيبَ، فَصَلَّوْا وصاموا، حَتَّىٰ يَبِسَ جِلْدُ أحدِهم عَلَىٰ عَظْمِهِ، وخالفوا السُّنَّةَ، فَهَلَكُوا، فوالله الَّذي لا إِلَهَ غَيْرُهُ، ما عَمِلَ عَامِلٌ قَطُّ عَلَىٰ جَهْلٍ، إلَّا

كان ما يُفْسِدُ أَكْثَرَ مِمَّا يُصْلِحُ.

وقد فَرَّقَ كَثِيرٌ مِنَ الصُّوفيَّةِ بين الشَّريعة والحقيقة، وهَذَا جَهْلٌ من قائله؛ لأنَّ الشَّرِيعَةَ كُلُّهَا حَقَائِقُ، فإن كانوا يريدون بذلك الرُّخْصَةَ والعَزِيمَةَ، فَكِلاهُما شَرِيعَةٌ، وقد أنكر عليهم جَماعةٌ من قدمائهم فِي إعراضهم عن ظواهر الشَّرْعِ.

وعن أَبِي الحسن غلام شعوانة بالبصرة يقول: سمعت أبا الحسن بن سالم يقول: جاء رَجُلٌ إِلَىٰ سهل بن عبد الله، وَبِيَدِهِ مَحْبَرَةٌ وكتابٌ، فقال لِسَهْلٍ: جِئْتُ لِأَكْتُبَ شَيْئًا ينفعني الله به. فقال: اكْتُبْ إِنِ اسْتَطَعْتَ أن تَلْقَىٰ الله، وَبِيَدِكَ المَحْبَرَةُ والكتاب، فَافْعَلْ.

قال: يا أبا مُحمَّد أَفِدْنِي فَائِدَةً. فقال: الدُّنْيَا كُلُّهَا جَهْلٌ، إِلَّا ما كان عِلْمًا، والعِلْمُ كلُّه حُجَّةٌ، إِلَّا ما كان عَمَلًا، والعَمَلُ كُلُّهُ موقوفٌ، إلَّا ما كان منه عَلَىٰ الكتاب والسُّنَّةِ، وتقوم السُّنَّةُ عَلَىٰ التَّقْوَىٰ.

وعن سهل بن عبد الله، أنَّه قال: احْفَظُوا السَّوَادَ عَلَىٰ البَيَاضِ، فما أَحَدٌ تَرَكَ الظَّاهِرَ إِلَّا تَزَنْدَقَ.

وعن سهل بن عبد الله أنَّه قال: ما مِنْ طَرِيقٍ إِلَىٰ الله أفضل من العِلْمِ، فَإِنْ عَدَلْتَ عن طريق العلم خُطْوَةً، تُهْتَ فِي الظلام أربعين صباحًا.

وعن أَبِي بكر الدَّقَّاق قال: سمعتُ أبا سعيد الخراز يقول: كلُّ باطنٍ يخالف ظاهرًا فهو باطلٌ.

وعن أَبِي بكر الدَّقَّاق أنَّه قال: كُنْتُ مارًّا فِي تِيهِ بنِي إسرائيل، فَخَطَرَ ببالي أَنَّ عِلْمَ الحقيقة مُبَايِنٌ للشَّرِيعَةِ، فَهَتَفَ بِي هاتفٌ من تحت شجرةٍ: كُلُّ حقيقةٍ لا تَتْبَعُهَا الشَّرِيعَةُ فَهِيَ كُفْرٌ.

قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ: وَقَدْ نَبَّهَ الإمامُ أبو حامد الغزاليُّ في كتاب «الإحياء»، فقال: «مَنْ

قال: إنَّ الحقيقة تخالف الشريعة، أو الباطن يُخَالِفُ الظَّاهِرَ، فَهُوَ إلىٰ الكُفْرِ أقْرَبُ منه إلىٰ الإيمان». وقال ابن عقيل: جَعَلَتِ الصُّوفِيَّةُ الشَّريعةَ اسْمًا، وقالوا: المُرَادُ مِنْهَا الحقيقةُ.

قال: وهَذَا قَبِيحٌ؛ لأنَّ الشَّرِيعَةَ وَضَعَهَا الحَقُّ لِمَصَالِحِ الخَلْقِ وتعبُّداتِهم، فما الحَقِيقَةُ بَعْدَ هَذَا سِوَىٰ شَيْءٍ وَاقِعٍ فِي النَّفْسِ مِنْ إلقاء الشياطين، وكلُّ من رام الحقيقةَ فِي غير الشَّريعة فَمَغْرُورٌ مَخْدُوعٌ.

ذكر تلبيس إبليس عَلَىٰ جماعة من القوم فِي دفنهم كتب العلم وإلقائها فِي الماء:

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: قد كان جَمَاعَةٌ مِنْهُم تَشَاغَلُوا بكتابةِ العلم، ثُمَّ لَبَّسَ عليهم إبْلِيس، وقال: ما المَقْصُودُ إلَّا العَمَلُ. وَدَفَنُوا كتبَهم.

فقد رُوِيَ أنَّ أحمد بن أبِي الحواري، أنه رَمَىٰ كُتُبَهُ فِي البحر، وقال: نِعْمَ الدَّلِيلُ كُنْتَ، والاشتغالُ بالدَّلِيلِ بعد الوصولِ مُحَالٌ.

ولقد طَلَبَ أحمدُ بن أبِي الحواري الحديثَ ثلاثين سَنَةً، فلمَّا بَلَغَ منه الغَايَةَ، حَمَلَ كُتُبَهُ إلَىٰ البَحْرِ فَغَرَّقَهَا، وقال: يا عِلْمُ، لَمْ أَفْعَلْ بك هَذَا تَهاوُنًا، ولا استخفافًا بِحَقِّكَ، ولكنِّي كُنْتُ أَطْلُبُكَ لأهتدي بك إلَىٰ رَبِّي، فَلَمَّا اهْتَدَيْتُ بِكَ اسْتَغْنَيْتُ عنك.

أخبرنا أبو بكر بن حبيب، نا أبو سعد بن أبِي صادق، نا ابن باكويه، قال: سَمِعْتُ أبا الحسن غلام شعوانة بالبصرة، يقول: سَمِعْتُ أبا الحسن بن سالم، عن أبِي عبد الله مُحمَّد بن عبد الله الحافظ، قال أحمد بن مُحمَّد بن إسماعيل: أبو الحسين بن الخلال كان حَسَنَ الفَهْمِ، له صَبْرٌ عَلَىٰ الحديث، وإنَّه كان يتصوَّف وَيَرْمِي بالحديث مدَّةً، ثُمَّ يَرْجِعُ وَيَكْتُبُ، ولقد أُخبِرْتُ أنَّه رَمَىٰ بُجُمْلَةٍ مِنْ سَمَاعَاتِهِ القديمة فِي دِجْلَةَ، فَأَوَّلُ ما سمع عَلَىٰ ابن العبَّاس الأصم وَطَبَقَتِهِ، وكَتَبَ الكثيرَ.

أنبأنا زاهرُ بن طاهرٍ، نا أحمد بن الحسين البيهقيُّ، قال: سَمِعْتُ أبا عمرو بن أبِي

جعفر، يقول: سَمِعْتُ أبا طاهرٍ يقول: لقد كان موسىٰ بن هارون يَقْرَأُ علينا، فإذا فَرَغَ من الجُزْءِ، رَمَىٰ بِأَصْلِهِ فِي دِجْلَةَ، ويقول: قَدْ أَدَّيْتُهُ.

أخبرنا مُحمَّد بن ناصر، نا أحمد بن علي بن خلف، نا أبو عبد الرحمن السلمي قال: سَمِعْتُ أبا نصرٍ الطوسيَّ، يقول: سَمِعْتُ جَمَاعَةً مِنْ مَشَايِخِ الرَّيِّ يقولون: وَرِثَ أبو عَبْدِ الله المقري عن أبيه خمسين ألف دينارٍ، سِوَىٰ الضِّيَاعِ والعقار، فَخَرَجَ عن جميع ذلك وأَنْفَقَهَا عَلَىٰ الفقراء، قال: فسألتُ أبا عبد الله عن ذلك، فقال: أَحْرَمْتُ وأنا غُلامٌ حَدَثٌ، وخرجتُ إِلَىٰ مكَّة عَلَىٰ الوحدة، حين لَمْ يَبْقَ لي شيءٌ أَرْجِعُ إليه، وكان اجتهادي أن أَزْهَدَ فِي الكتب، وما جَمَعْتُ من العلم والحديث أَشَدَّ عَلَيَّ من الخروج إِلَىٰ مَكَّةَ، والتَّقَطُّعِ فِي الأسفار، والخروجِ عن مِلْكِي.

أخبرنا أبو منصور القزاز، نا أحمد بن علي بن ثابت، نا إسماعيل الحيري، ثنا مُحمَّد بن الحسين السلمي، قال: سمعت أبا العبَّاس بن الحسين البغداديَّ يقول: سمعت الشبليَّ يقول: أَعْرِفُ مَنْ لَمْ يَدْخُلْ فِي هَذَا الشَّأن، حتَّىٰ أنفق جميعَ مِلْكِهِ، وأغْرَقَ فِي هَذِهِ الدِّجْلَةِ سبعين قمطرًا مكتوبًا بِخَطِّهِ، وَحَفَظَ وَقَرَأَ بكذا وكذا رواية. يعني ذلك نفسه.

قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ: قد سَبَقَ القَوْلُ بأنَّ العِلْمَ نورٌ، وأنَّ إبليس يُحَسِّنُ للإنسان إطفاءَ النُّور؛ لِيَتَمَكَّنَ منه فِي الظُّلمة، ولا ظُلْمَةَ كَظُلْمَةِ الجهل.

ولمَّا خاف إبليس أن يُعَاوِدَ هؤلاء مُطَالَعَةَ الكتب، فربَّما استدلُّوا بذلك عَلَىٰ مَكَايِدِهِ، حَسَّنَ لَهم دَفْنَ الكتب وإتلافَها، وهَذَا فِعْلٌ قبيحٌ محظورٌ، وَجَهْلٌ بالمقصود بالكتب.

وَبَيَانُ هَذَا أَنَّ أَصْلَ العلوم القرآنُ والسُّنَّةُ، فلمَّا عَلِمَ الشَّرْعُ أنَّ حِفْظَهُمَا يَصْعُبُ، أَمَرَ بكتابة المصحف وكتابة الحديث، فأمَّا القرآنُ فإنَّ رسول الله ﷺ كان إذا نَزَلَتْ عليه آيةٌ، دَعَا بالكاتِبِ، فَأَثْبَتَهَا، وكانوا يَكْتُبُونَها فِي العُسُبِ والحجارة وَعِظَامِ الكَتِفِ، ثُمَّ جَمَعَ القرآنَ

بعدَه فِي المصحف أبو بكر؛ صَوْنًا عليه، ثُمَّ نَسَخَ من ذلك عثمانُ بن عفان رضي الله عنه وبقيَّةُ الصَّحابة، وكلُّ ذلك لِحِفْظِ القرآن؛ لئلا يَشِذَّ منه شيءٌ.

وأمَّا السُّنَّةُ: فإنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَصَرَ الناس فِي بداية الإسلام عَلَىٰ القرآن، وقال: «لا تَكْتُبُوا عَنِّي سِوَىٰ القُرْآنِ»[1]. فَلَمَّا كَثُرَتِ الأحاديثُ، ورأىٰ قِلَّةَ ضَبْطِهِم، أَذِنَ لَهم فِي الكتابة.

فَرَوَىٰ عن أبِي هريرة رضي الله عنه أنَّه شكا إِلَىٰ رسول الله ﷺ قِلَّةَ الحِفْظِ، فقال: «ابْسِطْ رِدَاءَكَ». فَبَسَطَ رِدَاءَهُ، وَحَدَّثَهُ النَّبِيُّ -عليه الصلاة والسلام- وقال: «ضُمَّهُ إِلَيْكَ». فقال أبو هريرة: فَلَمْ أَنْسَ بعد ذلك شيئًا بِما حَدَّثَنِيهِ رسول الله ﷺ[2].

وفِي روايةٍ أنَّه قال: «اسْتَعِنْ عَلَىٰ حِفْظِكَ بِيَمِينِكَ»[3]. يعني: بالكتابة.

وروىٰ عنه ﷺ عبدُ الله بن عمرو أنَّه قال: «قَيِّدُوا العِلْمَ». فقلتُ: يا رَسُولَ الله، وما تَقْيِيدُهُ؟ قال: «الكِتَابَةُ»[4].

وروىٰ عنه أيضًا رافع بن خديج قال: قُلْنَا يا رسول الله، إِنَّا نَسْمَعُ مِنْكَ أَشْيَاءَ، أَفَنَكْتُبُهَا؟ قال: «اكْتُبُوا وَلا حَرَجَ»[5].

قال المصنف رحمه الله: «وَاعْلَمْ أَنَّ الصَّحابةَ ضَبَطَتْ ألفاظَ رسول الله ﷺ وحركاتِه وأفعالَه، واجتمعت الشَّرِيعَةُ من روايةِ هَذَا وروايةِ هذا».

وقد قال رسول الله ﷺ: «بَلِّغُوا عَنِّي»[6]. وقال: «نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا،

---

(١) أخرجه مسلم (٣٠٠٤) من حديث أبِي سعيد الخدري رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري (٣٦٤٨)، ومسلم (٢٤٩٢).
(٣) أخرجه الترمذي (٢٦٦٦) من حديث أبِي هريرة رضي الله عنه، وضعفه الألباني فِي «ضعيف الجامع» (٨١٣).
(٤) أخرجه الحاكم (١/ ١٠٦)، وصححه الألباني فِي «صحيح الجامع» (٤٤٣٤).
(٥) أخرجه الطبراني فِي «المعجم الكبير» (٤/ ٢٧٦)، وانظر: «مجمع الزوائد» (١/ ١٥١).
(٦) أخرجه البخاري (٣٤٦١) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

فَأَدَّاهَا كَمَا سَمِعَهَا»(١).

وَتَأْدِيَةُ الحَدِيثِ كما يسمع، لا يَكَادُ يَحْصُلُ إِلَّا مِنَ الكتابة؛ لأَنَّ الحِفْظَ خَوَّانٌ، وقد كان أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللهُ يُحَدِّثُ بالحديث، فَيُقَالُ له: أَمْلِهِ عَلَيْنَا. فيقول: لا. بَلْ من الكِتَابِ.

وقد قال علي بن المديني: أَمَرَنِي سَيِّدِي أحمدُ بن حنبل أَلَّا احدِّث إِلَّا من الكتاب.

فإذا كانت الصَّحابةُ قد رَوَتِ السُّنَّةَ، وتلقَّاها التَّابعون وسافَرَ المُحَدِّثون، وقطعوا شَرْقَ الأَرْضِ وَغَرْبَهَا لتحصيل كلمةٍ من هاهنا، وكلمةٍ من هنا، وصحَّحوا ما صَحَّ، وزيَّفُوا ما لَمْ يَصِحَّ، وَجَرَحُوا الرُّوَاةَ وَعَدَّلُوا، وهذَّبُوا السُّنَنَ وَصَنَّفوا، ثُمَّ من يَغْسِلُ ذلك فَيَضِيعُ التَّعَبُ، ولا يُعْرَفُ حُكْمُ الله فِي حادثةٍ، فما عُونِدَتِ الشريعةُ بِمِثْلِ هذا.

فهل لشريعةٍ من الشرائع قَبْلَنَا إسنادٌ إِلَىٰ نَبِيِّهم؟ وإنَّما هَذِهِ خِصِّيصَةٌ لِهَذِهِ الأُمَّةِ.

وقد روينا عن الإمام أحمد بن حنبل، مع كَوْنِهِ طَافَ الشَّرْقَ والغَرْبَ فِي طلب الحديث، أَنَّه قال لابْنِهِ: ما كَتَبْتَ عن فلانٍ؟ فَذَكَرَ له أَنَّ النَّبِيَّ -عليه الصلاة والسلام- «كان يَخْرُجُ يَوْمَ العِيدِ من طريقٍ، وَيَرْجِعُ من أخرىٰ»(٢).

فقال الإمام أحمد بن حنبل: إِنَّا لله! سُنَّةٌ مِنْ سُنَنِ رسول الله ﷺ لَمْ تَبْلُغْنِي. وهَذَا قَوْلُهُ مع إِكْثَارِهِ وَجَمْعِهِ، فكيف بِمَنْ لَمْ يَكْتُبْ، وإذا كَتَبَ غَسَلَ؟

أَفَتَرَىٰ إِذَا غُسِلَتِ الكُتُبُ، وَدُفِنَتْ، عَلامَ يُعْتَمَدُ فِي الفتاوىٰ والحوادث؟ عَلَىٰ فلانٍ الزَّاهد أو فلانٍ الصُّوفيِّ أو علىٰ الخواطر فيما يقع لَها؟

نَعُوذُ بالله من الضَّلالِ بعد الهُدَىٰ.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٥٧) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٧٦٣، ٦٧٦٦).

(٢) أخرجه البخاري (٩٨٦) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

فصل [دفن الكتب]

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ولا تَخلُو هَذِهِ الكُتُبُ الَّتي دَفَنُوهَا، أن يكون فيها حَقٌّ أو باطلٌ، أو قد اخْتَلَطَ الحَقُّ بالباطل، فإن كان فيها بَاطِلٌ فلا لَوْمَ عَلَىٰ مَنْ دَفَنَهَا، وإن كان قَدِ اخْتَلَطَ الحقُّ بالباطل، ولَمْ يمكن تمييزُه، كان عُذْرًا فِي إتلافِها؛ فَإِنَّ أَقْوَامًا كَتَبُوا عن ثِقَاتٍ، وعن كذَّابين، واختلط الأمرُ عليهم، فَدَفَنُوا كُتُبَهم.

وعَلَىٰ هَذَا يُحْمَلُ ما يُرْوَىٰ عن دفن الكتب عن سفيان الثَّوْرِيِّ.

وإن كان فيه الحقُّ والشَّرْعُ، فلا يَحِلُّ إتلافُها بِوَجْهٍ؛ لِكَوْنِها ضَابِطَةَ العِلْمِ وَأَمْوَالًا، وَلِيُسْأَلْ مَنْ يَقْصِدُ إتلافَها عن مقصوده.

فإن قال: تَشْغَلُنِي عن العبادة. قيل له: جوابُك من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنَّك لو فَهِمْتَ لَعَلِمْتَ أَنَّ التَّشَاغُلَ بالعلم أَوْفَىٰ العبادات.

والثاني: أنَّ اليقظةَ الَّتي وَقَعَتْ لك لا تَدُومُ؛ فَكَأَنِّي بك، وقد نَدِمْتَ عَلَىٰ ما فَعَلْتَ بعد الفوات.

واعلم أنَّ القلوب لا تَبْقَىٰ عَلَىٰ صَفَائِهَا، بل تَصْدَأُ، فتحتاج إِلَىٰ جلاءٍ، وجلاؤُها النَّظَرُ فِي كُتُبِ العلم.

وقد كان يوسف بن أسباط، دَفَنَ كُتُبَهُ، ثُمَّ لَمْ يَصْبِرْ عَلَىٰ التَّحْدِيثِ، فَحَدَّثَ من حِفْظِهِ، فَخَلَطَ.

والثالث: أَنَّنَا نُقَدِّرُ تَمَامَ يَقَظَتِكَ ودوامَها والغِنَىٰ عن هَذِهِ الكتب، فهلا وَهَبْتَهَا لِمُبْتَدِئٍ من الطُّلاب، مِمَّن لَمْ يَصِلْ إِلَىٰ مَقَامِكَ، أو وَقَفْتَهَا عَلَىٰ المُنْتَفِعينَ بِها، أو بِعْتَهَا وتصدَّقْتَ بِثَمَنِهَا، أمَّا إتلافُها فلا يَحِلُّ بِحَالٍ.

وقد روىٰ المروزيُّ عن أحمد بن حنبل، أنَّه سُئِلَ عن رجلٍ أَوْصَىٰ أن تُدْفَنَ كُتُبُهُ فقال: ما يُعْجِبُنِي أن يُدْفَنَ العلمُ.

وأنبأنا مُحمَّدُ بن عبد الملك، ويَحيَىٰ بن عليٍّ، قال: أنبأنا أحمد بن علي بن ثابت، نا عبيد الله بن عبد العزيز البرذعي، نا مُحمَّد بن عبيد الله بن الشخير، ثنا أبو بكر مُحمَّد بن أحمد بن النخاس، قال: سَمِعْتُ المروزيَّ يقول: سمعت أحمد بن حنبل يقول: لا أَعْرِفُ لِدَفْنِ الكتب مَعْنًىٰ.

ذكر تلبيس إبليس علَى الصوفية فِي إنكارهم من تشاغل بالعلم:

قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ: لمَّا انْقَسَمَ هؤلاء بين متكاسلٍ عن طلب العِلْمِ، وبين ظانٌّ أنَّ العِلْمَ هو ما يقع فِي النُّفوس من ثمراتِ التَّعَبُّدِ، وَسَمَّوْا ذلك العلم: العِلْمَ الباطن، نَهَوا عن التَّشَاغُلِ بالعلم الظَّاهر.

أخبرنا عبد الرحمن بن مُحمَّد القزاز، نا أبو بكر أحمد بن علي، نا علي بن أبِي علي البصري، ثنا أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن مُحمَّد الطبريُّ، قال: سَمِعْتُ جعفرًا الخلديَّ، يقول: لو تَرَكَنِي الصُّوفيَّةُ، لَجِئْتُكُم بإسنادِ الدُّنيا، لقد مَضَيْتُ إلَىٰ عبَّاس الدُّوريِّ وأنا حَدَثٌ، فَكَتَبْتُ عَنْهُ مَجْلِسًا وَاحِدًا، وَخَرَجْتُ من عِنْدِهِ، فَلَقِيَنِي بَعْضُ مَنْ كُنْتُ أَصْحَبُهُ من الصُّوفيَّة، فقال: إيش هَذَا معك؟ فأريتُه إيَّاه، فقال: ويحَك تدع علم الخِرَقِ، وتأخذ علم الوَرَقِ؟! ثُمَّ خَرَقَ الأوراق، فَدَخَلَ كلامُه فِي قلبِي، فلم أَعُدْ إلَىٰ عبَّاسٍ.

قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ: وبَلَغَنِي عن أبِي سعيد الكندي قال: كنتُ أنزل رباط الصُّوفيَّة وأطلب الحديث فِي خُفْيَةٍ، بحيث لا يعلمون، فَسَقَطَتِ الدَّواةُ يومًا من كُمِّي، فقال لي بعض الصُّوفِيَّةِ: اسْتُرْ عورتَك.

أخبرنا مُحمَّد بن ناصر، نا أبو القاسم هبة الله بن عبد الله الواسطي، نا أبو بكر الخطيب،

نا أبو الفتح بن أَبِي الفوارس، نا الحسين بن أحمد الصَّفَّار، قال: كان بِيَدِي مَحْبَرَةٌ، فقال لي الشبليُّ: غَيِّبْ سَوَادَكَ عَنِّي، يَكْفِينِي سَوَادُ قَلْبِي.

أخبرنا أبو بكر بن حبيب، نا أبو سعد بن أَبِي صادق، نا ابن باكويه، قال: سَمِعْتُ عبدَ الله الغزال المذكور، قال: سَمِعْتُ عليَّ بن مهدي يقول: وَقَفْتُ ببغداد عَلَىٰ حلقة الشبلي، فنظر إليَّ ومعي مَحْبَرَةٌ، فَأَنْشَأَ يقول:

تَسَرْبَلْتُ للحَرْبِ ثَوْبَ الغَرَقِ ... وَجُبْتُ البِلادَ لِوَجْدِ القَلَقْ
فَفِيكَ هَتَكْتُ قِنَاعَ الغَوَى ... وَعَنْكَ نَطَقْتُ لَدَى مَنْ نَطَقْ
إِذَا خَاطَبُونِي بِعِلْمِ الوَرَقِ ... بَرَزْتُ عَلَيْهِم بِعِلْمِ الخِرَقْ

قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ: قُلْتُ: مِنْ أَكْبَرِ المُعَانَدَةِ لله عَزَّ وَجَلَّ الصَّدُّ عَنْ سَبِيلِ الله، وَأَوْضَحُ سَبِيلِ اللهِ العِلْمُ؛ لأَنَّه دَلِيلٌ عَلَىٰ اللهِ، وَبَيَانٌ لأحكام الله وَشَرْعِهِ، وإيضاحٌ لما يُحِبُّهُ ويَكْرَهُهُ؛ فالمَنْعُ مِنْهُ مُعَادَاةٌ لله وَلِشَرْعِهِ، ولكن النَّاهون عن ذلك ما تَفَطَّنُوا لما فَعَلُوا.

أخبرنا ابن حبيب: قال: نا ابن أَبِي صادق، نا ابن باكويه، قال: سَمِعْتُ أبا عبد الله بن خفيف يقول: اشْتَغِلُوا بِتَعَلُّمِ العِلْمِ، ولا يَغُرَّنَّكم كلامُ الصُّوفيَّة؛ فإِنِّي كُنْتُ أُخَبِّئُ مَحْبَرَتِي فِي جَيْبِ مُرَقَّعَتِي، والكاغدَ فِي حِزَّةِ سراويلي، وكنتُ أَذْهَبُ خُفْيَةً إِلَىٰ أَهْلِ العلم، فإذا عَلِمُوا بِي خَاصَمُونِي، وقالوا: لا تُفْلِح. ثُمَّ احتاجوا إليَّ بعد ذلك.

وقد كان الإمام أحمد بن حنبل يرىٰ المحابر بأيدي طلبة العلم، فيقول: هَذِهِ سُرُجُ الإسلام.

وكان هو يَحْمِلُ المَحْبَرَةَ عَلَىٰ كِبَرِ سِنِّهِ، فقال له رجل: إِلَىٰ مَتَىٰ يا أبا عبد الله؟ فقال: المَحْبَرَةُ إِلَىٰ المَقْبَرَةِ.

وقال فِي قوله -عليه الصلاة والسلام: «لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي مَنْصُورِينَ لا يَضُرُّهُم مَنْ

خَذَلَهُم، حَتَّىٰ تَقُومَ السَّاعَةُ»[1].

فقال أحمد: إن لَمْ يكونوا أصحاب الحديث فلا أدري من هم.

وقال أيضًا: إن لم يكن أصحاب الحديث الأبدال، فمن يكون؟

وقيل له: إِنَّ رجلًا قال فِي أصحاب الحديث، أَنَّهم كانوا قَوْمَ سُوءٍ، فقال أحمد: هُوَ زِنْدِيقٌ.

وقد قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: إذا رَأَيْتَ رَجُلًا من أصحاب الحديث، فَكَأَنِّي رأيتُ رَجُلًا من أصحاب رسول الله ﷺ.

وقال يوسف بن أسباط: بِطَلَبَةِ الحديث يَدْفَعُ اللهُ البَلاءَ عن أهل الأرض.

أخبرنا أبو منصور القزاز، نا أبو بكر الخطيب، ثنا عبد العزيز بن علي، ثنا ابن جهضم، ثنا مُحمَّد بن جعفر، ثنا أحمد بن مُحمَّد بن مسروق، قال: رَأَيْتُ كَأَنَّ القيامةَ قد قَامَتْ، والخَلْقُ مُجتمعون، إذ نادىٰ منادٍ: الصلاةُ جامعةٌ.

فَاصْطَفَّ الناسُ صفوفًا، فأتانِي مَلَكٌ، فَتَأَمَّلْتُهُ، فإذا بين عَيْنَيْهِ مَكْتُوبٌ: جبريلُ أَمِينُ الله. فقلتُ: أين النَّبِيُّ ﷺ؟ فقال: مَشْغُولٌ بِنَصْبِ الموائد لإخوانه الصُّوفيَّة. فقلتُ: وأنا من الصُّوفيَّة. فقيل: نعم، ولكن شَغَلَكَ كثرةُ الحديث.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: مَعَاذَ الله أن يُنْكِرَ جبريلُ التَّشَاغُلَ بالعلم.

وفِي إسنادِ هَذِهِ الحكاية ابن جهضم، وكان كذَّابًا، ولعلَّها عَمَلُهُ، وأمَّا ابنُ مسروقٍ، فَأَخْبَرَنِي القزاز، نا أبو بكر الخطيب، حدَّثنِي علي بن مُحمَّد بن نصر، قال: سَمِعْتُ حمزةَ بن يوسف قال: سمعتُ الدَّارَقُطْنِيَّ يقول: أبو العبَّاس بن مسروق، ليس بالقويِّ، يأتِي بالمعضلات.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢١٩٢)، وابن ماجه (٦) من حديث قرة بن إياس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وصححه الألباني فِي «صحيح الجامع» (٧٢٩٢).

ذكر تلبيس إبليس عَلَى الصوفية فِي كلامهم فِي العلم:

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: اعْلَمْ أَنَّ هؤلاء القَوْمَ لمَّا تركوا العلم، وانْفَرَدُوا بالرِّياضات عَلَىٰ مُقْتَضَىٰ آرائهم، لَمْ يَصْبِرُوا عن الكلام فِي العلوم، فتكلَّموا بواقعاتِهم، فَوَقَعَتِ الأغاليطُ القبيحةُ منهم، فتارةً يتكلَّمون فِي تفسير القرآن، وتارةً فِي الحديث، وتارةً فِي الفِقْهِ، وغير ذلك، ويسوقون العلوم إِلَىٰ مقتضىٰ علمهم الَّذي انفردوا به، واللهُ سبحانه لا يُخَلِّي الزَّمانَ مِنْ أَقْوَامٍ قُوَّامٍ بِشَرْعِهِ يردُّون عَلَىٰ المتخرِّصين، ويبيِّنون غَلَطَ الغالطين.

ذكر نبذة من كلامهم فِي القرآن:

أخبرنا أبو منصور عبد الرحمن بن مُحمَّد القزاز، نا أبو بكر بن علي بن ثابت، نا أبو القاسم عبد الواحد بن عثمان البجلي، قال: سَمِعْتُ جعفر بن مُحمَّد الخلدي قال: حَضَرْتُ شَيْخَنَا الجنيد، وقد سأله بن كَيْسان عن قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾﴾ [الأعلى:٦]، فقال الجنيد: لا تَنْسَ العملَ به.

وَسَأَلَهُ عن قوله تعالىٰ: ﴿وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ﴾ [الأعراف:١٦٩]، فقال له الجنيد: تركوا العمل به. فقال: لا يَفْضُضِ اللهُ فَاكَ.

قلتُ: أَمَّا قَوْلُهُ: لا تَنْسَ العمل به، فَتَفْسِيرٌ لا وَجْهَ له، والغَلَطُ فيه ظاهرٌ؛ لأنَّه فَسَّرَهُ عَلَىٰ أنَّه نَهيٌ، وليس كذلك، إنَّما هو خَبَرٌ لا نهي، وتقديرُه «فما تنسىٰ» إِذْ لو كان نَهْيًا كان مَجْزُومًا، فَتَفْسِيرُهُ عَلَىٰ خِلافِ إجْماعِ العلماء.

وكذلك قولُه: ﴿وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ﴾ إنَّما هو من الدَّرْسِ الَّذي هو التِّلاوة، من قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [آل عمران:٧٩]، لا من دروس الشَّيء الَّذي هو إهلاكُه.

أخبرنا مُحمَّد بن عبد الباقي، نا حمد بن أحمد، ثنا أبو نعيم الحافظ، قال: سَمعتُ أحمد بن مُحمَّد بن مقسم، يقول: حضرتُ أبا بكر الشبليَّ، وسُئِلَ عن قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ فِي

﴿ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾[ق:٣٧]، فقال: لِمَنْ كان اللهُ قَلْبَهُ.

وأخبرنا عمر بن ظفر، نا جعفر بن أحمد، نا عبد العزيز بن علي، نا ابن جهضم، ثنا مُحمَّد بن جعفر، قال: سمعت أبا العبَّاس بن عطاء، وقد سُئِلَ عن قوله: ﴿فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ﴾[طه:٤٠]، قال: نَجَّيْنَاكَ من الغَمِّ بقومك، وفَتَنَّاك بنا عَمَّنْ سِوَانَا.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: وهَذِهِ جُرْأَةٌ عَظِيمَةٌ عَلَىٰ كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وَنِسْبَةُ الكَلِيمِ إِلَىٰ الافْتِتَانِ بِمَحَبَّةِ الله سبحانه، وَجَعْلُ مَحَبَّتِهِ تَفْتِنُ، غَايَةٌ فِي القباحة.

أخبرنا أبو منصور القزاز، نا أحمد بن علي الحافظ، نا أبو حازم عمر بن إبراهيم العبدوي، قال: سَمِعْتُ أبا بكر مُحمَّد بن عبد الله الرازي، يقول: سَمِعْتُ أبا العبَّاس بن العطاء يقول فِي قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ ﴿٨٩﴾﴾ [الواقعة:٨٨، ٨٩].

فقال: الروح: النَّظَرُ إِلَىٰ وَجْهِ الله عَزَّوَجَلَّ.

والريحان: الاستماع لكلامه.

وجنَّةُ نعيم: هو ألا يُحْجَبَ فيها عن الله عَزَّوَجَلَّ.

قلتُ: هَذَا كلامٌ بالواقع عَلَىٰ خِلافِ أَقْوَالِ المُفَسِّرِين، وقد جمع أبو عبد الرحمن السلميُّ فِي تفسير القرآن مِنْ كَلامِهِم الَّذي أَكْثَرُهُ هذيان لا يَحِلُّ، نَحْوَ مُجَلَّدَيْنِ، سمَّاها: «حقائق التفسير»، فقال فِي فاتحة الكتاب عنهم أنَّهم قالوا: إنَّما سُمِّيَتْ فاتحةَ الكتاب لأنَّها أوائلُ ما فَاتَحْنَاكَ به من خطابنا، فإن تَأَدَّبْتَ بذلك وإلَّا حُرِمْتَ لطائفَ ما بعده!!

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: وهَذَا قبيحٌ؛ لأنَّه لا يَخْتَلِفُ المفسِّرون، أنَّ الفاتحة ليست من أَوَّلِ ما نزل.

وقال فِي قول الإنسان: آمين؛ أي: قاصدون نَحْوَكَ.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وهَذَا قبيحٌ؛ لأنَّه ليس مِنْ «أمَّ»؛ لأنَّه لو كان كذلك لكانت الميم مُشَدَّدَةً.

وقال فِي قوله: ﴿ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَرَىٰ ﴾ [البقرة:٨٥]، قال: قال أبو عثمان: غَرْقَىٰ فِي الذُّنوب. وقال الواسطيُّ: غَرْقَىٰ فِي رُؤْيَةِ أفعالِهم. وقال الجنيد: أَسَارَىٰ فِي أَسْبَابِ الدُّنيا، تُفْدُوهُم إِلَىٰ قطع العلائق.

قلت: وإنَّما الآيةُ عَلَىٰ وَجْهِ الإنكار، ومعناها: إذا أَسَرْتُمُوهم فَدَيْتُمُوهم، وإذا حاربتموهم قَتَلْتُمُوهم. وهؤلاء قد فسَّروها عَلَىٰ ما يوجب المدح.

وقال مُحمَّد بن علي: ﴿يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ ﴾ [البقرة:٢٢٢]، من توبتهم.

وقال النوري: ﴿يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ ﴾ [البقرة:٢٤٥]، أي: يَقْبِضُكَ بإيَّاه ويبسطك لإيَّاه. وقال فِي قوله: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾ [آل عمران:٩٧]، أي: من هواجس نَفْسِهِ، وَوَسَاوِسِ الشيطان.

وهَذَا غايةٌ فِي القُبْحِ؛ لأنَّ لَفْظَ الآية لَفْظُ الخبر، ومعناه الأمر، وتقديرُها: مَنْ دَخَلَ الحَرَمَ فَأَمِّنُوه، وهؤلاء قد فَسَّرُوها عَلَىٰ الخبر، ثُمَّ لا يَصِحُّ لَهم؛ لأنَّه كم من داخلٍ إِلَىٰ الحرم ما أَمِنَ من الهواجس ولا الوساوس، وذكر فِي قوله: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ ﴾ [النساء:٣١].

قال أبو تراب: هي الدَّعاوىٰ الفاسدة: ﴿ ۞ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾[النساء:٣٦] قال سهل: هو القلب، ﴿ ۞ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ ﴾ [النساء:٣٦] النفس، ﴿ ۞ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [النساء:٣٦] الجوارح.

وقال فِي قوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا ﴾ [يوسف:٢٤]، قال أبو بكر الوراق: الهمَّان لَها، ويوسف ما هَمَّ بِها.

قلت: هَذَا خِلافٌ لِصَرِيحِ القرآن.

وقوله: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ [يوسف:٣١]، قال مُحمَّد بن علي: ما هَذَا بِأَهْلٍ أن يُدْعَىٰ إِلَىٰ المباشرة.

وقال الزنجاني: الرَّعْدُ صَعَقَاتُ الملائكة، والبَرْقُ زفراتُ أفئدتِهم، والمَطَرُ بكاؤهم.

وقال فِي قوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد:٤٢].

قال الحسين: لا مَكْرَ أَبْيَنُ فيه من مَكْرِ الحقِّ بعباده، حيث أَوْهَمَهُم أنَّ لَهم سبيلًا إليه بحالٍ، أو للحدث اقترانٌ مع القدم.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: ومن تأمَّل معنىٰ هَذَا، عَلِمَ أنَّه كُفْرٌ مَحْضٌ؛ لأنَّه يُشِيرُ إِلَىٰ أنَّه كالهزء واللَّعب، ولكن الحُسَيْنُ هَذَا هو الحلاج، وهذا يَلِيقُ بذاك.

وقال فِي قوله: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ [الحجر:٧٢]، أي: بعمارتك سِرَّكَ بِمشاهدتنا.

قُلْتُ: وجميعُ الكتاب من هَذَا الجِنْسِ، ولقد هَمَمْتُ أن أُثْبِتَ منه هاهنا كثيرًا، فَرَأَيْتُ أنَّ الزَّمَانَ يَضِيعُ فِي كتابة شَيْءٍ بين الكفر والخطأ والهذيان، وهو من جنس ما حكينا عن الباطنية؛ فَمَنْ أراد أن يَعْرِفَ جنس ما فِي الكتاب، فهَذَا أنموذجُهُ، ومن أراد الزِّيادةَ فلينظر فِي ذلك الكتاب.

وذكر أبو نصر السراج فِي «كتاب اللُّمَعِ» قال: للصُّوفِيَّةِ استنباطٌ، مِنْهَا قولُه: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف:١٠٨].

قال الواسطي: ومعناه لا أرىٰ نفسي.

وقال الشبلي: لو اطَّلَعْتَ عَلَىٰ الكلِّ مِمَّا سوانا، لَوَلَّيْتَ منهم فرارًا إلينا.

قلت: هَذَا لا يَحِلُّ؛ لأنَّ الله تعالىٰ إنَّمَا أَرَادَ أَهْلَ الكهف، وهَذَا السَّرَاجُ يُسَمِّي هَذِهِ الأقوالَ فِي كتابه مُسْتَنْبَطَاتٍ.

وقد ذكر أبو حامد الطوسيُّ فِي كتاب «ذَمِّ المال» فِي قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ۝٣٥﴾[إبراهيم:٣٥].

قال: إنَّما عَنَىٰ الذهب والفضة؛ إذ رُتْبَةُ النُّبُوَّة أَجَلُّ من أن يُخْشَىٰ عليها أن تَعْبُدَ الآلهةَ والأصنامَ، وإنَّما عَنَىٰ بِعِبَادَتِهِ حُبَّهُ والاغترارَ به.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: وهَذَا شَيْءٌ لَمْ يَقُلْهُ أَحَدٌ من المفسِّرين، وقد قال شُعَيْبٌ: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾[الأعراف:٨٩]، وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَيْلَ الأنبياء إِلَىٰ الشِّرْكِ، أَمْرٌ مُمْتَنِعٌ؛ لِأَجْلِ العصمة، لا أَنَّهُ مُسْتَحِيلٌ، ثُمَّ قد ذكر مع نفسه من يتصوَّر فِي حقِّه الإشراك والكفر، فجاز أن يُدْخِلَ نَفْسَهُ معهم، فقال: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ﴾ ومعلومٌ أنَّ العَرَبَ أولادُه، وَقَدْ عَبَدَ أكثرُهم الأصنامَ.

أخبرنا عبد الحق بن عبد الخالق، نا المبارك بن عبد الجبَّار، نا الحسين بن علي الطناجيري، نا أبو حفص بن شاهين قال: وقد تكلَّمَتْ طائفةٌ من الصوفية فِي نفس القرآن بِما لا يَجوزُ، فقالت فِي قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩٠﴾[آل عمران:١٩٠]، فقال: هم لآياتٌ لي، فأضافوا إِلَىٰ الله تعالىٰ ما جعله لأولي الألباب، وهَذَا تَبْدِيلٌ للقرآن، وقالوا: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾[سبأ:١٢]، قالوا: ولي سليمان!!

وأخبرنا ابن ناصر، نا أحمد بن علي بن خلف، ثنا أبو عبد الرحمن السلمي، قال: قال أبو حمزة الخراساني: قد يقطع بأقوامٍ فِي الجنَّة فيقال: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ۝٢٤﴾[الحاقة:٢٤]، فَشَغَلَهُم عنه بالأَكْلِ والشُّرْبِ، ولا مَكْرَ فَوْقَ هذا، ولا حَسْرَةَ أَعْظَمُ منه.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: انظروا -وَفَّقَكُمُ الله- إِلَىٰ هَذِهِ الحَمَاقَةِ، وتَسْمِيَةِ المُنْعِمِ به مَكْرًا، وإضافة المكر بِهَذَا إِلَىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وعَلَىٰ مُقْتَضَىٰ قَوْلِ هَذَا أنَّ الأنبياءَ لا يأكلون ولا يشربون، بل يكونون مشغولين بالله عَزَّ وَجَلَّ.

فما أَجْرَأَ هَذَا القائل عَلَىٰ مِثْلِ هَذه الألفاظ القِبَاحِ!

وهل يجوز أن يُوصَفَ الله عَزَّ وَجَلَّ بالمَكْرِ عَلَىٰ ما نَعْقِلُهُ من معنىٰ المكر؟

وَإِنَّما معنىٰ مَكْرِهِ وخِدَاعِهِ، أنَّه مجازي الماكرين والخادعين (١).

وإنِّي لأتعجَّب من هؤلاء، وقد كانوا يتورَّعون من اللُّقْمَةِ والكلمة، كيف انبسطوا فِي تفسير القرآن إِلَىٰ ما هَذَا حَدُّهُ.

وقد أخبرنا علي بن عبيد الله، وأحمد بن الحسن، وعبد الرحمن بن مُحمَّد، قالوا: حَدَّثَنَا عبدُ الصَّمد بن المأمون، نا علي بن عمر الحربيُّ، ثنا أحمد بن الحسن بن عبد الجبَّار الصوفيُّ، ثنا بشر بن الوليد، ثنا سهيل أخو حزم، ثنا أبو عمران الجونيُّ، عن جندب، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَالَ فِي القُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَقَدْ أَخْطَأَ» (٢).

أخبرنا هبة الله بن مُحمَّد، نا الحسن بن علي، نا أبو بكر بن حمدان، ثنا عبد الله بن أحمد، ثني أبِي، ثنا وكيع، عن الثوري، عن عبد الأعلىٰ، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَالَ فِي القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار» (٣).

قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ: وقد رُوِيَتْ لنا حكايةٌ عن بعضِهم فيما يتعلَّق بالمكر، إنِّي لأَقْشَعِرُّ

---

(١) صفة المكر من الصفات الفعلية لله عَزَّ وَجَلَّ غير أنه لا يشتق لله منها اسم؛ إذ لا يقال: «الله ماكر» كما لا يقال: «الله الكائد»، أو «المستهزئ»، أو «الخاضع» مثلًا؛ إذ ما جاء ذكر هذه الصفات إلا علىٰ سبيل المقابلة، كما في قول الله تعالىٰ: ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [النمل:٥٠] ونظائرها مثلها، مع اعتقاد أن صفات الباري سبحانه صفات كمال كلها، لا سبيل للنقص إليها. [زيد المدخلي].

(٢) أخرجه أبو داود (٣٦٥٢)، والترمذي (٢٩٥٢)، وضعفه الألباني فِي «ضعيف الجامع» (٥٧٣٦).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٩٥٠)، وضعفه الألباني فِي «ضعيف الجامع» (٥٧٣٧).

مِنْ ذِكْرِهَا، لكنِّي أنبِّه بِذِكْرِهَا عَلَىٰ قُبْحِ ما يتخايله هؤلاء الجَهَلَةُ.

أخبرنا أبو بكر بن حبيب، نا أبو سعد بن أبِي صادق، نا أبو عبد الله بن باكويه، قال: أَخْبَرَنَا أبو عبد الله بن خفيف قال: سَمِعْتُ رويمًا يقول: اجْتَمَعَ ليلةً بالشَّام جماعةٌ من المشايخ، فقالوا: ما شَهِدْنَا مِثْلَ هَذِهِ اللَّيْلَةِ وطِيبِهَا، فتعالوا نتذاكر مسألةً؛ لئلا تَذْهَبَ لَيْلَتُنَا. فقالوا: نتكلَّمُ فِي المَحَبَّةِ؛ فَإِنَّها عُمْدَةُ القوم، فَتَكَلَّمُ كلُّ واحدٍ من حيث هو.

وكان فِي القَوْمِ عَمْرُو بن عثمان المَكِّيُّ، فوقع عليه القَوْلُ، ولَمْ يَكُنْ من عادته، فقام وخرج إِلَىٰ صَحْنِ الدَّار، فإذا ليلةٌ مُقْمِرَةٌ، فَوَجَدَ قِطْعَةَ رَقٍّ مكتوبٍ، فَأَخَذَهُ، وَحَمَلَهُ إليهم وقال: يا قومُ، اسكنوا؛ فَإِنَّ هَذَا جَوَابُكُم، انظروا ما فِي هَذِهِ الرِّسَالَةِ، فإذا فيها مكتوبٌ: مَكَّارٌ مَكَّارٌ. وكُلُّكُم تدَّعون حبَّه، وأحرم البعض وافترقوا، فما جمعهم إلَّا الموسم.

قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ: قلت: هَذِهِ بَعِيدَةُ الصِّحَّة، وابن خفيفٍ لا يُوثَقُ به، وإن صَحَّتْ فَإِنَّ شَيْطَانًا أَلْقَىٰ ذلك الرَّقَّ، وإن كانوا قد ظَنُّوا أنَّها رِسَالَةٌ من الله بظنونِهِم الفاسدة، وقد بَيَّنَّا أَنَّ معنىٰ المكر منه المجازاةُ عَلَىٰ المَكْرِ[1]، فَأَمَّا أن يُقَالَ عنه: مَكَّارٌ، فَفَوْقَ الجَهْلِ وَفَوْقَ الحماقة.

وقد أخبرنا ابن ظفر، نا ابن السراج، نا الأزجيُّ، ثنا ابن جهضم، ثنا الخلدي قال: سَمِعْتُ رُوَيْمًا يقول: إِنَّ اللهَ غَيَّبَ أشياء فِي أشياء: غَيَّبَ مَكْرَهُ فِي علمه، وغيَّب خداعَه فِي لُطْفِهِ، وغيَّب عقوباتِه فِي باب كراماته.

قلتُ: وهَذَا تخليطٌ من ذلك الجِنْسِ وَجَرَاءَةٌ.

---

(١) صفة المكر من الصفات الفعلية لله عَزَّ وَجَلَّ غير أنه لا يشتق لله منها اسم؛ إذ لا يقال: «الله ماكر» كما لا يقال: «الله الكائد»، أو «المستهزئ»، أو «الخاضع» مثلًا؛ إذ ما جاء ذكر هذه الصفات إلا علىٰ سبيل المقابلة، كما في قول الله تعالىٰ: ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠ ﴾ [النمل:٥٠] ونظائرها مثلها، مع اعتقاد أن صفات الباري سبحانه صفات كمال كلها، لا سبيل للنقص إليها. [زيد المدخلي].

أخبرنا مُحمَّد بن ناصر، نا أبو الفضل السهلكيُّ، قال: سَمِعْتُ مُحمَّد بن إبراهيم، يقول: سَمِعْتُ خالِي يقول: قال الحسن بن علويه: خَرَجَ أبو يزيد لزيارة أخٍ له، فلمَّا وَصَلَ إِلَىٰ نَهر جيحون التقىٰ له حافَّتا النَّهرِ. فقال: سَيِّدِي! إيش هَذَا المَكْرُ الخَفِيُّ، وَعِزَّتِكَ ما عبدتُك لِهذا. ثُمَّ رَجَعَ ولَمْ يَعْبُرْ.

قال السهلكي: وسَمِعْتُ مُحمَّد بن أحمد المُذَكِّر، يذكر أنَّ أبا يزيد قال: من عَرَفَ الله عَزَّوَجَلَّ صار للجَنَّةِ بَوَّابًا، وصارت الجَنَّةُ عَلَيْهِ وَبَالًا.

قلت: وهَذِهِ جَرَاءَةٌ عَظِيمَةٌ فِي إضافة المكر إِلَىٰ الله عَزَّوَجَلَّ وجَعْلِ الجنَّة الَّتي هي نِهايةُ المطالب وبالًا، وإذا كانت وبالًا للعارفين فكيف تكون لغيرهم؟! وكلُّ هَذَا مَنْبَعُهُ من قِلَّةِ العلم وسُوءِ الفَهْمِ.

أخبرنا ابن حبيب، نا ابن أَبِي صادق، نا ابن باكويه، ثنا أبو الفرج الورثانِي، ثنا أحمد بن الحسن بن مُحمَّد، ثنِي مُحمَّد بن جعفر الوراق، ثنا أحمد بن العباس المهلبِي قال: سَمِعْتُ طَيْفُورًا، وهو أبو يزيد، يقول: العارفون فِي زيارة الله تعالىٰ فِي الآخرة عَلَىٰ طَبَقَتَيْنِ: طَبَقَةٍ تزورُه متَىٰ شَاءَتْ وَأَنَّىٰ شاءَتْ، وَطَبَقَةٍ تَزُورُه مَرَّةً واحدةً، ثُمَّ لا تَزُورُه بعدَها أبدًا.

فقيل له: كيف ذلك؟ قال: إذا رآه العارفون أَوَّلَ مَرَّةٍ، جَعَلَ لَهم سوقًا، ما فيه شراء ولا بيع، إِلَّا الصُّوَر من الرِّجال والنِّساء، فَمَنْ دَخَلَ منهم السُّوقَ، لَمْ يَرْجِعْ إِلَىٰ زيارةِ الله أبدًا.

قال: وقال أبو يزيد: فِي الدُّنيا يخدعك بالسُّوق، وفِي الآخرة يخدعك بالسُّوق، فأنت أبدًا عَبْدُ السُّوق.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: تَسْمِيَةُ ثواب الجنَّة خديعةً وسببًا للانقطاع عن الله عَزَّوَجَلَّ قبيحٌ، وإنَّما يجعل لَهم السُّوق ثوابًا لا خديعةً، فإذا أَذِنَ لَهم فِي أَخْذِ ما فِي السُّوق، ثُمَّ عُوقِبُوا بِمَنْعِ الزِّيارة، فقد صارت المَثُوبَةُ عُقُوبَةً.

ومن أين له أنَّ من اختار شيئًا من ذلك السُّوق لَمْ يَعُدْ إِلَىٰ زيارة الله -تبارك وتعالىٰ- ولا يراه أبدًا؟ نَعُوذُ بالله من هَذَا التَّخْلِيطِ والتَّحَكُّم فِي العلم، ولا أخبار عن هَذِهِ المغيَّبات الَّتي لا يَعْلَمُهَا إلَّا نَبِيٌّ، فمن أين له عِلْمُهَا؟

وكيف يكون كما قال أبو هريرة راوي الحديث لسعيد بن المسيَّب: «جَمَعَنِي اللهُ وَإِيَّاكَ فِي سُوقِ الجَنَّةِ»؟ أفتراه طَلَبَ تَرْكَ العقوبةِ بالبُعْدِ عن الله عَزَّوَجَلَّ؟

لكن بُعْدُ هؤلاء عن العلم، واقتناعُهم بواقعاتِهم الفاسدة، أَوْجَبَ هَذَا التَّخْلِيطَ.

وليعلم أنَّ الخواطر والواقعات، إنَّما هي ثَمَرَاتُ عِلْمِهِ، فمَنْ كان عالِمًا كانت خواطرُه صحيحةً؛ لأنَّها ثَمَرَاتُ عِلْمِهِ، ومن كان جاهلًا فثمرات الجهل كلُّها حَظُّهُ.

ورأيت بخط ابن عقيل: جاز أبو يزيد عَلَىٰ مقابر اليهود، فقال: ما هؤلاء حتَّىٰ تعذِّبهم؟ كَفُّ عِظَامٍ جَرَتْ عليهم القَضَايا، اعْفُ عنهم.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: وهَذَا قِلَّةُ علمٍ، وهو أنَّ قَوْلَهُ: كفُّ عظامٍ. احتقارٌ للآدميِّ؛ فإنَّ المؤمنَ إذا مات كان كفَّ عظامٍ.

وقولُه: جَرَتْ عَلَيْهِمُ القضايا، فَكَذَلِكَ جَرَىٰ عَلَىٰ فرعون، وقولُه: اعْفُ عنهم، جَهْلٌ بالشَّريعة؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أَخبرَ أنَّه لا يَغْفِرُ أن يُشْرَكَ به، لمن مات كافرًا، فلو قُبِلَتْ شَفَاعَتُهُ فِي كافرٍ، لَقَبِلَ سُؤَالَ إبراهيم -صلوات الله وسلامه عليه- فِي أبيه، ومُحمَّدٍ ﷺ فِي أُمِّهِ، فنعوذ بالله مِنْ قِلَّةِ العلم.

أنبأنا أبو الوقت عبدُ الأوَّل بن عيسىٰ، نا أبو بكر أحمد بن أبِي نصر الكوفانِي، ثنا أبو مُحمَّد الحسن بن مُحمَّد بن قوري الخبوشانِي، نا أبو نصر عبد الله بن علي الطوسي المعروف بالسراج، قال: كان ابن سالم يقول: عَبَرَ أبو يزيد عَلَىٰ مقبرةِ اليهود، فقال: معذورين. وَمَرَّ بِمقبرة المسلمين، فقال: مغرورين.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَفَسَّرَهُ السراج فقال: كأنَّه لَمَّا نَظَرَ إِلَىٰ ما سَبَقَ لَهم من الشَّقاوة من غير فِعْلٍ، كان موجودًا فِي الأَزَلِ، وإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ جَعَلَ نصيبَهم السخط، فذلك عُذْرٌ.

قال المصنف: وتفسيرُ السراج قَبِيحٌ؛ لأنَّه يُوجِبُ ألا يُعَاقَبَ فِرْعَونُ ولا غيرُه.

ومن كلامهم فِي الحديث وغيره: أخبرنا أبو منصور القزاز، نا أبو بكر الخطيب، نا الأزهري، نا أحمد بن إبراهيم بن الحسن، ثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، قال: جاء أبو تراب النَّخْشَبِيُّ إِلَىٰ أَبِي، فجعل أَبِي يقول: فلانٌ ضَعِيفٌ، وفلانٌ ثِقَةٌ، فقال أبو تراب: يا شيخُ، لا تَغْتَبِ العلماء. فَالْتَفَتَ أَبِي إليه، وقال له: وَيْحَكَ، هَذِهِ نصيحةٌ، ليست هَذِهِ غِيبَةً.

أنبأنا يَحيَىٰ بن علي المدبر، ثنا أحمد بن علي بن ثابت، نا رضوان بن مُحمَّد بن الحسن الدينوري قال: سمعت أحمد بن مُحمَّد بن عبد الله النيسابوريَّ يقول: سَمِعْتُ أبا الحسن علي بن مُحمَّد البخاري يقول: سَمِعْتُ مُحمَّدَ بن الفضل العبَّاسِيَّ يقول: كُنَّا عِنْدَ عبد الرحمن بن أَبِي حاتم وهو يقرأ علينا «كتاب الجرح والتعديل» فقال: أَظْهَرُ أحوالِ أَهْلِ العلم، من كان منهم ثِقَةً أو غيرَ ثِقَةٍ. فقال له يوسفُ بن الحسين: اسْتَحْيَيْتُ إليك يا أبا مُحمَّدٍ، كم من هؤلاء القوم قد حَطُّوا رَوَاحِلَهُم فِي الجنَّة، مُنْذُ مِائَةِ سَنَةٍ أو مِائتَي سَنَةٍ، وأنت تذكرهم، وتغتابُهم عَلَىٰ أديم الأرض.

فَبَكَىٰ عبد الرحمن، وقال: يا أبا يعقوب، لو سَمِعْتُ هَذِهِ الكلمةَ قَبْلَ تصنيفي هَذَا الكتاب، لَمْ أُصَنِّفْهُ.

قلت: عفا الله عن ابن أَبِي حاتم؛ فَإِنَّه لو كان فَقِيهًا، لَرَدَّ عَلَيْهِ كما رَدَّ الإمامُ أحمدُ عَلَىٰ أَبِي تُرَابٍ، ولولا الجَرْحُ والتَّعْدِيلُ، مِنْ أَيْنَ كان يُعْرَفُ الصَّحيحُ من الباطل؟!

ثُمَّ كَوْنُ القَوْمِ فِي الجنَّة، لا يَمْنَعُ أن نذكرَهم بِما فيهم، وتسميةُ ذلك غِيبَةً حديثُ سُوءٍ، ثُمَّ مَنْ لا يَدْرِي الجَرْحَ والتَّعديل، كيف هو يُزَكِّي كلامَه؟

وَيَنْبَغِي ليوسف أن يَشْتَغِلَ بالعجائبِ الَّتي تَحْكِي عن مِثْلِ هذا.

أخبرنا أبو بكر بن حبيب، نا أبو سعد بن أَبِي صادق، نا ابن باكويه، قال: سَمِعْتُ عَبْدَ الله بن يزيد الإردبيليَّ يقول: سَمِعْتُ أبا العبَّاس بن عطاء يقول: من عَرَفَ الله أَمْسَكَ عن رَفْعِ حَوَائِجِهِ إليه؛ لِمَا عَلِمَ أنَّه العالمُ بأحواله.

قلتُ: هَذَا سَدٌّ لباب السُّؤَالِ والدُّعاء، وهو جَهْلٌ بالعلم.

أخبرنا مُحمَّدُ بن عبد الملك بن خيرون، نا أحمد بن الحسن الشَّاهد، قال: قُرِئَ عَلَىٰ مُحمَّدِ بن الحسن الأهوازيِّ وَأَنَا أسمع، سَمِعْتُ أبا بَكْر الديف الصُّوفي وقال: سَمِعْتُ الشبليَّ، وقد سأله شَابٌّ: يا أبا بَكْرٍ، لِمَ تقول الله، ولا تقول لا إله إلَّا الله؟

فقال الشبليُّ: أَسْتَحِي أن أُوَجِّهَ إثباتًا بَعْدَ نَفْيٍ.

فقال الشَّابُّ: أريد حَجَّةً أقوىٰ من هَذِهِ.

فقال: أَخْشَىٰ أنِّي أُؤْخَذُ فِي كَلِمَةِ الوجود، ولا أَصَلَ إِلَىٰ كلمة الإقرار.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: انْظُرُوا إِلَىٰ هَذَا العِلْمِ الدَّقيق؛ فَإِنَّ رسول الله ﷺ كان يَأْمُرُ بقول لا إله إلَّا الله، وَيَحُثُّ عليها.

وفِي الصحيحين عنه: «أنَّه كان يقول فِي دُبُرِ كلِّ صلاةٍ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ»(١).

وكان يقول إذا قام لصلاة اللَّيل: «لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ»(٢).

وذكر الثَّواب العظيم لمن يقول: لا إله إلَّا الله، فانظروا إِلَىٰ هَذَا التَّعاطي عَلَىٰ الشَّريعة،

---

(١) أخرجه البخاري (٨٤٤)، ومسلم (٥٩٣) من حديث المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (١١٢٠)، ومسلم (٧٦٩) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

واختيار ما لَمْ يَخْتَرْهُ رسول الله ﷺ.

أخبرنا مُحمَّد بن عبد الباقي، ثنا أبو علي الحسن بن مُحمَّد بن الفضل، نا سهل بن علي الخشاب، نا عبد الله بن علي السراج، قال: بلغنِي أن أبا الحسن النوري شهدوا عليه، أنَّه سَمِعَ أَذَانَ المُؤَذِّنِ، فقال: طَعَنَهُ سُمُّ المَوْتِ، وَسَمِعَ نُبَاحَ كَلْبٍ، فقال: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ. فقيل له في ذلك، فقال: إنَّ الرَّجُلَ المُؤَذِّنَ أَغَارُ عَلَيْهِ أن يَذْكُرَ الله وهو غافلٌ، وَيَأْخُذَ عليه الأُجْرَةَ، ولولاها ما أَذَّنَ، فَلِذَلِكَ قُلْتُ: طَعَنَهُ سُمُّ المَوْتِ، والكلبُ يَذْكُرُ الله عز وجل بلا رِيَاءٍ؛ فَإِنَّهُ قد قال: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء:٤٤].

قال المصنف رحمه الله: انظروا إخوانِي -عَصَمَنَا اللهُ وَإِيَّاكُم من الزَّلَلِ- إِلَىٰ هَذَا الفِقْهِ الدَّقِيقِ، والاستنباطِ الطَّرِيف.

أخبرنا أبو بكر بن حبيب، نا أبو سعد بن أبِي صادق، نا ابن باكويه، ثنا أبو يعقوب الخراط، نا النوري، أنَّه رأىٰ رجلًا قابضًا عَلَىٰ لِحْيَةِ نَفْسِهِ، قال: فَقُلْتُ له: نَحِّ يَدَكَ عن لِحْيَةِ الله.

فَرَفَعَ ذلك إِلَىٰ الخَلِيفَةِ، فَطُلِبْتُ، وَأُخِذْتُ، فلمَّا دَخَلْتُ عليه قال: بَلَغَنِي أنَّه نَبَحَ كَلْبٌ، فَقُلْتَ: لَبَّيْكَ. ونادىٰ المؤذِّنُ فَقُلْتَ: طَعَنَهُ؟ قال: نعم. قال الله عز وجل: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء:٤٤] فَقُلْتُ لَبَّيْكَ؛ لأنَّه ذَكَرَ اللهَ، فأمَّا المُؤَذِّنُ، فَإِنَّهُ يَذْكُرُ اللهَ وهو مُتَلَوِّثٌ بالمعاصي، غَافِلٌ عن الله تعالىٰ.

قال: وَقَوْلُكَ للرَّجُلِ: نَحِّ يَدَكَ عن لِحْيَةِ الله؟

قُلْتُ: نَعَمْ. أَلَيْسَ العبدُ لله، وَلِحْيَتُهُ لله، وكلُّ ما فِي الدُّنيا والآخرة له؟

قُلْتُ: عَدَمُ العِلْمِ أَوْقَعَ هؤلاء فِي هَذَا التَّخبيط، وما الَّذي أَحْوَجَهُ إِلَىٰ أن يُوهِمَ أنَّ صِفَةَ الملك صفةُ الذَّات.

أخبرنا ابن حبيب، قال ابن صادق، نا ابن باكويه، قال: سمعت أحمد بن مُحمَّد بن عبد العزيز، قال: سَمِعْتُ الشبليَّ يقول وقد سُئِلَ عن المعرفة، فقال: وَيْحَكَ! ما عَرَفَ اللهَ من قال الله، والله لو عَرَفُوهُ ما قالوه.

قال ابن باكويه: وَسَمِعْتُ أبا القاسم أحمد بن يوسف البردانِي يقول: سَمِعْتُ الشِّبْلِيَّ يقول يَوْمًا لِرَجُلٍ يَسْأَلُهُ: ما اسْمُكَ؟ قال: آدم. قال: وَيْلَكَ! أَتَدْرِي ما صَنَعَ آدَمُ؟ باع رَبَّهُ بِلُقْمَةٍ، ثُمَّ كان يقول: سُبْحَانَ مَنْ عذرني بالسَّوْدَاءِ.

قال ابن باكويه: وسمعتُ بكران بن أحمد الجَبَلِيَّ يقول: كان للشِّبْلِيِّ جليسٌ، فَأَعْلَمَهُ أَنَّهُ يُرِيدُ التَّوْبَةَ، فقال: بِعْ مَالَكَ، وَاقْضِ دَيْنَكَ، وَطَلِّقِ امرأتك. فَفَعَلَ، فقال: أَيْتِمْ أَوْلادَكَ، بأن تُؤَيِّسَهُم من التَّعَلُّقِ بك. فقال: قد فَعَلْتُ. فجاء بِكِسَرٍ قد جَمَعَهَا، فقال: اطْرَحْهَا بين يدي الفقراء، وكُلْ معهم.

أنبأنا أبو المظفر عبد المنعم بن عبد الكريم، نا أبِي، قال: سَمِعْتُ بعض الفقراء يقول: سَمِعْتُ أبا الحسن الحرفانِيَّ يقول: لا إله إلَّا الله مِنْ دَاخِلِ القَلْبِ، مُحمَّدٌ رسولُ الله من القِرْط(١).

أخبرنا أبو بكر بن حبيب، نا أبو سعد بن أبِي صادق، ثنا ابن باكويه، قال: أَخْبَرَنَا أحمد بن مُحمَّد الخلقانيُّ، قال: رَأَىٰ الشِّبْلِيُّ فِي الحَمَّامِ غُلامًا شَابًّا بلا مِئْزَرٍ، فقال له: يا غلامُ، ألا تغطِّي عورتَك؟ فقال له: اسكت يا بطَّال، إن كُنْتَ عَلَىٰ الحقِّ فلا تشهد إلَّا الحقَّ، وإن كنتَ عَلَىٰ الباطل فلا تشهد إلَّا بالباطل؛ لأنَّ الحقَّ مُشْتَغِلٌ بالحقِّ، والباطلَ مُشْتَغِلٌ بالباطل.

أنبأنا أبو بكر مُحمَّد بن أبِي طاهر، نا علي بن المُحْسن التنوخيُّ، عن أبيه، ثني أبو القاسم عبد الرحيم بن جعفر السيرافيُّ الفقيه، قال: حَضَرْتُ بشيراز عند قاضيها أبِي سعد

(١) القرط: حلقة في الأُذُن.

بشر بن الحسن الداودي -وقد ارتفع إليه صوفيٌّ وصوفيَّةٌ- قال: وَأَمْرُ الصُّوفيَّةِ هناك مُفْرِطٌ جِدًّا، حتَّىٰ يُقَالَ: إِنَّ عددَهم ألوفٌ، فَاسْتَعْدَتِ الصُّوفيَّةُ عَلَىٰ زَوْجِهَا إِلَىٰ القاضي، فَلَمَّا حضرا قالت له: أَيُّها القاضي، إِنَّ هَذَا زوجي، ويريد أن يُطَلِّقَنِي، وليس له ذلك، فإن رَأَيْتَ أن تَمْنَعَهُ.

قال: فأخذ القاضي أبو سعد يتعجَّب -وحنق عَلَىٰ مذاهب الصوفية- ثُمَّ قال لَها: وكيف ليس له ذلك؟ قالت: لأنَّه تَزَوَّجَ بِي، ومعناه قَائِمٌ بي، والآن هو يذكر أنَّ معناه قد انْقَضَىٰ مِنِّي، وأنا معنايَ قَائِمٌ فيه، ما انْقَضَىٰ، فيجب عليه أن يصبر حتَّىٰ يَنْقَضِي معناي منه، كما انْقَضَىٰ معناه مِنِّي.

فقال لي أبو سعيد: كيف ترىٰ هَذَا الفِقْهَ؟

ثُمَّ أَصْلَحَ بَيْنَهُمَا وَخَرَجَا من غَيْرِ طَلاقٍ.

وقد ذكر أبو حامد الطوسي فِي كتاب «الإحياء» أنَّ بعضَهم قال: للرُّبوبيَّةِ سِرٌّ لو أُظْهِرَ، بَطَلَتِ النُّبُوَّةُ، وللنُّبُوَّةِ سِرٌّ لو كُشِفَ، لَبَطَلَ العِلْمُ، وللعلماء سِرٌّ لو أَظْهَرُوه، لَبَطَلَتِ الأحكامُ.

قلتُ: فانظروا إخواني إِلَىٰ هَذَا التَّخْلِيطِ القبيح، والادِّعاء عَلَىٰ الشَّريعة أَنَّ ظاهرَها يُخَالِفُ بَاطِنَهَا.

قال أبو حامد: ضاع لِبَعْضِ الصُّوفيَّة وَلَدٌ صَغِيرٌ، فقيل له: لو سَأَلْتَ الله أن يَرُدَّهُ عليك. فقال: اعتراضي عليه فيما يَقْضِي أَشَدُّ عَلَيَّ من ذهاب ولدي.

قلت: طال تعجُّبِي من أَبِي حامد، كيف يحكي هَذِهِ الأشياء فِي معرض الاستحسان والرِّضا عن قائلها، وهو يَدْرِي أنَّ الدُّعَاءَ والسُّؤَالَ ليس باعتراضٍ؟

وقال أحمد الغزالي: دَخَلَ يَهوديٌّ عَلَىٰ أَبِي سعيد بن أَبِي الخير الصُّوفِيِّ، فقال له: أُرِيدُ

أن أُسَلِّمَ عَلَىٰ يَدَيْكَ. فقال: لا تُرِدْ!

فَاجْتَمَعَ النَّاسُ، وقالوا: يا شَيْخُ! تَمْنَعُهُ من الإسلام؟

فقال له: تريد بلا يَدٍ. قال: نعم. قال له: بَرِئْتَ من نَفْسِكَ ومالك؟ قال: نعم. قال: هَذَا الإسلامُ عِنْدِي، احْمِلُوه الآنَ إِلَىٰ الشَّيْخِ أَبِي حامد يعلم لا لا المنافقين. يعني لا إله إلَّا الله.

قلتُ: وهَذَا الكلامُ أَظْهَرُ عَيْبًا من أن يُعَابَ؛ فإنَّه فِي غَايَةِ القُبْحِ، ومِمَّا يُقَارِبُ هَذِهِ الحكايَةَ فِي دَفْعِ من أراد الإسلام، ما أخبرنا به أبو منصور القزاز، نا أبو بكر بن ثابت، أخبرنِي مُحمَّد بن أحمد بن يعقوب، نا مُحمَّد بن نعيم الضَّبِّيُّ، قال: سَمِعْتُ أبا علي الحسين بن مُحمَّد بن أحمد الماسرجسي يَحْكِي عن جَدِّهِ، وغيرِه من أهل بيته، قال: كان الحَسَنُ والحُسَيْنُ ابنا عيسىٰ بن ماسرجس أَخَوَيْنِ يَرْكَبَانِ، فَيَتَحَيَّرُ النَّاسُ مِنْ حسْنِهِمَا وَزِيِّهِمَا، فاتَّفَقَا عَلَىٰ أن يُسْلِمَا، فَقَصَدَا حفصَ بن عبد الرحمن ليسلِمَا عَلَىٰ يَدِهِ، فقال لَهما حَفْصٌ: أنتما من أَجَلِّ النَّصارىٰ، وعبدُ الله بن المبارك خارجٌ فِي هَذِهِ السَّنَةِ إلىٰ الحَجِّ، وإن أَسْلَمْتُمَا عَلَىٰ يَدِهِ، كان ذلك أعظمَ عند المسلمين؛ فَإِنَّه شَيْخُ أهل المشرق والمغرب.

فَانْصَرَفَا، فَمَرِضَ الحسينُ ومات عَلَىٰ نصرانيَّته قبل قدوم ابن المبارك، فَلَمَّا قَدِمَ أَسْلَمَ الحَسَنُ.

قلتُ: وهَذِهِ المِحْنَةُ إِنَّمَا جَلَبَهَا الجَهْلُ، فَلْيُعْرَفْ قَدْرُ العلم؛ لأنَّه لو كان عندَه حَظٌّ من عِلْمٍ لقال: أَسْلِمَا الآن، ولا يَجُوزُ تأخير ذلك لحظةً، وأعجب من هَذَا أبو سعيد، الَّذي قال لليهوديِّ ما قال؛ لأنَّه يريد الإسلام.

وذكر أبو نصر السراج فِي كتاب «اللمع» لمع المتصوفة قال: كان سهل بن عبد الله إذا مَرِضَ أَحَدٌ من أصحابه يقول له: إذا أَرَدْتَ أن تَشْتَكِيَ فَقُلْ: أوه، فهو اسمٌ من أسماء الله تعالىٰ، يَسْتَرِيحُ إليه المؤمن، ولا تَقُلْ أفرج؛ فإنَّه اسْمٌ من أسماء الشيطان.

فهَذِهِ نُبْذَةٌ من كلام القوم، وَفِقْهِهِم، نبَّهتُ عَلَىٰ عِلْمِهِم، وسوءِ فَهْمِهِم، وكثرةِ خَطَئِهِم.

وقد سَمِعْتُ أبا عبد الله حسين بن علي المقري، يقول: سَمِعْتُ أبا مُحمَّد عبد الله بن عطاء الهرويَّ، يقول: سَمِعْتُ عبدَ الرحمن بن مُحمَّد بن المظفَّر، يقول: سمعتُ أبا عبد الرحمن بن الحسين، يقول: سَمِعْتُ عبد الله بن الحسين السلاميَّ، يقول: سَمِعْتُ عليَّ ابن مُحمَّد المصريَّ، يقول: سمعتُ أيُّوبَ بن سليمان، يقول: سمعتُ مُحمَّدَ بن مُحمَّد بن إدريس الشَّافِعِيِّ يقول: سمعت أبِي يقول: صَحِبْتُ الصُّوفِيَّةَ عَشْرَ سنين، ما استفدتُ منهم إلَّا هذين الحَرْفَيْنِ: الوقتُ سيفٌ، وأفضلُ العصمةِ ألَّا تَقْدِرَ.

ذكر تلبيس إبليس فِي الشطح والدعاوى:

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: اعْلَمْ أَنَّ العِلْمَ يُورِثُ الخوفَ، واحتقارَ النَّفْسِ، وطولَ الصَّمْتِ، وإذا اعْتَبَرْتَ علماءَ السَّلف، رَأَيْتَ الخَوْفَ غالبًا عليهم، والدَّعاوىٰ بعيدةً عنهم.

كما قال أبو بكر: لَيْتَنِي كُنْتُ شَعْرَةً فِي صَدْرِ مؤمنٍ.

وقال عمر عند موته: الوَيْلُ لعمر إن لَمْ يُغْفَرْ له.

وقال ابن مسعود: لَيْتَنِي إذا مِتُّ لا أُبْعَثُ.

وقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: لَيْتَنِي كُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا.

وقال سفيان الثوري لحماد بن سلمة عند الموت: تَرْجُو أن يُغْفَرَ لِمِثْلِي؟

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: وإنَّمَا صَدَرَ مِثْلُ هَذَا عن هؤلاء السَّادة؛ لِقُوَّةِ عِلْمِهِم بالله، وَقُوَّةُ العلم به تُورِثُ الخَوْفَ والخَشْيَةَ، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨]، وقال ﷺ: «أَنَا أَعْرَفُكُم بِاللهِ، وَأَشَدُّكُم لَهُ خَشْيَةً»(١).

(١) أخرجه البخاري (٦١٠١)، ومسلم (٢٣٥٦) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وَلَمَّا بَعُدَ عن العلم أَقْوَامٌ من الصُّوفيَّةِ، لاحَظُوا أَعْمَالَهم، وَاتَّفَقَ لِبَعْضِهِم من اللُّطْفِ ما يُشْبِهُ الكَرَامَاتِ، فَانْبَسَطُوا بالدَّعَاوَىٰ.

أخبرنا مُحمَّدُ بن ناصر الحافظ، نا أبو الفضل مُحمَّدُ بن علي السهلكيُّ، قال: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ الله مُحمَّدَ بن عبد الله الشيرازيَّ يقول: ثنا أبو بَكْرٍ مُحمَّد بن يمن، ثنا أبو عمر الرهاويُّ، ثنا أحمد بن مُحمَّد الجزريُّ، قال: سَمِعْتُ أَبَا موسىٰ الدَّئيليَّ يقول: سَمِعْتُ أبا يزيد البسطاميَّ يقول: وددتُ أن قد قامت القيامة، حتَّىٰ أَنْصِبَ خَيْمَتِي عَلَىٰ جَهَنَّمَ.

فَسَأَلَهُ رَجُلٌ: وَلِمَ ذَاكَ يَا أَبَا يَزِيد؟ إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّ جَهَنَّمَ إذا رَأَتْنِي تَخْمِدُ، فأكون رَحْمَةً للخَلْقِ.

أخبرنا أبو بكر بن حبيب العامريُّ، نا أبو سعد بن أَبِي صادق، ثنا ابن باكويه، نِي إبراهيم بن مُحمَّد، نِي حسن بن علويه، نِي طيفور بن عيسىٰ، نِي أبو موسىٰ الدئيلي، قال: سمعت أبا يزيد يقول: إذا كان يَوْمُ القيامة، وأُدْخِلَ أَهْلُ الجنَّة الجنَّة، وأَهْلُ النَّار النَّار، فَسَأَسْأَلُهُ أن يدخلنِي النَّار.

فقيل له: لِمَ؟

قال: حتَّىٰ تَعْلَمَ الخلائقُ أن بِرَّهُ ولُطْفَهُ فِي النَّار مع أوليائه.

قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ: هَذَا الكلامُ مِنْ أَقْبَحِ الأقوال؛ لأنَّه يتضمَّن تَحْقِيرَ ما عَظَّمَ الله عَزَّ وَجَلَّ أَمْرَهُ مِنَ النَّارِ؛ فإنَّه عَزَّ وَجَلَّ بالغ فِي وَصْفِهَا فقال: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة:٢٤]، وقال: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الفرقان:١٢]، إِلَىٰ غير ذلك من الآيات.

وقد أخبرنا عبد الأوَّل، نا ابن المظفر، نا ابن أعين، ثنا الفربري، ثنا البخاري، ثنا إسماعيل، ثنا مالك، عن أَبِي الزناد، عن الأعرج، عن أَبِي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ نَارَكُمْ هَذِهِ مَا يُوقِدُ بَنُو آدَمَ، جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ».

قال له الصَّحابةُ: واللهِ إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةٌ يا رسول الله.

قال: «فَإِنَّهَا فَضَلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا، كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا»[١]. أخرجاه في الصحيحين.

وفي أفراد مسلم من حديث ابن مسعود، عن النَّبي ﷺ أنَّه قال: «يُؤْتَىٰ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا»[٢].

أخبرنا مُحمَّد بن ناصر، نا جعفر بن أحمد، نا أبو علي التميمي، نا أبو بكر بن مالك، ثنا عبد الله بن أحمد، ثني أبي، حدثنا بَهز بن أسد، ثنا جعفر بن سليمان، ثنا علي بن زيد، عن مطرف، عن كعب قال: قال عمر بن الخطاب: يا كعبُ، خَوِّفْنَا، فَقَالَ: يا أَمِيرَ المؤمنين، اعْمَلْ عَمَلَ رجلٍ لو وَافَيْتَ القيامةَ بِعَمَلِ سَبْعِينَ نَبِيًّا لازْدَرَأْتَ عَمَلَكَ مِمَّا تَرَىٰ.

فَأَطْرَقَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مَلِيًّا ثُمَّ أَفَاقَ، قال: زِدْنَا يا كَعْبُ.

قُلْتُ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ، لو فُتِحَ مِنْ جَهَنَّمَ قَدْرُ مِنْخَرِ ثَوْرٍ بالمشرق، وَرجْلٍ بالمغرب، لَغَلَىٰ دِمَاغُهُ حتَّىٰ يَسِيلَ مِنْ حَرِّهَا.

فَأَطْرَقَ عُمَرُ مَلِيًّا ثُمَّ أَفَاقَ فقال: زِدْنَا يا كَعْبُ.

قُلْتُ: يا أميرَ المؤمنين، إِنَّ جَهَنَّمَ لَتَزْفِرُ يَوْمَ القيامة زَفْرَةً، لا يَبْقَىٰ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، ولا نَبِيٌّ مُصْطَفَىٰ إِلَّا خَرَّ جَاثِيًا عَلَىٰ رُكْبَتَيْهِ ويقول: رَبِّ نَفْسِي نَفْسِي لا أَسْأَلُكَ اليَوْمَ غَيْرَ نَفْسِي.

أخبرنا مُحمَّد بن عبد الباقي بن أحمد، نا حمد بن أحمد الحداد، ثنا أبو نعيم الحافظ، ثنا أبي، ثنا أحمد بن مُحمَّد بن الحسن البغدادي، ثنا إبراهيم بن عبد الله الجنيد، نا عبيد الله

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٦٥)، ومسلم (٢٨٤٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٤٢).

ابن مُحمَّد بن عائشة، ثنا سالم الخواص، عن فرات بن السائب، عن زاذان، قال: سَمِعْتُ كَعْبَ الأحبار يقول: إن كان يومُ القيامة، جَمَعَ اللهُ الأَوَّلِينَ والآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَنَزَلَتِ الملائكةُ، وصَارَتْ صُفُوفًا، فيقول: يا جبرائيل، ائْتِنِي بجهنَّم.

فيأتِي بِها جِبْرِيل، فَتُقَادُ بِسَبْعِينَ أَلْفِ زِمَامٍ، حَتَّىٰ إِذَا كَانَتْ مِنَ الخَلَائِقِ عَلَىٰ قَدْرِ مِائَةِ عَامٍ زَفَرَتْ زَفْرَةً طارت لَها أفئدةُ الخلائق، ثُمَّ زَفَرَتْ ثانيةً فلا يبقىٰ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، ولا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ إِلَّا جَثَا عَلَىٰ رُكْبَتَيْهِ، ثُمَّ تَزْفَرُ الثَّالِثَةَ، فتبلغ القلوبُ الحناجرَ، وتذهب العقولُ، فيفزع كُلُّ امْرِئٍ إِلَىٰ عَمَلِهِ، حتَّىٰ إنَّ إبراهيمَ الخليلَ يقول: بخُلَّتِي لا أسألك إلَّا نفسي. ويقول موسىٰ: بِمناجاتِي لا أسألك إلَّا نفسي. وإن عيسىٰ ليقول: بِما أكرمتنِي لا أسألك إلَّا نفسي، لا أسألُكَ مَرْيَمَ الَّتي وَلَدَتْنِي.

قلتُ: وقد روِّينا أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «يَا جِبْرَائِيلُ، مَا لِي أَرَىٰ مِيكَائِيلَ لا يَضْحَكُ؟ فقال: مَا ضَحِكَ مِيكَائِيلُ مُذْ خُلِقَتِ النَّارُ، وَمَا جَفَّتْ لِي عَيْنٌ مُذْ خُلِقَتْ جَهَنَّمُ، مَخَافَةَ أَنْ أَعْصِيَ اللهَ، فَيَجْعَلَنِي فِيهَا»[(١)].

وَبَكَىٰ عَبْدُ الله بن رواحة يَوْمًا، فَقَالَتِ امْرَأَتُهُ: ما لك تَبْكِي؟ قال: أُنْبِئْتُ أَنِّي واردٌ، ولَمْ أُنَبَّأْ أَنِّي صَادِرٌ.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فإذا كانت هَذِهِ حَالَةَ الملائكة والأنبياء والصَّحابة، وهم المُطَهَّرون من الأدناس، وهَذَا انْزِعَاجُهم لأجل النَّار، فكيف هَانَتْ عِنْدَ هَذَا المُدَّعِي؟

ثُمَّ إنَّه يَقْطَعُ لِنَفْسِهِ بِما لا يَدْرِي به من الولاية والنَّجَاةِ، وهل قُطِعَ بالنَّجَاةِ إلَّا لِقَوْمٍ مخصوصين مِنَ الصَّحَابَةِ، وقد قال ﷺ: «مَنْ قَالَ: إِنِّي فِي الجَنَّةِ فَهُوَ فِي النَّارِ»[(٢)].

---

(١) أخرجه أحمد (١٢٩٣٠) من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، بنحوه مُختصرًا، وحسنه الألباني في الصحيحة (٢٥١١).

(٢) ذكره الهيثمي في المجمع (١/ ١٨٦)، وعزاه للطبراني في «المعجم الصغير».

وهَذَا مُحمَّد بن واسع يَقُولُ عندَ مَوْتِهِ: يا إخوتاه، أَتَدْرُونَ أَيْنَ يُذْهَبُ بي؟ يُذْهَبُ بِي واللهِ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَىٰ النار، أو يعفو عنِّي.

قلت: وهَذَا إن صَحَّ عن هَذَا المُدَّعِي فهَذَا غَايَةٌ من تلبيس إبليس.

وقد كان ابن عقيل يقول: قد حكي عن أبِي يزيد أنَّه قال: وما النار؟ والله لئن رَأَيْتُهَا لَأُطْفِئَنَّها بِطَرْفِ مُرَقَّعَتِي. أو نحو ذلك. قال: ومن قال هَذَا كائنًا من كان، فهو زنديقٌ يَجِبُ قَتْلُهُ، فإنَّ الإهوان للشَّيْءِ ثَمَرَةُ الجحد؛ لأنَّ مَنْ يُؤْمِنُ بالجِنِّ يَقْشَعِرُّ فِي الظُّلْمَةِ، ومن لا يُؤْمِنُ لا ينْزَعِجُ، وربَّما قال: يا جِنُّ خُذُونِي.

ومثْلُ هَذَا القائل يَنْبَغِي أن يقرب إِلَىٰ وجهه شَمْعَةٌ، فإذا انزعج قيل له: هَذِهِ جذوةٌ من نارٍ.

أنبأنا مُحمَّدُ بن ناصر، نا أبو الفضل السهلكي، قال: سَمِعْتُ أبا عبد الله الشيرازي، يقول: ثنا أبو إسحاق إبراهيم بن مُحمَّد، قال: سمعت الحسن بن علوية يقول: سمعت طيفورًا الصَّغير يقول: سمعت عمِّي خادم أبِي يزيد يقول: سمعت أبا يزيد يقول: سبحانِي سبحانِي ما أعظم شأنِي. ثُمَّ قال: حَسْبِي من نَفْسِي حَسْبِي.

قلت: هَذَا إِنْ صَحَّ عنه، فربَّما يكون الرَّاوي لَمْ يَفْهَم؛ لأنَّه يحتمل أن يكون قد ذكر تَمجيد الحَقِّ نفسَه فقال فيه: «سُبْحَانِي» حِكَايَةً عن الله، لا عَنْ نَفْسِهِ، وقد تأوَّلَه له الجُنَيْدُ بِشَيْءٍ، إن لَمْ يَرْجِعْ إِلَىٰ ما قلتُه فليس بشيءٍ.

فأنبأنا ابن ناصر، نا السهلكي، نا مُحمَّد بن القاسم الفارسي، سمعت الحسن بن علي المذكر، سمعت جعفرًا الخلدي يقول: قيل للجنيد: إنَّ أبا يزيد يقول: سبحانِي سبحانِي أنا ربِّي الأعلىٰ؟!

فقال الجنيد: إنَّ الرَّجُلَ مُسْتَهْلَكٌ فِي شهود الجَلالِ، فَنَطَقَ بِما استهلكه، أَذْهَلَهُ الحقُّ

عن رؤيته إيَّاه، فلم يَشْهَدْ إلَّا الحقَّ فَنَعَتَهُ.

قلت: وهَذَا من الخرافات.

أنبأنا عبدُ الأوَّل، نا أحمد بن أبِي نصر الكوفانِي، نا الحسن بن مُحمَّد بن قوري، نا عبد الله بن علي السراج، قال: سَمِعْتُ أحمد بن سالم البصريَّ بالبصرة، يقول فِي مَجْلِسِهِ يَوْمًا: فِرْعَوْنُ لَمْ يَقُلْ ما قال أبو يزيد؛ لأنَّ فِرْعَوْنَ قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٤﴾ [النازعات:٢٤]، والرَّبُّ يُسَمَّىٰ به المخلوقُ، يُقَالُ: رَبُّ الدَّار.

وقال أبو يزيد: سُبْحَانِي سُبْحَانِي، لا يَجُوزُ إلَّا لله.

فقلتُ: قد صَحَّ عِنْدَكَ هَذَا عن أبِي يزيد، فقال: قد قال ذلك، فقلتُ: يُحْتَمَلُ أن يكونَ لِهَذَا الكلام مُقَدِّمَاتٌ يُحْكَىٰ بأنَّ الله سَيَقُول: سبحانِي؛ لَأنَّا لو سَمِعْنَا رجلًا يقول: «لا إِلَهَ إلَّا أنا» عَلِمْنَا أنَّه يَقْرَأُ. وقد سألتُ جَمَاعَةً مِنْ أَهْلِ بسطام مِنْ بَيْتِ أبِي يزيد عن هذا، فقالوا: لا نَعْرِفُ هذا.

أنبأنا ابن ناصر، نا ابن الفضل السهلكيُّ، قال: سَمِعْتُ أبا عبد الله الشيرازي، يقول: سَمِعْتُ عامر بن أحمد، قال: سَمِعْتُ الكِتَّانِيَّ يقول: حَدَّثَنِي أبو موسىٰ الدئيليُّ، قال: سَمِعْتُ أبا يزيد يقول: كُنْتُ أَطُوفُ حَوْلَ البيت أَطْلُبُهُ، فَلَمَّا وَصَلْتُ إليه رَأَيْتُ البَيْتَ يَطُوفُ حَوْلِي.

قال الشيرازي: وحَدَّثَنَا إبراهيمُ بن مُحمَّدٍ قال: سَمِعْتُ الحسنَ بن علوية يقول: سَمِعْتُ طيفورًا الصَّغير يقول: سَمِعْتُ أبا يزيد يقول: حَجَجْتُ أَوَّلَ حَجَّةٍ فرأيتُ البيت، وحَجَجْتُ الثَّانية، فَرَأَيْتُ صاحب البيت، ولَمْ أَرَ البيت، وحَجَجْتُ الثَّالثة فلم أَرَ البيتَ، ولا صَاحِبَ البَيْتِ.

قال الشيرازي: وَسَمِعْتُ مُحمَّدَ بن داوديه يقول: سَمِعْتُ عَبْدَ الله بن سهل يقول:

سَمِعْتُ أَبَا موسىٰ الدئيليَّ يقول: سَمِعْتُ أبا يزيد، وَسُئِلَ عن اللَّوْحِ المحفوظ، قال: أنا اللَّوْحُ المَحْفُوظُ.

قال الشيرازي: وسَمِعْتُ المظفَّر بن عيسىٰ المَرَاغي يقول: سمعتُ سيرين يقول: سمعتُ أبا موسىٰ الدئيليَّ يقول: قُلْتُ لأبِي يزيد: بَلَغَنِي أنَّ ثلاثةً قلوبُهم عَلَىٰ قَلْبِ جبريل.

قال: أنا أولئك الثَّلاثة.

فقلتُ: كيف؟

قال: قَلْبِي وَاحِدٌ، وَهَمِّي وَاحِدٌ، وَرُوحِي وَاحِدَةٌ.

قلتُ: وَبَلَغَنِي أَنَّ وَاحِدًا قَلْبُهُ عَلَىٰ قَلْبِ إسرافيل.

قال: وأنا ذلك الواحدُ، ومثلي مثل بحرٍ مصطلمٍ لا أَوَّلَ لَهُ ولا آخِرَ.

قال السهلكي: وَقَرَأَ رَجُلٌ عِنْدَ أَبِي يَزِيد: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ [البروج:١٢]، فقال أبو يزيد: وحياتِهِ، إنَّ بَطْشِي أَشَدُّ مِنْ بَطْشِهِ.

وقيل لأبِي يزيد: بَلَغَنَا أَنَّكَ من السَّبْعَةِ.

قال: أنا كُلُّ السَّبْعَةِ.

وقيل له: إنَّ الخَلْقَ كُلَّهَا تَحْتَ لِوَاءِ سَيِّدِنَا مُحمَّدٍ ﷺ.

فقال: واللهِ إنَّ لوائي مِنْ نُورٍ تحته الجنُّ والإنسُ كلُّهم مع النَّبيِّين.

وقال أبو يزيد: سُبْحَانِي سُبْحَانِي، ما أعظم سُلْطَانِي، ليس مِثْلِي فِي السَّمَاءِ يُوجَدُ، ولا مِثْلِي صفةٌ فِي الأرض تُعْرَفُ، أنا هو، وهو أنا، وهو هو!

أخبرنا المحمدان؛ ابن نصَّار وابن عبد الباقي، قال: نا حمد بن أحمد، نا أبو نعيم الحافظ، ثنا أحمد بن أبِي عمران، ثنا منصور بن عبد الله، قال: سَمِعْتُ أبا عمران موسىٰ بن

عيسىٰ يقول: سَمِعْتُ أبِي يقول: قيل لأبِي يزيد: إِنَّكَ من الأبدال السَّبْعَةِ الَّذين هم أوتادُ الأرض.

فقال: أنا كُلُّ السَّبْعَةِ.

أنبأنا ابن ناصر، نا أبو الفضل السهلكي، قال: سمعت أبا الحسين مُحمَّد بن القاسم الفارسي، قال: سمعت أبا نصر بن مُحمَّد مُحمَّد بن إسماعيل البخاري، يقول: سمعت أبا الحسين علي بن مُحمَّد الجرجاني، يقول: سمعت الحسن بن علي بن سلام، يقول: دخل أبو يزيد مدينةً، فَتَبِعَهُ مِنْهَا خَلْقٌ كَثِيرٌ، فَالتَفَتَ إليهم فقال: «إِنِّي أَنَا اللهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ».
فقالوا: جُنَّ أبو يزيد. فتركوه.

قال الفارسيُّ: وَسَمِعْتُ أبا بكر أحمد بن مُحمَّد النيسابوريَّ قال: سَمِعْتُ أبا بكر أحمد بن إسرائيل قال: سَمِعْتُ خالي عليَّ بن الحسين يقول: سَمِعْتُ الحَسَن بن علي بن حيويه يقول: قال أبو يزيد: رُفِعَ بي مَرَّةً حتَّىٰ قُمْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ. فقال لي: يا أبا يزيد، إِنَّ خَلْقي يُحِبُّون أن يَرَوْكَ.

قُلْتُ: يا عزيزي! وأنا أحبُّ أن يَرَوْنِي.

فقال: يا أبا يزيد! إنِّي أريد أريكَهم.

فَقُلْتُ: يا عزيزي!! وأنا أُحِبُّ أن يَرَوْنِي، وأنت تريد ذلك، وأنا لا أقدر عَلَىٰ مُخالَفَتِكَ، قَرِّبْنِي بوحدانيَّتك، وألبسنِي ربَّانِيَّتك، وارفعنِي إِلَىٰ أَحَدِيَّتِكَ، حتَّىٰ إذا رآني خَلْقُكَ قالوا: رَأَيْنَاكَ، فيكون أنت ذاك، ولا أكون أنا هناك.

فَفَعَلَ بي ذلك، وأقامنِي وَزَيَّنَنِي ورَفَعَنِي، ثُمَّ قال: اخْرُجْ إِلَىٰ خَلْقِي. فَخَطَوْتُ مِنْ عِنْدِهِ خُطْوَةً إِلَىٰ الخَلْقِ خارجًا، فلمَّا كان من الخطوة الثَّانية غُشِيَ عَلَيَّ فَنَادَىٰ: ردُّوا حبيبي؛ فَإِنَّه لا يَصْبِرُ عَنِّي سَاعَةً.

أنبأنا ابنُ ناصر، نا السهلكيُّ، قال: سَمِعْتُ مُحمَّدَ بن إبراهيم الوَاعِظَ، يقول: سَمِعْتُ مُحمَّدَ بن مُحمَّد الفقيه، يقول: سَمِعْتُ أحمد بن مُحمَّد الصُّوفيَّ يقول: سَمِعْتُ أبا موسىٰ يقول: حُكِيَ عن أبِي يزيد أنَّه قال: أَرَادَ موسىٰ -عليه الصلاة والسلام- أن يَرَىٰ الله تعالىٰ، وأنا ما أَرَدْتُ أن أَرَىٰ الله تعالىٰ، هو أراد أن يرانِي.

أخبرنا أبو بكر بن حبيب، نا أبو سعد بن أبِي صادق الحيري، ثنا أبو عبد الله بن باكويه، ثنا أبو طالب بن الفرغانِي، قال: سَمِعْتُ الجُنَيْدَ بن مُحمَّد، يقول: دَخَلَ عليَّ أَمْسُ رَجُلٌ من أهل بسطام، فَذَكَرَ أنَّه سمع أبا يزيد البسطامي يقول: اللَّهمَّ إِنْ كان فِي سَابِقِ عِلْمِكَ أنَّكَ تُعَذِّبُ أحَدًا مِنْ خَلْقِكَ بالنَّار، فَعَظِّمْ خَلْقِي حَتَّىٰ لا تَسَعَ معي غيري.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: أَمَّا ما تَقَدَّمَ مِنْ دَعَاوِيهِ، فَمَا يَخْفَىٰ قُبْحُهَا، وَأَمَّا هَذَا القَوْلُ فَخَطَأٌ مِنْ ثَلاثَةِ أَوْجُهٍ:

أَحَدُهَا: أنَّه قال: إن كان فِي سَابِقِ عِلْمِكَ، وقد عَلِمْنَا قَطْعًا أنَّه لابُدَّ من تَعْذِيبِ خَلْقٍ بالنَّار، وقد سَمَّىٰ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْهُم خَلْقًا، كفرعون، وأبِي لهب، فكيف يجوز أن يقال بَعْدَ القَطْعِ واليقين: إن كان!!

والثانِي: قَوْلُه: فَعَظِّمْ خَلْقِي. فَلَوْ قال لِأَدْفَعَ عن المؤمنين، ولكنَّه قال: حتَّىٰ لا تَسَعَ غَيْرِي. فأشفق عَلَىٰ الكفَّار أيضًا، وهَذَا تَعَاطٍ عَلَىٰ رَحْمَةِ الله عَزَّ وَجَلَّ.

والثالث: أن يكون جاهلًا بِقَدْرِ هَذِهِ النَّار، أو واثقًا مِنْ نَفْسِهِ بالصَّبْرِ، وكلا الأَمْرَان مَعْدُومٌ عِنْدَهُ.

قلتُ: ثُمَّ قال: واللهِ تكلمت أَمْسُ مع الخَضِرِ فِي هَذِهِ المَسْأَلَةِ، وكانت الملائكة يستحسنون قولِي، واللهُ عَزَّ وَجَلَّ يَسْمَعُ كَلامِي، فلم يَعِبْ عَلَيَّ، ولو عَابَ عَلَيَّ لَأَخْرَسَنِي.

قلتُ: لو لا أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ قد نسب إِلَىٰ التَّغيُّر، لكان ينبغي أن يُرَدَّ عليه، وأين الخَضِرُ؟

ومن أين له أنَّ الملائكةَ تَسْتَحْسِنُ قَوْلَهُ، وكم من قَوْلٍ مَعِيبٍ، وَلَمْ يُعَاجَلْ صَاحِبُهُ بالعُقُوبَةِ؟

وقد بَلَغَنِي عن ميمون عبده قال: بَلَغَنِي عن سمنون المحبِّ، أنَّه كان يُسَمِّي نَفْسَهُ الكذَّاب بسبب أبياتِه الَّتي قال فيها:

وَلَيْسَ لِي فِي سِوَاكَ حَظٌّ فَكَيْفَمَا شِئْتَ فَامْتَحِنِّي

فَابْتُلِيَ بِحَبْسِ البَوْلِ، فلم يَقَرَّ له قرارٌ، فكان بعد ذلك يَطُوفُ عَلَىٰ المَكَاتِبِ، وَبِيَدِهِ قَارُورَةٌ يَقْطُرُ منها بَوْلُهُ ويقول للصِّبيان: ادْعُوا لِعَمِّكُمُ الكَذَّابِ.

قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ: إِنَّه لَيَقْشَعِرُّ جِلْدِي مِنْ هَذِهِ، أتراه عَلامَ يَتَقَاوَىٰ، وإِنَّما هَذِهِ ثَمَرَةُ الجَهْلِ بالله ﷻ، ولو عَرَفَهُ لَمْ يَسْأَلْهُ إِلَّا العافية، وقد قال: مَنْ عَرَفَ اللهَ كَلَّ لِسَانُهُ.

أخبرنا أبو بكر بن حبيب، نا أبو سعد بن أبِي صادق، نا ابن باكويه، **قال:** سمعت مُحمَّد بن داود الجوزجانِي يقول: سَمِعْتُ أبا العبَّاس بن عطار يقول: كُنْتُ أَرُدُّ هَذِهِ الكرامات، حَتَّىٰ حَدَّثَنِي الثِّقَةُ عن أبِي الحسين النُّوريِّ، وَسَأَلْتُهُ، فقال: كذا كان.

قال: كُنَّا فِي سُميريَّة فِي دجلة، فقالوا لأبِي الحسين: أَخْرَجَ لنا من دجلة سَمَكَةً فيها ثلاثةُ أرطالٍ، وثلاث أَوَاقٍ. فَحَرَّكَ شَفَتَيْهِ، فإذا سَمَكَةٌ فيها ثلاثة أرطالٍ وثلاث أَوَاقٍ ظَهَرَتْ من الماء، حتَّىٰ وَقَعَتْ فِي السميريَّة، فقيل لأبِي الحُسَيْنِ: سَأَلْنَاكَ باللهِ إِلَّا أَخْبَرْتَنا بماذا دَعَوْتَ.

فقال: قُلْتُ: وَعِزَّتِكَ لئن لَمْ تُخْرِجْ من الماء حُوتًا فيها ثلاثةُ أَرْطَالٍ وثلاث أَوَاقٍ، لَأُغْرِقَنَّ نَفْسِي فِي دِجْلَةَ.

أخبرنا أبو منصور القزاز، نا أبو بكر بن ثابت قال: أخبرنِي عبد الصمد بن مُحمَّد الخطيب، ثنا الحسن بن الحسين الهمذانِي، قال: سَمِعْتُ جَعْفَرًا الخلديَّ، سمعتُ الجنيد يقول: سَمِعْتُ النُّوريَّ يقول: كُنْتُ بالرقة، فجاءنِي المُرِيدون الَّذين كانوا بِها، وقالوا: نَخْرُجُ

وَنَصْطَادُ السَّمَكَ.

فقالوا لِي: يا أبا الحُسَيْنِ، هات من عبادك واجتهادك، وما أنت عليه من الاجتهاد، سَمَكَةً يكون فيها ثلاثة أرطالٍ لا تَزِيدُ ولا تَنْقُصُ.

فَقُلْتُ لمولاي: إِنْ لَمْ تُخْرِجْ إِلَيَّ السَّاعَةَ سَمَكَةً فيها ما قد ذكروا، لَأَرْمِيَنَّ بِنَفْسِي فِي الفرات.

فَأَخْرَجْتُ سَمَكَةً فوزنتُها فإذا فيها ثلاثة أرطال، لا زِيَادَةَ ولا نُقْصَانَ.

قال الجنيد: فَقُلْتُ له: يا أبا الحسين، لو لَمْ تَخْرُجْ كُنْتَ تَرْمِي بِنَفْسِكَ؟

قال: نعم.

أخبرنا أبو بكر بن حبيب، نا أبو سعد بن أبِي صادق، نا ابن باكويه، نا أبو يعقوب الخراط، قال: قال لي أبو الحُسَيْن النُّوريُّ: كان فِي نَفْسِي من هَذِهِ الكرامات شَيْءٌ، وَأَخَذْتُ مِنَ الصِّبْيَانِ قصبةً، وَقُمْتُ بين زَوْرَقَيْنِ، وَقُلْتُ: وَعِزَّتِكَ، لَئِنْ لَمْ تُخْرِجْ لي سَمَكَةً فيها ثلاثةُ أَرْطَالٍ، لا تَزِيدُ ولا تَنْقُصُ، لا آكُلُ شَيْئًا.

قال: فَبَلَغَ ذلك الجنيد، فقال: كان حُكْمُهُ أن تَخْرُجَ له أفعىً تَلْدَغُهُ.

أخبرنا ابن حبيب، نا ابن صادق، نا ابن باكويه، قال: سَمِعْتُ الحُسَيْنَ بن أحمد الفارسيَّ يقول: سَمِعْتُ الرقي يقول: سمعت علي بن مُحمَّد بن أبان قال: سمعت أبا سعيد الخراز يقول: أَكْبَرُ ذَنْبِي إليه مَعْرِفَتِي إِيَّاه.

قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ: هَذَا إن حُمِلَ عَلَىٰ معنىٰ أنِّي لَمَّا عَرَفْتُهُ، لَمْ أَعْمَلْ بِمُقْتَضَىٰ مَعْرِفَتِهِ، فَعَظُمَ ذَنْبِي كما يَعْظُمُ جُرْمُ مَنْ عَلِمَ وَعَصَىٰ، وإِلَّا فَهُوَ قَبِيحٌ.

أخبرنا ابن الحبيب، نا ابن صادق، نا ابن باكويه، ثني أحمد الخلقانِيُّ قال: سمعتُ الشبليَّ يقول: أَحَبَّكَ الخَلْقُ لِنَعْمَائِكَ، وأنا أُحِبُّك لبلائك.

أخبرنا مُحمَّد بن أبِي القاسم، أنبأنا الحسن بن مُحمَّد بن الفضل الكرمانِي، نا سهل بن علي الخشاب (ح) وأخبرنا أبو الوقت نا أحمد بن أبِي نصر نا الحسن بن مُحمَّد بن قوري، قال: نا عبد الله بن علي السراج، قال: سَمِعْتُ أبا عبد الله أحمد بن مُحمَّد الهمذانِيَّ يقول: دَخَلْتُ عَلَىٰ الشِّبْلِيِّ، فلمَّا قُمْتُ لِأَخْرُجَ كان يقول لِي ولمن معي إِلَىٰ أن خرجنا من الدَّار: مرُّوا، أنا معكم حيثما كنتم، وأنتم فِي رعايتِي وكلاءتِي.

نا مُحمَّد بن ناصر، نا أبو عبد الله الحميدي، نا أبو بكر مُحمَّد بن أحمد الأردستانِي، نا أبو عبد الرحمن السلمي، قال: سمعت منصور بن عبد الله، يقول: دخل قوم عَلَىٰ الشِّبْلِيِّ فِي مرض موته الَّذي مات فيه، فقالوا: كيف تجدك يا أبا بكر؟

فَأَنْشَأَ يقول:

إِنَّ سُلْطَانَ حُبِّهِ ... قَالَ لا أَقْبَلُ الرُّشَا

فَسَلُوهُ فَدَيْتُهُ ... مَا لِقَتْلِي تَحَرَّشَا

قال ابن عقيل: وقد حكي عن الشِّبْلِيِّ أنَّه قال: إنَّ الله ﷻ قال: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضحىٰ:٥]، والله لا رضي مُحمَّد ﷺ وفِي النَّار من أمَّتِهِ أحَدٌ.

ثُمَّ قال: إِنَّ مُحمَّدًا يَشْفَعُ فِي أُمَّتِهِ، وَأَشْفَعُ بعده فِي النار، حتَّىٰ لا يبقىٰ فيها أحدٌ.

قال ابن عقيل: والدَّعْوَىٰ الأولَىٰ عَلَىٰ النَّبيِّ ﷺ كاذبةٌ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ يرضىٰ بعذاب الفُجَّارِ، كيف وقد لَعَنَ فِي الخمر عشرة[1]؛ فَدَعْوَىٰ أنَّه لا يرضىٰ بتعذيب الله ﷻ للفُجَّارِ دَعْوَىٰ باطلةٌ، وإقدامٌ عَلَىٰ جَهْلٍ بحكم الشَّرْعِ.

ودَعْوَاهُ بأنَّه من أهل الشَّفاعة فِي الكُلِّ، وأنَّه يَزِيدُ عَلَىٰ مُحمَّدٍ ﷺ كُفْرٌ؛ لأنَّ الإنسانَ

(١) أخرجه الترمذي (١٢٩٥)، وابن ماجه (٣٣٨١) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه وصححه الألباني فِي «صحيح الجامع» (٥٠٩١).

متَىٰ قَطَعَ لنفسه بأنَّه من أهل الجنَّة، كان من أهل النَّار، فكيف وهو يشهد لنفسه، بأنَّه عَلَىٰ مقامٍ يزيد عَلَىٰ مقام النُّبُوَّةِ؛ بل يزيد عَلَىٰ المقام المحمود، وهو الشفاعةُ العُظْمَىٰ.

وقال ابن عقيل: والَّذي يُمَكِّنُني فِي حَقِّ أهل البدع لساني وقلبِي، ولو اتَّسَعَتْ قُدْرَتِي فِي السَّيف، لَرَوَيْتُ الثَّرَىٰ من دماء خَلْقٍ.

أخبرتنا شهدة بنت أحمد، قلتُ: أخبرنا جعفر بن أحمد، ثنا أبو طاهر مُحمَّد بن علي العلاف، سمعت أبا الحسين بن سمعون، سمعت أبا عبد الله العلقي صاحب أبِي العباس بن عطاء، سمعت أبا الحسين بن سمعون، سمعت أبا عبد الله العلقي صاحب أبِي العباس بن عطاء يقول: قرأت القرآن، فما رأيت الله عَزَّوَجَلَّ ذكر عبدًا فأثنىٰ عليه حتَّىٰ ابتلاه، فسألت الله تعالىٰ أن يبتليني. فَمَا مَضَتِ الأَيَّامُ واللَّيَالِي، حَتَّىٰ خَرَجَ مِنْ دَارٍ نَيِّفٌ وعشرون مَيِّتًا، مَا رَجَعَ مِنْهُم أَحَدٌ.

قال: وذهب مالُه، وذهب عقلُه، وذهب ولدُه وأهلُه، فمكث بحكم الغلبة سبع سنين أو نحوها.

وكان أَوَّلُ شيءٍ قاله بعد صَحْوَتِهِ مِنْ غَلَبَتِهِ:

حَقًّا أَقُولُ لَقَدْ كَلَّفْتَنِي شَطَطًا ... حَمْلِي هَوَاكَ وَصَبْرِي إِنَّ ذَا عَجَبُ

قلتُ: قِلَّةُ عِلْمِ هَذَا الرَّجُلِ أَثْمَرَ أن سأل البلاء، وفِي سؤال البلاء معنَىٰ التَّقاوي، وذاك من أقبح القبيح.

والشَّطَطُ: الجَوْرُ، ولا يجوز أن يُنْسَبَ إِلَىٰ الله تعالىٰ.

وأحسنُ ما حُمِلَ عليه حَالُهُ، أن يكون قال هَذَا البيت فِي زمان التَّغَيُّرِ.

أخبرنا مُحمَّد بن ناصر، أنبأنا أحمد بن علي بن خلف، نا مُحمَّد بن الحسين السلمي، سَمِعْتُ أبا الحسن علي بن إبراهيم الحُصَرِيَّ يقول: دَعُونِي وبلائي، أَلَسْتُمْ أَوْلادَ آدم الَّذي

خَلَقَهُ اللهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فيه من رُوحِهِ، وَأَسْجَدَ له ملائكتَه، وَأَمَرَهُ بأمره فخالَفه، إذا كان أَوَّلُ الدَّنِّ دَرْدِيٌ كيف يكون آخرُه؟

قال: وقال الحصريُّ: كُنْتُ زمانًا إذا قرأتُ القرآنَ، لا أستعيذ من الشَّيطان، وأقول: من الشيطان حتَّىٰ يحضر كلام الحق.

قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ قلت: أمَّا القَوْلُ الأَوَّلُ بأنَّه يتسلَّط عَلَىٰ الأنبياء، جُرْأَةٌ قَبِيحَةٌ وَسُوءُ أَدَبٍ.

وأمَّا الثانِي: فمخالفٌ لما أمر الله عَزَّوَجَلَّ به؛ فإنَّه قال: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾[الأعراف:٢٠٠].

أخبرنا أبو بكر بن أبِي طاهر، نا عباد بن إبراهيم النسفي، ثنا مُحمَّد بن الحسين السلمي قال: وَجَدْتُ فِي كتاب أبِي بخطِّه: سَمِعْتُ أبا العباس أحمد بن مُحمَّد الدينوري يقول: قد نَقَضُوا أركان التَّصَوُّفِ وهدموا سَبِيلَهَا، وغيَّروا معانيها بأسامي أَحْدَثُوها: سَمَّوُا الطَّبْعَ زِيَادَةً، وسوءَ الأدب إخلاصًا، والخروج عن الحقِّ شَطْحًا، والتَّلَذُّذَ بالمذموم طِيبَةً، وسوءَ الخُلُقِ صَوْلَةً، والبُخْلَ جلادةً، واتِّبَاعَ الهوىٰ ابتلاءً، والرُّجُوعَ إِلَىٰ الدُّنيا وُصولًا، والسُّؤَالَ عَمَلًا، وَبَذَأَ اللِّسان ملامةً، وما هَذَا طريقَ القَوْمِ.

وقال ابن عقيل: عبَّرَتِ الصُّوفيَّةُ عن الحرام بعباراتٍ غَيَّرُوا لَها الأسماء مع حصول المعنىٰ، فقالوا فِي الاجتماع عَلَىٰ الطِّيبَةِ والغِنَاء والخنكرة: أوقات، وقالوا فِي المُردان: شَبٌّ، وفِي المَعْشُوقة: أخت، وفِي المُحَبَّةِ: مُريدةٌ، وفِي الرَّقْصِ والطَّرَبِ: وَجْدًا، وفِي مناخ اللَّهْوِ والبطالة: رِبَاطًا. وهَذَا التَّغيير للأسماء لا يُبَاحُ.

بيانُ جُملةٍ مرويَّةٍ عَلَىٰ الصُّوفيَّةِ من الأفعال المُنْكَرَةِ:

قلتُ: قد سبق ذكر أفعال كثيرة لَهم كلُّها مُنْكَرَةٌ، وإنَّما نذكر هاهنا من أمَّهات الأفعال وعجائبها.

أخبرنا مُحمَّد بن عبد الباقي بن أحمد، أنبأنا أبو علي الحسن بن مُحمَّد بن الفضل الكرماني، نا أبو الحسن سهل بن علي الخشاب، نا أبو نصر عبد الله بن علي السراج، قال: ذكر عن ابن الكُرينِي -وكان أستاذ الجنيد- أنَّه أَصَابَتْهُ جَنَابَةٌ، وكان عليه مُرَقَّعَةٌ ثخينةٌ، فجاء إِلَىٰ شاطئ الدِّجْلَةِ، والبَرْدُ شَدِيدٌ، فَحَزِنَتْ نفسُه عن الدُّخول فِي الماء؛ لشدَّة البرد، فطرح نفسَه فِي الماء مع المُرَقَّعَةِ، ولَمْ يَزَلْ يَغُوصُ ثُمَّ خَرَجَ، وقال: عَقَدْتُ أَلَّا أَنْزِعَهَا عن بَدَنِي حتَّىٰ تَجِفَّ عَلَيَّ. فَلَمْ تَجِفَّ عليه شهرًا.

أخبرنا عبد الرحمن بن مُحمَّد القزاز، نا أحمد بن علي بن ثابت، ثنا عبد العزيز بن علي، ثنا علي بن عبد الله الهمذاني، ثنا الخلدي، ثنِي جنيد، قال: سمعت أبا جعفر بن الكريني يقول: أَصَبْتُ لَيْلَةً جَنَابَةً، فاحتجتُ أن أَغْتَسِلَ، وكانت ليلةً باردةً، فوجدتُ فِي نفسي تأخُّرًا وتقصيرًا، وَحَدَّثَتْنِي نفسي، فَقُلْتُ: وَاعَجَبًا! أنا أعامل الله تعالىٰ فِي طول عمري، يجب له عليَّ حَقٌّ لا أجد المسارعة إليه، وَأَجِدُ الوقوف والتَّباطؤ والتَّأَخُّرَ، آلَيْتُ لا أَغْتَسِلُ إلَّا فِي نَهْرٍ، وآلَيْتُ لا اغْتَسَلْتُ إلَّا فِي مُرَقَّعَتِي هذه، وآلَيْتُ لا أَعْصِرَنَّهَا، وآلَيْتُ لا أُجَفِّفَنَّهَا فِي شمسٍ. أو كما قال.

قلتُ: قد سَبَقَ فِي ذكر المُرَقَّعَاتِ وَصْفُ هَذِهِ المُرَقَّعَةِ لابن الكُرينيِّ، وأنَّه وَزَنَ أَحَدَ كُمَّيْهَا، فكان فيه أحد عشر رطلًا، وإنَّما ذكر هَذَا للنَّاس لِيُبَيِّنَ أنِّي فَعَلْتُ الحَسَنَ الجَمِيلَ، وحَكَوْهُ عنه ليبيِّنَ فَضْلَهُ، وذلك جَهْلٌ مَحْضٌ؛ لأنَّ هَذَا الرَّجُلَ عَصَىٰ الله ﷻ بما فَعَلَ.

وإنَّما يُعْجِبُ هَذَا الفِعْلُ العَوَامَّ الحَمْقَىٰ لا العلماءَ.

ولا يجوز لأحدٍ أن يُعَاقِبَ نَفْسَهُ؛ فقد جمع هَذَا المسكين لنفسه فنونًا من التَّعْذِيبِ: إلقاؤها فِي الماء البارد، وكونُه فِي مُرَقَّعَةٍ لا يمكنه الحركة فيها كما يريد، ولعلَّه قد يبقىٰ فِي مغابنه ما لَمْ يصل إليه الماء؛ لكثافة هَذِهِ المُرَقَّعَةِ، وبقائها عليه مُبْتَلَّةً شهرًا، وذلك يَمنعه لَذَّةَ النَّوْمِ، وكلُّ هَذَا الفِعْلِ خَطَأٌ، وَإِثْمٌ، وربَّما كان ذلك سببًا لِمَرَضِهِ أو قَتْلِهِ.

أخبرنا المحمَّدان ابن ناصر وابن عبد الباقي، قال: أخبرنا حمد بن أحمد، نا أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهانِيُّ، قال: كانت أُمُّ عَلِيٍّ زوجةُ أحمد بن خضرويه، قد أَحَلَّتْ زَوْجَهَا أحمد من صَدَاقِهَا، عَلَىٰ أن يَزُورَ بِها أبا يزيد البسطاميَّ، فَحَمَلَهَا إليه، فَدَخَلَتْ عليه، وَقَعَدَتْ بين يديه مُسْفِرَةً عن وجهها، فلمَّا قال لَها أحمد: رَأَيْتُ مِنْكِ عجبًا، أَسْفَرْتِ عن وَجْهِكِ بين يدي أَبِي يزيد. قالت: لأنِّي لَمَّا نظرتُ إليه فَقَدْتُ حظوظَ نفسي، وكلَّما نظرتُ إليك، رَجَعَتْ إلَيَّ حظوظُ نفسي.

فلمَّا أراد أحمدُ الخروجَ من عند أَبِي يزيد قال له: أَوْصِنِي. قال: تَعَلَّمِ الفُتُوَّةَ مِنْ زوجتِك.

أخبرنا أبو بكر بن حبيب، نا أبو سعد بن أَبِي صادق، نا ابن باكويه، سمعت أبا بكر الفازي -وفازُ قريةٌ بطوس- سَمِعْتُ أبا بكر السَّبَّاك، سمعت يوسف بن الحسين يقول: كان بين أحمد بن أَبِي الحواري، وبين أَبِي سليمان عَقْدٌ، ألا يُخَالِفَهُ فِي شيءٍ يأمره به، فجاءه يومًا وهو يتكلَّم فِي المجلس فقال: إنَّ التَّنُّورَ قد سجرناه، فما تأمرنا؟ فما أجابه.

فأعاد مَرَّةً أو مَرَّتَيْنِ، فقال له الثالثة: اذهب واقعد فيه. ففعل ذلك، فقال أبو سليمان: الحقُوه؛ فإنَّ بينِي وبينَه عقدًا ألا يخالفني فِي شيءٍ آمُرُهُ به.

فقام وقاموا معه، فجاءوا إلَىٰ التَّنُّورِ، فوجدوه قاعدًا فِي وَسَطِهِ، فأخذ بيده وأقامه، فما أصابه خدشٌ.

قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ: هَذِهِ الحكايةُ بعيدةُ الصِّحَّةِ، ولو صَحَّتْ كان دخولُه النَّارَ مَعْصِيَةً.

وفِي الصَّحيحين من حديث عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: بَعَثَ رسول الله ﷺ سَرِيَّةً، واستعمل عليها رجلًا من الأنصار، فلمَّا خرجوا، وَجَدَ عليهم فِي شيءٍ، فقال لَهم: أليس قد أَمَرَكُم رسول الله ﷺ أن تُطِيعُونِي؟ قالوا: بلىٰ. قال: فاجمعوا حطبًا.

فجمعوا، ثُمَّ دعا بنارٍ فَأَضْرَمَهَا، ثُمَّ قال: عَزَمْتُ عليكم لَتَدْخُلُنَّهَا.

قال: فَهَمَّ القَوْمُ أن يدخلوها، فقال لَهم شَابٌّ: إِنَّما فَرَرْتُم إِلَىٰ رسول الله ﷺ من النَّار، فلا تعجلوا حتَّىٰ تَلْقَوُا النَّبِيَّ ﷺ فَإِنْ أَمَرَكُم أن تدخلوها فادخلوها، فرجعوا إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فأخبروه، فقال لَهم رسول الله ﷺ: **«لَوْ دَخَلْتُمُوهَا مَا خَرَجْتُمْ مِنْهَا أَبَدًا، إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي المَعْرُوفِ»**(١).

أخبرنا عبد الرحمن بن مُحمَّد القزاز، نا أحمد بن علي بن ثابت، نا أبو نعيم الحافظ، أخبرني الحسن بن جعفر بن علي، أخبرني عبد الله بن إبراهيم الجريري، قال: قال أبو الخير الديلميُّ: كُنْتُ جالسًا عند خَيْرٍ النَّسَّاجِ، فَأَتَتْهُ امرأةٌ، وقالت له: أَعْطِنِي المِنْدِيلَ الَّذي دَفَعْتُهُ إليك. قال: نعم. فَدَفَعَهُ إليها، قالت: كم الأجرُ؟ قال: درهمان. قالت: ما معي السَّاعَةَ شيءٌ، وأنا قد تردَّدت إليك مرارًا فلم أَرَكَ، وأنا آتيك به غدًا إن شاء الله تعالىٰ.

فقال لَها خير: إِنْ أَتَيْتِنِي بِهما ولَمْ تَجِدِينِي، فَارْمِ بِهما فِي دِجْلَةَ؛ فإنِّي إذا جِئْتُ أَخَذْتُهُمَا.

فقالت المرأةُ: كيف تَأْخُذُ من دِجْلَةَ؟

فقال لَها خَيْرٌ: هَذَا التَّفْتِيشُ فضولٌ منك، افْعَلِي ما أَمَرْتُكِ به.

قالت: إن شاء الله.

فَمَرَّتِ المرأةُ، قال أبو الخير: فَجِئْتُ من الغَدِ، وكان خَيْرٌ غَائِبًا، وإذا المرأة قد جاءت، ومعها خِرْقَةٌ فيها دِرْهَمَانِ، فَلَمْ تَجِدْهُ، فَرَمَتْ بالخِرْقَةِ فِي دجلةَ، وإذا بسرطانٍ قد تَعَلَّقَتْ بالخرقةِ وَغَاصَتْ، وبعد ساعةٍ جاء خَيْرٌ، وَفَتَحَ باب حَانُوتِهِ، وَجَلَسَ عَلَىٰ الشَّطِّ يَتَوَضَّأُ، وإذا بِسَرَطَانٍ قد خَرَجَتْ من الماء تَسْعَىٰ نحوَه، والخِرْقَةُ عَلَىٰ ظهرها، فلمَّا قَرُبَتْ من

(١) أخرجه البخاري (٤٣٤٠)، ومسلم (١٨٤٠).

الشَّيْخِ أخذها، فقلتُ له: رأيت كذا وكذا. فقال: أُحِبُّ ألا تبُوحَ به فِي حياتِي. فَأَجَبْتُهُ إِلَىٰ ذلك.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: صِحَّةُ مثل هَذَا تَبْعُدُ، ولو صَحَّ لَمْ يَخْرُجْ هَذَا الفِعْلُ من مُخَالَفَةِ الشَّرْعِ؛ لأنَّ الشَّرْعَ قد أَمَرَ بحفظ المال، وهَذَا إضاعةٌ.

وفِي الصَّحيح أنَّ النَّبِيَّ ﷺ «نَهَىٰ عن إضاعةِ المال»[1]. ولا تَلْتَفت إِلَىٰ قَوْلِ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّ هَذَا كَرَامَةٌ؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لا يُكْرِمُ مُخَالِفًا لِشَرْعِهِ.

أخبرنا أبو منصور القزاز، نا أبو بكر بن ثابت، نا أبو نعيم الحافظ، سمعت علي بن عبد الرحيم، يقول: دَخَلْتُ عَلَىٰ النُّورِيِّ ذاتَ يَوْمٍ، فَرَأَيْتُ رِجْلَيْهِ مُنْتَفِخَتَيْنِ، فَسَأَلْتُهُ عن أَمْرِهِ، فقال: طَالَبَتْنِي نفسي بأكل التَّمْرِ، فَجَعَلْتُ أدافعُها فَتَأْبَىٰ عَلَيَّ، فَخَرَجْتُ، فَاشْتَرَيْتُ، فلما أن أكلت، قلتُ لَها: قومي فَصَلِّي. فَأَبَتْ عَلَيَّ، فَقُلْتُ: لله عليَّ إن قَعَدْتُ إِلَىٰ الأرض أربعين يومًا، إِلَّا فِي التَّشَهُّدِ. فما قَعَدْتُ.

قلتُ: مَنْ سَمِعَ هَذَا من الجُهَّالِ يقول: ما أحسن هَذِهِ المُجَاهَدَةَ. ولا يدري أَنَّ هَذَا الفعل لا يَحِلُّ؛ لأَنَّه حَمَلَ عَلَىٰ النَّفْسِ ما لا يجوز، وَمَنَعَهَا حقَّها من الرَّاحة.

وقد حكىٰ أبو حامد الغزاليُّ فِي كتاب «الإحياء» قال: كان بعض الشُّيُوخِ فِي بداية إرادته يَكْسِلُ عن القيام، فَأَلْزَمَ نفسَه القيامَ عَلَىٰ رَأْسِهِ طُولَ اللَّيْلِ؛ لِتَسْمَحَ نفسُه بالقيام عن طَوْعٍ، قال: وَعَالَجَ بَعْضُهُم حُبَّ المال بأن باع جميعَ مالِه، ورماه فِي البَحْرِ إن خاف من تَفْرِقَتِهِ عَلَىٰ النَّاس رعونةَ الجودِ ورياءَ البَذْلِ.

قال: وكان بعضُهم يستأجر مَنْ يَشْتُمُهُ عَلَىٰ ملأٍ من الناس؛ لِيُعَوِّدَ نَفْسَهُ الحِلْمَ. قال: وكان آخر يركب البحر فِي الشِّتاء عند اضطراب الموج؛ ليصير شجاعًا.

(١) أخرجه البخاري (٢٤٠٨)، ومسلم (٥٩٣) من حديث المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ: أعجب من جَميع هؤلاء عند أبي حامد، كيف حكىٰ هَذِهِ الأشياء، ولَمْ يُنْكِرْهَا؟ وكيف يُنْكِرُهَا، وقد أتىٰ بِها فِي معرض التَّعليم؟

وقال قبل أن يورد هَذِهِ الحكايات: ينبغي للشيخ أن ينظر إِلَىٰ حالة المبتدئ، فإن رأىٰ معه مالًا فاضلًا عن قَدْرِ حاجته، أخذه وَصَرَفَهُ فِي الخير، وفرَّغ قلبه منه؛ حتَّىٰ لا يلتفت إليه، وإن رأىٰ الكِبْرِيَاءَ قد غَلَبَ عليه، أمَرَه أن يخرج إِلَىٰ السُّوقِ للكَدِّ، ويكلِّفَه السُّؤال والمواظبة عَلَىٰ ذلك، وإن رأىٰ الغالب عليه البطالةَ اسْتَخْدَمَهُ فِي بيت الماء وَتَنْظِيفِهِ، وَكَنْسِ المواضع القَذِرَةِ، وملازمة المطبخ، ومواضع الدُّخان.

وإن رأىٰ شَرَهَ الطَّعَامِ غالبًا عليه، أَلْزَمَهُ الصَّوْمَ، وإن رآه عَزَبًا، ولَمْ تَنْكَسِرْ شَهْوَتُهُ بالصَّوْمِ، أَمَرَهُ أن يُفْطِرَ ليلةً عَلَىٰ الماء دونَ الخُبْزِ، وليلةً عَلَىٰ الخُبْزِ دونَ الماء، وَيَمْنَعُهُ اللَّحْمَ رَأْسًا.

قلتُ: وإنِّي لَأَتَعَجَّبُ من أبِي حامد، كيف يأمر بِهَذِهِ الأشياء الَّتي تخالف الشَّريعة، وكيف يَحِلُّ القيامُ عَلَىٰ الرَّأْسِ طولَ اللَّيْلِ، فينعكس الدَّمُ إِلَىٰ وَجْهِهِ، ويورثه ذلك مرضًا شديدًا؟

وكيف يَحِلُّ رَمْيُ المال فِي البَحْرِ، وقد نَهىٰ رسول الله ﷺ عن إضاعة المال؟ وهل يَحِلُّ سَبُّ مسلمٍ بلا سببٍ؟ وهل يجوز للمسلم أن يستأجر عَلَىٰ ذلك؟ وكيف يجوز ركوبُ البحر زمانَ اضْطِرَابِهِ، وذلك زمانٌ قد سقط فيه الخطابُ بأداء الحَجِّ؟ وكيف يَحِلُّ السُّؤَالُ لِمَنْ يَقْدِرُ أن يكسب؟ فما أرخص ما باع أبو حامد الغزاليُّ الفِقْهَ بالتَّصَوُّفِ.

أنبأنا ابن ناصر، نا أبو الفضل السهلكي، نا أبو علي عبد الله بن إبراهيم النيسابوري، ثنا أبو الحسن علي بن جهضم، ثنا أبو صالح الدامغانِي، عن الحسن بن علي الدامغانِي، قال: كان رَجُلٌ من أهل بسطام، لا يَنْقَطِعُ عن مجلس أبِي يزيد لا يفارقه، فقال له ذاتَ يَوْمٍ: يا أستاذُ، أنا منذ ثلاثين سنةً أصوم الدَّهْرَ، وأقوم اللَّيْلَ، وقد تركتُ الشَّهوات، وَلَسْتُ أجد فِي

قلبِي من هَذَا الَّذي تذكره شيئًا البَتَّةَ.

فقال له أبو يزيد: لو صُمْتَ ثَلاثَ مِئَةَ سَنَةٍ، وَقُمْتَ ثلاث مئة سَنَةٍ، وأنت عَلَىٰ ما أراك، لا تَجِدْ من هَذَا العِلْمِ ذَرَّةً. قال: ولِمَ يا أستاذ؟ قال: لأنَّك مَحجوبٌ بِنَفْسِكَ. فقال له: أَفَلِهَذَا دواءٌ حتَّىٰ يَنْكَشِفَ هَذَا الحجابُ؟ قال: نعم. وَلَكِنَّكَ لَمْ تَقْبَلْ. قال: بلىٰ أَقْبَلُ وأعمل ما تقول. قال أبو يزيد: اِذْهَبِ السَّاعَةَ إِلَىٰ الحَجَّامِ، وَاحْلِقْ رَأْسَكَ وَلِحْيَتَكَ، وانزع عنك هَذَا اللِّباس، وابرز بعباءةٍ، وعلِّق فِي عُنُقِكَ مخلاةً، وامْلأْها جَوْزًا، واجمع حولَك صبيانًا، وَقُلْ بأَعْلَىٰ صَوْتِكَ: يا صبيان! مَنْ يَصْفَعْنِي صَفْعَةً، أَعْطَيْتُهُ جَوْزَةً. وادخل إِلَىٰ سُوقِكَ الَّذي تعظم فيه.

فقال: يا أبا يزيد! سبحان الله، تقول لي مثل هذا، ويحسن أن أفعل هذا؟ فقال أبو يزيد: قولك: سبحان الله شِرْكٌ! قال: وكيف؟ قال: لأنَّك عَظَّمْتَ نَفْسَكَ فَسَبَّحْتَهَا.

فقال: يا أبا يزيد، هَذَا ليس أَقْدِرُ عليه، ولا أَفْعَلُهُ، ولكن دُلَّنِي عَلَىٰ غَيْرِهِ حَتَّىٰ أَفْعَلَهُ.

فقال أبو يزيد: ابْتَدِرْ هَذَا قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، حتَّىٰ تسقط جاهَك، وتذلَّ نفسَك، ثُمَّ بعد ذلك أُعَرِّفُكَ ما يصلح لك.

قال: لا أُطِيقُ هذا.

قال: إنَّك لا تَقْبَلُ.

قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ: قُلْتُ: ليس فِي شَرْعِنَا بحمد الله من هَذَا شيءٌ، بل فيه تحريمُ ذلك والمَنْعُ منه، وقد قال نبيُّنا عليه الصلاة والسلام: «لَيْسَ للمُؤْمِنِ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ»[1].

ولقد فَاتَتِ الجُمُعَةُ حذيفةَ، فَرَأَىٰ النَّاسَ رَاجِعِينَ، فَاسْتَتَرَ؛ لِئَلَّا يُرَىٰ بِعَيْنِ النَّقْصِ فِي قِصَّة الصلاة.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٢٥٤)، وابن ماجه (٤٠١٦) من حديث حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وصححه الألباني فِي «صحيح الجامع» (٧٧٩٧).

وهل طالب الشَّرْعُ أحَدًا بِمَحْوِ أَثَرِ النَّفْسِ، وقد قال ﷺ: «مَنْ أَتَىٰ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ القَاذُورَاتِ، فَلْيَسْتَتِرْ بِسِتْرِ اللهِ»(١).

كُلُّ هَذَا للإبقاء عَلَىٰ جَاهِ النَّفْسِ، ولو أمر بَهلول الصِّبيان أن يصفعوه، لكان قبيحًا، فَنَعُوذُ بالله من هَذِه العقول النَّاقصة، الَّتي تطالب المبتدئ بِمَا لا يرضاه الشَّرْعُ فينفر.

وقد حكىٰ أبو حامد الغزالي فِي «كتاب الإحياء» عن يَحيَىٰ بن معاذٍ، أنَّه قال: قُلْتُ لأبِي يزيد: هل سَأَلْتَ الله تعالىٰ المعرفة؟! فقال: عَزَّتْ عليه أن يَعْرِفَهَا سِوَاهُ.

فقلتُ: هَذَا إقرارٌ بالجَهْلِ، فإن كان يشير إِلَىٰ معرفة الله تعالىٰ فِي الجملة وأنَّه موجودٌ وموصوفٌ بصفاتٍ، وهَذَا لا يَسَعُ أَحَدًا من المسلمين جَهْلُهُ، وإن تخايل له أنَّ معرفته هي اطِّلاعٌ عَلَىٰ حقيقة ذاته وكُنْهِها، فهَذَا جَهْلٌ به.

وحكىٰ أبو حامد: أنَّ أبا تراب النخشبِيَّ قال لمريدٍ له: لو رَأَيْتَ أبا يَزِيد مَرَّةً واحدةً، كان أَنْفَعَ لك من رؤية الله سبعين مرَّةً.

قلت: وهَذَا فَرْقُ الجنون بدرجاتٍ.

وحكىٰ أبو حامد الغزالي عن ابن الكُرِيني أنَّه قال: نَزَلْتُ فِي محلَّةٍ، فَعُرِفْتُ فيها بالصَّلاح، فَنَشَبَ فِي قلبِي، فَدَخَلْتُ الحَمَّامُ وَعَيَّنْتُ عَلَىٰ ثِيَابٍ فَاخِرَةٍ، فَسَرَقْتُهَا وَلَبِسْتُهَا، ثُمَّ لَبِسْتُ مُرَقَّعَتِي، وَخَرَجْتُ، فَجَعَلْتُ أَمْشِي قليلًا قليلًا، فَلَحِقُونِي، فَنَزَعُوا مُرَقَّعَتِي، وأخذوا الثِّيابَ، وَصَفَعُونِي، فَصِرْتُ بعد ذلك أُعْرَفُ بِلِصِّ الحَمَّام، فَسَكَنَتْ نفسي.

قال أبو حامد: فهكذا يروِّضون أنفسَهم، حتَّىٰ خلَّصهم اللهُ من النَّظَرِ إِلَىٰ الخَلْقِ، ثُمَّ من النَّظَرِ إِلَىٰ النَّفْسِ، وأربابُ الأحوال ربَّما عالجوا أنفسَهم بِما لا يُفْتِي به الفَقِيهُ، مهما رأوا صلاحَ قلوبِهم، ثُمَّ يتداركون ما فرط منهم من صورة التَّقْصِيرِ، كما فعل هَذَا فِي الحَمَّامِ.

(١) أخرجه مالك (١٥٦٢) من حديث زيد بن أسلم، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٦٦٣).

قلتُ: سبحان من أخرج أبا حامد من دائرة الفقه بتصنيفه «كتاب الإحياء» فَلَيْتَهُ لَمْ يَحْكِ فيه مثل هَذَا الَّذي لا يَحِلُّ.

والعجبُ منه أنَّه يَحْكِيهِ ويستحسنه، ويسمِّي أصحابَه أربابَ الأحوال!! وأيُّ حالةٍ أقبحُ وأشدُّ من حال مَنْ خَالَفَ الشَّرْعَ، ويرىٰ المصلحةَ فِي النَّهْيِ عنه؟ وكيف يجوز أن يَطْلُبَ صلاحَ القلوبِ بِفِعْلِ المعاصي، وقد عَدِمَ فِي الشريعة ما يُصْلِحُ به قَلْبَهُ، حتَّىٰ يَسْتَعْمِلَ ما لا يحلُّ فيها؟

وهَذَا من جِنْسِ ما تفعله الأمراءُ الجَهَلَةُ من قَطْعِ من لا يَجِبُ قَطْعُهُ، وَقَتْلِ من لا يجوز قتلُه، ويسمُّونه سياسةً، ومضمون ذلك أنَّ الشَّريعةَ ما تفي بالسِّياسة.

وكيف يَحِلُّ للمسلم أن يُعَرِّضَ نَفْسَهُ لأن يقال عنه سارقٌ؟ وهل يجوز أن يَقْصِدَ وَهَنَ دِينِهِ، وَمَحْوَ ذلك عند شهداء الله فِي الأرض؟

ولو أنَّ رجلًا وقف مع امرأته فِي طريقٍ يكلِّمها وَيَلْمَسُهَا، لِيَقُولَ عنه من لا يَعْلَمُ هَذَا: فاسقٌ، لكان عاصيًا بذلك، ثُمَّ كيف يَجُوزُ التَّصَرُّفُ فِي مالِ الغَيْرِ بِغَيْرِ إِذْنِهِ؟

ثُمَّ فِي نَصِّ مذهب أحمد والشَّافعيِّ، أَنَّ مَنْ سَرَقَ من الحَمَّامِ ثِيَابًا عليها حافظٌ، وَجَبَ قَطْعُ يَدِهِ، ثُمَّ مِنْ أرباب الأحوال حتَّىٰ يعلموا بواقعاتِهم؟

كلا والله، إِنَّ لنا شَرِيعَةً، لو رام أبو بكر الصِّدِّيقُ أن يَخْرُجَ عنها إِلَىٰ العمل برأيه، لَمْ يُقْبَلْ منه.

فَعَجَبِي من هَذَا الفَقِيهِ المُسْتَلَبِ عن الفِقْهِ بالتَّصَوُّفِ، أكثر من تعجُّبِي من هَذَا المُسْتَلِبِ الثِّيَابَ.

أخبرنا أبو بكر بن حبيب، نا أبو سعد بن أَبِي صادق، نا ابن باكويه قال: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بن أحمد النَّجَّار يقول: كان عليُّ بن بابويه من الصُّوفيَّة، فاشترىٰ يومًا من الأَيَّامِ لِـ

قِطْعَةَ لَحْمٍ، فأحبَّ أن يَحْمِلَهُ إِلَىٰ البيت، فاستحيا من أهل السُّوق، فَعَلَقَ اللَّحْمُ فِي عُنُقِهِ، وَحَمَلَهُ إِلَىٰ بَيْتِهِ.

قلتُ: وَاعَجَبًا مِنْ قَوْمٍ طالبوا أنفسهم بِمَحْوِ أَثَرِ الطَّبع، وذلك أمرٌ لا يُمْكِنُ، ولا هو مُرَادُ الشَّرْعِ، وقد ركز فِي الطِّباع أنَّ الإنسانَ لا يحبُّ أن يُرىٰ إلَّا متجمِّلًا فِي ثيابِه، وأنَّه يستحيي من العُرْيِ وكشف الرَّأْسِ، والشَّرْعُ لا يُنْكِرُ عليه هذا.

وما فعله هَذَا الرَّجُلُ من الإهانة لنفسه بين الناس، أَمْرٌ قَبِيحٌ فِي الشَّرْعِ والعقل؛ فهو إسقاطُ مروءةٍ لا رياضةٌ، كما لو حَمَلَ نَعْلَيْهِ عَلَىٰ رَأْسِهِ.

وقد جاء فِي الحديث: «الأَكْلُ فِي السُّوقِ دَنَاءَةٌ»[(١)]، فإنَّ اللهَ قد أَكْرَمَ الآدَمِيَّ، وَجَعَلَ لِكَثِيرٍ من النَّاس من يخدمه، فليس من الدِّين إذلالُ الرَّجُلِ نفسَه بين الناس.

وقد تَسَمَّىٰ قَوْمٌ من الصُّوفيَّة بالملامتيَّة، فاقتحموا الذُّنوبَ فقالوا: مقصودُنا أن نَسْقُطَ من أعين الناس، فَنَسْلَمَ من آفات الجاه والمُرَائِين.

وهؤلاء مَثَلُهُم كَمَثَلِ رَجُلٍ زَنَىٰ بامرأةٍ فَأَحْبَلَهَا، فقيل له: لِمَ لَمْ تَعْزِلْ؟ فقال: بلغنِي أنَّ العزل مكروهٌ. فقيل له: وما بلغك أنَّ الزِّنا حرام؟! وهؤلاء الجَهَلَةُ قد أسقطوا جاهَهم عند الله سبحانه، وَنَسُوا أنَّ المسلمين شهداءُ الله فِي الأرض.

أخبرنا ابن حبيب، نا ابن أَبِي صادق، نا ابن باكويه، قال: سمعت أبا أحمد الصغير، سمعت أبا عبد الله بن خفيف، سمعت أبا الحسن المدينِيَّ يقول: خَرَجْتُ مَرَّةً من بغداد إِلَىٰ نَهْرِ الناشريَّة، وكان فِي إحدىٰ قُرَىٰ ذلك النَّهْرِ رَجُلٌ يَمِيلُ إِلىٰ أَصْحَابِنَا، فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي عَلَىٰ شَاطِئِ النَّهْرِ، رَأَيْتُ مُرَقَّعَةً مطروحةً وَنَعْلًا وخريقةً، فَجَمَعْتُهُمَا.

---

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٨/ ٢٤٩) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٢٢٩٠).

وقلتُ: هَذِهِ لِفَقِيرٍ، ومَشَيْتُ قليلًا، فَسَمِعْتُ هَمْهَمَةً وتخبيطًا في الماء، فنظرت، فإذا بأبي الحسن النوري قد ألقىٰ نفسه في الماء والطين، وهو يتخبط ويعمل بنفسه كُلَّ بلاءٍ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُ عَلِمْتُ أَنَّ الثِّيَابَ له، فَنَزَلْتُ إِلَيْهِ، فَنَظَرَ إِليَّ، وقال: يا أبا الحَسَن، أما تَرَىٰ ما يُعْمَلُ بي؟ قد أماتني مَوْتَاتٍ، وقال لي: ما لك مِنَّا إِلَّا الذِّكْرُ الَّذي لسائر النَّاس.

وأخذ يبكي ويقول: ترىٰ ما يُفْعَلُ بي؟ فما زِلْتُ أَرْفُقُ به حتَّىٰ غَسَلْتُهُ من الطِّينِ، وَأَلْبَسْتُهُ المُرَقَّعَةَ، وَحَمَلْتُهُ إِلَىٰ دار ذلك الرَّجل.

فَأَقَمْنَا عندَه إِلَىٰ العصر، ثُمَّ خَرَجْنَا إِلَىٰ المسجد، فلمَّا كان وَقْتُ المغرب رأيتُ النَّاسَ يَهْرُبون ويُغْلِقُون الأبواب، وَيَصْعَدُون السُّطوحَ، فَسَأَلْنَاهُم فقالوا: السِّبَاعُ تَدْخُلُ القَرْيَةَ باللَّيْلِ.

وكان حوالي القرية أَجَمَةٌ عظيمةٌ، وقد قُطِعَ منها القَصَبُ، وَبَقِيَتْ أصولُه كالسَّكاكين.

فلمَّا سَمِعَ النُّورِيُّ هَذَا الحديث، قام فَرَمَىٰ بنفسه فِي الأجمَّة عَلَىٰ أصول القصب المقطوع، وَيَصِيحُ وَيَقُول: أين أنت يا سَبُعُ؟ فما شَكَكْنَا أَنَّ الأَسَدَ قد افْتَرَسَهُ، أو قد هَلَكَ فِي أصول القصب، فلمَّا كان قريبَ الصُّبْحِ جاء فَطَرَحَ نفسَه، وقد هَلَكَتْ رِجْلاه، فأخذنا بالمِنْقَاشِ ما قَدَرْنَا عليه، فَبَقِيَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا لا يَمْشِي علىٰ رِجْلَيْهِ، فَسَأَلْتُهُ: أَيُّ شَيْءٍ كان ذَلِكَ الحالُ؟ قال: لَمَّا ذَكَرُوا السَّبُعَ، وَجَدْتُ فِي نَفْسِي فَزَعًا، فقلتُ: لَأَطْرَحَنَّكِ إِلَىٰ ما تَفْزَعِينَ مِنْهُ.

قلتُ: لا يَخْفَىٰ عَلَىٰ عَاقِلٍ تخبيطُ هَذَا الرَّجُلِ قبلَ أن يقع فِي الماء والطِّين، وكيف يجوز للإنسان أن يُلْقِيَ نفسَه فِي ماءٍ وَطِينٍ؟ وهل هَذَا إِلَّا فِعْلُ المجانين؟ وأين الهَيْبَةُ والتَّعْظِيمُ من قوله: تُرَىٰ ما يُفْعَلُ بِي؟ وما وَجْهُ هَذَا الانبساط؟ وينبغي أن تَجِفَّ الأَلْسُنُ فِي أفواهِها هَيْبَةً؟

ثُمَّ ما الَّذي يريده غير الذِّكْرِ، ولقد خَرَجَ عن الشَّريعة، بخروجه إِلَىٰ السَّبُعِ وَمَشْيِهِ عَلَىٰ القَصَبِ المقطوع؟

وهل يجوز فِي الشَّرْعِ أن يُلْقِيَ الإنسانُ نَفْسَهُ إِلَىٰ سَبُعٍ؟

أترىٰ أراد منها أن يُغَيِّرَ ما طُبِعَتْ عليه من خوف السَّبُعِ؟ فليس هَذَا فِي طَوْقِهَا، ولا طَلَبَهُ الشَّرْعُ منها.

ولقد سَمِعَ هَذَا الرَّجُلُ بَعْضَ أَصْحَابِهِ يقول مثلَ هَذَا القول، فأجابه بأجود جوابٍ.

أخبرنا مُحمَّد بن عبد الله بن حبيب، نا علي بن أَبِي صادق، نا ابن باكويه، نا أبو يعقوب الخراط، نا أبو أحمد المغازلِي، قال: رأيتُ النُّورِيَّ، وقد جعل نفسَه إِلَىٰ أسفل ورِجْلَيْهِ إِلَىٰ فوق، وهو يقول: مِنَ الخَلْقِ أَوْحَشْتَنِي، ومن النَّفْسِ والمال والدُّنيا أَفْقَرْتَنِي. ويقول: ما معك إِلَّا عِلْمٌ وذِكْرٌ.

قال: فقلتُ له: إن رَضِيتَ، وإِلَّا فَانْطَحْ برأسك الحائط.

أخبرنا مُحمَّد بن أَبِي القاسم، أنبأنا الحسن بن مُحمَّد بن الفضل الكرمانِي، نا سهل بن علي الخشاب، نا عبد الله بن علي السراج قال: سمعت أبا عمرو بن علوان يقول: حَمَلَ أبو الحُسَيْن النُّوريُّ ثلاث مئةَ دينارٍ، ثَمَنَ عَقَارٍ بِيعَ له، وَجَلَسَ عَلَىٰ قَنْطَرَةٍ، وَجَعَلَ يرمي واحدًا واحدًا منها إِلَىٰ الماء ويقول: جِئْتِ تريدين أن تَخْدَعِينِي مِنْكِ بمثل هذا.

قال السراج: فقال بعض النَّاس: لو أَنْفَقَهَا فِي سبيل الله كان خيرًا له.

فَقُلْتُ: إِنْ كانت تلك الدَّنانيرُ تَشْغَلُهُ عن الله طَرْفَةَ عَيْنٍ، كان الواجبُ أن يَرْمِيَهَا فِي الماء دُفْعَةً واحدةً؛ حَتَّىٰ يَكُونَ أَسْرَعَ لخلاصِه من فِتْنَتِهَا، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾ [ص:٣٣].

قُلْتُ: لقد أبان هؤلاء القَوْمُ عن جَهْلٍ بالشَّرْعِ، وَعَدَمِ عَقْلٍ، وقد بَيَّنَّا فيما تقدَّم أنَّ الشَّرْعَ

أَمَرَ بِحِفْظِ المال، وَأَلَّا يُسَلَّمَ إلَّا إِلَىٰ رَشِيدٍ، وجَعَلَهُ قوامًا للآدَمِيِّ، والعقلُ يَشْهَدُ بِأَنَّه إنَّما خُلِقَ للمصالح، فإذا رَمَىٰ به الإنسانُ، فَقَدْ أَفْسَدَ ما هو سَبَبُ صَلاحِهِ، وَجَهِلَ حِكْمَةَ الواضع، واعتذار السَّراجِ له أَقْبَحُ مِنْ فِعْلِهِ؛ لأنَّه إن كان خاف فِتْنَتَهُ، فينبغي أن يرميَه إِلَىٰ فَقِيرٍ ويتخلَّص.

ومن جَهْلِ هؤلاء حملُهم تفسير القرآن عَلَىٰ رَأْيِهم الفاسد؛ لأنَّه يَحْتَجُّ بِمَسْحِ السُّوقِ والأعناق، وَيَظُنُّ بذلك جَوَازَ الفَسَادِ، والفَسَادُ لا يجوز فِي الشَّريعة، وإنَّما مَسَحَ بِيَدِهِ عَلَيْهَا، وقال: أَنْتِ فِي سَبِيلِ الله.

وَلَقَدْ سَبَقَ بيانُ هذا.

وقال أبو نَصْرٍ السراج فِي كتاب «اللُّمَعِ»: قال أبو جعفر الدَّارج: خرج أستاذي يومًا يَتَطَهَّرُ، فأخذتُ كَنَفَهُ، فَفَتَّشْتُهُ، فَوَجَدْتُ فيه شيئًا من الفِضَّةِ مِقْدَارَ أربعة دراهم، وكان ليلًا، وبَاتَ لَمْ يَأْكُلْ شَيْئًا.

فلمَّا رجع قُلْتُ له: فِي كَنَفِكَ كذا وكذا دِرْهَمًا ونحن جِيَاعٌ. فقال: أَخَذْتَهُ؟ رُدَّهُ.

قال لي بعد ذلك: خُذْهُ وَاشْتَرِ به شَيْئًا.

فَقُلْتُ له: بِحَقِّ مَعْبُودِكَ ما أَمْرُ هَذِهِ القِطَعِ؟

فقال: لَمْ يَرْزُقْنِي اللهُ من الدُّنيا شيئًا غيرَها، فَأَرَدْتُ أن أُوصِيَ أن تُدْفَنَ مَعِي، فإذا كان يوم القيامة رَدَدْتُها إِلَىٰ الله، وأقول: هَذَا الَّذي أَعْطَيْتَنِي من الدُّنْيَا.

أخبرنا ابن حبيب، نا ابن أَبِي صادق، نا ابن باكويه، ثنا عبد الواحد بن بكر قال: سَمِعْتُ أبا بكر الجوَّال، سمعت أبا عبد الله الحصريَّ يقول: مَكَثَ أبو جعفر الحدَّاد عشرين سَنَةً يعمل كلَّ يَوْمٍ بدينارٍ، وَيُنْفِقُهُ عَلَىٰ الفقراء وَيَصُومُ، ويخرج بين العِشَائَيْنِ، فَيَتَصَدَّقُ من الأبواب ما يُفْطِرُ عليه.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: **قُلْتُ**: لو عَلِمَ هَذَا الرَّجُلُ أَنَّ المَسْأَلَةَ لا تجوز لمن يقدر عَلَىٰ الاكتساب لَمْ يَفْعَلْ، ولو قَدَّرْنَا جَوَازَهَا، فأين أَنَفَةُ النَّفْسِ من ذُلِّ الطَّلَبِ؟

أخبرنا هبة الله بن مُحمَّد، نا الحسن بن علي التميمي، نا أحمد بن جعفر، ثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، ثني أبِي، ثنا إسماعيل، ثنا معمر، عن عبد الله بن مسلم أخي الزهري، عن حمزة بن عبد الله بن عمر، عن أبيه، **قال** رسول الله ﷺ: «**لا تَزَالُ المَسْأَلَةُ بِأَحَدِكُم، حَتَّىٰ يَلْقَىٰ الله** عَزَّوَجَلَّ **وَمَا عَلَىٰ وَجْهِهِ مِزْعَةُ لَحْمٍ**»[(١)].

قال أحمد: وَحَدَّثَنَا حفصُ بن غياثٍ، عن هشامٍ، عن أبيه، عن الزُّبَيْرِ بن العوَّام، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لأَنْ يَأْخُذَ الرَّجُلُ حَبْلًا فَيَحْتَطِبَ، ثُمَّ يَجِيءَ، فَيَضَعَهُ فِي السُّوقِ، فَيَبِيعَهُ، ثُمَّ يَسْتَغْنِي بِهِ، فَيُنْفِقَهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ، أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ**»[(٢)].

قلتُ: انْفَرَدَ به البخاريُّ، وَاتَّفَقَا عَلَىٰ الَّذي قَبْلَهُ، وفِي حديث عبد الله بن عمرو عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**لا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ، وَلا لِذِي مِرَّةٍ سَوِيٍّ**»[(٣)].

والمِرَّةُ: القُوَّةُ. وَأَصْلُهَا مِنْ شِدَّةِ فَتْلِ الحَبْلِ، يقال: أَمْرَرْتُ الحَبْلَ: إذا أَحْكَمْتُ فَتْلَهُ. فَمَعْنَىٰ المِرَّةِ فِي الحديث: شِدَّةُ أمر الخَلْقِ، وَصِحَّةُ البَدَنِ الَّتي يكون معها احتمالُ الكَلِّ والتَّعَبِ.

قال الشافعيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِمَنْ يَجِدُ قُوَّةً يقدر بِها عَلَىٰ الكَسْبِ.

أخبرنا عبد الرحمن بن مُحمَّد القزاز، نا أبو بكر بن ثابت، أنبأنا سعد المالينيُّ قال: سَمِعْتُ أبا بكر مُحمَّد بن عبد الواحد الهاشميَّ، سمعتُ أبا الحسن يونسَ بن أبِي بكر

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٧٤)، ومسلم (١٠٤٠).

(٢) أخرجه البخاري (١٤١٧).

(٣) أخرجه أبو داود (١٦٣٤)، والترمذي (٦٥٢)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٢٥١).

الشبليَّ يقول: قام أبي ليلةً، فترَكَ فَرْدَ رِجْلٍ عَلَىٰ السَّطْحِ، والأُخْرَىٰ عَلَىٰ الدَّارِ، فَسَمِعْتُهُ يقول: لَئِنْ أَطْرَفْتَ لأَرْمِيَنَّ بك إِلَىٰ الدار. فَمَا زال عَلَىٰ تلك الحال حتَّىٰ أصبح، فلمَّا أصبح قال له: يا بنيَّ! ما سَمِعْتُ الليلةَ ذاكرًا لله عَزَّوَجَلَّ إلَّا ديكًا يساوي دانقين.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: هَذَا الرَّجُلُ قد جَمَعَ بين شَيْئَيْنِ لا يجوزان:

أَحَدُهُما: مُخاطَرَتُه بنفسه، فلو غلبه النَّوْمُ فَوَقَعَ، كان معينًا عَلَىٰ نَفْسِهِ، ولا شَكَّ أَنَّه لو رَمَىٰ بنفسه، كان قد أَتَىٰ مَعْصِيَةً عظيمةً، فتعرُّضُه للوقوع معصيةٌ.

والثاني: أنَّه مَنَعَ عَيْنَهُ حَظَّهَا مِنَ النَّوْمِ، وقد قال ﷺ: «إِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِزَوْجَتِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا»[1]. وقال: «إِذَا نَعِسَ أَحَدُكُم فَلْيَرْقُدْ»[2].

وَمَرَّ بِحَبْلٍ قَدْ مَدَّتْهُ زَيْنَبُ، فإذا فَتَرَتْ أَمْسَكَتْ به، فَأَمَرَ بِحِلِّهِ، وقال: «لِيُصَلِّ أَحَدُكُم نَشَاطَهُ، فَإِذَا كَسَلَ أو فتَرَ فَلْيَقْعُدْ»[3].

وقد تَقَدَّمَتْ هَذِهِ الأحاديثُ فِي كتابنا هذا.

أخبرنا مُحمَّد بن ناصر، نا أبو عبد الله الحميدي، نا أبو بكر الأردستانِي، ثنا أبو عبد الرحمن السلمي، قال: سَمِعْتُ أبا العبَّاس البغداديَّ يقول: كُنَّا نَصْحَبُ أبا الحسن بن أبي بكر الشِّبْلِيِّ ونحن أَحْدَاثٌ، فَأَضَافَنَا لَيْلَةً فَقُلْنَا: بِشَرْطِ ألا تُدْخِلَ علينا أباك. فقال: لا يدخل.

فَدَخَلْنَا دَارَهُ، فَلَمَّا أَكَلْنَا إذا نَحْنُ بالشِّبْلِيِّ وبين كُلِّ أُصْبُعَيْنِ من أصابعه شَمْعَةٌ -ثَمَانِ شُمُوعٍ- فَجَاءَ وَقَعَدَ وَسَطَنَا، فَاحْتَشَمْنَا منه، فقال: يا سَادَةُ عُدُّوني فيما بينكم طِسْتَ شُمُوعٍ.

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٧٥)، ومسلم (١١٥٩) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٢١٢)، ومسلم (٧٨٦) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) أخرجه البخاري (١١٥٠)، ومسلم (٧٨٤) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثُمَّ قال: أين غلامي أبو العبَّاس؟ فَتَقَدَّمَ إليه، فقال: غَنِّنِي الصَّوْتَ الَّذي كُنْتَ تُغَنِّي:

وَلَمَّا بَلَغَ الحِيرَةَ حَادِي جَمَلِي حَارَ
فَقُلْتُ احْطُطْ بِهَا رَحْلِي وَلا تَحْفَلْ بِمَنْ سَارَ

فَغَنَّيْتُهُ، فَتَغَيَّرَ، وَأَلْقَىٰ الشُّمُوعَ مِنْ يَدِهِ، وَخَرَجَ.

أخبرنا ابن ناصر، ثنا هبة الله بن عبد الله الواسطي، نا أبو بكر أحمد بن علي الحافظ، نا مُحمَّد بن أحمد بن أبي الفوارس، نا الحسين بن أحمد بن عبد الرحمن الصفار، قال: خرج الشِّبْلِيُّ يَوْمَ عِيدٍ، وقد حَلَقَ أشفارَ عَيْنَيْهِ وحاجِبَيْهِ وتَعَصَّبَ بِعِصَابَةٍ وهو يقول:

للنَّاسِ فِطْرٌ وَعِيدٌ إِنِّي فَرِيدٌ وَحِيدُ

أخبرنا عبد الرحمن بن مُحمَّد، نا أحمد بن علي بن ثابت، نا التنوخي، ثنا أبو الحسن علي بن مُحمَّد بن أبي صابر الدَّلَّال، قال: وَقَفْتُ عَلَىٰ الشِّبْلِيِّ فِي قُبَّةِ الشُّعَرَاءِ فِي جامع المنصور، والناس مُجتمعون عليه، فوقف عليه فِي الحلقة غلامٌ جَمِيلٌ، لَمْ يَكُنْ بِبَغْدَادَ فِي ذلك الوقت أَحْسَنُ وَجْهًا منه، يُعْرَفُ بِابْنِ مُسْلِمٍ، فقال له: تَنَحَّ. فلم يَبْرَحْ، فقال له الثانية: تَنَحَّ يا شيطانُ عَنَّا. فلم يَبْرَحْ، فقال له فِي الثالثة: تَنَحَّ وإِلَّا واللهِ خَرَقْتُ كُلَّ ما عليك. وكانت عليه ثيابٌ فِي غاية الحُسْنِ تُسَاوِي جملةً كثيرةً، فَانْصَرَفَ الفَتَىٰ، فقال الشبليُّ:

طَرَحُوا اللَّحْمَ للبُزَاةِ عَلَىٰ ذُرْوَتَيْ عَدَنْ
ثُمَّ لامُوا البُزَاةَ إِذْ خَلَعُوا مِنْهُمُ الرَّسَنْ
لَوْ أَرَادُوا صَلاحَنَا سَتَرُوا وَجْهَكَ الحَسَنْ

قال ابن عقيل: من قال هَذَا فقد أخطأ طَرِيقَ الشَّرْعِ؛ لأنَّه يقول: ما خَلَقَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ هَذَا الإنسانَ إِلَّا للافتتان به، وليس كذلك، وإنَّما خَلَقَهُ للاعتبارِ والامتحان؛ فإنَّ الشَّمْسَ خُلِقَتْ لِتُضِيءَ لا لِتُعْبَدَ.

وبإسنادٍ عن أحمد بن مُحمَّد النَّهاونديِّ يقول: مات للشِّبْلِيِّ ابنُ وَلَدٍ، كان اسمُهُ عَلِيًّا، فَجَزَّتْ أُمُّهُ شَعْرَهَا عليه، وكان للشِّبْلِيِّ لحيةٌ كبيرةٌ، فَأَمَرَ بِحَلْقِهَا جميعها، فقيل له: يا أستاذُ ما حَمَلَكَ عَلَىٰ هذا؟ فقال: جَزَّتْ هَذِهِ شَعْرَهَا عَلَىٰ مَفْقُودٍ، ألا أَحْلِقُ أنا لِحْيَتِي عَلَىٰ مَوْجُودٍ؟

وبإسنادٍ عن عبد الله بن علي السراج قال: ربَّما كان الشِّبْلِيُّ يلبس ثيابًا مُثَمَّنَةً، ثُمَّ يَنْزِعُهَا، وَيَضَعُهَا فَوْقَ النَّارِ.

قال: وَذُكِرَ عنه أنَّه أَخَذَ قِطْعَةَ عَنْبَرٍ، فَوَضَعَهَا عَلَىٰ النَّار يُبَخِّرُ بها ذَنَبَ الحمار.

وقال بعضُهم: دَخَلْتُ عليه، فَرَأَيْتُ بين يديه اللَّوْزَ والسُّكَّرَ يحرقه بالنَّار.

قال السراجُ: إنَّما أَحْرَقَهُ بالنَّار؛ لأنَّه كان يَشْغَلُهُ عن ذِكْرِ الله.

قلتُ: اعتذارُ السراج عنه أَعْجَبُ مِنْ فِعْلِهِ.

قال السراجُ: وَحُكِيَ عَنْهُ أنَّه بَاعَ عَقَارًا فَفَرَّقَ ثَمَنَهُ، وكان له عِيَالٌ فلم يدفع إليهم شيئًا، وسمع قارئًا يقرأ: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا﴾ [المؤمنون:١٠٨]، فقال: لَيْتَنِي كُنْتُ واحدًا منهم. قُلْتُ: وهَذَا الرَّجُلُ ظَنَّ أَنَّ الَّذي يُكَلِّمُهُم هو اللهُ تعالىٰ، واللهُ لا يكلِّمهم، ثُمَّ لو كَلَّمَهُم كلامَ إِهَانَةٍ، فَأَيُّ شَيْءٍ هَذَا حتَّىٰ يطلب؟

قال السراج: وقال الشِّبْلِيُّ يَوْمًا فِي مَجْلِسِهِ: إِنَّ للهِ عِبَادًا لو بَزَقُوا عَلَىٰ جهنَّم لأَطْفَئُوها.

قلتُ: وهَذَا من جِنْسِ ما ذَكَرْنَاهُ عن أبِي يزيد، وكلاهُما من إناءٍ واحدٍ.

وبإسنادٍ عن أبِي عليٍّ الدَّقَّاق يقول: بَلَغَنِي أنَّ الشِّبْلِيَّ اكْتَحَلَ بكذا وكذا من المِلْحِ؛ ليعتاد السَّهَرَ، ولا يأخذه النَّوْمُ.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وهَذَا فِعْلٌ قَبِيحٌ، لا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أن يُؤْذِي نَفْسَهُ، وهو سَبَبٌ للعَمَىٰ، ولا تَجُوزُ إِدَامَةُ السَّهَرِ؛ لأنَّ فيه إِسْقَاطَ حَقِّ النَّفْسِ، والظَّاهِرُ أنَّ دَوَامَ السَّهَرِ والتَّقَلُّلَ

من الطَّعام، أخرجه إِلَىٰ هَذِهِ الأحوال والأفعال.

وبإسنادٍ عن أبِي عبد الله الرازي، قال: كسانِي رَجُلٌ صُوفًا، فَرَأَيْتُ عَلَىٰ رأس الشِّبْلِيِّ قُلُنْسُوَةً تَلِيقُ بذلك الصُّوفِ، فَتَمَنَّيْتُهَا فِي نفسي، فَلَمَّا قام الشِّبْلِيُّ من مَجْلِسِهِ التفت إلَيَّ، فَتَبِعْتُهُ، وكان عادتُه إذا أراد أن أَتْبَعَهُ يَلْتَفِتُ إلَيَّ، فَلَمَّا دخل دارَه قال: انْزَعِ الصُّوفَ. فَنَزَعْتُهُ، فَلَفَّه وَطَرَحَ القُلُنْسُوَةَ عَلَيْهِ، ودعا بِنَارٍ فَأَحْرَقَهُمَا.

قلتُ: وقد حكىٰ أبو حامد الغزاليُّ أنَّ الشِّبْلِيَّ أَخَذَ خمسين دِينارًا، فرماها فِي دِجْلَةَ، وقال: ما أَعَزَّكِ أحدٌ إلَّا أَذَلَّهُ اللهُ. وأنا أَتَعَجَّبُ من أبِي حامدٍ أكثر من تَعَجُّبِي من الشِّبْلِيِّ؛ لأنَّه ذَكَرَ ذلك عَلَىٰ وَجْهِ المدح، لا عَلَىٰ وَجْهِ الإنكار، فأين أَثَرُ الفِقْهِ؟

وبإسنادٍ عن حسين بن عبد الله القزويني قال: حَدَّثَنِي من كان مجالسًا لِبَنَانٍ أنَّه قال: تَعَذَّرَ عَلَيَّ قوتِي يَوْمًا، وَلَحِقَنِي ضَرُورَةٌ، فَرَأَيْتُ قطعةَ ذهبٍ مطروحةً فِي الطَّرِيقِ، فَأَرَدْتُ أَخْذَهَا، فَقُلْتُ: لُقَطَةٌ. فَتَرَكْتُهَا، ثُمَّ ذَكَرْتُ الحديثَ الَّذي يُرْوَىٰ: «لَوْ أَنَّ الدُّنْيَا كَانَتْ دَمًا عَبِيطًا، لَكَانَ قُوتُ المُسْلِمِ مِنْهَا حَلالًا»[1]. فَأَخَذْتُهَا، وَتَرَكْتُهَا فِي فَمِي وَمَشِيتُ غَيْرَ بعيدٍ، فإذا أنا بحلقةٍ فيها صبيان، وأحدُهم يتكلَّم عليهم، فقال له واحدٌ: متَىٰ يَجِدُ العَبْدُ حقيقةَ الصِّدْقِ؟ فقال: إذا رَمَىٰ القِطْعَةَ من الشِّدْقِ. فأخرجتُها من فَمِي وَرَمَيْتُهَا.

قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ: لا تَخْتَلِفُ الفُقَهاءُ أَنَّ رَمْيَهُ إِيَّاهَا لا يجوز، والعَجَبُ أَنَّه رَمَاهَا بِقَوْلِ صَبِيٍّ لا يدري ما قال.

وقد حكىٰ أبو حامد الغزاليُّ أنَّ شَقِيقًا البلخيَّ جاء إِلَىٰ أبِي القاسم الزَّاهد، وفِي طَرَفِ كِسَائِهِ شَيْءٌ مَصْرُورٌ، فقال: أيُّ شَيْءٍ مَعَكَ؟ قال: لَوْزَاتٌ دَفَعَهَا إلَيَّ أَخٌ لي وقال: أُحِبُّ أن تُفْطِرَ عليها. فقال: يا شقيقُ، وأنت تُحَدِّثُ نَفْسَكَ أن تَبْقَىٰ إِلَىٰ اللَّيْلِ، لا

(١) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (٢١٢٨)، والشوكاني في «الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة» (ص ١٤٦).

كَلَّمْتُكَ أَبَدًا. فَأَغْلَقَ الباب فِي وَجْهِي وَدَخَلَ.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: انظروا إِلَىٰ هَذَا الفِقْهِ الدَّقيق، كيف هَجَرَ مسلمًا عَلَىٰ فِعْلٍ جَائِزٍ، بل مندوبٍ؛ لأنَّ الإنسانَ مَأْمُورٌ أن يَسْتَعِدَّ لنفسه بِما يُفْطَرُ عليه، واستعدادُ الشَّيْءِ قبل مَجِيءِ وَقْتِهِ حَزْمٌ، ولذلك قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾[الأنفال:٦٠].

وقد ادَّخر رسول الله ﷺ لأَزْوَاجِهِ قُوتَ سنة[1]، وجاء عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِنِصْفِ مَالِهِ، وَادَّخَرَ الباقي، ولَمْ يُنْكِرْ عليه؛ فالجَهْلُ بالعلم أَفْسَدَ هؤلاء الزُّهَّادَ.

وبإسنادٍ عن أحمد بن إسحاق العمانِيِّ قال: رأيتُ بالهِنْدِ شَيْخًا، وكان يُعْرَفُ بالصَّابِرِ، قد أَتَىٰ عليه مِائَةُ سَنَةٍ، قد غَمَّضَ إحدىٰ عَيْنَيْهِ، فقلتُ له: يا صابرُ، ما بَلَغَ من صَبْرِكَ؟ قال: إِنِّي هَوَيْتُ النَّظَرَ إِلَىٰ زينة الدُّنْيَا، فلم أُحِبَّ أن أَشْتَفِي منها، فَغَمَّضْتُ عَيْنِي منذ ثمانين سَنَةٍ فلم أَفْتَحْهَا.

وقد حُكِيَ لنا عن آخَرَ، أنَّه فَقَأَ إحدىٰ عينيه، وقال: النَّظَرُ إِلَىٰ الدُّنيا بعينين إسرافٌ.

قلتُ: كان قَصْدُهُ أن ينظر إِلَىٰ الدُّنْيَا بِفَرْدِ عينٍ، ونحن نسأل الله سلامة العقول.

وقد حكىٰ يُوسُفُ بن أيوب الهمذانِيُّ عن شيخه عبد الله الجوينِيِّ، أنَّه كان يقول: هَذِهِ الدولة ما أخرجتُها من المحراب! بل من موضع الخلاء.

وقال: كُنْتُ أَخْدِمُ فِي الخلاء، فبينما أنا يومًا أَكْنِسُهُ وَأُنَظِّفُهُ قالت لي نفسي: أَذْهَبْتَ عُمُرَكَ فِي هذا.

فقلتُ: أَنْتِ تَأْنَفِينَ من خدمة عباد الله.

فَوَسَّعْتُ رَأْسَ البئر، ورَمَيْتُ نَفْسِي فيها، وجَعَلْتُ أُدْخِلُ النَّجاسةَ فِي فمي، فجاءوا

(١) أخرجه البخاري (٥٣٥٧)، ومسلم (١٧٥٧) من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجوني وَغَسَلُونِي.

قلتُ: انظروا إِلَىٰ هَذَا المسكين، كيف اعتقد جَمْعَ الأصحاب خَلْفَهُ دولةً، واعتقد أَنَّ تلك الدولَةَ إِنَّما حَصَلَتْ بِإِلْقَاءِ نَفْسِهِ فِي النَّجَاسَةِ، وإدخالها فِي فيه، وقد نال بذلك فضيلةً أُثِيبَ عليها بكثرة الأصحاب، وهَذَا الَّذي فعله معصيةٌ تُوجِبُ العُقُوبَةَ.

وفِي الجُمْلَةِ: لَمَّا فَقَدَ هَؤُلاءِ العِلْمَ، كَثُرَ تَخْبِيطُهم.

وبإسنادٍ عن مُحمَّد بن علي الكتاني يقول: دَخَلَ الحُسَيْنُ بن منصور مَكَّةَ فِي ابتداءِ أَمْرِهِ، فجهدنا حتَّىٰ أخذنا مُرَقَّعَتَهُ.

قال السُّوسيُّ: أَخَذْنَا منها قَمْلَةً فَوَزَنَّاهَا، فإذا فيها نِصْفُ دانِقٍ من كثرة رياضته، وشدَّة مُجاهَدَتِهِ.

قلتُ: انظروا إِلَىٰ هَذَا الجاهل بالنَّظافة الَّتي حَثَّ عليها الشَّرْعُ، وأباح حَلْقَ الشَّعر المحظور عَلَىٰ المُحْرِمِ؛ لِأَجْلِ تَأَذِّيهِ من القَمْلِ، وَجَبَرَ الحَظْرَ بالفِدْيَةِ، وَأَجْهَلُ من هَذَا من اعتقد هَذَا رِيَاضَتَهُ.

وبإسنادٍ عن أبِي عبد الله بن مفلح يقول: كان عندنا فَقِيرٌ صُوفِيٌّ فِي الجامع، فَجَاعَ مَرَّةً جُوعًا شديدًا، فقال: يا رَبُّ إمَّا أن تُطْعِمَنِي، وإمَّا أن تَرْمِيَنِي بِشُرَفِ المسجد.

فجاء غُرَابٌ، فَجَلَسَ عَلَىٰ الشُّرَفِ، فَوَقَعَتْ عليه من تحت رِجْلِهِ آجرة، فَجَرَىٰ دمُه، وكان يَمْسَحُ الدَّمَ ويقول: إيش تبالِي بِقَتْلِ العالِم؟

قلتُ: قَتَلَ اللهُ هَذَا ولا أَحْيَاهُ فِي مقابلته هَذَا الاستنباط، هلَّا قام إِلَىٰ الكَسْبِ أو إِلَىٰ الكِدْيَةِ.

وبإسنادٍ عن غلامِ خليلٍ قال: رأيتُ فَقِيرًا يَعْدُو وَيَلْتَفِتُ ويقول: أُشْهِدُكُم عَلَىٰ الله هو ذا يَقْتُلُنِي. وَسَقَطَ مَيِّتًا.

فصل [الملامتية]

وفِي الصُّوفيَّةِ قَوْمٌ يُسَمَّوْنَ الملامتيَّة، اقتحموا الذُّنوب، وقالوا: مقصودُنا أن نَسْقُطَ من أعين النَّاس، فَنَسْلَمَ من الجَاهِ.

وهؤلاء قد أسْقَطُوا جاهَهم عندَ الله؛ لمخالفة الشَّرع.

قال: وفِي القوم طائفةٌ يُظْهِرُونَ مِنْ أَنْفُسِهم أقبحَ ما هم فيه، وَيَكْتُمُونَ أَحْسَنَ ما هم عليه.

وَفِعْلُهم هَذَا من أَقْبَحِ الأشياء، ولقد قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أَتَىٰ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ القَاذُورَاتِ، فَلْيَسْتَتِرْ بِسَتْرِ اللهِ**»[(١)].

وقال فِي حَقِّ مَاعِزٍ: «**هَلَّا سَتَرْتَهُ بِثَوْبِكَ يَا هَذَا؟**»[(٢)]. واجتاز عَلَىٰ رسول الله ﷺ بَعْضُ الصَّحابة، وهو يتكلَّم مع صفيَّة زَوْجَتِهِ، فقال له: «**إِنَّهَا صَفِيَّةُ**»[(٣)].

وقد عَلَّمَ الناسَ التَّجافي عَمَّا يُوجِبُ سُوءَ الظَّنِّ؛ فَإِنَّ المؤمنين شُهَدَاءُ اللهِ فِي الأرض.

وَخَرَجَ حذيفةُ إِلَىٰ الجُمُعَةِ، فَفَاتَتْهُ، فَرَأَىٰ النَّاس وهم راجعون، فَاسْتَتَرَ؛ لئلا يَسُوءَ ظَنُّ النَّاسُ به، وقد قَدَّمْنَا هذه.

وقال أبو بكر الصِّدِّيق لِرَجُلٍ قال له: إِنِّي لَمَسْتُ امْرَأَةً وَقَبَّلْتُهَا، فقال: تُبْ إِلَىٰ الله. ولا تُحَدِّثْ أحدًا بذلك.

وجاء رجلٌ إِلَىٰ النَّبيِّ ﷺ وقال: إِنِّي أَتَيْتُ من أجنبيَّةٍ ما دون الزِّنا يا رسول الله؟ قال:

---

(١) أخرجه مالك (١٥٦٢) من حديث زيد بن أسلم، وصححه الألباني فِي «الصحيحة» (٦٦٣).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٣٧٧) من حديث نعيم بن هذال رضي الله عنه وصححه الألباني فِي «صحيح الجامع» (٧٩٩٠).

(٣) أخرجه البخاري (٢٠٣٥)، ومسلم (٢١٧٥) من حديث صفية بنت حيي رضي الله عنها.

«أَلَمْ تُصَلِّ مَعَنَا؟ قال: بلىٰ يا رسول الله. قال: أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ الصَّلاتَيْنِ تُكَفِّرُ مَا بَيْنَهُمَا؟»(١).

وقال رَجُلٌ لبعض الصَّحابة: إِنِّي فَعَلْتُ كذا وكذا من الذُّنوب.

فقال: لقد سَتَرَ اللهُ عَلَيْكَ، لو سَتَرْتَ عَلَىٰ نَفْسِكَ.

فهؤلاء قد خالَفوا الشريعة، وأرادوا قَطْعَ ما جُبِلَتْ عليه النُّفوس.

وقد اندسَّ فِي الصُّوفيَّة أهل الإباحة، فتشبَّهوا بِهم؛ حفظًا لدمائهم، وهم ينقسمون إِلَىٰ ثلاثة أقسام:

القسم الأول: كُفَّارٌ.

فمنهم: قومٌ لا يُقِرُّون بالله ﷻ.

ومنهم: من يُقِرُّ به، ولكن يَجْحَدُ النُّبُوَّةَ، ويرىٰ أَنَّ ما جاء به الأنبياءُ مُحَالٌ، وهؤلاء لَمَّا أرادوا إمراحَ أَنْفُسِهِم فِي شهواتِها، لَمْ يَجِدُوا شَيْئًا يَحْقِنُون به دماءَهم، ويستترون به، وينالون فيه أغراضَ النُّفوس، كمذهب التَّصَوُّفِ، فدخلوا فيه ظاهرًا وهم فِي الباطن كَفَرَةٌ، وليس لهؤلاء إِلَّا السَّيْفُ لَعَنَهُمُ اللهُ.

والقسم الثانِي: قَوْمٌ يُقِرُّون بالإسلام، إِلَّا أَنَّهم ينقسمون قسمين:

القسم الأول: يقلِّدون فِي أفعالِهم لشيوخهم، من غير اتِّباع دليلٍ ولا شُبْهَةٍ، فهم يفعلون ما يأمرونَهم به وما رأوهم عليه.

القسم الثالث: قَوْمٌ عَرَضَتْ لَهم شُبُهَاتٌ، فَعَمِلُوا بِمُقْتَضَاهَا، والأصلُ الَّذي نَشَأَتْ منه شُبُهَاتُهم، أَنَّهم لَمَّا هَمُّوا بالنَّظَرِ فِي مذاهب الناس، لَبَّسَ عليهم إبليسُ، فأراهم أَنَّ الشُّبْهَةَ تُعَارِضُ الحُجَجَ، وأَنَّ التَّمْيِيزَ يَعْسُرُ، وأَنَّ المقصودَ أجلُّ من أن يُنَالَ بالعلم، وَإِنَّما الظَّفَرُ به

(١) أخرجه البخاري (٦٨٢٣)، ومسلم (٢٧٦٤) من حديث أنس رضي الله عنه.

رزقٌ يُسَاقُ إِلَىٰ العبد لا بالطَّلَبِ، فَسَدَّ عليهم باب النَّجَاةِ الَّذي هو طَلَبُ العلم، فصاروا يُبْغِضُونَ اسم العلم كما يُبْغِضُ الرَّافِضِيُّ اسْمَ أَبِي بكرٍ وعُمَرَ.

ويقولون: العِلْمُ حجابٌ، والعلماء مُحَجوبون عن المقصود بالعلم.

فإن أنكر عليهم عالمٌ، قالوا لأتباعهم: هَذَا موافقٌ لنا فِي الباطن، وإنَّما يظهر ضِدٌّ ما نحن فيه للعَوَامِّ الضِّعَافِ العقول، فإن جَدَّ فِي خلافهم قالوا: هَذَا أَبْلَهُ مُقَيَّدٌ بقيودِ الشَّرِيعَةِ مَحجوبٌ عن المقصود.

ثُمَّ عَمِلُوا عَلَىٰ شُبُهَاتٍ وَقَعَتْ لَهم، ولو فَطِنُوا لَعَلِمُوا أنَّ عَمَلَهُم بِمُقْتَضَىٰ شُبُهَاتِهم عِلْمٌ، فقد بَطَلَ إنكارُهم العِلْمَ، وأنا أذكر شُبُهَاتِهم، وَأَكْشِفُهَا إن شاء الله تعالىٰ، وهي سِتُّ شُبُهَاتٍ:

الشُّبْهَةُ الأولىٰ: أنَّهم قالوا: إذا كانت الأمور مُقَدَّرَةً فِي القِدَمِ، وَأنَّ أقوامًا خُصُّوا بالسَّعادة، وأقوامًا بالشَّقاوة، والسَّعيدَ لا يَشْقَىٰ، والشَّقِيَّ لا يَسْعَدُ، والأعمالَ لا تُرَادُ لِذَاتِها، بل لاجتلابِ السَّعَادَةِ، وَدَفْعِ الشَّقَاوَةِ، وقد سَبَقَنَا وُجُودُ الأعمال، فلا وَجْهَ لإتعابِ النَّفْسِ فِي عَمَلٍ، ولا نكفُّها عن ملذوذٍ؛ لأنَّ المكتوبَ فِي القَدَرِ وَاقِعٌ لا محالةَ.

والجوابُ عن هَذِهِ الشُّبْهَةِ، أن يُقَالَ لَهم: هَذِهِ رَدٌّ لِجَمِيعِ الشَّرائع، وإبطالٌ لجميع أحكام الكتب، وَتَبْكِيتٌ للأنبياء كلِّهم فيما جاءوا به؛ لأنَّه إذا قال فِي القرآن: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الأنعام:٧٢]، قال القائل: لماذا؟ إن كُنْتُ سَعِيدًا فَمَصِيري إِلَىٰ السَّعادة، وإن كُنْتُ شَقِيًّا فمصيري إِلَىٰ الشَّقاوة، فما تنفعني إقامةُ الصلاة؟!

وكذلك إذا قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء:٣٢].

ويقول القائل: لماذا أَمْنَعُ نَفْسِي ملذوذَها، والسَّعادةُ والشَّقاوةُ مَقْضِيَّتَانِ قد فُرِغَ منهما، وكان لفرعون أن يقول لموسىٰ حين قال له: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾ [النازعات:١٨] مِثْلَ هَذَا

الكلام، ثُمَّ يَتَرَقَّىٰ إِلَىٰ الخالق فيقول: ما فائدة إرسال الرُّسُلِ وسيجري ما قَدَّرَهُ؟ وما يُفْضِي إِلَىٰ ردِّ الكتب وتجهيل الرُّسُلِ مُحَالٌ بَاطِلٌ، ولِهَذَا كان رَدُّ الرَّسول ﷺ عَلَىٰ أصحابه حين قالوا: أَلَا نَتَّكِلُ؟ فقال: «اعْمَلُوا، فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ»(١).

واعْلَمْ أنَّ للآدميِّ كَسْبًا هو اختيارٌ، فَعَلَيْهِ يقع الثَّوَابُ والعقابُ، فإذا خَالَفَ تَبَيَّنَ لنا أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قَضَىٰ فِي السَّابِقِ بأن يُخَالِفَهُ، وإنَّما يُعَاقِبُهُ عَلَىٰ خِلافِهِ، لا عَلَىٰ قضائه، ولِهَذَا يَقْتُلُ القاتلُ، ولا يُعْتَذَرُ له بالقَدَرِ، وإنَّما رَدَّهُمُ الرَّسُولُ عن ملاحظة القَدَرِ إِلَىٰ العمل؛ لأنَّ الأَمْرَ والنَّهْيَ حالٌ ظاهرٌ، والمُقَدَّرُ من ذلك أَمْرٌ باطنٌ، وليس لنا أن نَتْرُكَ ما عرفناه من تكليفٍ، إِلَىٰ ما لا نَعْلَمُهُ من المَقْضِيِّ.

وقولُه: «فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ» إشارةٌ إِلَىٰ أسباب القَدَرِ؛ فَإِنَّهُ مَنْ قُضِيَ له بالعلم، يُسِّرَ لَهُ طَلَبُهُ وحبُّه وفَهْمُهُ، ومن حُكِمَ له بالجَهْلِ، نُزِعَ حُبُّ العلم من قَلْبِهِ، وكذلك مَنْ قُضِيَ له بِوَلَدٍ، يُسِّرَ له النِّكاحُ، ومن لَمْ يُقْضَ له بولدٍ لَمْ يُيَسَّرْ له.

الشبهة الثانية: أنَّهم قالوا: إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ مُسْتَغْنٍ عن أعمالنا غيرُ مُتَأَثِّرٍ بِها، معصيةً كانت أو طاعةً، فلا ينبغي أن نُتْعِبَ أنفسَنا فِي غير فائدة.

وجوابُ هَذِهِ الشُّبْهَةِ أن نُجِيبَ أَوَّلًا بالجواب الأوَّل، ونقول: هَذَا ردٌّ عَلَىٰ الشَّرْعِ فيما أَمَرَ به، فَكَأَنَّا قُلْنَا للرسول وللمُرْسِلِ: لا فائدةَ فيما أَمَرْتَنَا به. ثُمَّ نتكلَّم عن الشُّبْهَةِ فنقول:

من يتوهَّم أنَّ الله -جل وعلا- ينتفع بطاعةٍ أو يتضرَّر بمعصيةٍ، أو ينال بذلك غرضًا، فما عَرَفَ الله جَلَّجَلَالُهُ لأنَّه مُقَدَّسٌ عن الأغراض، ومن انتفاعٍ أو ضررٍ، وإنَّما نَفْعُ الأَعْمَالِ تَعُودُ عَلَىٰ أَنْفُسِنَا، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾ [العنكبوت:٦]، ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾[فاطر:١٨]، وإنَّما يَأْمُرُ الطَّبِيبُ المَرِيضَ بالحميةِ لمصلحة المريض، لا

(١) أخرجه البخاري (٤٩٤٥)، ومسلم (٢٦٤٧) من حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لمصلحة الطَّبِيبِ، وكما أنَّ للبَدَنِ مَصَالِحَ من الأغذية، ومضارَّ، فللنَّفْسِ مصالحُ من العلم والجَهْلِ والاعتقاد والعمل، فالشَّرْعُ كالطَّبِيبِ، فهو أَعْرَفُ بِما يَأْمُرُ به من المصالح.

هَذَا مَذْهَبُ مَنْ عَلَّلَ، وأكثرُ العلماء قالوا: أَفْعَالُهُ لا تُعَلَّلُ.

وجوابٌ آخَرُ: وهو أنَّه إذا كان غَنِيًّا عن أعمالنا، كان غنيًّا عن معرفتنا له، وقد أَوْجَبَ علينا مَعْرِفَتَهُ، فكذلك أوجب طَاعَتَهُ، فينبغي أن تَنْظُرَ إِلَىٰ أَمْرِهِ لا إِلَىٰ الغَرَضِ بِأَمْرِهِ.

الشُّبْهَةُ الثالثة: قالوا: قد ثَبَتَ سَعَةُ رحمة الله ﷻ وهي لا تَعْجَزُ عَنَّا، فلا وَجْهَ لِحِرْمَانِ نُفُوسِنَا مرادَها.

فالجوابُ كالجواب الأوَّلِ؛ لأنَّ هَذَا القَوْلَ يتضمَّن اطِّرَاحَ ما جاء به الرُّسُلُ من الوَعِيدِ، وَتَهْوِينَ ما شَدَّدَتْ فِي التَّحْذِيرِ منه فِي ذلك، وَبَالَغَتْ فِي ذِكْرِ عِقَابِهِ.

ومِمَّا يَكْشِفُ التَّلْبِيسَ فِي هَذَا أنَّ الله ﷯ كما وَصَفَ نَفْسَهُ بالرَّحمة، وَصَفَهَا بشديد العقاب، ونحن نرىٰ الأولياء والأنبياء يُبْتَلُون بالأمراض والجوع، ويؤخَذون بالزَّلَلِ، وكيف وقد خافه مَنْ قُطِعَ له بالنَّجَاةِ؟

فالخليلُ يقول يومَ القيامة: نفسي نفسي. والكَلِيمُ يقول: نفسي نفسي. وهَذَا عُمَرُ ﷺ يقول: الوَيْل لعمر إن لَمْ يُغْفَرْ له.

واعلم أَنَّ من رجا الرَّحْمَةَ تَعَرَّضَ لأسبابِها؛ فَمِنْ أَسْبَابِها التَّوْبَةُ من الزَّلَلِ، كما أنَّ مَنْ رَجَا أن يَحْصُدَ زَرَع، وقد قال الله ﷯: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:٢١٨]، يعنِي: أنَّ الرَّجَاءَ بِهؤلاء يَلِيقُ، وَأَمَّا المُصِرُّون عَلَىٰ الذُّنوبِ، وهم يرجون الرَّحْمَةَ، فَرَجَاؤُهم بَعِيدٌ، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «**الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ، وَالعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا،**

وَتَمَنَّىٰ عَلَىٰ اللهِ الأَمَانِيَّ»[١].

وقد قال معروف الكرخيُّ: رَجَاؤُكَ لِرَحْمَةِ من لا تُطِيعُهُ خُذْلانٌ وَحُمْقٌ.

واعلم أنَّه ليس فِي الأفعال الَّتي تَصْدُرُ من الحق ﷻ ما يُوجِبُ أن يُؤْمَنَ عقابُه، إنَّما فِي أفعاله ما يَمْنَعُ اليَأْسَ مِنْ رَحْمَتِهِ، وكما لا يَحْسُنُ اليأسُ لما يظهر من لُطْفِهِ فِي خَلْقِهِ، لا يَحْسُنُ الطَّمَعُ لما يَبْدُو من أَخَذَانِهِ وانتِقَامِهِ؛ فَإِنَّ مَنْ قَطَعَ أَشْرَفَ عضوٍ بِرُبْعِ دِينَارٍ، لا يُؤْمَنُ أن يكون عِقَابُهُ غدًا هكذا.

الشبهة الرابعة: أَنَّ قَوْمًا منهم وَقَعَ لَهم أَنَّ المُرَادَ رِيَاضَةُ النُّفُوسِ، لِتَتَخَلَّصَ مِنْ أَكْدَارِهَا المُرْدِيَةِ، فلمَّا رَاضَوْهَا مُدَّةً وَرَأَوا تَعَذُّرَ الصَّفَاءِ قالوا: ما لنا نُتْعِبُ أنفسَنا فِي أمرٍ لا يَحْصُلُ لِبَشَرٍ؟ فَتَرَكُوا العملَ.

وكشف هَذَا التَّلبيس أنَّهم ظَنُّوا أنَّ المرادَ قَمْعُ ما فِي البَوَاطِنِ، مِنَ الصِّفَاتِ البَشَرِيَّةِ، مثل: قَمْعِ الشَّهْوَةِ، والغضب، وغير ذلك، وليس هَذَا مرادَ الشَّرْعِ، ولا يُتَصَوَّرُ إِزَالَةُ مَا فِي الطَّبْعِ بالرِّيَاضَةِ، وإنَّما خُلِقَتِ الشَّهواتُ لفائدةٍ؛ إِذْ لولا شَهْوَةُ الطَّعَامِ هَلَكَ الإنسانُ، ولولا شَهْوَةُ النِّكَاحِ انْقَطَعَ النَّسْلُ.

ولولا الغَضَبُ لَمْ يَدْفَعِ الإنسانُ عَنْ نَفْسِهِ ما يُؤْذِيهِ، وكذلك حُبُّ المَالِ مركوزٌ فِي الطِّبَاعِ؛ لأنَّه يُوَصِّلُ إِلَىٰ الشَّهوات، وإنَّما المرادُ من الرياضة كفُّ النَّفْسِ عمَّا يؤذي من جميع ذلك، وَرَدُّهَا إِلَىٰ الاعتدال فيه، وقد مَدَحَ اللهُ ﷻ من نَهىٰ النَّفْسَ عن الهَوَىٰ، وإنَّما تَنْتَهِي عَمَّا تطلبه، ولو كان طَلَبُهُ قد زال عن طَبْعِهَا، احتاج الإنسانُ إِلَىٰ نَهْيِهَا، وقد قال الله ﷻ: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾ [آل عمران:١٣٤]، وما قال: والفاقدين الغيظَ.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٥٩)، وابن ماجه (٤٢٦٠) من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٤٣٠٥).

والكَظْمُ: رَدُّ الغَيْظِ. يُقَالُ: كَظَمَ البَعِيرُ عَلَىٰ جِرَّتِهِ: إِذَا رَدَّهَا فِي حَلْقِهِ.

فَمَدَحَ من رَدَّ النَّفْسَ عن العمل بِمقتضىٰ هَيَجَانِ الغَيْظِ؛ فَمَنِ ادَّعَىٰ أَنَّ الرِّياضة تَغَيِّرُ الطِّبَاعِ ادَّعَىٰ المُحَالَ، وإنَّما المقصود بالرِّياضة كَسْرُ شَرَهِ شَهْوَةِ النَّفس والغضب، لا إِزَالَةُ أَصْلِهَا، والمُرْتَاضُ كالطَّبيب العاقل عند حضور الطَّعام، يَتَنَاوَلُ ما يُصْلِحُهُ، ويَكُفُّ عَمَّا يؤذيه، وعادمُ الرِّياضةِ كالصَّبِيِّ الجاهل، يأكل ما يشتهي، ولا يُبَالِي بِمَا جَنَىٰ.

الشُّبْهَةُ الخامسة: أَنَّ قَوْمًا مِنْهُم أداموا عَلَىٰ الرِّياضة مُدَّةً، فرأوا أَنَّهم قد تجوهروا، فقالوا: لا نُبَالِي الآنَ عَمَّا عَمِلْنَا، وإِنَّما الأوامرُ والنَّوَاهِي رسومٌ للعوامِّ، ولو تجوهروا لَسَقَطَتْ عنهم، قالوا: وحاصلُ النُّبُوَّةِ تَرْجِعُ إِلَىٰ الحِكْمَةِ والمصلحة، والمرادُ منها ضَبْطُ العوامِّ، ولسنا من العَوَامِّ، فندخل فِي حَجْرِ التَّكليف؛ لأنَّا قد تجوهرنا وعرفنا الحكمة.

وهؤلاء قد رَأَوا أَنَّ مِنْ أَثَرِ جَوْهَرِهِم ارتفاعَ الحَمِيَّةِ عنهم، حتَّىٰ إِنَّهم قالوا: إِنَّ رُتْبَةَ الكمال لا تَحْصُلُ إِلَّا لمن رأىٰ أَهْلَهُ مع أجنبيٍّ، فلم يَقْشَعِرَّ جِلْدُهُ، فَإِنِ اقْشَعَرَّ جلدُه فهو مُلْتَفِتٌ إِلَىٰ حظِّ نفسه، ولَمْ يُكْمِلْ بعدُ؛ إذ لو كَمُلَ لماتت نفسُه فسمَّوُا الغيرةَ نفسًا، وسمَّوا ذهابَ الحَمِيَّةِ الَّذي هو وَصْفُ المخانيث كَمَالَ الإيمان.

قد ذَكَرَ ابنُ جَرِير فِي «تاريخه» أَنَّ الرَّاونديَّةَ كانوا يستحلُّون الحُرُمَاتِ، فيدعو الرجلُ منهم الجماعةَ إِلَىٰ بيته، فيطعمهم ويسقيهم، ويحملهم عَلَىٰ امرأته.

وَكَشْفُ هَذِهِ الشُّبْهَةِ أَنَّه ما دامت الأشباحُ قائمةً، فلا سَبِيلَ إِلَىٰ تَرْكِ الرُّسُومِ الظَّاهرة من التَّعَبُّدِ؛ فإِنَّ هَذِهِ الرُّسُومَ وُضِعَتْ لمصالح النَّاس، وقد يَغْلُبُ صَفَاءُ القَلْبِ عَلَىٰ كَدَرِ الطَّبْعِ، إِلَّا أَنَّ الكَدَرَ يَرْسُبُ مع الدَّوَامِ عَلَىٰ الخير وَيَرْكُدُ، فَأَقَلُّ شيءٍ يُحَرِّكُهُ، كالْمَدَرَةِ تَقَعُ فِي الماء الَّذي تَحْتَهُ حَمَأَةٌ، وما مِثْلُ هَذَا الطَّبْعِ إِلَّا كالماء، يجري بسفينة النَّفْسِ، والعقلُ مِدَادٌ، ولو أَنَّ المِدَادَ مُدَّ عشرين فرسخًا ثُمَّ أُهْمِلَ، عادت السَّفِينَةُ تَنْحَدِرُ.

وَمَنِ ادَّعَىٰ تَغَيُّرَ طَبْعِهِ كَذَبَ، ومن قال: إنِّي لا أنظر إلَىٰ المُسْتَحْسَنَاتِ بشهوةٍ، لَمْ يُصَدَّقْ، كيف وهؤلاء لو فاتَتْهم لقمةٌ أو شَتَمَهُم شاتمٌ، تَغَيَّروا؟

فأين تأثيرُ العقل والهَوَىٰ يقودُهم؟! وقد رأينا أقوامًا منهم يُصَافِحُونَ النِّسَاءَ، وقد كان رسول الله ﷺ وهو المعصومُ لا يُصَافِحُ المرأة(١).

وَبَلَغَنَا عن جَماعةٍ منهم أنَّهم يؤاخون النِّساءَ، وَيَخْلُونَ بِهِنَّ، ثُمَّ يَدَّعون السَّلامَةَ، وقد رَأَوا أنَّهم يَسْلَمُون عن الفاحشة، وهيهات، فأين السَّلامَةُ مِنْ إِثْمِ الخَلْوَةِ المُحَرَّمَةِ، والنظر الممنوع منه؟ وأين الخَلاصُ مِنْ جَوَلانِ الفِكْرِ الرَّدِيءِ؟

وقد قال عمرُ بن الخَطَّاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: لو خَلا عَظْمَانِ نَخِرَانِ، لَهَمَّ أَحَدُهُم بالآخَرِ. يُشِيرُ إلَىٰ الشَّيْخِ والعَجُوزِ.

وبإسنادٍ عن ابن شاهين قال: ومن الصُّوفِيَّةِ قومٌ أَبَاحُوا الفُرُوجَ، بِادِّعَاءِ الأُخُوَّةِ، فيقول أَحَدُهُم للمرأة: تُوَاخِينِي عَلَىٰ تَرْكِ الاعتراض فيما بيننا.

قلتُ: وقد رَوَىٰ لنا أبو عبد الله مُحمَّد بن علي الترمذي الحكيمُ فِي كتاب «رياضة النُّفوس» قال: روي لنا أنَّ سهلَ بن علي المروزيَّ كان يقول لامرأةِ أخيه وهي معه فِي الدَّار: اسْتَتِرِي مِنِّي زَمَانًا. ثُمَّ قال لَها: كُونِي كَيْفَ شِئْتِ.

قال الترمذي: وكان ذلك منه حين وَجَدَ شَهْوَتَهُ قَلَّتْ.

أَمَّا مَوْتُ الشَّهْوَةِ، هَذَا لا يُتَصَوَّرُ مع حياةِ الآدميِّ، وإنَّما يَضْعُفُ، والإنسانُ قد يَضْعُفُ عن الجماع، ولكنه يَشْتَهِي اللَّمْسَ والنَّظَرَ.

ثُمَّ يُقَدَّرُ أنَّ جميع ذلك ارتفع عنه، أليس نَهَىٰ الشَّرْعُ عن النَّظر؟ والنَّظرُ بَاقٍ، وهو عَامٌّ.

---

(١) أخرجه أحمد (٦٩٥٩) من حديث ابن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وحسنه الألباني فِي «صحيح الجامع» (٤٨٥٦).

وقد أخبرنا ابنُ ناصر بإسنادٍ عن أبِي عبد الرحمن السلميّ قال: قيل لأبِي نصر النصر آباذي: إِنَّ بَعْضَ النَّاسِ يُجَالِسُ النِّسْوَانَ، ويقول: أنا معصومٌ فِي رُؤْيَتِهِنَّ.

فقال: ما دَامَتِ الأَشْبَاحُ قَائِمَةً، فإِنَّ الأَمْرَ والنَّهْيَ بَاقٍ، والتَّحليل والتَّحريم مُخاطَبٌ به، ولن يَجْتَرِئَ عَلَىٰ الشُّبُهَاتِ إِلَّا مَنْ يَتَعَرَّضُ للمحرَّمات.

وقد قال أبو علي الروذباري، وَسُئِلَ عَمَّنْ يقول: وَصَلْتُ إِلَىٰ دَرَجَةٍ لا تؤثِّر فِيَّ اختلافُ الأحوال، فقال: قد وَصَلَ، ولكن إِلَىٰ سَقَرَ.

وبإسنادٍ عن الجريري، يقول: سمعت أبا القاسم الجنيد يقول لرجل ذكر المعرفة، فقال الرجل: أهلُ المعرفة بالله يَصِلُون إِلَىٰ تَرْكِ الحركات من باب البِرِّ والتَّقَرُّبِ إِلَىٰ الله عَزَّوَجَلَّ.

فقال الجنيد: إِنَّ هَذَا قَوْلُ قَوْمٍ تكلَّموا بإسقاط الأعمال، وهَذِهِ عندي عظيمةٌ، والَّذي يَسْرِقُ ويزني أَحْسَنُ حالًا من الَّذي يقول هذا، وإِنَّ العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله، وإليه رجعوا فيها، ولو بَقِيتُ أَلْفَ عَامٍ، لَمْ أَنْقُصْ من أعمالِ البِرِّ ذَرَّةً، إِلَّا أن يُحَالَ بي دُونَها؛ لأَنَّه أَوْكَدُ فِي مَعْرِفَتِي به، وأقوىٰ فِي حالِي.

وبإسنادٍ عن أبِي مُحمَّد المرتعش يقول: سَمِعْتُ أبا الحسين النُّوريَّ يقول: مَنْ رَأَيْتَهُ يدَّعي مع الله عَزَّوَجَلَّ حالةً تُخرِجُهُ عن حَدِّ علمٍ شَرْعِيٍّ، فلا تَقْرَبَنَّهُ، ومن رأيتَه يَدَّعِي حالةً باطنةً لا يَدُلُّ عليها ويَشْهَدُ لَها حِفْظٌ ظَاهِرٌ، فاتَّهِمْه عَلَىٰ دينه.

الشبهة السادسة: أَنَّ أَقْوَامًا بالَغُوا فِي الرِّياضة، فرأوا ما يشبه نوع كراماتٍ أو مناماتٍ صالحةٍ، أو فُتِحَ عليهم كلماتٌ لطيفةٌ أَثْمَرَهَا الفِكْرُ والخَلْوَةُ، فاعتقدوا أَنَّهم قد وصلوا إِلَىٰ المقصود، وقد وَصَلْنَا فما يضرُّنا شيءٌ، ومن وَصَلَ إِلَىٰ الكعبة انْقَطَعَ عن السَّيْرِ، فتركوا الأعمالَ، إِلَّا أَنَّهم يُزَيِّنُونَ ظَوَاهِرَهُم بالمُرَقَّعَةِ والسَّجَّادة والرَّقْصِ والوَجْدِ، ويتكلَّمون بعباراتِ الصُّوفيَّة فِي المعرفة والوَجْدِ والشَّوْقِ.

وجوابُهم: هو جوابُ الَّذين قبلَهم.

قال ابن عقيل: اعلم أنَّ النَّاسَ شَرَدُوا عَلَىٰ الله عَزَّوَجَلَّ وَبَعَدُوا عن وَضْعِ الشَّرْعِ إِلَىٰ أوضاعهم المُخْتَرَعَةِ.

فمنهم: مَنْ عَبَدَ سِوَاهُ تعظيمًا له عن العبادة، وجعلوا تلك وَسَائِلَ عَلَىٰ زعمهم.

ومنهم: من وحَّد إلَّا أنَّه أسقط العبادات، وقال: هَذِهِ أشياءٌ نُصِبَتْ للعَوَامِّ لِعَدَمِ المعارف. وهَذَا نَوْعُ شِرْكٍ؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لَمَّا عُرِفَ أنَّ معرفتَه ذاتُ قَعْرٍ بعيدٍ، وجوٌّ عالٍ، وبعيدٌ أن يَتَّقِي من لَمْ يعرف خوفَ النَّار؛ لأنَّ الخَلْقَ قد عرفوا قَدْرَ لَذْعِهَا، وقال لأهل المعرفة: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران:٢٨] وعُلِمَ أنَّ المتعبَّداتِ أَكْثَرُهَا تَقْتَضِي الأُنْسَ بالأمثال، وَوَضْعَ الجهات والأمكنة والأبنية والحجارة للإنساك والاستقبال، فأبان عن حقائق الإيمان به فقال: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٧٧]، وقال: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ [الحج:٣٧] -فعُلِمَ أنَّ المُعَوَّلَ عَلَىٰ المقاصد، ولا يكفي مُجرَّدُ المعارف من غير امتثالٍ، كما تُعَوِّلُ عليه الملحدةُ الباطنيَّةُ وشُطَّاحُ الصُّوفيَّة.

وبإسنادٍ عن أبِي القاسم بن علي بن المحسن التنوخي عن أبيه قال: أخبرني جَماعةٌ من أهل العلم أنَّ بِشِيرَازَ رَجُلًا يُعْرَفُ بابن خفيف البغداديِّ شيخ الصُّوفيَّة هناك، يَجْتَمِعُونَ إليه، ويتكلَّم عَلَىٰ الخَطَرَاتِ والوساوس، وَيَحْضرُ حَلْقَتَهُ ألوفٌ من الناس، وأنَّه فَارِهٌ فَهِمٌ حَاذِقٌ، فاستغوىٰ الضُّعَفَاءَ من الناس إِلَىٰ هَذَا المذهب.

قال: فمات رجلٌ منهم من أصحابه، وَخَلَّفَ زَوْجَةً صوفيَّةً، فَاجْتَمَعَ النِّسَاءُ الصُّوفيَّاتُ، وهُنَّ خَلْقٌ كثير، ولَمْ يختلط بمأتمهنَّ غيرُهُنَّ، فلمَّا فرغوا من دَفْنِهِ دخل ابن خفيف، وخَوَاصُّ أصحابه -وهم عَدَدٌ كَثِيرٌ- إِلَىٰ الدَّارِ، وَأَخَذَ يُعَزِّي المرأةَ بكلام الصُّوفيَّة، إِلَىٰ أن قالت: قد تَعَزَّيْتُ.

فقال لَها: هاهنا غَيْرٌ. فقالت: لا غَيْرَ. قال: فما معنىٰ إلزام النُّفوس آفاتِ الغموم، وتعذيبِها بعذاب الهموم؟ ولأيِّ معنىٰ نترك الامتزاج لتلتقي الأنوار، وتصفو الأرواح، وتقع الإخلافات، وتنْزل البركات؟

قال: فَقُلْنَ النِّساءُ: إذا شِئْتَ.

قال: فاختلط جماعةُ الرِّجَالِ بِجَمَاعَةِ النِّساء طولَ ليلتهم، فلمَّا كان سَحَرٌ خرجوا.

قال المحسن: قَوْلُهُ: هاهنا غَيْرٌ. أي: هاهنا غيرٌ مُوَافِقٌ المَذْهَبَ.

فقالت: لا غَيْرَ. أي: غَيْرًا مخالفًا.

وقولُه: نترك الامتزاج. كنايةٌ عن الممازَجَةِ فِي الوَطْءِ.

وقولُه: لتلتقي الأنوار. عندهم أنَّ فِي كُلِّ جِسْمٍ نُورًا إلهيًّا.

وقولُه: الإخلافات. أي: يكون لَكُنَّ خَلَفٌ مِمَّن مات أو غاب من أزواجكنَّ.

قال المحسنُ: وهَذَا عندي عَظِيمٌ، ولولا أنَّ جَماعَةً يُخْبِرُونني يَبْعُدُونَ عن الكذب ما حَكَيْتُهُ؛ لِعِظَمِهِ عِنْدِي، واسْتِبْعَادِ مِثْلِهِ أن يجري فِي دار الإسلام.

قال: وَبَلَغَنِي أنَّ هَذَا وَمِثْلَهُ شاع حتَّىٰ بلغ عَضُدَ الدَّولة، فَقَبَضَ عَلَىٰ جَماعةٍ منهم، وضربَهم بالسِّيَاطِ، وَشَرَّطَ جُمُوعَهم، فَكَفُّوا.

ولمَّا قَلَّ عِلْمُ الصُّوفِيَّةِ بالشَّرْعِ، فَصَدَرَ منهم من الأفْعَال والأقوال ما لا يَحِلُّ مثل ما قد ذكرنا، ثُمَّ تَشَبَّهَ بهم مَنْ ليس منهم، وَتَسَمَّىٰ بأسمائِهم، وَصَدَرَ عنهم مِثْلُ ما قد حَكَيْنَا، وكان الصَّالحُ منهم نادرًا، ذَمَّهُم خَلْقٌ من العُلَماء وَعَابوهم حتَّىٰ عَابُوهمْ مشائخُهم.

وبإسنادٍ عن عبد الملك بن زياد النصيبيّ قال: كُنَّا عند مالكٍ، فَذَكَرْتُ له صوفيِّين فِي بلادنا، فقلتُ له: يَلْبَسُونَ فَوَاخِرَ ثياب اليَمَنِ، ويفعلون كذا. قال: وَيْحَكَ! وَمُسْلِمُون هُم؟ قال: فَضَحِكَ حتَّىٰ اسْتَلْقَىٰ، قال: فقال لي بَعْضُ جُلَسَائِهِ: يا هَذَا، ما رأينا أعظم فِتْنَةً عَلَىٰ

هَذَا الشَّيخ منك، ما رأيناه ضاحكًا قَطُّ.

وبإسنادٍ عن يونس بن عبد الأعَلَىٰ قال: سَمِعْتُ الشَّافِعِيَّ يقول: لو أَنَّ رَجُلًا تَصَوَّفَ أَوَّلَ النَّهَارِ، لا يأتِي الظُّهْرُ حتَّىٰ يصير أَحْمَقَ.

وَعَنْه أيضًا أنَّه قال: ما لَزِمَ أَحَدٌ الصُّوفِيَّةَ أربعين يَوْمًا، فَعَادَ عَقْلُهُ إِلَيْهِ أَبَدًا.

وَأَنْشَدَ الشَّافِعِيُّ:

وَدَعِ الَّـــذِينَ إِذَا أَتَـــوكَ تَنَـــسَّكُوا ... وَإِذَا خَلَـــوا كَـــانُوا ذِئَـــابَ حِقَـــافِ

وبإسنادٍ عن حاتم قال: حدَّثنا أحمد بن أَبِي الحواري، قال: قال أبو سليمان: ما رأيتُ صُوفِيًّا فيه خَيْرٌ، إلَّا وَاحِدًا، عَبْدَ الله بن مرزوق.

قال: وأنا أَرِقُّ لَهم.

وبإسنادٍ عن يونس بن عبد الأعْلَىٰ يقول: ما رأيتُ صوفيًا عاقلًا إلَّا إدريس الخولانِي.

قال السلميُّ: هو مصريٌّ من قُدَمَاءِ مشايخِهم قبلَ ذي النُّون.

وبإسناد عن يُونُس بن عَبْد الأعْلىٰ يقول: صحبت الصُّوفية ثلاثين سنةً، ما رأيتُ فيهم عاقلًا إلَّا مسلمًا الخواص.

وبإسنادٍ عن أحمد بن أَبِي الحواري يقول: حدَّثنا وكيعٌ قال: سَمِعْتُ سفيان يقول: سَمِعْتُ عاصمًا يقول: ما زِلْنَا نَعْرِفُ الصُّوفيَّةَ بالحماقة، إلَّا أنَّهم يَسْتَتِرُونَ بالحَدِيثِ.

وبإسنادٍ عن سفيان عن عاصم يقول: قال لي وكيع: لِمَ تَرَكْتَ حديثَ هشامٍ؟ قلتُ: صَحِبْتُ قَوْمًا من الصُّوفيَّة، وكنتُ بِهِم مُعْجَبًا. قالوا: إن لَمْ تَمْحُ حَدِيثَ هشامٍ، قَاطَعْنَاكَ فَأَطَعْتُهُم. قال: إنَّ فيهم حُمْقًا.

وبإسنادٍ عن يَحيَىٰ بن يَحيَىٰ قال: الخوارجُ أَحَبُّ إليَّ من الصُّوفيَّة.

وبإسنادٍ عن يَحيَىٰ بن معاذ يقول: اجْتَنِبْ صُحْبَةَ ثَلَاثَةِ أصنافٍ من النَّاس: العلماءَ

الغافلين، والفقراءَ المداهنين، والمتصوِّفَةَ الجاهلين.

وقد ذكرنا فِي أَوَّلِ رَدِّنا عَلَىٰ الصُّوفيَّة من هَذَا الكتاب: أنَّ الفقهاءَ بمصر أنكروا عَلَىٰ ذي النُّون ما كان يتكلَّم به، وببسطام عَلَىٰ أَبِي يزيد، وأخرجوه، وأخرجوا أبا سليمان الدَّارانِيَّ.

وَهَرَبَ مِنْ أيديهم أحمدُ بن أَبِي الحواري، وسهلٌ التستريُّ؛ وذلك لأنَّ السَّلَفَ كانوا يَنْفِرُون مِنْ أَدْنَىٰ بدعةٍ، ويَهْجُرُونَ عليها؛ تَمَسُّكًا بالسُّنَّةِ، ولقد حَدَّثَنِي أبو الفتح بن السمريِّ، قال: جَلَسَ الفقهاء فِي بعض الأَرْبِطَةِ للعزاء بِفَقِيهٍ ماتَ، فَأَقْبَلَ الشَّيْخُ أبو الخطاب الكلوذانِيُّ الفقيهُ مُتَوَكِّئًا عَلَىٰ يَدِي، حتَّىٰ وَقَفَ بِبَابِ الرِّبَاطِ، وقال: يَعِزُّ عَلَيَّ لو رآنِي بعضُ أصحابنا ومشايخنا القُدَمَاءُ، وأنا أدخل هَذَا الرِّبَاطَ. قلتُ: عَلَىٰ هَذَا كان أشياخُنا.

فأمَّا فِي زماننا فقد اصطلح الذِّئبُ والغَنَمُ.

قال ابن عقيل: نَقَلْتُهُ من خَطِّهِ وَأَنَا أَذُمُّ الصُّوفيَّةَ لوجوهٍ يُوجِبُ الشَّرْعُ ذَمَّ فِعْلِهَا.

منها أنَّهم اتَّخذوا مناخَ البطالة، وهي الأربطةُ، فانقطعوا إليها عن الجماعاتِ فِي المساجد، فَلَا هِيَ مَسَاجِدُ ولا بيوتٌ، ولا خاناتٌ، وصَمَدوا فيها للبطالةِ عن أعمال المعاش، وَبَدَنُوا أنفسَهم بُدْنَ البهائم للأكلِ والشُّرْبِ والرَّقْصِ وَالغناءِ، وعوَّلوا عَلَىٰ التَّرْقِيعِ المُعْتَمَدِ به التَّحْسِينُ تلميعًا، والمَشَاوِذُ بألوانٍ مخصوصةٍ أوقعَ فِي نُفُوس العَوَامِّ، والنِّسْوَة من تلميع السَّقلاطون بألوان الحرير.

وَاسْتَمَالوا النِّسْوَةَ والمُرْدان بِتَصَنُّعِ الصُّوَرِ واللِّباس، فما دخلوا بيتًا فيه نسوةٌ فخرجوا إلَّا عن فساد قلوب النِّسْوَةِ عَلَىٰ أزواجهنَّ، ثُمَّ يَقْبَلُون الطَّعام، والنفقات من الظَّلَمَةِ، والفُجَّارِ، وغاصبِي الأموال، كالعداد والأجناد وأرباب المكوس، ويستصحبون المُرْدَان فِي السَّمَاعَاتِ، يَجْلِبُونَهم فِي الجُمُوعِ مع ضَوْءِ الشُّموع، ويخالطون النِّسْوَةَ الأجانبَ، يَنْصِبُون

لذلك حُجَّةَ إلباسهنَّ الخِرْقَةَ.

ويستحلُّون -بل يوجبون- اقْتِسَامَ ثِيَابِ من طَرِبَ فَسَقَطَ ثَوْبُهُ، ويُسَمُّون الطَّرَبَ وَجْدًا، والدَّعْوَةَ وَقْتًا، وَاقْتِسَامَ ثِيَابِ النَّاس حُكْمًا، ولا يَخْرُجون عن بيتٍ دَعُوا إليه إلَّا عن إلزام دعوةٍ أخرىٰ، يقولون: إنَّها وَجَبَتْ، واعتقادُ ذلك كُفْرٌ، وَفِعْلُهُ فُسُوقٌ.

ويعتقدون أنَّ الغِنَاءَ بالقُضْبَانِ قُرْبَةٌ، وقد سَمِعْنَا عنهم أنَّ الدُّعَاءَ عند حدوِّ الحادي، وعند حُضُور المخدَّة مُجَابٌ؛ اعتقادًا منهم أنَّه قُرْبَةٌ، وهَذَا كفرٌ أيضًا؛ لأنَّ مَنِ اعتقد المكروهَ والحرامَ قُرْبَةً، كان بِهَذَا الاعتقاد كافرًا، والناس بين تحريمه وكراهيته.

ويُسلِّمون أنفسهم إِلَىٰ شُيُوخهمْ، فإنْ عَوَّلُوا إِلَىٰ مرتبة شَيْخِهِ قيل: الشيخ لا يُعْتَرَضُ عليه، فحد من حلِّ رسن ذلك الشَّيخ وانحطاطه فِي سلك الأقوال المُتَضَمِّنَةِ للكفر والضَّلال المُسَمَّىٰ شَطْحًا، وفِي الأفعال المعلومة كونها فِي الشريعة فِسْقًا.

فإن قَبَّلَ أمْرَدًا قيل: رحمة، وإن خلا بأجنبيَّةٍ قيل: بِنْتُهُ، وقد لبست الخِرْقَة، وإنْ قَسَّمَ ثَوْبًا عَلَىٰ غير أربابِه من غَيْرِ رضا مالِكِه قيل: حُكْمُ الخِرْقَةِ.

وليس لنا شَيْخٌ نسلِّم إليه حاله؛ إذ ليس لنا شَيْخٌ غَيْر داخلٍ فِي التَّكْلِيفِ، وأنَّ المَجَانينَ والصِّبْيَانَ يُضْرَبُ عَلَىٰ أيديهم، وكذلك البَهَائم، والضَّرْبُ بَدَلٌ من الخِطَابِ، ولَوْ كان لنا شيخٌ يسلمُ إليه حالُه، لكان ذلك الشَّيْخُ أبا بكرٍ الصِّدِّيق ﷺ، وقد قال: إن اعْوَجَجْتُ فَقَوِّمُونِي. ولَمْ يَقُلْ: فَسَلِّمُوا إليَّ.

ثُمَّ انظر إِلَىٰ رسول الله -صلوات الله عليه- كيف اعترضوا عليه؛ فهَذَا عُمَرُ يقول: ما بَالُنَا نَقْصُرُ، وقد أَمِنَّا؟

وآخرُ يقول: تَنْهَانَا عن الوِصالِ وَتُوَاصِلُ؟

وآخرُ يقول: أَمَرْتَنَا بالفسخ، ولَمْ تفسخ! ثُمَّ إنَّ الله تعالىٰ تَقُولُ له الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ

فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا ﴾[البقرة:٣٠]، ويقول موسىٰ: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾[الأعراف:١٥٥].

وإنَّما هَذِهِ الكَلِمَةُ جَعَلَهَا الصُّوفيَّةُ ترفيهًا لقلوب المتقدِّمين، وَسَلْطَنَةً سَلَكُوها عَلَىٰ الأَتْبَاعِ والمريدين، كما قَالَ تَعَالىٰ: ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ﴾[الزخرف:٥٤].

وَلَعَلَّ هَذِهِ الكَلِمَةَ من القائلين منهم بأنَّ العَبْدَ إذا عَرَفَ لَمْ يَضُرَّهُ ما فَعَلَ. وهَذِهِ نِهايَةُ الزَّنْدَقِةِ؛ لأنَّ الفُقَهَاءَ أَجْمعوا عَلَىٰ أنَّه لا حالةَ ينتهي إليها العَارِفُ إلَّا وَيَضِيقُ عليه التَّكْلِيفُ، كأحوال الأنبياء يُضَايَقون فِي الصَّغائر.

فاللهَ اللهَ فِي الإِصْغَاء إِلَىٰ هؤلاء الفُرَّغِ الخالين من الإثبات، وإنَّما هم زنادقةٌ جَمَعوا بين مَدَارِعِ العمَّال مُرَقَّعَاتٍ وَصُوفٍ، وبين أعمال الخُلَعَاءِ المُلْحِدَةِ، أَكْلٍ وشربٍ ورقصٍ وسماعٍ وإهمالٍ لأحكام الشَّرْعِ.

ولَمْ تَتَجَاسَرِ الزَّنَادِقَةُ أن تَرْفُضَ الشَّرِيعَةَ، حتَّىٰ جاءت المتصوِّفةُ، فجاؤوا بِوَضْعِ أهل الخَلاعة.

فَأَوَّلُ ما وضعوا: أسماءٌ، وقالوا: حقيقةٌ وشريعةٌ، وهَذَا قَبِيحٌ؛ لأنَّ الشَّرِيعَةَ ما وَضَعَهُ الحَقُّ لمصالح الخَلْقِ، فما الحقيقةُ بعدَها سِوَىٰ ما وَقَعَ فِي النُّفوسِ من إلقاء الشَّياطين، وكلُّ مَنْ رام الحقيقةَ فِي غير الشَّريعة فَمَغْرُورٌ مَخْدُوعٌ.

وإن سمعوا أحدًا يروي حديثًا قالوا: مساكين، أَخَذُوا عِلْمَهُم مَيِّتًا عن مَيِّتٍ، وَأَخَذْنَا عِلْمَنَا عن الحَيِّ الَّذي لا يَمُوتُ.

فَمَنْ قال: حَدَّثَنِي أَبِي عن جَدِّي قُلْتُ: حَدَّثَنِي قلبِي عن ربِّي. فَهَلَكُوا، وأَهْلَكُوا بِهَذِهِ الخُرَافَاتِ قُلُوبَ الأَغْمَارِ، وَأُنْفِقَتْ عَلَيْهِم لأَجْلِهَا الأموالُ؛ لأنَّ الفقهاءَ كالأطبَّاء، والنَّفَقَةُ فِي ثَمَنِ الدَّواء صَعْبَةٌ، والنَّفَقَةُ عَلَىٰ هؤلاء كالنَّفَقَةِ عَلَىٰ المُغَنِّيَاتِ.

وَبُغْضُهُمُ الفقهاء أَكْبَرُ الزَّنْدَقِةِ؛ لأنَّ الفقهاءَ يَحْظِرُونَهم بفتاويهم عن ضلالِهم وفِسْقِهِم،

والحقُّ يَثْقُلُ كَمَا تَثْقل الزَّكاةُ، وما أخفَّ البَذْلَ عَلَىٰ المُغَنِّيَاتِ، وَإِعْطَاءَ الشُّعَرَاءِ عَلَىٰ المدائح.

وكذلك بُغْضُهُم لأصحاب الحديث، وقد أبدلوا إزالةَ العقل بالخَمْرِ بِشَيْءٍ سَمَّوْهُ الحَشِيشَ والمَعْجُونَ، والغِنَاءُ المُحَرَّمُ سَمَّوْهُ السَّمَاعَ والوَجْدَ، والتَّعَرُّضُ بالوَجْدِ المزيلِ للعقل حَرَامٌ.

كَفَىٰ اللهُ الشَّريعةَ شرَّ هَذِهِ الطَّائفة الجامعةِ بين دَهْمَثَةٍ فِي اللُّبْسِ، وَطِيبَةٍ فِي العَيْشِ، وَخِدَاعٍ بألفاظٍ معسولةٍ، ليس تَحْتَهَا سِوَىٰ إهمالِ التَّكْلِيفِ، وهِجْرَانِ الشَّرْعِ، ولذلك خَفُّوا عَلَىٰ القلوب، ولا دلالةَ عَلَىٰ أنَّهم أَرْبَابُ باطلٍ، أَوْضَحَ من مَحَبَّةِ طِبَاعِ الدُّنيا لَهم، كَمَحَبَّتِهِم أربابَ اللَّهْوِ والمُغَنِّيَاتِ.

قال ابن عقيل: فإن قال قائل: هم أهلُ النَّظَافَةِ ومحاريبَ وحُسْنِ سَمْتٍ وأخلاقٍ. قال: فَقُلْتُ لَهم: لو لَمْ يَضَعُوا طريقةً يَجْتَذِبُونَ بِهَا قُلُوبَ أَمْثَالِكُم، لَمْ يَدُمْ لَهُمْ عَيْشٌ، والَّذي وَصَفتهمْ بِهِ رَهْبانيَّة النَّصرانيَّة، ولَوْ رأيت نظافةَ أَهْلِ التَّطفيل عَلَىٰ المَوَائد، وَمَخَانِيث بغداد، وَدَمَاثَة المُغَنِّيَاتِ- لَعَلِمْت أنَّ طريقَهم طريقةُ الفُكَاهَةِ، والخداع، وهل يُخْدَعُ النَّاسُ إلَّا بطريقةٍ أو لسانٍ، فإذا لَمْ يَكُنْ للقَوْمِ قَدَمٌ فِي العِلْمِ، وَلَا طريقةٌ، فَبِمَاذَا يَجْتَذِبُونَ به قُلُوبَ أَرْبَابِ الأموال.

وَاعْلَمْ أنَّ حَمْلَ التَّكليف صَعْبٌ، ولا أَسْهَلَ عَلَىٰ أَهْلِ الخلاعة مِنْ مُفَارَقَةِ الجَمَاعة، ولا أَصْعَبَ عليهم من حَجْرٍ وَمَنْعٍ صَدَرَ عن أَوَامر الشَّرْعِ ونَوَاهيه، وما عَلَىٰ الشَّريعة أَضَرُّ من المتكلِّمين والمتصوِّفين، فهؤلاء يُفْسِدُون عَقَائِدَ النَّاس بتَوْهيماتِ شُبُهَاتِ العقول، وهؤلاء يُفْسِدُونَ الأعمالَ، وَيَهْدِمُون قوانين الأديان، ويُحِبُّون البطالات وسماع الأَصْوَات، وما كان السَّلَفُ كذلك، بل كانوا فِي باب العقائد عَبِيدَ تَسْلِيمٍ، وفِي الباب الآخر أَرْبَابَ جِدٍّ.

وقال: ونصيحتي إِلَىٰ إخواني، أَلَّا يَقْرَعَ أَفْكَارَ قُلُوبِهم كلامُ المتكلِّمين، ولا تَصْغَىٰ مَسَامعُهم إِلَىٰ خُرَافَاتِ المُتَصَوِّفين، بل الشُّغْلُ بالمعاش أَوْلَىٰ مِنْ بَطَالَةِ الصُّوفيَّة، والوُقُوفُ عَلَىٰ الظَّوَاهِرِ أَحْسَنُ من تَوَغُّلِ المُنْتَحِلَةِ، وقد خُبِّرْتُ طَرِيقَةَ الفريقين؛ فغَايَةُ هؤلاء الشَّكُّ، وغايةُ هؤلاء الشَّطْحُ.

قال ابن عقيل: والمتكلِّمون عندي خَيْرٌ من الصُّوفيَّة؛ لأنَّ المُتَكَلِّمين قد يُزِيلُونَ الشَّكَّ، والصُّوفيَّةُ يوهمون التَّشْبِيهَ؛ فَأَكْثَرُ كلامِهم يشير إِلَىٰ إسقاط السِّفَارَةِ والنُّبُوَّاتِ.

فإذا قالوا عن أَصْحَاب الحديث قالوا: أخذوا عِلْمَهُم مَيِّتًا عن مَيِّتٍ، فَقَدْ طَعَنُوا فِي النُّبُوَّاتِ، وَعَوَّلُوا عَلَىٰ الوَاقِعِ، ومتىٰ أُزْرِيَ عَلَىٰ طريقٍ، سَقَطَ الأَخْذُ بِهِ.

ومن قال: حَدَّثَنِي قلبِي عن رَبِّي، فقد صَرَّحَ أَنَّهُ غَنِيٌّ عن الرَّسول، وَمَنْ صَرَّحَ بِذَلِكَ فقَدْ كَفَر، فهَذِهِ كلمةٌ مَدْسُوسَةٌ فِي الشَّرِيعَةِ، تَحْتَهَا هَذِهِ الزَّنْدَقَةُ، ومن رَأَيْنَاهُ يُزْرِي عَلَىٰ النَّقْلِ، عَلِمْنَا أَنَّه قَدْ عَطَّل أَمْرَ الشَّرْعِ، وما يُؤْمنُ هَذَا القَائِلُ: حَدَّثَنِي قلبِي عن ربِّي، أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مِنْ إِلْقَاءِ الشَّياطين، فقَدْ قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ﴾ [الأنعام:١٢١]، وهَذَا هو الظَّاهِرُ؛ لأنَّه تَرَكَ الدَّلِيلَ المعصومَ، وَعَوَّلَ عَلَىٰ ما يُلْقَىٰ فِي قَلْبِهِ الَّذي لَمْ تَثْبُتْ حِرَاسَتُهُ من الوساوس، وهؤلاء يُسَمُّونَ مَا يُقَرِّبُهم خَاطِرًا.

قال: والخَوَارِجُ عَلَىٰ الشَّرِيعَةِ كَثِيرٌ، إلَّا أَنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يُؤَيِّدُها بالنَّقَلَةِ الحُفَّاظِ الذَّابِّين عن الشَّريعة؛ حِفْظًا لأَصْلِهَا، وبالفُقَهَاءِ لِمَعَانِيهَا: وهم سَلاطِينُ العُلَمَاءِ، لا يَتْرُكُونَ لِكَذَّابٍ رَأْسًا تَرْتَفِعُ.

قال ابن عقيل: والناس يقولون: إذا أَحَبَّ اللهُ خَرَابَ بَيْتِ تاجرٍ عَاشَرَ الصُّوفيَّة.

قال: وأنا أقول: وَخَرَاب دِينِهِ؛ لأنَّ الصُّوفِيَّةَ قد أَجَازوا لُبْسَ النِّسَاءِ الخِرْقَةَ من الرِّجال الأَجَانب، فإذا حَضَرُوا السَّمَاعَ والطَّرَبَ، فَرُبَّمَا جَرَىٰ فِي خلال ذلك مغازلاتٌ، وَاسْتِخْلَاء

بَعْض الأشْخَاص ببعضٍ، فَصَارَتِ الدَّعْوَةُ عُرْسًا للشَّخْصَيْنِ، فلا يَخْرُجُ إلَّا وقد تَعَلَّقَ قَلْبُ شَخْصٍ بشخصٍ، ومال طَبْعٌ إِلَىٰ طَبْعٍ، وتتغيَّرُ المرأةُ عَلَىٰ زَوْجِهَا، فإن طَابَتْ نفسُ الزَّوْجِ سُمِّيَ بالدَّيُّوثِ، وإِنْ حَبَسَهَا طَلَبَتِ الفُرْقَةَ إِلَىٰ مَنْ تلبس منه المُرَقَّعَةَ، والاختلاطَ بمن لا يُضَيِّقُ الخنقَ، ولا يَحْجُرُ عَلَىٰ الطِّبَاعِ.

ويُقَالُ: تابت فلانةٌ، وأَلْبَسَهَا الشَّيْخُ الخِرْقَةَ، وقد صَارَتْ مِنْ بَنَاتِهِ. ولَمْ يَقْنَعُوا أن يقولوا: هَذَا لَعِبٌ وَخَطَأٌ، حتَّىٰ قالوا: هَذَا من مقامات الرِّجال.

وَجَرَتْ عَلَىٰ هَذِهِ السُّنُونُ، وَبَرَدَ حُكْمُ الكِتَابِ والسُّنَّةِ فِي القلوب.

هَذَا كُلُّهُ مِنْ كَلامِ ابنِ عقيلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، فلقد كان ناقدًا مُجِيدًا مُتَلَمحًا فَقِيهًا.

أَنْشَدَنَا أبو عليٍّ عبيدُ الله الزَّاغوني قال: أنشدنا رزقُ الله بن عبد الوهَّاب التَّميميُّ وأبو منصور بن مُحمَّد بن مُحمَّد بن عبد العزيز العكبريُّ قَالَا: أَنْشَدَنَا أبو بكر العنبريُّ لِنَفْسِهِ فِي الصُّوفِيَّةِ:

تَأَمَّلْتُ أَخْتَبِرُ المُدَّعِينَ ... بَيْنَ المَوَالِي وَبَيْنَ العَبِيدِ
فَأَلْفَيْتُ أَكْثَرَهُم كَالسَّرَابِ ... يَرُوقُكَ مَنْظَرُهُ مِنْ بَعِيدِ
فَنَادَيْتُ يَا قَوْمُ مَنْ تَعْبُدُونَ ... فَكُلٌّ أَشَارَ بِقَدْرِ الوُجُودِ
فَبَعْضٌ أَشَارَ إِلَى نَفْسِهِ ... وَأَقْسَمَ مَا فَوْقَهَا مِنْ مَزِيدِ
وَبَعْضٌ إِلَى خِرْقَةٍ رُقِّعَتْ ... وَبَعْضٌ إِلَى رَكْوَةٍ مِنْ جُلُودِ
وَآخَرُ يَعْبُدُ هَوَاهُ ... وَمَا عَابِدٌ للهَوَى بِالرَّشِيدِ
وَمُجْتَهِدٌ وَقْتُهُ زِيُّهُ ... فَإِنْ فَاتَ بَاتَ بِلَيْلٍ عَنِيدِ
وَذُو كَلَفٍ بِاسْتِمَاعِ السَّمَا ... عِ بَيْنَ البَسِيطِ وَبَيْنَ النَّشِيدِ

يَئِنُّ إِذَا أَوْمَضَتْ رَنَّةٌ وَيَزْأَرُ مِنْهَا زَئِيرَ الأُسُودِ
يَخْرِقُ خِلْقَانَهُ عَامِدًا لِيَعْتَاضَ مِنْهَا بِثَوْبٍ جَدِيدِ
وَيَرْمِي بِهَيْكَلِهِ فِي السَّعِيرِ لِقَلْعِ الثَّرِيدِ وَبَلْعِ العَصِيدِ
فَيَا للرِّجَالِ أَلا تَعْجَبُونَ لِشَيْطَانِ إِخْوَانِنَا ذَا المُرِيدِ
يَخْبَطُهُمْ بِفُنُونِ الجُنُونِ وَمَا للمَجَانِينَ غَيْرُ القُيُودِ
وَأُقْسِمُ مَا عَرَفُوا ذَا الجَلالِ وَمَا عَرَفُوهُ بِغَيْرِ الجُحُودِ
وَلَوْلا الوَفَاءُ لِأَهْلِ الوَفَاءِ سَلَقْتُهُم بِلِسَانٍ حَدِيدِ
فَمَا لِي يُطَالِبُنِي بِالوِصَا لِ مَنْ لَيْسَ يَعْلَمُ مَا فِي الصُّدُودِ
أَضِنُّ بِوُدِّي وَيَسْخُو بِهِ وَقَدْ كُنْتُ أَسْخُو بِهِ للوَدُودِ
وَلَكِنْ إِذَا لَمْ أَجِدْ صَاحِبًا يَسُرُّ صَدِيقِي وَيَشْجُو الحَسُودِ
عَطَفْتُ بِوُدِّي مِنِّي إِلَيْهِ فَغَابَ نُحُوسِي وَآبَ السُّعُودِ
فَمَا بَالُ قَوْمِي عَلَى جَهْلِهِم بِعِزِّ الفَرِيدِ وَأُنْسِ الوَحِيدِ
إِذَا أَبْصَرُونِي بَكَوْا رَحْمَةً وَنِيرَانُ أَحْقَادِهِم فِي وُقُودِ
لأَنِّي بَعُدْتُ عَنِ المُدَّعِينَ وَلَوْ صَدَقُوا كُنْتُ غَيْرَ البَعِيدِ

أخبرنا مُحمَّد بن ناصر الحافظ، نا أبو الحسين بن عبد الجبار الصيرفي، نا أبو عبد الله مُحمَّد بن علي الصُّوريُّ، قال: أنشدنا أبو مُحمَّد عبد الرَّحمن بن عمر التجيبيُّ، قال: أنشدنا الحَسَنُ بن عليّ بن سيَّار:

رَأَيْتُ قَوْمًا عَلَيْهِم سِمَةُ الـ ـخَيْرِ بِحَمْلِ الرَّكَاءِ مُبْتَهِلَهْ
اعْتَزَلُوا النَّاسَ فِي جَوَامِعِهِم سَأَلْتُ عَنْهُم فَقِيلَ مُتَكِلَهْ

صُوفِيَّةٌ للقَضَاءِ صَابِرَةٌ ... سَاكِنَةٌ تَحْتَ حُكْمِهِ بِزَلَهْ
فَقُلْتُ إِذْ ذَاكَ هَؤُلاءِ هُمُ الـ ... ـنَّاسُ وَمَنْ دُونَ هَؤُلاءِ رَذَلَهْ
فَلَمْ أَزَلْ خَادِمًا لَهُم زَمَنًا ... حَتَّى تَبَيَّنْتُ أَنَّهُمْ سَفَلَهْ
إِنْ أَكَلُوا كَانَ أَكْلُهُم سَرَفًا ... أَوْ لَبِسُوا كَانَ شُهْرَةً مِثْلَهْ
سَلْ شَيْخَهُم والكَبِيرَ مُخْتَبِرًا ... عَنْ فَرْضِهِ لا تَخَالُهُ عَقْلَهْ
وَاسْأَلْهُ عَنْ وَصْفِ شَادِن غنج ... مُدَلَّلًا لا تَرَاهُ قَدْ جَهِلَهْ
عِلْمُهُم بَيْنَهُم إِذَا جَلَسُوا ... كَعِلْمِ رَاعِي الرِّعَاعِ وَالرَّذَلَهْ
الوَقْتُ والحَالُ والحَقِيقَةُ والـ ... ـبُرْهَانُ والعَكْسُ عِنْدَهُم مِثْلَهْ
قَدْ لَبِسُوا الصُّوفَ كَيْ يُرَوْا صُلَحًا ... وَهُمْ شِرَارُ الذبَابِ والحَفلَهْ
وَجَانَبُوا الكَسْبَ والمَعَاشَ لِكَيْ ... يَسْتَأْصِلُوا النَّاسَ شُرَّهًا أَكَلَهْ
وَلَيْسَ مِنْ عِفَّةٍ وَلا دَعَةٍ ... لكِنْ بِتَعْجِيلِ رَاحَةِ العَطَلَهْ
فَقُلْ لِمَنْ مَال بِاخْتِدَاعِهِم ... إِلَيْهِم تُبْ فَإِنَّهُم بَطَلَهْ
وَاسْتَغْفِرِ اللهَ مِنْ كلامِهِم ... وَلا تُعَاوِدْ لِعِشْرَةِ الجَهَلَهْ

قال الصوريُّ وأنشدني بَعْض شيوخنا:

أَهْلُ التَّصَوُّفِ قَدْ مَضَوا ... صَارَ التَّصَوُّفُ مِخْرَقَهْ
صَارَ التَّصَوُّفُ صَيْحَةً ... وَتَوَاجُدًا وَمِطْبَقَهْ
كَذَّبَتْكَ نَفْسُكَ لَيْسَ ذَا ... سَنَنَ الطَّرِيقِ المُلْحَقَهْ
حَتَّى تَكُونَ بِعَيْنِ مَنْ ... مِنْهُ العُيُونُ المُحْدقَهْ
تَجْرِي عَلَيْكَ صُرُوفُهُ ... وَهُمُومُ سِرِّكَ مُطْرِقَهْ

أَنْشَدَنا مُحَمَّدُ بن ناصرٍ، قال: أَنْشَدَنَا أبو زكريَّا التبريزيُّ، لأبِي العلاء المعرِّي:

زَعَمُوا بِأَنَّهم صَفَوا لِمَلِيكِهِم كَذَبُوكَ مَا صَافَوْا وَلَكِنْ صَافُوا
شَجَرَ الخِلافُ قُلُوبَهُم وَيْحَ لَهَا غَرَضِي خلاف الحق لا الصَّفْصاف

أنشدنا ابن ناصر، أنشدنا أبو بكر، قال: أنشدنا أبو إسحاق الشِّيرازيُّ الفَقِيهُ لِبَعْضِهِم:

أَرَى جِيلَ التَّصَوُّفِ شَرَّ جِيلِ فَقُلْ لَهُم وَأَهْوِنْ بِالحُلُولِ
أَقَالَ اللهُ حِينَ عَشِقْتُمُوهُ كُلُوا أَكْلَ البَهَائِمِ وَارْقُصُوا لِي

الباب الحادي عشر
في ذكر تلبيس إبليس على المتدينين بما يشبه الكرامات

قد بَيَّنَّا فيما تَقَدَّمَ أنَّ إبليسَ إنَّما يَتَمَكَّنُ من الإنسان عَلَىٰ قَدْرِ قِلَّةِ العلم، فَكُلَّمَا قَلَّ عِلْمُ الإنسان، كَثُرَ تَمَكُّنُ إبليس منه، وَكُلَّمَا كَثُرَ العِلْمُ قَلَّ تَمَكُّنُهُ منه.

وَمِنَ العِبَادِ مَنْ يَرَىٰ ضَوْءًا أو نُورًا فِي السَّمَاءِ، فإنْ كان رمضان قال: رَأَيْتُ ليلةَ القَدْرِ، وإن كان فِي غَيْرِهِ، قال: قد فُتِحَتْ لي أبوابُ السَّمَاءِ.

وقد يَتَّفِقُ لَهُ الشَّيْءُ الَّذي يَطْلُبُهُ، فَيَظُنُّ ذلك كَرَامَةً، وربَّما كان اتِّفاقًا، وَرُبَّمَا كان اخْتِبَارًا، وربَّما كان من خُدَعِ إبليس، والعاقلُ لا يُسَاكِنُ شَيْئًا من هذا، ولو كان كَرَامَةً.

وقد ذَكَرْنَا فِي بَابِ الزُّهَّادِ عن مالك بن دينار، وحبيب العجميّ، أنَّهما قالا: إنَّ الشَّيْطَانَ لَيَلْعَبُ بِالقُرَّاء كما يلعب الصِّبْيَانُ بِالجَوْزِ.

وَلَقَدِ اسْتَغْوَىٰ بعضَ ضعفاءِ الزُّهَّادِ بأن أراه ما يُشْبِهُ الكَرَامَةَ، حَتَّىٰ ادَّعَىٰ النُّبُوَّةَ.

فروي عن **عبد الوهاب بن نجدة الحوطيّ** قال: ثنا مُحمَّدُ بن المبارك، ثنا الوليدُ بن مسلم، عن عبد الرحمن بن حَسَّان، قال: كان الحارثُ الكَذَّابُ من أهل دمشق، وكان مولَىٰ لأبِي الجلاس، وكان له أبٌ بالغوطة، تَعَرَّضَ لَهُ إبْلِيس، وكان مُتَعَبِّدًا زَاهِدًا، لو لَبِسَ جُبَّةً من ذهبٍ لرأيتَ عليه زهادةً، وكان إذا أخذ فِي التَّحْمِيدِ لَمْ يُصْغِ السَّامعون إلَىٰ كلامٍ أَحْسَنَ من كلامِهِ، قال: فَكَتَبَ إلَىٰ أبيه: يا أبتاه، أَعْجِلْ عَلَيَّ؛ فإنِّي قد رأيتُ أشياءَ أَتَخَوَّفُ منها أن تكون من الشَّياطين.

قال: فزاده أبوه غيًّا، وكتب إليه: يا بُنَيَّ أقبل عَلَىٰ ما أُمِرْتَ به، إنَّ الله يقول: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾ [الشعراء:٢٢١، ٢٢٢]، وَلَسْتَ بِأَفَّاكٍ، ولا أثيمٍ، فَامْضِ لِمَا أُمِرْتَ به.

وكان يجيء إلَىٰ أهلِ المسجد رجلًا رجلًا، فَيَذْكُرُ له أَمْرَهُ، ويأخذ عليهم العهودَ والمواثيق، إن هو رأىٰ ما يُرْضِي قبل، وإلَّا كتم عليه، وكان يريهم الأعاجيب، كان يأتِي إلَىٰ رخامةٍ فِي المسجد فينقرها بيده فتسبِّح، وكان يُطْعِمُهُم فاكهةَ الصَّيْفِ فِي الشِّتَاءِ، ويقول: اخرجوا حتَّىٰ أُريكم الملائكةَ، فيخرجُهم إلَىٰ ديرِ المَرَّان، فَيُرِيهم رجالًا عَلَىٰ خَيْلٍ، فَتَبِعَهُ بشرٌ كثيرٌ، وفشا الأمر، وكثر أصحابه، حتَّىٰ وصل خبرُه إلَىٰ القاسم بن مُخَيمرة، فقال له: إنِّي نبِيٌّ. فقال له القاسم: كَذَبْتَ يا عدوَّ اللهِ. فقال له أبو إدريس: بئس ما صَنَعْتَ، إذْ لَمْ تَلِنْ له حتَّىٰ تَأْخُذَه، الآنَ يَفِرُّ. وقام من مجلسِهِ حتَّىٰ دَخَل عَلَىٰ عَبْد الملك، فَأَعْلَمَهُ بأمره، فَبَعَثَ عبدُ الملك فِي طلبِه، فلم يَقْدِرْ عليه.

وخرج عبدُ الملك حتَّىٰ نَزَلَ الصُّنَيْبِرَةَ، فاتَّهَم عامَّةَ عَسْكَرِهِ بالحارث أن يكونوا يَرَوْنَ رَأْيَه.

وخَرَج الحَارِثُ حتَّىٰ أتىٰ بَيْتَ المقدس واختفىٰ، وكان أصحابُه يخرجون يلتمسون الرِّجَالَ يُدْخِلُونَهم عليه، وكان رَجُلٌ من أهل البَصْرَةِ قد أتىٰ بيت المقدس، فَأُدْخِلَ عَلَىٰ الحارث، فَأَخَذَ فِي التَّحميد، وأخبره بأمره، وأنَّه نبيٌّ مبعوثٌ مُرْسَلٌ، فقال: إنَّ كلامَك لَحَسَنٌ، ولكن لي فِي هَذَا نَظَرٌ. قال: فانظر. فخَرَج البصريُّ، ثُمَّ عاد إليه فردَّ عليه كَلَامه، فقال: إنَّ كلامَك لَحَسَنٌ، وقد وقع فِي قلبِي، وقَدْ آمنتُ بك، وهَذَا هو الدِّينُ المستقيم، فأمر ألا يُحْجَبَ عنه متَىٰ أراد الدُّخول.

فأقبل البصريُّ يتردَّد إليه، ويعرف مداخله ومخارجه، وأين يَهرب، حتَّىٰ صار من

أخبر النَّاس به، ثُمَّ قال له: ائذَنْ لي. فقال: إِلَىٰ أين؟ قال: إِلَىٰ البَصْرَةِ، فأكون أَوَّلَ دَاعٍ لك بِها.

قال: فَأَذِنَ له، فَخَرَجَ مُسْرِعًا إِلَىٰ عبد الملك، وهو بالصُّنَيْبِرَةِ، فلمَّا دنا من سرادقِهِ صاح: النَّصيحةَ النَّصيحةَ. فقال أهلُ العسكر: وما نصيحتُكَ؟ قال: نصيحةٌ لأمير المؤمنين.

فَأَمَرَ الخليفةُ عَبْد الملك أن يأذنوا له بالدُّخول عليه، فدخل، وعنده أصحابُهُ، قال: فصاح: النَّصيحةَ النَّصيحةَ. قال: وما نصيحتُك؟ قال: أَخْلِنِي، لا يكن عندك أحدٌ، فَأَخْرَجَ مَنْ فِي البيت، وقال: أَدْنِنِي. قال: ادْنُ. فَدَنَا وَعَبْدُ الملك عَلَىٰ السَّرير، قال: ما عندك؟

قال الحارث: فلمَّا ذكر الحارث، طَرَحَ عبدُ المَلِكِ نَفْسَهُ من أعلَىٰ السَّرير إِلَىٰ الأرض، ثُمَّ قال: أين هو؟ قال: يا أمير المؤمنين، هُوَ بِبَيْتِ المَقْدِسِ، قد عَرَفْتُ مداخلَه ومخارجَه، وَقَصَّ عليه قِصَّتَهُ، وكيف صَنَعَ به، فقال: أنت صاحبُهُ، وأنت أمير بيت المقدس، وأميرنا هاهنا، فَمُرْنِي بِما شِئْتَ.

فقال: يا أَمِيرَ المؤمنين، ابْعَثْ مَعِي قومًا لا يفهمون الكلام.

فَأَمَرَ أربعين رجلًا من فرغانة، فقال: انْطَلِقُوا مع هذا، فَمَا أَمَرَكُم به من شَيْءٍ فَأَطِيعُوه.

قال: وَكَتَبَ إِلَىٰ صاحب بيت المقدس، أنَّ فلانًا هو الأميرُ عليك حتَّىٰ يخرج، فَأَطِعْهُ فيما أَمَرَكَ به.

فلمَّا قَدِمَ بَيْتَ المَقْدِسِ أَعْطَاهُ الكتابَ، فقال: مُرْنِي بِما شِئْتَ. فقال: اجمع لي كلَّ شَمْعَةٍ تقدر عليها ببيت المقدس، وادفع كُلَّ شمعةٍ إِلَىٰ رجل، ورتِّبهم عَلَىٰ أَزِقَّةِ بيت المقدس وزَوَاياه، فإذا قلتَ: أَسْرِجوا. أَسْرَجُوا جميعًا.

فَرَتَّبَهُم فِي أَزِقَّةِ بيت المقدس وزَوَاياه بالشَّمع، وَتَقَدَّمَ البصريُّ إِلَىٰ منْزل الحارث، فأتَىٰ بالباب، فَقَال للحاجب: استأذن لي عَلَىٰ نَبِيِّ الله. قال: فِي هَذِهِ السَّاعة ما يُؤْذَنُ عليه

حتَّىٰ يصبح.

قال: أَعْلِمْهُ أنِّي ما رَجِعْتُ إلَّا شَوْقًا إليه قبل أن أَصِلَ. فَدَخَلَ عليه، وَأَعْلَمَهُ بكلامه، فَأَمَرَهُ بفتح الباب، قال: ثُمَّ صاح البَصْرِيُّ: أَسْرِجُوا الشُّموعَ، فَأُسْرِجَتْ حتَّىٰ كانت كأنَّها النَّهارُ، ثُمَّ قال: مَنْ مَرَّ بكم فاضبطوه كائنًا مَنْ كان.

وَدَخَلَ هو إِلَىٰ المَوْضِعِ الَّذي يَعْرِفُهُ، فطلبه فلم يَجِدْهُ، فقال أصحاب الحارث: هيهات، تريدون تقتلون نبيَّ الله، قد رفع إِلَىٰ السَّماء.

قال: فَطَلَبَهُ فِي شَقٍّ قَدْ هَيَّأَهُ سربًا، فَأَدْخَلَ البَصْرِيُّ يَدَهُ فِي ذلك السَّرْبِ، فإذا هو بِثَوْبِهِ، فَاجْتَرَّهُ، فَأَخْرَجَهُ إِلَىٰ خارجٍ، ثُمَّ قال للفرغانيِّين: اربطوه. فربطوه، فبينما هم يسيرون به عَلَىٰ البريد إذ قال: أتقتلون رجلًا يقول ربي الله؟ فقال رجل من الفرغانيِّين أولئك العجم: هَذِهِ كرامتُنا، فهات كرامتَك أنت؟

وساروا به حتَّىٰ أَتَوا به عبدَ الملك، فلمَّا سَمِعَ به أمر بخشبةٍ فَنُصِبَتْ، فَصَلَبَهُ، وَأَمَرَ بِحَرْبَةٍ، وأمر رجلاً فَطَعَنَهُ، فلمَّا صار إِلَىٰ ضلع من أضلاعه فانكفأت الحربة عنه، فجعل الناس يصيحون ويقولون: الأنبياء لا يجوز فيهم السِّلاح. فلمَّا رأىٰ ذلك رجلٌ من المسلمين، تناول الحَرْبَةَ، ثُمَّ مشىٰ إليه، وأقبل يتحسَّس، حتَّىٰ وافىٰ بين ضلعين، فَطَعَنَهُ به، فَأَنْفَذَهَا، فَقَتَلَهُ.

قال الوليد: بلغني أنَّ خالد بن يزيد بن معاوية، دخل عَلَىٰ عبد الملك بن مروان فقال: لو حَضَرْتُكَ ما أَمَرْتُكَ بِقَتْلِهِ. قال: ولِمَ؟ قال: إنَّما كان به المذهب، فَلَوْ جَوَّعْتَهُ ذهب عنه.

وروىٰ أبو الربيع عن شيخٍ أدرك القدماء قال: لَمَّا حُمِلَ الحارثُ عَلَىٰ البريد، وَجُعِلَتْ فِي عُنُقِهِ جامعةٌ من حديد، وَجُمِعَتْ يَدُهُ إِلَىٰ عُنُقِهِ، فأشرف عَلَىٰ عَتَبَةِ بَيْتِ المقدس تلا هَذِهِ الآية: ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ﴾ [سبأ: ٥٠]، فَتَقَلْقَلَتِ

الجامعة، ثُمَّ سقطت من يده ورقبته إِلَىٰ الأرض، فَوَثَبَ الحرسُ الَّذين كانوا معه فأعادوها عليه، ثُمَّ ساروا به، فلما أشرفوا عَلَىٰ عَتَبَةٍ أخرىٰ قرأ آيةً، فسقطت من رقبته ويده عَلَىٰ الأرض، فأعادوها عليه، فلمَّا قدموا عَلَىٰ عبد الملك حَبَسَهُ، وأمر رجالًا من أهل الفقه والعلم أن يَعِظُوه ويُخَوِّفوه الله، وَيُعْلِمُوه أنَّ هَذَا من الشيطان.

فأبَىٰ أن يَقْبَلَ منهم، فَصُلِبَ، وجاء رجلٌ بحربةٍ، فَطَعَنَهُ، فَانْثَنَتْ، فتكلَّم الناس، وقالوا: ما ينبغي لِمِثْلِ هَذَا أن يُقْتَلَ. ثُمَّ أَتَاهُ حَرَسُهُ بِرُمْحٍ دقيقٍ، فطَعَنَهُ بين ضِلْعَيْنِ من أَضْلاعِهِ، ثُمَّ هَزَّهُ وأَنْفَذَهُ، وسمعتُ من قال: قال عبد الملك للذي ضَرَبَهُ بالحربة لَمَّا انْثَنَتْ: أَذَكَرْتَ الله حين طَعَنْتَهُ؟ قال: نَسِيتُ. قال: فَاذْكُرِ الله ثُمَّ اطْعَنْهُ. فَذَكَرَ الله ثُمَّ طَعَنَهُ، فَأَنْفَذَهَا.

وكم اغْتَرَّ قَوْمٌ بِما يُشْبِهُ الكرامات، فقد روِّينا بإسنادٍ عن حسن، عن أبِي عمران، قال: قال لي فَرْقَد: يا أبا عمران، قد أَصْبَحْتُ اليومَ، وأنا مُهْتَمٌّ بضريبتِي وهي سِتَّةُ دَرَاهِمَ، وقد أَهَلَّ الهِلالُ، وليست عِنْدِي، فَدَعَوْتُ، فبينما أنا أمشي عَلَىٰ شَطِّ الفُرَاتِ إذا أنا بِسِتَّةِ دَرَاهِمَ، فَأَخَذْتُها، فَوَزَنْتُهَا، فإذا هي سِتَّةٌ لا تزيد ولا تَنْقُصُ. فقال: تَصَدَّقْ بِها؛ فإنَّها ليست لك.

قلتُ: أبو عمران هو ابن إبراهيم النَّخْعِيّ، فقيه أهل الكوفة، فانظروا إِلَىٰ كلام الفقهاء، وبُعْدِ الاغترار عنهم، وكيف أخبره أنَّها لُقَطَةٌ، ولَمْ يَلْتَفِتْ إِلَىٰ ما يُشْبِهُ الكَرَامَةَ، وإنَّما لم يَأْمُرْهُ بِتَعْرِيفِها؛ لأنَّ مذهبَ الكوفيِّين أنَّه لا يَجِبُ التَّعْرِيفُ لما دون الدِّينار، وكأنَّه إِنَّمَا أَمَرَهُ بالتَّصَدُّقِ بِها؛ لئلَّا يَظُنَّ أنَّه قد أُكْرِمَ بِأَخْذِهَا وإنفاقِها.

وبإسنادٍ عن إبراهيم الخراسانِيِّ أنَّه قال: احْتَجْتُ يومًا إِلَىٰ الوضوء، فإذا أنا بِكُوزٍ من جَوْهَرٍ، وَسِوَاكٍ من فِضَّةٍ رأسُه أَلْيَنُ من الخَزِّ، فَاسْتَكْتُ بالسِّوَاكِ، وَتَوَضَّأْتُ بالماء، وتَرَكْتُهُمَا، وَانْصَرَفْتُ.

قلتُ: فِي هَذِهِ الحكاية مَنْ لا يُوثَقُ بروايته، فَإِنْ صَحَّتْ دَلَّتْ عَلَىٰ قِلَّةِ علم هَذَا الرَّجُلِ؛

إذ لو كان يَفْهَمُ الفِقْهَ، عَلِمَ أَنَّ اسْتِعْمَالَ السِّوَاكِ الفِضَّةِ لا يجوز، ولكن قَلَّ عِلْمُهُ فاسْتَعْمَلَهُ، وإن ظَنَّ أنَّه كَرَامَةٌ، والله تعالىٰ لا يُكْرِمُ بِما يُمْنَعُ من استعمالِه شَرْعًا، إلَّا إن ظَهَرَ له ذلك عَلَىٰ سبيل الامتحان.

وذكر مُحمَّدُ بن أبِي الفضل الهمدانِيُّ المؤرِّخُ قال: حَدَّثَنِي أبِي قال: كان الشرمقانِيُّ المقرئُ يقرأ عَلَىٰ ابن العَلَّافِ، وكان يَأْوِي إلَىٰ المسجد بِدَرْبِ الزَّعْفَرانِيِّ، واتَّفَقَ أنَّ ابنَ العَلَّافِ رآه ذاتَ يَوْمٍ فِي وَقْتٍ مَجاعةٍ، وقد نزل إلَىٰ دِجْلَةَ وأخذ منه أوراق الخَسِّ مِمَّا يرمي به أصحابه، وجعل يأكله، فَشَقَّ ذلك عليه، وَأَتَىٰ إلَىٰ رَئِيسِ الرُّؤَسَاءِ، فأخبره بحالِه، فَتَقَدَّمَ إلَىٰ غُلامٍ بالقُرْبِ إلَىٰ المَسْجِدِ الَّذي يأتِي إليه الشرمقانِيُّ، أن يَعْمَلَ لبابه مِفْتَاحًا، مِنْ غير أن يُعْلِمَهُ، فَفَعَلَ، وَتَقَدَّمَ إليه أن يحمل كلَّ يَوْمٍ ثلاثةَ أرطالٍ خُبْزًا سَمِيذًا، ومعها دجاجةٌ، وحلوىٰ وسُكَّرًا.

فَفَعَلَ الغلامُ ذلك، وكان يَحْمِلُهُ عَلَىٰ الدَّوَامِ، فَأَتَىٰ الشرمقانِيُّ فِي أَوَّلِ يَوْمٍ، فَرَأَىٰ ذَلِكَ مطروحًا فِي القِبْلَةِ، ورأىٰ البَابَ مُغْلَقًا، فَتَعَجَّبَ، وقال فِي نفسه: هَذَا من الجَنَّةِ، وَيَجِبُ كِتْمَانُهُ، وألا أتحدَّث به؛ فَإِنَّ من شرط الكرامة كِتْمَانُهَا، وأنشدنِي:

مَــنْ أَطْلَعُــوهُ عَلَــى سِــرٍّ فَبَــاحَ بِــهِ ... لَــمْ يَــأْمَنُوهُ عَلَــى الأَسْــرَارِ مَــا عَاشَــا

فَلَمَّا اسْتَوَتْ حَالَتُهُ، وَأَخْصَبَ جِسْمُهُ، سأله ابن العلاف عن سبب ذلك، وهو عارفٌ به، وَقَصَدَ المِزَاحَ معه، فأخذ يُوَرِّي ولا يُصَرِّحُ، وَيُكَنِّي ولا يُفْصِحُ، ولَمْ يَزَلِ ابنُ العَلَّافِ يَسْتَخْبِرُهُ، حتَّىٰ أخبره أنَّ الَّذي يجده فِي المسجد كرامةٌ؛ إذ لا طَرِيقَ لِمَخْلُوقٍ عليه.

فقال له ابنُ العلاف: يَجِبُ أن تدعو لابن المسلمة؛ فَإِنَّه هو الَّذي فَعَلَ ذلك، فَتَنَغَّصَ عَيْشَهُ بِإِخْبَارِهِ، وبانت عليه شواهدُ الانكسار.

ولمَّا عَلِمَ العقلاءُ شِدَّةَ تلبيس إبليس، حَذَّروا من أشياء ظاهرُها الكرامةُ، وخافوا أن

تكون مِنْ تَلْبِيسِهِ.

رُوِّينا بإسنادٍ عن أبي الطَّيِّبِ يقول: سَمِعْتُ زهرون يقول: كَلَّمَنِي الطَّيْرُ، وذاك أنّي كُنْتُ فِي البادية، فَتُهْتُ، فَرَأَيْتُ طَائِرًا أَبْيَضَ، فقال لي: يا زهرون، أنت تَائِهٌ؟ فقلتُ: يا شيطانُ! غُرَّ غَيْرِي.

فقال لي: أنت تَائِهٌ. فقلتُ: يا شيطانُ، غُرَّ غَيْرِي. فَوَثَبَ فِي الثَّالثة، وصار عَلَىٰ كَتِفِي، وقال: ما أنا بِشَيْطَانٍ، أنت تَائِهٌ، أُرْسِلْتُ إليك. ثُمَّ غاب عَنِّي.

وبإسنادٍ عن مُحمَّد بن عبد الله قرشيٍّ قال: حَدَّثَنِي مُحمَّدُ بن يَحيَىٰ بن عمرو قال: حَدَّثَتْنِي زلفىٰ، قالت: قُلْتُ لرابعة العَدَوِيَّةِ: يا عَمَّةُ، لِمَ لا تَأْذَنِينَ للنَّاس يدخلون عليكِ؟ قالت: وما أرجو من الناس؟ إن أتوني حَكَوا عنِّي ما لَمْ أَفْعَلْ.

قال القرشيُّ: وَزَادَنِي غيرُ أبِي حاتم، أنَّها قالت: يَبْلُغُنِي أنَّهم يقولون إنِّي أجد الدَّراهم تحت مصلَّاي، وَيُطْبَخُ لي القِدْرُ بِغَيْرِ نارٍ، ولو رأيتُ مِثْلَ هَذَا فَزِعْتُ منه.

قالت: فقلتُ لَها: إنَّ النَّاسَ يُكْثِرُون فيك القول، يقولون: إنَّ رابعةَ تُصِيبُ فِي منْزلها الطَّعَامَ والشَّرابَ، فهل تَجِدِينَ شَيْئًا فيه؟ قالت: يا ابنةَ أَخِي لو وَجَدْتُ فِي منْزلي شَيْئًا ما مَسَسْتُهُ، ولا وَضَعْتُ يدي عليه.

قال القرشيُّ: وَحَدَّثَنِي مُحمَّدُ بن إدريس، قال: قال مُحمَّد بن عمرو: وَحَدَّثَتْنِي زلفىٰ عن رابعة، أنَّها أَصْبَحَتْ يَوْمًا صائمةً فِي يَوْمٍ باردٍ قالت: فنازعتنِي نفسي إلَىٰ شيءٍ من الطَّعَامِ السُّخْنِ أُفْطِرُ عليه، وكان عندي شَحْمٌ فقلتُ: لو كان عندي بَصَلٌ أو كُرَّاثٌ عَالَجْتُهُ، فإذا عصفورٌ قد جاء، فَسَقَطَ عَلَىٰ المِثْقَبِ فِي منقارِه بَصَلَةٌ، فلمَّا رَأَيْتُهُ أَضْرَبْتُ عمَّا أردتُ، وخِفْتُ أن يكون من الشيطان.

وبالإسناد عن مُحمَّد بن يزيد قال: كانوا يَرَوْنَ لوهيب أنَّه من أهل الجنة، فإذا أُخْبِرَ بِها

اشتدَّ بكاؤه، وقال: قد خشيتُ أن يكون هَذَا من الشيطان.

وبالإسناد عن أبِي عثمان النيسابوري يقول: خرجنا جَماعةٌ مع أستاذنا أبِي حفص النيسابوريِّ إلَىٰ خارج نيسابور، فجلسنا، فتكَلَّمَ الشيخُ علينا، فطابت أنفسُنا، ثُمَّ بَصُرْنَا، فإذا بِأيْلٍ قد نَزَلَ من الجَبَلِ، حتَّىٰ بَرَكَ بَيْنَ يَدَيِ الشَّيْخِ، فَأَبْكَاهُ ذلك بُكَاءً شَدِيدًا، فَلَمَّا سَكَنَ سألناه.

فقلتُ: يا أستاذ، تكَلَّمْتَ علينا، فطابت قلوبُنا، فلمَّا جاء هَذَا الوَحْشُ وَبَرَكَ بين يديك أزعجك وأبكاك؟ قال: نعم. رأيتُ اجتماعكم حولِي، وقد طابت قلوبكم، فوقع فِي قلبِي لو أنَّ شاةً ذَبَحْتُهَا ودعوتُكم عليها، فما تَحَكَّمَ هَذَا الخاطرُ حتَّىٰ جاء هَذَا الوَحْشُ، فَبَرَكَ بين يدي، فَخُيِّلَ لي أنِّي مِثْلُ فرعون الَّذي سأل رَبَّهُ أن يُجْرِي له النِّيلَ، فَأَجْرَاهُ.

قلتُ: فما يُؤَمِّنُنِي أن يكون اللهُ تعالىٰ يعطِينِي كلَّ حَظٍّ لي فِي الدُّنْيَا، وأبقىٰ فِي الآخرة فَقِيرًا لا شَيْءَ لي؟ فهَذَا الَّذي أزعجنِي.

وقد لبَّس إبليس عَلَىٰ قومٍ من المتأخِّرين، فوضعوا حكاياتٍ فِي كراماتِ الأولياء؛ ليشيدوا بِزَعْمِهِم أَمْرَ القوم، والحَقُّ لا يَحْتَاجُ إلَىٰ تشييدٍ بباطلٍ، فَكَشَفَ اللهُ تعالىٰ أَمْرَهُم بعلماء النَّقْلِ.

أخبرنا مُحمَّد بن ناصر، أنبأنا الحسن بن أحمد الفقيه، قال: نا مُحمَّد بن مُحمَّد الحافظ، قال: نا عبيد الله بن مُحمَّد الفقيه، قال أحمد بن عبد الله بن الحسن الأدميُّ، قال: حدَّثنِي أبِي، قال: قال سهل بن عبد الله، قال عمرو بن واصل -كذا فِي الرواية والصَّوَابُ: قال عمرو بن واصل: قال سهل بن عبد الله- صَحِبْتُ رجلًا من الأولياء فِي طريق مَكَّةَ، فَنَالَتْهُ فَاقَةٌ ثلاثةَ أيَّامٍ، فعدل إلَىٰ مسجدٍ فِي أصلِ جَبَلٍ، وإذا فيه بِئْرٌ عَلَيْهَا بَكَرَةٌ، وَحَبْلٌ، وَدَلْوٌ، ومطهرةٌ، وعند البئر شجرةُ رُمَّانٍ ليس فيها حمل.

فَأَقَامَ فِي المَسْجِدِ إِلَىٰ المَغْرِبِ، فلمَّا دخل الوقت، إذا بأربعين رجلًا عليهم المسوحُ، وفِي أرجلهم نِعَالُ الخُوصِ، قد دخلوا المسجد، فسلَّموا، وأذَّن أحدُهم، وأقام الصَّلاة، وَتَقَدَّمَ، فصلَّىٰ بِهم، فلمَّا فَرَغَ من صلاته، تَقَدَّمَ إِلَىٰ شَجَرَةٍ، فإذا فيها أربعون رُمَّانَةً غضَّةً طَرِيَّةً، فأخذ كُلُّ واحدٍ منهم رُمَّانَةً وانصرف.

قال: وبتُّ عَلَىٰ فاقتِي، فلمَّا كان فِي الوقت الَّذي يأخذون فيه الرُّمَّانُ، أقبلوا أَجْمَعِينَ، فَلَمَّا صَلَّوْا وأخذوا الرُّمَّانَ قُلْتُ: يا قومُ، أنا أخوكم فِي الإسلام، وبي فَاقَةٌ شَدِيدَةٌ، فلا كَلَّمْتُمُونِي ولا واسَيْتُمُونِي.

فقال رئيسُهم: إنَّا لا نُكَلِّمُ مَحْجُوبًا بِمَا معه، فَامْضِ واطْرَحْ ما معك وَرَاءَ هَذَا الجَبَلِ فِي الوادي، وارْجِعْ إلينا؛ حَتَّىٰ تَنَالَ ما نَنَالَ.

قال: فَرَقِيتُ الجَبَلَ، فلم تَسْمَحْ نفسي بِرَمْيِ ما معي، فَدَفَنْتُهُ وَرَجَعْتُ، فقال لِي: رَمَيْتَ ما معك؟ قلت: نعم. قال: فَرَأَيْتَ شيئًا؟ قلتُ: لا. قال: ما رَمَيْتَ شَيْئًا إذن، فارجع فارم به فِي الوادي.

فَرَجَعْتُ، فَفَعَلْتُ، فإذا قد غَشِيَنِي مِثْلُ الدرعِ، نورُ الولايةِ، فَرَجَعْتُ، فإذا فِي الشَّجَرَةِ رُمَّانَةٌ، فَأَكَلْتُهَا، وَاسْتَقْلَلْتُ بِها من الجُوعِ والعَطَشِ، ولَمْ أَلْبَثْ دونَ المُضِيِّ إِلَىٰ مَكَّةَ، فإذا أنا بالأربعين بين زمزم والمقام، فأقبلوا إِلَيَّ بأجمعهم يسألونَنِي عن حالي، وَيُسَلِّمُونَ عَلَيَّ، فَقُلْتُ: قد غَنِيتُ عَنْكُم وعن كلامِكم آخرًا، كما أغناكم اللهُ عن كلامي أوَّلًا، فما فيَّ لغير اللهِ مَوْضِعٌ.

قال المصنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: عمرو بن واصل ضَعَّفَهُ ابن أبِي حاتم، والآدَمِيُّ وأبوه مجهولان، وَيَدُلُّ عَلَىٰ أنَّها حِكَايَةٌ مَوْضُوعَةٌ قَوْلُهم: اطْرَحْ ما معك. لأنَّ الأَوْلِيَاءَ لا يُخالفون الشَّرْعَ، والشرع قد نَهىٰ عن إضاعة المال.

وقولُه: غشيني نورُ الولاية. فهَذِهِ حِكَايَةٌ مَصْنُوعَةٌ، وحديثٌ فارغٌ، ومثل هَذِهِ الحِكَايَةِ لا يَغْتَرُّ بِها مَنْ شَمَّ رَائِحَةَ العِلْمِ، إنَّما يَغْتَرُّ بِها الجُهَّالُ الَّذين لا بَصِيرَةَ لَهم.

أخبرنا مُحمَّد بن ناصر، قال: نا السَّهْلَكِيُّ، قال: سَمِعْتُ مُحمَّدَ بن عليٍّ الواعظ، قال: وفيما أفادنِي بعضُ الصُّوفِيَّة حاكيًا عن الجنيد قال: قال أبو موسىٰ الديْليُّ: دَخَلْتُ علىٰ أَبِي يزيدٍ، فإذا بين يديه ماءٌ واقفٌ يَضْطَرِبُ، فقال لي: تعال. ثُمَّ قال: إنَّ رَجُلًا سَأَلَنِي عن الحَيَاءِ، فتَكَلَّمْتُ عَلَيْهِ بِشَيْءٍ من علم الحياء، فدار دورانًا حتَّىٰ صار كذا كما ترىٰ وذاب.

قال الجنيدُ: وقال أحمد بن حضرويه: بَقِيَ منه قطعةٌ كقطعةِ جَوْهَرٍ، فَاتَّخَذْتُ منه فَصًّا، فَكُلَّمَا تَكَلَّمْتُ بكلامِ القَوْمِ أو سَمِعْتُ من كلام القوم، يَذُوبُ ذلك الفَصُّ، حتَّىٰ لَمْ يَبْقَ مِنْهُ شَيْءٌ.

قلتُ: وهَذِهِ من الحكاياتِ القبيحةِ الَّتي وَضَعَهَا الجُهَّالُ، ولولا أنَّ الجُهَّالَ يروونَها مسندةً فيظنُّونَها شَيْئًا، لكان الإضرابُ عن ذِكْرِهَا أَوْلَىٰ.

أنبأنا أبو بكر بن حبيب، قال: نا ابن أَبِي صادق، قال: ثنا ابن باكويه، قال: ثنا أبو حنيفة البغدادي، قال: ثنا عبد العزيز البغدادي، قال: كنت أنظر فِي حكايات الصُّوفِيَّةِ، فَصَعَدْتُ يَوْمًا السَّطْحَ، فَسَمِعْتُ قَائِلًا يقول: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٩٦﴾ [الأعراف:١٩٦]، فالتفتُّ، فلم أَرَ شيئًا، فَطَرَحْتُ نفسي من السَّطْحِ، فَوَقَفْتُ فِي الهواء.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: هَذَا كَذِبٌ مُحَالٌ لا يَشُكُّ فيه عاقلٌ، فلو قَدَّرْنَا صِحَّتَهُ، فَإِنَّ طَرْحَ نَفْسِهِ من السَّطْحِ حَرَامٌ، وَظَنَّهُ أنَّ الله يتولَّىٰ من فعل المَنْهِيَّ عنه؛ فقد قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:١٩٥]، فكيف يكون صالِحًا، وهو يخالف ربَّه، وعَلَىٰ تَقْدِيرِ ذلك، فَمَنْ أَخْبَرَهُ أنَّه مِنْهُم، وقد تَقَدَّمَ قَوْلُ عيسىٰ -صلوات الله عليه- للشَّيْطَانِ لَمَّا قال له: أَلْقِ نَفْسَكَ. قال: إنَّ الله يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ، وليس للعبد أن يَخْتَبِرَ رَبَّهُ؟

وقد انْدَسَّ فِي الصُّوفِيَّةِ أقوامٌ، وَتَشَبَّهُوا بِهِم، وشَطَحُوا فِي الكرامات وادَّعَائِهَا، وَأَظْهَرُوا للعَوَامّ مَخَارِيقَ صادوا بِها قُلُوبَهم، وقد روِّينا عن الحَلَّاجِ أنَّه كان يَدْفِنُ شيئًا من الخُبْزِ والشّوَاءِ والحَلْوَىٰ فِي موضعٍ من البَرِّيَّةِ، وَيُطْلِعُ بعضَ أصحابِه عَلَىٰ ذلك، فَإِذَا أصبح قال لأصحابه: إِنْ رَأَيْتُم أن نخرج عَلَىٰ وجه السِّيَاحَةِ. فَيَقُوم ويمشي، والنَّاسُ معه، فإذا جاءوا إِلَىٰ ذلك المكان، قال له صاحبُه الَّذي أَطْلَعَهُ عَلَىٰ ذلك: نَشْتَهِي الآنَ كذا وكذا.

فَيَتْرُكُهُمُ الحَلَّاجُ، وَيَنْزَوِي عنهم إِلَىٰ ذلك المكان، فَيُصَلِّي ركعتين، ويأتيهم بذلك، وكان يَمُدُّ يَدَهُ إِلَىٰ الهواء، وَيَطْرَحُ الذَّهَبَ فِي أيدي النَّاس ويمخرق، وقد قال له بعضُ الحاضرين يومًا: هَذِهِ الدَّرَاهِمُ معروفةٌ، ولكن أُؤْمِنُ بك إذا أَعْطَيْتَنِي درهمًا عليه اسمُك واسمُ أبيك. وما زال يُمَخْرِقُ إِلَىٰ وَقْتِ صَلْبِهِ.

حدَّثنا أبو منصور القزاز، قال: نا أبو بكر بن ثابت، نا عبيد الله بن أحمد بن عثمان الصيرفي، ثنا أبو عمر بن حيويه، قال: لَمَّا أُخْرِجَ حسينُ الحلاج للقَتْلِ مَضَيْتُ فِي جُمْلَةِ الناس، فَلَمْ أَزَلْ أُزَاحِمُ حَتَّىٰ رَأَيْتُهُ، فقال لأصحابه: لا يَهُولَنَّكُم هَذَا؛ فَإِنِّي عَائِدٌ إِلَيْكُم بعد ثلاثين يومًا.

وكان اعْتِقَادُ الحلاج اعْتِقَادًا قَبِيحًا، وقد بَيَّنَّا فِي أَوَّلِ هَذَا الكتاب شَيْئًا من اعتقادِه، وَتَخْلِيطِهِ، وَبَيَّنَّا أَنَّه قُتِلَ بِفَتْوَىٰ فُقَهَاءِ عَصْرِهِ، وقد كان فِي المتأخِّرين من يُطْلِي بِدُهْنِ الطلقِ، ويقعد فِي التَّنُّورِ، وَيُظْهِرُ أَنَّ هَذَا كَرَامَةٌ.

قال ابن عقيل: وكان ابنُ الشَّبَّاسِ وَأَبُوه قَبْلَهُ لَهم طيورٌ سَوَابِقُ، وأصدقاء، فِي جَمِيعِ البِلادِ، فَيَنْزِل بِهم قَوْمٌ، فيرفع طائرًا فِي الحال إِلَىٰ قريتهم، يُخْبَرُ بخبر من له هناك بنُزُولِهم، وَيَسْتَعْلِمُهُ من أحوالِهم، وما تَجَدَّدَ هُنَاكَ بَعْدَهُم، قَبْلَ أن يجتمع عليهم، وَيَسْتَعْلِمُ حالَهم، فيكتب ذلك إليه الجواب، ثُمَّ يجتمع بِهم، فَيُخْبِرُهُم بتلك الحوادث، وَيُحَدِّثُهُم بأحوالِهم

حَدِيثَ مَنْ هُوَ مَعَهُم، ومعاشِرُهم فِي بلادهم، ثُمَّ يُحَدِّثُهم بِما تَجَدَّدَ بعدَهم.

وفِي يَوْمِهِ ذلك، فيقول: السَّاعَةَ تَجَدَّدَ كَذَا وكذا. فَيُدْهَشُونَ، وَيَرْجِعُونَ إِلَىٰ رِسْتَاقِهِم، فَيَجِدُونَ الأَمْرَ عَلَىٰ ما قال، وَيَتَكَرَّرُ هَذَا مِنْهُ، فَيَصِيرُ عِنْدَهم كالقَطْعِيِّ عَلَىٰ أَنَّه يَعْلَمُ الغَيْبَ.

قال: وما كان يَفْعَلُهُ أَنَّه يَأْخُذُ طَيْرَ عُصْفُورٍ، وَيَشُدُّ فِي رِجْلِهِ تلفكًا، ويجعل فِي التلفك بِطَاقَةً صَغِيرَةً، وَيَشُدُّ فِي رِجْلِ حمامةٍ تلفكًا، وَيَشُدُّ فِي طرف التلفك كتابًا أكبر من ذلك، ويجعله بين يديه، ويجعل العُصْفُورَ بيدٍ، وَيَأْخُذُ غُلامًا له فِي السَّطْحِ، والحمامةُ بِيَدٍ آخر، فيه ما فِي ذلك البطاقة الصَّغيرة، وَيُطْلِقُ الطَّائِرَ العُصْفُورَ، فينظر الناسُ الكتابَ وهو طائرٌ فِي الهواء، فَيَرُوحُ الحمامُ إِلَىٰ تلك القَرْيَةِ، فيأخذه صَدِيقُه الَّذي هناك، ثُمَّ يخبره بجميع أمور القَرْيَةِ، وأصحابِها، فلمَّا يتكامل مَجْلِسُهُ بالنَّاس يشير، وينادي يا بارش كأَنَّه يخاطب شَيْطَانًا اسْمُهُ بارش.

ويقول: خُذْ هَذَا الكتاب إِلَىٰ قرية فلان، فقد جَرَتْ بينهم خصومةٌ، فَاجْتَهِدْ فِي إصلاحِ ذَاتِ بَيْنِهِم. وَيَرْفَعُ صَوْتَهُ بذلك، فَيُسَرِّحُ غلامُه المترصِّدُ العُصْفُورَ الَّذي فِي يَدِهِ، فَيَرْفَعُ الكتابُ نَحْوَ السَّمَاءِ بِحَضْرَةِ الجماعة، يرونه عيانًا من غير أن يروا التلفك، فإذا ارتفع الكتابُ، جَذَبَهُ الغلامُ المُقَيِّدُ بالعصفور، وَقَطَعَ التلفكَ حتَّىٰ لا يُرَىٰ، وَيُرْسِلُ العصفورَ إِلَىٰ تلك القرية؛ لِيُصْلِحَ الأمرَ، وكذلك يَفْعَلُ بالحمامة.

ثُمَّ يقول لغلامه: هات الكتاب. فَيُلْقِيهِ الغلامُ الَّذي فِي السَّطْحِ الَّذي قد جاءه خَبَرٌ ما فِي القرية الَّتي هؤلاء منها، ثُمَّ يَكْتُبُ كتابًا إِلَىٰ دهقان تلك القرية، فيشدُّ به تلفكًا، ويجعله فِي رِجْلِ عصفورٍ كما قَدَّمْنَا، ويُطْلِقُهُ حتَّىٰ يعلو سطح المكان، فيأخذه ذلك الغلامُ، فَيَشُدُّه فِي رِجْلِ طَيْرِ حَمَامٍ، فيروح إِلَىٰ تلك القرية بذلك الكتاب، فيصلح بين الناس الَّذين قد أتاهم خبرُهم بالمشاجَرة، فتخرج الجماعةُ الَّذين من تلك القرية، فيجدون كتابَ الشيخ قد وصل

لَهم، وقد اجتمع دهاقين القرية، وأصلحوا بينهم، فيجيء ذلك، فيخبرهم، فلا يَشُكُّون فِي ذلك أنَّه يعلم الغيب، ويتحقَّق هَذَا فِي قلوب العَوَامِّ.

قال ابن عقيل: وإنَّما أَوْرَدْتُ مِثْلَ هَذَا، لِيُعْلَمَ أنَّه قد ارتفع القومُ إِلَىٰ التَّلاعُبِ بالدِّينِ، فَأَيُّ بَقَاءٍ للشَّرِيعَةِ مع هَذَا الحَالِ؟

قلتُ: ابنُ الشَّبَّاسِ هَذَا كان يُكْنَىٰ أبا عبد الله، والشَّبَّاسُ هو أبوه، كان يُكْنَىٰ أَبا الحَسَنِ، واسمُ الشباس عليُّ بن الحسين بن مُحمَّد البغداديُّ، تُوُفِّيَ بالبَصْرَةِ سنةَ أَرْبَعٍ وأربعين وأربع مئة، وكان الشَّبَّاسُ وأبوه وعمُّه مُسْتَقِرِّينَ بِالبَصْرَةِ.

وكانت مذاهبُهم تَخفَىٰ عَلَىٰ النَّاس، إلَّا أنَّ الأغلبَ أنَّهم كانوا من الشِّيعَةِ الإماميَّة، والغلاةِ الباطنيَّة.

وقد ذَكَرْتُ فِي «التاريخ» عن ابن الشَّبَّاسِ، أَنَّ بَعْضَ أَصْحَابِهِ اكْتُشِفَتْ له نارٌ بخيانته وزَخَارِفِهِ، وكانت تَخفَىٰ عَلَىٰ الناس، إِلَىٰ أن كَشَفَهَا بَعْضُ أصحابه من الشِّيعَةِ الإماميَّةِ الباطنيَّةِ للنَّاس، فَلَمَّا كَشَفَهَا للنَّاسِ وَبَيَّنَهَا، فكان مِمَّا حَدَّثَ به عنه، أنَّه قال: حَضَرْنَا يَوْمًا عندَه، فَأَخْرَجَ جَدْيًا مشويًّا، فَأَمَرَنَا بِأَكْلِهِ، وأن نكسر عَظْمَهُ، ولا نُهَشِّمَهَا.

فلمَّا فَرَغْنَا أَمَرَ بِرَدِّهَا إِلَىٰ التَّنُّورِ، وَتَرَكَ عَلَىٰ التَّنُّورِ طَبَقًا، ثُمَّ رَفَعَهُ بَعْدَ سَاعَةٍ، فَوَجَدْنَا جَدْيًا حَيًّا يَرْعَىٰ حشيشًا، ولَمْ نَرَ للنَّارِ أَثَرًا، ولا للرَّمَادِ ولا للعظام خَبَرًا.

قال: فَتَلَطَّفْتُ حتَّىٰ عرفتُ ذلك، وذلك أنَّ التَّنُّورَ يُفْضِي إِلَىٰ سِرْدَابٍ، وبينهما طَبَقٌ نُحَاسٌ بِلَوْلَبٍ، فإذا أراد إزالةَ النَّار عنه فَرَكَهُ، فينْزل عَلَيْهِ فَيَسُدُّهُ، وينفتح السِّرْدَابُ، وإذا أراد أن يُظْهِرَ النَّارَ، أَعَادَ الطَّبَقَ إِلَىٰ فَمِ السِّرْدَابِ، فَتُرَىٰ للناس.

قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ: وقد رَأَيْنَا فِي زَمَانِنَا مَنْ يُشِيرُ إِلَىٰ الملائكة، ويقول: هؤلاءِ ضَيْفٌ مُكْرَمُون، يُوهِمُ أنَّ الملائكةَ قد حَضَرَتْ، وَيَقُولُ لَهم: تَقَدَّمُوا إِلَيَّ. وَأَخَذَ رَجُلٌ فِي زَمَانِنَا

إِبْرِيقًا جديدًا، فَتَرَكَ فيه عسلًا، فَتَشَرَّبَ فِي الخَزَفِ طعمُ العَسَلِ، واستصحب الإبريق فِي سفره، فكان إذا غَرَفَ به المَاءَ من النَّهْرِ وَسَقَىٰ أَصْحَابَهُ، وَجَدُوا طَعْمَ العسل.

وما فِي هؤلاء مَنْ يَعْرِفُ اللهَ، ولا يَخَافُ فِي الله لومة لائم، نعوذ بالله من الخذلان.

الباب الثاني عشر
في ذكر تلبيس إبليس على العوام

قد بَيَّنَّا أَنَّ إِبْلِيسَ إِنَّمَا يَقْوَىٰ تَلْبِيسُهُ عَلَىٰ قَدْرِ قُوَّةِ الجَهْلِ، وقد افْتَنَّ فيما فَتَنَ به العَوَامَّ، وَحَصْرُ ما فَتَنَهم ولبَّس عليهم فيه، لا يُمْكِنُ ذِكْرُهُ؛ لِكَثْرَتِهِ، وإنَّما نَذْكُرُ من الأُمَّهَاتِ ما يُسْتَدَلُّ به عَلَىٰ جِنْسِهِ، والله المُوَفِّقُ.

فمن ذلك أنَّه يأتِي إِلَىٰ العامِّيِّ، فيحمله عَلَىٰ التَّفَكُّرِ فِي ذات الله عَزَّوَجَلَّ وصفاته فيتشكَّك.

وقد أخبرنا رسول الله ﷺ عن ذلك فيما رواه أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «تُسْأَلُونَ حَتَّىٰ تَقُولُوا: هَذَا اللهُ خَلَقَنَا، فَمَنْ خَلَقَ اللهَ»(١).

قال أبو هريرة: فوالله إنِّي لجالسٌ يومًا إذ قال لي رجلٌ من أهل العراق: هَذَا الله خَلَقَنَا، فَمَنْ خَلَقَ اللهَ؟ قال أبو هريرة: فَجَعَلْتُ أصبعي فِي أُذُنِي ثُمَّ صِحْتُ: صَدَقَ رسول الله، اللهُ الواحدُ الأحد الصَّمَدُ، لَمْ يَلِدْ ولَمْ يُولَدْ، ولَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ.

وبإسنادٍ عن عائشةَ قالت: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْتِي أَحَدَكُم فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَكَ؟ فَيَقُولُ: اللهُ. فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ؟ فَيَقُولُ: اللهُ. فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ اللهَ؟ فَإِذَا وَجَدَ أَحَدُكُم شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، فَلْيَقُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ وَرَسُولِهِ»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٧٦)، ومسلم (١٣٤).

(٢) أخرجه أحمد (٢٥٦٧١)، وصححه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١٥٤٢).

قال المصنفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَإِنَّما وَقَعَتْ هَذِهِ المِحْنَةُ لِغَلَبَةِ الحِسِّ، وهو أنَّه ما رأىٰ شيئًا إلَّا مَفْعُولًا.

وَلْيُقَلْ لِهَذَا العَامِّيِّ: أَلَسْتَ تَعْلَمُ أَنَّ خَلْقَ الزَّمان لا فِي الزَّمان، والمكان لا فِي المكان، فإذا كانت هَذِهِ الأرض، وما فيها لا فِي مكان، ولا تحتها شيءٌ، وَحِسُّكَ يَنْفِرُ من هذا؛ لأنَّه ما أَلِفَ شَيْئًا إلَّا فِي مَكَانٍ، فلا يَطْلُبُ بِالحِسِّ من لا يعرف بالحِسِّ، وَشَاوِرْ عَقْلَكَ؛ فَإِنَّه سَلِيمُ المُشَاوَرَةِ.

وتارةً يُلَبِّسُ إِبْلِيس عَلَىٰ العَوَامِّ عند سماعِ صِفَاتِ الله عَزَّوَجَلَّ فَيَحْمِلُونَها عَلَىٰ مُقْتَضَىٰ الحِسِّ، فَيَعْتَقِدُون التَّشْبِيهَ[1].

وتارةً يُلَبِّسُ عليهم من جهة العصبيَّة للمذاهب، فترىٰ العامِّيَّ يلاعن، ويُقاتل فِي أمرٍ لا يعرف حقيقته.

فمنهم من يَخُصُّ بعصبيَّته أبا بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ومنهم من يَخُصُّ عَلِيًّا، وكم قد جَرَىٰ فِي هَذَا من الحُرُوبِ، وقد جَرَىٰ فِي هَذَا بين أهل الكرخ، وأهل باب البصرة، عَلَىٰ مَرِّ السِّنين من القتل، وإحراق المحالِّ، ما يَطُولُ ذِكْرُهُ، وترىٰ كثيرًا مِمَّن يُخَاصِمُ فِي هَذَا يَلْبَسُ الحَرِيرَ، وَيَشْرَبُ الخَمْرَ، ويَقْتُلُ النَّفْسَ، وأبو بكرٍ وعليٌّ بَرِيئَانِ منهم.

وقد يحسُّ العامِّيُّ فِي نفسه نَوْعَ فَهْمٍ، فَيُسَوِّلُ له إبليس مُخَاصَمَةَ رَبِّهِ، فمنهم من يقول لِرَبِّهِ: كيف قَضَىٰ وعاقب؟

ومنهم من يقول: لِمَ ضَيَّقَ رِزْقَ المُتَّقِي، وَأَوْسَعَ عَلَىٰ العَاصِي؟

---

(١) أهل السنة والجماعة (السلف وأتباعهم) يثبتون أسماء الله وصفاته الواردة في الكتاب العزيز والسنة الكريمة، بدون تشبيه ولا تعطيل، ولا يتبادر إلىٰ أذهانهم عند قراءتها أو سماعها تشبيه ولا تمثيل، بل يقولون ويعتقدون ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورىٰ:١١]. [زيد المدخلي]

ومنهم طائفةٌ: تَشْكُرُ عَلَىٰ النِّعَمِ، فإذا جاء البَلاءُ اعْتَرَضَ وَكَفَرَ.

ومنهم من يقول: أيُّ حِكْمَةٍ فِي هَدْمِ هَذِهِ الأَجْسَامِ؟ يعذِّبُها بالفَنَاءِ بعد بنائها؟

ومنهم: من يَسْتَبْعِدُ البَعْثَ.

ومن هؤلاء: من يَخْتَلُّ عليه مقصودُه، أو يُبْتَلَىٰ ببلاءٍ، فيكفر ويقول: أنا ما أُرِيدُ أُصَلِّي.

وربَّما غلب فاجرٌ نصرانِيٌّ مؤمنًا فَقَتَلَهُ، أو ضَرَبَهُ، فيقول العوامُّ: قد غلب الصَّليب، ولماذا نصلِّي إذا كان الأمر كذلك؟ وكلُّ هَذِهِ الآفاتِ تَمَكَّنَ بِها منهم إبليس؛ لِبُعْدِهِم عن العلم والعلماء، فلو أنَّهم استفهموا أهلَ العلم والعلماء.

فلو أنَّهم استفهموا أهل العلم لأخبروهم أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ حكيمٌ ومالكٌ، فلا يَبْقَىٰ مع هَذَا اعْتِرَاضٌ.

ومن العَوَامِّ مَنْ يَرْضَىٰ عن عَقْلِ نَفْسِهِ، فلا يُبَالِي بِمُخَالَفَةِ العلماءِ، فمتىٰ خَالَفَتْ فَتْوَاهُ غَرَضَهُ، أَخَذَ يَرُدُّ عليهم، وَيَقْدَحُ فيهم.

وقد كان ابن عقيل يقول: قد عِشْتُ هَذِهِ السِّنين، فلو أَدْخَلْتُ يدي فِي صَنْعَةِ صانعٍ لقال: أَفْسَدْتَهَا عَلَيَّ. فلو قُلْتُ: أنا رجلٌ عالمٌ. لقال: بارك الله لك فِي عِلْمِكَ، ليس هَذَا من شُغْلِكَ، هَذَا وَشُغْلُهُ أَمْرٌ حِسِّيٌّ لو تعاطيتَه فَهِمْتَهُ، والَّذي أنا فيه من الأمور أَمْرٌ عَقْلِيٌّ، فَإِذَا أَفْتَيْتَهُ لَمْ يُقْبَلْ.

ومِن تَلْبِيسِهِ عليهم تقديمُهم المتزهِّدين عَلَىٰ العلماء، فلو رَأَوا جُبَّةَ صوفٍ عَلَىٰ أجهل النَّاس عَظَّموه، خُصُوصًا إذا طَأْطَأَ رأسَه، وتخشَّع لَهم، ويقولون: أين هَذَا من فلانٍ العالم، ذاك طالبُ الدُّنيا، وهَذَا زاهدٌ لا يأكل عِنَبَةً ولا رطبةً، ولا يتزوَّجُ قَطُّ، جَهْلًا منهم بفضل العالم عَلَىٰ الزَّاهِدِ، وإيثارًا للمتزهِّدين عَلَىٰ شريعة مُحمَّد بن عبد الله ﷺ.

وَمِنْ نِعْمَةِ الله تَعَالَىٰ عَلَىٰ هؤلاء، أنَّهم لَمْ يُدْرِكُوا رسول الله ﷺ؛ إِذْ لَوْ رَأَوهُ يُكْثِرُ

التَّزْوِيجَ وَيَصْطَفِي السَّبايا، ويأكل لَحْمَ الدَّجَاجِ، ويحبُّ الحَلْوَىٰ والعَسَلَ، لَمْ يَعْظُمْ فِي صدورِهم.

ومن تَلْبِيسِهِ عليهم قَدْحُهُم فِي العلماء، بِتَنَاوُلِ المُبَاحَاتِ، وذلك من أقبح الجَهْلِ، وأكثرُ ميلهم إِلَىٰ الغُرَبَاءِ؛ فهم يُؤْثِرُون الغَرِيبَ عَلَىٰ أهلِ بَلَدِهِم مِمَّن قد خَبِرُوا أَمْرَهُ، وَعَرَفُوا عقيدتَه، فَيَمِيلُونَ إِلَىٰ الغَرِيبِ، ولعلَّه من الباطنيَّة.

وإِنَّما يَنْبَغِي تسليم النُّفُوس إِلَىٰ من خَبِرَتْ مَعْرِفَتَهُ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النساء:٦]، وَمَنَّ اللهُ سبحانه فِي إرسال مُحمَّدٍ ﷺ إِلَىٰ الخَلْقِ بأَنَّهم يَعْرِفُونَ حَالَهُ، فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران:١٦٤]، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾ [الأنعام:٢٠].

وقد يَخْرُجُ بالعوامِّ تعظيمُ المتزهِّدين إِلَىٰ قبول دعاويهم، وإن خرقوا الشَّريعة، وَخَرَجُوا عن حدودِها، فَتَرَىٰ المُتَنَمِّسَ يقول للعامِّيِّ: أنت فَعَلْتَ بالأمس كذا، وسَيَجْرِي عليك كذا. فَيُصَدِّقُهُ، ويقول: هَذَا يتكلَّم عَلَىٰ الخاطر. ولا يَعْلَمُ أَنَّ ادِّعَاءَ الغَيْبِ كُفْرٌ.

ثُمَّ يَرَوْنَ من هؤلاء المتنمِّسين أمورًا لا تَحِلُّ، كمؤاخاة النِّساء، والخلوة بِهِنَّ، ولا يُنْكِرُونَ ذلك؛ تسليمًا لَهم أحوالَهم.

وَمِنْ تَلْبِيسِهِ عَلَىٰ العَوَامِّ إِطْلاقُهُم أَنْفُسَهم فِي المَعَاصِي، فإذا وُبِّخُوا تكلَّموا كلامَ زَنَادِقَةٍ.

فمنهم من يقول: لا أَتْرُكُ نَقْدًا لِنَسِيئَةٍ. ولو فهموا لَعَلِمُوا أَنَّ هَذَا ليس بِنَقْدٍ؛ لأَنَّه مُحَرَّمٌ، وإنَّما يُخَيَّرُ بين النَّقْدِ والنَّسيئة المباحَيْنِ، فَمَثَلُهم كَمَثَلِ مَحْمُومٍ جاهلٍ يَأْكُلُ العسلَ، فإذا عُوتِبَ قال: الشَّهْوَةُ نَقْدٌ والعَافِيَةُ نَسِيئَةٌ.

ثُمَّ لو علموا حقيقةَ الإيمان، لَعَلِمُوا أَنَّ تِلْكَ النَّسِيئَةَ وَعْدٌ صادِقٌ لا يُخْلَفُ، وَلَوْ عَمِلُوا

عَمَلَ التُّجَّارِ الَّذين يُخَاطِرُون بِكَثِيرٍ من المال، لِمَا يرجونه من الرِّبح القليل، لَعَلِمُوا أَنَّ ما تركوه قَلِيلٌ، وما يَرْجُونَهُ كَثِيرٌ.

ولو أَنَّهم مَيَّزُوا بينَ ما آثَرُوا وما أفاتوا أنفسهم، لَرَأَوا تَعْجِيلَ ما تعجَّلوا إذ فاتَهم الرِّبْحُ الدَّائمُ، وأوقعهم فِي العذاب الَّذي هو الخسران المبين الَّذي لا يتلافىٰ.

ومنهم من يقول: الرَّبُّ كَرِيمٌ، والعفوُ واسعٌ، والرَّجَاءِ من الدِّين، فيسمُّون تمنِّيهم واغترارَهم رجاءً، وهذا الَّذي أَهْلَكَ عامَّةَ المذنبين.

قال أبو عمرو بن العلاء: بَلَغَنِي أَنَّ الفَرَزْدَقَ جَلَسَ إِلَىٰ قومٍ، يتذكَّرون رَحْمَةَ اللهِ، فكان أَوْسَعَهم فِي الرَّجَاءِ صَدْرًا، فقالوا له: لِمَ تَقْذِفُ المُحْصَنَاتِ؟ فقال: أَخْبِروني لو أذنبتُ إلىٰ والديَّ ما أَذْنَبْتُهُ إِلَىٰ رَبِّي عَزَّوَجَلَّ أَتَرَاهُمَا كانا يَطِيبَانِ نَفْسًا أن يَقْذِفَانِي فِي تَنُّورٍ مملوءٍ جَمْرًا؟ قالوا: لا. إِنَّما كانا يَرْحَمَانَكَ. قال: فَإِنِّي أَوْثَقُ بِرَحْمَةِ رَبِّي منهما.

قلتُ: وهَذَا هو الجَهْلُ المَحْضُ؛ لأَنَّ رَحْمَةَ الله عَزَّوَجَلَّ ليست بِرِقَّةِ طَبْعٍ، ولو كانت كذلك لَمَا ذُبِحَ عصفورٌ، ولا أُمِيتَ طِفْلٌ، ولا أُدْخِلَ أَحَدٌ جهنَّم [١].

وبإسنادٍ عن عبَّادٍ، قال الأصمعيُّ: كنتُ مع أَبِي نَوَّاسٍ بِمَكَّةَ، فإذا أنا بغلامٍ أَمْرَدَ يَسْتَلِمُ الحجرَ الأسود.

فقال لِي أبو نواس: واللهِ لا أَبْرَحُ حتَّىٰ أُقَبِّلَهُ عند الحجر الأسود، فقلتُ: وَيْلَكَ اتَّقِ اللهَ عَزَّوَجَلَّ فإنَّك ببلدٍ حرامٍ، وعند بَيْتِهِ الحرام. فقال: ما منه بُدٌّ. ثُمَّ دنا من الحجر، فجاء الغلامُ يَسْتَلِمُهُ، فبادر أبو نواسٍ، فوضع خَدَّهُ عَلَىٰ خَدِّ الغُلامِ فَقَبَّلَهُ، وأنا أنظر، فَقُلْتُ: وَيْلَكَ، أَفِي

---

(١) رحمة الله عَزَّوَجَلَّ صفة من صفاته، لها الكمال المطلق، لا تشبه رحمة المخلوق، كغيرها من صفات الباري ذات الكمال والجلال، ولا تضرب الأمثال لباب أسماء الله الحسنىٰ وصفاته العليا، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [النحل:٧٤]. [زيد المدخلي]

حَرَمِ الله عَزَّوَجَلَّ؟ فقال: دَعْ ذا عنك؛ فَإِنَّ ربِّي رحيمٌ. ثُمَّ أنشد يقول:

وَعَاشِقَانِ التَفَّ خَدَّاهُمَا عِنْدَ اسْتِلامِ الحَجَرِ الأَسْوَدِ
فَاشْتَفَيَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَأْثَمَا كَأَنَّمَا كَانَا عَلَى مَوْعِدِ

قلت: انظروا إِلَىٰ هَذِهِ الجُرْأَةِ الَّتي نَظَرَ فيها إِلَىٰ الرَّحْمَةِ، وَنَسِيَ شِدَّةَ العقاب بانتهاك تلك الحُرْمَةِ، وقد ذكرنا فِي أوّل الكتاب هَذَا الكتاب أنَّ رَجُلًا زَنَىٰ بامرأةٍ فِي الكعبة، فَمُسِخَا حَجَرَيْنِ.

ولقد دخلوا عَلَىٰ أبي نواسٍ فِي مَرَضِ مَوْتِهِ فقالوا له: تُبْ إِلَىٰ الله عَزَّوَجَلَّ. فقال: إِيَّايَ تُخَوِّفون! حَدَّثَنِي حمادُ بن سلمة، عن يزيد الرقاشيِّ، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**لِكُلِّ نَبِيٍّ شَفَاعَةٌ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ شَفَاعَتِي لأَهْلِ الكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي**»(١). أفترىٰ لا أكون أنا منهم؟

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَخَطَأُ هَذَا الرَّجُلِ مِنْ وَجْهَيْنِ:

أحدهُما: أنَّه نَظَرَ إِلَىٰ جانب الرَّحْمَةِ، ولَمْ ينظر إِلَىٰ جانب العقاب.

والثانِي: أنَّه نَسِيَ أَنَّ الرَّحْمَةَ إنَّما تكون لتائبٍ، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ ﴾ [طه:٨٢]، وقال: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف:١٥٦]، وهَذَا التَّلْبِيسُ هو الَّذي يُهْلِكُ عَامَّةَ العَوَامِّ، وقد كَشَفْنَاهُ فِي ذِكْرِ أَهْلِ الإباحة.

فصل [الجاهل والعالم في باب التكليف سواء]

ومن العَوَامِّ من يقول: هؤلاءِ العلماء يُحافظون عَلَىٰ الحُدودِ، فلانٌ يفعل كذا، وفلانٌ يفعل كذا، فَأَمْرِي أنا قريبٌ.

(١) أخرجه البخاري (٦٣٠٤)، ومسلم (١٩٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وَكَشْفُ هَذَا التَّلبيس أنَّ الجاهلَ والعالمَ فِي باب التَّكْلِيفِ سَوَاءٌ؛ فَغَلَبَةُ الهَوَىٰ للعالم لا يكون عُذْرًا للجاهل.

وبعضُهم يقول: ما قَدْرُ ذنبي حتَّىٰ أُعَاقَبَ؟ ومن أنا حتَّىٰ أُؤَاخَذَ، وذنبي لا يَضُرُّه، وطاعتِي لا تَنْفَعُهُ، وعفوُه أعظمُ من جُرْمِي؟ كما قال قائلُهم:

مَــنْ أَنَــا عِنْــدَ اللهِ حَتَّــى إِذَا أَذْنَبْــتُ لا يَغْفِــرُ لِــي ذَنْبِــي

وهَذِهِ حَمَاقَةٌ عَظِيمَةٌ، كأنَّهمُ اعْتَقَدُوا أنَّه لا يُؤَاخِذُ إلَّا ضِدًّا أو نِدًّا، ثُمَّ ما عَلِمُوا أنَّه بالمُخَالَفَةِ قد صاروا فِي مقامِ مُعَانِدٍ.

وسمع ابن عقيل رَحِمَهُ اللهُ **رجلًا يقول**: مَنْ أَنَا حتَّىٰ يُعَاقِبَنِي اللهُ؟ فقال له: أنت الَّذي لو أمات اللهُ جَمِيعَ الخلائق، وَبَقِيتَ أنت، لكان قَوْلُهُ تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة:٢١] خِطَابًا لك.

ومنهم من يقول: سَأَتُوبُ وَأُصْلِحُ، وكم من أبله ساكن الأمل فاختطفه الموتُ قَبْلَهُ.

وليس من الحَزْمِ تعجيلُ الخطأ، وانتظارُ الصَّواب، وربَّما لَمْ تَتَهَيَّأِ التَّوْبَةُ، وربَّما لَمْ تَصِحَّ، وربَّما لَمْ تُقْبَلْ، ثُمَّ لو قُبِلَتْ بَقِيَ الحَيَاءُ مِنَ الجِنَايَةِ أبدًا؛ فَمَرَارَةُ خاطر المعصية حتَّىٰ تذهب، أَسْهَلُ من معاناة التَّوْبَةِ حتَّىٰ تُقْبَلَ، ومنهم من يتوب ثُمَّ يَنْقُضُ، فَيَلِجُ عليه إبليس بالمكائد؛ لِعِلْمِهِ بِضَعْفِ عَزْمِهِ.

وبإسنادٍ عن الحسن أنَّه قال: إذا نَظَرَ إليك الشَّيْطَانُ ورآك عَلَىٰ غَيْرِ طَاعَةِ الله تعالىٰ فَنَعَاكَ، وإذا رآك مداومًا عَلَىٰ طاعةِ الله مَلَّكَ وَرَفَضَكَ، وإذا رآك مَرَّةً هكذا ومرَّةً هكذا، طَمِعَ فيك.

ومن تَلْبِيسِهِ عليهم أن يكون لأحدهم نَسَبٌ معروفٌ، فَيَغْتَرُّ بِنَسَبِهِ فيقول: أنا من أولاد أبِي بكر. وهَذَا يقول: أنا من أولاد عليٍّ. وهَذَا يقول: أنا شريفٌ من أولاد الحسن أو

الحسين. أو يقول: أنا قريبُ النَّسَبِ من فلانٍ العالم، أو من فلانٍ الزَّاهد.

وهؤلا يَبْنُونَ أَمْرَهُم عَلَىٰ أَمْرَيْنِ:

أحدُهُما: أنَّهم يقولون: مَنْ أَحَبَّ إنسانًا أَحَبَّ أولادَه وأهلَه.

والثانِي: أنَّ هؤلاء له شفاعة، وأحقُّ من شفعوا فيه أهلوهم وأولادُهم.

وكلا الأمرين غَلَطٌ.

أمَّا المَحَبَّةُ: فليس مَحَبَّةُ الله عَزَّوَجَلَّ كَمَحَبَّةِ الآدَمِيِّين، وإنَّما يُحِبُّ مَنْ أطاعه؛ فَإِنَّ أَهْلَ الكتاب من أولاد يعقوب، ولَمْ ينتفعوا بآبائهم، ولو كانت مَحَبَّةُ الأب تَسْرِي، لَسَرَتْ إِلَىٰ البَغْضِ أيضًا.

وأمَّا الشَّفَاعَةُ فقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨]، وَلَمَّا أَرَادَ نُوحٌ حَمْلَ ابنِه فِي السفينة، قيل له: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود:٤٦]، ولَمْ يَشْفَعْ إِبْرَاهِيمُ فِي أَبِيهِ، ولا نبيُّنا فِي أُمِّهِ، وقد قال ﷺ لفاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «لا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا»(١). وَمَنْ ظَنَّ أنَّه يَنْجُو بِنَجَاةِ أَبِيهِ كمن ظنَّ أنَّه يشبع بِأَكْلِ أبيه.

ومن تلبيسه عليهم: أن يَعْتَمِدَ أحدُهم عَلَىٰ خَلَّةِ خَيْرٍ، ولا يُبَالي بِما فَعَلَ بعدَها.

فمنهم من يقول: أنا من أهل السُّنَّةِ، وأهل السُّنَّةِ عَلَىٰ خيرٍ. ثُمَّ لا يَتَحَاشَىٰ عن المعاصي.

وَكَشْفُ هَذَا التَّلْبِيسِ أن يُقَالَ له: إنَّ الاعْتِقَادَ فَرْضٌ، والكَفَّ عن المعاصي فَرْضٌ آخَرُ، فلا يكفي أحدُهُما عن صاحبه.

وكذلك تقول الروافض: نحن يَدْفَعُ عَنَّا مُوَالاةُ أَهْلِ البيت. وَكَذَبُوا؛ فَإِنَّه إِنَّما يَدْفَعُ التَّقْوَىٰ.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٧١)، ومسلم (٢٠٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومنهم من يقول: أنا أُلازِمُ الجَمَاعَةَ، وأفعل الخير، وهَذَا يَدْفَعُ عَنِّي. وجَوَابُهُ كجواب الأوَّل.

ومن هَذَا الفَنِّ تَلْبِيسُهُ عَلَىٰ العَيَّارين فِي أخذ أموال النَّاس؛ فإنَّهم يُسَمَّوْنَ بالفتيان، ويقولون: الفتىٰ لا يزنِي ولا يكذب ويحفظ الحُرُم، ولا يَهْتِكُ سِتْرَ امرأةٍ، ومع هَذَا لا يتحاشون من أخذ أموال النَّاس، وَيَنْسُون تَقَلِّي الأكباد عَلَىٰ الأموال، ويسمُّون طريقتَهم الفُتُوَّة.

وربَّما حَلَفَ أحدُهم بِحَقِّ الفُتُوَّةِ، فلم يأكل ولَمْ يشرب، ويجعلون إلباس السَّراويل للدَّاخل فِي مذهبهم كإلباس الصُّوفيَّة للمريد المُرَقَّعَةَ، وربَّما يسمع أحدُ هؤلاء عن ابنته أو أخته كَلِمَةَ وِزْرٍ لا تصحُّ، وربَّما كانت من مُحَرِّضٍ، فَقَتَلَهَا، وَيَدَّعون أنَّ هَذِهِ فُتُوَّةٌ، وَرُبَّما افتخر أحدُهم بالصَّبْرِ عَلَىٰ الضَّرْبِ.

وبإسنادٍ عن عبد الله بن أحمد بن حنبل أنَّه كان يقول: كنتُ كثيرًا أَسْمَعُ والدي أحمد بن حنبل يقول: رَحِمَ اللهُ أبا الهيثم. فَقُلْتُ: من أبو الهيثم؟ فقال: أبو الهيثم الحدَّاد، لَمَّا مَدَدْتُ يدي إِلَىٰ العقاب، وأُخرِجْتُ للسِّياط، إذا أنا بإنسانٍ يَجْذِبُ ثَوْبِي من ورائي، ويقول لي: تَعْرِفُنِي؟ قلتُ: لا. قال: أنا أبو الهيثم العَيَّارُ اللِّصُّ الطرار، مكتوب فِي ديوان أمير المؤمنين أنِّي ضُرِبْتُ ثمانية عشر ألف سوط بالتَّفاريق، وَصَبَرْتُ فِي ذلك عَلَىٰ طاعة الشيطان لأجل الدُّنيا، فاصبر أنت فِي طاعة الرَّحمن لأجل الدِّين.

قلتُ: أبو الهيثم هَذَا يقال له: خالد الحدَّاد، وكان يُضْرَبُ المَثَلُ بِصَبْرِهِ، قال له المُتَوَكِّلُ: ما بَلَغَ من جلدك؟ قال: ملأ لي جرابي عقارب، ثُمَّ أَدْخَلَ يدي فيه، وإنَّه ليؤلمني ما يُؤْلِمُكَ، وَأَجِدُ لآخرِ سَوْطٍ من الألَمِ ما أجد لأوَّل سوطٍ، ولو وُضِعَتْ فِي فمي خرقةٌ، وأنا أُضْرَبُ لاحترقت من حرارة ما يخرج من جوفي، ولكنَّني وَطَّنْتُ نفسي عَلَىٰ الصَّبْرِ.

فقال له الفتحُ: وَيْحَكَ! مع هَذَا اللِّسان والعقل، ما يَدْعُوكَ إِلَىٰ ما أنت عليه من الباطل؟ فقال: أُحِبُّ الرِّيَاسَةَ. فقال المُتَوَكِّلُ: نحن خليديَّةٌ. وقال الفتح: أنا خليديٌّ. وقال رجلٌ لخالد: يا خالدُ، ما أنتم لحومٌ ودماءٌ، فَيُؤْلِمَكُمُ الضَّرْبُ؟ فقال: بلىٰ يؤلمنا، ولكن معنا عزيمةُ صَبْرٍ ليست لكم.

وقال داود بن عليٍّ لَمَّا قدم بخالد: اشتهيتُ أن أراه، فَمَضَيْتُ إليه، فَوَجَدْتُهُ جالسًا غَيْرَ مُتَمَكِّنٍ؛ لذهاب لحم إِلْيَتَيْهِ من الضَّرْبِ، وإذا حوله فتيانٌ، فَجَعَلُوا يقولون: ضُرِبَ بِفُلانٍ، وَفُعِلَ بفُلانٍ كذا. فقال لَهم: لا تتحدَّثوا عن غيركم، افعلوا أنتم، حتَّىٰ يتحدَّثَ عنكم غَيْرُكُم.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: فانظروا إِلَىٰ الشَّيْطَانِ، كيف يتلاعب بِهؤلاء فيصبرون عَلَىٰ شِدَّةِ الألم لِيَحْصُلَ لَهم الذِّكْرُ، ولو صبروا عَلَىٰ يسير التَّقْوَىٰ، لَحَصَلَ لَهم الأَجْرُ.

والعَجَبُ أَنَّهم يَظُنُّونَ لِحَالِهِم مَرْتَبَةً وفَضِيلَةً مع ارتكاب العظائم.

ومن العَوَامِّ مَنْ يَعْتَمِدُ عَلَىٰ نافلةٍ، وَيُضَيِّعُ فَرَائِضَ، مثل أن يَحْضِرَ المَسْجِدَ قبلَ الأذان، وَيَتَنَفَّلَ، فإذا صَلَّىٰ مأمومًا سَابَقَ الإمامَ، ومنهم من لا يَحْضِرُ فِي أوقاتِ الفَرَائِضِ، وَيُزَاحِمُ لَيْلَةَ الرَّغائب.

ومنهم يَتَعَبَّدُ ويبكي وهو مُصِرٌّ عَلَىٰ الفواحش لا يتركها، فإن قيل له، قال: سَيِّئَةٌ وحسنةٌ واللهُ غفورٌ رحيمٌ.

وجُمهورُهم يتعبَّدُ برأيه، فيُفْسِدُ أكثرَ مِمَّا يُصْلِحُ، وَرَأَيْتُ رَجُلًا منهم قد حَفَظَ القرآن وَتَزَهَّدَ، ثُمَّ جبَّ نَفْسَهُ، وهَذَا مِنْ أفحَشِ الفواحش.

وقد لَبَّسَ إبليس عَلَىٰ خَلْقٍ كَثِيرٍ من العَوَامِّ، يحضرون مَجالسَ الذِّكْرِ، وَيَبْكُونَ، وَيَكْتَفُونَ بذلك؛ ظَنًّا منهم أنَّ المَقْصُودَ الحضورُ والبكاءُ؛ لأنهم يسمعون فَضْلَ الحضورِ فِي مجالس الذِّكْرِ، ولو علموا أنَّ المقصود إِنَّما هو العمَلُ، وإذا لَمْ يَعْمَلْ بِما يَسْمَعُ كان

زِيَادَةً فِي الحُجَّةِ عليه.

وإنِّي لأعرف خَلْقًا يَحْضرُون المجلسَ منذ سنين، وَيَبْكُونَ، وَيَخْشَعُون، ولا يَتَغَيَّرُ أَحَدُهُم عَمَّا قد اعتاده، من المعاملة فِي الرِّبَا، والغِشِّ فِي البيع، والجهل بأركان الصَّلاة، والغِيبَةِ للمسلمين، والعقوق للوالدين.

وهؤلاء قد لبَّس عليهم إبليس، فأراهم أنَّ حضورَ المجلس والبكاءَ يَدْفَعُ عنه ما يُلابِسُ من الذُّنُوبِ، وأرىٰ بعضَهم أنَّ مُجَالَسَةَ العلماء والصَّالحين يدفع عنهم، وَشَغَلَ آخَرِينَ بالتَّسْوِيفِ بالتَّوْبَةِ، فَطَالَ عَلَيْهِم مطالَهم، وأقام قَوْمًا منهم للتَّفَرُّجِ فيما يَسْمَعُونَه، وأهملوا العملَ به.

وقد لَبَّسَ إبليس عَلَىٰ أصحاب الأموال من أربعة أَوْجُهٍ:

أحدُها: مِنْ جِهَةِ كَسْبِهَا، فلا يُبَالُونَ كَيْفَ حَصَلَتْ، وقد فشا الرِّبَا فِي أكثر معاملاتِهم، وَأَنِسُوه، حتَّىٰ إنَّ جُمْهُورَ معاملاتِهم خارجةٌ عن الإجماع، وقد روىٰ أبو هريرة عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**لَيَأْتِيَنَّ عَلَىٰ النَّاسِ زَمَانٌ، لا يُبَالِي المَرْءُ مِنْ أَيْنَ أَخَذَ المَالَ مِنْ حَلالٍ أَوْ حَرَامٍ**»[1].

والثانِي: مِنْ جِهَةِ البخل بِها:

فمنهم: من لا يُخْرِجُ الزَّكَاةَ أَصْلًا؛ اتِّكالًا عَلَىٰ العفو.

ومنهم: من يُخْرِجُ بعضَها، ثمَّ يَغْلِبُهُ البخل، فينظر أنَّ المخرج يدفع عنه.

ومنهم: مَنْ يَحْتَالُ لإسقاطها، مثل أن يَهَبَ المَالَ قَبْلَ الحَوْلِ، ثُمَّ يَسْتَرِدَّهُ.

ومنهم: من يَحْتَالُ بإعطاءِ الفَقِيرِ ثَوْبًا يُقَوِّمُهُ عليه بِعَشْرَةِ دنانير، وهو يساوي دِينَارَيْنِ، وَيَظُنُّ ذلك الجاهلُ أنَّه قد تَخَلَّصَ.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٥٩).

ومنهم: مَنْ يُخْرِجُ الرَّدِيءَ مكانَ الجَيِّدِ.

ومنهم: من يُعْطِي الزَّكاةَ لِمَنْ يَسْتَخْدِمُهُ طُولَ السَّنَةِ؛ فهي عَلَىٰ الحقيقة أُجْرَةٌ.

ومنهم: من يُخْرِجُ الزَّكاةَ كما ينبغي، فيقول له إبليس: ما بَقِيَ عليك.

فَيَمْنَعُهُ أن يَتَنَفَّلَ بِصَدَقَةٍ؛ حُبًّا للمال، فَيُفَوِّتُهُ أَجْرَ المتصدِّقين، ويكون المالُ رِزْقَ غَيْرِهِ.

وبإسنادٍ عن الضَّحَّاكِ، عن ابن عبَّاسٍ قال: أَوَّلُ ما ضُرِبَ الدِّرْهَمُ، أَخَذَهُ إِبْلِيسُ، فَقَبَّلَهُ، وَوَضَعَهُ عَلَىٰ عَيْنِهِ وَسُرَّتِهِ، وقال: بِكَ أُطْغِي، وَبِكَ أُكَفِّرُ، رَضِيتُ مِنِ ابْنِ آدَمَ بِحُبِّهِ الدِّينَارَ مِنْ أَنْ يعبدنِي.

وعن الأعمش، عن شقيق، عن عبد الله، قال: إِنَّ الشَّيْطَانَ يَرُدُّ الإنسانَ بِكُلِّ رَيْدَةٍ، فإذا أَعْيَاهُ اضْطَجَعَ فِي مالِه، فَيَمْنَعُهُ أن يُنْفِقَ منه شيئًا.

والثالث: مِنْ حَيْثُ التَّكثير بالأموال؛ فَإِنَّ الغَنِيَّ يَرَىٰ نَفْسَهُ خَيْرًا من الفقير، وهَذَا جَهْلٌ؛ لأنَّ الفَضْلَ بفضائل النَّفْسِ اللازمة لَها، لا بِجَمْعِ حجارةٍ خارجةٍ عنها، كما قال الشاعر:

غِنَى النَّفْسِ لِمَنْ يَعْقِـ ـلُ خَيْرٌ مِنْ غِنَى الْمَالِ
وَفَضْلُ النَّفْسِ فِي الأَنْفُـ ـسِ لَيْسَ الفَضْلُ فِي الحَالِ

والرابع: فِي إنفاقها؛ فَمِنْهُم من يُنْفِقُهَا عَلَىٰ وَجْهِ التَّبْذِيرِ والإسْرَافِ، تارةً فِي البُنْيَانِ الزَّائِدِ عَلَىٰ مِقْدَارِ الحاجة، وَتَزْوِيقِ الحِيطَانِ، وَزَخْرَفَةِ البيوت، وَعَمَلِ الصُّوَرِ، وَتَارَةً فِي اللِّباس الخارج بِصَاحِبِهِ إِلَىٰ الكِبْرِ والخُيَلاءِ، وَتَارَةً فِي المَطَاعِمِ الخَارِجَةِ إِلَىٰ السَّرَفِ، وهَذِهِ الأفعالُ لا يَسْلَمُ صاحبُها من فِعْلِ المُحَرَّمِ، أو مكروهٍ، وهو مسئولٌ عن جميع ذلك.

وبإسنادٍ عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «يَا ابْنَ آدَمَ لا تَزُولُ قَدَمَاكَ يَوْمَ القِيَامَةِ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ حَتَّىٰ تُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ: عُمُرِكَ فِيمَ أَفْنَيْتَهُ، وَجَسَدِكَ فِيمَ أَبْلَيْتَهُ، وَمَالِكَ

مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبْتَهُ، وَأَيْنَ أَنْفَقْتَهُ، وَعَنْ عِلْمِكَ مَاذَا عَمِلْتَ فِيهِ»[١].

ومنهم من يُنْفِقُ فِي بناء المساجد والقناطر، إِلَّا أَنَّه يَقْصِدُ الرِّيَاءَ والسُّمْعَةَ، وبَقَاءَ الذِّكْرِ، فيكتب اسمَه عَلَىٰ ما بَنَىٰ، ولو كان عَمَلُهُ لله ﷻ لاكتفىٰ بِعِلْمِهِ ﷻ ولو كُلِّفَ أن يَبْنِيَ حَائِطًا من غَيْرِ أن يكتب اسمه عليه لَمْ يفعل.

ومن هَذَا الجِنْسِ إخراجُهم الشَّمْعَ فِي رمضان فِي الأنوار طَلَبًا للسُّمعة، ومساجدُهم طوالَ السَّنَةِ مظلمةٌ؛ لأنَّ إخراجَهم قليلًا من دهنٍ كلَّ ليلةٍ لا يؤثِّر فِي المَدْحِ، ما يؤثِّر فِي إخراج شمعةٍ فِي رمضان، ولقد كان إغناءُ الفقراء بِثَمَنِ الشَّمْعِ أَوْلَىٰ، ولربَّما خَرَجَتِ الأضواءُ الكثيرةُ إِلَىٰ السَّرَفِ الممنوع منه، غَيْرَ أَنَّ الرِّيَاءَ يَعْمَلُ عَمَلَهُ، وقد كان أحمد بن حنبل يَخْرُجُ إِلَىٰ المسجد، وفِي يَدِهِ سِرَاجٌ فَيَضَعُهُ وَيُصَلِّي.

ومنهم من إذا تَصَدَّقَ أَعْطَىٰ الفقيرَ والنَّاسُ يَرَوْنَهُ، فيجمع بين قَصْدِهِ مَدْحَهُم، وبين إذلالِ الفَقِيرِ.

وفيهم من يَجْعَلُ مِنْهُ الدَّنَانِيرَ الخِفَافَ، فيكون فِي الدِّينار قيراطان ونحو ذلك، وربَّما كانت رَدِيئَةً، فَيَتَصَدَّق بِها بين الجمع مكشوفةً لِيُقَالَ: قد أَعْطَىٰ فلانٌ فُلانًا دِينَارًا.

وبالعكس مِنْ هَذَا كان جَمَاعَةٌ من الصَّالحين المتقدِّمين، يجعلون فِي القِرْطَاسِ الصَّغِيرِ دِينَارًا ثَقِيلًا يَزِيدُ وَزْنُهُ عَلَىٰ دِينَارٍ ونصفٍ، وَيُسَلِّمُونَهُ إِلَىٰ الفَقِيرِ فِي سِرٍّ، فإذا رَأَىٰ قِرْطَاسًا صَغِيرًا، ظَنَّهُ قِطْعَةً، فإذا لَمَسَهُ وَجَدَ تَدْوِيرَ دِينَارٍ، فَفَرِحَ، فإذا فَتَحَهُ، ظَنَّهُ قَلِيلَ الوَزْنِ، فإذا رَآهُ ثَقِيلًا، ظَنَّهُ يُقَارِبُ الدِّينار، فإذا وَزَنَهُ فرآه زَائِدًا عَلَىٰ الدِّينارِ، اشْتَدَّ فَرَحُهُ؛ فالثَّوابُ يَتَضَاعَفُ للمُعْطِي عند كُلِّ مَرْتَبَةٍ.

ومنهم من يَتَصَدَّقُ عَلَىٰ الأَجَانِبِ، وَيَتْرُكُ بِرَّ الأَقَارِبِ، وَهُم أَوْلَىٰ.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤١٧)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٣٠٠).

وبإسنادٍ عن سلمان بن عامر قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**الصَّدَقَةُ عَلَىٰ المِسْكِينِ صَدَقَةٌ، والصَّدَقَةُ عَلَىٰ ذَوِي الرَّحِمِ اثْنَتَانِ: صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ**»(١).

ومنهم من يَعْلَمُ فضيلةَ التَّصدُّق عَلَىٰ القرابة، إلَّا أن يكون بينهما عداوةٌ دنيويَّةٌ، فيمتنع من مواساته، مع علمه بِفَقْرِهِ، ولو واساه، كان له أَجْرُ الصَّدَقَةِ والقَرَابَةِ، ومُجاهَدةِ الهَوَىٰ، وقد رُوِيَ عن أَبِي أَيُّوب الأنصاريِّ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ أَفْضَلَ الصَّدَقَةِ، الصَّدَقَةُ عَلَىٰ ذِي الرَّحِمِ الكَاشِحِ**»(٢).

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: وإنَّما قُبِلَتْ هَذِهِ الصَّدَقَةُ وَفُضِّلَتْ؛ لِمُخَالَفَةِ الهَوَىٰ؛ فَإِنَّ من تصدَّق عَلَىٰ ذي قرابةٍ يُحِبُّهُ، اتَّفق عَلَىٰ هواه.

ومنهم من يتصدَّق ويُضَيِّقُ عَلَىٰ أَهْلِهِ فِي النَّفَقَةِ.

وقد رُوِيَ عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ مَا كَانَ عَنْ ظَهْرِ غِنًىٰ، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ**»(٣).

وبإسنادٍ عن أَبِي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**تَصَدَّقُوا**، فقال رجل: عندي دينار. **فَقَالَ: تَصَدَّقْ بِهِ عَلَىٰ نَفْسِكَ.** قال: عندي دينارٌ آخر. قال: **تَصَدَّقْ بِهِ عَلَىٰ زَوْجَتِكَ.** قال: عندي دينار آخر. قال: **تَصَدَّقْ بِهِ عَلَىٰ وَلَدِكَ.** قال: عندي دينارٌ آخر. قال: **تَصَدَّقْ بِهِ عَلَىٰ خَادِمِكَ.** قال: عندي دينارٌ آخر. قال: **أَنْتَ أَبْصَرُ بِهِ**»(٤).

ومنهم من يُنْفِقُ فِي الحَجِّ، وَيُلَبِّسُ عليه إِبْلِيسُ بِأَنَّ الحَجَّ قُرْبَةٌ، وإنَّما مُرَادُهُ الرِّياءُ، والفُرْجَةُ، ومَدْحُ النَّاس.

---

(١) أخرجه الترمذي (٦٥٨)، وابن ماجه (١٨٤٤) وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٨٥٨).

(٢) أخرجه أحمد (٢٣٠١٩)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١١١٠).

(٣) أخرجه البخاري (١٤٢٧)، ومسلم (١٠٣٤).

(٤) أخرجه أبو داود (١٦٩١)، وحسنه الألباني في «الإرواء» (٨٩٥).

وقال رجل لبشر الحافي: أَعْدَدْتُ أَلْفَيْ دِرْهَمٍ للحجِّ. فقال: أَحَجَجْتَ؟ قَالَ: نعم. قال: اقْضِ دَيْنَ مَدِينٍ. قال: ما تَمِيلُ نَفْسِي إِلَّا إِلَىٰ الحَجِّ. قال: مُرَادُكَ تَرْكَبُ وَتَجِيءُ وَيُقَالُ: فلانٌ حَاجٌّ.

ومنهم من يُنْفِقُ عَلَىٰ الأَوْقَاتِ والرَّقْصِ، ويرمي الثِّيَابَ عَلَىٰ المُغَنِّي، وَيُلَبِّسُ عليه إِبْلِيسُ بِأَنَّكَ تَجْمَعُ الفقراءَ وتُطْعِمُهُم، وقد بيَّنَّا أَنَّ ذلك مِمَّا يُوجِبُ فَسَادَ القُلُوبِ، وَمِنْهُم مَنْ إِذَا جَهَّزَ ابْنَتَهُ صَاغَ لَها دِسْت الفِضَّةِ، ويَرَىٰ الأمرَ فِي ذلك قُرْبَةً، وربَّما كانت له خَتْمَةٌ، فَتُقَدَّم مَجَامِر الفِضَّة، ويَحضر هناك قَوْمٌ من العلماء، فلا هو يَسْتَعْظِمُ ما فَعَلَ، ولا هم يُنْكِرُونَ؛ اتِّبَاعًا للعَادة.

ومنهم من يَجُورُ فِي وَصِيَّتِهِ وَيَحْرِمُ الوارثَ، ويرىٰ أَنَّه مالُهُ يَتَصَرَّفُ فيه كيف شاء، وَيَنْسَىٰ أَنَّه بالمَرَضِ قد تَعَلَّقَتْ حقوقُ الوارثين به.

وبإسنادٍ عن أَبِي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ حَافَ عِنْدَ الوَصِيَّةِ، قُذِفَ فِي الوَبَاءِ، وَالوَبَاءُ وَادٍ فِي جَهَنَّمَ**»(١).

وعن الأعمش، عن خَيْثَمَةَ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ يَقُولُ: مَا غَلَبَنِي عَلَيْهِ ابْنُ آدَمَ، فَلَنْ يَغْلِبَنِي عَلَىٰ ثَلاثٍ: آمُرُهُ بِأَخْذِ المَالِ مِنْ غَيْرِ حَقِّهِ، وَآمُرُهُ بِإِنْفَاقِهِ فِي غَيْرِ حَقِّهِ، وَمَنْعِهِ مِنْ حَقِّهِ**»(٢).

وقد لَبَّسَ إِبْلِيسُ عَلَىٰ الفُقَرَاءِ؛ فَمِنْهُم من يُظْهِرُ الفقرَ، وهو غَنِيٌّ، فإن أضاف إِلَىٰ هَذَا السؤال والأخذ من النَّاس، فإنَّما يَسْتَكْثِرُ من نَارِ جَهَنَّمَ.

أخبرنا ابن الحصين بإسنادِه، عن مُحمَّد بن فضيل، عن عمارة، عن أَبِي زرعة، عن أَبِي

(١) أورده الديلمي في «مسند الفردوس» (٣/ ٤٨٩).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٧/ ١٦٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ١١٧).

هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «مَنْ سَأَلَ النَّاسَ أَمْوَالَهُم تَكَثُّرًا، فَإِنَّمَا يَسْأَلُ جَمْرًا، فَلْيَسْتَقِلَّ مِنْهُ أَوْ لِيَسْتَكْثِرْ»[١].

وَإِنْ لَمْ يَقْبَلْ هَذَا الرَّجُلُ مِنَ النَّاسِ شَيْئًا، وكان مقصودُه بإظهار الفقر أن يقال: رَجُلٌ زاهدٌ. فَقَدْ راءَىٰ، وإن كَتَمَ نِعْمَةَ الله عندَه لِيَظْهَرَ عليه الفَقْرُ لئلا يُنْفِقَ، فَفِي ضِمْنِ بُخْلِهِ الشَّكْوَىٰ من الله.

وقد ذكرنا فيما تَقَدَّمَ أَنَّ رسول الله ﷺ رَأَىٰ رجلًا بَاذَّ الهَيْئَةِ فقال: «هَلْ لَكَ مِنْ مَالٍ؟ قال: نَعَمْ. قال: فَلْتُرَ نِعْمَةُ اللهِ عَلَيْكَ»[٢]. وإن كان فقيرًا حَقًّا فالمُسْتَحَبُّ له كتمانُ الفقر وإظهار التَّجَمُّلِ، فقد كان فِي السَّلَفِ من يَحْمِلُ مِفْتَاحًا، يُوهِمُ أَنَّ له دَارًا، ولا يَبِيتُ إلَّا فِي المَسَاجِدِ.

فصل [الجريان مع العادات]

وَمِنْ تَلْبِيسِ إِبْلِيس عَلَىٰ الفقراء، أَنَّه يَرَىٰ نفسَه خيرًا من الغَنِيِّ، إذ قد زَهَدَ ما رَغِبَ ذَلِكَ الغَنِيُّ فيه، وهَذَا غَلَطٌ، وإنَّ الخَيْرِيَّةَ ليست بالوجود والعَدَمِ، وإنَّما هي بِأَمْرٍ وراءَ ذلك.

وقد لَبَّسَ إبليسُ عَلَىٰ جُمهورِ العَوَامِّ بالجَرَيَانِ مع العادات، وذلك من أكثر أسباب هلاكِهم.

فمن ذلك: أنَّهم يُقَلِّدون الآباءَ، والأسلافَ، فِي اعتقادهم عَلَىٰ ما نُشُّوا عليه من العادة، فترىٰ الرَّجُلَ منهم يعيش خمسين سنةً عَلَىٰ ما كان عليه أبوه، وَلا يَنْظُرُ أَكَانَ عَلَىٰ صَوَابٍ أم عَلَىٰ خَطَأٍ.

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٤١).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٠٦٣) من حديث أبي الأحوص، عن أبيه رضي الله عنه وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٥٥).

ومن هَذَا تَقْلِيدُ اليَهُودِ والنَّصارىٰ والجاهليَّة أسلافَهم.

وكذلك المسلمون يَجْرُونَ فِي صلاتِهم وعباداتِهم مع العادة، فترىٰ الرَّجُلَ يَعِيشُ سِنِينَ يُصَلِّي عَلَىٰ صورةٍ، ما رأىٰ النَّاسَ يُصَلُّون، ولعلَّه لا يُقِيمُ الفاتحةَ، ولا يَدْرِي ما الواجبات، ولا يَسْهُلُ عليه أن يَعْرِفَ ذلك هوانًا بالدِّين، ولو أنَّه أراد تِجَارَةً، لَسَأَلَ قَبْلَ سَفَرِهِ عَمَّا يُنْفِقُ فِي ذلك البلد.

ثُمَّ ترىٰ أحدَهم يَرْكَعُ قَبْلَ الإمام، ويسجد قبل الإمام، ولا يعلم أنَّه إذا ركع قَبْلَهُ، فقد خَالَفَهُ فِي ركنٍ، فإذا رَفَعَ قَبْلَهُ فقد خالفه فِي رُكْنَيْنِ، فَبَطَلَتْ صَلاتُهُ.

وقد رأيتُ جَماعةً يُسَلِّمُونَ عند تسليم الإمام، وقد بَقِيَ عليهم من التَّشَهُّدِ الواجب شَيْءٌ، وذاك أَمْرٌ لا يَحْمِلُهُ الإمامُ، فتكون صلاتُه باطلةً، وربَّما تَرَكَ أحدُهم فريضةً، وزاد فِي نافلةٍ.

وربَّما أَهْمَلَ غَسْلَ بَعْضِ العضو كالعَقِبِ، وربَّما كان فِي يَدِهِ خَاتَمٌ قد خصر الأصابع، فلا يُدِيرُهُ وَقْتَ الوضوء، ولا يَصِلُ الماءُ إِلَىٰ ما تَحْتَهُ، فلا يَصِحُّ وُضوءُه.

وأمَّا بَيْعُهُم وشراؤهم، فَأَكْثَرُ عُقُودِهِم فاسدةٌ، ولا يَتَعَرَّفُون حُكْمَ الشَّرْعِ فيها، ولا يَخْفَىٰ عَلَىٰ أَحَدِهِم أَنْ يُقَلِّدَ فَقِيهًا فِي رُخْصَتِهِ؛ اسْتِقْلالاً منهم للدُّخول تحت حُكْمِ الشَّريعة، وقَلَّ أن يَبِيعُوا شيئًا إلَّا وفيه غِشٌّ، ويُغَطِّيهِ عَيْبٌ، والجَلَّادُ يُغَطِّي عُيُوبَ الذَّهَبِ الرَّدِيءِ، حتَّىٰ إنَّ المَرْأَةَ تَضَعُ الغَزْلَ فِي الأنداء وَتُنَدِّيهِ؛ لِيَثْقُلَ وَزْنُهُ.

ومن جَرَيَانِهم مع العادة، أَنَّ أَحَدَهُم يَتَوَانَىٰ فِي صلاتِه المفروضة فِي رمضان، وَيُفْطِرُ عَلَىٰ الحَرَامِ، ويَغْتَابُ النَّاسَ، وربَّما لو ضُرِبَ بالخَشَبِ لَمْ يُفْطِرْ فِي العادة؛ لأنَّ فِي العَادَةِ اسْتِبْشَاعَ الفِطْرِ.

ومنهم من يَدْخُلُ فِي الرِّبَا بالاستئجار فيقول: مَعِي عِشْرُونَ دِينَارًا، لا أَمْلِكُ غَيْرَهَا، فإن

أنفقتُها ذَهَبَتْ، وأنا أستأجر بِها دارًا، وآكُلُ أجرةَ الدَّار؛ ظَنًّا منه أنَّ هَذَا الأَمْرَ قَرِيبٌ.

ومنهم من يَرْهَنُ الدَّارَ عَلَىٰ شيءٍ، وَيُؤَدِّي، ويقول: هَذَا مَوْضِعُ ضَرُورَةٍ. وربَّما كانت له دَارٌ أُخْرَىٰ، وفِي بَيْتِهِ آلاتٌ لو بَاعَهَا لاسْتَغْنَىٰ عن الرَّهْنِ والاستئجار، ولكنَّه يخاف عَلَىٰ جَاهِهِ أن يُقَالَ: قد بَاعَ دَارَه، أَوْ أنَّه يَسْتَعْمِلُ الخزَفَ مَكَانَ الصُّفرِ.

ومِمَّا جَرَوا فيه عَلَىٰ العادات، اعْتِمَادُهُم عَلَىٰ قَوْلِ الكاهنِ والمُنَجِّمِ والعَرَّافِ، وقد شاع ذلك بين النَّاس، وَاسْتَمَرَّتْ به عاداتُ الأكابر، فَقَلَّ أن ترىٰ أحدًا منهم يُسَافِرُ، أو يُفَصِّلُ ثَوْبًا، أو يَحْتَجِمُ، إلَّا سَأَلَ المُنَجِّمَ، وَعَمِلَ بِقَوْلِهِ، ولا تَخْلُو دُورُهم مِنْ تَقْوِيمٍ، وكم من دارٍ لَهم ليس فيها مُصْحَفٌ.

وفِي الصَّحيح عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه سُئِلَ عَنِ الكُهَّانِ، فقال: «لَيْسُوا بِشَيْءٍ. فقالوا: يا رسول الله، إنَّهم يُحَدِّثُونَ أَحْيَانًا بالشَّيْءِ يَكُونُ حَقًّا! فقال رسول الله ﷺ: **تِلْكَ الكَلِمَةُ مِنَ الحَقِّ يَخْطِفُهَا الجِنِّيُّ، فَيُقِرُّهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ قَرَّ الدَّجَاجَةِ، فَيَخْلِطُونَ فِيهَا أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ كَذِبَةٍ**»(١).

وفِي «صحيح مسلم» عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**مَنْ أَتَىٰ عَرَّافًا، فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلاةٌ، أَرْبَعِينَ لَيْلَةً**»(٢).

وروىٰ أبو داود، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**مَنْ أَتَىٰ كَاهِنًا، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ بَرِئَ مِمَّا أُنزِلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ** ﷺ»(٣).

وَمِنْ جَرَيَانِهم مع العادات كَثْرَةُ الأَيْمَانِ الحَانِثَةِ، الَّتِي أَكْثَرُهَا ظِهَارٌ، وهم لا يَعْلَمُونَ، فَأَكْثَرُ قَوْلِهم فِي الأَيْمَانِ: حَرَامٌ عليَّ إنْ بِعْتُ!

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٦٢)، ومسلم (٢٢٢٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٣٠) من حديث صفية رضي الله عنها عن بعض أزواج النَّبي ﷺ.

(٣) أخرجه أبو داود (٣٩٠٤)، والترمذي (١٣٥)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٩٣٩).

وَمِنْ عَادَاتِهم لُبْسُ الحَرِيرِ، والتَّخَتُّمُ بالذَّهَبِ، وربَّما تَوَرَّعَ أَحَدُهُم عن لُبْسِ الحَرِيرِ، ثُمَّ لَبِسَهُ فِي وَقْتٍ، كالخطيب يوم الجُمُعَةِ.

ومن عاداتِهم إِهْمَالُ إِنْكَارِ المُنْكَرِ، حتَّىٰ إنَّ الرَّجُلَ يرىٰ أخاه أو قَرِيبَه يَشْرَبُ الخَمْرَ، وَيَلْبَسُ الحريرَ، فلا يُنْكِرُ عليه، وَلا يَتَغَيَّرُ، بل يُخَالِطُهُ مُخَالَطَةَ حبيبٍ.

ومن عاداتِهم أن يَبْنِيَ الرَّجُلُ علىٰ باب دارِه مَصْطَبَةً يضيِّق بِها طريقَ المارَّةِ، وقد يَجتمع عَلَىٰ باب داره مَاءُ مَطَرٍ، وَيَكْثُرُ، فَيَجِبُ عليه إزالتُه، وقد أَثِمَ بِكَوْنِهِ كان سَبَبًا لأَذَىٰ المسلمين.

ومن عاداتِهم دخولُ الحَمَّامِ بلا مِئْزَرٍ، وفيهم من إذا دخل بِمِئْزَرٍ، رَمَىٰ به عَلَىٰ فَخْذِهِ، فَيُرَىٰ جَوَانِبُ إِلْيَتَيْهِ، وَيُسَلِّمُ نَفْسَهُ إِلَىٰ المُدَلِّكِ، فَيَرَىٰ بَعْضَ عَوْرَتِهِ، ويمسُّها بيده؛ لأنَّ العورةَ من السُّرَّةِ إِلَىٰ الرُّكْبَةِ، ثُمَّ ينظر هؤلاء إِلَىٰ عوراتِ الناس، ولا يكاد يَغُضُّ، ولا يُنْكِرُ.

ومن عاداتِهم تَرْكُ القيام بِحَقِّ الزَّوجة، وربَّما اضطرُّوها إِلَىٰ أن تُسْقِطَ مهرَها، ويظنُّ الزَّوْجُ أنَّه قد تخلَّص بِما قد أَسْقَطَتْهُ عنه.

وقد يَمِيلُ الرَّجُلُ إِلَىٰ إحدىٰ زَوْجَتَيْهِ دونَ الأُخرىٰ، فَيَجُورُ فِي القَسْمِ، متهاونًا بذلك؛ ظَنًّا أنَّ الأَمْرَ فِيهِ قريب.

فقد رَوَىٰ أبو هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النَّبِيِّ ﷺ أنَّه قال: «مَنْ كَانَ لَهُ امْرَأَتَانِ، يَمِيلُ إِلَىٰ إِحْدَاهُمَا عَلَىٰ الأُخْرَىٰ، جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ يَجُرُّ إِحْدَىٰ شِقَّيْهِ، سَاقِطًا أو مَائِلًا»[1].

وَمِنْ عَادَاتِهم إِثْبَاتُ الفَلَسِ عند الحاكم، وَيَعْتَقِدُ الَّذي قد حُكِمَ له بالفَلَسِ، أنَّه قد سقطت عنه بذلك الحقوق، وقد يُوسِرُ ولا يؤدِّي حَقًّا.

---

(١) أخرجه أبو داود (٢١٣٣)، والترمذي (١١٤١)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٥١٥).

ومنهم من لا يقوم من دُكَّانِهِ، بِحُجَّةِ الفَلَسِ، إلَّا وقد جمع مالًا من أموال المعاملين، فَأَضَرَّ به يُنْفِقُهُ فِي مُدَّةِ استتارِه، وعندَه أَنَّ الأَمْرَ فِي ذلك قَرِيبٌ.

ومِمَّا جَرَوا فيه عَلَىٰ العادات، أَنَّ الرَّجُلَ يُسْتَأْجَرُ ليعمل طولَ النَّهار، فَيُضَيِّعُ كثيرًا من الزَّمَنِ، إِمَّا بِالتَّشَبُّطِ فِي العمل، أو بالبِطَالَةِ، أو بإصلاح آلاتِ العَمَلِ، مثل أن يُحِدَّ النَّجَّارُ الفأسَ، والشَّقَّاقُ المِنْشَارَ، ومثلُ هَذِهِ خيانةٌ، إلَّا أن يكون ذلك يَسيرًا قد جَرَتِ العادةُ بِمِثْلِهِ.

وقد يُفَوِّتُ أكثرُهم الصَّلاةَ ويقول: أنا فِي إِجَارَةِ رَجُلٍ، ولا يدري أَنَّ أوقاتَ الصلاة لا تَدْخُلُ فِي عَقْدِ الإجارة، وَقِلَّةُ نُصْحِهِم فِي أعمالِهِم كثيرةٌ.

ومِمَّا جَرَوا فيه عَلَىٰ العادةِ، دَفْنُ المَيِّتِ فِي التابوت، وهَذَا فِعْلٌ مَكْرُوهٌ، وَأَمَّا الكَفَنُ فلا يُتَبَاهَىٰ فيه بالمُغَالاةِ؛ يَنْبَغِي أن يكون وَسَطًا، وَيَدْفِنُونَ مَعَهُ جُمْلَةً من الثِّيابِ، وهَذَا حَرَامٌ؛ لأَنَّه إِضَاعَةٌ للمال، ويُقيمون النَّوْحَ عَلَىٰ الميِّت.

وفِي «صحيح مسلم» أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «إِنَّ النَّائِحَةَ إذا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا، تُقَامُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ، وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ»(١).

ومن عاداتِهم اللَّطْمُ، وتَمزيقُ الثِّيابِ، وخصوصًا النِّساء.

وفِي الصحيحين أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ شَقَّ الجُيُوبَ، وَلَطَمَ الخُدُودَ، وَدَعَا بِدَعْوَىٰ الجَاهِلِيَّةِ»(٢).

وربَّما رَأَوا المُصَابَ قد شَقَّ ثَوْبَهُ، فلم يُنْكِرُوا عليه، لا، بل رُبَّمَا أَنْكَرُوا تَرْكَ شَقِّ الثَّوْبِ، وقالوا: ما أَثَّرَتْ عندَه المُصِيبَةُ.

ومن عاداتِهم يَلْبِسُون بعدَ المَيِّتِ الدُّونَ مِنَ الثِّياب، ويبقون عَلَىٰ ذلك شهرًا أو سنةً،

---

(١) أخرجه مسلم (٩٣٤) من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (١٢٩٤)، ومسلم (١٠٣) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وربَّما لَمْ يناموا هَذِهِ المُدَّةَ فِي سَطْحٍ.

ومن عاداتِهم زِيَارَةُ المقابر فِي ليلةِ النِّصْفِ من شعبان، وإيقادُ النَّار عندَها، وأخذُ ترابِ القبر المُعَظَّمِ.

قال ابن عقيل: لَمَّا شَقَّتِ التَّكاليفُ عَلَىٰ الجُهَّالِ والطَّغام، عَدَلُوا عن أوضاع الشَّرْعِ إِلَىٰ تعظيم أوضاعٍ وضعوها لأنفسهم، فَسَهُلَتْ عليهم؛ إذ لَمْ يَدْخُلُوا بِها تَحْتَ أَمْرِ غَيْرِهِم.

قال: وهم كُفَّارٌ عِنْدِي بِهَذِهِ الأوضاع، مثل: تعظيمِ القبور، وإكرامِها بِما نَهَىٰ الشَّرْعُ عنه، من إيقادِ النِّيران، وتقبيلِها، وتخليقِها، وخطابِ المَوْتَىٰ بالألواح، وَكَتْبِ الرِّقَاعِ فيها: يا مولاي، افْعَلْ بِي كذا وكذا. وأخذ التُّرابِ تَبَرُّكًا، وإفاضةِ الطِّيبِ عَلَىٰ القُبُورِ، وشدِّ الرِّحال إليها، وإلقاء الخِرَقِ عَلَىٰ الشَّجَرِ؛ اقتداءً بمن عَبَدَ اللاتَ والعُزَّىٰ، ولا تَجِدُ فِي هؤلاء مَنْ يُحَقِّقُ مسألةً فِي زكاةٍ، فَيَسْأَلُ عن حُكْمٍ يَلْزَمُهُ.

والوَيْلُ عندَهم لِمَنْ لَمْ يُقَبِّلْ مَشْهَدَ الكَهْفِ، ولَمْ يَتَمَسَّحْ بِآجُرَّةِ مسجد المأمونيَّة يومَ الأربعاء، ولَمْ يَقُلِ الحَمَّالون عَلَىٰ جِنَازَتِهِ: أبو بكرٍ الصِّدِّيق، أو مُحَمَّدٌ، وعليٌّ، ولَمْ يَكُنْ معها نِيَاحَةٌ، ولَمْ يعقد عَلَىٰ أبيه أزجًا بالجَصِّ والآجُرِّ، ولَمْ يَشُقَّ ثَوْبَهُ إِلَىٰ ذَيْلِهِ، ولَمْ يُرِقْ مَاءَ الوَرْدِ عَلَىٰ القبر، وَيَدْفِنْ معه ثيابَه.

وأمَّا تلبيس إبليس عَلَىٰ النِّساء فكثيرٌ جدًّا، وقد أفردتُ كتابًا للنِّساءِ ذَكَرْتُ فيه ما يَتَعَلَّقُ بِهِنَّ مِنْ جميع العبادات وغيرها، وأنا أذكر هاهنا كلماتٍ من تلبيس إبليس عليهنَّ.

فمن ذلك أنَّ المرأةَ تَطْهُرُ من الحَيْضِ بعد الزَّوال، فتغتسل بعد العصر، فتصلِّي العصر وحدَها، وقد وَجَبَتْ عليها الظُّهْرُ وهي لا تَعْلَمُ.

وفيهنَّ مَنْ تؤَخِّرُ الغُسْلَ يومين، وتحتجُّ بِغَسْلِ ثيابِها ودخول الحمَّام، وقد تُؤَخِّرُ غُسْلَ الجَنَابَةِ فِي اللَّيْلِ، إِلَىٰ أن تَطْلُعَ الشَّمْسُ، فإذا دَخَلَتِ الحَمَّامَ لَمْ تَتَّزِرْ بِمِئْزَرٍ، وتقول: ما دخل إليَّ إلَّا القيمة.

وربَّما قالت: أنا وأختي وأمِّي وجاريتِي، وهنَّ نساءٌ مثلي، فمِمَّن أستتر؟ وهَذَا كُلُّهُ حَرَامٌ؛ فَإِنَّ تَأْخِيرَ الغُسْلِ بغير عُذْرٍ لا يَجُوزُ.

ولا يَحِلُّ للمرأة أن تَنْظُرَ من المرأة ما بين سُرَّتِهَا ورُكْبَتِهَا، ولو كانت ابنتَها وأمَّها، إلَّا أن تكون البِنْتُ صَغِيرَةً، فإذا بَلَغَتْ سَبْعَ سِنِين استترت، واسْتُتِرَ منها.

وقد تصلِّي المرأةُ قاعدةً، وهي تَقْدِرُ عَلَىٰ القيام، فالصَّلاةُ حِينَئِذٍ باطلةٌ.

وقد تَحْتَجُّ بِنَجَاسَةٍ فِي ثَوْبِهَا من بَوْلِ طفلها، وهي تقدر عَلَىٰ غَسْلِهِ، ولو أرادت الخروجَ إِلَىٰ الطَّريق لَتَهَيَّأَتْ واستترت، وإنَّما هان عندَها أمرُ الصلاة، وقد لا تعرف من واجبات الصلاة شيئًا ولا تسأل.

وقد ينكشف من الحُرَّةِ ما يُبْطِلُ صلاتَها وتستهين به، وقد تستهين المرأة بإسقاط الحَبَلِ، ولا تدري أنَّها إذا أسقطت ما قد نُفِخَ فيه الرُّوح فقد قَتَلَتْ مُسْلِمًا، وقد تَسْتَهِينُ بالكَفَّارَةِ الواجبة عليها عند ذلك الفعل، فإنَّه يجب عليها أن تتوب، وتؤدِّيَ دِيَتَهُ إِلَىٰ وَرَثَتِهِ، وهي غُرَّةُ عبدٍ أو أَمَةٍ، قِيمَتُهَا نصفُ عُشْرِ دِيَةِ أبيه، أو عُشْرُ دِيَةِ الأمِّ، ولا تَرِثُ الأُمُّ من ذلك شيئًا، ثُمَّ تَعْتِقُ رقبةً، فإن لَمْ تَجِدْ صَامَتْ شَهْرَيْنِ متتابعين.

وقد تُسِيءُ الزَّوْجَةُ عِشْرَتَهَا مع الزَّوْجِ، وربَّما كَلَّمَتْهُ بالمَكْرُوهِ، وتقول: هَذَا أَبُو أولادي، وما بيننا هذا. وَتَخْرُجُ بِغَيْرِ إِذْنِهِ، وتقول: ما خَرَجْتُ فِي مَعْصِيَةٍ، ولا تَعْلَمُ أَنَّ خُروجَها بِغَيْرِ إِذْنِهِ معصيةٌ، ثُمَّ نفسُ خروجِها لا يُؤْمَنُ منه فِتْنَةٌ.

وفيهنَّ مَنْ تُلازِمُ القبورَ، وتُحِدُّ، لا عَلَىٰ الزَّوْجِ، وقد صَحَّ عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «لا يَحِلُّ لامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللهِ وَرَسُولِهِ، أَنْ تُحِدَّ عَلَىٰ مَيِّتٍ فَوْقَ ثَلاثٍ، إلَّا عَلَىٰ زَوْجٍ، أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا»[١].

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٨١)، ومسلم (١٤٨٦) من حديث أم حبيبة رضي الله عنها.

ومنهم من يدعوها زَوْجُهَا إِلَىٰ فِرَاشِهِ فَتَأْبَىٰ، وَتَظُنُّ هَذَا الخِلافَ ليس بمعصيةٍ، وهي مَنْهِيَّةٌ عنه؛ لِمَا رَوَىٰ أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا دَعَا الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إِلَىٰ فِرَاشِهِ، فَأَبَتْ، فَبَاتَتْ، وَهُوَ عَلَيْهَا سَاخِطٌ، لَعَنَتْهَا المَلائِكَةُ حَتَّىٰ تُصْبِحَ»[1]. أخرجاه فِي الصحيحين.

وقد تُفَرِّطُ المرأةُ في مَالِ زَوْجِهَا، ولا يَحِلُّ لَها أن تُخْرِجَ من بَيْتِهِ شَيْئًا، إلَّا أن يَأْذَنَ لَها، أو تَعْلَمَ رِضَاهُ، وقد تُعْطِي من يُنَجِّمُ لَها بالحَصَىٰ وَيَسْحَرُ، ومن تَعْمَلُ لَهَا نَخْسَةَ مَحَبَّةٍ وَعَقْدَ لِسَانٍ، وكلُّ هَذَا حرامٌ، وقد تستجيزُ ثَقْبَ آذانِ الأطفال، وهو حَرَامٌ.

فإن أَفْلَحَتْ وَحَضَرَتْ مَجْلِسَ الواعظ، فربَّما لَبِسَتْ خِرْقَةً من يد الشَّيخ الصُّوفيِّ، وَتُصَافِحُهُ، فصارت من بناتِ المِنْبَرِ، فخرجت إلَىٰ عجائب، وينبغي أن نَكُفَّ عنانَ العلم؛ اقتصارًا عَلَىٰ هَذِهِ النُّبْذَةِ؛ فَإِنَّ هَذَا الأَمْرَ يَطُولُ، ولو بَسَطْنَا النُّبَذَ المذكورةَ فِي هَذَا الكتاب، أو شَيَّدْنَا رَدَّنَا عَلَىٰ مَنْ رَدَدْنَا عليه بالأحاديث والآثار، لاجْتَمَعَتْ مُجَلَّدَاتٌ.

وإنَّما ذَكَرْنَا اليَسِيرَ لِيَدُلَّ عَلَىٰ الكثير، وقد اقْتَنَعْنَا فِي ذِكْرِ فَاحِشِ القبيح من أفعال الغالطين، بِنَفْسِ حكايتِه دونَ تعاطي رَدِّهِ؛ لأنَّ الأمرَ فيه ظاهرٌ، واللهُ يَعْصِمُنَا من الزَّلَلِ، ويُوَفِّقُنَا لصالحِ القَوْلِ والعمل، بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ.

(١) أخرجه البخاري (٥١٩٣)، ومسلم (١٤٣٦).

الباب الثالث عشر
في ذكر تلبيس إبليس على جميع الناس بطول الأمل

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: كم قد خطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ يَهُودِيٍّ وَنَصْرَانِيٍّ حُبُّ الإسلام، فلا يَزَالُ إبليسُ يُثَبِّطُهُ ويقول: لا تَعْجَلْ، وَتَمَهَّلْ فِي النَّظَرِ. فَيُسَوِّفُهُ حتَّىٰ يَمُوتَ عَلَىٰ كُفْرِهِ، وكذلك يُسَوِّفُ العاصي بالتَّوْبَةِ، فيجعل له غَرَضَهُ من الشَّهوات، وَيُمَنِّيهِ الإنابةَ، كما قال الشاعر:

لا تَعْجَلِ الذَّنْبَ لِمَا تَشْتَهِي وَتَأَمَّلِ التَّوْبَةَ مِنْ قَابِلِ

وكم من عازمٍ عَلَىٰ الجِدِّ سَوَّفَهُ، وكم ساعٍ إِلَىٰ فضيلةٍ ثَبَّطَهُ.

فلربَّما عَزَمَ الفَقِيهُ عَلَىٰ إعادة دَرْسِهِ فقال: اسْتَرِحْ ساعةً. أَوِ انْتَبَهَ العَابِدُ فِي اللَّيْلِ يصلِّي فقال له: عليك وَقْتٌ. ولا يزال يُحَبِّبُ الكَسَلَ ويسوِّف العَمَلَ، ويُسْنِدُ الأَمْرَ إِلَىٰ طُولِ الأَمَلِ.

فينبغي للحازم أن يَعْمَلَ عَلَىٰ الحَزْمِ، والحَزْمُ تداركُ الوقت، وتَرْكُ التَّسَوُّفِ، والإعراضُ عن الأَمَلِ؛ فَإِنَّ المخوفَ لا يُؤْمَنُ، والفواتَ لا يُبْعَثُ، وَسَبَبُ كلِّ تقصيرٍ فِي خَيْرٍ، أو مَيْلٍ إِلَىٰ شَرٍّ، طُولُ الأَمْرِ؛ فَإِنَّ الإنسانَ لا يَزَالُ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ بالنُّزوعِ عن الشَّرِّ، والإقبالِ عَلَىٰ الخَيْرِ، إِلَّا أَنَّه يَعِدُ نَفْسَهُ بذلك، ولا رَيْبَ أَنَّه مَنْ الأَمَلِ إذا مَشَىٰ بالنَّهارِ، سار سيرًا فاترًا، ومن أَمَّلَ أن يُصْبِحَ، عَمِلَ فِي اللَّيْلِ عَمَلًا ضعيفًا، ومن صَوَّرَ المَوْتَ عاجلًا جَدَّ، وقد قال ﷺ: «صَلِّ صَلاةَ مُوَدِّعٍ»[1].

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤١٧١) من حديث أبي أيوب رضي الله عنه وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٤٢).

قال بعض السَّلَفِ: أُنْذِرُكُم «سوف» فَإِنَّها أكبرُ جُنُودِ إبليس.

وَمَثَلُ العامل عَلَىٰ الحَزْمِ والسَّكَنِ لطول الأمر، كَمَثَلِ قوم فِي سَفَرٍ، فَدَخَلُوا قريةً، فَمَضَىٰ الحازمُ، فَاشْتَرَىٰ ما يَصْلُحُ لِتَمَامِ سَفَرِهِ، وَجَلَسَ مُتَأَهِّبًا للرَّحيل، وقال المُفَرِّطُ: سَأَتَأَهَّبُ، فَرُبَّمَا أَقَمْنَا شَهْرًا. فَضَرَبَ بُوقَ الرَّحِيلِ فِي الحال، فاغتبط المُحْتَرِزُ، واغْتَمَّ الآسِفُ المُفَرِّطُ.

فهَذَا مَثَلُ النَّاسِ فِي الدُّنيا؛ مِنْهُمُ المُسْتَعِدُّ المستيقظ، فإذا جاء مَلَكُ المَوْتِ لَمْ يَنْدَمْ، ومنهم المغرورُ المُسَوِّفُ، يتجرَّع مريرَ النَّدَمِ وَقْتَ الرِّحْلَةِ، فإذا كان فِي الطَّبْعِ حُبُّ التَّوَانِي، وطُولُ الأمل، ثُمَّ جاء إبليس يَحُثُّ عَلَىٰ العملِ بِمُقْتَضَىٰ ما فِي الطَّبْعِ، صَعُبَتِ المُجَاهَدَةُ، إِلَّا أَنَّه مَنِ انْتَبَهَ لِنَفْسِهِ، عَلِمَ أَنَّه فِي صَفِّ حَرْبٍ، وأَنَّ عَدُوَّهُ لا يَفْتُرُ عنه، فإن فَتَرَ فِي الظَّاهر، أبطن له مكيدةً، وأقام له كَمِينًا.

ونحن نسأل الله عَزَّوَجَلَّ السَّلامةَ من كَيْدِ العدوِّ، وَفِتَنِ الشيطان، وشر النُّفوس والدُّنيا، إنَّه قَرِيبٌ مُجِيبٌ، جَعَلَنَا اللهُ من أولئك المؤمنين.

تم والحمد لله أولاً وآخرًا

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات